سلسلة
أفلا يتدبرون القرآن

الجلال والجمال في أسلوب الالتفات في القرآن الكريم

دكتور
سامح القليني

مكتبة الصحابة
بطنطا و فروعها
ت:0403331587 - 01223780573

مكتبة وهبة
ش الجمهورية - عابدين - القاهرة
ت:239174700 - فاكس:23903746

سلسلة إعادة تذوق القرآن الكريم

الجلال والجمال

في

أسلوب الالتفات

في

القرآن الكريم

دكتور : سامح القليني

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ يونس.
﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ هود

عشت مع القرآن الكريم فترة طويلة من الزمن أتذوق فيها حلاوة القرآن الكريم وأستشعر جلاله وجماله.. أشعر فيه بجلال المتكلم، كما سنرى فى بحثنا هذا عن أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم، حيث لا يشك القارىء أو التالى له أن هناك مصدراً آخر يخاطبنا من خلاله، بل ويخاطب الحبيب محمد (ﷺ) كما يخاطبنا، فهناك مصدر علوى جليل يخاطب ويأمر ويتحدث، وما محمد(ﷺ) إلا واسطة فى تبليغ هذا الوحى الكريم من ذى الجلال والإكرام وليس له من الأمر شىء.

عشت مع القرآن الكريم فترة طويلة أتذوق فيها بلاغة الكلمة؛ بل وجلال وجمال الحرف فى موضعه، وكيف أنه لا يمكن أن تحل كلمة محل كلمة أو حرف محل حرف فى القرآن الكريم، حتى وإن أدرنا لسان اللغة العربية جميعه.. وحاولت أن أسجل بعضاً من ذلك فى موسوعة (إعجاز التكرار فى قصص القرآن(٤ مجلدات)) وأفردنا مجلداً عن المتشابهات وجرس الكلمة فى القرآن الكريم، وتم ذلك بفضل الله تعالى وتوفيقه.

وفى أثناء تلك الرحلة – التى أسميها رحلة العمر(ومن ذاق عرف)- ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط فى حياتى- شغلتنى عن نفسى وكيانى- وهى تكريم أى تكريم، وتشريف أى تشريف وأنا أتعامل مع أشرف كتاب أخاطب فيه رب العالمين ويخاطبنى به، وأقول فى نفسى وعلى الملأ: يا حسرة على العباد الذين يغفلون عن ذلك الجلال والجمال وهذا التكريم.. وحقاً كما يقول-صاحب الظلال- : الحياة فى ظلال القرآن نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها. نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكية.

ومن خلال هذه الرحلة مَنَّ الله علىَّ بواحدٍ من كنوز الجلال والجمال فى القرآن الكريم، يسير على نفس قواعد البلاغة والبيان التى عشناها مع مفردة الكلمة والمتشابهات فى القرآن الكريم ألا وهو (رسم الكلمة فى القرآن الكريم ، والتى نسميها برسم المصحف) ومدى علاقة ذلك ببلاغة الكلمة وجرسها، وكان ذلك محض التوفيق من الله وما سعيت إليه فى بداية الأمر﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التكوير. **وشاء الله، وشاء الله أن يكون ذلك البحث فى مجلدين عشت فيهما المتعة والإبهار**

فى رسم المصحف لم أكن أتخيل الوقوف عليه، ونفدت منه خمس طبعات فى أربعة أعوام كان النصيب الأكبر منها فى يد طالبى العلم والدارسين فى دور القرآن ومعاهده.

عشت هذه الرحلة الجميلة والجليلة وكنت فى كل رحلة منها أقف وقفات كثيرة مع أسلوب القرآن الكريم فى خطابه لنا أو لغيرنا أو لحبيبه محمد(ﷺ)، وأتعجب ،بل وأُذهَل من كيفية انتقاله السريع والعجيب بين ضمائر المخاطَبين، فتارة يخاطبنابصيغة الحاضر، وفى نفس السياق يتحدث عنا ويحكى أمرنا لغيرنا، ثم يستحضرنا مرة ثانية أمامه، ثم ينقلنا للحدث الماضى أو ينقل هذا الحدث الماضى وكأنه ماثل وحاضر أمام أعيننا، فصالح عليه السلام وقصته فى سحيق الزمان يحكيها لنا القرآن الكريم وكأنها حاضرة الآن بأحداثها وشخوصها على مسرح الأحداث أمامنا، ونحن ننتظر بشوق ولهفة مجريات الأحداث ونتيجتها وكأنها لم تأتِ نهايتها بعد، كما فى سورة القمر ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ – متى هذا الغد ولمن يتحدث؟– (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ – متى سيحدث هذا؟– (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨))–

إنه يصوره كأنه لم يحدث بعد!! رغم أنه حدث فى الماضى السحيق الذى يؤكده النص بعدها بقوله: (فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) ﴾

قدرة عجيبة ومذهلة على طى الزمن والحدث؛ فالماضى أصبح حاضراً، والحاضر يكون ماضياً، والقيامة أتت وهى لم تأت بعد ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ النحل: ١ وحضر السائق والشهيد.. ﴿ **وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ** ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) **وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ** ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) **وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ** مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) **لَّقَدْ كُنتَ فِى** غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) **وَقَالَ قَرِينُهُۥ** هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) .... (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) .... وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) ﴾ ق

وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يبنيان البيت (الآن)!! ونحن نشترك معهم فى الحدث، بل وندعوا معهما، ويوجه إلينا الأمر باتخاذ البيت مصلى ﴿ **وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ** إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ **قَالَ ...قَالَ ...** (١٢٤) **وَإِذْ جَعَلْنَا** ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا **وَٱتَّخِذُواْ** مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ .... إنه أمرٌ موجه إلينا– ونحن نشارك مع إبراهيم وإسماعيل فى الحدث

ونتوجه معهما فى الدعاء (الآن) وهو (يرفع) القواعد وليس(رفع) –في الماضي– بل هو يرفع الآن هكذا: وَإِذْ يَرْفَعُ –الآن– إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ البقرة.

فلم يعد الأمر حكاية حدث فى الماضى بل انتقال للحدث أمام أعيننا نراه حياً متحركاً شاخصاً نابضاً بالحياة ونحن نشارك فى صنع أحداثه.. إنه العجب كل العجب والإبهار كل الإبهار – وهى عبارة سنكررها كثيراً فى مشوارنا هذا–.

فليس هو الأسلوب الذى تعودناه فى كلام البشر وأساليبهم، وليس هو بكلام محمد (ﷺ) الذى يخاطبه هذا المصدر العلوى – مثلنا – بقوله﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ – هكذا بصفة الغائب؛"عبس"–هو–لأن الحبيب لا يواجه حبيبه بما يكره– ثم يلتفت إليه (ﷺ) بعد العتاب بالخطاب المباشر: (٢) وَمَا يُدْرِيكَ –أنت– لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) ...إلى أن يقول :﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) ﴾ عبس.

فهى "تذكرة"، وكان يجب أن تكون (فمن شاء ذكرها) ولكنه لم يفعل. فلماذا؟

ولقد فعلها كثيراً في مواطن كثيرة وهو يصف لنا رحمته سبحانه بالمحسنين فيقول ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ الأعراف. وكان يجب أن تكون (قريبة) ويتكرر السؤال: لماذا ؟ وتتكرر الدهشة

ويقول لرسوله (ﷺ) : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ (٢) ﴾ الكوثر. ويتساءل معى القارىء: لماذا لم يقل((إِنَّا) أَعْطَيْنَاكَ .. فصلِّ لنا)؟؟

وهذا الخطاب الذى رأيناه مع الحبيب (ﷺ) يكرره لنا النظم الكريم ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ آل عمران: ١٠٦ . ونسأل: لماذا لم يقل– كأسلوب البشر المعتاد– فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ – هم– ((أَكفَروا)) بَعْدَ إِيمَانهم..؟؟ لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟؟–

أمر عجيب ومذهل ويحتاج لوقفات ووقفات حول الدلالات واللطائف المبهرة.

وحينما أقرأ قوله تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ يونس: ٢٢ أقف مدهوشاً ومتسائلاً: لماذا لم يقل: وَجَرَيْنَ (بِكُمْ)؟

وأقرأ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ القيامة وأتساءل ويزداد التساؤل أيضاً: لماذا لم يقل (أولى له) (ثم أولى له)؟..

وأتسمع للنظم الحكيم يقول: ﴿ وَمَآ **ءَاتَيْتُم** مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ **فَأُو۟لَٰٓئِكَ** هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الروم. وأتساءل: لماذا لم يقل: (وَمَا (آتَيْتُمْ) .. (فأنتم المضعفون)؟ ويقول:.. ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الحجرات وأتساءل أيضاً: لماذا لم يقل (فأنتم الراشدون)؟ .

بل إننى أقرأ السياق ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ -(أنتم)- ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ -(هم)- بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ -(أنتم)- ٱلْجَنَّةَ **أَنتُمْ** وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ **عَلَيْهِم** بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ **وَأَنتُمْ** فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ الزخرف: وأتساءل بدهشة: من المتكلم ؟ ويكلم من فى كل فقرة ؟ وكيف تغير الخطاب فى آية واحدة أو عدة آيات– من غيبة(هم) لحضور(أنتم) ثم غيبة ثم حضور–والمخاطَب واحد وفى سياقٍ واحد بهذه السرعة العجيبة،

وأنا على يقين أن القارىء الكريم لو تعمق بفكره سيصاب بالدهشة والذهول وهو يقرأ قوله تعالى فى سورة الطور: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ – هم–رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟– انتم– هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الطور.

ومثلها قوله تعالى (وَقَالُوا .. أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦)..– فهذا قولهم وهم فى الدنيا ولكن النظم العجيب سينقلهم إلى الدار الآخرة و(قاعة المحاكمة) فى لحظة عين، بل وسينقلنا معهم ويخاطبنا ويخاطب الملائكة، ويتنقل برشاقة مدهشة، وينقل لنا المسرح لنشاهده بكل شخوصه (القاضى والمتهمين والملائكة والمشاهدين– نحن–) أمام الأعين هكذا: ﴿ قُلْ نَعَمْ **وَأَنتُمْ** دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ **فَإِذَا هُمْ** يَنظُرُونَ – بدلاً من "فإذا أنتم"– ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ **ٱلَّذِى كُنتُم** – بدلاً من "الذى كانوا به"– بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ

وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) – الحديث كما ترى تركهم وتوجه للملائكة آمراً لهم"احشروا"...وما كانوا يعبدون– وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) – فهم غائبون ثم حاضرون ثم غائبون ثم خطاب وأمر ولكنه للملائكة ؟ ولكن لينظر معى القارىء ويسأل نفسه: لمن سيكون الخطاب التالى؟: مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) إنه رجع للمتهمين، ثم سيشركنا بعدها بتوجيه القول لنا نحن الحاضرون والمشاهدون قائلاً: بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ الصافات هكذا.

نظم عجيب لا يستطيع هذا القلم العاجز تصويره، ولكنها محاولة كسيرة ألقيها أمام القارىء الكريم ليكمل هو بنفسه تذوق هذا الجلال وهذا الجمال!! ..

* ﴿ وَيَوْمَ **نُسَيِّرُ** ٱلْجِبَالَ **وَتَرَى** ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً **وَحَشَرْنَٰهُمْ** فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وأتساءل: لماذا لم يقل (ونحشرهم)؟..ثم هو سبحانه يتكلم عنهم (ونحشرهم) (**وَعُرِضُوا۟**) عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا **لَّقَدْ** (**جِئْتُمُونَا**)كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) (وعرضوا – هم– على ربك) ثم يغير الخطاب معهم بصورة عجيبة ومذهلة ليقول (لقد جئتمونا)، بدلاً من (لقد جاءونا) التي تتمشى مع السياق... ثم يتغير السياق حين وضع كتاب الأعمال ومواجهة المجهول المرعب وسيتكلم عنهم بصيغة الغيبة وبوصف الإجرام (وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ الكهف

ويظل السؤال الحائر قائماً مع مئات الشواهد والأمثلة التي سيعرضها علينا هذا البحث الجديد من نوعه ليبرز لنا أروع وأبهي صور الجلال والجمال والكمال

فلا يمكن أن يكون هذا القرءان من قول محمد (ﷺ) وهو يقول:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ – هو– بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا – نحن– حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ– نحن– **إِنَّهُۥ** (**هُوَ**)ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) ﴾ الإسراء. وها أنت ترى انتقالاً عجيباً يُقَصِّر فى الوقوف عليه أو بيانه لنا كثيرٌ من العلماء رغم براعته وروعته التى سنعيشها داخل البحث..

ومما يزيد ألمى وحيرتى أن ينقل لى كثير من أساتذة اللغة العربية وموجهيها– فى المرحلة الثانوية وغيرها– تحسرهم وألمهم الشديد من أنهم يُدَرِّسون للطلبة أسلوب الالتفات هذا من الكتب الدراسية وهى خالية من أمثال هذه الشواهد القرآنية، ويزداد

تألمهم هذا بعد أن يتذوقوا هذا الجلال والجمال في النظم القرءاني المبهر الذى سنعيشه فى رحلتنا هذه داخل البحث.

وتزداد الغرابة من خلو المكتبة الإسلامية من بحث متكامل فى هذا الباب- أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم- وإن كتب باحث فى ذلك فإنه ينشغل بسرد المصطلحات اللغوية والتعريفات- التى تصل إلى مائة صفحة- ثم لا يذكر إلا بعض الأمثلة القليلة التى لا تغنى من جوع القارىء، إلا ما ذكره الدكتور حسن طبل في كتابه(اسلوب الالتفات في اللغة العربية) الذى سننقل منه بعض الفوائد الكريمة التى تثرى بحثنا هذا، وهذا هو ما دفعنى للقيام بهذا البحث وإعادة تنقيحه وترتيبه داعياً الله أن يسد مسداً غالياً فى المكتبة الإسلامية وينفع به القارىء

وإن كان علماؤنا يكتفون بتعريف أسلوب الالتفات هذا بقولهم: هُوَ نَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى أُسْلُوبٍ آخَرَ تَطْرِيَةً وَاسْتِدْرَارًا لِلسَّامِعِ وَتَجْدِيدًا لِنَشَاطِهِ وَصِيَانَةً لِخَاطِرِهِ مِنَ الْمَلَالِ وَالضَّجَرِ بِدَوَامِ الْأُسْلُوبِ الْوَاحِدِ عَلَى سَمْعِهِ.. ويقول غيرهم: وقد لوَّن الأسلوب وَنَوَّعَهُ لِتَتَقَبَّلَ النَّفْسُ تَكْرَارَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وَلَا يَعْرِضُ لَهَا مِنْ تَرْتِيلِ آيَاتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَلَلِ.

وأقول: هذا كله حق لا مراء فيه، ونراه ونستمتع به على أرض الواقع فى كل آياته وسوره، ولكنه- بكل يقين كما سنرى- ليس هو السبب وحده، بل هو واحد من الأسباب العديدة، ووراء ذلك الجلال والجمال والمتعة والإبهار والمعاني الجليلة والشريفة التي سنستعرضها من بطون الكتب وقرائح الأفكار ومعها نعمة التذوق لكتابه الكريم الذى نحاول إبرازه فى بحثنا هذا.

وفى النهاية أدعو الله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ الفرقان

آمين .. آمين ..آمين.

دكتور : سامح القلينى

أسلوب الالتفات

وفيه مباحث :-

الأول : في حقيقته .

وسنعتمد هنا على تقسيم الإمام الزركشى – فى البرهان - ثم نبدأ بالانطلاق بعدها بالشرح والإضافة:

وَهُوَ نَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى أُسْلُوبٍ آخَرَ تَطْرِيَةً وَاسْتِدْرَارًا لِلسَّامِعِ وَتَجْدِيدًا لِنَشَاطِهِ وَصِيَانَةً لِخَاطِرِهِ مِنَ الْمَلَالِ وَالضَّجَرِ بِدَوَامِ الْأُسْلُوبِ الْوَاحِدِ عَلَى سَمْعِهِ كَمَا قِيلَ:

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِنْ كَانَتْ مُصَرَّفَةً ... إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

قَالَ حَازِمٌ فِي "مِنْهَاجِ الْبُلَغَاءِ": وَهُمْ يَسْأَمُونَ الِاسْتِمْرَارَ عَلَى ضَمِيرِ مُتَكَلِّمٍ أَوْ ضَمِيرِ مُخَاطَبٍ فَيَنْتَقِلُونَ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَتَلَاعَبُ الْمُتَكَلِّمُ بِضَمِيرِهِ فَتَارَةً يَجْعَلُهُ تاء عَلَى جِهَةِ الْإِخْبَارِ عَنْ نَفْسِهِ(١) وَتَارَةً يَجْعَلُهُ كافا فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ مُخَاطَبًا(٢) وَتَارَةً يَجْعَلُهُ هَاءً فَيُقِيمُ نَفْسَهُ مَقَامَ الْغَائِبِ(٣) فَلِذَلِكَ كَانَ الْكَلَامُ الْمُتَوَالِي فِيهِ ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُخَاطَبِ- أى استمرار توجه الخطاب فى اتجاه واحد وعلى نفس الضمير- لَا يُسْتَطَابُ وَإِنَّمَا يَحْسُنُ الِانْتِقَالُ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، وَهُوَ نَقْلٌ مَعْنَوِيٌّ لَا لَفْظِيٌّ وَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي الْمُتَنَقَّلِ إِلَيْهِ عَائِدًا فِي نَفْسِ الأمر إلى الملتفت عَنْهُ لِيَخْرُجَ نَحْوُ: أَكْرِمْ(أنت) زَيْدًا وَأَحْسِنْ إِلَيْهِ، فَضَمِيرُ أَنْتَ الَّذِي هُوَ فِي أَكْرِمْ غَيْرُ الضمير في إليه.)

---

(١) كأن يقول مخاطباً نفسه: أنتِ يا نفس.

(٢) كأن يقول مخاطباً نفسه: أنكِ يا نفس.

(٣) إنها نفسى.

هذا ما ذكره علماء البيان ونقله الإمام الزركشى لنا، وسوف نقوم ببيانه وتوضيحه على الصفحات التالية بمشيئة الله.

والالتفات كما يقول جمهور العلماء: التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة(أعني المتكلم والمخاطب والغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها).

يعنى أن يكون السياق عنه بصفة الحاضر ثم يخاطبه فى نفس السياق بصفة الغائب الذى يحدث عنه غيره ثم يستحضره مرة ثانية للخطاب والحضور وهكذا، وكذلك يخاطبه بصيغة الماضى ثم ينقلب إلى صيغة الحاضر أو الأمر والُمتحَدَّث إِليهِ واحد(٤)

وسنرى أن هناك ألواناً أخرى يكون الالتفات فيها بتغيير الضمائر – من الحاضر للغيبة أو العكس(**سبحان الذى أسرى (هو) بعبده...لنريه (نحن) من آياتنا(نحن) إنه (هو) السميع البصير ..** أو أن يتحدث عنه بصيغة المفرد ثم يتحول الخطاب عنه بصيغة الجمع أو المثنى أو العكس... وغيرها من الألوان الأخرى التى يكون الالتفات فيها من صيغة الفعل إلى صيغة الإسم ومن الإظهار إلى الإضمار.. وغير ذلك مما سنعيشه على الصفحات التالية

وتعريف الالتفات عند صاحب الطراز(يحيى العلوى): هو العدول من أسلوب فى الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول.(وهذا تعريف أوسع لأنه يشمل التغيير فى صيغة الفعل، بل وفى تحول الفعل للإسم ، أو التغيير فى الحرف والعدول فى أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، أو فى جرس الكلمة حيث إننا سنرى أنه من الالتفات أيضاً ما يسمى بالعدول الصوتى وهو ما أشبعناه بحثاً فى كتابنا موسوعة الجلال والجمال فى رسم الكلمة وجرسها فى القرآن الكريم، ومنها على سبيل المثال ورود كلمة (اسطاعوا) و (استطاعوا) فى سياق واحد.. وكذلك(تكن) و(تك) فى

---

(٤) (المدني: ج ١ / ٣٦٢). والتعريف الثاني هو لجمهور العلماء أمثال أبو حيان التوحيدي (أبو حيان: ج١/ ٢٤) ، وابن أبي الإصبع المصري (المصري: ص ٤٥)، وبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي(الزركشي ج٣ / ٣١٤-٣١٥)، وبهاء الدين السبكي(السبكي ج١/ ٤٦٣-٤٦٤). وهذا هو التعريف المختار للالتفات

آيات شبيهة والخطاب فيهما واحد وهو للنبى(ﷺ) هكذا: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ **وَلَا تَكُن فِي** ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ النمل. ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ **وَلَا تَكُ فِي** ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ النحل

وغير ذلك من آلاف الأمثلة التى عشناها فى موسوعتنا المذكورة ولذلك لن نقف عليها كثيراً فى هذا البحث ونكتفى بالإشارة إلى البعض منها.

ويقول صاحب المثل السائر في دقة هذا اللون من ألوان الالتفات:

"أعلم أيها المتوشح لمعرفة البيان أن العدول من صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهماً، وأغمضها طريقاً".

من بين هذه المصطلحات - فى تعريف أسلوب الالتفات - هى: "الصرف" - أى: صرف الحديث عن وجهته التى كان يسير عليها- و"**العدول**" — أى عن صيغة إلى أخرى كما سنرى- و"**الانصراف**" و"**التلون**" و"**مخالفة مقتضى الظاهر**" و"**شجاعة العربية**" **وما إلى ذلك مما سنعيشه على أرض الواقع ونستمتع به ونتذوقه.**

ويقول ابن الأثير: "وإنما سمي بذلك -"شجاعة العربية" - لأن الشجاعة هي الإقدام، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات".

* * *

الْبَحْثُ الثَّاني : فِي أَسْبَابِهِ.

اعْلَمْ أَنَّ لِلِالْتِفَاتِ فَوَائِدُ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ؛ فَمِنَ الْعَامَّةِ التَّفَنُّنُ وَالِانْتِقَالُ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى آخَرَ. لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَنْشِيطِ السَّامِعِ وَاسْتِجْلَابِ صفائه واتساع مجاري الكلام وتسهيل الوزن وَالْقَافِيَةِ.

ويقول صاحب تفسير المنار فى أمثال هذه الأنواع من الالتفات: **وَلَوَّنَ أَسَالِيبَ الْكَلَامِ فِيهَا، وَنَوَّعَهُ لِتَتَقَبَّلَ النَّفْسُ تَكْرَارَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وَلَا يَعْرِضُ لَهَا مِنْ تَرْتِيلِ آيَاتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَلَلِ.**

وَقَالَ الْبَيَانِيُّونَ: إِنَّ الْكَلَامَ إِذَا جَاءَ عَلَى أُسْلُوبٍ وَاحِدٍ وَطَالَ حَسُنَ تَغْيِيرُ الطَّرِيقَةِ.

ونازعهم القاضي شمس الدين بن الجوزي وَقَالَ: الظَّاهِرُ أَنَّ مُجَرَّدَ هَذَا لَا يَكْفِي فِي الْمُنَاسَبَةِ فَإِنَّا رَأَيْنَا كَلَامًا أَطْوَلَ فِي هَذَا وَالْأُسْلُوبُ مَحْفُوظٌ قَالَ تَعَالَى: **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات..}** إِلَى أَنْ ذَكَرَ عَشَرَةَ أَصْنَافٍ وَخَتَمَ بِـ **{الذاكرين الله كثيرا والذاكرات}** ، وَلَمْ يُغَيِّرِ الْأُسْلُوبَ وَإِنَّمَا الْمُنَاسَبَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرُ التَّقَلُّبِ وَقَلْبُهُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرحمن ويقلبه كَيْفَ يَشَاءُ فَإِنَّهُ يَكُونُ غَائِبًا فَيَحْضُرُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَآخَرُ يَكُونُ حَاضِرًا فَيَغِيبُ فَاللَّهُ تَعَالَى لما قال: **{الحمد لله رب العالمين}** تَنَبَّهَ السَّامِعُ وَحَضَرَ قَلْبُهُ فَقَالَ: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإياك نستعين}** .

وَأَمَّا الْخَاصَّةُ فَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَحَالِّهِ وَمَوَاقِعِ الْكَلَامِ فِيهِ عَلَى مَا يَقْصِدُهُ الْمُتَكَلِّمُ.

فَمِنْهَا: قَصْدُ تَعْظِيمِ شَأْنِ الْمُخَاطَبِ، كَمَا فِي: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رب العالمين}** ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا افْتَتَحَ حَمْدَ مَوْلَاهُ بِقَوْلِهِ: [الْحَمْدُ لِلَّهِ] الدَّالِّ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالْحَمْدِ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ التَّحَرُّكَ لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا انتقل إلى قوله: **{رب العالمين}** الدَّالِّ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ لِجَمِيعِهِمْ قَوِيَ تَحَرُّكُهُ، فَإِذَا قال: **{الرحمن الرحيم}** الدَّالُّ عَلَى أَنَّهُ مُنْعِمٌ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا تَزَايَدَ التَّحَرُّكُ عِنْدَهُ، فَإِذَا وَصَلَ لِـ **{مالك يوم الدين}**

وهو خاتمة الصافات الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَالِكُ الْأَمْرِ يَوْمَ الْجزَاءِ فَيَتَأَهَّبُ قُرْبَهُ وَتَيَقَّنَ الْإِقْبَالُ عَلَيْهِ بِتَخْصِيصِهِ بِغَايَةِ الْخُضُوعِ وَالِاسْتِعَانَةِ فِي الْمُهِمَّاتِ.

وَقِيلَ: إِنَّمَا اخْتِيرَ لِلْحَمْدِ لَفْظُ الْغَيْبَةِ **وَلِلْعِبَادَةِ الْخِطَابُ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْحَمْدَ دُونَ الْعِبَادَةِ فِي الرُّتْبَةِ فَإِنَّكَ تَحْمَدُ نَظِيرَكَ وَلَا تَعْبُدُهُ** إِذِ الْإِنْسَانُ يَحْمَدُ مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَعْبُدُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ اسْتُعْمِلَ لَفْظُ الْحَمْدِ لِتَوَسُّطِهِ مَعَ الْغَيْبَةِ فِي الْخَبَرِ فَقَالَ: [الْحَمْدُ لِلَّهِ] وَلَمْ يَقُلْ: [الْحَمْدُ لَكَ] وَلَفْظُ الْعِبَادَةِ مَعَ الْخِطَابِ فَقَالَ: {إِيَّاكَ نعبد} لينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة على مَا هُوَ أَعْلَى رُتْبَةً وَذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ التَّأَدُّبِ. وَعَلَى نَحْوٍ مِنْ ذَلِكَ جَاءَ آخِرُ السورة فقال: {الذين أنعمت عليهم} مُصَرِّحًا بِذِكْرِ الْمُنْعِمِ وَإِسْنَادِ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ لَفْظًا ولم يقل: [صراط المنعم عليهم] فَلَمَّا صَارَ إِلَى ذِكْرِ الْغَضَبِ رَوَى عَنْهُ لَفْظَ الْغَضَبِ فِي النِّسْبَةِ إِلَيْهِ لَفْظًا وَجَاءَ بِاللَّفْظِ مُتَحَرِّفًا عَنْ ذِكْرِ الْغَاضِبِ فَلَمْ يَقُلْ غَيْرِ الَّذِينَ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ تَفَادِيًا عَنْ نِسْبَةِ الْغَضَبِ فِي اللَّفْظِ حَالَ الْمُوَاجَهَةِ.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا** ﴾ ، فَإِنَّ التَّأَدُّبَ فِي الْغَيْبَةِ دُونَ الْخِطَابِ.(فإذا مدحته فى حضوره فربما أتهم بالنفاق، فكان لفظ الحمد بالغيبة أولى وأكمل)

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْحَقِيقَ بِالْحَمْدِ قال(الله) وَأَجْرَى عَلَيْهِ بالصفات الْعَظِيمَةِ مِنْ كَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ وَرَحْمَانًا وَرَحِيمًا وَمَالِكًا لِيَوْمِ الدِّينِ تَعَلَّقَ الْعِلْمُ بِمَعْلُومٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ حَقِيقٍ بِأَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا دُونَ غَيْرِهِ مُسْتَعَانًا بِهِ فَخُوطِبَ بِذَلِكَ لِتَمَيُّزِهِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ كُلِّهِ حَتَّى كَأَنَّهُ قِيلَ إِيَّاكَ يَا مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ نَخُصُّ بِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ لا غيرك.

قيل: ومن لطائف التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ مُبْتَدَأَ الْخَلْقِ الْغَيْبَةُ مِنْهُمْ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَقُصُورُهُمْ عَنْ مُحَاضَرَتِهِ وَمُخَاطَبَتِهِ وَقِيَامُ حِجَابِ الْعَظَمَةِ عَلَيْهِمْ فَإِذَا عَرَفُوهُ بِمَا هُوَ لَهُ وَتَوَسَّلُوا لِلْقُرْبِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَأَقَرُّوا بِالْمَحَامِدِ لَهُ وَتَعَبَّدُوا لَهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِمْ تَأَهَّلُوا لِمُخَاطَبَاتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ فَقَالُوا: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** .

وَفِيهِ أَنَّهُمْ يُبْدُونَ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ دُعَاءٍ لَهُ سُبْحَانَهُ وَمُنَاجَاةٍ لَهُ صِفَاتِ عَظَمَتِهِ لِمُخَاطَبَتِهِ عَلَى الْأَدَبِ وَالتَّعْظِيمِ لَا عَنِ الْغَفْلَةِ وَالْإِغْفَالِ ولا عن اللعب والاستخفاف كما يَدْعُو بِلَا نِيَّةٍ أَوْ عَلَى تَلَعُّبٍ وَغَفْلَةٍ وَهُمْ كَثِيرٌ.

(وكأنه يفسر حديث النبى (ﷺ): إن الله لا يقبل دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ، وفى حال الاصطفاف للعبادة والصلاة يقول لهم: اجعلوا الله **أمامكم**، وأكرر القول بأن كل تلك المعانى لابد من الوقوف عليها طويلاً واستحضارها مع كل الأمثلة التالية).

وَمِنْهُ أَنَّ مُنَاجَاتَهُ لَا تَصْعَدُ إلا إذا تطهر مِنْ أَدْنَاسِ الْجَهَالَةِ بِهِ كَمَا لَا تَسْجُدُ الْأَعْضَاءُ إِلَّا بَعْدَ التَّطْهِيرِ مِنْ حَدَثِ الْأَجْسَامِ وَلِذَلِكَ قُدِّمَتِ الِاسْتِعَاذَةُ عَلَى الْقُرْآنِ.

****

وظيفة الالتفات وبعض الأمثلة من اللغة:

وقد عرفت اللغة العربية أمثلة من هذا الالتفات والقرآن الكريم نزل بلغة القوم وتحداهم فى لغتهم هذه وقال عنه سبحانه (بلسان عربى مبين) ولكننا – كما سنرى- سنجد – كغيره من كل فنون البلاغة والبيان- أنه وصل به إلى قمة الكمال والجمال والسلاسة بحيث لا يشعر به القارىء له إلا بعد إعادة التأمل والتدبر مرات ومرات

وأذكر مثالاً من اللغة يقول فيه الشاعر

ونذكر نموذجاً لهذا الالتفات في أبيات امرئ القيس التي يقول فيها:

تطاول (ليلكِ) بالإثمـــــــد ونام الخلي ولم ترقـــــدِ
وبات وباتت له ليـــلـــة كليـلة ذي العاثر الأرمـد
وذلك من نبأ جـــــاءني وخبرته عن أبي الأســـــود

الشاعر يخاطب نفسه كأنها شخص آخر أمامه فتارة يخاطبها بخطاب مباشر، فيقول لها (تطاول ليلكِ- أنت-)- أى أنت يانفسى، وكذلك يقول لها (ونام الخلي

ولم ترقد- أنت-) ثم خاطب شخصه بصيغة الغائب(وبات-هو- وباتت له - هو- ليلـة) ثم يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم (وذلك من نبأ جاءني- أنا-) (وخبرته- أنا-).

ونسوق لذلك مثالاً آخر يقول فيه الشاعر:

بأني قد (لقيت) الغول تهوى بشهب كالصحيفة صحصحان
(فأضربها) بلا دهشٍ (فخرت) صريعاً لليديـن وللجـــران

وهنا نلاحظ الالتفات في إيثار الشاعر لصيغة المضارع في البيت الثاني في قوله "فأضربها" عدولاً عن صيغة الماضي التي ورد عليها الفعل "لقيت" في البيت الأول، وفاعل الفعلين واحد وهو الشاعر، ومفعولهما – المضروب-كذلك واحد وهو "الغول"، ومعنى ذلك أنه كان يمكن للشاعر أن يستمر على نسق الماضي فيقول: "فضربتها"، ولكنه آثر صيغة المضارع لأنها هى الصيغة التى تنقل المشهد لنا كأنه حاضر أمام الأعين،

وهو نفس ما ذكرناه وعشناه فى استجلاء قصة نوح عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿ **{وَأُوحِيَ } إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ {وَيَصْنَعُ } ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾** ﴾.

حيث قال((**وَيَصْنَعُ**)) **الْفُلْكَ**، وكان حقها – فى غير النظم القرآنى- أن يقول: وصنع الفلك، تمشياً مع صيغة الماضى فى قوله (**وَأُوحِيَ**) **إِلَى نُوحٍ**..

وذلك كما يقول الإمام أبو السعود: **{وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ }** حكايةُ حال ماضيةٍ لاستحضار صورتِها العجيبةِ، وقيل تقديرُه وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع، وأيا ما كان ففيه ملأمة للاستمرار المفهومِ من الجملة الواقعةِ حالاً من ضميره أعني قوله تعالى {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مّن قومه سخروا منه} استهزءوا به لعمله السفينةَ،،، وزاد الإمام الطاهر قوله: عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ وَاصْنَعِ

الْفُلْكَ (هود: ٣٧) ، أَيْ أُوحِيَ إِلَيْهِ اصْنَعِ الْفُلْكَ، وَصَنَعَ الْفُلْكَ. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ صُنْعِهِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِاسْتِحْضَارِ الْحَالَةِ لِتَخْيِيلِ السَّامِعِ أَنَّ نُوحًا- عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِصَدَدِ الْعَمَلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (فاطر: ٩) وَقَوْلِهِ: **(يُجادِلُنا) فِي قَوْمِ لُوطٍ** (هود: ٧٤) – فى قوله تعالى﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ **يُجَٰدِلُنَا** فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ وكان حقها أن يقال(جادلنا) فى قوم لوط.(فاستحضار صورذذة المجادلة عن لوط ، هو رمز لرحمة إبراهيم وشفقته، ولذلك ورد بعدها قوله تعالى:(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) ولم ترد فى غيرها من السور.

****

فائدة في تكرار الالتفات في موضع واحد

وَقَدْ تَكَرَّرَ الِالْتِفَاتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ **لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴿١﴾ ﴾ الاسراء. فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ، فَانْتَقَلَ عَنِ الْغَيْبَةِ فِي قوله: **(سبحان الذي أسرى بعبده)** ، إلى التكلم في قوله: **(باركنا حوله)** ثُمَّ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: (ليريه) بِالْيَاءِ عَلَى قِرَاءَةِ الْحَسَنِ ثُمَّ عَنِ الْغَيْبَةِ إلى التكلم في قوله: (آياتنا) ثُمَّ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: (**إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**) . وسنعود إليها بعد قليل على الصفحات التالية.

وَكَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ فَإِنَّ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى قوله: **{مالك يوم الدين}** أُسْلُوبُ غَيْبَةٍ ثُمَّ الْتَفَتَ بِقَوْلِهِ: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإياك نستعين}** إلى أُسْلُوبِ خِطَابٍ فِي قَوْلِهِ: **{أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}** ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْغَيْبَةِ بِقَوْلِهِ: **{غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عليهم}** وَلَمْ يَقُلِ (الَّذِينَ غَضِبْتَ) كَمَا قَالَ: **{أَنْعَمْتَ عليهم}** . (وهكذا يكون الالتفات هنا مشيراً إلى تصاعد الإحساس بالجلال حتى تخلص النفس فى مراحل عروجها من شئونها الأرضية فتشافه الحق وتعلن هناك غاية العبودية والاستسلام (فتكون صيغة الحضور بعد الغيبة).

****

ثالثاً : أقسام الالتفات

ينقسم الالتفات من الناحية العقلية إلى ستة أقسام هي :

الأول : الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة.

ومن أمثلة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى** { **يُسَيِّرُكُمْ** } فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ { **وَجَرَيْنَ بِهِم** } بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (يونس) حيث خاطبهم الله سبحانه بقوله: { كنتم } وتغيّر الأسلوب إلى الغيبة { وجرين بهم }وكان يجب أن يكون- فى غير النظم القرآنى-(وجرين بكم) وهو ما سنعيش تفصيله على الصفحات التالية التى هى موضوع بحثنا.

الثاني : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

ومن أمثلة الالتفات قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ** } نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (الفاتحة) حيثُ التفتَ من أسلوب الغيبة بقوله { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ } إلى أسلوب الخطاب بقوله {**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ** نَسْتَعِينُ } وكان حقه أن يكون(إياه نعبد). فهو تغير من الغيبة إلى الخطاب

الثالث : الالتفات من التكلم إلى الخطاب...

ومثاله﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى -أنا- وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ - أنتم- ﴿٢٢﴾ ﴾ يس.

الرابع : الالتفات من الخطاب إلى التكلم.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُمَثِّلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ** أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ **إِنَّ رُسُلَنَا** يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ يونس. عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَزَّلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْمُخَاطَبِ فقال:(رُسُلَنَا)

الخامس : الالتفات من الغيبة إلى التكلم.

وذلك فى قوله تعالى﴿ ثُمَّ ذَهَبَ – هو– إِلَىٰٓ **أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ** (٣٣) **أَوۡلَىٰ لَكَ**– أنت– فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) ﴾ (القيامة) .. ومثله قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ** ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا **فَسُقۡنَٰهُ** إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ **فَأَحۡيَيۡنَا** بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (٩) ﴾ فاطر. فهو تحول من الغائب إلى التكلم.

السادس : الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

مثال قوله تعالى: ﴿ **إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ** ٱلۡكَوۡثَرَ (١) **فَصَلِّ لِرَبِّكَ** وَٱنۡحَرۡ (٢) ﴾

قال (**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ**) فجاء بالكلام على طريقة التكلم ثم انتقل إلى الغيبة فى قوله (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**) ومقتضى الظاهر أن يقول: فصل لنا، وفيه إشارة إلى حثه على الصلاة لأنها لربه الذى رعاه ورباه فكأنه يقوى داعى الصلاة بذكر ربه.

****

وقفة أخرى - بالتفصيل بعد الإيجاز - فِي أَقْسَامِهِ.

**الْأَوَّلُ : الِالْتِفَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخِطَابِ.

وَوَجْهُهُ حَثُّ السَّامِعِ وَبَعْثُهُ عَلَى الِاسْتِمَاعِ حَيْثُ أَقْبَلَ الْمُتَكَلِّمُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ أَعْطَاهُ فضل عناية وتخصيص بِالْمُوَاجَهَةِ – فبعد أن كان يتكلم عنه أصبح يواجهه بالكلام المباشر إشراكاً له فى الحديث اهتماماً بالأمر واهتماماً به–كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي –**أنا**– وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ – **أنتم**– (٢٢) ﴾ **يس.**

الْأَصْلُ: "وَإِلَيْهِ أَرْجِعُ"، فَالْتَفَتَ مِنَ التَّكَلُّمِ– أنا– إِلَى الْخِطَابِ– **تُرْجَعُون** أنتم– وَفَائِدَتُهُ أَنَّهُ أَخْرَجَ الْكَلَامَ فِي مَعْرِض مُنَاصَحَتِهِ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يُرِيدُ نُصْحَ قَوْمِهِ تَلَطُّفًا وإعلاما أنه يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهِمْ لِكَوْنِهِ فِي مَقَامِ تَخْوِيفِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ. (فقد كان يكلم نفسه وينصحها (**وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ**– أنا– **الَّذِي فَطَرَنِي**) ثم أراد أن يعلمهم أنه ينصحهم بما ينصح به نفسه ويخوفهم بما يخوف به نفسه فقال (وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ – أنتم–) وكان حق السياق أن ينصح نفسه فيقول:(وإليه أرجع)

وهنا سيفقد السياق حرارته من شدة التحذير لهم وتنبيههم إلى أنهم صائرون إلى الله وراجعون إليه.

ثم يبين فائدة أخرى لهذا الالتفات فيقول: وَمَعَ ذَلِكَ أَفَادَ فَائِدَةً حَسَنَةً وَهِيَ أَنَّهُ نَبَّهَهُمْ أَنَّهُمْ مِثْلُهُ فِي وُجُوبِ عِبَادَةِ مَنْ إِلَيْهِ الرُّجُوعُ (له ولهم).

وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْمَهُ لَمَّا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ عِبَادَتَهُ لِلَّهِ أَخْرَجَ الْكَلَامَ مَعَهُمْ بِحَسْبِ حَالِهِمْ(٥)، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ يَقْبُحُ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَعْبُدُ فَاطِرَهُ وَمُبْدِعَهُ ثم حذرهم بقوله: {وإليه ترجعون} .((وكان حق السياق أن يقول: وإليه أرجع، ولكنه جاء على طريقة الالتفات، وفيه شدة تحذير لهم وتنبيه إلى أنهم صائرون إلى الله وراجعون إليه ولا يتأتى هذا لو قال: وإليه أرجع))

**وَمِنْهُ قوله: { رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ }في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ④ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ
⑤ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ⑥ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ
⑧ ﴾الدخان.**

عَدَلَ عَنْ قَوْلِهِ: {رَحْمَةً مِنَّا} إِلَى قَوْلِهِ: { رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ } لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِشْعَارِ بِأَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ تَقْتَضِي رَحْمَتَهُ(٦) وَأَنَّهُ رَحِيمٌ بِعَبْدِهِ كَقَوْلِهِ: **{كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ}** .وهذا لا يظهر فى قوله (رحمة منا) على ما يقتضيه السياق.

وقيل أيضاً: وكان يجب أن يقال (رحمة منا ..) ولكن هذا الالتفات هيأ خطاب رسول الله (ﷺ) وهو المُنَزَّل عليه الكتاب، ولو قال (رحمة منا) لما كان هناك سبيل إلى ذكره (ﷺ).

---

(٥) فهم لا يخشون الرجوع إلى الله ولا يؤمنون به.

(٦) فهو يرحمه لأنه ربه الذى رباه، ولو قال : رحمة منا– على شاكلة النظم – لما أفاد ذلك المعنى ولما أشار إليه.

ويمكن لنا أن نضع هذا اللون من الالتفات ولكن تحت **عنوان وضع الظاهر**(**رحمة من ربك**) **موضع المضمر**(حيث كان حق السياق أن يكون: "رحمة منا") وَلَكِنَّهُ وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ لِلْإِنْذَارِ بِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ (رحمة **من ربك**) تَقْتَضِي الرَّحْمَةَ لِلْمَرْبُوبِينَ لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ.

أَوْ لِتَخْصِيصِ النَّبِيِّ (ﷺ) بِالذِّكْرِ- ربك-.

وأقول معقباً :

لابد للقارىء الكريم من التذكر دائماً والاسترجاع لمثل هذه المقدمات التى ستتكرر الإشارة لمضمونها فى الأمثلة الكثيرة التى سنوردها فى هذا البحث، فحينما يلتفت السياق للإلتفات ولإظهار اسم الرب فذلك لما يشير إليه هذا الاسم الجليل من هذه المعانى التى يشير إليها الإمام ابن القيم فى كتابه "أسماء الله الحسنى" بقوله: عن العباس رضى الله عنه أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: ذاق طعم الإيمان من رضى بالله (ربا)، وبالإسلام دينا، وبمحمد (ﷺ) رسولاً... وقال الحليمى فى معنى الرب: هو المبلغ كل ما أبدع حد كماله الذى قدر له، فهو يسل النطفة من الصلب ثم يجعلها علقه، ثم العلقة مضغة،...الخ. وقيل إن الرب هو المالك.. وقيل الرب هو المصلح والجابر والمدبر والقائم...

فحينما يلتفت إلى صفة الرب فإنه يريد معايشة وتذكر هذه المعانى ، ومنها قوله تعالى:{ادعوا ربكم} { اعْبُدُوا رَبَّكُمُ .. وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .. ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ.. أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ .. وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ.. أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ .. وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ.. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ.. فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ – للمطيعين، ولكنه مؤدب للعاصين- وهى من صفات الربوبية فقال بعدها: **وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}**

ومثلها (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ.. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ .. يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ .. نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ

يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.. وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) وَهُوَ كَثِيرٌ (فلا بد من إظهار صفة الربوبية لإبراز هذا المعنى)

****

ونعود بعد هذه الوقفة لأسلوب الالتفات فى قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ – وكان حقها أن تقال(فصل لنا)– ولو قالها كذلك لما وردت الإشارة والتنبيه على صفة الربوبية التى يريد أن يُذكِّر بها هنا، مع اقترانها بالحبيب(ﷺ) - لربك-) وكأنه يقول له (صل لحبيبك والراعى والحافظ لك ومالك الملوك والمملوكين وجميع المربوبين). ولذلك جاء هذا الالتفات.

وقيل أيضاً:

حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: [**فَصَلِّ** لَنَا] تَحْرِيضًا عَلَى فِعْلِ الصَّلَاةِ لِحَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ.(وفيها إشارة إلى حثه على الصلاة لأنها لربه الذى رعاه ورباه، فكأنه يقوى داعى الصلاة بذكر ربه ، فالذى يريد الإشارة إليه– والالتفات إليه– هو صفة ورمز الربوبية).

لكنه فى مواطن أخرى يريد النظم أن يلفتنا إلى صفة الألوهية - التى تشير إلى صفات العظمة والقدرة له سبحانه والعبادة والخضوع من العابد لهذا الإله المعبود–أى من له صفات الجلال والكمال– فهنا نجد النظم يلتفت إلى صفة الألوهية (الله)

وفيها يقول الإمام ابن القيم:

(اسم (الله) جل جلاله هو الجامع، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه فيقال: الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء(الله) ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، قال تعالى(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى).. فعلم أن اسمه"الله" مستلزم لجميع معانى أسماء الله الحسنى

ويقول السعدى: فإذا تدبر اسم الله عرف أن الله تعالى له جميع معاني الألوهيّة، وهي كمال الصفات والإنفراد بها، وعدم الشريك..

**** وبعد هذا العرض لما يشير إليه الاسم الجليل (الله) نعود لضرب الأمثلة التى يكون الالتفات فيها لهذا الاسم الجليل ومنها:**

قَوْلُهُ: ﴿ **إِنَّا (فَتَحْنَا) لَكَ فَتْحًا مبينا ليغفر لك (الله)** ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: [لِنَغْفِرَ لَكَ] تَعْلِيقًا لِهَذِهِ الْمَغْفِرَةِ التَّامَّةِ بِاسْمِهِ(الله) الْمُتَضَمِّنِ لِسَائِرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى (ليغفر لك الله) (٧)، وهذا لا يظهر فى قولنا (لنغفر لك) الذى سيسأل فيه السائل: من الذى سيغفر للنبى وما صفته، وهل هناك من يملك القدرة والسلطان على أن يمنع وصول هذه المغفرة؟.. وَلِهَذَا عَلَّقَ بِهِ-أى: (الله)- النَّصْرَ **{وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزاً}** فَقَالَ: ﴿ **إِنَّا (فَتَحْنَا) لَكَ فَتْحًا مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ (اللَّهُ) مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ (اللَّهُ) نَصْرًا عَزِيزًا (٣)** ﴾.لإبراز لفظ الجلالة (الله) الذى يُعلم من مدلوله جمع صفات الجلال والجمال والكمال معاً والنصر والعزة فى هذا الإسم الشريف الذى يعلمه المؤمن والكافر أيضاً؛ وكأنه يقول له: الذى سيغفر لك هو الرحيم وهو العليم وهو الحكيم وهو القادر وهو .. وهو.. من له الأسماء الحسنى والصفات العلى المجتمعة تحت هذا الاسم (الله).

****

الثَّانِي: مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ.

وقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)** ﴾ الأعراف. ولم يقل: **فَآمِنُوا بِاللَّهِ** و(بي). والالتفات إلى الاسم الظاهر (ورسوله) هيأ إلى الأوصاف المذكورة بعده (ا **وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ**) وهى أوصاف مهمة فى السياق لأنها تحث على الإيمان به، وكأن الرسول (ﷺ) يدعوهم إلى تصديقه لا لذاته ولكن لهذه الأوصاف، أى كونه رسولاً أميّاً، وهذه الأوصاف تتضمن البرهان على رسالته.

---

(٧)-(الله) وهو الإسم الجامع لكل الأسماء الحسنى وخاصة ما يتعلق منها بصفة الألوهية والعبودية-

وله فَائِدَتَانِ– كما يرى الإمام الزركشى–:.

إِحْدَاهُمَا : دَفْعُ التُّهْمَةِ عَنْ نَفْسِهِ بِالْعَصَبِيَّةِ لَهَا،

وَالثَّانِي: تَنْبِيهُهُمْ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ الِاتِّبَاعَ بِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْأُمِّيَّةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِهِ– بأن جاء بهذه المعجزة التى أعجزت فطاحل اللغة والبيان رغم أنه أمى– وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الِاتِّبَاعَ لِذَاتِهِ بَلْ لِهَذِهِ الْخَصَائِصِ(الرسول النبى..).

** ومثلها : **﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى (الرَّسُولِ) إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾** وكان يجب أن يقول(وما عليه إلا البلاغ المبين) ولكنه حدث الالتفات للمعانى السابقة فى المثال السابق.

****

** ومثلها فى العدول إلى الصفة

كما فى قوله ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ النور– ولم يقل(ظننتم بأنفسكم) – لأنه فى هذه الحالة من التوبيخ والعتاب لا يريد أن يكرمهم بتوجيه الخطاب المباشر لهم– وهم الذين خاضوا فى حادثة الإفك–، وسيخاطبهم خطاب الغائب ، وكأنه يصف أشخاصاً آخرين– **ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا** – وكأنهم ليسوا بالمؤمنين والمؤمنات، وأنه يوجه خطابه للمؤمنين والمؤمنات – توبيخاً لهم على ما فعلوه–، وكأنه يقول لهم لو كنتم مؤمنين ومؤمنات ما فعلتم ذلك.

ويقول الإمام الطاهر: **وَالْعُدُولُ عَنْ ضَمِيرِ الْخِطَابِ** فِي إِسْنَادِ فِعْلِ الظَّنِّ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ الْتِفَاتٌ، فَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: ظَنَنْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، فَعَدَلَ عَنِ الْخِطَابِ **لِلِاهْتِمَامِ بِالتَّوْبِيخِ** فَإِنَّ الِالْتِفَاتَ ضَرْبٌ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ، **وَلِيُصَرِّحَ بِلَفْظِ الْإِيمَانِ، دَلَالَةً عَلَى أَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الْإِيمَانِ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُصَدِّقَ مُؤْمِنٌ**

عَلَى أَخِيهِ وَأُخْتِهِ فِي الدِّينِ وَلَا مُؤْمِنَةٌ عَلَى أَخِيهَا وَأُخْتِهَا فِي الدِّينِ قَوْلَ عَائِبٍ وَلَا طَاعِنٍ. وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ إِذَا سَمِعَ قَالَةً فِي مُؤْمِنٍ أَنْ يَبْنِيَ الْأَمْرَ فِيهَا عَلَى الظَّنِّ لَا عَلَى الشَّكِّ ثُمَّ يَنْظُرَ فِي قَرَائِنِ الْأَحْوَالِ وَصَلَاحِيَّةِ الْمَقَامِ فَإِذَا نُسِبَ سوء إِلَى من عُرْفٍ بِالْخَيْرِ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ إِفْكٌ وَبُهْتَانٌ حَتَّى يَتَّضِحَ الْبُرْهَانُ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ ظَنَّ السَّوْءِ الَّذِي وَقَعَ هُوَ مِنْ خِصَالِ النِّفَاقِ الَّتِي سَرَتْ لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ غُرُورٍ وَقِلَّةِ بَصَارَةٍ فَكَفَى بِذَلِكَ تَشْنِيعًا لَهُ.

وهو نفس قول الإمام الزمخشرى ولكنه يضيف قائلاً: وهذا من الأدب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه بأخوات.

ويكمل الإمام الطاهر ملفتاً جميلاً فى قوله: فَأَسْنَدَ السَّمَاعَ إِلَى جَمِيعِ الْمُخَاطَبِينَ (لولا إذ سمعتموه-أنتم-) وَخَصَّ بِالتَّوْبِيخِ مَنْ سَمِعُوا وَلَمْ يُكَذِّبُوا الْخَبَرَ-(ظن المؤمنون والمؤمنات) فمن سمع ولم يكذب هو غير المؤمن وغير المؤمنة-.

ثم يقول: وَجَرَى الْكَلَامُ عَلَى الْإِبْهَامِ فِي التَّوْبِيخِ بِطَرِيقَةِ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ(٨) وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ دُونَ عَدَدِ الْجَمْعِ، فَإِنَّ **مَنْ لَمْ يَظُنَّ خَيْرًا رَجُلَانِ**، فَعَبَّرَ عَنْهُمَا بِالْمُؤْمِنِينَ (وهو جمع) وَامْرَأَةٌ فَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْمُؤْمِنَاتِ(وهى جمع) فقال (**ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ**) عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: **الَّذِينَ قالَ لَهُمُ "النَّاسُ"** (وهو فرد واحد جاء للنبى (ﷺ) وقال له): **إِنَّ "النَّاسَ" قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ** (وهذه "الناس" الثانية هنا يقصد بها كفار قريش، فجاءت على مطابقة الأصل من الجمع) [آل عمران: ١٧٣].

---

(٨) فلا يحدد فاعل الجرم حتى يتوه السامع ولا يعرف الفاعل لهذا الجرم وهو من باب الستر والأدب- كما كان يفعل النبى (ﷺ) مع فاعل الجرم ، فلا يذكره أو يفرده فى الحديث ولكنه يعمم الحديث بصيغة الجمع فيقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا-فلا يذهب الذهن لفاعل هذا الجرم،ستراً عليه- وكما يكررها القرآن كثيراً فى قوله لنبيه (فلا تكونن من الجاهلين)، ولم يقل له: فلا تكونن جاهلاً.. وهكذا الحال هنا ففى حال السماع يعمم بصيغة الجمع فيقول لولا إذ سمعتموه)

(وأقول: هذا ملفت جميل سنتحدث عنه فى باب الأدب، وهو أنه فى حال التوبيخ يأت بالتعميم ولايواجه حبيبه بما يكرهه بالخطاب المباشر بل يتكلم عنه بصيغة الغائب أو التعميم كقول النبى(ﷺ)- ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا-، أما فى حالة العتاب الرقيق والنصح فإنه يواجهه، وذلك مثال عتابه للحبيب محمد (ﷺ) حينما عبس فى وجه ابن مكتوم حيث قال عنه (**عَبَسَ وَتَوَلَّى**- "هو" محمد(ﷺ)- **أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢)** – "هو" محمد(ﷺ)- فهو خطاب الغائب فى حالة العتاب الشديد؛ فإن الحبيب لا يواجه حبيبه بما يكره، أما فى باقى السياق بعدها الذى يمتلئ بالنصح والعتاب الرقيق فإنه يواجهه حينئذٍ بالخطاب المباشر **هكذا:** ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ**- أنت- **لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ** - أنت- **أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ**- أنت- **يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)** ﴾

وكما يقول بعض العلماء: **وَأَرَادَ بِالِانْتِقَالِ إِلَى الْغَيْبَةِ الْإِبْقَاءَ عَلَى الْمُخَاطَبِ مِنْ قَرْعِهِ فِي الْوَجْهِ بِسِهَامِ الْهَجْرِ**(٩) **فَالْغِيبَةُ أَرْوَحُ لَهُ وَأَبْقَى عَلَى مَاءِ وَجْهِهِ أَنْ يَفُوتَ كقوله:** { **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)**}- حيث واجهه بالخطاب فى حالة الوداع التى تكون للحبيب ، فالقلى- وهو الهجر- فقد عمم الحديث ولم يخصصه للنبى(ﷺ) فقال: (وما قلى) ولم يقل(وما قلاك)-وهو ما سوف نعيشه بالتفصيل على الصفحات القادمة.

وكذلك حدث فى حال الحبيب موسى عليه السلام فحينما كانت الأحداث صعبة فهو يخاطبه بلفظ الغيبة- على قاعدة(الحبيب لا يواجه حبيبه بما يكره)- وإذا تحول الخطاب إلى العطف والرقة كان الخطاب مباشراً هكذا: ﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ** – أنت- **يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ** – أنت- **مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ** – أنت- **مَا يُوحَى (٣٨)** ﴾ (هكذا حديث المواجهة والخطاب

---

(٩)- أى إنه يريد أن يصرف حديث المواجهه لهذا الشخص إذا كان هذا الخطاب مما يكرهه، فلا يخاطبه بما يكره ، ولذلك سيتكلم عنه بصفة الغائب)

المباشر له فى حال المنة والتعطف ، أما فى حال الابتلاء والمحنة القاسية فسوف يتحول الخطاب ويحدث (الالتفات) إلى لفظ الغيبة هكذا:﴿ **أَنِ اقْذِفِيهِ**- هو- **فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ** - هو- **فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ** – هو- **الْيَمُّ بالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ**- هو- **عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ** – أنت- **مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ** – أنت- **عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ**- أنت- **فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ**- أنت- **إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ**- أنت- **وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ – أنت- مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ**- أنت- **فُتُونًا فَلَبِثْتَ** – أنت- **سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ**- أنت- **عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ**- أنت- **لِنَفْسِي (٤١)** ﴾.وهكذا الكثير مما سنعيشه على الصفحات القادمة

****

الثَّالِثُ: مِنَ الْخِطَابِ إِلَى التَّكَلُّمِ.

كَقَوْلِهِ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُمَثِّلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **قُلِ (اللَّهُ) أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ (رُسُلَنَا) يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ** ﴾ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَزَّلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْمُخَاطَبِ((رُسُلَنَا)

ويرى صاحب تفسير المنار أن الالتفات إلى صيغة الجمع والحضور(إن رسلنا) بدلاً من الغيبة (إن رسله) راجع إلى اشتراك الملائكة فى الفعل – فى تنفيذ أمر الله- **فيقول: .. وَهُوَ أَبْلَغُ فِي تَصْوِيرِ تَسْخِيرِ اللهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ فِي كِتَابَةِ الْأَعْمَالِ مِنَ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ ((إِنَّ رُسُلَهُ يَكْتُبُونَ)) إِلَخْ؛ لِأَنَّ فِي ضَمِيرِ الْجَمْعِ(رسلنا) مِنْ تَصْوِيرِ الْعَظَمَةِ فِي هَذَا التَّدْبِيرِ الْعَظِيمِ، وَالنِّظَامِ الدَّقِيقِ، مَا يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ مَنْ لَهُ ذَوْقٌ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ سَيِّدَةِ اللُّغَاتِ،** الَّتِي اعْتَرَفَ عُلَمَاءُ اللُّغَاتِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ بِأَنَّهَا تَفُوقُ جَمِيعَ لُغَاتِهِمْ، **فِي التَّعْبِيرِ عَنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَكَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.** وَمِثْلُ هَذَا الِالْتِفَاتِ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْكَهْفِ: **(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ** (رَبِّي)- هو- **لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي** – هو- **وَلَوْ** ((جِئْنَا))- نحن- **بِمِثْلِهِ مَدَدًا)**

ويقول: وَقَرَأَ نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ (**يَمْكُرُونَ**) بِالْمُثَنَّاةِ التَّحْتِيَّةِ- فى قوله: **إِنَّ** (**رُسُلَنَا**) **يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**- وَفَائِدَتُهُ الْإِعْلَامُ بِأَنَّ ذَلِكَ شَامِلٌ لِلْغَائِبِينَ كَالْحَاضِرِينَ.(١٠)

وَجُمْلَةُ: إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ اسْتِئْنَافُ خِطَابٍ لِلْمُشْرِكِينَ مُبَاشَرَةً تَهْدِيدًا مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا لِاخْتِلَافِ الْمُخَاطَبِ. وَتَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ لِكَوْنِ الْمُخَاطَبِينَ يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ ذَلِكَ(أى يعتقدون أن أعمالهم لا تُكتب عليهم فأراد أن يؤكد ذلك المعنى بهذا الالتفات لهم فى قوله: **إِنَّ** (**رُسُلَنَا**) **يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**-وملحظ التأكيد هنا- فى صيغة الجمع والالتفات- سنعيشه بالتفصيل المريح مع أمثلة كثيرة منها قوله تعالى(**فَأَنْبَتْنَا**) فى الآية القرآنية ﴿ (**أَمَّنْ**) (**خَلَقَ**) **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** (**وَأَنْزَلَ**) **لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** (**فَأَنْبَتْنَا**) **بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ** (**هُمْ**) (**قَوْمٌ**) (**يَعْدِلُونَ**) (**٦٠**) ﴾

والإمام الطاهر ينظر إلى الالتفات فى سياق الآية من بدايته ﴿ (**وَإِذَا**) ((**أَذَقْنَا**)) **النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ** (**مَسَّتْهُمْ**) **إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ** (**اللَّهُ**) **أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ** ((**رُسُلَنَا**)) **يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ** (**٢١**) ﴾ **حيث يقول:** وأسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة-(**وَإِذَا** ((**أَذَقْنَا**)) **النَّاسَ رَحْمَةً**- ، وأسند المساس إلى الضراء -**ضَرَّاءَ** (**مَسَّتْهُمْ**) ولم يقل (مسسناه بها)- ، رعاية للأدب مع الله- تعالى-، لأنه وإن كان كل شيء من عنده، إلا أن الأدب معه- سبحانه- يقتضى إسناد الخير(الرحمة) إليه والشر(الضراء) إلى غيره، كما في قوله- تعالى-: **وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** (والتى سنقف عليها بعد قليل) وفي الحديث:« الخير كله بيديك والشر ليس إليك» .

ثم ينظر إلى الالتفات الآخر- إلى الغيبة مرة ثانية- فى السياق بعدها (**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ...) فيقول: ثم ساق- سبحانه- مشهداً حياً تراه العيون، وتهتز له القلوب، ويجعل المشاعر تتجه إلى الله وحده بالدعاء فقال- تعالى-

---

(١٠) الطاهر: وَأُطْلِقَ عَلَى تَأْجِيلِ اللَّهِ عَذَابَهُمُ اسْمُ الْمَكْرِ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ ((وهذا هو معنى "مكر الله") لِأَنَّ هَيْئَةَ ذَلِكَ التَّأْجِيلِ فِي خَفَائِهِ عَنْهُمْ كَهَيْئَةِ فِعْلِ الْمَاكِرِ، وَحَسَّنَتْهُ الْمُشَاكَلَةُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَةِ آلِ عِمْرَانَ.

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ...ثم يعود لأسلوب الخطاب ثم الغيبة الذى سنعيشه فى تكملة السياق التالى:

الرَّابِعُ : مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ** (أنتم) **فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ**(هم) ﴾ فقد التفت عن {كنتم} إلى {جرين بهم} **وَفَائِدَةُ الْعُدُولِ عَنْ خِطَابِهِمْ إِلَى حِكَايَةِ حَالِهِمْ لِغَيْرِهِمْ لِتَعَجُّبِهِ مِنْ فِعْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ إِذْ لَوِ استمر على خطابهم- وقال(وجرين بكم)- لَفَاتَتْ تِلْكَ الْفَائِدَةُ. ((**فنقل الحديث إلى الغيبة فيه تشهير بهم، وكأنه يروى قصتهم لغيرهم، (وَجَرَيْنَ بِهِمْ) ويقول لهم انظروا وتعجبوا من هؤلاء، فهى طباع عجيبة جديرة بأن تذاع وتروى.**

وهو مايردده الإمام أبو السعود بقوله: إن الالتفات إلى الغَيبة للإيذان بما لهم من سوء الحالِ الموجبِ للإعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوى أَحوالِهم ليعجِّبهم منها ويستدعيَ منه الإنكارَ والتقبيحَ..

ثم فيه لطيفة أخرى هى أنهم كانوا فى مقام الخطاب(**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ** (أنتم)) كائنين فى الفلك (وعلى الشاطىء الآمن والمشهود)، ثم لما جرت بهم الريح ذهبوا بعيداً عن مقام الخطاب (فأصبحوا غيباً عن الشهود) فلاءم هذا الحال طريق الغيبة(**وَجَرَيْنَ بِهِمْ**)

وَقِيلَ: لِأَنَّ الْخِطَابَ أَوَّلًا كَانَ مَعَ النَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ – أى جميع الناس- **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ** بريح **طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)** ﴾

فَلَوْ قَالَ: [وَجَرَيْنَ بِكُمْ] لَلَزِمَ الذَّمُّ لِلْجَمِيعِ (وفيهم المؤمن والكافر الذين قال عنهم يسيركم فى البر والبحر) فَالْتَفَتَ عَنِ الْأَوَّلِ- ولم يقل(وجرين بكم)-

لِلْإِشَارَةِ إِلَى الِاخْتِصَاصِ بِهَؤُلَاءِ (وجرين بهم) الَّذِينَ شَأْنُهُمْ مَا ذَكَرَهُ عَنْهُمْ فِي آخِرِ الْآيَةِ فى قوله: ﴿ **وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)** ﴾ فَعَدَلَ عَنِ الْخِطَابِ الْعَامِّ إِلَى الذَّمِّ الْخَاصِّ بِبَعْضِهِمْ (الكافر والمنكر فقط- فى قوله: وجرين بهم-) وَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عنهم.

وقيل: لأنهم وقت الركوب حصروا لِأَنَّهُمْ خَافُوا الْهَلَاكَ وَتَقَلُّبَ الرِّيَاحِ فَنَادَاهُمْ نِدَاءَ الْحَاضِرِينَ(**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ** (أنتم)) ثُمَّ إِنَّ الرِّيَاحَ لَمَّا جَرَتْ بِمَا تَشْتَهِي النُّفُوسُ وَأَمِنَتِ الْهَلَاكَ لَمْ يَبْقَ حُضُورُهُمْ كَمَا كَانَ عَلَى مَا هِيَ عَادَةُ الْإِنْسَانِ **أَنَّهُ إِذَا أَمِنَ غَابَ** فَلَمَّا غَابُوا عِنْدَ جريه بريح طيبة ذكرهم الله بصيغة الغيبة فقال: (**وَجَرَيْنَ بِهِمْ**) .

وهو قريب مما ذكره الإمام الزمخشرى فى قوله عن فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة، حيث يقول: قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح.

ويقول الإمام الطاهر:

وَمِنْ بَدِيعِ الْأُسْلُوبِ فِي الْآيَةِ أَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ **بِصَدَدِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ**(١١) جَاءَتْ بِضَمَائِرِ الْخِطَابِ الصَّالِحَةِ لِجَمِيعِ السَّامِعِينَ،- **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ** (أنتم) **فِي الْفُلْكِ**- فَلَمَّا تَهَيَّأَتْ لِلِانْتِقَالِ إِلَى ذِكْرِ الضَّرَّاءِ وَقَعَ الِانْتِقَالُ مِنْ ضَمَائِرِ الْخِطَابِ إِلَى ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ(وجرين بهم..) لِتَلْوِينِ الْأُسْلُوبِ بِمَا يُخَلِّصُهُ إِلَى الْإِفْضَاءِ إِلَى مَا يَخُصُّ

---

(١١) ولعله يقصد ما ورد فى السياق قبلها: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١).

الْمُشْرِكِينَ(١٢)فَقَالَ: وَجَرَيْنَ بِهِمْ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ. وَهَكَذَا أُجْرِيَتِ الضَّمَائِرُ جَامِعَةً لِلْفَرِيقَيْنِ(١٣) – وجرين بهم– إِلَى أَنْ قَالَ: **فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شِيَمِ الْمُؤْمِنِينَ فَتَمَحَّضَ ضَمِيرُ الْغَيْبَةِ هَذَا لِلْمُشْرِكِينَ، فَقَدْ أَخْرَجَ مِنَ الْخَبَرِ مَنْ عَدَا **الَّذِينَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** – أى لم ينلهم الذم وليسوا هم المقصودون من ضمن المحصورين فى ضمائر الغيبة– تَعْوِيلًا عَلَى الْقَرِينَةِ لِأَنَّ **الَّذِينَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** لَا يَشْمَلُ الْمُسْلِمِينَ. ويقول: وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الِالْتِفَاتِ لَمْ يُنَبِّهْ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَعَانِي وَهُوَ كَالتَّخْصِيصِ بِطَرِيقِ الرَّمْزِ.

وَابْتُدِئَ الْإِتْيَانُ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ **مِنْ آخِرِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ** عِنْدَ قَوْلِهِ: **وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ** لِلتَّصْرِيحِ بِأَنَّ النِّعْمَةَ شَمِلَتْهُمْ، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ مَجِيءَ الْعَاصِفَةِ فَجْأَةً فِي حَالِ الْفَرَحِ مُرَادٌ مِنْهُ ابْتِلَاؤُهُمْ وَتَخْوِيفُهُمْ. فَهُوَ تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ.

****

وقوله: ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ (أَنْتُمْ) وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ (عَلَيْهِمْ) بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ (وَأَنْتُمْ) فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي (أُورِثْتُمُوهَا) بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) (لَكُمْ) فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) ﴾ الزخرف.

{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠)} ثُمَّ قَالَ: **{يُطَافُ عَلَيْهِمْ}** فَانْتَقَلَ عَنِ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَلَوْ رُبِطَ بِمَا قَبْلَهُ لَقَالَ:" يُطَافُ عَلَيْكُمْ" لِأَنَّهُ مُخَاطَبٌ لَا مُخْبَرٌ، ثُمَّ التفت فقال: **{ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }** فَكَرَّرَ الِالْتِفَاتَ.

وهنا أقف لتوضيح هذا المثال العظيم ،مع ملاحظة تغير الضمائر عن المتقين هكذا :

---

(١٢) أى لأنه سيتحدث بعدها عن خطاب المشركين.

(١٣) الخطاب المباشر(وهو الذى يسيركم فى البر والبحر.. حتى إذا كنتم فى الفلك هذا يشمل المؤمنين.. ثم بعد ذلك انتقل بخطاب تمهيدى لتوبيخ الكافرين عن طريق تغيير الضمير عنهم وخطابهم بلفظ الغيبة–.

(**الْأَخِلَّاءُ– هم– يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**(٦٧)) (يحكى عنهم هم) ثم بعدها سيخاطبهم خطاب الحاضرين ، وكأنه أحضرهم لتكريمهم بل وزيادة فى تكريمهم، وسيعود بعدها لخطابهم خطاب الغيبة، ثم يعود لاستحضارهم مرة ثانية هكذا فى السياق التالى: (**الْأَخِلَّاءُ– هم– يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**(٦٧)) **يَا عِبَادِ**(أنتم، وبدون لفظ القول؛ أى لم يقل(قل ياعبادى) بل هى النداوة والرقة التى تجدها فى حذف لفظ القول ليكون الخطاب التكريمى والحانى لهم من الله مباشرة بدون واسطة، وكذلك حذف حرف الياء فى(عبادى)– وجاءت بدونها هكذا (يا عبادِ) فلم يقل(قل ياعبادى)– بل قالها مباشرة من الله تعالى لهم وكأنه يُسِرُّ هذا الخطاب فى آذانهم– وفى غاية القرب التى لا تحتاج لحرف النداء(١٤) – وكأنه يتلطف لهم ويُسِرُّ لهم فى لطف ومحبة بما يناسب مقام الخلة والقرب الشديد الذى يظهره الرسم القرآنى (يا عبادِ))هكذا: **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ**(أنتم) **الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)** .. ثم لا يكمل الخطاب المباشر معهم (أنتم) ولكنه سيتحول إلينا ليشهدنا – ويحدثنا عنهم ويشير لنا عليهم وعلى مقامهم العالى– وهذا التكريم (لهم) جاء مصحوباً معهم بمسوغات هذا التكريم هكذا: **يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ**(أنتم) **الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)** .. **الَّذِينَ آمَنُوا** (هم) **بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩)**..وكأنه يقول لنا انظروا لهؤلاء، ولم يقل: (**يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ** (أنتم) **الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)** يا من آمنتم بآياتنا وكنتم مسلمين) بل قال: **الَّذِينَ آمَنُوا (هم) بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ..** لأنه يريد إشهاد الخلق عليهم وعلى مقامهم العالى زيادة فى التكريم لهم.. ثم يستحضرهم مرة ثانية بعد أن يعدد صفاتهم لنا وأصبحنا بهذا الوصف عنهم حاضرين أمام الأعين فانتقل الحديث عنهم لخطاب الحاضر ؛ وها هو الآن يستحضرهم مرة أخرى لتكريمهم فيقول لهم بخطاب الحاضر(أنتم) هكذا: – **الَّذِينَ آمَنُوا** (هم) **بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ**.. –**ادْخُلُوا**(أنتم) **الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠)** ثم يعود لإشراكنا نحن فى وصفهم (هم) لنا – بصيغة الغيبة– ووصف

---

(١٤)كما قال الله تعالى فى تصوير مشهد القرب فى قوله ليوسف(يوسف أعرض عن هذا) وهو يريد الإسرار بهذا الخبر

تنعيمهم (هم) لنا هكذا: **يُطَافُ عَلَيْهِمْ**-ولم يقل يطاف (عليكم) تمشياً مع السياق السابق قبلها؛ وهو إشهاد الخلق على جمال صفاتهم، وهو تكريم فوق تكريم- **يُطَافُ** (**عَلَيْهِمْ**) **بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ** – ثم يعود إليهم –بل ويستحضرهم مرة أخرى- للتكريم المباشر منه سبحانه بعد هذا التكريم السابق لهم ووصفه لنا عنهم– فيقول مخاطباً إياهم ومكرماً لهم فى حضورهم: **وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** –، كأنه بعد أن نشر هذا التكريم عنهم على الملأ ، فالآن يحضرهم أمامه ليخاطبهم بالخطاب المباشر لهم بهذا النعيم البالغ – فى قربهم منه إضافة إلى صور نعيمهم-فى قوله-(**يُطَافُ** (**عَلَيْهِمْ**) **بِصِحَافٍ** ...(**وَأَنْتُمْ**) **فِيهَا خَالِدُونَ** (٧١) **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا**–أنتم يا أحبابى- **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**–أنتم يا أحبابى-(٧٢) **لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ**–أنتم يا أحبابى-. أما خطاب المجرمين فى السياق بعدها فقد استمر السياق على أسلوب التغييب لهم، إهمالاً وتحقيراً لهم وتشنيعاً عليهم على طول الخط هكذا: **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** (٧٤) **لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** (٧٥) **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** (٧٦) **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ** (٧٧) **لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** (٧٨) **أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ** (٧٩) **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** (٨٠) (١٥)

ويقول الإمام الألوسى:

وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب على سبيل التشريف. وقال-سبحانه-(وَتِلْكَ) بالإفراد،- وتلك الجنة- للإشعار بأن الخطاب لكل واحد من أهل الجنة، على سبيل العناية به، والإعلاء من شأنه.

---

(١٥)يقول الإمام الرازى: وَقَدْ ذَكَرْنَا مِرَارًا أَنَّ عَادَةَ الْقُرْآنِ جَارِيَةٌ بِتَخْصِيصِ لَفْظِ الْعِبَادِ، بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ المتقين، فقوله يا عِبادِ كَلَامُ اللَّهُ تَعَالَى، فَكَأَنَّ الْحَقَّ يُخَاطِبُهُمْ بنفْسِهِ ويقول لهم يَا عِبادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، وَفِيهِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا يُوجِبُ الْفَرَحَ أَوَّلُهَا: أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَاطَبَهُمْ بنفسهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَثَانِيهَا: أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَهُمْ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَهَذَا تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، قَالَ: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ [الْإِسْرَاءِ: ١] وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، فَأَزَالَ عَنْهُمُ الْخَوْفَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ ..وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ فَنَفَى عَنْهُمُ الْحُزْنَ بِسَبَبِ فَوْتِ الدُّنْيَا الْمَاضِيَةِ.

ومثلها قوله تعالى:

** فى سورة الدخان: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** (١٧) **فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** (١٨) **وَوَقَاهُمْ**- هم تكملة لوصفهم ومدحهم – **رَبُّهُمْ**- مفرد غائب وسوف يتغير إلى صيغة الجمع فى قوله(وزوجناهم) فى السياق القادم- **وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** (١٨) ثم يتوجه إليهم بالخطاب المباشر فى موقف التكريم: **كُلُوا وَاشْرَبُوا** – وكان حقها تمشياً مع السياق(فليأكلوا وليشربوا) - **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (١٩) ثم يصفهم لنا – زيادة فى تشريفهم ناشراً خبرهم على الملأ - فيحدثنا عنهم- ويشركنا فى مهرجان تكريمهم- قائلاً لنا عنهم: **مُتَّكِئِينَ**- هم- **عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ**- هم - وكذلك وروده بصيغة الجمع التشريفى أيضاً (وزوجنا)(هم)- **بِحُورٍ عِينٍ** (٢٠). ﴾.

** وكذلك يتكرر هذا المشهد على نفس المنوال فى سورة الطور

﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ** (٥١) **فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** (٥٢) **يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ** (٥٣) **كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ** (٥٤) ثم بعد أن أسكنهم الجنان وزوجهم الحور العين يتوجه إلينا واصفاً لنا حال(هم) وتنعيم(هم) ومشوقاً لنا فى اللحاق ب(هم) قائلاً لنا عنهم (**يَدْعُونَ** – هم- **فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ** (٥٥) **لَا يَذُوقُونَ** – هم- **فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ** – هم- **عَذَابَ الْجَحِيمِ** (٥٦) يشيع لنا خبرهم ، ثم يتوجه بالخطاب الخاص والحانى على الحبيب محمد(ﷺ) ليقول له: **فَضْلًا مِنْ** (**رَبِّكَ**) - (ربك) يا محمد- **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٥٧) ﴾

فياله من جمال وروعة ومهارة فى أخذ مجامع النفس والقلب لتعيش مع هذه الصحبة الكريمة، يتكلم عنهم ويشركنا معهم، ثم يتكلم معهم، ثم يتكلم عنهم مرة أخرى، ثم يتوجه بالخطاب للحبيب محمد(ﷺ) ، وأتمنى من القارىء الكريم أن يحاول قراءة هذا السياق ولكن بدون هذا الالتفات الذى ذكرناه ثم يسأل نفسه عن الفرق بين الثرى والثريا.

وَكذلك قَوْلِهِ: ﴿ **(وَمَا (آتَيْتُمْ) مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا (آتَيْتُمْ) مِنْ زَكَاةٍ (تُرِيدُونَ) وَجْهَ اللَّهِ (فَأُولَئِكَ) (هُمُ) الْمُضْعِفُونَ (٣٩)** ﴾ الروم.

وكان يجب أن يكون السياق(**وَمَا آتَيْتُمْ ..** فأنتم المضعفون) ولكن النظم التفت عنهم وأشار إلى مكانهم العالى وإشهاد الخلق عليهم وعلى جمالهم وعظمتهم ، وهو ما عبر عنه باسم الإشارة للبعيد (فَأُولَئِكَ)، ثم يشير عليهم مؤكداً (هم) (فَأُولَئِكَ هُمُ) توكيداً لهم ولمكانتهم العالية (وكأنه يشهد عليهم الملائكة وخواص خلقه ويقول لهم انظروا إلى هؤلاء أصحاب هذه المكانة العالية (**فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**).. وستضيع كل هذه المعانى والإشارات إذا سار النظم على السياق المعتاد بقوله (فأنتم المضعفون) هكذا: (**وَمَا آتَيْتُمْ** (أنتم) **مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ** (أنتم) **مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ** (أنتم) **وَجْهَ اللَّهِ** (**فأنتم الْمُضْعِفُونَ**) التى تعنى مدحهم فقط دون تعظيمهم وإشهاد خواص الخلق عليهم، وستضيع حرارة السياق وجماله وهو ما أشار إليه الإمام الزمخشرى فى قوله: فقوله- سبحانه-: فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ولم يقل: فأنتم المضعفون، وهو التفات حسن، كأنه قال لملائكته: فأولئك الذين يريدون وجهى بصدقاتهم، هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون.

ويقول صاحب التحرير والتنوير- الإمام الطاهر-: وَضمير الْفَصْل (**فَأُولئِكَ** (**هُمُ**) **الْمُضْعِفُونَ**) لقصر جِنْسُ الْمُضْعِفِينَ عَلَى هَؤُلَاءِ(١٦)

وإننى لأعجب من أن معظم الأئمة المفسرين لم يتعرضوا لأسلوب الالتفات فى هذه الآية الكريمة ومنهم الإمام الرازى أيضاً

---

(١٦) وأقول: لعل هذا الالتفات والمغايرة مع المؤتين الزكاة يتناسب أيضاً مع التغيير فى القراءات للموقفين حيث قرأ جمهور القراء «وما آتيتم» بمعنى وما أعطيتم، وقرأ ابن كثير «ما أتيتم» بغير مد بمعنى ما فعلتم- كما تقول أتيت صوابا وأتيت خطأ- وأجمعوا على المد(وَما آتَيْتُمْ) في قوله (وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ) – كما ذكر الإمام ابن عطية-. وأقول: هذا المد المجمع عليه يتناسب مع هذه المكانة البعيدة المشار إليها لهؤلاء السعداء).

وعلى مثال السياق السابق نذكر المثال التالى وهو قَوْلِهِ: ﴿ **وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ** (**أنتم**) **الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**((**أُولَئِكَ**)) **هُمُ** **الراشدون**} بعد قوله تعالى:(**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ** (أنتم) **الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ**(أنتم) **الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ((**أُولَئِكَ**)) **هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧)** ﴾.وكان يجب أن تكون (فأنتم الراشدون).(١٧)

ويرى الإمام الطاهر أنه : ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ فِي صَدْرِ جُمْلَةِ الِاسْتِدْرَاكِ دُونَ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ فى قوله: وَلَكِنَّ ((اللَّهَ)) حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ(١٨)– ولم يقل(ولكننى حببت إليكم) **لِمَا يُشْعِرُ بِهِ اسْمُ الْجَلَالَةِ مِنَ الْمَهَابَةِ وَالرَّوْعَةِ.** وَمَا يَقْتَضِيهِ مِنْ وَاجِبِ اقْتِبَالِ مَا حَبَّبَ إِلَيْهِ– أى الإقبال على ماحبب الله بشوق ولهفة– وَنَبْذِ مَا كَرَّهَ إِلَيْهِ.(١٩)

وعلى ذلك نرى أن الخطاب هنا– **فى قوله: وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ**(أنتم) **الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ولفظ الغيبة لنفس الفئة فى قوله: (**أُولَئِكَ**)(**هُمُ**) **الرَّاشِدُونَ (٧)**)– تكريم لهم– وقد فهمنا ذلك التكريم من السياق الذى يمدحهم–.

****وسنلاحظ فى سياقات أخرى أن خطاب الغيبة عنهم يكون للتحقير** – ونفهم ذلك التحقير من السياق أيضاً وهو ما عشناه وسنعيشه على الصفحات القادمة– وذلك كمثال الإعراض عن الذى لم يقبل التوبة وقد كان فى السياق قبله مقبلاً عليه بصيغة الحضور والجمع والتكريم حال ندائه للتوبة هكذا:. ﴿ **قُلْ يَا**

---

(١٧) يقول الإمام أبو السعود: والالتفات إلى الغيبة كالذى في قوله تعالى (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** (٣٩))) وعلى ما شرحناه فى المثال السابق من أنه عدل إلى هذا الالتفات ليصور لنا أنه وضعهم فى مكان عالٍ وبعيد (أُولَئِكَ هُمُ) ليشهد عليهم الملائكة وخواص خلقه وكأنه يقول لهم انظروا هؤلاء أصحاب المكانة العالية (أُولَئِكَ هُمُ الراشدون)، وقلنا إنه ستضيع كل هذه الإشارات لو سار السياق على النظم المعتاد فقال:(فأنتم الراشدون) .

(١٨) (يقصد الآية: وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ ((اللَّهَ)) حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)

(١٩) وَعُدِيَّ فِعْلَا حَبَّبَ وكَرَّهَ بحرف (إِلَى)– أى حبب إليكم ..وكره إليكم– لتضمينهما مَعْنَى بَلَّغَ، أَيْ بَلَّغَ إِلَيْكُمْ حُبَّ الْإِيمَانِ وَكُرْهَ الْكُفْرِ. وَلَمْ يُعَدَّ فِعْلُ وَزَيَّنَهُ بحرْفِ (إِلَى) مِثْلَ فِعْلَيْ حَبَّبَ وكَرَّهَ– حيث قال وزينه فى قلوبكم، ولم يقل زينه إلى قلوبكم– لِلْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَمَّا رَغَّبَهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَكَرَّهَهُمُ الْكُفْرَ امْتَثَلُوا فَأَحَبُّوا الْإِيمَانَ وَزَانَ فِي قُلُوبِهِمْ. وَالتَّزْيِينُ: جَعْلُ الشَّيْءِ زَيْنًا، أَيْ حَسَنًا

عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ **لَا تَقْنَطُوا** (أنتم) **مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ** إِنَّ اللَّهَ **يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) **وَأَنِيبُوا** (أنتم) إِلَى رَبِّكُمْ **وَأَسْلِمُوا** لَهُ (أنتم) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (أنتم) (٥٤) **وَاتَّبِعُوا** أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً **وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** (أنتم) (٥٥) وهكذا وردت السياقات بصيغة الحضور والإقبال(أنتم) ، ولكن بعد إعراضهم عن التوبة فإنه يخاطبهم خطاب المعرض عنهم كذلك فى السياق التالى: **أَنْ تَقُولَ (نَفْسٌ)** يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) ﴾ فجاءت(نفس) بالإفراد- وحيدة وحدها فى عرضات القيامة-وكذلك حقيرة حيث جاء بها نكرة (نفس) ولم يقل (النفس).

**** وكذلك الوقفة التالية مع أسلوب الالتفات فى السياق التالى:**

وحينما يستعرض مشاهد القيامة يستعرض حوارهم العاصف القوي والسريع أيضاً، نذكر مثالاً سريعاً علي هذا،من سورة الصافات، مشهداً بدأه ربنا سبحانه ونحن في الحياة الدنيا – لم نمت بعد – وفي لحظات خاطفة (سريعة) نجد أنفسنا في عرضات القيامة نُساق بعنف وقوة ومشهد (يتناسب مع جو السورة والقسم بها (الزاجرات زجراً) ويتركنا الخطاب ويعود إلينا سريعاً ، ثم يلقي بنا بعيداً ويتكلم عنا بصيغة الغيبة ويخاطب الملائكة عنا بصيغة الغائب{ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا } ثم بعد ذلك يخاطبنا ويتوجه إلينا بالخطاب ونحن شهود في قاعة المحكمة الإلهية في عرضات القيامة فى سطر فقط

﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ **وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ** (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ **فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** (١٩) **وَقَالُوا** يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ **الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** (٢١) **احْشُرُوا** الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ **فَاهْدُوهُمْ إِلَى** صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) **وَقِفُوهُمْ** إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) **مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ** (٢٥) **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** (٢٦) **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** (٢٧) ﴾ الصافات.

وتعال معي عزيزي القارئ لنستعرض هذا المشهد من بدايته .

{ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} – فهو يحكي لنا قصة عن هؤلاء، بضمير الغيبة عنهم هكذا(وقالوا)، ولكننا سنري بعد قليل أن المشهد قد أحياهم وعرضهم أمامنا، بل واحضرنا معهم في العرض، بل وانتقلنا جميعاً إلي محكمة الآخرة ، بل وحضرت الملائكة وشاركت وصدر لها الأمر (**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا**)، ونحن في كل هذا نشاهد ونشارك في هذا المصير.كأنه مشهد حىٌ متحرك أمامنا ونحن طرف فيه مشارك(وكل ذلك فى ثلاثة سطور).

فهم يقولون(وقالوا) (**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**) (**أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ**)– وهنا لاحظ كما قلنا ذكر الذرية وأصل الذرية (**أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ**)–، وهنا يأتي الرد من الله عليهم (**قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ**) – فهو يخاطبهم مواجهة وهم أمامه– (أنتم)– بعد أن كان السياق عنهم (هم) ... ولكن السياق يتغير بعدها ويخاطبهم مرة ثانية بصيغة الغيبةحيث يقول (**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا** (**هُمْ**) **يَنظُرُونَ**)، فهو يستحضرهم ثم يلقى بهم ثم يستحضرهم ثم سيحضر الملائكة فى المشهد.. وقد لاحظت عزيزي القارئ أنه لم يعد يخاطبهم الخطاب المباشر فلم يقل (**فإنما هي زجرة واحدة فإذا** (أنتم) **تنظرون**) بل إنه رمي بهم (احتقاراً لهم) وتحدث عنهم بضمير الغائب وقال (**فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ وَقَالُوا** (هم) **يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ**...) وتركهم يصرخون بعيداً في مجاهيل القيامة وأهوالها ... **وَقَالُوا** (هم) **يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ** (٢٠) **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ** (أنتم) **بِهِ تُكَذِّبُونَ** (أنتم) (**٢١**))

وهنا فى هذه الآية نجد أنه قد حدث تحول عجيب وغريب جداً وفي غاية السرعة والقوة .. فكان واجب السياق أن يُقال (قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي **كنا به نكذب)** ولكن الله –في لحة خاطفة – أسكتهم وأخرسهم بعد عرض ولولتهم وصياحهم ، وهم ملقون بعيداً محتقرين منبوذين ويُخاطَبوا خطاب الغائب.. ثم هاهو الحديث ينتقل مواجهاً لهم ومعنفاً لهم بقوله : (**هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي** (**كُنْتُمْ**) **بِهِ تُكَذِّبُونَ** (**٢١**)).

فالمتحدث هنا هو الله تعالي – بصورة مفاجئة وغريبة عن السياق المعتاد لدينا – فلم يدعهم يكملوا الحديث منهم(**وَقَالُوا** (هم) **يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ** (**٢٠**)– فهم لا قيمة لهم– لكنه سيحضرهم أمامه للتعنيف **(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ** (أنتم) **بِهِ تُكَذِّبُونَ** (أنتم) (**٢١**)).. وقد كانوا في مشهد الغيبة قبل ذلك فأصبحوا حضوراً للتبكيت والتوبيخ...

وقال بعض المفسرين : إن الذي تولي الكلام منهم (**هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ** (أنتم) **بِهِ تُكَذِّبُونَ** (أنتم) (**٢١**)) **هو جزء منهم وهم** قرناؤهم قرناء السوء .. أي يقول بعضهم لبعض علي طريقة التحسر والعويل ... ولكننى أُرَجِّح الرأي الأول الذى ذكرناه فى أسلوب الالتفات لأنه مناسب للسياق كما سنري... فالله يواجههم ويستحضرهم بعد أن كان قد ألقاهم بعيداً (في سرعة وقوة) يناسبان جو سورة الصافات .. وكما يقول العلماء :إن الالتفات هنا إليهم جاء لبيان شدة غضب الله عليهم، وهو يقول لهم : **هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** (**٢١**)..

ثم يقول بعدها : **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ** (**٢٢**) **مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ** (**٢٣**) **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ** (**٢٤**).. وهنا يقف القارئ والمتأمل مندهشاً ليسأل : من الذي يتكلم الآن؟ ويكلم من ؟ إنه ترك الحديث معهم (**هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** (**٢١**)، وقال: (**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ..) ولا جدال في أن الخطاب هنا قد تحول للملائكة (وتحول في سرعة خاطفة)، ويقول للملائكة : احشروا الذين ظلموا (بصيغة الغاضب المحتقر لهم) **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** – أي قرناءهم وأمثالهم وأشكالهم– وقيل الأزواج الكافرات علي الحقيقة، وما كانوا يعبدون (من صنم وحجر) من دون الله فأهدوهم (علي طريقة التهكم بهم) فأهدوهم إلي ماذا ؟ إلي صراط الجحيم.

ثم فجأة **وفي سرعة خاطفة** يصدر أمره سبحانه ويقول (**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ** (**٢٤**)) ولا تنسى– عزيزى القارىء– المشهد التصويرى الذى عرضه القسم فى مقدمة السورة(الصافات صفا).. ولكنهم هنا مصفوفون للحساب.

ثم يترك الخطاب للملائكة ويتحول بالخطاب إليهم مرة ثانية ويقول (**مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ**) فقد ترك حديثه مع الملائكة وتوجه إليهم بخطاب التعنيف المباشر والقوي ويقول لهم مالكم لا ينصر بعضكم البعض الآخر (ولاحظ السرعة فى نطق الكلمة أيضاً (**مَالَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ**) ولم يقل(**لا تتناصرون**) لمشهد السرعة حتى فى اختيار الألفاظ.

ثم يحدث تحول عجيب فى السياق حيث يتوجه إلينا نحن(الذين نشاهد ونسمع لهذا العرض ونحن ما زلنا فى عالم الدنيا) ولكنه أحضرنا الآن معهم في قاعة المحكمة الإلهية هذه، وانتقلنا من الدنيا إلي الآخرة معهم فى قاعة الحساب نشاهد ونشارك. فبعد أن قال لهم (ما لكم لا تناصرون) قال بعدها موجهاً الحديث إلينا – أهل الدنيا وقارئي القرآن–ويحدثنا عنهم هكذا ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)** ولم يقل فإننا يومئذٍ فى العذاب مشتركون لأن الله قطع خطابهم وتولى هو سبحانه مخاطبتهم للتقريع والتوبيخ،

وسيشركنا نحن أيضاً فى هذا التوبيخ، وكأنه قد حدث تواصل بين هؤلاء فى الآخرة وبيننا نحن فى الدنيا حتى فى الحديث الذى جمعنا فى سياق واحد هكذا:(**إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)** وهذا هو قول الله تعالى مرة ثانية ثم مواجهتهم بالعودة إليهم هكذا: **إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١)(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ)** ﴾

وكان من الممكن أن يقال (حق عليهم) و (إنهم لذائقون) ... ولكنه حدث أسلوب الالتفات هذا : ليستحضر لنا صورتهم وهم يقولون : **إِنَّا لَذَائِقُونَ** (أمام

أعيننا).. ثم يتغير الخطاب بالتقرير النهائى: **فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ**.. ثم يلتفت الخطاب إلينا- أهل الدنيا حاكياً لنا حالهم- **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)** (وكان يمكن في غير القرآن أن يقال (فإنكم يومئذ ..بعد(فأغويناكم)) ، ولكنه هنا يتوجه إلينا بالخطاب والتقرير النهائي يلقيه لنا لنعتبر ونتهيأ لذلك اليوم، ويقول لنا (**فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** (٣٣)..) ((**إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ٣٤**)..) (**بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** (٣٧)) ثم يعود إليهم في مشهد التعذيب ليواجههم وليزداد عذابهم فوق عذاب الجحيم فيقول (**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** (٣٥) **وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ** (٣٦) **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** (٣٧) .. ثم يستحضرنا ويستحضرهم فى مشهد العرض للتقريع ويقول: **(إِنَّكُمْ)**.. ولم يقل(إنهم).. (**إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ** (٣٨) **وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (٣٩) **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** (٤٠) **أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ** (٤١)... ﴾ وهكذا

فنري أن سياق السورة عاصف وقوى وسريع حتى في مقاطع آياتها، ونجدها ترسم هذا الجو العاصف الذي يرسمه مفردات القسم (**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا** (١) **فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا** (٢) **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** (٣)) ٠

﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ** (**أَلِرَبِّكَ**) - هو- مفرد غائب- **الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ** (١٤٩) **أَمْ** (**خَلَقْنَا**) -(نحن)- جمع حاضر(للتعظيم)- وكان حقها أن تكون: أم خلق هو(ألربك)، وذلك التعظيم فى أمر خلق الملائكة - **أَمْ** (**خَلَقْنَا**) **الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ** (١٥٠) **أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ** (١٥١) **وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** (١٥٢) **أَصْطَفَى** (من المستفهم ومن المستنكر؟) **أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ** ؟؟؟(١٥٣) (إنه الآن يتوجه بالخطاب التقريعى لهم هكذا:) **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ؟!(١٥٤) **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (**١٥٥**)- مازال يتوجه إليهم بالخطاب التقريعى فى أمر اتخاذ الملائكة إناثاً وأنهم أبناء الله -*وهو أمر خطير يستحق المواجهة الصريحة والتقريع - **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ** (**١٥٦**) **فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (**١٥٧**) ثم يلتفت عنهم حاكياً لنا أمرهم ومشنعاً

عليهم قائلاً: وَجَعَلُوا - (هم) - **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا** وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ (اللَّهِ) **عَمَّا يَصِفُونَ** — هم- (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) **فَإِنَّكُمْ**- أنتم (عاد للالتفات مقرعاً لهم فى أخطر الأمور)- **فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ** -أنتم- (١٦١) **مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا** — من هؤلاء ؟(إنه قول الملائكة جاء فى وسط السياق فجأة، وهو التفات عجيب- **إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤)** ﴾

والأعجب من ذلك أن قارىء هذه الآيات من أول وهلة لا يشعر بهذا الالتفات وذلك لأن الانتقال يتم فيها بسلاسة عجيبة لاتشعرك بأنه حدث التفات إلا بعد التدبر مرة ومرات.

والأمر كما قال ابن الأثير:إنك ترى الكلام بهذا الفن البلاغى يلتفت ههنا وههنا وكأن الأسلوب حيّ يتحرك ويتلفت، ونشاط اللغة وحيويتها عند ابن الأثير باب واسع تراه يصف الكلمات أحياناً بأنها جيشٌ له جلب، وأحياناً بأنها حسان رود لها دل إلى آخره).

❖❖❖❖

وقفة أخرى مع أسلوب الالتفات

وأحياناً لا يكون الالتفات فى نفس الآية بل فى السياق التالى بعد عدة آيات، نذكر مثالاً لذلك عشناه مع مقدمة سورة البقرة، وهذا المثال متكرر دائماً، بل هو شأن القرآن الكريم – كما ذكر الدكتور دراز – رحمه الله- حيث يقول في كتابه (النبأ العظيم) عن النظم القرآنى: (والأعجب أنه مع كونه أكثر افتناناً وتنويعاً في الموضوعات، هو أكثره افتناناً وتلويناً في الموضوع الواحد. فهو لا يستمر طويلاً علي نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلاً علي هدف واحد من المعاني، ألا تراه ينتقل في السورة الواحدة من معني إلي معني وينتقل في المعني الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، واسمية وفعلية، ومضي وحضور

واستقبال، وتكلم وغيبة وخطاب، إلي غير ذلك من طرق الأداء، **علي نحو من السرعة لا عهد لك بمثله، ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط)** انتهى.

ثم يذكر لنا مثالاً سريعاً لذلك في قوله تعالى:

﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (٤) **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٥) **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** – هم- **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** (٦) **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** – هم- **وَعَلَى سَمْعِهِمْ**- هم- **وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ...) هكذا نجد أن السياق مستمرٌ بصيغة الغيبة.وسيأتى بعدها بعدة آيات – عشرون آية- بصيغة النداء والخطاب بدلاً من الغيبة فى قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ** –أنتم- **اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**–أنتم- **الَّذِي خَلَقَكُمْ** –أنتم- **وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل - من الغيبةِ إلى الحضور -. ؟

الإجابة- كما ذكرها الدكتور دراز رحمه الله-: إن ذلك الوصف الدقيق الذي وصف القرآن به الطوائف الثلاث (متقين وكافرين ومخادعين) قد نقلهم عند السامع من حال إلي حال ، فبعد أن كانوا غيباً في مبدأ الحديث عنهم أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافي حاضرين في خيال السامع كأنهم رأي عين ، وفي مكان ينادون منه ، فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم كما يوجه الي الحاضرين في الحس والمشاهدة ، هذا من الناحية العامة .

وأما من الناحية الأخري(٢٠) فإن هذه الأمثال البليغة التي ضربت **في شأن المعرضين خاصة قد أبرزتهم أمام السامع** – فى صورة الحضور- في صورة محزنة

---

(٢٠) فى سبب هذا الالتفات عنهم من الغائب إلى الحاضر- وحضورهم أمام الأعين-.وراجع السياق من الآية الأولى حتى هذه الآية الكريم ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..) نصحاً لهم وشفقة بعد أن وصف لهم الأمر فى هذه الآيات السابقة لها، والنصح يكون فى المواجهة أولى وأفضل، أما المدح فيكون فى

تبعث في نفسه أقوي البواعث لنصحهم وتحذيرهم . حتى إنه لا يشفي صدره إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم – **يَا أَيُّهَا النَّاسُ**–: أن افتحوا أعينكم أيها القوم وتعالوا إلي طريق النجاة . وهكذا استعدت النفس أتم استعداد لسماع هذا النداء : **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (٢١) ....**}** الآيات إلي آخر المقصد الأول.

وَقَوْلِهِ فى المؤمنون: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ** (أنتم) **أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ** (أنتم) **فَاعْبُدُون** (أنتم) **وَتَقَطَّعُوا** (هم) **أَمَرَهُمْ بَيْنَهُم** ﴾ وَالْأَصْلُ (فَقَطَّعْتُمْ) (أمركم) عَطْفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ، لَكِنْ عَدَلَ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ فَقِيلَ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ **نَعَى عَلَيْهِمْ مَا أَفْسَدُوهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ وَوَبَّخَهُمْ عَلَيْهِ:وكأنه يشهد عليهم غيرهم ويقول لهم:** (**وَتَقَطَّعُوا** (هم) **أَمَرَهُمْ بَيْنَهُم**) **قَائِلًا:** أَلَا تَرَوْنَ إِلَى عَظِيمِ مَا ارْتَكَبَ هَؤُلَاءِ في دين الله.

وهو كما قال الإمام الزمخشرى – ونقله بالنص الإمام الرازى وغيره من أئمة التفسير– فى سر هذا الالتفات: والأصل: وتقطعتم، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم – بعد أن تقطعوا أمرهم بينهم– ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله. والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى... وفيه إشارة أخرى وهى أن الله تعالى ينصرف عن هذه الأمة حين يتقطع أمرها بينها، وفيه أيضاً أنها تغيب عن مشهد الحياة حين تنحرف عن منهج القرآن. (٢١)

حال الغيبة أولى وأفضل– كما ذكرنا ذلك فى فاتحة الكتاب(الحمد لله)– فكان بصيغة الغيبة أما العبادة والدعاء فكان بصيغة الحضور(إياك– أنت– نعبد وإياك نستعين، إهدنا – أنت–..).

(٢١) **وَمِثْلُ هَذِهِ الضَّمَائِرِ الْمُرَادُ مِنْهَا الْمُشْرِكُونَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الضَّمَائِرُ – فى قوله وتقطعوا– عَائِدَةً إِلَى أُمَمِ الرُّسُلِ. فَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي ضَمَائِرِ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً [الْأَنْبِيَاء: ٩٢] يَكُونُ الْكَلَامُ انْتِقَالًا مِنَ الْحِكَايَةِ عَنِ الرُّسُلِ إِلَى الْحِكَايَةِ عَنْ**

ومثل تلك المعانى تقال حين إقبال الله تعالى فى الخطاب على التائب (حبيب الرحمن) وأنه فى حال عدم قبوله التوبة فإنه سبحانه سيعرض عنه (احتقاراً وإهمالاً وتوبيخاً وتبكيتاً، وتغييباً أيضاً عن المشهد يوم القيامة) ويتحدث عنه بلفظ الغيبة وذلك فى السياق التالى:

﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ** (أنا) **الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا** (أنتم) **مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا**(أنتم) **إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا**(أنتم) **لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ**(أنتم) **الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا**(أنتم) **أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**(أنتم) **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ**(أنتم) **الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ**(-هى- مفرد وغائب ويقول عنها، بعد أن كان جمع وحاضر(أنتم) إضافة إلى صيغة التنكير(نفس) ولم يقل(النفس) بالتعريف، وكأنه يقول هذه النفس النكرة التى ينالها الإهمال والتنكير) **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)** (ويستمر السياق يتحدث عنها بصيغة المفرد الغائب هكذا: **أَوْ تَقُولَ**(هى) **لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ** (هى) **حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)**

ثم يتوجه الخطاب بصورة الخطاب المباشر وكأنه يستحضره للتوبيخ المباشر: (أنت أيها المكذب، ولم يقل بلى قد جاءتها آياتى ، بل قال: **بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)** ثم يتحول الخطاب(يلتفت) إلى الحبيب محمد (ﷺ) ليخاطبه عن أحوال هؤلاء وقد تركهم: **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى**(يا محمد) **الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)**ثم

حَالِ أُمَمِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ أَوِ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَهُمْ مِثْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِذْ نَقَضُوا وَصَايَا أَنْبِيَائِهِمْ. وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي تَكُونُ ضَمَائِرُ الْغَيْبَةِ الْتِفَاتًا.

يكون الخطاب عاماً لكل البشرية: **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)**ثم يخصص الخطاب لمجموعة الضالين المكذبين – ويلتفت إليهم– آمراً محمداً (ﷺ) أن يتولى هو القول: **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)**

ثم يتحول السياق إلى خطاب وأمر مباشر من الله للنبى(ﷺ) ملتفتاً به لهذا الأمر الخطير الذى يستحق خطاب الحاضر والمواجهة فى قوله تعالى: **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)** وكأنه يلتفت إليه فجأة ويقطع الحديث ليقول له سبحانه (إياك أن تغفل عن هذا الأمر) ثم يعود للخطاب عنهم بعد هذا القطع وتبليغ هذا الأمر الهام ليقول(عنهم) **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)**تمهيداً لسوقهم إلى مصيرهم المجهول الغيبى ليحكى لنا عنهم ويصور لنا حالهم: **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)** ﴾..الزمر.

ويقول الرازى: قَالَ أَوَّلًا: يا عِبادِيَ وَكَانَ الْأَلْيَقُ أَنْ يَقُولَ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَتِي لَكِنَّهُ تَرَكَ هَذَا اللَّفْظَ وَقَالَ: لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لِأَنَّ قَوْلَنَا(اللَّهِ) أَعْظَمُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَأَجَلُّهَا، فَالرَّحْمَةُ الْمُضَافَةُ إِلَيْهِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَعْظَمَ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ.. وَالْفَضْلِ

السَّادِسُ: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، بَلْ أَعَادَ اسْمَ اللَّهِ وَقَرَنَ بِهِ لَفْظَةَ (إِنَّ) الْمُفِيدَةَ لِأَعْظَمِ وُجُوهِ التَّأْكِيدِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يدل على المبالغة في الوعد بالرحمن

وقال الجمل في حاشيته ما ملخصه: وفي هذه الآية من أنواع المعاني والبيان أشياء حسنة، منها إقباله عليهم، ونداؤهم، ومنها: إضافتهم إليه إضافة تشريف (يا عبادى)، ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة، في قوله: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، ومنها: إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى(رحمة الله)، ومنها: إعادة الظاهر بلفظه في قوله: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ، ومنها: إبراز الجملة من قوله: إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ مؤكدة بإن(إنه)، والفصل(هو)، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة)انتهى.

((وأقول: لكل هذه الصفات كان خطابه سبحانه لهم بصيغة الجمع التكريمية والخطاب المباشر التكريمى أيضاً.. أما بعد إعراضهم عن التوبة فقد تغير السياق إلى صيغة النكرة والإفراد))

****

ومثلها فى قوله تعالى: ﴿ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**- بصيغة الجمع- **وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ**– بصيغة النكرة والإفراد- **مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ**- بالجمع مرة ثانية- **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** – جمع-(١٨) ﴾.وكان يجب أن تكون فى غير القرآن (ولتنظروا ما قدمتم لغد) بصيغة الجمع تمشياً مع باقى السياق، ولكنه تغير النظم ليصور لنا الموقف – فى عرضات يوم القيامة- حينما تعرض كل نفس وحيدة ومجهولة لا أنيس لها ولا شريك، مرتهنة بعملها الذى قدمته، فقال(**وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ**)

****

وَجَعَلَ مِنْهُ ابْنُ الشَّجَرِيِّ: ﴿ **مَا وَدَّعَكَ**- أنت- **رَبُّكَ** (**وَمَا قَلَى**) –والسؤال هو: قلى من؟-(**٣**) وهكذا:..**أَلَمْ يَجِدْكَ** - أنت- **يَتِيمًا** (**فَآوَى**) والسؤال هو: آوى من؟- (٦) **وَوَجَدَكَ**- أنت- **ضَالًّا فَهَدَى** والسؤال هو: هدى من؟- (٧) **وَوَجَدَكَ** -

أنت- **عَائِلًا فَأَغْنَى** والسؤال هو: أغنى من؟- ﴾، **وكان يجب أن تقال (وما قلاك، فآواك، فهداك، فأغناك)**، ولكنه التفت عن ذلك التخصيص إلى صيغة العموم فقال: ((**وَمَا قَلَى**) (**فَآوَى**) (**فَهَدَى**)(**فَأَغْنَى**) لتعطى معانٍ أوسع كلها مقصودة، كأن يكون: وما قلاك، وما قلى أحداً من أصحابك، إضافة إلىٍ عدم مخاطبة النبى (ﷺ) بما يكره - وهو القلى والهجر- خطاباً مباشراً ومواجهة، أما فى حال الوداع- وهى حالةتكون بين الحبيب وحبيبه- فهنا يخاطبه خطاباً مباشراً بما يحب فقال(ما ودعك)-

وكان – فى غير النظم القرآنى- يجب أن تقال(فآواك)، ولكنه التفت إلى صيغة العموم (**فَآوَى**) لتعطى معنى (آواك) وآوى (أتباعك)(وآوى بك).. ومثلها قول (**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**)، ولم يقل(فهداك)، لتعطى معنى (هداك، وهدى أتباعك، وهدى بك) ولذلك جاء هذا الالتفات.

وقال علماؤنا: وَأَرَادَ بِالِانْتِقَال إِلَى الْغَيْبَةِ الْإِبْقَاءَ عَلَى الْمُخَاطَبِ مِنْ قَرْعِهِ فِي الْوَجْهِ بِسِهَامِ الْهَجْرِ(٢٢) فَالْغِيبَةُ أَرْوَحُ لَهُ وَأَبْقَى عَلَى مَاءِ وَجْهِهِ أَنْ يَفُوتَ كقوله(عَبَسَ وَتَوَلَّى- هو- (١) أَنْ جَاءَهُ- هو- الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ- أنت- لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣)).

****

**** ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ**- أنتم- **إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) (أُولَئِكَ) الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ- هم- أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾.**

---

(٢٢)- أى إنه يريد أن يصرف حديث المواجهه لهذا الشخص إذا كان هذا الخطاب مما يكرهه، فلا يخاطبه بما يكره ، ولذلك سيتكلم عنه بصفة الغائب)

ففي هذا السياق نوعان من الالتفات؛ النوع الأول فى تغيير صيغة الفعل(**نُزِّلَتْ**) **إلى** (**أُنْزِلَتْ**) وهذا سنعيشه فى حينه بعد قليل ووقفة خاصة إضافية مع الأستاذ الدكتور حسن طبل تحت هذا العنوان.

أما النوع الثانى من الالتفات وهو: الالتفات من الخطاب للغيبة فى قوله (**فَهَلْ عَسَيْتُمْ**- أنتم- **إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** - أنتم-**أَنْ تُفْسِدُوا**- أنتم- **فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**- أنتم- (٢٢) (**أُولَئِكَ**) **الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ**...فانتقل هنا إلى الحديث عنهم بصيغة الغيبة، وكذلك فى الآية بعدها: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ-هم-.

والآن نبحث عن السبب فى ذلك الالتفات فيما يلى:

إذا تلونا ما قبلها من قوله تعالى ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١)** ﴾ نجد أن الكلام في الآية عن المنافقين الذين ينظرون نظر المغشي عليه من الموت لمجرد أن قيل لهم إن هناك جهاد، ومن شفافية القرآن ولمسه لقلوب الناس أنه يصف المنافقين بأوصاف غير حميدة لا يحبونها (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...) فلا يواجههم حينئذٍ بها- أى بما يكرهون- وإنما يتكلم بصورة الغائب (لهم، قلوبهم..)

ثم بعدها ينتقل مباشرة **موجهاً الخطاب لهم**((فى حال النصح الودود لهم)) فيقول تعالى (**فَهَلْ عَسَيْتُمْ**-أنتم- **إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**-أنتم- (**٢٢**)) وهذه لمسة حنان لعدم قطع الأرحام، والعربي حريص عليها- فهى بمثابة نصيحة لهم- فأقبل عليهم بالخطاب (**فَهَلْ عَسَيْتُمْ**-أنتم- ..)- ثم عاد إلى خطاب الغيبة عنهم – فى حال توبيخهم والإعراض عنهم لعدم قبولهم النصح مع المحافظة على أدب الخطاب التى يعلمنا إياها سبحانه- فيقول تعالى عنهم: ((**أُولَئِكَ**) **الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ**) لم يقل أنتم المنافقون- تمشياً مع السياق قبلها (**فَهَلْ عَسَيْتُمْ**-أنتم-) فخاطبهم بالغيبة لأن الكلام التالى فيه إهانة لهم- فلا

يواجههم به- فيقول: (**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)**) ثم قال تعالى (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)**) الكلام عنهم، ولكنه تعالى استعمل ضمير الغائب **حتى لا يُثيرهم**(لأن عدم التدبر عيب يثيرهم)، وهذا نوع من أنواع التربية، فلا يجوز للمسلم أن يقول هذا كافر وهذا كافر لأن المسلم كالطبيب يجب عليه أن يعالج(٢٣).

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ((لِلَّذِينَ آمَنُوا)) لَوْ كَانَ خَيْرًا ((مَا سَبَقُونَا)) إِلَيْهِ (١١)** ﴾ الأحقاف.

ولاحظ أسلوب الالتفات الذى حدث هنا، والذى ربما لايشعر القارىء به، لأنه جاء بسلاسة النظم القرآنى الذى عهدناه فى غيره من أساليب الالتفات، فكان حق السياق أن يقال على أحد الصيغتين:

الأولى: ((**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (لِلَّذِينَ) آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا (مَا سَبَقْتمونَا إِلَيْهِ)** .. – بدل الصيغة القرآنية(مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)- أو أن تقال على الصيغة الثانية((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (عن الذين آمنوا)- بصيغة الحديث عنهم بصفة الغائب- بدلاً من الصيغة القرآنية: (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا**)- ليستمر السياق على نظم الغيبة:حيث إن بقية السياق، يقولون (عن) الذين آمنوا- وليس (لهم): **لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا** (هم) **إِلَيْهِ** ، لتكون(**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** (عن الذين آمنوا) **لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**)

ولكن السياق لم يسر على الصيغة المعتادة من سير النظم على نسق واحد من هذين الصيغتين السابقتين، وجاء على صيغة الالتفات- غيبة بعد حضور- لأنه

---

(٢٣) ونلاحظ أن الله تعالى خاطبهم بلفظ الغيبة مراعاة لما ذكرناه من عدم تجريحهم ولكنه لم يكذب أو يتملق بل وصفهم بوصف المنافقين والمنافقون يناسبها مجيء الفعل كاملاً (يتدبرون)ولم يقل(أفلم يدبروا) ، لأنهم أي المنافقون بحاجة ليعيدوا النظر مرة بعد مرة في القرآن وهم نافقوا بعد أن سمعوا القرآن مرة بعد مرة ولهذا هم بحاجة للتكرار وللنظر في الآية دُبر الآية – وهو ما يناسب الصيغة الفعلية(يتدبرون) وليست الصيغة الأخرى (يَدَّبروا) وليراجع القارىء تفصيل ذلك فى كتابنا موسوعة التكرار فى قصص القرآن المجلد الأول باب المتشابهات

يريد أن يصور شدة احتقار هذا الملأ بقوم هود، وأنهم يرفضون مجرد الحديث معهم أو مواجهتهم بالخطاب، تحقيراً لهم؛ ولذلك سيبدأون الخطاب معهم- بالخطاب المباشر- هكذا:((**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (لِلَّذِينَ) آمَنُوا**) ،فهم قد قاموا بتوجيه الخطاب لهم وجهاً لوجه، ثم بعد ذلك تذَكَّر هؤلاء المجرمون أنهم ما يصِح لهم أن يخاطبوا هؤلاء المؤمنين ويقبلوا عليهم بالحديث، فقاموا بإعراض الوجه عنهم وأوردوا الكلام عنهم بصيغة الغيبة فقالوا:(**لَوْ كَانَ خَيْرًا (مَا سَبَقُونَا- هم- إِلَيْهِ**)، فالتفتوا عنهم وخاطبوهم بصيغة الغيبة تحقيراً لهم.

ولذلك فإن هؤلاء الأَتباع سيعاملونهم بمشهد مشابه لذلك المشهد، ولكن فى يوم العرض والحساب فى الآخرة ، كما ورد فى سورة الأعراف هكذا: (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا **قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ** عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) **وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ**)

هذا السياق الأخير جاء على الصيغة المعتادة فى استمرار الخطاب على نهج واحدٍ، بخلاف السياق فى الجزء الأول:(**حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا :قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ** (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ) أَضَلُّونَا..**فهم كانوا يخاطبون بعضهم بصيغة المواجهة – قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ** –ثم فى لحظة مفاجئة يتركونهم ويشتكونهم إلى الله ويتحدثون عنهم بصيغة الغائب (**رَبَّنَا هَؤُلَاءِ**) وكأنهم يشكونهم إلى الله لينتقم منهم بعد أن كان الخطاب معهم بالصيغة المباشرة(**قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ**)

وكان يجب أيضاً أن يكون السياق على إحدى الصيغتين:

الأولى: حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ أنتم أضللتمونا... بدلاً من الصيغة القرآنية: (**رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا**.-

أو الثانية: قَالَتْ أُخْرَاهُمْ (عن) أولاهم.. بدلاً من (**لِأُولَاهُمْ**) وليستقيم على نهج واحد مع حديث الغيبة عنهم (**رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا**.ولكن السياق القرآنى عدل عن

هذه الصورة ليبرز مشهد احتقارهم لهم فى الآخرة كما كانوا يحتقرونهم فى الدنيا- كما هو الحال فى سورة الأحقاف هنا-.

فياله من أسلوبٍ ونظمٍ عجيبٍ أشار إلى كل هذه المعانى بصيغة الالتفات التى ذكرناها، ويمتعنا النظم بشواهد مماثلة لهذا الجمال يعج بها النظم القرآنى فى كل صفحة من صفحاته استدعت منا أن نفرد لها كتاباً خاصاً أسميناه (أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم)

****

الْخَامِسُ : مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ.

كَقَوْلِهِ: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى**(هو الله) **بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ وكان يجب أن يقال (الذى بارك (الله) حوله) .ويقول الإمام الطاهر: وَفِي تَغْيِيرِ الْأُسْلُوبِ مِنَ الْغَيْبَةِ(الله) الَّتِي فِي اسْمِ الْمَوْصُول وَضَمِيرَيْهِ (الذى أسرى) إِلَى التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ: بارَكْنا (ولم يقل: بارك حوله، مشياً على منهج النظم والسياق)... وكذلك الالتفات فى (**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**) وكان حقه أن يقال(ليريه). وهنا يقول الإمام الطاهر: إن ذلك سُلُوكٌ لِطَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ الْمُتَّبَعَةِ كَثِيرًا فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ. وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** فِي [الْفَاتِحَةِ: ٥].

وَالِالْتِفَاتُ هُنَا امتاز بلطائف:

مِنْهَا : أَنَّهُ لَمَّا اسْتُحْضِرَتِ الذَّاتُ الْعَلِيَّةُ بِجُمْلَةِ التَّسْبِيحِ (سبحان...) وَجُمْلَةِ الْمَوْصُولِيَّةِ (الذى أسرى..) صَارَ مَقَامُ الْغَيْبَةِ مَقَامَ مُشَاهَدَةٍ فَنَاسَبَ أَنْ يُغَيِّرَ الْإِضْمَارَ إِلَى ضَمَائِرِ الْمُشَاهَدَةِ وَهُوَ مَقَامُ التَّكَلُّمِ.

وَمِنْهَا : الْإِيمَاءُ إِلَى أن النبيء(ﷺ) عِنْدَ حُلُولِهِ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى قَدِ انْتَقَلَ مِنْ مَقَامِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى مَقَامِ مَصِيرِهِ فِي عَالَمِ الْمُشَاهَدَةِ.(فلما كان فى عالم الغيب- فى بداية رحلته قبل أن يرى ويشاهد- خاطبه بلفظ الغيبة(أسرى –

هو–بعبده)، وحينما وصل إلى مرحلة القرب والمشاهدة والحضور خاطبه بصيغة الحضور فى قوله(لنريه– نحن–من آياتنا).. وسنرى مثالاً لذلك عرضه علينا الدكتور حسن طبل حين تعرضه لتغير الضمائر فى الآية القرآنية (**فَقَضَاهُنَّ** – هو– **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ** (**فِي يَوْمَيْنِ**) **وَأَوْحَى** – هو– **فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**((فجاء بصيغة الغيبة لأنها أمور لم يشهدها أحد)) (**وَزَيَّنَّا**) - نحن- **السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا** (بصيغة الحاضر لأنها أصبحت فى مرحلة الظهور) **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** كعادة القرآن فى ذكر صفاته سبحانه بصيغة الغيبة لأنه سبحانه غيب(١٢)). (٢٤)

وَمِنْهَا : التَّوْطِئَةُ وَالتَّمْهِيدُ إِلَى مَحْمَلِ مَعَادِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، فَيَتَبَادَرُ عَوْدُ ذَلِكَ الضَّمِيرِ إِلَى غَيْرِ مَنْ عَادَ إِلَيْهِ ضمير لِنُرِيَهُ، لِأَنَّ الشَّأْنَ تَنَاسُقُ الضَّمَائِرِ، وَلِأَنَّ الْعَوْدَ إِلَى الِالْتِفَاتِ بِالْقُرْبِ لَيْسَ مِنَ الْأَحْسَنِ.

فَقَوْلُهُ: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْأَظْهَرُ أَنَّ الضَّمِيرَيْنِ عَائِدَانِ إِلَى النَّبِيءِ (ﷺ). فلو قال(ليريه من آياته إنه هو السميع العليم) فيكون السميع العليم عائد على الله ، ولذلك سيغير الضمير لتغير الموصوفين فقال(لنريه) لأنه عائد على الله، و(هو) السميع البصير يكون عائد على النبى(ﷺ).. وهو مايراه الإمام الطاهر– وأرجحه معه – وهذا رأى لا مانع منه ونقره عليه وهو بمعنى وصف النبى (ﷺ) فى سورة النجم(**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى** (١٧)) وهو مساو لوصفه هنا ب(السميع البصير) وَقَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَاسْتَقْرَبَهُ الطِّيبِيُّ، وَلَكِنَّ جُمْهُورَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وأقول: وَلَعَلَّ احْتِمَالَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ مَقْصُودٌ.

وكما يقول الإمام الطاهر: وَقَدْ تَجِيءُ الْآيَاتُ مُحْتَمِلَةً عِدَّةَ مَعَانٍ. وَاحْتِمَالُهَا مَقْصُودٌ تَكْثِيرًا لِمَعَانِي الْقُرْآنِ، لِيَأْخُذَ كُلٌّ مِنْهُ عَلَى مِقْدَارِ فَهْمِهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمُقدمَة التَّاسِعَة. ..وَالتَّعْلِيلُ عَلَى اعْتِبَارِ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ إِلَى النبيء (ﷺ) أَوْقَعُ، إِذْ لَا

---

(٢٤) ما عدا قوله تعالى:(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩))لأنها وردت فى حال ظهور رب العالمين الفعلى وتجليه لموسى عليه السلام بعد قوله:(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩))

حَاجَةَ إِلَى تَعْلِيلِ إِسْنَادِ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ مُحَقَّقٌ مَعْلُومٌ لدى الكفار من أن الله سميع عليم. وَإِنَّمَا الْمُحْتَاجُ لِلتَّعْلِيلِ هُوَ إِعْطَاءُ تِلْكَ الْإِرَاءَةِ الْعَجِيبَةِ لِمَنْ شَكَّ الْمُشْرِكُونَ فِي حُصُولِهَا لَهُ وَمَنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَا يُطِيقُهَا مِثْلُهُ وهو(محمد(ﷺ)).

عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى صِيغَةِ قَصْرٍ بِتَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ بِاللَّامِ وَبِضَمِيرِ الْفَصْلِ قصراً مؤكداً(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)، وَهُوَ قَصْرٌ مَوْصُوفٌ عَلَى صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْقَلْبِ، أَيْ هُوَ الْمُدْرِكُ لِمَا سَمِعَهُ وَأَبْصَرَهُ لَا الْكَاذِبُ وَلَا الْمُتَوَهِّمُ كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ. وَهَذَا الْقَصْرُ يُؤَيِّدُ عَوْدَ الضَّمِيرِ إِلَى النبيء (ﷺ) لِأَنَّهُ الْمُنَاسِبُ لِلرَّدِّ. وَلَا يُنَازِعُ الْمُشْرِكُونَ فِي أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ وَبَصِيرٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلِ ذَلِكَ بِأَنَّهُ الْمُسْمِعُ وَالْمُبْصِرُ لِرَسُولِهِ الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ، فَيُؤَوَّلُ إِلَى تَنْزِيهِ الرَّسُولِ عَنِ الْكَذِبِ وَالتَّوَهُّمِ.

ثُمَّ إِنَّ الصِّفَتَيْنِ عَلَى تَقْدِيرِ كونهمَا للنبيء (ﷺ) هُمَا عَلَى أَصْلِ اشْتِقَاقِهِمَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي قُوَّةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَقَبُولِهِمَا لِتَلَقِّي تِلْكَ الْمُشَاهَدَاتِ الْمُدْهِشَةِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغَى [النَّجْم: ١٧] ، وَقَوْلُهُ: أَفَتُمارُونَهُ عَلى مَا يَرى [النَّجْم: ١٢] .

وَأَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِمَا صِفَتَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى فَالْمُنَاسِبُ أَنْ تُؤَوَّلَا بِمَعْنَى الْمُسْمِعِ الْمُبْصِرِ، أَيِ الْقَادِرِ عَلَى إِسْمَاعِ عَبْدِهِ وَإِبْصَارِهِ،

(**سُبْحَانَ الَّذِي**- هو- **أَسْرَى بِعَبْدِهِ** - هو- **لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا**- نحن- **حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ**- نحن- **مِنْ آيَاتِنَا** - نحن- **إِنَّهُ هُوَ** - هو- **السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (**١**)) [الإسراء: ١] يصرح البلاغيون بأن ثمة التفاتاً من الغيبة- هو- في قوله "سبحانه الذي أسرى .." إلى التكلم في قوله "باركنا"، ثم عن التكلم إلى الغيبة- هو- في قوله (ليريه) على قراءة الحسن، ثم عن الغيبة إلى التكلم في قوله(آياتنا) ثم عن التكلم إلى الغيبة في قوله:(إنه هو السميع البصير).

يقول الإمام البقاعى: وجعل الالتفات لتعظيم الآيات والبركات(٢٥)

---

(٢٥) وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم قوله { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا .. (١٢٠) } إلى قوله تعالى { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا.. (١٢٣)} الآيَة، كان ظَاهر ذلك تفضيل

ويقول الإمام الطاهر: وَفِي تَغْيِيرِ الْأُسْلُوبِ مِنَ الْغَيْبَةِ الَّتِي فِي اسْمِ الْمَوْصُولِ (الذى-هو-) وَضَمِيرَيْهِ (أسرى- بعبده-) إِلَى التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ:(**بارَكْنا**)...و(**لِنُرِيَهُ**) **مِنْ** (**آياتِنا**) سُلُوكُ لِطَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ الْمُتَّبَعَةِ كَثِيرًا فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ. وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ فِي [الْفَاتِحَةِ: ٥].

وَالِالْتِفَاتُ هُنَا امتاز بلطائف:

مِنْهَا : أَنَّهُ لَمَّا اسْتُحْضِرَتِ الذَّاتُ الْعَلِيَّةُ بِجُمْلَةِ التَّسْبِيحِ وَجُمْلَةِ الْمَوْصُولِيَّةِ (سبحان الذى أسرى بعبده) صَارَ مَقَامُ الْغَيْبَةِ مَقَامَ مُشَاهَدَةٍ- أى تم التعريف بالأمر وظهوره - فَنَاسَبَ أَنْ يُغَيِّرَ الْإِضْمَارَ إِلَى ضَمَائِرِ الْمُشَاهَدَةِ وَهُوَ مَقَامُ التَّكَلُّمِ.

وَمِنْهَا : الْإِيمَاءُ إِلَى أَن النبيء- عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام- عِنْدَ حُلُولِهِ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى قَدِ انْتَقَلَ مِنْ مَقَامِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى مَقَامِ مَصِيرِهِ فِي عَالَمِ الْمُشَاهَدَةِ (أى المقام الذى كشف الله له عن الغيب فى هذه الرحلة) فناسبه العدول إلى ضمير المتكلم.

وَمِنْهَا : التَّوْطِئَةُ وَالتَّمْهِيدُ إِلَى مَحْمَلِ مَعَادِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، فَيَتَبَادَرُ عَوْدُ ذَلِكَ الضَّمِيرِ إِلَى غَيْرِ مَنْ عَادَ إِلَيْهِ ضمير (لِنُرِيَهُ) لِأَنَّ الشَّأْنَ

إبراهيم عليه السلام على محمد (ﷺ) وعلى جميع الأنبياء لا سيما مع الأمر بالاتباع، فأعقب ذلك بسورة الإسراء، وقد تضمنت من خصائص نبيناً (ﷺ) ، وانطوت على ما حصل منه المنصوص في الصحيح والمقطوع به والمجمع عليه من أنه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم وبجل وعظم - سيد ولد آدم، فاستفتحت السورة بقصة الإسراء وقد تضمنت - حسبما وقع في صحيح مسلم وغيره - إمامته بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وفيهم إبراهيم وموسى وغيرهما من الأنبياء من غير استثناء، هذه رواية ثابت عن أنس رضي الله عنه، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنه - صلى الله عليه السلام-.

يقول الإمام الألوسى:- (سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ) وقيل إن في التعبير به- أى عبده- هنا دون حبيبه مثلاً سداً لباب الغلو فيه صلّى الله عليه وسلّم كما وقع للنصارى في نبيهم عليه السلام، وذكروا أنه لم يعبر الله تعالى عن أحد بالعبد مضافا إلى ضمير الغيبة المشار به إلى الهوية إلا النبي (ﷺ) ، وفي ذلك من الإشارة ما فيه، ومن تأمل أدنى تأمل ما بين قوله تعالى: (سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ) وقوله تعالى (وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا) [الأعراف: ١٤٣] ظهر له الفرق التام بين مقام الحبيب ومقام الكليم (ﷺ)

تَنَاسُقُ الضَّمَائِرِ، وَلِأَنَّ الْعَوْدَ إِلَى الِالْتِفَاتِ بِالْقُرْبِ لَيْسَ مِنَ الْأَحْسَنِ) انتهى.((
وأقول موضحاً: يريد أن يقول إنه غيَّر الأسلوب من ضمير الغيبة (أسرى بعبده) إلى ضمير المتكلم (لنريه.. آياتنا) التى تدل- بلا شك- على الله سبحانه ، وغيَّر لضمير الجمع المعظم لذاته ولآياته والدال على ذاته سبحانه لأنه بعدها سيأتى بضمير يدل على شخص النبى- (إنه هو السميع البصير)- على رأى الإمام الطاهر الذى سنعيش معه بعد قليل الذى يُرجح فيه أن يكون الضمير فيه للنبى (ﷺ) وأنه هو السميع البصير... فكان لابد من تغيير الضمائر لتغيير الذات المقصودة، فجاء بضمير التعظيم والتفخيم لذاته سبحانه بضمير الجمع والخطاب(لنريه من آياتنا) توطئة لقصد النبى(ﷺ) فى قوله(إنه هو السميع البصير)، ويكون محمد(ﷺ) هو السميع البصير ، وأراد النظم أن يقول: لا تتساوى ذات الله مع ذات النبى(ﷺ) فى سياق واحد. فغير الضمائر لذلك.

ثم يكمل الإمام الطاهر: فَقَوْلُهُ: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْأَظْهَرُ أَنَّ الضَّمِيرَيْنِ عَائِدَانِ إِلَى النبيء (ﷺ). وَقَالَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَاسْتَقْرَبَهُ الطِّيبِيُّ، وَلَكِنَّ جَمْهَرَةَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.وَلَعَلَّ احْتِمَالَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ مَقْصُودٌ.

وَقَدْ تَجِيءُ الْآيَاتُ مُحْتَمِلَةً عِدَّةَ مَعَانٍ. وَاحْتِمَالُهَا مَقْصُودٌ تَكْثِيرًا لِمَعَانِي الْقُرْآنِ(أى أن يكون مقصود (إنه هو السميعً البصير) هو رب العالمين، ويجوز أن يكون هو محمد(ﷺ) ، والذى أشار إلى ذلك هو تغيير الضمائر الذى ذكرناه، حيث قال(لنريه من آياتنا) ثم جاء بعدها بصيغة الغيبة فى قوله بعدها(إنه هو السميع البصير) وهذا هو ما يتميز به النظم الكريم المعجز، لِيَأْخُذَ كُلٌّ مِنْهُ عَلَى مِقْدَارِ فَهْمِهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمُقدمَة التَّاسِعَة حسب قول الإمام الطاهر.

ويقول الإمام الطاهر- وأنا أوافقه فى ذلك-: وَالتَّعْلِيلُ عَلَى اعْتِبَارِ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ إِلَى النبيء (ﷺ) أَوْقَعُ، إِذْ لَا حَاجَةَ إِلَى تَعْلِيلِ إِسْنَادِ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ مُحَقَّقٌ مَعْلُومٌ.

أى إنه معلوم لديهم أن الله سميع بصير، ورحلة الإسراء لم يكن الشك فيها بأن الله غير سميع أو بصير، ولكن الشك كان فى ادعائهم أن محمداً (ﷺ) كاذب وهو لم يسمع أو يرى، ولذلك جاء رد الله عنه بقوله:(إنه هو السميع البصير) وكما يقول الإمام الطاهر: وَإِنَّمَا الْمُحْتَاجُ لِلتَّعْلِيلِ هُوَ إِعْطَاءُ تِلْكَ الْإِرَاءَةِ الْعَجِيبَةِ لِمَنْ شَكَّ الْمُشْرِكُونَ فِي حُصُولِهَا لَهُ- أى محمد(ﷺ) - وَمَنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَا يُطِيقُهَا مِثْلُهُ.

عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى صِيغَةِ قَصْرٍ بِتَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ بِاللَّامِ -(السميع البصير)- وَبِضَمِيرِ الْفَصْلِ قصرا مؤكدا(هو السميع)، وَهُوَ قَصْرٌ مَوْصُوفٌ عَلَى صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْقَلْبِ، أَيْ هُوَ الْمُدْرِكُ لِمَا سَمِعَهُ وَأَبْصَرَهُ لَا الْكَاذِبُ وَلَا الْمُتَوَهِّمُ كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ. وَهَذَا الْقَصْرُ يُؤَيِّدُ عَوْدَ الضَّمِيرِ إِلَى النبيء (ﷺ) لِأَنَّهُ الْمُنَاسِبُ لِلرَّدِّ. وَلَا يُنَازِعُ الْمُشْرِكُونَ فِي أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ وَبَصِيرٌ إِلَّا عَلَى تَأْوِيلِ ذَلِكَ بِأَنَّهُ الْمُسْمِعُ وَالْمُبْصِرُ لِرَسُولِهِ الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ، فَيُؤَوَّلُ إِلَى تَنْزِيهِ الرَّسُولِ عَنِ الْكَذِبِ وَالتَّوَهُّمِ.(وبذلك يجوز أن نصرف المعنى لله وكذلك لرسوله).

ثُمَّ إِنَّ الصِّفَتَيْنِ عَلَى تَقْدِير كَونهمَا للنبيء (ﷺ) هُمَا عَلَى أَصْلِ اشْتِقَاقِهِمَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي قُوَّةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَقَبُولِهِمَا لِتَلَقِّي تِلْكَ الْمُشَاهَدَاتِ الْمُدْهِشَةِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى [النَّجْم: ١٧] ، وَقَوْلُهُ: أَفَتُمارُونَهُ عَلى مَا يَرى [النَّجْم: ١٢] .

وَأَمَّا عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِمَا صِفَتَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى فَالْمُنَاسِبُ أَنْ تُؤَوَّلَا بِمَعْنَى الْمُسْمِعِ الْمُبْصِرِ، أَيِ الْقَادِرِ عَلَى إِسْمَاعِ عَبْدِهِ وَإِبْصَارِهِ، كَمَا فِي قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِ يَكْرِبَ:أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ . أَيْ الْمُسْمِعُ.)انتهى

وأقول: هذا كلام رائع وممتع قد قمنا بتفصيله وتوضيحه لأهميته.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ مريم... فهو فى بداية السياق يحكى أمرهم لنا (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**) ثم اشتد غضب الله عليهم من هذا الجرم وكأنه التفت إليهم أو أحضرهم أمامه لهذا التوبيخ العنيف

بقوله(لهم):(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) وكان يجب أن يُقَال(لقد جاءوا شيئاً إدًّا) ولو قالها فحينها سيفقد السياق هذه الحرارة وشدة التوبيخ والغضب التى ذكرناها.

****

ومثل ذلك فى قوله تعالى فى آل عمران ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ** (هم) **أَكَفَرْتُمْ** (أنتم) **بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا** (أنتم) **الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** (١٠٦) ﴾ فقد كان الحديث عنهم (**الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ**(هم)) ثم اشتد غضب الله عليهم فأحضرهم لهذا التوبيخ وخاطبهم خطاب الحاضر(**أَكَفَرْتُمْ**(أنتم) **بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا**(أنتم) **الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** (١٠٦) وهنا سيشعر القارىء بتغير النبرة وشدتها.. وهذا بخلاف نعومة السياق فى قوله عن المؤمنين الذى جرى على سياق واحد: **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ** (هم) **فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (١٠٧)

ومثال ذلك أن تتحدث عن شخص مجرم- وهو يقف بجوارك وليس بعيداً عنك وعن قبضتك، ولكنك تتحدث عنه بصفة الغائب كراهة مخاطبته- وتتكلم مع صاحبك عنه وعن إجرامه وتقول له(هذا المجرم الذى يفعل كذا وكذا وكذا، ثم حينما يزداد غضبك وحنقك على هذا المجرم تتوجه إليه بالخطاب- وتحضره أمامك وفى قبضتك وتقول له(ألا تتقى الله أنت أيها المجرم)- ثم تعود للحديث مع صاحبك عنه ، ثم إذا اشتد غضبك كررت هذا الفعل مع المجرم من إحضارك له فى قبضتك تهزه هزاً وتنفضه نفضاً، فأصبح خطاب الحاضر بعد أن كان بخطاب الغائب.. ولله المثل الأعلى وهو هذا الذى حدث فى الأمثلة السابقة.

**** ومثل ذلك التحول نراه فى قوله تعالى:**

﴿ **فَتُكْوَى بِهَا (جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ) هَذَا (مَا كَنَزْتُمْ)** ﴾ التوبة. ولم يقل(هذا ما كنزوا) تمشياً مع السياق، وذلك لما ذكرناه فى المثال السابق.

ويرى البعض من العلماء أن جُمْلَةُ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ، وَحَذْفُ الْقَوْلِ فِي مِثْلِهِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ،- أى:يُقال لهم: هَذَا مَا كَنَزْتُمْ.. وأناً لا أرجح هذا الرأى، وهو ما رده أيضاً الإمام الطاهر فى قوله تعالى((**وَقَالُوا) اتَّخَذَ (الرَّحْمَنُ) وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ (جِئْتُمْ) شَيْئًا إِدًّا (٨٩**)) ويقول: فَلَا يَحْسُنُ تَقْدِيرُ: ((**قُلْ) لَقَدْ جِئْتُمْ**..).

****

﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا (الْإِنْسَانَ) فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ (رَدَدْنَاهُ) أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا (يُكَذِّبُكَ**)-أنت وليس"هو"- **بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨**)). ﴾

وكما يقول الإمام الطاهر: وَضَمِيرُ الْخِطَابِ- **فَمَا يُكَذِّبُكَ**- الْتِفَاتٌ، وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: فَمَا يُكَذِّبُهُ (أى الإنسان المُتَحدَّثُ عنه فى السياق). وَنُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ هُنَا أَنَّهُ أَصْرَحُ فِي مُوَاجَهَةِ الْإِنْسَانِ الْمُكَذِّبِ بِالتَّوْبِيخِ.(فتعنيفه فى وجهه ومواجهته أقوى من التحديث عنه بصيغة الغائب) (٢٦) وَمَعْنَى يُكَذِّبُكَ يَجْعَلُكَ مُكَذبا، أَي لاعذر لَكَ فِي تَكْذِيبِكَ بِالدِّينِ.

****

﴿ **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ** — الله يخاطب حبيبه (ﷺ) خطاب مباشر-**(٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ**- الخطاب عن الغائب(الإنسان)- **(٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ** (٢٧) **إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى**

---

(٢٦) وهو مثال قوله تعالى فى توبيخ أهل الشقاء:(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)ولم يقل: (أكفروا)؟

(٢٧) من هو المُتَكَلَّم عنه هنا فى قوله (إنَّه) الله أم الإنسان؟ ويقول الإمام الرازى: وَفِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: الضَّمِيرُ فِي أَنَّهُ لِلْخَالِقِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ ذِكْرُهُ، وَالسَّبَبُ فِيهِ وَجْهَانِ الْأَوَّلُ: دَلَالَةُ خُلِقَ عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي خَلَقَ قَادِرٌ عَلَى رَجْعِهِ. الثَّاني: أَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ ذِكْرُهُ لَفْظًا، وَلَكِنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي بَدَاءَةِ الْعُقُولِ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ، هُوَ اللَّهُ

السَّرَائِرُ (٩) **فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ** وَلَا نَاصِرٍ (١٠) **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ** (١١) **وَالْأَرْضِ** ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا **(١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا** (١٦) **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** (١٧) ﴾ .. فهنا يوجد التفاتان الأول فى ضمير(إنَّه) وقد ذكرناه، وهو كثير فى النظم القرآنى، والثانى فى صيغة الفعل (فَمَهِّلِ ... أَمْهِلْ) وسوف نقف عليه فى الصفحات القادمة.

ومثل هذا الالتفات ولكنه فى تغيير حروف الجر فى نفس السياق فى قوله تعالى ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ** .. (٦٠) ﴾ التوبة.

وملخص ما ذكره العلماء فى استخدامه حرف اللام- حرف العلة والملكية- فى قوله (للفقراء و..و..)،(لصالح الفقراء أو لتمليكهم لها) وعدوله إلى حرف الظرفية (فى) مع الغارمين وفى الرقاب فى قوله (فى الرقاب...) والعطف عليها فى قوله (والغارمين) أى (وفى الغارمين) وذلك لما يلى:

١- أن الصدقة حينما تعطى للمسكين والفقير فإنه ينتفع بها – يأكل ويشرب ويلبس- فكانت هذه الصدقة له- لملكه ومنفعته- فقال (للفقراء ...)... أما حينما نعطى الصدقة للغارمين- أى الذى سيأخذ الصدقة ولا ينتفع بها فى أكله وشرابه وملبسه، ولكنه سيأخذ الصدقة ويعطيها لصاحب الدَّيْن عليه، فلا يليق- فى لغة القرآن – أن يسند لها لام المنفعة والملكية، ولذلك لم يقل (للغارمين) وقال (فى الغارمين).. ولعل هذا هو ما أشار إلى طرفٍ منه – ولم يكمله- الإمام الألوسى فى قوله: فإما أن يكون التقدير إنما الصدقات مصروفة للفقراء كما يقول مالك ومن معه، أو مملوكة للفقراء. فلهذا السبب حدث الالتفات فى الحرف وللأسباب التالية:

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ كَانَ كَالْمَذْكُورِ.((وأقول: هذا عند البعض يعتبر من الالتفات))

٢- أن هناك فارقاً- من جهة اللغة- بين استخدام حرف اللام أو حرف(فى) نوضحه بالمثال التالى: حينما أقول لصاحبى أنا ماشى(لحاجتك أو لمصلحتك) وتقول له: أنا ماشى(فى حاجتك أو فى مصلحتك) فإن الأمر يختلف مع الصيغتين؛ فحينما أقول: أنا ماشى(فى حاجتك) فإن حاجتك تحيطنى من كل جانب فلا أتحرك لغيرها.. أما الصيغة الثانية: أنا ماشى(لحاجتك)، فإننى أمشى فى حاجتك ولكن لا تنفى أن أمشى لحاجات أخرى معها ، فهى أقل فى الاهتمام من قوله(فى حاجتك).

٣- وينبنى على ما سبق رأياً ثالثاً وهو أننى لا أعطى صدقتى (للغارم) ثم أتركه وأمشى ولربما لا تكفى صدقتى لقضاء هذا الدَّيْن ، فحينئذٍ يطالبنى النظم (فى الغارمين) أن أستمر فى الاهتمام به ولا أتركه حتى يتم قضاء كل دينه- كأن أحض الغير إلى التصدق عليه- وهذا المعنى مستمد من أن(فى الغارمين) تفيد أن مصلحته تحيطنى من كل جانب ولا تتركنى إلا بعد أن أقضيها وأزيلها.

٤- ويشير إلى بعض ما قلناه ويؤكده ما ذكره الإمام الزمخشرى فى قوله: فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة ؟ قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، لأنّ «في» للوعاء، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير «في» في قوله (وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين.

٥- ويدندن حول هذا ما أضافه غيره من العلماء مثل الإمام الطاهر فى قوله:

و(فِي) لِلظَّرْفِيَّةِ الْمَجَازِيَّةِ وَهِيَ(وفى الرقاب) مُغْنِيَةٌ عَنْ تَقْدِيرِ «فَكِّ الرِّقَابِ»، لِأَنَّ الظَّرْفِيَّةَ جَعَلَتِ الرِّقَابَ كَأَنَّهَا وُضِعَتِ الْأَمْوَالُ **فِي جَمَاعَتِهَا**، وَلَمْ يُجَرَّ بِاللَّامِ- (أى لم يقل: للرقاب)- لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الرِّقَابَ تُدْفَعُ إِلَيْهِمْ أَمْوَالُ الصَّدَقَاتِ، وَلَكِنْ تُبْذَلُ تِلْكَ الْأَمْوَال **فِي عتق** الرِّقَابِ بِشِرَاءٍ أَوْ إِعَانَةٍ عَلَى نُجُومِ كِتَابَةٍ، أَوْ فِدَاءِ أَسْرَى

مُسْلِمِينَ، لِأَنَّ الْأَسْرَى عَبِيدٌ لِمَنْ أَسَرُوهُمْ، وَقَدْ مَضَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٧٧] قَوْلُهُ: وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ.

ففي الآية الكريمة عدول عن حرف الجر (اللام) الوارد في صدرها مع الفقراء إلى "في" مع الرقاب وسبيل الله، يقول الزمخشري في بيان سر هذا العدول في الآية: إنه "للإيذان بأنهم (الرقاب – الغارمين – سبيل الله – ابن السبيل) أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، لأن "في" للوعاء، فنبه على أنهم أحق بأن توضع فيهم الصدقات، ويجعلوا مظنة ومصباً، وذلك لما لها في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفي فك الغارمين من التخليص والاتقاء، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال، وتكرير "في" في (وفي سبيل الله وابن السبيل) وفيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين".

ويقول الدكتور حسن طبل معلقاً على قول الإمام الزمخشرى: والواقع أنا لا نميل إلى هذا الرأي الذي تردد كثيراً بعد الزمخشري؛ إذ لو كان الأربعة الأواخر هم الأحق بالصدقة – كما يقرر هذا الرأي – لبادرت الآية بتقديمهم على من سبقهم؛ إذ في تقديم الشيء دليل أفضليته على ما تأخر عنه، وذلك أن من عادة العرب الفصحاء كما يقول الزركشي: "إذا أخبر به عنه، وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فإنهم مع ذلك إنما يبدءون بالأهم والأولى، قال سيبويه كأنهم يقدمون الذي شأنه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى – وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم.

(وأنا أخالف أستاذنا العظيم د: حسن طبل فى ذلك الرد، لأن التقديم لا يشترط أن يكون دائماً للأفضلية، وأضرب لذلك مثالاً مقرباً وقريباً من موضوعنا هذا وذلك فى قوله تعالى﴿ **يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ (إِنَاثًا) وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ (الذُّكُورَ) (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ (ذُكْرَانًا) (وَإِنَاثًا) وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)** ﴾

وهذا أيضاً يعتبر **من باب الالتفات** حيث إنه قدَّم الإناث هنا ليس لأفضليتهم على الذكور –كما نعلم– بل لتقديم ما يكرهه أهل الجاهلية– تمشياً مع السياق قبلها الذى يشير إلى أنه سبحانه يقدم ما يشاؤه لا ما يشاءون فى قوله تعالى(**لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)** فهنا قدّم الإناث – الذى يعطى ظل التفضيل– ولكنه جاء بهم على صيغة النكرة حيث قال(إناثاً) ولم يقل(الإناث)، وهذا التنكير يعنى التقليل ، وبذلك لم يعط لهن الأفضلية المطلقة على الذكور الذين أخَّر ذكرهم– وهو تقليل– ولكنه جاء بهم بصيغة التعريف (الذكور) التى تعلى من شأنهم، وبذلك لا يكون التأخير تأخيراً مطلقاً على الإناث.. ومن هنا نجد أنه لايوجد تفضيل لجنس على الآخر، وهو المطلوب إثباته وتصويره هنا، فإذا قدم الإناث فإنه نكَّرهم، وإذا أخَّر الذكور فإنه عرفهم، فكانت المساواة التى أراد النظم إثباتها.. ولكنه قدَّم الإناث هنا من باب تخطئتهم فى تفضيلهم للذكور على هذا الجنس وأنهم يشاءون تقديم الذكور فأراد الله أن يقدم مشيئته لا مشيئتهم (**يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ**) فالجنسان هما خلق الله ومشيئته التى أرادت هذا الاختلاف، بل إنه سبحانه أكَّد ذلك بالالتفات الآخر فى الشق الثانى وهو قوله تعالى (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ (ذُكْرَانًا) (وَإِنَاثًا) وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠))حيث طمأن الذين هم أولياء الإناث أنه سيعلى شأنهم وشأنهن بتزويجهن أفضل الرجال الذين وصفهم بصيغة المبالغة فى صفة الذكورة بقوله(ذكراناً) وليس(ذكوراً) التى كانت تتناسب مع قوله(إناثاً)، ولكنه أحدث هذا الالتفات والتغيير من (ذكوراً) إلى (ذكراناً) لهذا المعنى

ويميل الدكتور حسن طبل إلى الرأي الذي ذكره الألوسي في هذا الصدد، وذلك حيث قال: ".. وفي تعريف الذكور التنبيه على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر، وأنه الذي عقدوا عليه مناهم"، فبناء على هذا الرأي يكون سر تنكير الإناث هو الإشعار بتجاهل العرب وكراهيتهم لهذا الجنس، فكأن الآية الكريمة تقرر لهؤلاء من خلال ظاهرة التعريف بعد التنكير – أن الجنس الذي

تتوارون عن القوم بسببه حيناً، وتوارونه في التراب حيناً آخر – يستوي مع الجنس الذي هو معقد آمالكم في أن كلاً منهما هو عطاء مالك السموات والأرض الذي يهب ما يشاء لمن يشاء .

ويرى الإمام أبو السعود أن: تقديمَ الأناثِ لأنَّها أكثر لتكثير النسل أو لان مساقَ الآيةِ للدلالةِ على أنَّ الواقعَ ما تتعلقُ به مشيئته تعالى لا ما تتعلقُ به مشيئة الإنسانِ والإناثُ كذلكَ، أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ والعربُ تعدُّهنَّ أعظمَ البَلاَيا، أو لتطييبِ قلوبِ آبائِهنَّ، أو للمحافظةِ على الفواصلِ. ولذلكَ عرَّفَ الذكورَ أو لجبرِ التأخيرِ وتغييرُ العاطفِ في الثالث لان قسيمُ المشتركِ بينَ القسمينِ ولا حاجة إليه في الرابع لإفصاحه بأنه قسيم المشترك بين القسام المتقدمةِ وقيلَ المرادُ بيانُ أحوالِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ حيثُ وهبَ لشعيبَ

ويرى الإمام الطاهر أن قَوْلَهُ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً هُوَ مِنَ الْمَكْرُوهِ عِنْدَ غَالِبِ الْبَشَرِ وَيَتَضَمَّنُ ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الْكُفْرَان وَهُوَ اعْتِقَادُ بَعْضِ النِّعْمَةِ سَيِّئَةً فِي عَادَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ تَطَيُّرِهِمْ بِوِلَادَةِ الْبَنَاتِ لَهُمْ، وَقَدْ أُشِيرَ إِلَى التَّعْرِيضِ بِهِمْ فِي ذَلِكَ بِتَقْدِيمِ الْإِنَاثِ عَلَى الذُّكُورِ فِي ابْتِدَاءِ تَعْدَادِ النِّعَمِ الْمَوْهُوبَةِ عَلَى عَكْسِ الْعَادَةِ فِي تَقْدِيمِ الذُّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ حَيْثُمَا ذُكِرَا فِي الْقُرْآن فِي نَحْوِ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَر وَأُنْثى [الحجرات: ١٣] وَقَوْلِهِ: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى [الْقِيَامَة: ٣٩] فَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وأرى أن هذا المثال معنا من هذا الباب فى تأخير الغارمين وفى الرقاب، وأنه أخرهم ولكنه أعطاهم القيمة الأعلى فى حرف الظرفية(فى الرقاب والغارمين)، وقدم الأصناف الأخرى – الفقراء والمساكين- ولكنه لم يميزهم بحرف الظرفية،فحدث هذا التوازن، وأرى أنه قدمهم لأنهم الأكثرية فى العدد والاحتياج وأخَّر الغارمين وفى الرقاب لقلتهم فى العدد.

كما أننا لهذا السبب ذاته لا نسلم بما يقرره أصحاب هذا الرأي من أن تكرار "في" يدل على ترجيح سبيل الله وابن السبيل على الرقاب والغارمين؛ إذ لو كان المراد ترجيحهما لقدما على الرقاب والغارمين.

وقد توقف صاحب تفسير المنار إزاء هذا التحول في الآية الكريمة ثم قال في بيان نكتته: "مصارف الصدقات في الآية قسمان: أحدهما: أصناف من الناس يملكونها تمليكاً بالوصف المقتضى للتمليك، وعبر عنه بلام الملك، وثانيهما: مصالح عامة اجتماعية ودولية لا يقصد بها أشخاص يملكونها بصفة قائمة فيهم وعبر عنه بفي الظرفية، وهو قوله تعالى: وفي الرقاب وفي سبيل الله ... والأول: الفقراء والمساكين، يستحقونها بفقرهم ما داموا فقراء، والعاملون عليها يستحقونها بعملهم وإن كانوا أغنياء .. والغارمون بقدر ما يخرجهم من غرمهم، وابن السبيل بقدر ما يساعده على العود إلى أهله وماله .. والقسم الثاني: فك الرقاب وتحريرها، وهي مصلحة عامة في الإسلام، وليس فيها تمليك لأشخاص معينين بوصف فيهم، وفي سبيل الله، وهو يشمل سائر المصالح الشرعية العامة التي هي ملاك أمر الدين والدولة".

ونحن نرى ما يراه صاحب المنار من أن السر في إيثار لام الملكية مع الأصناف الأربعة الأوائل هو أن كلاً منهم يتملك ما يقدم إليه من مال الصدقة، غير أننا نتوقف فيما ذهب إليه من تخصيص معنى الظرفية بالرقاب وسبيل الله؛ ذلك لأن عطف الغارمين على الرقاب، وابن السبيل على سبيل الله يقتضي إشراك هذا وذاك في معنى الظرفية المستفاد من "في" كما أن عطف المساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم على الفقراء اقتضى إشراكهم في معنى الملكية المستفاد من اللام، وهذا ما لاحظه ابن المنير السني في توجيه دلالة العدول في الآية، فهو يقول: "... وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم، بل ولا يصرف إليهم، ولكن في مصالح تتعلق بهم، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون .. وكذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا

لهم، واما سبيل الله فواضح فيه ذلك، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله وانما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً، وعطفه على المجرور باللام ممكن، ولكن على القريب منه أقرب".

****

﴿ **(هُوَ الَّذِي (يُرِيكُمُ)** -أنتم- **الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ (وَهُمْ) يُجَادِلُونَ (فِي اللَّهِ) وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)** ﴾ الرعد

وإنما التفت الخطاب عنهم في هذه الجملة من الخطاب **(يُرِيكُمُ)** إلى الغيبة **(وَهُمْ) يُجَادِلُونَ)** ، بعد أن كان الكلام موجّها إليهم مع سائر الناس في الجمل السابقة- إيذانا بإسقاطهم عن درجة الخطاب – أى احتقاراً لهم- وإعراضاً عن لغوهم وباطلهم الذي يخوضون فيه. وأسند جدالهم إلى الذات الإلهية **(يُجَادِلُونَ فِي (اللَّهِ))** وكان حقها أن تكون (وهم يجادلون فيه) وذلك من باب الإظهار فى مقام الإضمار- **(وَهُمْ) يُجَادِلُونَ (فِي اللَّهِ) وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**- لإظهار شأن الذى يجادلون فيه إنه (الله) مبيناً عظيم جرمهم..

قال الله تعالى:

﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى، آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا (يُشْرِكُونَ)* أَمَّنْ (خَلَقَ) السَّماواتِ وَالْأَرْضَ (وَأَنْزَلَ) لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً ((فَأَنْبَتْنا)) بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ ((تُنْبِتُوا)) شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ (هُمْ) قَوْمٌ يَعْدِلُونَ* أَمَّنْ (جَعَلَ) الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً، أَإِلهٌ (مَعَ اللَّهِ) بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ* أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ، قَلِيلًا ((ما تَذَكَّرُونَ))* أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ، تَعالَى اللَّهُ عَمَّا (يُشْرِكُونَ)* أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ، قُلْ هاتُوا ((بُرْهانَكُمْ)) إِنْ كُنْتُمْ**

صادِقِينَ. قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها، بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ. ﴾ النمل.

ففى هذه الآيات الكريمة يسأل هؤلاء: أيّهما خير: الله عزّ وجلّ أم ما يؤلهونه من المخلوقات أيّا كانت؟ (**آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ** (**خَلَقَ**)– هو– **السَّماواتِ وَالْأَرْضَ** (**وَأَنْزَلَ**) – هو– (**لَكُمْ**) **مِنَ السَّماءِ ماءً** (**فَأَنْبَتْنا**) **بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ** (**لَكُمْ**) **أَنْ تُنْبِتُوا** (**شَجَرَها**) **أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ** (**هُمْ**) (**قَوْمٌ**) (**يَعْدِلُونَ**)) الوقفة الأولى الالتفات للخطاب(**فَأَنْبَتْنا**) وكان من مقتضى نسق الآية أن يقول: فأنبت به حدائق، فلماذا وقع الالتفات عن ضمير الغائب(**خَلَقَ**) – هو– إلى ضمير المتكلم (**فَأَنْبَتْنا**) ؟

وهنا يقول الإمام الزمخشرى عن ذلك: فإن قلت: أى نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته(الإنبات هنا)، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده.(وأقول: هذا هو معنى توكيد الاختصاص فى قوله (فأنبتنا). ثم يقول: ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله (ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها)

والسبب الثانى يذكره الإمام فى قوله: وكذلك قوله (**بَلْ هُمْ**)– **بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ– بعد الخطاب** (**ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها**) أبلغ في تخطئة رأيهم.. وهو ما يشرحه الإمام الألوسى فى قوله: **بَلْ** (**هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**) إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم (وهو نفس كلام الإمام الزمخشرى الذى قاله عند قوله تعالى(وهو الذى يسيركم فى البر والبحر)، والالتفات فى قوله تعالى(**فأولئك هم المضعفون**) وكأنهم جميعاً نقلوه منه حرفياً هنا، وهو كلام ماتع.

ويشرح ذلك الإمام الرازى فى قوله: المسألة الثَّالِثَة: يُقَالُ مَا حِكْمَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ: فَأَنْبَتْنا؟ جَوَابُهُ: أَنَّهُ لَا شُبْهَةَ لِلْعَاقِلِ في أن خالق السموات وَالْأَرْض وَمُنْزِلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ إِلَّا اللَّه تَعَالَى، وَرُبَّمَا عَرَضَتِ الشُّبْهَةُ فِي أَنَّ مُنْبِتَ الشَّجَرَةَ

هُوَ الْإِنْسَانُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَقُولُ أَنَا الَّذِي أُلْقِي الْبَذْرَ فِي الْأَرْضِ الْحَرَّةِ وَأُسْقِيهَا الْمَاءَ وَأَسْعَى فِي تَشْمِيسِهَا، وَفَاعِلُ السَّبَبِ فَاعِلٌ لِلْمُسَبَّبِ، فَإِذَنْ أَنَا الْمُنْبِتُ لِلشَّجَرَةِ فَلَمَّا كَانَ هَذَا الِاحْتِمَالُ قَائِمًا، لَا جَرَمَ أَزَالَ هَذَا الِاحْتِمَالَ فَرَجَعَ مِنْ لَفْظِ الْغَيْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: **(فَأَنْبَتْنا)** وَقَالَ: **مَا (كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها)** لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَأْتِي بِالْبَذْرِ وَالسَّقْيِ وَالْكَرَبِ وَالتَّشْمِيسِ ثُمَّ لَا يَأْتِي عَلَى وفْق مُرَادِهِ وَالَّذِي يَقَعُ عَلَى وفْق مُرَادِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ جَاهِلًا بِطَبْعِهِ وَمِقْدَارِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ فَاعِلًا لَهَا، فَلِهَذِهِ النُّكْتَةِ حَسُنَ الِالْتِفَاتُ هاهنا.

وأقول أنا الكاتب: إن عادة القرآن الكريم هو أنه يؤكد – ويأتى بأساليب التوكيد– فى الموقف الذى يكون فيه شك لدى الناس أو المخاطَبين، كمثال قول إبراهيم عليه السلام **(الذى خلقنى فهو يهدين)** فإن قضية خلق الله له لاتحتاج إلى توكيد لأنه لايشكك فيها أحد ولا يدعى أحد أن هناك خالقاً غير الله ، ولذلك جاء بفعل الخلق بدون أدوات التوكيد التى سيضعها مع الإطعام والسقيا والشفاء بقوله(هو) يطعنى ويسقين، و(هو) يشفين) أما فى الخلق والإماته فقال(خلقنى- ولم يقل(هو خلقنى)، وقال(يميتنى ثم يحيين)..

وهكذا الحال هنا– وفى كل المواقف الشبيهة– فإنه قام بتوكيد هذه القضية التى فيها مثار شك وشبهات ربما تخطر بالبال ولكن التوكيد هنا جاء باسلوب الالتفات (فأنبتنا) بدلاً من(فأنبتَ)، وأرى أنه قد حدث هذا التوكيد فى مسألة الرزق التى يكون فيها كثرة الشكوك أو تغيب عن البال وتحتاج إلى إظهار حقيقتها وعليها يكون مدار العمل والخطاب ويريد الله أن يلفتهم بقوة إلى أن الرازق هو الله وأن الذى يجيب المضطر إذا دعاه هو الله فلا يرتكنون على غيرة– فى تلك المسائل بصفة خاصة–بخلاف مسائل خلق السماوات أو الأرض أو الجبال أو إرسال الرياح وغيرها من الأمور التى لا تحتاج إلى هذا التوكيد بل تحتاج إلى توبيخهم بصيغة الغائب) ولذلك جاء خطابهم بصيغة الحضور وليس الغيبة فقال**(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ، قَلِيلًا ((ما تَذَكَّرُونَ))*** –

فخاطبهم بصيغة الحضور هنا ((**ما تَذَكَّرُونَ**- أنتم-)) بخلاف الآيات السابقة عليها (يعدلون، لا يعلمون) والآية التالية (**تَعالَى اللَّهُ عَمَّا** (**يُشْرِكُونَ**) هكذا: **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ، تَعالَى اللَّهُ عَمَّا** (**يُشْرِكُونَ**)* ثم يعود عند مسألة(الرزق وإتيان وإظهار البرهان الكاشف) فيأتى بها على صيغة الحضور(**قُلْ هاتُوا**- أنتم- ((**بُرْهانَكُمْ**))-أنتم-) **أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ، قُلْ هاتُوا** ((**بُرْهانَكُمْ**)) **إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**.

أقول ذلك مع التذكر لما يلى:

أن الالتفات عنهم ومخاطبتهم بصيغة الغيبة، يكون مضرباً عن حديثه معهم وسؤاله إيّاهم، **ليحكي صفتهم وحالهم العجيبة للآخرين**(كأنه يشنع عليهم) قائلا: بل هم قوم يعدلون؛ أي كأنه يقول ملتفتا: ولكن ما الجدوى من نقاشهم والبحث معهم؟ إنهم قوم يعدلون عن الحقّ، أو هم يعدلون بالله غيره من الأوثان والمخلوقات!وهكذا فى باقى الأمثلة.

ويضيف الإمام الطاهر قوله: وَنُونُ الْجمعِ فِي (**فَأَنْبَتْنا**) الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْحُضُور. وَمِنْ لَطَائِفِهِ هُنَا التَّنْصِيصُ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ إِسْنَادُ الْإِنْبَاتِ إِلَيْهِ لِئَلَّا يَنْصَرِفَ ضَمِيرُ الْغَائِبِ إِلَى الْمَاءِ لِأَنَّ التَّذْكِيرَ بِالْمُنْبِتِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي خَلَقَ الْأَسْبَابَ أَلْيَقُ بِمَقَامِ التَّوْبِيخِ عَلَى عَدَمِ رِعَايَتِهِمْ نِعَمَهُ،وَالْإِخْبَارُ عَنْهُمْ (بِالْمُضَارِعِ)- يعدلون- لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى شِرْكِهِمْ لَمْ يَسْتَنِيرُوا بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَلَا أَقْلَعُوا بَعْدَ التَّذْكِيرِ بِالدَّلَائِلِ. وَفِي الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ (قَوْمٌ)- إِيمَاءٌ إِلَى تَمَكُّنِ صِفَةِ الْعُدُولِ عَنِ الْحَقِّ مِنْهُمْ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنْ مُقَوِّمَاتِ قَوْمِيَّتِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ غير مرّة.

ويمكن لنا أن نضيف- فوق ما ذكره الإمام- الرأى الذى عشناه على الصفحات الماضية وهو أنه التفت من ضمير الغيبة إلى ضمير الحضور والظهور (فأنبتنا) لأن هذا الإنبات هو (الأثر الظاهر المرئى) فى هذا السياق فجاء بلفظ الحضور(فأنبتنا).

وقوله تعالى: (**تَعالَى** (**اللَّهُ**) **عَمَّا يُشْرِكُونَ**) تقرير وتحقيق له، وإظهار الاسم الجليل(الله) في موضع الإضمار- وهو نوع من الالتفات- للإشعار بعلة الحكم؛ أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، المقتضية لكون جميع المخلوقات مقهورة تحت قدرته .. وقرىء «عما تشركون» بتاء الخطاب.

وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم(برهانكم) تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهانا وأَنَّى لهم ذلك، وقيل: إن الإضافة لزيادة التبكيت كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تعدونه أنتم أيها الخصوم برهانا، يدل على ذلك- وإن لم نعده نحن ولا أحد من ذوي العقول كذلك-، ومع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به (إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) أي في تلك الدعوى، واستدل به على أن الدعوى لا تقبل ما لم (تنور) بالبرهان.

*(**أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (٦١)).

ويلتفت الخطاب عنهم مرة أخرى ليحكي حالهم العجيبة للآخرين: بل أكثرهم لا يعلمون؛ ولما كانت المسائل المستفهم عنها يتوقف الفهم والتقدير التام لها على العلم، قال في حكاية حالهم المسبّبة لغرورهم وجحودهم: بل أكثرهم لا يعلمون. وفيه ما لا يخفى من حمل الناس على التأمل في دقائق الكون ومعرفة ما يقوم عليه من النظام ودقة الخلق والصنع.

* (**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ** (٦٢)).

إنّ من خصائص الإنسان أنه إذا نزلت به شدة من الشدائد وحز به أمر من بلاء أو مصيبة، والتفت من حوله فافتقد الوسيلة المنقذة والصديق المساعد وضاق عليه الخناق، أخذ يرمق السماء بطرفه يسأل الله عزّ وجلّ في ضراعة وذل، ولعلّه كان لا يعرف الله في أوقات الصفو والرخاء.

وهذه الطبيعة الكامنة في الإنسان من أعظم الأدلة على أنه مفطور في حقيقته على العبودية لله عزّ وجلّ والإيمان به، وأن كل انحرافاته التي تبعده عن هذه الفطرة إنما تأتي بسبب غاشية من الغفلة أو سكرة من الكبرياء الكاذب أو الشهوات المتأججة، وسرعان ما يرتدّ إلى فطرته الأصيلة إذ يهتز كيانه بسبب بلاء خانق أو كرب مطبق فيتساقط عنه كل ما قد تعلق به من غواشي الغفلة ومسكرات الشهوات والأهواء.(راجع الدكتور البوطى فى بدائع القرآن)

فمن الذي يستجيب لهذا المضطر إذا دعاه متضرعا له آئبا إليه؟ ومن الذي يكشف السوء عنكم بكل أصنافه ومظاهره؟

وتقف هذه الآية أيضا عن الجواب الذي تنطق به الفطرة الإنسانية في أوضح بيان ... ليكرر السؤال المترتب على الجواب المعرف: أإله مع الله؟ وهنا أيضا يحكي حالتهم التي تصدّهم عن الإيمان بالبدهيات، ولكنه لا يقول هذه المرة: بل أكثرهم لا يعلمون، كما ذكر في الآية السابقة، ذلك لأن هذه الدلائل القائمة في فطرة الإنسان وكيانه، لا تحتاج إلى (علم مجهول)، وإنما تحتاج إلى (تذكّر شيء معلوم) متلبس بالإنسان نفسه، ولذلك قال: قليلا ما تذكّرون، أي تذكراً قليلاً ما تذكّرون: وهو تعبير خاص أريد به عدم التذكّر مطلقا. ((وأقول: يرشح لهذا المعنى أنه لم يلتفت عنهم إلى صيغة الغيبة بل جعلها بصيغة الحضور مناسبة لطلب التذكر الذى هو إظهار المخبوء(قليلاً ما تذكرون))ومثلها آية استحضار البرهان.

* **أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ).**

* **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ، تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.**

ويعيد البيان الإلهي نفس السؤال السابق: أإله مع الله؟ ويلتفت عن الخطاب لهم مرة أخرى، ليقرر تنزيه الذات الإلهية عن لغو الجاحدين وضلالهم قائلا: تعالى الله عمّا يشركون (فهو لايتحدث عن أمرٍ فطرى فى نفوسهم يريد إظهاره بل يخاطبهم

عن أشياء خارج نفوسهم ؛عن خلق السموات والأرض وإنزال الماء والأرض قراراً، وفى هذه الآية عن إرسال الرياح وغيرها فناسبها الالتفات إلى صيغة الغيبة(**عَمَّا يُشْرِكُونَ**). أما فى الأمور المركوزة فى الفطرة والتى تستدعى فقط استحضارها وظهورها من الذاكرة فإنه يستخدم لها صيغة الحضور، وكذلك الحال فى قضية الرزق و(استحضار البرهان المظهر للحقيقة) فسيقول: **قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ** بصيغة الحضور والظهور.

وبمناسبة ما ذكرناه من أن النظم القرآنى يستخدم أدوات التوكيد فى القضايا التى يكون فيها الشك أو سوء الظن ، نُذَكِّر بالمثال التالى- وهو أيضاً من أساليب الالتفات:

﴿ **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)** ﴾ [الواقعة].

فلقد حذفت لام التوكيد من جواب "لو" مع آية الماء (**لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا**) بعد ذكرها في آية الحرث والإنبات(**لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**) ، وقد ذكر المفسرون في بيان السر في هذه المخالفة وجوها من أبرزها:

١- أن صيرورة الماء ملحاً (**لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا**) أسهل وأكثر من جعل الحرث حطاماً(**لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**)؛ إذ الماء العذب يمر بالأرض السبخة فيصير ملحاً، فالتوعد به لا يحتاج إلى توكيد.

٢- أن جعل الحرث حطاماً قلب للمادة والصورة، وجعل الماء أجاجاً قلب للكيفية فقط وهو أسهل وأيسر.

٣- أن اللام أدخلت في آية المطعوم للدلالة على أنه يقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب.(وهذا رأى أراه ضعيفاً)

٤- أن الحرث والزرع كثيراً ما وقع كونه حطاماً، فلو قال جعلناه حطاماً كان يتوهم منه الإخبار فقال من ثم (لجعلناه) ليخرجه عما هو صالح له في الواقع وهو الحطامية، وقال في الماء المنزل من المزن "جعلناه" لأنه لا يتوهم ذلك فاستغنى عن اللام.

والواقع أنا لا نطمئن إلى أي وجه من الوجوه السابقة في تفسير هذه المخالفة؛ وذلك لأن اللفت إلى الحرث والماء في تلك الآيات ليس من زاوية كونهما طعاماً وشراباً للإنسان (كما جرت على ذلك الوجوه السابقة) بل من زاوية التدليل بكل منهما على تفرده جل شأنه بفعل الخلق، وذلك ما يبدو جلياً في طبيعة السياق الذي ورد فيه هذا اللفت، والذي يبدأ بقوله تبارك وتعالى قبل هذه الآيات مباشرة:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

ويرى الدكتور حسن طبل فى سبب المخالفة بذكر لام التوكيد في آية الزرع (لو نشاء لجعلناه ...) دون آية الماء (لو نشاء جعلناه ...) أن نسبة إنزال الماء إلى الخالق لا سبيل إلى إنكارها لمنكر؛ فليس هناك من يستطيع ادعاء القدرة على إنزال الماء من السماء عذباً كان أم أجاجاً .. ومن ثم لم تكن هناك حاجة إلى التوكيد، أما مع نسبة الزرع إليه سبحانه فالأمر مختلف؛ إذ إن هذه النسبة قد ينكرها الإنسان أو يجادل فيها زاعماً – جهلاً واغتراراً – أن فعل (الزرع) أو الإنبات هو نتيجة طبيعية لفعل (الحرث) الذي يزاوله، ومن ثم ورد التوكيد في آية الزرع دحضاً لهذا الزعم، وتأكيداً لهذا الغافل الواهم بأنك بما تزاوله من أسباب في حرث الأرض وإلقاء الحب فيها وسقيها – لست فاعل فعل الإنبات، بل الفاعل الحقيقي هو فالق الحب والنوى سبحانه، والقادر لو شاء على جعل كل منهما – في باطن الأرض – حطاماً.

وأقول: وهذا الرأى أراه وجيهاً وقد قال به بعض العلماء ،ولخصه صاحب تفسير الوسيط فى قوله: **وقال– سبحانه– هنا: لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً وقال في الآيات السابقة: لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً** ... بلام التأكيد، لأن إنزال الماء من السماء وتحويله من ماء عذب إلى ماء ملح، مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه سوى الله– تعالى– لذا لم يحتج الأمر إلى تأكيد..أما جفاف الزرع بعد نضارته، حتى يعود حطاما، فمما يحتمل أنه من فعل الزارع، أو لأى سبب آخر، كآفة زراعية، لذا أكد– سبحانه– أنه هو الفاعل لذلك على الحقيقة، وأنه– تعالى– قادر على تحطيمه بعد نموه وريعانه.

وأشار بمثله الإمام الطاهر فى قوله: وَحُذِفَتُ اللَّامُ الَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَدْخُلَ عَلَى جَوَابِ لَوْ الْمَاضِي الْمُثْبَتِ لِأَنَّهَا لَامٌ زَائِدَةٌ لَا تُفِيدُ إِلَّا التَّوْكِيدَ فَكَانَ حَذْفُهَا إيجازا فِي الْكَلَام.

.... فَإِنْ قِيلَ لِمَ أُكِّدَ الْفِعْلُ بِاللَّامِ فِي الزَّرْعِ وَلَمْ يُؤَكَّدْ، فِي الْمَاءِ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الزَّرْعَ وَنَبَاتَهُ وَجَفَافَهُ بَعْدَ النَّضَارَةِ حَتَّى يَعُودَ حُطَامًا مِمَّا يَحْتَمِلُ أَنَّهُ مِنْ فِعْلِ الزَّارِعِ أَوْ أَنَّهُ مِنْ سَقْيِ الْمَاءِ، وَجَفَافُهُ مِنْ عَدَمِ السَّقْيِ، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِهِ حُطَامًا فِي حَالِ نُمُوِّهِ لَوْ شَاءَ، وَإِنْزَالُ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ مِمَّا لَا يُتَوَهَّمُ أَنَّ لِأَحَدٍ قُدْرَةً عَلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى اه.

ولكن الدكتور فاضل السامرائى ينظر إلى المسألة من وجهة أخرى نستعرضها فى السياق التالى:

والآيتان فيهما تهديد؛ الأولى أنه تعالى لو شاء يجعل الزرع حطاماً فلا يمكن أن يكون طعاماً أو يستفاد منه وهذه عقوبة أشد من جعل الماء أجاج لأن الماء الأجاج يمكن أن يُحوّل إلى ماء عذب، والتهديد لم يأت في الآية بغور الماء كلياً – أى ذهاب الماء كلياً– كما في تهديد جعل الزرع حطاماً ، فكانت **العقوبة في الزرع أشد من العقوبة في الماء** فجاء باللام لتأكيد التهديد في آية الزرع وحذفها من آية التهديد بالماء وهذه اللام تُسمى لام المؤكدة. أما في النار فلم يذكر تحذيراً أو تهديداً وإنما ذكر حالتها فقط (**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ {٧١} أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ**

{٧٢} نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ {٧٣}) لم يقل لو نشاء لذهبنا بها لأن الناس يمكن أن يعيشوا بلا نار لكن لا يمكنهم أن يعيشوا بلا طعام أو ماء.

****

وَقَوْلِهِ: ﴿ **يَوْمَ (يُنْفَخُ) فِي الصُّورِ (وَنَحْشُرُ) الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ طه .

وكان حقها أن تكون (**وَيُحْشَرُ**) (**المجرمون**)، أو يقول: ويوم(ننفخ) فى الصور (ونحشر) المجرمين.. وهنا سيفقد النص حرارة الالتفات بالتهديد المباشر من الله فى قوله(**وَنَحْشُرُ** – نحن- **الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**) – وسيفقد كل هذه القوة بحضور الفاعل(وهو الله) وبصيغة الجمع فى قوله (نحشر)- وإبرازه أمام الأعين، وهو حشر المجرمين زرقا. وجمال هذا لا يظهر إلا فى الالتفات من الغيبة إلى الحضور، **وفيه كما قلنا أيضاً تطرية للسامع وزيادة له في الانتباه والتيقظ**، وكذلك اختار صيغة الغيبة- المبنى للمجهول فى قوله- **يَوْمَ (يُنْفَخُ) فِي الصُّورِ**- يناسب مشهد الغيب والتجهيل والتهويل لهذه الغيبة فى صورة (النفخ فى الصور).والمكلف به إسرافيل وهو الذى سينفخ فقال(يُنفخ) وليس هو الأهم فى السياق ولكن الأهم والمقصود إبرازه هو الحشر وصورته، هذا الحشر الذى سيقوم فيه الناس لرب العالمين على هذه الصورة (زرقا)- وهى أيضاً مرحلة ظهور- ويقفون أيضاً للحساب؛ فهذا يستدعى ظهور القاضى والحكم العدل ومالك الأمر وهو الله تعالى فقالها بصيغة الحضور والجمع (**نحشر الْمُجْرِمِينَ**).

ويضيف الإمام رأياً آخر أشرنا إليه سابقاً وسنشير إليه على الصفحات القادمة وهو مجيء صيغة الجمع لإشراك الملائكة فى تنفيذ الأمر فقال: **أو لأن الملائكة المقرّبين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى** (ننفخ – على إحدى القراءتين- ونحشر)

السَّادِسُ: مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ.

كَقَوْلِهِ: **﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾** ولم يقل:(**لَقَدْ جَاءُوا**) لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ مثل قولهم ينبغي أن يكون موبخًا عليه مُنْكَرًا عَلَيْهِ قَوْلُهُ كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ بِهِ قَوْمًا حَاضِرِينَ. وَلَمَّا أَرَادَ تَوْبِيخَهُمْ عَلَى هَذَا أَخْبَرَ عَنْهُ بِالْحُضُورِ، **فَقَالَ:** {لَقَدْ جِئْتُمْ} لِأَنَّ تَوْبِيخَ الْحَاضِرِ أَبْلَغُ فِي الْإِهَانَةِ لَهُ.

ويقول الزمخشرى: وفي قوله لَقَدْ جِئْتُمْ وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة، وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله، والتعرّض لسخطه، وتنبيه على عظم ما قالوا.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ (الرَّحْمَنُ) **وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا** (لِلرَّحْمَنِ) **وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي** (لِلرَّحْمَنِ) **أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي** (الرَّحْمَنِ) **عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ مريم**

والسؤال الأول: لماذا عدل إلى إظهار اسم (الرحمن) وتكراره على هذه الصورة أكثر من مرة دون ضميره؟

وهنا يقول الإمام الطاهر: وَذِكْرُ (الرَّحْمنُ) هُنَا حِكَايَةٌ لِقَوْلِهِمْ بِالْمَعْنَى، وَهُمْ لَا يذكرُونَ اسْمَ الرحمان وَلَا يُقِرُّونَ بِهِ، وَقَدْ أَنْكَرُوهُ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ: وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ [الْفرْقَان: ٦٠] ، فَهُمْ إِنَّمَا يَقُولُونَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً كَمَا حُكِيَ عَنْهُمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا آيَةُ سُورَةِ الْكَهْفِ. فَذِكْرُ الرَّحْمنُ هُنَا وَضَعٌ لِلْمُرَادِفِ فِي مَوْضِعِ مُرَادِفِهِ، **فَذِكْرُ اسْمِ الرَّحْمنُ لِقَصْدِ إِغَاظَتِهِمْ بِذِكْرِ اسْمٍ أَنْكَرُوهُ.** (وأقول: وهذا الاسم بمدلوله مناسب لجو السورة التى افتتحت بهذا الاسم- ذكر رحمت ربك)

وَفِيهِ أَيْضًا إِيمَاءٌ إِلَى اخْتِلَال قَوْلِهِمْ لمنافاة وصف الرحمان اتِّخَاذَ الْوَلَدِ كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْلِهِ: وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً(٢٨).

وَالْخِطَابُ فِي (لَقَدْ جِئْتُمْ) لِلَّذِينِ قَالُوا اتخذ الرحمان وَلَدًا، **فَهُوَ الْتِفَاتٌ لِقَصْدِ إِبْلَاغِهِمُ التَّوْبِيخَ عَلَى وَجْهٍ شَدِيدِ الصَّرَاحَةِ لَا يَلْتَبِسُ فِيهِ الْمُرَادُ**(٢٩)،كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ آنِفًا:

وَإِنْ (مِنْكُمْ) إِلَّا وارِدُها [مَرْيَم: ٧١] ((وذلك بعد ورود السياق عنهم بصيغة الغيبة فى السياق قبلها هكذا: ﴿ **وَأَنْذِرْهُمْ** –هم – **يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ (وَهُمْ) فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)** ... **وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ** – هو– **مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ** – هم– **وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ**– هم– **حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨)**)... *** ثم قال بعدها بعدة آيات: { **وَإِنْ (مِنْكُمْ)**– أنتم– **إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ**–أنت– **حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١)** ﴾ مريم.وذلك للتخصيص وقوة التوكيد على هذه القضية– (**وَإِنْ (مِنْكُمْ)**– أنتم– **إِلَّا وَارِدُهَا**–) واستحضار هذا المشهد المرعب أمام الأذهان والتوكيد عليه.

وقيل إن الْخِطَابُ فِي(**وَإِنْ مِنْكُمْ**) إِلْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ (**لَنَحْشُرَنَّهُمْ**) و(**لَنُحْضِرَنَّهُمْ**) [مَرْيَم: ٦٨] عَدَلٌ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ **ارْتِقَاءً فِي الْمُوَاجَهَةِ بِالتَّهْدِيدِ حَتَّى لَا يَبْقَى مَجَالٌ لِلِالْتِبَاسِ الْمُرَادِ مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ، فَإِنَّ ضَمِيرَ الْخِطَابِ أَعْرَفُ مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ**. وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: وَإِنْ (مِنْهُمْ) إِلَّا وَارِدُهَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ وَإِنَّ مِنْهُمْ.وَكَذَلِكَ قَرَأَ عِكْرِمَةُ وَجَمَاعَةٌ.

فَالْمَعْنَى: وَمَا مِنْكُمْ أَحَدٌ مِمَّنْ نُزِعَ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ وَغَيْرِهِ إِلَّا وَاردُ جهَنَّمَ حَتْمًا قَضَاهُ اللَّهُ فَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، أَيْ فَلَا تَحْسَبُوا أَنْ تَنْفَعَكُمْ شَفَاعَتُهم أَوْ تَمْنَعَكُمْ عِزَّةُ

---

(٢٨) لأنه أب على المجاز للجميع، فالخلق عيال الله(على المجاز) أى يتساوون فى المحبة لديه سبحانه.

(٢٩) لأنه لو قال لقد جاءوا شيئاً إدًّا، فربما يذهب الذهن لهم أو لغيرهم وليس فيه تحديد أكيد لأصحاب هذا الجرم.

شِيَعِكُمْ، أَوْ تُلْقُونَ التَّبِعَةَ عَلَى سَادَتِكُمْ وَعُظَمَاءِ أَهْلِ ضَلَالِكُمْ، أَوْ يَكُونُونَ فِدَاءً عَنْكُمْ مِنَ النَّارِ. وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** [الْحجر] (٣٠)، أَيِ الْغَاوِينَ وَغَيْرِهِمْ.

****

وهذا الذى ذكرناه يماثل ما ذكرناه فى قوله تعالى:

﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ** – هم- **أَكَفَرْتُمْ** – أنتم- **بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا** – أنتم- **الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** – أنتم- **(١٠٦)** ﴾ آل عمران. فاستحضرهم فى هذه الآية للتوبيخ وبيان شدة الانتقام... وهكذا استحضرهم فى تلك الآية الثانية لبيان أهمية هذه النصيحة وخطورتها (**وَإِنْ مِنْكُمْ**- أنتم- **إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ**-أنت- **حَتْمًا مَقْضِيًّا** (**٧١**)) مريم

والالتفات كما هى فائدته العامة لفت وتنبيه عند مقطع مهم من مقاطع المعنى، وهذا يعنى هنا أن إنكار هذه الفرية أمر مهم ومحتاج إلى أن تتهيأ القلوب لتسمع من الحق رده وإبطاله، ثم هو مجابهة لهم بباطلهم ورمى به فى وجوههم

والمهم فى إدراك الالتفات هو حسن التأنى، وصدق النظر ، والوعى بسياق الكلام ونوع المعنى. وهذه قواعد مهمة يجب التنبه إليها وتذوقها عند ورود الأمثلة الشبيهة لذلك.

ويكمل الإمام الطاهر قولاً يستحق الوقوف عليه طويلاً وتذكره حول هذه الآية الكريمة ﴿ **(وَقَالُوا) اتَّخَذَ (الرَّحْمَنُ) وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ (جِئْتُمْ) شَيْئًا إِدًّا (٨٩)** ﴾ **يقول فيه: فَلَا يَحْسُنُ تَقْدِيرُ: ((قُلْ) لَقَدْ جِئْتُمْ..).. وأقول: هذا كلام جيد يرد على القول الذى يردده كثير من العلماء فى مثل هذا الشأن بتقدير فعل القول دائماً هكذا: ((قُلْ) لَقَدْ جِئْتُمْ..)** وهم بذلك يبتعدون عن فهم أسلوب الالتفات الذى وقفنا عليه مع هذه الآية وأمثالها إراحة لهم من التفكير فى سبب هذا

---

(٣٠) ولم يقل(لموعدكم)- التى ستشير إلى(الغاوين)

الالتفات، وهذا القول أقرب لقول النحويين وليس قول علماء البلاغة والبيان الذى نتمنى أن نعيشه ونتذوقه.

ففى الأمثلة السابقة قد استحضرهم للتوبيخ (لَقَدْ (جِئْتُمْ) شَيْئًا إِدًّا)، وفى أمثلة أخرى يستحضرهم للتكريم ، وهذا يظهر من السياق- كما فى آية الزخرف التالية-:

*** ﴿ **فوقاهُم**- هم- **اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ** - هم- **نَضْرَةً وَسُرُورًا** (١١) **وَجزاهُمْ**- هم- **بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا** (١٢) **مُتَّكِئِينَ** - هم- **فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ** - هم- **فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا** (١٣) **وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ** - هم- **ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا** (١٤) **وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ** - هم- **بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا** (١٥) **قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا** (١٦) **وَيُسْقَوْنَ** - هم- **فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا** (١٧) **عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا** (١٨) **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ**- هم- **وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ** - هم- **حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا** (١٩) **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا** (٢٠) **عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ**- هم- **رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** (٢١) **إِنَّ هَذَا كَانَ ((لَكُمْ)) جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ** — أنتم- **مَشْكُورًا** (٢٢) ﴾ **الإنسان**..

والأمر كما يتحدث رئيس لجنة التكريم عن هذا الشخص المُكرَّم- وهو غائب- ثم يعلن التكريم والمفاجأة بحضور هذا الشخص المُكرم أمام الجميع فتكون الفرحة أكبر والتكريم أعلى.ولله المثل الأعلى ولكننا نذكر ذلك من باب التمثيل.

****

وَقَوْلِهِ: ﴿ **(أَلَمْ تَرَ إِلَى (رَبِّكَ) كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ ((جَعَلْنَا)) الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا** (٤٥) ﴾ الفرقان.

فهنا قال (إِلَى رَبِّكَ) ولم يقل(ألم تر إلينا كيف) لتتناسب مع (ثم جعلنا)- وذلك لإبراز صفة الربوبية الحانية- ثُمَّ تحول النظم ل(يبرز) القدرة- (ويظهر) لنا

هذه القدرة- فتحدث عن ذاته بصفة الحضور والظهور والجمع الذى يفيد التعظيم (نحن) فقَالَ: (**ثُمَّ جَعَلْنَا**(نحن) **الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا**).

(**وأقول**) إن مد الظل وقبضه دليل على حركة الأرض أمام الشمس، ولو كانت هذه الحركة سريعة أو غير منتظمة لانهار وتهدم كل ما عليها وما صلحت الحياة عليها..والشمس هى التى تدل على حركة الأرض هذه وإظهارها ولذلك جاء بضمير الظهور وليس الغيبة فى قوله ثم جعلنا الشمس.. **كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ** ((**جَعَلْنَا**)) **الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا**)

****وَقَوْلِهِ**: ﴿ **وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا** (**لِلنَّبِيِّ**) **إِنْ أَرَادَ** (**النَّبِيُّ**) **أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً** (**لَكَ**) **مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** (٥٠) ﴾ الأحزاب. وكان يمكن أن يقال (**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا** (لك) **إن** (**أردت**) أن تستنكحها – ليتمشى السياق مع قوله بعدها: **خَالِصَةً** (**لَكَ**) **مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**) وهنا يقول الإمام الزمخشرى: فإن قلت: لم عدل عن الخطاب-(لك)أنت- إلى الغيبة في قوله تعالى (**نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ**) ثم رجع إلى الخطاب(**خَالِصَةً** (**لَكَ**)) ؟ قلت: للإيذان بأنه مما خص به-أى النبى- وأوثر، ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوّة، وتكريره – أى: تكرير لفظ النبى- تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته.

(وأرى أيضاً أن تحول الخطاب للنبى فى قوله (خالصة لك) -بدلاً من قوله (خالصة له)- فيه الشعور بالتقرب والتحنن على النبى (ﷺ) وكأنه يضع الكلمة فى أذنه (ﷺ) (خالصة لك) والأمر يحتاج إلى التذوقٍ والتدريب عليه(٣١) ..

---

(٣١) وهذا يذكرنا بهذا الإسرار الذى فعله عزيز مصر مع يوسف عليه السلام حين قال له(يوسف أعرض عن هذا) ولم يأت بحرف النداء- أى لم يقل(يايوسف) حتى لا يعطى الشعور بصورة البعد، فحذف أداة النداء لتوحى بأنه يريد أن يُسِر القول فى أذن يوسف مداراة للفضيحة فجاء بهذه الصيغة بدون حرف النداء(يوسف أعرض..)

وَمِنْهَا : التَّنْبِيهُ عَلَى مَا حَقُّ الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ وَارِدًا عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وإليه ترجعون ﴾ ، أَصْلُ الْكَلَامِ: (وَمَا لَكُمَ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ) وَلَكِنَّهُ أَبْرَزَ الْكَلَامَ فِي مَعْرِضِ الْمُنَاصَحَةِ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يُرِيدُ مُنَاصَحَتَهُمْ لِيَتَلَطَّفَ بِهِمْ وَيُرِيَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ لَهُمْ إِلَّا مَا يُرِيدُ لِنَفْسِهِ، ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى غَرَضُهُ مِنْ ذَلِكَ قالَ: {وإليه ترجعون} لِيَدُلَّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَصْلِ الْكَلَامِ وَمُقْتَضِيًا لَهُ ثُمَّ سَاقَهُ هَذَا الْمَسَاقَ إِلَى أن قال: ﴿ **إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** (٢٥) ﴾ .

** من الغيبة إلى الحضور

وَمثلها قَوْلُه: ﴿ وَمَا كَانَ (**رَبُّكَ**) – هو- **مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ** (**آيَاتِنَا**) - نحن- ﴾ القصص. وحقها أن تكون (آياته) ، وعدل إلى (آياتنا) تفخيماً لآياته – ومنها القرآن الكريم–.

**وضع الظاهر فى مقام المضمر :

وقوله حكاية عن الخليل: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ** ((**اللَّهِ**)) **أَوْثَانًا** ﴾ العنكبوت.وكان يجب أن تكون (تعبدون من دونه) وذلك لأن العبادة يناسبها ذكر الألوهية وإظهارها.

وَقَوْلِهِ: ﴿ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جميعا ﴾ إبراهيم ولم يقل(وَمَا ذَلِكَ **عليه** بِعَزِيزٍ) .لأن العزة تناسب ذكر الألوهية وإظهارها.

وَقَوْلِهِ: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ﴾ الفرقان وكان يجب أن تقال(من دونه).والقارىء يلحظ تعظيم جرم هؤلاء وهو ينطق بلفظ الجلالة (**وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**) وسوف تنطفىء هذه الحرارة لو قالها بلفظ الغيبة(وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونه).. وهذه الحرارة قد عشناها ونحن نشرح النص القرآنى (**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ**) وطلبنا من القارىء أن يتأمل مشاعره وهو ينطق لفظ

الجلالة(لله)- (**وَجَعَلُوا** (**لِلَّهِ**) !!- وملاحظة علو نبرة الصوت الاستنكارية والتوقف القليل عليها للتعظيم والتفخيم للأمر مع لفظ الجلالة وقد جاء به النص مقدماً فى السياق(وجعلوا لله.!!)، وكان يمكن أن يقول (وجعلوا الجن شركاء لله) وحينئذٍ تنطفىء حرارة التعجب والإنكار والمهابة التى يثيرها تقديم لفظ الجلالة (وجعلوا لله؟!!).. إضافة إلى معانٍ أخرى عشناها خلال شرحنا لهذا النص الكريم.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي** ﴾ ولم يقل (الذين كفروا بآياتى) وهو لتعظيم شأن الآيات حيث قال(بآيات الله)، أما قوله (رحمتى)- والتى كان حقها أن تقال(رحمة الله أو رحمته)- فذلك يستشعره كل متذوق عاش معنا هذه الرحلة حيث إنه يستشعر القرب والخصوصية بل وانخفاض الصوت وكأنه يُسرِّها فى أذنه قرباً وتحنناً(من رحمتى) وأن: من (رحمتى) ألطف من قوله (من رحمة الله) لاختصاص لفظ الألوهية أيضاً بالعبادة والحساب والعقاب أكثر. وَإِعَادَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ-(وأولئك) لهم- لِتَأْكِيدِ التَّنْبِيهِ.

ويلتفت الإمام الألوسى إلى لون آخر من الالتفات ولكن فى صيغة الفعل فى قوله: وصيغة الماضي- يئسوا، ولم يقل سييئسوا- للدلالة على التحقق(٣٢)،(وأقول إن صيغة الماضى هنا(أولئك يئسوا) توحى بالفصل بين المؤمن والكافر فى الدنيا قبل الآخرة ، فالكافر يئس فى (الدنيا) كما سييئس فى الآخرة، والمؤمن لاييئس ، ولو قال أولئك سييئسوا من رحمتى فسيكون المعنى أن اليأس سيكون فى الآخرة فقط وهم مشتركون مع المؤمنين فى الدنيا، ولكن المراد من الآية كما يقول الألوسى هو التفرقة بين حال المؤمنين والكافرين فى الدنيا أيضاً: وجوز أن يكون المراد إظهار مباينة حالهم وحال المؤمنين لأن حال المؤمن الرجاء والخشية وحال الكافر الاغترار واليأس فهو لا يخطر بباله رجاء ولا خوفا، إن أُخطر المخوف بباله كان حاله اليأس بدل الخوف، وإن أُخطر المرجو كان حاله الاغترار بدل الرجاء، فكأنه تنصيص على كفرهم وتعريف لحالهم، وأن يكون الكلام على الاستعارة.

---

(٣٢) أى أنهم سييأسوا يقيناً، وهذا ما تشيعه صيغة الماضى التى تفيد تحقيق وقوع الفعل كما فى قوله تعالى(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ (١))

وقيل إن: (أولئك يئسوا) أي ييأسون منها يومَ القيامةِ وصيغةُ الماضِي للدِّلالة على تحقُّقِهِ أو يئسوا منها في الدُّنيا لإنكارِهم البعثَ والجزاءَ عَلَى استحقاقهم ذَلِك.

وأقول هذا الرأى يضاف إلى الرأى الآخر الذى ذكرناه من أن صورة الفعل الماضى تستخدم لتحقق وقوع الفعل وأن يكون يئسهم من رحمة الله هو أمر محقق وقوعه ومؤكد.

وأرى أيضاً أن السياق لا يتحدث عن تعظيم الرحمة بل إنه يتحدث عن يأسهم من (أقل) درجات الرحمة من الله دون النظر إلى تعظيم هذه الرحمة والجهة القادرة على منحها فقال (من رحمتى) ولم يحتج الأمر إلى اقترانها بلفظ الجلالة ولم يقل(رحمة الله)، أما فى السياقات التى تريد إظهار قيمة هذه الرحمة وتعظيمها وتعظيم الجهة التى تأتى منها هذه الرحمة والتى لا يعجزها شىء، هنا يقرن الرحمة بلفظ الجلالة (الله) الذى يشير بظهوره إلى كل هذه المعانى، وذلك مانراه فى المثالين التاليين:

﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (١٠٧) ﴾.. فهنا يريد إبراز قيمة الرحمة وعظمتها بانتسابها لصفة الألوهية(الله)

﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ (اللَّهِ)** - أى رحمة الله العظيمة القادرة على غفران الذنوب جميعا- **إِنَّ (اللَّهَ) يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (٥٣) ﴾.. وقد كرر لفظ الجلالة الثانى (إن الله يغفر) ولم يقل(إنه يغفر) لأنه يريد إبراز صفة الألوهية تعظيماً لهذه الرحمة وقيمتها.

****

**وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ(٣٣) شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا (بِاللَّهِ) وَرَسُولِهِ(٣٤) وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾ الفتح.

---

(٣٣) أرسلنا نحن(ضمير المتكلم بالجمع)، وأرسلناك أنت(ضمير المخاطب)، وليلاحظ القارىء ذلك لأنه سيتم تغيير الصيغتين)

(٣٤) فأصبح ضمير الجلالة بصيغة الغائب، وكذلك(ورسوله) بصيغة الغائب أيضاً) وهذا التحول هو ما نسميه بالالتفات ونسأل عن سببه.

وَفِيهِ الْتِفَاتَان:

أَحَدُهُمَا : بَيْنَ **[(إِنَّا)أَرْسَلْنَاكَ]**- نحن - وَالْجَلَالَةِ (**الله**)- فى قوله (**لتؤمنوا بالله**)- . وذلك كما نكررها دائماً استحضاراً للمهابة والخشية فى ذكر اسم الجلالة(**الله**)

وَالثَّانِي: بين الكاف في (أرسلناك)- أنت يامحمد- و(ورسوله) - وَكُلٌّ مِنْهُمَا فِي كَلَامٍ وَاحِدٍ. وكان يمكن أن تكون(لتؤمنوا بى وبرسولى)

**وأرى أيضاً أن هناك التفاتاً فى توجيه الخطاب لهم فى قوله(لتؤمنوا) وقد كان السياق قبلها للحبيب محمد(ﷺ)-(أرسلناك)-، وحقها أن تكون(أرسلناك ليؤمنوا.

فقيل هو على معنى قل لهم: (لتؤمنوا) إلخ، وهذا الرأى يشير إليه النحويون. وقيل: هو للأمة على أن خطابه صلّى الله عليه وسلّم مُنَزَّل منزلة خطابهم .

ويقول الطاهر: وَالْخِطَابُ يَجُوزُ أَنْ يكون للنبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ(**أرسلناك**، (**لتؤمنوا**)) أَيْ لِتُؤْمِنَ أَنْتَ وَالَّذِينَ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِمْ ، وَالْمَقْصُودُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ. وَأُقْحِمَ وَرَسُولِهِ- فى قوله: **لِتُؤْمِنُوا** (**بِاللَّهِ**) **وَرَسُولِهِ** - لِأَنَّ الْخِطَابَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ وَهُمْ مَأْمُورُونَ بِالْإِيمَان برَسُول الله (ﷺ)، وَلِأَن الرَّسُول (ﷺ) مَأْمُورٌ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ فِي تَشَهُّدِهِ: «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» وَقَالَ يَوْمَ حُنَيْن: «أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». وَصَحَّ أَنَّهُ كَانَ يُتَابِعُ قَوْلَ الْمُؤَذِّنِ «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» .(حينئذٍ يكون هذا الخطاب خاصاً بمحمدٍ (ﷺ) مع أمته فقال: لتؤمنوا، ولو قال(أرسلناك "لتؤمن"أو "ليؤمنوا" لضاعت هذه الفائدة العظيمة). (٣٥)

---

(٣٥)(وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِلنَّاسِ خَاصَّةً وَلَا إِشْكَالَ فِي عَطْفِ وَرَسُولِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ قَدِ انْتَهَى عِنْدَ قَوْلِهِ (وَنَذِيراً) وَتَكُونُ جُمْلَةُ لِتُؤْمِنُوا بَاللَّهِ إِلَخْ جُمْلَةً مُعْتَرِضَةً، وَيَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ لِتُؤْمِنُوا لَامَ الْأَمْرِ وَتَكُونُ الْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافًا لِلْأَمْرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ [٧] .

ولكنه خصَّ النبى (ﷺ) **بالأمر** ليقول: أرسلناك- أيها الرسول الكريم- شاهدا ومبشرا ونذيرا، لتكون على رأس المؤمنين بما أرسلناك به، وليتبعك في ذلك أصحابك ومن سيأتى بعدهم، بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانا حقا، ولينصروك ويعظموك، ..

يقول الإمام الألوسى : لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الخطاب للنبي (ﷺ)وأمته كقوله سبحانه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ [الطلاق: ١] وهو من باب التغليب غلب فيه المخاطب على الغيب، فيفيد أن النبي (ﷺ)مخاطب بالإيمان برسالته كالأمة وهو كذلك

****

وَأَلْحَقَ بِهِ الْأُسْتَاذُ أَبُو جَعْفَر بْنُ الزُّبَيْر قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)بَلْ (عَجِبُوا) أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ (الْكَافِرُونَ) هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)** ﴾

وكان حقها أن تكون(فقالوا) بدلاً من (فَقَالَ (الْكَافِرُونَ) وهو التفات بالإظهار فى مقام الإضمار ، (فَهَذَا إِنْكَارٌ مِنْهُمْ لِلْبَعْثِ وَاسْتِبْعَادٌ نَحْوُ الْوَارِدِ فِي سُورَةِ ص: ﴿ **(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ (الْكَافِرُونَ) هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤))** ﴾ فَبَعْدَ الْعُدُول عَنْ مُجَاوَبَتِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: **{ذَلِكَ رجع بعيد}** وَذِكْر اخْتِلَافِهِمُ الْمُسَبَّبِ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ فِي قَوْلِهِ: **{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أمر مريج}** ، **صَرَفَ تَعَالَى الْكَلَامَ إِلَى نَبِيِّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ** فَقَالَ: **{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا** – بامحمد ويا مؤمنين- **إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا..}** إلى قوله: **{وأحيينا به بلدة ميتا}** (تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب)

﴿ **لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (وَإِلَى اللَّهِ) تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥)** ﴾ اظهار بعد إضمار حيث كان حقها(وإليه ترجع الأمور).

﴿ **(فَاعْتَرَفُوا) بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)** ﴾ اظهار بعد إضمار(بدلاً من فسحقاً لهم).

وأمثالها قوله تعالى: ﴿ (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ (لَكُمْ) **يَنْصُرُكُمْ** مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ (**الْكَافِرُونَ**) إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠)....(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ (الَّذِينَ كَفَرُوا) وَقِيلَ هَذَا الَّذِي(كُنْتُمْ) بِهِ (تَدَّعُونَ) (٢٧) ﴾

****

وقفة أخرى هامة:

﴿ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) **وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا** (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ﴾ الأحزاب.

وقوله: ﴿ (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾ الفتح.

والسؤال هو: **لماذا زاد فى صفات النبى(ﷺ) فى سورة الأحزاب قوله تعالى عنه (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا).**

هنا يجيب الإمام الطاهر بكلام ممتع قائلاً: فَزِيدَ فِي صِفَاتِ النبيء (ﷺ)هُنَالِكَ (**وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً**) وَلَمْ يُذْكَرْ مِثْلُهُ فِي الْآيَةِ هَذِهِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْفَتْحِ. وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ الْفَتْحِ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ إِبْطَالِ شَكِّ الَّذِينَ شَكُّوا فِي أَمْرِ الصُّلْحِ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِوَعْدِ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ، وَالثَّنَاءِ عَلَى الَّذِينَ اطْمَأَنُّوا لِذَلِكَ، فَاقْتُصِرَ مِنْ أَوْصَافِ النبيء (ﷺ) عَلَى الْوَصْفِ الْأَصْلِيِّ وَهُوَ أَنَّهُ شَاهِدٌ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ وَكَوْنِهِ مُبَشِّرًا لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ وَنَذِيرًا لِلْآخَرِ، بِخِلَافِ آيَةِ الْأَحْزَابِ فَإِنَّهَا وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ تَنْزِيهِ النبيء (ﷺ)عَنْ مَطَاعِنِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي تَزَوُّجِهِ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ بَعْدَ أَنْ طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يزَعْمِهِمْ أَنَّهَا زَوْجَةُ ابْنِهِ، فَنَاسَبَ أَنْ يُزَادَ فِي صِفَاتِهِ مَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّمْحِيصِ بَيْنَ مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَمَا هُوَ مِنَ الْأَوْهَامِ النَّاشِئَةِ عَنْ مَزَاعِمَ كَاذِبَةٍ مِثْلَ التَّبَنِّي، فَزِيدَ كَوْنُهُ (داعِياً

إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ)، أَيْ لَا يَتَّبِعُ مَزَاعِمَ النَّاسِ وَرَغَبَاتِهِمْ وَأَنَّهُ (سِرَاجٌ مُنِيرٌ) يَهْتَدِي بِهِ مَنْ هِمَّتُهُ فِي الِاهْتِدَاءِ دُونَ التَّقْعِيرِ.

ولاحظ عدم الالتفات فى سياق مماثل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) ﴾.. لأن السياق كله خطاب خاص للنبى(ﷺ)

**** وَقَوْلِهِ: ﴿ (سَنُلْقِي)فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾** .

ولم يقل(بما أشركوا بنا) لاستحضار وصف الجلالة وصفة المهابة فى إبراز إسم الجلالة (الله) الذى يعطى كل صفات الجلال والكمال معاً، وكما قلنا من قبل إن لفظ الجلالة يناسب ذكر العزة والنصر وكذلك إلقاء الرعب هنا فى قلوبهم، كما فى المثال التالى:.

**** ﴿ (بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي**— ولم يقل: سيلقى— **فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ**— ولم يقل: بما أشركوا به أو بنا— **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا (١٥١) ﴾** آل عمران.

يقول الإمام أبو السعود: {سَنُلْقِى} بنون العظمةِ على طريقة **الالتفاتِ جرياً على سنن الكبرياء لتربية المهابة** — بصيغة الحضور بدل الغيبة ، وأيضاً بصيغة الجمع— وقرئ بالياء والسين لتأكيد الإلقاءِ)

وأقول: يضاف إلى ذلك فائدة الالتفات إلى لفظ الجلالة فى قوله (بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ)

****

**** ﴿ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) .... قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ (جَزَاؤُكُمْ) جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**

وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ الإسراء. وكان حقها أن تقال(وعدهم وما تعدهم إلا غرورا)

ويقول الإمام الألوسى: وَما يَعِدُهُمُ (الشَّيْطانُ) إِلَّا غُرُوراً ... والالتفات إلى الغيبة (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ- بدلاً من وما تعدهم أنت) **لتقوية معنى الاعتراض **مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه** (أى قطع خطابه وتكلم عنه بصورة الغيبة إهمالاً وتحقيراً له فى عدم مخاطبته) **وأتى باسمه ظاهراً لبيان حاله للناس(أى إعادة تذكيرهم بأنه شيطان ووصف حاله لهم والتشنيع عليه وعلى أتباعه)، **وكذلك من الإشعار بعلية شيطنته للغرور(وهو ما يستفاد من معنى وجرس كلمة شيطان التى تفيد الانتشار والعلو والانتفاش ومن النطق بقوله(وما يعدهم الشيطان)، وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب)انتهى بعد الشرح والتعليق.

وأقول: هذه معان ثلاث فى سبب هذا الالتفات من وضع الظاهر فى مقام المضمر شرحناها بين الأقواس

** **وَقَوْلِهِ:** ﴿ **فَمَنْ (تَبِعَكَ) مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ (جَزَاؤُكُمْ) جزاء موفورا** ﴾ ، وكان حق السياق أن يقول(فإن جهنم جزاؤهم) جَوَّزَ فيه الزَّمَخْشَرِيُّ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرُ (جَزَاؤُكُمْ) يَعُودُ عَلَى (التَّابِعِينَ) – أى التابعين لإبليس من البشر وهم الأهم فى السياق- وهو بذلك أراد أن يشرك إبليس معهم ويجعلهم مع إبليس فى قرن واحد- وتقرر هذا المعنى وجاء عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ فى قوله(**جَزَاؤُكُمْ**).وهو ما أشار إليه الإمام الزمخشرى فى قوله: فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة (جزاؤهم) ليرجع إلى من تبعك؟ قلت: بلى، ولكن التقدير: فإنّ **جهنم جزاؤهم وجزاؤك**، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات،.. ولذلك التفت الخطاب إليهم بصيغة الجمع)

****

وَمِمَّا يَقْرُبُ مِنَ الِالْتِفَاتِ أَيْضًا

الِانْتِقَالُ مِنْ خِطَابِ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ إِلَى خِطَابٍ آخَرَ

وَهُوَ سِتَّةُ أَقْسَامٍ كَمَا سَبَقَ تَقْسِيمُ الِالْتِفَاتِ :.

أَحَدُهَا : الِانْتِقَالُ مِنْ خِطَابِ الْوَاحِدِ لِخِطَابِ الِاثْنَيْنِ، كقوله تعالى: ﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)** ﴾ يونس. وكان حقها أن تكون (وتكون لك الكبرياء) .لأن موسى صاحب الوحى، ولكنه أشرك هارون معه لأن المنصب الدنيوى- الكبرياء فى الأرض- يشترك فيه هارون مع موسى.

الثاني : من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ**- مفرد- **اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ** - مفرد- **مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** – جمع-**(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**- مفرد مرة ثانية- **وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣)** ﴾ (٣٦)

---

(٣٦) يقول الإمام الألوسى والطاهر: وَنِدَاءُ النَّبِيءِ (ﷺ) بوَصْفِ النُّبُوءَةِ دُونَ اسْمِهِ الْعَلَمِ تَشْرِيفٌ لَهُ بفَضْلِ هَذَا الْوَصْفِ لِيَرْبَأَ بمَقَامِهِ عَنْ أَنْ يُخَاطَبَ بمِثْلِ مَا يُخَاطَبُ بهِ غَيْرُهُ وَلِذَلِكَ لَمْ يُنَادِ فِي الْقُرْآنِ بغَيْرِ يَا أيهَا النبيء أَوْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ (الْمَائِدَة: ٦٧) بخِلَافِ الْإِخْبَارِ عَنْهُ فَقَدْ يَجِيءُ بهَذَا الْوَصْفِ كَقَوْلِهِ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النبيء (التَّحْرِيم: ٨) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ (الْفرْقَان: ٣٠) قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُول (الْأَنْفَال: ١) النَّبِيءُ أَوْلى بالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسهِمْ (الْأَحْزَاب: ٦) ، وَيَجِيءُ باسْمِهِ الْعَلَمِ كَقَوْلِهِ مَا كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ (الْأَحْزَاب: ٤٠) . وَقَدْ يَتَعَيَّنُ إِجْرَاءُ اسْمِهِ الْعَلَمِ لِيُوصَفَ بَعْدَهُ بالرِّسَالَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ (الْفَتْح: ٢٩) وَقَوْلِهِ وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ(آل عمرَان: ١٤٤) . وَتِلْكَ مَقَامَاتٌ يُقْصَدُ فِيهَا تَعْلِيمُ النَّاسِ بأَنَّ صَاحِبَ ذَلِكَ الِاسْمِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، أَوْ تَلْقِينٌ لَهُمْ بأَنْ يُسَمُّوهُ بذَلِك وَيَدْعُوهُ بِهِ، فَإِنَّ عِلْمَ أَسْمَائِهِ مِنَ الْإِيمَانِ لِئَلَّا يَلْتَبسَ بغَيْرِهِ، وَلِذَلِكَ..وَالْأَمْرُ لِلنَّبيءِ بتَقْوَى اللَّهِ تَوْطِئَةٌ لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لِيَحْصُلَ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ قَصْرُ تَقْوَاهُ عَلَى التَّعَلُّقِ باللَّهِ دُونَ غَيْرِهِ، فَإِنَّ مَعْنَى لَا تُطِعِ مُرَادِفُ مَعْنَى: لَا تَتَّقِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ تَقْوَى فَصَارَ مَجْمُوعُ الْجُمْلَتَيْنِ مُفِيدًا مَعْنَى: يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ لَا تَتَّقِ إِلَّا اللَّهَ، فَعَدَلَ عَنْ صِيغَةِ الْقَصْرِ وَهِيَ أَشْهَرُ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَأَوْجَزُ إِلَى ذِكْرِ جُمْلَتَيْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ لِقَصْدِ النَّصِّ عَلَى أَنَّهُ قَصْرٌ إِضَافِيٌّ أُرِيدَ بِهِ أَنْ لَا يُطِيعَ

يقول الإمام الألوسى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ.... إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً)** قيل: الخطاب للرسول (ﷺ) والجمع (بِما تَعْمَلُونَ) للتعظيم لمقام النبى(ﷺ).

وقال أبو البقاء: إنما جاء بالجمع لأنه عنى بقوله تعالى: اتَّبِعْ ما يُوحى إلخ اتبع أنت وأصحابك .

وقيل: (بِما تَعْمَلُونَ) للغائبين من الكفرة المنافقين وبطريق الالتفات ولا يخفى بعده. نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب، وأيا ما كان فالجملة تعليل للأمر وتأكيد لموجبه فكأنه قيل على الأول: إن الله تعالى يعلم بما تعمل فيرشدك إلى ما فيه الصلاح فلا بد من اتباع الوحي والعمل بمقتضاه حتما، وعلى الثاني أن الله تعالى خبير بما يعمل الكفرة والمنافقون من الكيد والمكر فيأمرك سبحانه بما يدفعه فلا بد من اتباع ما يوحيه جلّ وعلا إليك، وعلى الثالث أن الله تعالى خبير بما تعمل ويعمل الكفرة والمنافقون فيرشدك إلى ما فيه صلاح حالك ويطلعك على كيدهم ومكرهم ويأمرك جلّ شأنه بما يدفع ذلك ويرده فلا بد من اتباع وحيه تعالى والعمل بموجبه. وقرأ أبو عمرو «يعملون» بياء الغيبة على أن الضمير للكفرة والمنافقين. وجوز كونه عاماً فلا تغفل)انتهى.

(وأقول أنا المؤلف): كل هذه المعانى كانت ستضيع لو سار السياق بغير هذا الالتفات وقال(إن الله كان بما تعمل خبيراً) إضافة إلى ما يستشعره القارىء من القسوة الشديدة فى هذه الصيغة على قلب النبى(ﷺ) ، مع ما سيضيفه لنا الإمام الطاهر من سبب إفراد النبى (ﷺ) بالخطاب فى بداية السورة(يا أيها النبى)، ولماذا لم يقل يا أيها الناس أو يا أيها المؤمنون أو غيرها من الصيغ.

ويتعرض الإمام الألوسى لنوع آخر من الالتفات وهو الإظهار فى مقام الإضمار فى قوله: وَتَوَكَّلْ عَلَى (اللَّهِ) .. وَكَفى (بِاللَّهِ) وَكِيلًا .. **(والإظهار في مقام**

الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لِأَنَّهُ لَو اقْتَصَرَ عَلَى أَنْ يُقَالَ: لَا تَتَّقِ إِلَّا اللَّهَ لَمَا أَصَاخَتْ إِلَيْهِ الْأَسْمَاعُ إِصَاخَةً خَاصَّةً لِأَنَّ تَقْوَى النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ أَمْرٌ مَعْلُومٌ، فَسَلَكَ مَسْلَكَ الْإِطْنَابِ لِهَذَا،

الإضمار للتعظيم، ولتستقل الجملة استقلال المثل.) وأقول: هذا كلام ماتع يحتاج إلى فهم وتدبر فهو يقصد الإظهار فى قوله(وتوكل على الله) (وَكَفى (بِاللَّهِ) وَكِيلًا) ، وكان يجب أن تقال (وتوكل عليه) (وكفى به وكيلاً) لورود لفظ الجلالة فى السياق قبلها من بداية الآية فى قوله(يا أيها النبى اتق (الله)).. ولكن الإمام الألوسى يلفتنا إلى سبب ذلك الالتفات فى قوله: والإظهار في مقام الإضمار للتعظيم، وهذا معلوم للقارىء بمجرد ترديد لفظ الجلالة(الله) على سمعه، ثم يقول: ولتستقل الجملة استقلال المثل، أى نحن نأخذ هذه الفقرات – كما هى- ونرددها فى المواقف التى تتطلب هذا المعنى- من الجزع أو الشك أو الخوف- كمثلاً يضرب للتذكر والموعظة ونقولها (وتوكل على الله) ونقولها (وَكَفى (بِاللَّهِ) وَكِيلًا)، ولو قالها (وتوكل عليه) (وكفى به وكيلاً) لا تنفع حينئذٍ لتكون مثلاً يضرب.

وهذا المثال سيتكرر الإشارة لمثله كثيراً من كثيرٍ من الأئمة وعلى رأسهم الإمام الطاهر ، **وهاهو الإمام الزركشى** يذكره تحت البندَ السَّابعُ **من أنواع الالتفات فى قوله:**

ذَكَرَ بَعْضُهُمْ مِنَ الِالْتِفَاتِ تَعْقِيبَ الْكَلَامِ بِجُمْلَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ مُلَاقِيَةٍ لَهُ فِي الْمَعْنَى عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ أَوِ الدُّعَاءِ، فَالْأَوَّلُ- المثل- كَقَوْلِهِ: { **وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** (٨١)} وكان يمكن أن يقال(وَزَهَقَ الباطل (إنه) كان زهوقا)

ويكمل الإمام الطاهر: (**وَاتَّبِعْ مَا يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيراً** (٢)) هَذَا تَمْهِيدٌ لِمَا يَرِدُ مِنَ الْوَحْيِ فِي شَأْنِ (أَحْكَامِ التَّبَنِّي) وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا، وَلِذَلِكَ جِيءَ **بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ** الصَّالِحِ لِلِاسْتِقْبَالِ، وَجُرِّدَ مِنْ عَلَامَةِ الِاسْتِقْبَالِ- أى لم يقل: واتبع ما سيوحى إليك- لِأَنَّهُ – أى حادثة إبطال التبنى وزواج النبى (ﷺ) من امرأة متبناه لإبطال هذا التبنى نهائياً –كان قريباً وفى وقت نزول الآيات فلا يحتاج لقوله(ما سيوحى إليك) بل قال اتبع ما يوحى إليك – لأنه قَرِيبٌ مِنْ زَمَنِ الْحَالِ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِهِ أَنَّهُ أَمْرٌ بِاتِّبَاع خَاص تَأْكِيدا لِلْأَمْرِ الْعَامِّ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ.

وَفِيهِ إِيذَانٌ بِأَنَّ مَا سَيُوحَى إِلَيْهِ قَرِيبًا هُوَ (مِمَّا يَشُقُّ عَلَيْهِ)- لا أنه (ﷺ) هو الذى تولى بشخصه إبطال التبنى فى زواجه بزينب بنت جحش والتى استغلها المنافقون فى حرب شعواء على النبى(ﷺ) ولذلك كان تخصيص النبى (ﷺ) بالنداء فى بداية السورة (يا أيها النبى) ثم تحوله ليعم الجميع(بما تعملون خبيرا) لأن هذا التشريع بإبطال التبنى يعم جميع الأمة-وهذا الأمر كان شاقاً على النبى(ﷺ) بالصفة الأساسية وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِبْطَالِ حُكْمِ التَّبَنِّي- بالتبعية- لِأَنَّهُمْ أَلِفُوهُ وَاسْتَقَرَّ فِي عَوَائِدِهِمْ وَعَامَلُوا الْمُتَبَنِّينَ مُعَامَلَةَ الْأَبْنَاءِ الْحَقِّ.

وَلِذَلِكَ ذُيِّلَتْ جُمْلَةُ (**وَاتَّبِعْ مَا يُوحى إِلَيْكَ**) بِجُمْلَةِ (**إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً**) تَعْلِيلًا لِلْأَمْرِ بِالِاتِّبَاعِ وَتَأْنِيسًا بِهِ.

ثم يقول الإمام الطاهر: وَفِي إِفْرَادِ الْخِطَابِ لِلنَّبِيءِ (ﷺ) بِقَوْلِهِ (**وَاتَّبِعْ**) وَجَمْعِهِ بِمَا يَشْمَلُهُ وَأُمَّتَهُ فِي قَوْلِهِ (**بِما تَعْمَلُونَ**) إِيمَاءً إِلَى أَنَّ فِيمَا سَيَنْزِلُ مِنَ الْوَحْيِ مَا يَشْتَمِلُ عَلَى تَكْلِيفٍ يَشْمَلُ تَغْيِيرَ حَالَةٍ كَانَ النَّبِيءُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُشَارِكًا لِبَعْضِ الْأُمَّةِ فِي التَّلَبُّسِ بِهَا وَهُوَ حُكْمُ التَّبَنِّي إِذْ كَانَ النَّبِيءُ مُتَبَنِّيًا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مِنْ قَبْلِ بَعْثَتِهِ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ بِما تَعْمَلُونَ بِتَاءِ الْخِطَابِ عَلَى خِطَابِ النَّبِيءِ (ﷺ) وَالْأُمَّةِ لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَعْلَقُ بِالْأُمَّةِ. وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَحْدَهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بِالْمُثَنَّاةِ التَّحْتِيَّةِ عَلَى الْغَيْبَةِ عَلَى أَنَّهُ رَاجِعٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ شَامِلٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لِيُفِيدَ مَعَ تَعْلِيلِ الْأَمْرِ بِالِاتِّبَاعِ تَعْرِيضًا بِالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِمُحَاسَبَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا يُبَيِّتُونَهُ مِنَ الْكَيْدِ، وَكِنَايَةً عَنْ إِطْلَاعِ اللَّهِ رَسُولَهُ عَلَى مَا يَعْلَمُ مِنْهُمْ فِي هَذَا الشَّأْنِ كَمَا سَيَجِيءُ (**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ** [الْأَحْزَاب: ٦٠] ، أَيْ: لَنُطْلِعَنَّكَ عَلَى مَا يَكِيدُونَ بِهِ وَنَأْذَنُكَ بِافْتِضَاحِ شَأْنِهِمْ. وَهَذَا الْمَعْنَى الْحَاصِلُ مِنْ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ لَا يَفُوتُ فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ بِالْخِطَابِ لِأَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ يَأْخُذُ حَظه مِنْهُ.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)) زِيَادَةُ تَمْهِيدٍ وَتَوْطِئَةٍ لِتَلَقِّي تَكْلِيفٍ يَتَرَقَّبُ مِنْهُ أَذًى مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ: إِنَّ مُحَمَّدًا نَهَى عَنْ تَزَوُّجِ نِسَاءِ الْأَبْنَاءِ وَتَزَوَّجَ امْرَأَةَ ابْنِهِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى:(**وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا**) [الْأَحْزَاب: ٤٨] **فَأَمَرَهُ يِتَقْوَى رَبِّهِ دُونَ غَيْرِهِ،**

وهناك رأى آخر ينقله لنا الإمام بن كثير فى قوله:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ): هذا تنبيه بالأعلى- محمد(ﷺ) - على الأدنى - باقى الأمة-، فإنه- تعالى- إذا كان يأمر عبده ورسوله (محمد(ﷺ)) بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى) انتهى.

وأقول: هذا الكلام الماتع ليس غريباً عن الشأن القرآنى وهناك أمثلة كثيرة على ذلك منها قوله تعالى:

﴿ (يَا أَيُّهَا (النَّبِيُّ) إِذَا (طَلَّقْتُمُ) النِّسَاءَ (فَطَلِّقُوهُنَّ) لِعِدَّتِهِنَّ (وَأَحْصُوا) الْعِدَّةَ (وَاتَّقُوا) اللَّهَ رَبَّكُمْ (لَا تُخْرِجُوهُنَّ) مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. ﴾

وفيها يقول الإمام الزمخشرى: خص النبي (ﷺ) بالنداء – يَا أَيُّهَا (النَّبِيُّ)– وعم بالخطاب – صيغة الجمع بعدها– ، لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت، إظهارا لتقدّمه واعتباراً لترؤسه، وأنه مدرة قومه ولسانهم، والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدّون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وسادّا مسدّ جميعهم.

ويضيف صاحب تفسير الوسيط قوله:عن تخصيص النبي (ﷺ)بقوله: يَا أَيُّهَا (النَّبِيُّ): وهذا التفسير الذي اقتصر عليه صاحب الكشاف، هو المعول عليه، وهو الذي يناسب بلاغة القرآن وفصاحته، ويناسب مقام النبي (ﷺ)

والحق أن الذي يتدبر القرآن الكريم، يرى أن الخطاب والأحكام المترتبة عليه، تارة تكون خاصة به (ﷺ)كما في قوله- تعالى-: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ.

وتارة يكون شاملاً له (ﷺ) ولأمته كما في هذه الآية التي معنا، وكما في قوله- تعالى-: **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**.

وتارة يكون (ﷺ) خارجا عنه كما في قوله- تعالى-: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ، وهذا الأسلوب يرد كثيرا في القرآن الكريم، ومنه قوله- تعالى-: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ.. أى: إذا أردتم القيام للصلاة فاغسلوا.

ويرى الإمام أبو السعود: أن تخصيصَ النداءِ بهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ مع عُمومِ الخطابِ لأمتِهِ أيضاً لتشريفه (ﷺ)وإظهارِ جلالةِ منصبِهِ وتحقيقِ أنَّه المخاطبُ حقيقةً ودخولِهِم في الخطابِ بطريقِ استتباعِهِ (ﷺ)إيَّاهُم وتغليبِهِ عليهم **لاَ لأنَّ نداءَهُ كندائهم**(٣٧) فإن ذلكَ الاعتبارَ لو كانَ في حيزِ الرعايةِ لكانَ الخطابُ هو الأحقَّ بهِ لشمولِ حُكمهِ للكلِّ قطعاً

ويضيف الإمام الطاهر توضيحاً آخر بقوله:

** ﴿ **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)** ﴾.

تَوْجِيهُ الْخِطَابِ إِلَى النبيء (ﷺ) **أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ آيَاتِ التَّشْرِيعِ الْمُهْتَمِّ بِهِ** فَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ تَخْصِيصَ مَا يُذْكَرُ بعده النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ**) [الْأَنْفَال: ٦٥] لِأَن النبيء (ﷺ) الَّذِي يَتَوَلَّى تَنْفِيذَ الشَّرِيعَةِ فِي أُمَّتِهِ وَتَبْيِينَ أَحْوَالِهَا. فَإِنْ كَانَ التَّشْرِيعُ الْوَارِدُ يَشْمَلُهُ وَيَشْمَلُ الْأُمَّةَ جَاءَ الْخِطَابُ مُشْتَمِلًا عَلَى مَا يُفِيدُ ذَلِكَ مِثْلَ صِيغَةِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ هُنَا (**إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ**) وَإِنْ كَانَ التَّشْرِيعُ خَاصًّا بالرسول (ﷺ) جَاءَتْ بِمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ نَحْوَ (**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** [الْمَائِدَة: ٦٧]ولم يتحول بعدها إلى صيغة الجمع هنا .

****

---

(٣٧)حيث إنه قد خصصه بالنداء ولم يدخله فيهم تميزاً له ولأمره((ﷺ))

الثَّالِثُ : مِنَ الِاثْنَيْنِ إِلَى الْوَاحِدِ

كَقَوْلِهِ: ﴿ **قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا** (**يَا مُوسَى**) (٤٩) ﴾ **يقول الزمخشري:** خاطب الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة، وهرون وزيره وتابعه. ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هرون والرتة في لسان موسى. ويدل عليه قوله (**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ**).

****

** ﴿ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى** (١١٧) ﴾ طه (**فَلا يُخْرِجَنَّكُما**) فلا يكونن سبباً لإخراجكما. وإنما أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حوّاء بعد إشراكهما في الخروج، لأنّ في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أنّ في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها. مع المحافظة على الفاصلة. أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه. وزاد الإمام الطاهر: أَنَّ شَقَاءَ الذَّكَرِ أَصْلُ شَقَاءِ الْمَرْأَةِ.

الرَّابِعُ : مِنَ الِاثْنَيْنِ إِلَى الْجَمْعِ

كَقَوْلِهِ: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ** - مثنى- **أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا** - مثنى- **بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا**- جمع- **بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا** – جمع- **الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ**- مفرد- **الْمُؤْمِنِينَ** (٨٧) ﴾ يونس. وَفِيهِ انْتِقَالٌ آخَرُ مِنَ الْجَمْعِ إِلَى الْوَاحِدِ فَإِنَّهُ ثَنَّى ثُمَّ جَمَعَ ثُمَّ وَحَّدَ تَوَسُّعًا فِي الْكَلَامِ.

وَحِكْمَةُ التَّثْنِيَةِ أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ هُمَا اللَّذَانِ يُقَرِّرَانِ قَوَاعِدَ النُّبُوَّةِ وَيَحْكُمَانِ فِي الشَّرِيعَةِ – وهما أيضاً القائدان اللذان سيبوئان لقومهما بيوتاً طبقاً للخطة التى يديرانها-، فَخَصَّهُمَا بِذَلِكَ ثُمَّ خَاطَبَ الْجَمِيعَ بِاتِّخَاذِ الْبُيُوتِ قِبْلَةً لِلْعِبَادَةِ لِأَنَّ (الْجَمِيعَ) مَأْمُورُونَ بِهَا- وليس موسى وهارون فقط- ثم قال لموسى وحده: {وبشر المؤمنين} لِأَنَّهُ الرَّسُولُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي إِلَيْهِ الْبِشَارَةُ وَالْإِنْذَارُ.

الْخَامِسُ: مِنَ الْجَمْعِ إِلَى الْوَاحِدِ

وهو فى تكملة الآية السابقة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** – جمع -**وَبَشِّرِ**- مفرد- **الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ **وَقَدْ سَبَقَ حِكْمَتُهُ.**

وَمِنْ نَظَائِرِهِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ (**قُلْنَا**) **اهْبِطُوا**) **مِنْهَا جَمِيعًا**.. **ثم** قال: **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ** ((**مِنِّي**)) **هُدًى** ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ [مِنَّا] – مَعَ أَنَّهُ لِلْجَمْعِ أَوْ لِلْوَاحِدِ الْمُعَظِّمِ نَفْسَهُ- وَحِكْمَتُهُ الْمُنَاسَبَةُ لِلْوَاقِعِ؛ فَالْهُدَى لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ (وحده) ويقصد به توحيد جهة التشريع وتلقى الوحى(ولا يطلب إلا منه ولايملكه إلا هو، كما قاله لحبيبه محمد(ﷺ) (**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (٥٦) فَنَاسَبَ الْخَاصَّ لِلْخَاصِّ.

السَّادِسُ: مِنَ الْجَمْعِ إِلَى التَّثْنِيَةِ

كَقَوْلِهِ: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ** (**اسْتَطَعْتُمْ**) **أَنْ** (**تَنْفُذُوا**) **مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** (**فَانْفُذُوا**) (**لَا تَنْفُذُونَ**) **إِلَّا بِسُلْطَانٍ** (**٣٣**) ﴾ كلها بصيغ الجمع ، ثم عدل إلى خطابهم بصورة المثنى فى قوله تعالى: **{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}** .فالتحدى لهم بأنهم لا يستطيعون النفاذ إلى أقطار السموات والأرض يستدعى تحديهم (جميعاً) (وكل فرد) فيهم بلا استثناء، أما شكر النعمة فلا يشترط فيه هذا التحدى لكل فرد بل يكفى أن يطلبه من المجموع- (جماعة الإنس) و(جماعة الجن)- تكذبان- وهذا من رحمة الله تعالى فى سورة الرحمة والنعم- سورة الرحمن-.(حيث لا يشترط الشكر من كل فرد منهم واكتفى بشكر جماعتهم رحمة بالمقصرين منهم)

** ويضاف إلى ذلك نوع آخر وهو الالتفات **من التثنية إلى الجمع** فى نفس سورة الرحمن فى قوله تعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) **فِيهِمَا** مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) ....**مُدْهَامَّتَانِ** (٦٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) **فِيهِمَا** عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) **فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ** (٧٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)

فقد كان السياق فى السورة جميعها على التثنية(جنتان) (فيهما)- وليس هذا المقطع فقط-ولكنه تحول فجأة لصيغة الجمع عن الجنتين فقال (**فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ**) وكان حقها أن تكون (فيهما خيرات حسان)، وقد تكرر هذا التحول فى آية أخرى شبيهة فى السياق قبلها (**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**) فى السياق التالى(**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** (٤٦) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) **ذَوَاتَا أَفْنَانٍ** (٤٨) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) **فِيهِمَا** عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) **فِيهِمَا** مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) **فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) ﴾.

وذلك لأن للمؤمن جنتان وليست جنة واحدة وهذا الأمر ليس لرعاية الفاصلة- كما يقول بعض العلماء- ولكنه كما قال الإمام الزمخشرى ونقله عنه باقى الأئمة المفسرين: فإن قلت: لم قال جَنَّتانِ؟ قلت: الخطاب للثقلين، فكأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنة للخائف الإنسى، وجنة للخائف الجنى. ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي، لأنّ التكليف دائر عليهما وأن يقال: جنة يثاب بها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل، كقوله تعالى لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ

ولكنه حينما أتى على ذكر الحور العين فى الجنتين أراد أن يقول أن هذا المؤمن يتمتع بالعدد من الحور العين ، والحور العين – وهو أيضاً- يتمتع (بآلاء- نعم- الجنة) ومن هذه الآلاء الحور العين، فلم يقل(فيهما حور مقصورات) لأنه لا يقصد الجنتين بل يقصد نعم الجنتين، فقال(فيهن حور) أى فى هذه الآلاء – النعم-

حور، لأن الحور من النعم الخاصة غير النعم المذكورة، وكما يقول الإمام: فِيهِنَّ في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى. أو في الجنتين، لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس قاصِراتُ الطَّرْفِ نساء قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ

ويضيف أبو السعود: وقوله تعالى **{فِيهِنَّ}** .. وقد اعتُبرَ الجمعيةُ في قولِه تعالَى متكئينَ – فى قوله تعالى: **مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) –** وأقول: إن من إتمام النعمة أن يتكىء مع زوجته من الحور العين فجاء الاتكاء بالجمع(متكئين) فناسبها جمع الحور العين(فيهن قاصرات) فى هذه المتكئات..وقد قال الإمام أن: **{مُتَّكِئِينَ}** حالٌ من الخائفينَ لأنَّ منْ خافَ في مَعْنى الجمعِ (وكأنه يقول أن الجمع هنا للتعظيم كما هو معلوم)..

ويضيف الإمام الرازى سبباً آخر لجمع (متكئين) ولكن بالنظر لحال السياق الذى يشير على التفكه فى قوله: وَهَذَا فِيهِ مَعْنًى لَطِيفٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَكْلَ إِنْ كَانَ ذَلِيلًا –كَالْخَوَلِ وَالْخَدَمِ وَالْعَبِيدِ وَالْغِلْمَانِ– فَإِنَّهُ يَأْكُلُ قَائِمًا، وَإِنْ كَانَ– الشخص– عَزِيزًا فَإِنْ كَانَ يَأْكُلُ لِدَفْعِ الْجُوعِ يَأْكُلُ قَاعِدًا، **وَلَا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا إِلَّا عَزِيزٌ مُتَفَكِّهٌ** لَيْسَ عِنْدَهُ جُوعٌ يُقْعِدُهُ لِلْأَكْلِ، وَلَا هُنَالِكَ مَنْ يَحْسِمُهُ، **فَالتَّفَكُّهُ مُنَاسِبٌ لِلِاتِّكَاءِ.(** وأضيف القول المتمم لقول الإمام وهو أن الاتكاء هنا ذكر أنه (على فرش) وهو متطلب للحور العين ويكون الجمع لكثرة الفرش سواء لكل لفرد من عدد الحور العين له، أو لمجموع الأفراد، وكما يقول الإمام الرازى: الظَّاهِرُ أَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ فُرُشًا كَثِيرَةً .. ولعل هذا ما أشار إليه الإمام الطاهر فى قوله: ضَمِيرُ فِيهِنَّ عَائِدٌ إِلَى فُرُشٍ وَهُوَ سَبَبُ تَأْخِيرِ نِعَمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِلَذَّةِ التَّأَنُّسِ بِالنِّسَاءِ عَنْ مَا فِي الْجَنَّاتِ مِنَ الْأَفْنَانِ وَالْعُيُونِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْفُرُشِ، لِيَكُونَ ذِكْرُ الْفُرُشِ مُنَاسِبًا لِلِانْتِقَالِ إِلَى الْأَوَانِسِ فِي تِلْكَ الْفُرُشِ وَلِيَجِيءَ هَذَا الضَّمِيرُ مُفِيدًا مَعْنًى كَثِيرًا مِنْ لَفْظٍ قَلِيلٍ، وَذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ التَّرْتِيبِ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ. فَ قاصِراتُ الطَّرْفِ كَائِنَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَكَائِنَةٌ

عَلَى الْفُرُشِ مَعَ أَزْوَاجِهِنَّ قَالَ تَعَالَى:**وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً** [الْوَاقِعَة: ٣٤- ٣٦] الْآيَةَ.

ويقول الإمام الرازى بعدها: **فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٥٧)**

وَفِيهِ مسائل:

الْأَوَّلُ: فِي التَّرْتِيبِ وَإِنَّهُ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ لِأَنَّهُ فِي أَوَّل الْأَمْر بَيَّنَ الْمَسْكَنَ وَهُوَ الْجَنَّةُ، ثُمَّ بَيَّنَ مَا يَتَنَزَّهُ بِهِ فَإِنَّ مَنْ يَدْخُلُ بُسْتَانًا يَتَفَرَّجُ أَوَّلًا فَقَالَ: ذَواتا أَفْنان. فِيهما عَيْنان [الرحمن: ٤٨- ٥٠] ثُمَّ ذَكَرَ مَا يُتَنَاوَلُ مِنَ الْمَأْكُول فَقَالَ: فِيهما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ [الرحمن: ٥٢] ثُمَّ ذَكَرَ مَوْضِعَ الرَّاحَةِ بَعْدَ التَّنَاوُلِ وَهُوَ الْفِرَاشُ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَكُونُ فِي الْفِرَاشِ مَعَهُ.

الثَّانِي: فِيهِنَّ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى مَاذَا؟ والإمام الرازى لا يربط ذلك بذكر (الفرش المرفوعة) قائلاً: لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ هَذَا مَرَّةً أُخْرَى: فِيهِنَّ خَيْراتٌ [الرحمن: ٧٠] وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ذِكْرُ الْفُرُشِ ، فَالْأَصَحُّ إِذَنْ هُوَ الْوَجْهُ الثَّالِثُ: وَهُوَ أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إلى الجنتين، وجمع الضمير هاهنا وثنى في قوله: فِيهما عَيْنان [الرحمن: ٥٠] و: فِيهما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ [الرحمن: ٥٢] وَذَلِكَ لِأَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ الْجَنَّةَ لَهَا اعْتِبَارَاتٌ ثَلَاثَةٌ:

أَحَدُهَا: اتِّصَالُ أَشْجَارِهَا وَعَدَمُ وُقُوعِ الْفَيَافِي وَالْمَهَامَةِ فِيهَا وَالْأَرَاضِي الْغَامِرَةِ، وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ كَأَنَّهَا جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ لَا يَفْصِلُهَا فَاصِلٌ

وَثَانِيهَا: اشتمالها على النوعين الحاصرين للخيرات، فإن فيها ما في الدنيا، وما ليس في الدنيا، وفيها ما يعرف، ومالا يعرف، وفيها ما يقدر على وصفه، وفيها مالا يقدر، وفيها لذات جسمانية ولذات غير جسمانية، فلاشتمالها عَلَى النَّوْعَيْنِ كَأَنَّهَا جَنَّتَان ..وَثَالِثُهَا: لِسِعَتِهَا وَكَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَأَمَاكِنِهَا وَأَنْهَارِهَا وَمَسَاكِنِهَا كَأَنَّهَا جَنَّاتٌ، فَهِيَ مِنْ وَجْهٍ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ وَمِنْ وَجْهٍ جَنَّتَانِ وَمِنْ وَجْهٍ جَنَّاتٌ.

(وأقول) : يعنى أنه يجوز أن أقول جنة أو جنتان أو جنان.

ويقول: إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: اجْتِمَاعُ النِّسْوَانِ لِلْمُعَاشَرَةِ مَعَ الْأَزْوَاجِ وَالْمُبَاشَرَةِ فِي الْفِرَاشِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فِي الدُّنْيَا لَا يُمْكِنُ، وَذَلِكَ لِضِيقِ الْمَكَانِ، أَوْ عَدَمِ الْإِمْكَانِ أَوْ دَلِيلِ ذِلَّةِ النِّسْوَانِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْوَاحِدَ لَا يَجْمَعُ بَيْنَ النِّسَاءِ فِي بَيْتٍ إِلَّا إِذَا كُنَّ جَوَارِيَ غَيْرَ مُلْتَفَتٍ إِلَيْهِنَّ، فَأَمَّا إِذَا كَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ كَبِيرَةَ النَّفْسِ كَثِيرَةَ الْمَالِ فَلَا يَجْمَعُ بَيْنَهُنَّ (فتكون كثرة الفرش)، وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّهْوَةَ فِي الدُّنْيَا كَمَا تَزْدَادُ بِالْحُسْنِ الَّذِي فِي الْأَزْوَاجِ تَزْدَادُ بِسَبَبِ الْعَظَمَةِ، وَأَحْوَالُ النَّاسِ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ تَدُلُّ عَلَيْهِ، إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: الْحَظَايَا فِي الْجَنَّةِ يَجْتَمِعُ فِيهِنَّ حُسْنُ الصُّورَةِ وَالْجَمَالِ وَالْعِزِّ وَالشَّرَفِ وَالْكَمَالِ، فَتَكُونُ الْوَاحِدَةُ لَهَا كَذَا وَكَذَا مِنَ الْجَوَارِي وَالْغِلْمَانِ فَتَزْدَادُ اللَّذَّةُ بِسَبَبِ كَمَالِهَا، فَإِذَنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يَلِيقُ بِهَا مِنَ الْمَكَانِ الْوَاسِعِ **فَتَصِيرُ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ حَيْثُ الِاتِّصَالُ كَثِيرَةً مِنْ حَيْثُ تَفَرُّقِ الْمَسَاكِنِ فِيهَا فَقَالَ: فِيهِنَّ** وَأَمَّا الدُّنْيَا فَلَيْسَ فِيهَا تَفَرُّقُ الْمَسَاكِنِ دَلِيلًا لِلْعَظَمَةِ وَاللَّذَّةِ فَقَالَ فِيهِمَا [الرحمن: ٥٠] وَهَذَا مِنَ اللَّطَائِفِ) انتهى.

وأرى - بعد هذا الشرح المسهب- أن المعنى يكاد يكون متقارباً مع الأقوال السابقة الله أعلم. ولكنها المتعة التى نعيشها دائماً مع تنوع أفكار العلماء، وتنوع الفكر فى النص الواحد هو من إعجاز القرآن.(٣٨)

فهكذا تناسب الجمع مع التعظيم والتكريم والتفكه أيضاً.

****

---

(٣٨) الثَّالِثُ: قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ حُذِفَ، وَأُقِيمَتِ الصِّفَةُ مَكَانَهُ، وَالْمَوْصُوفُ النِّسَاءُ أَوِ الْأَزْوَاجُ كَأَنَّهُ قَالَ فِيهِنَّ، نِسَاءٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ وَفِيهِ لَطِيفَةٌ: فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ إِلَّا بِأَوْصَافِهِنَّ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ الْجِنْسِ فِيهِنَّ، فَقَالَ تَارَةً: وَحُورٌ عِينٌ [الْوَاقِعَةِ: ٢٢] / وَتَارَةً: عُرُباً أَتْرَاباً [الرحمن: ٥٦] وَتَارَةً: قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ وَلَمْ يَذْكُرْ نِسَاءَ كَذَا وَكَذَا لِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: الْإِشَارَةُ إِلَى تَخَدُّرِهِنَّ وَتَسَتُّرِهِنَّ، فَلَمْ يَذْكُرْهُنَّ بِاسْمِ الْجِنْسِ لِأَنَّ اسْمَ الْجِنْسِ يَكْشِفُ مِنَ الْحَقِيقَةِ مَا لَا يَكْشِفُهُ الْوَصْفُ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ الْمُتَحَرِّكُ الْمُرِيدُ الْآكِلُ الشَّارِبُ لَا تَكُونُ بَيِّنْتَهُ بِالْأَوْصَافِ الْكَثِيرَةِ أَكْثَرَ مِمَّا بينته بقوله: حَيَوَانٌ وَإِنْسَانٌ وَثَانِيهِمَا: إِعْظَامًا لَهُنَّ لِيَزْدَادَ حُسْنُهُنَّ فِي أَعْيُنِ الْمَوْعُودِينَ بِالْجَنَّةِ فَإِنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا يُذْكَرْنَ إِلَّا بِالْأَوْصَافِ.

الثامن : من الماضي إلى الأمر

كقوله : ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (وَأَقِيمُوا) وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوه** ﴾ ، وكان يجب أن تقال**{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (وَإقامة) الوجوه عِنْدَ كل مسجد }**ولكنه عدل إلى صيغة الأمر والوصية المباشرة متوجهاً إلينا بقوله((**وَأَقِيمُوا**)- أنتم- **وُجُوهَكُمْ**) مبيناً أهمية الصلاة، وأن فيها رفعة الوجوه والكرامة الإنسانية فى حال سجوده لمولاه، فهى العزة كل العزة، وقد عدل إلى صيغة الأمر(وأقيموا) لأن هذا المعنى معنى مهم ، **وقد أفادت هذه المخالفة أن الحديث بلغ مقطعاً من المعنى يجب على السامع أن يلتفت إليه، وهذه قاعدة عامة فى كل مخالفة للسياق فيما نسميه بالالتفات**.. ثم فى توجيه الأمر إليهم بإقامة الصلاة دلالة على مزيد العناية بها وكأن الرسول(ﷺ) ينفتل إليهم ويتوجه إليهم عند ذكر الصلاة آمراً ومؤكداً إقامتها...

ثم انظر إلى التعبير (وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) تجد التعبير بإقامة الوجوه فيه معنى العزة ورفع الرأس إلى السماء عند مساجد الله حيث تنحنى الأصلاب لخالقها ولكنها فى نفس الوقت تعلن أنها لا تنحنى لمخلوق ما دامت عرفت الانحناء للخالق، ولا تطأطئ فى ساحة طاغية ما دامت سجدت لله رب العالمين.

** وهذا شبيه بنفس السياق فى قول الله تعالى ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ..(**١٢٥**) ﴾ (وَاتَّخِذُوا) بكسر الخاء، وهى فعل أمر، يعطى كل هذه المعانى السابقة فى المثال السابق. مع ملاحظة أن السياق كان يجب أن يكون (**وَاتَّخَذُوا**) بفتح الخاء التى لاتكون الصيغة فيها فعل أمر.. وقد وردت قراءة أخرى بهذه الصيغة

وها هو السياق نعيش فيه بعض ألوان الالتفات:

** ﴿ (**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** (١٢٤) **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ**

مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾

حيث نلاحظ أن السياق جاء بصيغ الماضى – على أسلوب الحكاية عن حدث مضى، وذلك بصيغ الأفعال الماضية(**وَإِذِ ابْتَلَى .. فَأَتَمَّهُنَّ ..وَإِذْ جَعَلْنَا .. وَعَهِدْنَا .. وَإِذْ قَالَ .. قَالَ**).ماعدا موقفين جاءا على صيغة الحضور والمخاطبة المباشرة– وليس بصيغة الماضى–، أولهما الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى– ونحن نشترك فى ذلك الأمر مع إبراهيم عليه السلام أيضاً، فليس الأمر مقتصراً على قوم إبراهيم فى عصره،ولكنه هو فى شرعتنا أيضاً هى إحياء لملة إبراهيم وإتمامها – ولذلك جاء الأمر المباشر لنا ، والخطاب لنا، على غير سياق الحكاية الماضية المحيط بهذه الآية ، فقال آمراً لنا:(**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**)كأنه التفات لنا وتخصيص لنا وحضٌ لنا وتذكيرٌ لنا بهذه العبادة، ثم يعود لصيغة الحكاية وبصورة الماضى هكذا: **وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ**..

مع ملاحظة أن هناك قراءة أخرى ليست على صيغة الأمر وجاءت بصيغة الماضى أيضاً بفتح الخاء (**وَاتَّخَذُوا**) –أى هم– وبجمع القراءتين فى هذه الآية بصفة خاصة نرى أنه يريد أن يبين لنا أن هذا الأمر لنا أيضاً كما كان لهم فى الماضى، فقد أشركنا معهم بهاتين القراءتين معا.

والموقف الثانى الذى تغير له السياق من الحكاية الماضية إلى صيغة الحضور فى الفعل المضارع، الذى يشير إلى استحضار موقف إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت ومشاركتنا لهما فى البناء والدعاء ليظل ذلك المشهد عالقاً فى أذهاننا، وقد تغيرت الصيغ أيضاً فى السياق بعدها– من الماضى إلى المضارع– حيث لم يقل: وإذ (رفع) إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ، ولكنه قال: ﴿ **وإذ (يرفع) إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ** ، هكذا: **وَإِذْ**

(يَرْفَعُ) إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)- رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ﴾

وقال(**وإذ** (**يرفع**) **إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ**) ولم يقل (وإذ (رفع) إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت) ولكنه اختار صيغة المضارع(يرفع) لتصور لنا هذا الموقف كأنه حاضر الآن وكأنه يرفع البناء الآن وحاضراً معنا، وهو أسلوب قرآنى عجيب يريد منه إحياء المشهد الذى حدث فى الماضى السحيق وكأننا نعيشه الآن ونراه ونشارك معهما فى البناء والدعاء أيضاً وكأن الذى يفصل بيننا وبينهما ستارة وهما خلف الستارة يبنون البيت، وفجأة تزاح هذه الستارة ونري أنفسنا معاً معهم ونشترك سوياً في الدعاء الواحد {**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا**}**هكذا**: (**وَإِذْ (يَرْفَعُ) إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)**) ، ولم يقل السياق: (**وَإِذْ (يَرْفَعُ) إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (يقولان) رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا**..فيكون على سبيل الحكاية، ولكنه هنا يريد أن يجعل السياق وحدوث هذا الدعاء منا أيضاً نحن المستمعون والقارئون أيضاً، مع إبراهيم وإسماعيل، وهذا هو الذى أبرزته لنا صيغة المضارع (**يَرْفَعُ**) وجعلته كأنه يحدث الآن وكأنه قد استحضر إبراهيم وإسماعيل معنا أو انتقلنا نحن معهما لنشهد بناء البيت ونرفع أيدينا بالدعاء معهما ....

فلم يعد الحدث قصة تُحكى فقط عن ماضٍ قد انتهي، ولكنه هو استعراض لحاضرٍ مُشاهَد أمام أعيننا نراه الآن ونعيشه بجوارحنا ونشارك معهما ولا يفصلنا عن الحدث شيء أو حاجز ... وهذا هو جمال النظم وجلاله وروعته وإبهاره حيث يستحيل أن يوضع حرف مكان حرف أو كلمة مكان كلمة، فهو الميزان الذي قال عنه سبحانه{**اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ**}.

وصدق الشهيد سيد قطب فى تعقيبه على هذه الآيات المباركة بقوله: ثم يرسم مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل للأمر الذي تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود.. **يرسمه مشهوداً** كما لو كانت الأعين

تراهما اللحظة وتسمعهما في آن:«**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ: رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنا ...**» ..إن التعبير يبدأ بصيغة الخبر.. حكاية تحكى:«وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ» .. وبينما نحن في انتظار بقية الخبر، إذا بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا إياهما، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال. إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان: «رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.. رَبَّنا..»

فنغمة الدعاء، وموسيقى الدعاء، وجو الدعاء.. **كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة..** وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى، **ويتحرك ويشخص، وتفيض منه الحياة..** إنها خصيصة «التصوير الفني» بمعناه الصادق، اللائق بالكتاب الخالد.

****

** ﴿ (كَذَّبَتْ) ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) (**فَقَالُوا**) أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) (**سَيَعْلَمُونَ**) غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) (**إِنَّا**)(**مُرْسِلُو**) النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ (**فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**) (٢٧) ﴾ القمر.

يقول صاحب الظلال: وبينما يجري السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت في التاريخ- أى انتهت فى ماضى الزمان-.. **يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر. والأحداث جارية. فيتحدث عما سيكون. ويهدد بهذا الذي سيكون:** «سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ» **! وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص. وهي طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية في القصة، وتحيلها من حكاية تحكى، إلى واقعة تعرض على الأنظار، يترقب النظارة أحداثها الآن، ويرتقبونها في مقبل الزمان!** «سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ» .. وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة. ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة. فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب

الأشر! «**إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ. فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ. كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ**» .. (وأقول: كأن الناقة لم تأت بعد رغم أن النص يحكى عن قصة مضت فى غابر التاريخ وذهبت الناقة وقصتها من آلاف السنين، ولكن النظم يجعلها كأنها لم تأت بعد وكأنه أحيا نبى الله صالح معنا الآن ونحن ننتظر معه)

ويقف القارئ يترقب ما سيقع، عند ما يرسل الله الناقة فتنة لهم ، وامتحاناً مميزاً لحقيقتهم. ويقف الرسول- رسولهم عليه السلام- مرتقباً ما سيقع، مؤتمراً بأمر ربه في الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان. ومعه التعليمات.. أن الماء في القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة- ولا بد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة- فيوم لها ويوم لهم- تحضر يومها ويحضرون يومهم. وتنال شربها وينالون شربهم.

ويقول الإمام الرازى: المسألة الأولى: قوله: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ بِمَعْنَى الْمَاضِي أَوْ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ، إِنْ كَانَ بِمَعْنَى الْمَاضِي فَكَيْفَ يَقُولُ: (فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ) وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ حِكَايَةِ عَادٍ وَحِكَايَةِ ثَمُودَ حَيْثُ قَالَ هُنَاكَ: **إِنَّا أَرْسَلْنا [إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩)]** القمر. ولم يقل: إنا مرسلوا- وقال هاهنا: **إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ** بِمَعْنَى إِنَّا نُرْسِلُ؟

نَقُولُ: هُوَ بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا قَبْلَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: سَيَعْلَمُونَ غَداً يدل عليه، فإن قوله: **إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ** كَالْبَيَانِ لَهُ، كَأَنَّهُ قَالَ سَيَعْلَمُونَ حَيْثُ: نُرْسِلُ النَّاقَةَ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: **فَارْتَقِبْهُمْ وَنَبِّئْهُمْ** [القمر: ٢٨] أَيْضًا يَقْتَضِي ذَلِكَ، فَإِنْ قِيلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَنادَوْا** [القمر: ٢٩] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْمَاضِي قُلْنَا سَنُجِيبُ عَنْهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَأَمَّا الْفَارِقُ فَنَقُولُ: حِكَايَةُ ثَمُودَ مُسْتَقْصَاةٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ حَيْثُ ذَكَرَ تَكْذِيبَ الْقَوْمِ بِالنُّذُرِ وَقَوْلَهُمْ لِرَسُولِهِمْ وَتَصْدِيقَ الرُّسُلِ بِقَوْلِهِ: سَيَعْلَمُونَ وَذَكَرَ الْمُعْجِزَةَ وَهِيَ النَّاقَةُ وَمَا فَعَلُوهُ بِهَا وَالْعَذَابَ وَالْهَلَاكَ **يَذْكُرُ حِكَايَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ لِيَكُونَ وَصْفُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّهُ حَاضِرُهَا فَيَقْتَدِي بِصَالِحٍ فِي الصَّبْرِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْحَقِّ وَيَثِقُ بِرَبِّهِ فِي النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِالْحَقِّ فَقَالَ: إِنِّي مُؤَيِّدُكَ بِالْمُعْجِزَةِ الْقَاطِعَةِ**، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ خَمْسَ قِصَصٍ،

وَجَعَلَ الْقِصَّةَ الْمُتَوَسِّطَةَ – قصة صالح –مَذْكُورَةً عَلَى أَتَمِّ وَجْهٍ لِأَنَّ حالَ صَالِحٍ كَانَ أَكْثَرَ مُشَابَهَةً بِحَال مُحَمَّدٍ (ﷺ)، لِأَنَّهُ أَتَى بِأَمْر عَجِيبٍ أَرْضِيٍّ كَانَ أَعْجَبَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْيَا الْمَيِّتَ لَكِنَّ الْمَيِّتَ كَانَ مَحَلًّا لِلْحَيَاةِ فَأَثْبَتَ بِإِذْنِ اللَّهِ الْحَيَاةَ فِي مَحَلٍّ كَانَ قَابِلًا لَهَا، وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ انْقَلَبَتْ عَصَاهُ ثُعْبَانًا فَأَثْبَتَ اللَّهُ لَهُ فِي الْخَشَبَةِ الْحَيَاةَ لَكِنَّ الْخَشَبَةَ نَبَاتٌ كَانَ لَهُ قُوَّةٌ فِي النَّمَاءِ يُشْبِهُ الْحَيَوَانَ فِي النُّمُوِّ فَهُوَ أَعْجَبُ، وَصَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ الظَّاهِرُ فِي يَدِهِ خُرُوجَ النَّاقَةِ من الحجر والحجر جَمَادٌ لَا مَحَلَّ لِلْحَيَاةِ وَلَا مَحَلَّ لِلنُّمُوِّ [فِيهِ] **وَالنَّبِيُّ** (ﷺ) **أَتَى بِأَعْجَبَ مِنَ الْكُلِّ وَهُوَ التَّصَرُّفُ فِي جِرْمِ السَّمَاءِ الَّذِي يَقُولُ الْمُشْرِكُ لَا وَصُولَ لِأَحَدٍ إِلَى السَّمَاءِ وَلَا إِمْكَانَ لِشَقِّهِ وَخَرْقِهِ**، وَأَمَّا الْأَرْضِيَّاتُ فَقَالُوا: إِنَّهَا أَجْسَامٌ مُشْتَرَكَةُ الْمَوَادِّ يَقْبَلُ كل واحد منها صورة الأخرى، والسموات لَا تَقْبَلُ ذَلِكَ فَلَمَّا أَتَى بِمَا عَرَفُوا فِيهِ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ آدَمِيٌّ كَانَ أَتَمَّ وَأَبْلَغَ مِنْ مُعْجِزَةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي هِيَ أَتَمُّ مُعْجِزَةٍ مِنْ مُعْجِزَاتِ مَنْ كَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرَ مُحَمَّدٍ (ﷺ).. إذا عرفت هذا فنقول: مُرْسِلُوا النَّاقَةِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّخْفِيفِ **فِيهِ تَحْقِيقُ الْأَمْرِ، وَتَقْدِيرُهُ كَأَنَّهُ وَقَعَ وَكَانَ**، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ: إِنَّا نُرْسِلُ النَّاقَةَ.

**وأقول: هذا الالتفات هو نفس الالتفات الذى حدث مع إبراهيم عليه السلام فى حال بناء الكعبة والدعاء حكاه لنا رب العالمين فى سورة البقرة؛ فقد كان الحديث عن قصة يكون الخطاب عنهم بصيغة الحدث الذى تم فى الزمن الماضى ثم يتحول فجأة لصيغة الأمر المباشر لقومٍ حاضرين.

****

ومثلها الالتفات فى قوله تعالى:

** ﴿ (وَوَصَّيْنَا **الْإِنْسَانَ** – هو– **بِوَالِدَيْهِ** – هو– **حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ**– أنت– **لِتُشْرِكَ بِي** – أنت– **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا**– أنت– **إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ** – أنتم– **فَأُنَبِّئُكُمْ** – أنتم– **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**– أنتم– **(٨)** ﴾ العنكبوت.

ولا يخفى على المتأمل- والذى عاش معنا هذه الرحلة- أنه تم الالتفات من الغيبة (هو) إلى الخطاب المباشر (أنت) لأهمية هذه النصيحة الخاصة والهامة﴿ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ**- أنت- **لِتُشْرِكَ بِي** - أنت- **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا**- أنت-) ثم يعلن القضية(العامة) التى يجب أن يعيها ويتأملها ويركز فيها الجميع وهى(**إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ** – أنتم- **فَأُنَبِّئُكُمْ** – أنتم- **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**- أنتم) ﴾

وتفصيل ذلك كالتالى: فقد بدأ الخطاب عن الإنسان عموما- وهو عموم الناس وكل إنسان-(**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ** (هو) **حُسْنًا**.. فهذا خطاب(عنهم) بصيغة الغائب.. ثم يتحول السياق للقضية الكبرى وهى التحذير من الشرك ، وعندها تتغير الصيغة من الغيبة إلى خطاب المواجهة واستحضار هذا الإنسان ليخاطبه ويوصيه بهذه الوصية الخطيرة فيقول له (**وَإِنْ جَاهَدَاكَ**(أنت) **لِتُشْرِكَ بِي** (أنت) **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**(أنت) **فَلَا تُطِعْهُمَا** (أنت) ..وكأنه التفت بخطابه الخطاب المباشر ليقول له(إياك وهذه- الشرك بالله-) وقوله: وإن جاهداك، تعبير له مغزى جليل، أى لا تفعل ذلك أبداً وإن حملاك وبلغا منك الجهد فى ذلك... وكان يجب فى غير النص القرآنى والسياق القرآنى أن يقال(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (هو) حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاه (هو) لِيُشْرِكَ بِي(هو) مَا لَيْسَ لَه (هو) بِهِ عِلْمٌ فَلَا يُطِعْهُمَا (هو) ...ولو سار الخطاب على هذه الحالة فلا يوجد حينئذٍ أمرٌ هام يلفتنا إليه ويوجه الحديث إليه وتضيع الفائدة التى ذكرناها..

ونلاحظ أن السياق قد توجه له بالخطاب المباشر دون فعل القول: أى لم يقل له ﴿ (**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا** ((وقلنا له)) **وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (٨).. ليكون الخطاب مباشراً دون واسطة فى هذه الوصية الهامة والخطيرة ، مع ملاحظة الخطاب عنه بصيغة (المفرد) وكأنه أخذ يوصى كل واحد بمفرده لأهمية وخطورة هذه الوصية (**وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** .. ثم يتوجه بخطاب عام لكل البشرية ويتحول بذلك الخطاب بصيغة الجمع(أنتم) هكذا: **إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ** (أنتم) **فَأُنَبِّئُكُمْ**(أنتم) **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**(أنتم) (٨). ﴾.

التَّاسِعُ : مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى الْأَمْرِ

تَعْظِيمًا لِحَال مَنْ أُجْرِيَ عَلَيْهِ الْمُسْتَقْبَلُ. وَبِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ فِي حَقِّ مَنْ أُجْرِيَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿ **يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ** .. (**٥٣**). إلى قوله: **قَالَ إِنِّي** (**أُشْهِدُ اللَّهَ**) (**وَاشْهَدُوا**) **أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ** (**٥٤**) ﴾

(قال الزمخشرى: فإن قلت: هلا قيل: إنى أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يَبِسَ الثرى بينه وبينه. إشهد على أنى لا أحبك، تهكما به واستهانة بحاله

فالمخالفة كما يذكر الزمخشرى تفيد الفرق بين نوعين من الشهادة: شهادة الله على براءته مما يشركون، وتلك شهادة صحيحة. وشهادتهم، وتلك شهادة لا فائدة منها إلا التهاون بهم(وقال: وأشهدوا.. وليس: وأشهدكم)، فلما وجد هذا الفرق المعنوى بين الشهادتين وجب أن يوجد فى الصياغة ضرب من المخالفة أو هذا الالتفات

****

الْعَاشِرُ : مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ

نَحْوَ: ﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي** (**أَرْسَلَ**) **الرِّيَاحَ** (**فَتُثِيرُ**) ﴾ ، و﴿ **فَكَأَنَّما** (**خَرَّ**) **مِنَ السَّماءِ** (**فَتَخْطَفُهُ**) **الطَّيْرُ أَوْ** (**تَهْوِي**) **بِهِ الرِّيحُ** ((**فِي**)) **مَكَانٍ سَحِيقٍ** (**٣١**) ﴾

أى: ومن يشرك بالله- تعالى- في عبادته، ومات على ذلك، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله، أو تسقطه الريح في مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر.(وهذا مشهد تصويرى

يستحق استحضاره أما الذهن ولا يقوم بذلك الا استخدام صيغة المضارع (**فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ**)

وقد بدأها بصيغة الماضى (خرَّ) ثم انقلبت صيغ الأفعال إلى صيغة الأفعال المضارعة (فتخطفه) (تهوى)، وكان حقها أن تكون (فخطفته) (هوت).

وكما يصور ذلك الشهيد سيد قطب- الذى يصور لنا لماذا استخدم صيغة المضارع فى استحضار المشهد – قائلاً: إنه مشهد الهويّ من شاهق «فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ» . وفي مثل لمح البصر **يتمزق** «**فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ**» أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار: «**أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ**» في هوة ليس لها قرار! والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ «بالفاء» وفي المنظر بسرعة الاختفاء..على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير.

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء.إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها. قاعدة التوحيد. ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح. وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه.((وأكرر القول: إن كل هذه المشاهد لا يعبر عنها ولا يستحضرها ويصورها خير تصوير إلا صيغة الفعل المضارع).

وأقول: أن صيغة الماضى فى (خرّ) تفيد تحقيق سرعة وقوع هذا المشرك، إضافة إلى جرس الكلمة (خرّ) وتكرار صوت الراء الذى يشير إلى تكرار الوقوع.. وملاحظة الالتفات أيضاً إلى حرف الجر(فى) فى قوله تعالى (**تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ** ((**فِي**)) **مَكَانٍ سَحِيقٍ**) وكان حقها أن تكون(إلى مكان سحيق) ولو قالها كذلك لأفادت أن السقوط وصل (إلى) مكان سحيق واستقر، ولكن النص يصور أن المكان السحيق يحيط به فلا استقرار ولكنه تخبط فى هذا المكان السحيق ، وهو مشهد حى ومتحرك وفيه الغموض والتخبط واستمرار الحيرة.

ويقول الإمام الطاهر: وَجِيءَ بِالْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ (**أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** ..(١)) (**إِلَّا مَا يُتْلى عَلَيْكُمْ**) ﴾ – ولم يقل(إلا ما تُلِىَ عَلَيْكُم)- لِيَشْمَلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ مِمَّا سَبَقَ نُزُولَ سُورَةِ الْحَجِّ بِأَنَّهُ تُلِيَ فِيمَا مَضَى **وَلَمْ يَزَلْ يُتْلَى،** وَيَشْمَلُ مَا عَسَى أَنْ يَنْزِلَ مِنْ بَعْدُ مِثْلَ قَوْلِهِ: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سائِبَةٍ الْآيَةَ فِي [المائدة ١٠٣] .

****

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ (كَفَرُوا)(وَيَصُدُّونَ) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ الحج .

يقول الإمام الطاهر: وَجَاءَ (**يَصُدُّونَ**) بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَكَرُّرِ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَأَنَّهُ دَأْبُهُمْ سَوَاءٌ فِيهِ أَهْلُ مَكَّةَ وَغَيْرُهُمْ لِأَنَّ الْبَقِيَّةَ ظَاهَرُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ الصَّدِّ وَوَافَقُوهُمْ. وأقول: هو مناسب لجو هذه السورة وظروف نزولها وَوَجْهُ تَسْمِيَتِهَا سُورَةَ الْحَجِّ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِيهَا كَيْفَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى حَجِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَذَكَرَ مَا شَرَعَ لِلنَّاسِ يَوْمَئِذٍ مِنَ النُّسُكِ تَنْوِيهًا بِالْحَجِّ وَمَا فِيهِ مِنْ فَضَائِلَ وَمَنَافِعَ، **وَتَقْرِيعًا لِلَّذِينَ يَصُدُّونَ** الْمُؤْمِنِينَ **عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** (وهذا شأنه مستمر) وقيل إِنَّ قَوْلَهُ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ [الْحَج: ٢٥] يُنَاسِبُ أَنَّهُ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ حَيْثُ صَدَّ الْمُشْرِكُونَ النَّبِيءَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْبَقَاءِ مَعَهُمْ بِمَكَّةَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ** [الْحَج: ٣٩– ٤٠] فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ نَزَلَ فِي شَأْنِ الْهِجْرَةِ.(فهو أمر مستمر أثناء وبعد نزول السورة).

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ **وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً** ﴾ **[الْحَج: ٥٨]** فَفِيهِ ذِكْرُ الْهِجْرَةِ وَذِكْرُ مَنْ يُقْتَلُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِجِهَادٍ مُتَوَقَّعٍ كَمَا سَيَجِيءُ هُنَالِكَ. وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** [الْحَج: ١٩] أَنَّهُ نَزَلَ فِي وَقْعَةِ بَدْرٍ، وقد وقع بعد الهجرة مما يشير إلى استمرار الصد(ويصدون).

أَمَّا صِيغَةُ الْمَاضِي فِي قَوْلِهِ: **إِنَّ الَّذِينَ (كَفَرُوا)** فَلِأَنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ صَارَ كَاللَّقَبِ لَهُمْ مِثْلَ قَوْلِهِ: **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا** [الْحَج: ٢٣].

ويقول صاحب تفسير الوسيط: وصح عطف المضارع وهو «يصدون» على الماضي وهو «كفروا» لأن المضارع هنا لم يقصد به زمن معين من حال أو استقبال، وإنما المراد به مجرد الاستمرار، كما في قولهم: فلان يحسن إلى الفقراء، فإن المراد به استمرار وجود إحسانه. ، **وهذا بخلاف الآيات التى جاءت بصيغة الماضى**(وصدوا) والتى لا تتحدث عن استمرار صدهم عن سبيله ولكنها وردت بمثابة صفة لهم وتقرير ختامى بشأنهم فناسبه صيغة الماضى هذه كما فى الأمثلة التالية:

** ﴿ (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (وَصَدُّوا) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)** ﴾ النساء.

** ﴿ (**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)**). (**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١)** ﴾ **محمد**.

** ﴿ (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا .. (٣٢)** ﴾ النساء ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)** ﴾.

فكل هذه الصيغ لا تتحدث عن استمرار صدهم عن سبيله ولكنه بمثابة صفة لهم وتقرير ختامى بشأنهم فناسبه صيغة

ويقول الإمام الزركشى: وَالْحِكْمَةُ فِي هَذِهِ أَنَّ (الْكُفْرَ)- إن الذين كفروا)- لَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ إِذَا حَصَلَ- أى الكفر- أَنْ يَسْتَمِرَّ حُكْمُهُ - عَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَاضِي لِيُفِيدَ ذَلِكَ، مَعَ كَوْنِهِ نافيا أَنَّهُ قَدْ مَضَى عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَا كَذَلِكَ الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ حُكْمَهُ – أى الصد عن سبيله-إِنَّمَا ثَبَتَ حَالَ حُصُولِهِ... مَعَ أَنَّ فِي الْفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ إِشْعَارًا بِالتَّكْثِيرِ.

فَيُشْعِرُ قَوْلُهُ: {وَيَصُدُّونَ} أَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِصَدَدِ ذَلِكَ وَلَوْ قَالَ وَصَدُّوا لَأَشْعَرَ بِانْقِطَاعِ صدهم... ولكنه قد ورودت هذه الآية بصيغة الماضى(وصدوا) فى سورة محمد(**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** (١)) لأنها تعطى تقرير نهائى عنهم بعد انقضاء الدنيا ولا تحكى عن تجدد كفرهم واستحضار صورته.

****

الحادي عشر: عكسه، - أى من (المضارع) إلى (الماضى)

** كقوله: ﴿ **يَوْمَ (يُنْفَخُ) فِي الصُّورِ (فَفَزِعَ) مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ** ﴾

((والعدول للماضى يكون أيضاً لسرعة وقوع الفعل- وهو الفزع هنا- وتحققه مثل تحقق الماضى فى حدوثه وكأنه يتحدث عن أمر قد حدث وحصل فى الزمن الماضى – كما قال بذلك الإمام الزمخشرى- وإيثار صيغة المضارع فى (يُنفخ) استحضار صورة الحدث حتى لكأنه ماثل أمام الأعين، مع وجود الفاء الفجائية(ففزع) التى تعطى تصور الدهشة والمفاجأة مع هذا الفزع))

** ﴿ **وَيَوْمَ (نُسَيِّرُ) الْجِبَالَ (وَتَرَى) الْأَرْضَ بَارِزَةً (وَحَشَرْنَاهُمْ)** ﴾ .

قَالُوا: وَالْفَائِدَةُ فِي الْفِعْلِ الْمَاضِي إِذَا أُخْبِرَ بِهِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَمْ يُوجَدْ أَنَّهُ أَبْلَغُ وَأَعْظَمُ مَوْقِعًا لِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ الْوَاقِعِ وَالْفَائِدَةُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِذَا أُخْبِرَ بِهِ عَنِ الْمَاضِي لِتَتَبَيَّنَ هَيْئَةُ الْفِعْلِ بِاسْتِحْضَارِ صُورَتِهِ لِيَكُونَ السَّامِعُ كَأَنَّهُ شَاهِدٌ وَإِنَّمَا عَبَّرَ فِي الْأَمْرِ بِالتَّوْبِيخِ بالماضي بعد قوله: (ينفخ) **لِلْإِشْعَارِ بِتَحْقِيقِ الْوُقُوعِ وَثُبُوتِهِ وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا محالة** كقوله: {وبرزوا لله جميعا} والمعنى: يبرزون، وإنما قال: (وحشرناهم) بعد (نسير) (وترى) وَهُمَا مُسْتَقْبَلَانِ لِذَلِكَ. (ويراد أيضا إبراز لفظ الجلالة وبصورة الجمع والحضور – وحشرناهم- في هذا الأمر الأساسي وهو الحشر للحساب)

** وجمال آخر في قوله تعالى﴿ **(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ**- مضارع مستقبلى- **وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً**- مضارع مستقبلى- **وَحَشَرْنَاهُمْ** (صيغة الماضى)، وكان يجب أن يقول

(ونحشرهم) بالمضارع المستقبلى أيضاً، ولكنه قال: **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨)** ﴾ .. فهكذا الأفعال(**وَحَشَرْنَاهُمْ.. وَعُرِضُوا.. لَقَدْ جِئْتُمُونَا**) كلها ماضية.. وهنا نقف وقفة على جمال ودقة النظم القرآنى فى هذا الالتفات وصيغته على هذه الصورة، **التى راعى فيها ترتيب الأحداث باستخدام صيغ الأفعال،** فالحدث السابق- فى الترتيب- استخدم له صيغة الماضى ، والحدث التالى استخدم له صيغة المضارع المستقبلى. والذى ينظر إلى هذه المواقف المرسومة والمعروضة فى هذا السياق يجد أن (الحشر والعرض والمجىء) هو أول الأحداث (ولذلك استخدم لها صيغة الماضى)، ثم يأت بعد ذلك مشهد تسيير الجبال ونسفها وحملها ودكها وتغيير صورة الأرض – وكلها ستقع أمام هؤلاء المحشورين على أرض المحشر- أى بعد حشرهم وعرضهم لتكتمل صورة الرعب والخوف والمهابة- فكانت هذه الأحداث تالية لمشهد الحشر، ولذلك جاء بها على صيغة المضارع فقال(**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ**- مضارع – **وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً**- مضارع –) ..

وقد حدث ترتيب الأحداث بصيغة الأفعال كما ذكرنا لأن سياق الآية جاء على غير هذا الترتيب من تقديم مشهد تسيير الجبال ونسفها، وهذا التقديم جاء به ليناسب مشهد نسف حديقة المجرم المتكبر صاحب الجنتين ومشهد فناء كل شىء فى الآيات السابقة (**فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا** – فهو مشهد نسف يناسبه تقديم مشهد نسف الجبال على الحشر فى آيتنا المقصودة-(٤٠) .... **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** – يناسب مشهد نسف الجبال ويستدعى تقديمه فى سياق الآية التالية على مشهد الحشر- **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥)** وبعدها يأتى المشهد المناسب (**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ** (هم) **فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا** (هم) **عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا** (أنتم) **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ** (أنتم) **أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ** (أنتم) **أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨)** ..

وهنا كما ترى قد تغير السياق فبعد أن كان الخطاب عنهم بصيغة الغيبة (**وَحَشَرْنَاهُمْ** (هم) ..**وَعُرِضُوا** (هم)) استحضرهم أمامه ليبين شدة الانتقام منهم والتوبيخ لهم فقال لهم (**لَقَدْ جِئْتُمُونَا** (أنتم) **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ** (أنتم) **أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ** (أنتم) **أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا**) وأنت عزيزى القارىء ترى ما فى هذا الالتفات من القوة والشدة فى الانتقام والتوبيخ مالا تجده لو سار الخطاب على الصيغة المعتادة (**وَحَشَرْنَاهُمْ** (هم) ..**وَعُرِضُوا** (هم)) **لَقَدْ** جاءونا (هم) **كَمَا خَلَقْنَاهم** (هم) **أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمُوا** (هم) **أَلَّنْ نَجْعَلَ لَهم** (هم) **مَوْعِدًا**) **وإذاً لضاعت كل هذه المعانى وهذه الظلال ولأصبح هذا الكلام كلام البشر.**

وكما رأينا أن السياق قد جاء بالخطاب المباشر (**وَعُرِضُوا** (هم) **عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا** (أنتم) **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**.. وكان يمكن أن يأتى بفعل القول هكذا: **وَعُرِضُوا** (هم) **عَلَى رَبِّكَ صَفًّا** ((**ويقال لهم**)) **لَقَدْ جِئْتُمُونَا** (أنتم) **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ** (أنتم) **أَوَّلَ مَرَّةٍ**.. وحينئذٍ تضيع أهمية المواجهة فى هذا الموقف العصيب، وكما يقول الدكتور محمد أبو موسى فى خصائص التراكيب: ومزية هذا الحذف فى بناء الكلام بعده على أسلوب الالتفات وهو أسلوب له خطره فى التصوير والتأثير كما أشرنا، ألا ترى أن المولى عزَّ وجلَّ كأنه بعد ما عرضوا هذا العرض المستسلم فى هذا السياق المفزع حيث التجلى الأعظم لقدرة ذى البطش فالجبال الرواسى تسير فى الجو هباءً منثوراً، والأرض عارية ذهب كل من يسترها من إنسان وحيوان ونبات. أقول : ترى المولى عز وجل بعدما عرضهم هذا العرض المستسلم كأنه يتجه إليهم معنفاً أشد تعنيف: لقد جئتمونا كما خلقناكم وكنتم تكذبون وتقولون ذلك رجع بعيد، وتزعمون ألن نجعل لكم موعداً، هذا المعنى الذى جاء على طريقة الالتفات التى هيأ لها الحذف هو فيصل القضاء فى هذا الموقف لأنه متعلق التصديق والتكذيب فى رسالات السماء

ومثله وعلى طريقته قوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا**(هم) **عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ** (أنتم) **طَيِّبَاتِكُمْ** (أنتم) **فِي حَيَاتِكُمُ** (أنتم) **الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ** (أنتم) **بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ** (أنتم) **عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ** (أنتم) (**٢٠**)..والكلام على الحذف لفعل القول، حيث لم يقل(فيقال لهم):(**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا** (هم) **عَلَى النَّارِ((فيقال لهم)) أَذْهَبْتُمْ** (أنتم) **طَيِّبَاتِكُمْ**). ﴾. والتفت السياق مباشرة لهم بالخطاب.. ولكن العرض هنا غير العرض فى الآية السابقة، فالعرض هناك عرض فى الحشر، والعرض هنا عرض على النار؛ أى تعذيب بها وإحراق، فالقوم متاع للنار يقدم إليها ويعرض عليها، فهم مددها وحطبها، والمهم أن الاتجاه إليهم بالخطاب وهم فى هذا العرض الكارب وتذكيرهم بما أوبقهم من حب العاجلة له فى صرف النفس عن ملذات الدنيا الصارفة عن طيبات الآخرة أثر بالغ.

ومنها قوله تعالى﴿ **وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (**٩٠**)) ﴾ النمل.

وتأمل صيغة الماضى فى قوله (فَكُبَّتْ) والناس لا يزالون أحياء، وفيه كما ترى تهديد بالغ، ثم تأمل البناء للمجهول(فَكُبَّتْ)- ولم يقل(فأكبهم الله) وكيف دل على الحركة الخاطفة السريعة التى فجأتهم فلم يدروا من أين أتت، ثم إن المجهول فى هذا الموقف المخيف يثير خيالات كثيرة(فناسبها صيغة المبنى للمجهول)

****

﴿ (**وَوُضِعَ**) **الْكِتَابُ** (**فَتَرَى**) **الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ** (**وَيَقُولُونَ**) **يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** (**وَوَجَدُوا**) **مَا عَمِلُوا حَاضِرًا** (**وَلَا يَظْلِمُ**) **رَبُّكَ أَحَدًا** (**٤٩**) ﴾ الكهف..

وفى هذه الآية تجد العجيب من إشارات الالتفات هكذا:

(وَوُضِعَ) **الْكِتَابُ**- جاءت بصيغة الغائب والمجهول لتنقل خيالنا إلى عالم الآخرة الغيبى وتهويل صفة هذا الكتاب (وَوُضِعَ)، وجاء على صيغة الماضى- رغم أنه لم

يأت بعد- ولكنه لإفادة تحقيق وقوعه واليقين منه ، وقد عشنا أمثلتها الكثير- من أن أحداث الآخرة دائماً تأتى بصيغة الماضى إلا ما استثنى – مثل: أتى أمر الله فلا تستعجلوه- التى تفيد تحقيق وقوع ذلك الأمر- .

وبعد أن أكَّد وقوع هذا الأمر- من وضع الكتاب وتهويل أمره ومجيئه بصيغة الماضى- أراد أن يستحضر لنا المشهد وكأنه يحدث أمام أعيننا، فاختار بعدها التحول إلى صيغة المضارع هكذا **(وَتَرَى) الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ (وَيَقُولُونَ) يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** – وكان يمكن أن يقول: ووضع الكتاب ورأيت المجرمين.. وقالوا...) ولكنه عدل إلى صيغة المضارع التى تستحضر لنا المشهد والصورة وكأنه يحدث الآن، وذلك لأهمية استحضار هذا المشهد بصفة خاصة-

ثم ينتقل لنا إلى تقرير موقف هام فجاء به على صيغة الماضى التى تفيد ثبات هذا الأمر فقال:**(وَوَجَدُوا) مَا عَمِلُوا حَاضِرًا** .

ثم يعود لا ستحضار أمرٌ متكرر ومتجدد- فى الدنيا والآخرة- فأتى به بصيغة المضارع: **(وَلَا يَظْلِمُ) رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)**..

ولعل الأهم من استحضار مشهد الالتفات - على ما ذكرناه - هو التأمل فى سرعة وقوعه وتكراره فى السياق الواحد دون أن يشعر به القارىء الكريم إلا بعد أن يقف عليه طويلاً وتأمله، وهذا من مميزات هذا الأسلوب فى النظم القرآنى ، وأدعو القارىء أن يحاول أن يأتى بهذا الأسلوب مع صاحبه ويقلده ويتخيل أنه يخاطب صاحبه بصيغة الغيبة ثم يخاطبه فى نفس السياق بصيغة المخاطب، وسوف يجد نفسه والقارىء معه فى حالة افتضاحٍ وفشل ولن يكون بهذه الصورة من السهولة والسرعة دون الشعور بوقوعه – كما عشنا على الصفحات الماضية ونعيشه على الصفحات القادمة.

والفعل الماضى يعبر عن الحدث المستقبل وينقله إلى الزمن الذى مضى، ووراء ذلك إشارات ولطائف تختلف باختلاف السياق كقوله تعالى(**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**

.. (١)) النحل.. وأمر الله هنا هو يوم القيامة وهى لم تأت بعد بدليل قوله(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ).. ولكنه قال(أتى) بصيغة الماضى لتدل على صدق حدوثه وتأكيد وقوعه وكأنه وقع بالفعل.. وذلك مثال أن يأتينى أب يريد منى أن أوظِّف ابنه عندى، وأنا فى هذه الحالة مدير لهذا المصنع وصاحبه ولا يملك أحد أن يرد قرارى، فأنا أقول لهذا الوالد (إرجع إن ابنك قد توظف وليأتِ ليستلم الوظيفة الشهر القادم) فهو لم يستلم بعد الوظيفة ولكنه قال له : ابنك قد توظف- بصيغة الماضى- توكيداً وتطميناً وحتى لا يفكر فى أنه سيوظف أم لا ، ويفكر فى أمور أخرى ..

وهكذا الشأن فى أحداث يوم القيامة التى أتت على صيغة الماضى فى الأعم الأغلب كما فى قوله تعالى ﴿ (**وَجَاءَتْ** سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) **وَنُفِخَ** فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) **وَجَاءَتْ** كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) **وَقَالَ قَرِينُهُ** هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ** كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ **فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ** الشَّدِيدِ (٢٦) **قَالَ قَرِينُهُ** رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ..) ﴾

فجميعها كما ترى جاءت بصيغة الماضى لما ذكرناه، فصيغة الماضى ألقت على الأحداث طابع الحكاية المروية، وكأن كل ذلك قد وقع، وأنت الآن تسمع تلك القصة التى تملأ قلبك إشفاقاً وخشية، وهذا الأسلوب لا يدعك تفكر فى إمكان وقوع الأحداث -كما يكون الحال لو جاء على صيغة المضارع المستقبلية(وتجيء سكرة الحق وتجيء كل نفس معها سائق وشهيد و...)- وإنما ورودها- بصيغة الماضى التى وردت عليها الآيات- تدعك تفكر فى الأحداث نفسها لتتأمل ما فيها

من رهبة أو رغبة وتنظر وتفكر فى نفسك وحالك وماذا ستفعل.. فمسألة الوقوع –لسكرة الموت– من عدمه قد ألغاها الفعل الماضى حين صيرها واقعاً يروى.. والآيات فى ذلك كثيرة

**ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿ **وَأَشْرَقَتِ** الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) **وَوُفِّيَتْ** كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا** إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا **فُتِحَتْ** أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) **قِيلَ ادْخُلُوا** أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا** رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا **وَفُتِحَتْ** أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾

فالأحداث والمشاهد فى هذه الآيات الكريمة لم تقع بعد ولكن صياغتها تنقلها إلى المحيط الذى وقع ... وتزاحم الموقف بالصور والأحداث من تجلى الحق وقد أشرقت الأرض بنور ربها، ومرت كلها فى رهبة ومر موكب الذين كفروا وهم يساقون إلى جهنم زمرا بعدما انتهى الحوار بينهم وبين خزنة جهنم، ودخلوا أبوابها وأحكم عليهم الرتاج فى مثوى المتكبرين

وكما يقول الدكتور محمد أبو موسى فى (خصائص التراكيب): التعبير بالماضى عن المستقبل فى هذا السياق تجاوز الزمن وطواه، فدارت بنا الأحداث ووقفنا مع الواقفين، ووفيت نفوسنا ما عملت ولم أجد مثل هذا فى كلام الجاهلين أعنى لم أجد اللغة فى بيانهم قد انتزعت مشهداً متزاحماً كهذا المشهد انتزعته من الزمن المقبل وأدارته بأفاعيلها إلى زمنٍ مضى وكأنها أحداث قد تقضت وانقضت كما ترى فى الآية الكريمة وكانت الصورة الزاخرة عندهم هى صورة حيوانات الصحراء وصراعاتها، أما مثل هذا فلا وجود له فى شيء من كلامهم، والمهم أنك لا ترى فى تقرير الحقائق أبلغ من هذا التعبير، ثم إن هذه الحقائق كما ترى لها

أهمية كبيرة فى العقيدة وهى موضع مجاذبة لانها معتقدات بغيب فهى صور غريبة على النفوس الأرضية التى لا تؤمن إلا بما يدنو من حسها ورؤاها بما يدور فى آفاقها المحدودة.

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿ **(وَيَوْمَ (يُنْفَخُ) فِي الصُّورِ (فَفَزِعَ) مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)** ﴾.

فإن قلت: لم قيل فَفَزِعَ دون فيفزع؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السماوات والأرض، لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به - وهذا هو مدلول استخدام الفعل الماضى للأحداث التى لم تقع بعد- والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ إلا من ثبّت الله قلبه من الملائكة،[٣٩]

****

وقفة تذكيرية بأسلوب الالتفات فى سورة الفاتحة:

(**إياك نعبد وإياك نستعين**) هذه القسمة (إياك نعبد) تتصل بما قبلها من تمجيد الله تعالى (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين). ثم تأتي (إياك نستعين) الآيات السابقة على(إياك نعبد) من بداية(الحمد لله رب العالمين) **الْحَمْدُ لِلَّهِ**- هو- **رَبِّ الْعَالَمِينَ** - هو- **(٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** - هو- **(٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** - هو- **(٤)** نجدها تمجيداً لله عز وجل بصيغة الغيبة، فهى من حيث بنية اللغة للغائب، الله سبحانه وتعالى غائب عن أعيننا حاضر في قلوبنا، لكن من حيث البنية اللغوية نقول الحديث عن الغائب- هو- : الحمد لله (هو لم يقل الحمد لك) إذن الحديث للغيبة(هو)، **الْحَمْدُ لِلَّهِ**- هو- **رَبِّ الْعَالَمِينَ** - هو- **(٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** - هو- **(٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** - هو- **(٤)**) لكن هذا التمجيد والتعظيم لله سبحانه وتعالى زاد من

---

[٣٩] قالوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت- عليهم السلام. وقيل: الشهداء. وعن الضحاك: الحور، وخزنة النار، وحملة العرش. وعن جابر: منهم موسى عليه السلام، لأنه صعق مرّة.

حضور الله سبحانه وتعالى في القلب، وكأن المؤمن قد تعرف على ربه بهذه الصفات فأحبه واقترب منه، وأصبح حاضراً أمام عينيه أو مخيلته، كما يقول الإمام للمصلين: إجعلوا الله أمامكم.. فبعد أن انتهى من التعظيم والتمجيد، وتعرف عليه وأحبه واقترب منه انتقل الأسلوب إلى أسلوب الخطاب- وليس الغائب- فقال(إياك نعبد)- فقال (إياك) أنت- وكان حقه فى غير النظم القرآنى أن يقول (إياه) نعبد، ويستمر على مخاطبته بصيغة الغائب، ولكنه إلتفت فى الخطاب وأصبح خطاباً للحاضر(**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**).هذا يسمونه في العربية بأسلوب الإلتفات، **ومن أبرز ما ذكر في توجيه هذا التحول:**

*أن الآيات الثلاث الأولى ثناء على الخالق عز وجل، والثناء في الغيبة أولى، أما الآية الرابعة (إياك نعبد ...) فهي دعاء والدعاء في الحضور أولى.

*أن المصلى يكون أجنبياً عند الشروع في الصلاة، فلا جرم أثنى على الله بألفاظ المغايبة، ثم إنه تعالى كأنه يقول له: حمدتني وأقررت بكوني إلهاً رباً رحيماً مالكاً ليوم الدين فنعم العبد أنت، قد رفعنا عنك الحجاب فتكلم بالمخاطبة وقل: إياك نعبد.

* إن ذكر صفات الخالق عز وجل يستتبع العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة.

* أن العبد عند شروعه في الصلاة ينوي حصول القربة، فإذا ما ذكر بعد هذا الشروع أنواعاً من الثناء على الله اقتضى كرمه سبحانه إجابته في تحصيل تلك القربة من مقام الغيبة إلى مقام الحضور.

* أن مبتدأ الخلق الغيبة منهم عنه سبحانه، وقصورهم عن محاضرته ومخاطبته وقيام حجاب العظمة عليهم، فإذا عرفوه بما هو له، وتوسلوا للقرب بالثناء عليه تأهلوا لمخاطبته ومناجاته.

وكأن النص يريد أن يقول لنا: إن المرء فى منشأ أمره يكون بعيداً عن الله، فهو لا يعرفه(فهو غائب عنه)، فحينما يتعرف على صفاته(الرحمن الرحيم مالك يوم

الدين) فإنه يحبه ويستحضر عظمته وجماله، فلم يعد غائباً عنه، وهو بعد التعرف عليه يعبده عن علم ، وليس عن جهل، فيقول له بصفة الحاضر(إياك نعبد).. وربما يقول آخر: أنه فى منشأ أمره كان بينه وبين الله حجاب، فإذا عرف الله وأحبه كشف الله هذا الحجب التى بينه وبين هذا العبد، فأصبح حاضراً أمام خاطره فلم يعد يخاطبه بلفظ الغائب، وخاصة أن الخطاب الآن هو فى العبادة له، والله لا يقبل عبادة للمرء من قلب غافل(غائب) لاهٍ، فلابد أن يستحضر قلبه فى صلاته ويستحضر عظمة ربه أمامه، ولذلك قال (**إِيَّاكَ–أنت– نَعْبُدُ –أنت– وَإِيَّاكَ –أنت–نَسْتَعِينُ–أنت**)، وكذلك الحال فى السياق الذى بعدها ، وهو سياق دعاء،(**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٦)) ولا يجوز أن يدعو العبد ربه وهو غائب عنه أو لاهٍ عنه ،بل لابد أن يكون مقبلاً عليه بالكلية، كأنه يراه أمام عينيه، كما يقول النبى(ﷺ): أعبد الله كأنك تراه، واستحضروا عظمة ربكم.. كل هذه نجده ونلاحظه فى هذا الالتفات العظيم من الغيبة إلى الحضور فى أسلوب يسمى الالتفات فى القرآن الكريم، وهذا الالتفات نجده أيضاً فى تكملة الآية (**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** (٧).. وهو ما سنقف عليه بعد قليل.

ولكننا نذكر القارىء الكريم أن أسلوب الالتفات هذا ليس غريباً فى القرآن الكريم بل له مئات الأمثلة ذات الدلالات العظيمة والممتعة، ولذلك أفردنا لها كتاباً خاصاً بهذا العنوان(أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم). ومنه ما نقل على لسان ابراهيم عليه السلام في قوله تعالى ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ** (٧٥) **أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ** (٧٦) **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** (٧٧)) يخاطب المشركين (**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** (٧٨) **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ** (٧٩) **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** (٨٠) **وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** (٨١) **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** (٨٢)) بدأ يتكلم بالغائب(فهو) ثم قال (**رَبِّ – أنت– هَبْ لِي – أنت– حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي – أنت– بِالصَّالِحِينَ** (٨٣) **وَاجْعَلْ لِي– أنت– لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** (٨٤) **وَاجْعَلْنِي – أنت– مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ** (٨٥) **وَاغْفِرْ – أنت– لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** (٨٦) **وَلَا تُخْزِنِي – أنت– يَوْمَ يُبْعَثُونَ** (٨٧) ﴾ الشعراء.

لاحظ الإنتقال وهذا وارد كثيراً يتكلم عن الغائب إلى أن يجعله حاضراً في نفسه فيخاطبه كأنما استحضرت عظمة الله عز وجل في القلب وعند ذلك يبدأ الإنسان بالخطاب.

فهو لما يقول الحمد لله رب العالمين يستحضر عظمة الباري عز وجل لكن الآن صار الخطاب مباشراً (**إياك نعبد.. أهدنا..**) **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)**

***اذن لماذا قال** (**أَنْعَمْتَ**- أنت- **عَلَيْهِمْ**) لم يقل (المنعم عليهم) للدلالة على الثبوت فى هذه الجملة الإسمية؟ ولماذا قال (**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**) ولم يقل(**غير الذين غضبت- أنت- عليهم**) لتكون على شاكلة الفقرة الأولى.

لو قال صراط (المنعَم عليهم) بالاسم لم يتبين المعنى، أي من الذي أنعم، إنما بيَّن المنعِم- الله- في قوله (أنعمت عليهم) لأن معرفة المنعِم مهمة ؛ فالنعم تقدر بمقدار المنعِم، لذا أراد سبحانه وتعالى أن يبين المنعِم ليبين قدر النعمة وعظيمها، ومن عادة القرآن أن ينسب الخير إلى الله تعالى، وكذلك النعم والتفضل، وينزِّه نسبة السوء إليه سبحانه (**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)**) (الجن) حيث قال: **أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ** .. ولم يقل شرٌّ أراده الله، ولكنه فى الخير- الرشد- قال (**أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**)، فنسب الخير لله ولم ينسب الشر له تأدباً ، كقول النبى (ﷺ): الخير كله بيديك والشر ليس إليك (أى لاينسب إليك تأدباً)..

والله سبحانه لا ينسب السوء لنفسه فقد يقول (**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)**) (النمل) لكن لا يقول زينا لهم سوء اعمالهم (**زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ..(٣٧)**) **(التوبة)** (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)**) (آل عمران) (**وَكَذَلِكَ زُيِّنَ**

لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ). (**غافر ٣٧**) (**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**) (**فاطر ٨**) (**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**) (**الانفال ٤٨**)

أما النعمة فينسبها الله تعالى إلى نفسه لأن النعمة كلها خير (**قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**) (**القصص ١٧**) (**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ**) (**الزخرف ٥٩**) (**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)**) (**الإسراء**) ولم ينسب سبحانه النعمة لغيره إلا في آية واحدة (**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ**) (**الأحزاب**) فهي نعمة خاصة بعد نعمة الله تعالى عليه.

ولذلك عند الغضب يقول(**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**) ولم يقل (غير الذين غضبت عليهم) تأدباً مع الله تعالى

ويقول ابن الأثير "فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة(أنعمت عليهم) .. فلما جاء إلى ذكر الغضب – المغضوب عليهم - جاء باللفظ (منحرفاً) عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظاً، وزوى عنه لفظ الغائب تحنناً ولطفاً".

وأيضاً: جاء باسم المفعول(المغضوب) وأسنده للمجهول(عليهم) – أى: المغضوب عليهم- وهذا ليعم الغضب عليهم من الله والملائكة وكل الناس، حتى أصدقائهم يتبرأ بعضهم من بعض ، حتى جلودهم تتبرأ منهم، ولذا جاءت المغضوب عليهم لتشمل غضب الله وغضب الغاضبين. ولو قال (الذين غضبت عليهم) فسوف لا يفيد حدوث الغضب إلا من الله فقط.. إضافة إلى اختيار صيغة المبنى للمجهول فى وصف الغضب عليهم دون ذكر الذى غضب عليه- وهو الله- لأن الغضب حينما يقع على الفرد فإن الفرد يبغضه ويكرهه، والمؤمن الذى تعلم الأدب فى خطابه عن ربه لا ينسب الشر إليه، فلم يقل (الذين غضبت - أنت يا الله- عليهم)، بل قال (المغضوب عليهم) دون أن يسمى رب العزة فى هذا الموقف المكروه، بخلاف الموقف الآخر الذى يتحدث عن الشيء المحبوب وهو إنعام الله عليه ، فهنا يسمى رب العزة ويشير إليه فى جانب الخير فيقول(الذين أنعمت- أنت يا

الله- عليهم) وهذا هو التفسير الحرفى لحديث النبى (ﷺ)فى مناجاته لربه: الخير كله بيديك، والشر ليس إليك، أى: الشر لا ينسب إليك- كما قال الإمام ابن القيم- وهذا غاية الأدب من المؤمن عشناه فى ختام هذه السورة الكريمة، وستأتى بعدها مباشرة سورة البقرة تحدثنا عن هذه الأصناف(الذين أنعم الله عليهم- وسيسميهم المتقين-)، والصنفين الآخرين – المغضوب عليهم والضالين- وهو ما سنوضحه حال استصحابنا لسورة البقرة على الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى

وحري بنا أن نشير إلى أن هذه التوجيهات أو تلك النكات والأسرار – على تعددها – لا تتعارض، بل تتآزر في الكشف عما يوحي به الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب في هذا الموطن، بل إن دائرة الإيحاء في هذا الالتفات تتسع آفاقها لتستوعب فوق ما ذكرناه نكاتٍ وأسراراً أخرى يضيق المقام عن استقصائها. والحق أن قبول ظاهرة الالتفات لأكثر من توجيه، واحتمالها في الموطن الواحد لغير تفسير (وهو ما يعني حفول بنيتها بخصوبة الإيحاء وثراء الدلالة) هو – دائماً – شأنها بل شأن غيرها من الظواهر التعبيرية في البيان القرآني، وهو أحد وجوه الإعجاز في هذا الكتاب الخالد الذي بقي وسيظل ثري النبع، متجدد العطاء.

****

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ (يَهْدِينِ) (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ((رَبِّ)) هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) ﴾

ويقول الإمام الألوسى: وأما المرض فلما كان يخص به بعض البشر دون بعض كان نقمة محققة فاقتضى العلو في الأدب أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار السبب الذي لا يخلو منه

ويقول الإمام الطاهر: وَعُطِفَ إذا مَرِضْتُ عَلَى يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حِينَ قَالَ ذَلِكَ مَرِيضًا فَإِنَّ إِذا تُخَلِّصُ الْفِعْلَ بَعْدَهَا لِلْمُسْتَقْبَلِ، أَيْ إِذَا طَرَأَ عَلَيَّ مَرَضٌ.

وَفِي إِسْنَادِهِ فِعْلَ الْمَرَضِ إِلَى نَفْسِهِ تَأَدُّبٌ مَعَ اللَّهِ رَاعَى فِيهِ الْإِسْنَادَ إِلَى الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ فِي مَقَامِ الْأَدَبِ، فَأَسْنَدَ إِحْدَاثَ الْمَرَضِ إِلَى ذَاتِهِ وَلِأَنَّهُ الْمُتَسَبِّبُ فِيهِ، فَأَمَّا قَوْلُهُ: وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ فَلَمْ يَأْتِ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِي الْحَصْرَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الْأَصْنَامَ تُمِيتُ بَلْ عَمَلُ الْأَصْنَامِ قَاصِرٌ عَلَى الْإِعَانَةِ أَوِ الْإِعَاقَةِ فِي أَعْمَالِ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ. فَأَمَّا الْمَوْتُ فَهُوَ مِنْ فِعْلِ الدَّهْرِ وَالطَّبِيعَةِ إِنْ كَانُوا دَهْرِيِّينَ وَإِنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخَلْقَ وَالْإِحْيَاءَ وَالْإِمَاتَةَ لَيست من شؤون الْأَصْنَامِ وَأَنَّهَا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يَعْتَقِدُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ فَظَاهِرٌ.

وَتَكْرِيرُ اسْمِ الْمَوْصُولِ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ .(الذى خلقنى.. والذى.. والذى..)مَعَ أَنَّ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ تُعْطَفَ الصِّلَتَانِ عَلَى الصِّلَةِ الْأُولَى لِلِاهْتِمَامِ بِصَاحِبِ تِلْكَ الصِّلَاتِ الثَّلَاثِ لِأَنَّهَا نَعْتٌ عَظِيمٌ لِلَّهِ تَعَالَى فَحَقِيقٌ أَنْ يُجْعَلَ مُسْتَقِلًّا بِدَلَالَتِهِ وَأَطْلَقَ عَلَى رَجَاءِ الْمَغْفِرَةِ لَفْظَ الطَّمَعِ (والذى أطمع)تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى وَمُبَاعَدَةً لِنَفْسِهِ عَنْ هَاجِسِ اسْتِحْقَاقِهِ الْمَغْفِرَةَ وَإِنَّمَا طَمَعَ فِي ذَلِكَ لِوَعْدِ اللَّهِ بِذَلِكَ.

وَالتَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: يَهْدِينِ لِأَنَّ الْهِدَايَةَ مُتَجَدِّدَةٌ لَهُ. وَجُعِلَ فِعْلُ الْهِدَايَةِ مُفَرَّعًا بِالْفَاءِ عَلَى فِعْلِ الْخَلْقِ – **خلقنى فهو يهدين**– لِأَنَّهُ مُعَاقِبٌ لَهُ لِأَنَّ الْهِدَايَةَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ مُقْتَضَى الْخَلْقِ لِأَنَّهَا نَاشِئَةٌ عَنْ خَلْقِ الْعَقْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه: ٥٠] .

(الأدب مع الله)

وهنا وقبل أن نكمل دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام لربه نقف وقفة على هذا الأدب النبوى مع الله الذى أوقفنا عليه النظم الحكيم ويطالبنا بالتأسى به، وهو كثير فى القرآن الكريم، ولذلك نقف هذه الوقفة بعنوان **(الأدب مع الله)..** وأقتبس فيه بعض الوقفات من الإمام الزركشى فى "البرهان فى علوم القرآن"حتى تكتمل الفائدة.مع بعض الشرح والتعليق والإضافة التى تناسب القارىء الكريم.

التَّأَدُّبُ فِي الْخِطَابِ بِإِضَافَةِ الْخَيْرِ إِلَى اللَّهِ وإن الكل بيده كقوله تعالى: {أنعمت عليهم} ثم قال: {غير المغضوب عليهم} وَلَمْ يَقُلْ غَيْرِ الَّذِينَ غَضِبْتَ

عَلَيْهِمْ.. وقد أشبعنا هذا الأسلوب – الذى أسميناه بأسلوب الالتفات فى القرآن الكريم– عند وقوفنا على سورة الفاتحة على الصفحات الماضية، وسوف نفرد له باباً كاملاً على الصفحات القادمة تحت هذا الباب (أسلوب الالتفات فى القرآن الكريم)

وفى قوله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)** ﴾.. فذكر فى الآية الكريمة نوعين من إيتاء الله، الأول خير: وهو (**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ**)و(**وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ**).. والثانى شرٌ فى ظاهره وهو: (**وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ**)و (**وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ**).. فهنا نجد أنه ذكر الخير والشر ، وكان حق السياق فى غير النظم القرآنى أن يقول: بيدك الخير والشر(معاً) ولكنه قال: {**بيدك الخير**}فقط ولم يقل والشر، وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا بِيَدِهِ، لَكِنَّ الْخَيْرَ يُضَافُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِرَادَةَ مَحَبَّةٍ وَرِضًا، وَالشَّرُّ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ إِلَّا إِلَى مَفْعُولَاتِهِ لِأَنَّهُ لَا يُضَافُ إِلَى صِفَاتِهِ وَلَا أَفْعَالِهِ بَلْ كلها كمال لَا نَقْصَ فِيهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) وَهُوَ أَوْلَى مِنْ تَفْسِيرِ مَنْ فَسَّرَهُ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ، وهو يقصد مناجاة النبى محمد(ﷺ) لربه: الخير كله بيديك، والشر ليس إليك..

فَالْتَفِتْ إِلَى تَنْزِيلِ الْكَلَامِ فِي الْآيَتَيْنِ يَلُحْ لَكَ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فِي هَذَا فَإِنَّ التَّدَبُّرَ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَاجِبٌ مُفْتَرَضٌ

****

(ونكتفى بهذا العرض السريع لأساليب الالتفات على أن نعيش نماذج تطبيقية متنوعة على الصفحات التالية إن شاء الله تعالى)

وهناك تقسيم آخر لأبرز مجالات الالتفات

يستعرضه لنا الأستاذ الدكتور حسن طبل من حيث:

(١) الصيغ. (٢) العدد. (٣) الضمائر. (٤) الأدوات.
(٥) البناء النحوي. (٦) المعجم.

وتلك المجالات هي ما سنتناولها – تفصيلاً – فيما يلي:

أولاً : الصيغ :

يتحقق الالتفات في هذا المجال كلما تخالفت صيغتان (في نسق واحد) من مادة معجمية واحدة، من ذلك مثلاً: المخالفة بين صيغ الأفعال (الماضي – المضارع – الأمر)، أو بين صيغتي نوع واحد منها، أو بين صيغ الأسماء، أو بين صيغة من صيغ الاسم وأخرى من صيغ الفعل، أو ما إلى ذلك مما لا يتمثل في اللغة الفنية عامة، وفي لغة القرآن الكريم خاصة إلا لمرامي وأسرار بيانية يفتقدها السياق لو لم تكن تلك المخالفة.

وقد كان للدكتور حسن طبل رأى – أراه موفقاً- ويستحق النقل والتعليق والمناقشة والتوضيح للقارىء الكريم وأراه إضافة هامة هى أَوْلى مما ذكره السابقون من أهل التفسير والبلاغة الذين قرأتُ لهم أقوالهم، وذلك فى الالتفات بين صيغ الفعل(**نَزَّل، أنزل**) و(**نَبَّأ، أنبأ**) و(**نَجَّى، أنجى**) ولمساتٍ هامة أخرى حول تغيير الضمائر من الغيبة (هو) إلى الحضور(نحن) وذلك فى الآية القرآنية (**فَقَضَاهُنَّ** –هو- **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى** –هو- **فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** (**وَزَيَّنَّا**)- نحن- **السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا**(**١٢**)) فصلت.

وسوف نقف على هذه الصيغ كما قلنا بالعرض والتحليل والمناقشة والإضافات اللازمة التى نراها تفيد البحث أو يراها بعض العلماء الأجلاء من أئمة البيان والتفسير.

(أ) بين صيغتي الفعل:

١ -(**نَزَّلَ**)– (**أنزل**)

وذلك في قوله عز وجل: ﴿ ((**نَزَّلَ**)) **عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ((**وَأَنْزَلَ**)) **التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ** (**٣**) ﴾ [آل عمران] وقوله سبحانه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي** ((**نَزَّلَ**)) **عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي** ((**أَنْزَلَ**)) **مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ** .. (**١٣٦**) ﴾ النساء.

نبدأ باستعراض رأى الدكتور حسن طبل وتحليله الهام حيث يقول:

فلقد جرى النسق في الآيتين الكريمتين على استخدام صيغة الفعل الماضي (فعّل) بالتشديد في وصف نزول القرآن على محمد (ﷺ) ، ثم التحول عن هذه الصيغة إلى صيغة ماضوية أخرى (أفعل) (أنزل) في وصف نزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما السلام.

ولقد حاول كثير من المفسرين استكناه السر في هذا التحول: فذهب أكثرهم إلى أن صيغة "فعّل" هي للمبالغة والتكثير، والقرآن الكريم إنما نزل نجماً نجماً على عشرين سنة، بخلاف الكتابين قبله، فقد نزل كل منهما جملة، ولما كان الأمر كذلك خولف بين صيغتي النزول، فعبر عن القرآن بصيغة "فعّل" لكثرة تنزيلاته، وعبر عن التوراة والإنجيل بصيغة "أفعل" الخالية من معنى المبالغة والتكثير.

وقد توقف أبو حيان في قبول هذا الرأي، ورد عليه قائلاً:

"إن التعدية بالتضعيف(نزّلَ) لا تدل على التكثير ولا التنجيم، وقد جاء في القرآن: نزل وأنزل، قال تعالى: ﴿ (**وَأَنْزَلْنَا**) **إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** (**٤٤**)﴾ النحل ﴿ (**وَنَزَّلْنَا**) **عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** (**٨٩**)﴾ النحل. فلو كان أحدهما يدل على التنجيم والآخر يدل على النزول دفعة واحدة لتناقض الإخبار وهو محال".(١)

---

(١) **وَأَزِيدُ أَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ نَزَلَا مُفَرَّقَيْنِ كَشَأْنِ كُلِّ مَا يَنْزِلُ عَلَى الرُّسُلِ فِي مُدَّةِ الرِّسَالَةِ، وَهُوَ الْحَقُّ: إِذْ لَا يُعْرَفُ أَنَّ كِتَابًا نَزَلَ عَلَى رَسُولٍ دُفْعَةً وَاحِدَةً. وَالْكِتَابُ: الْقُرْآنُ.**

والحق أن الربط بين صيغة التنزيل والكيفية التي نزل بها القرآن دون غيره من الكتب السماوية هو مما يصعب التسليم به، لا لما لحظه أبو حيان من استخدام صيغة الإنزال في وصف نزول القرآن فحسب، بل لأن في القرآن آيات تدل صراحة على نقض هذا الربط من أساسه، فمن ذلك:

** قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا (نُزِّلَ) عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)** ﴾ الفرقان. إذ لو كان النزول جملة من خصائص الإنزال لا التنزيل لقيل: أنزل عليه القرآن جملة.

وقوله عز وجل ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ (وَنَزَّلْنَاهُ) تَنْزِيلًا (١٠٦)﴾ الإسراء. فلو كان تنزيل القرآن يعني نزوله منجماً أو مفرقاً لما ساغ عطف "ونزلناه" على "فرقناه" في تلك الآية الكريمة؛ إذ العطف – كما هو مقرر – يقتضي التباين والمغايرة.

وقوله سبحانه ﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ (تُنَزَّلَ) التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)**﴾ آل عمران. إذا لو كان التنزيل مقصوراً على النزول المفرق لما وردت إحدى صيغه مع "التوراة" التي نزلت جملة؟؟

وأقول: أنا أوافق الإمام فى ذلك القول، والذى يقرأ كتابهم المقدس بعهديه القديم والحديث يعلم أنه نزل مفرقاً على سنين طويلة بل وقرون طويلة، إلا إذا كان القصد هو الإنجيل الحقيقى والتوراة الحقيقية التى لم يعد لهما وجود لديهم، وهو إنجيل واحد وليس أناجيل متعددة كما نرى على أرض الواقع(متى ومرقس ولوقا ويوحنا وباقى الملحقات التى تزيد على العشرات)، والأمر كما ذكر الإمام صاحب تفسير المنار فى قوله: .(مع ملاحظة أن موضوع نزول التوراة جملة واحدة غير صحيح، وقد سار عليه كثير من العلماء بغير دليل صحيح) ويضيف– بعد شرحه المسهب والرائع فى تحقيقه لهذه الكتب التى يسمونها مقدسة رغم تحريفها– فى شرحه لأول سورة آل عمران– قوله: وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ: الْمُتَبَادِرُ مِنْ كَلِمَةِ " أَنْزَلَ " أَنَّ التَّوْرَاةَ نَزَلَتْ عَلَى مُوسَى مَرَّةً وَاحِدَةً وَإِنْ كَانَتْ مُرَتَّبَةً فِي الْأَسْفَارِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَيْهِ فَإِنَّهَا مَعَ تَرْتِيبِهَا مُكَرَّرَةٌ، وَالْقُرْآنُ لَا يَعْرِفُ هَذِهِ الْأَسْفَارَ وَلَمْ يَنُصَّ عَلَيْهَا. وَكَذَلِكَ الْإِنْجِيلُ نَزَلَ مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَيْسَ هُوَ هَذِهِ الْكُتُبَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْأَنَاجِيلَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَهَا لَمَا أَفْرَدَ الْإِنْجِيلَ دَائِمًا، مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً عِنْدَ النَّصَارَى حِينَئِذٍ.

وقوله جل شأنه: ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ (تُنَزَّلَ) عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ (٦٤)﴾ التوبة. حيث أسندت إحدى صيغ التنزيل إلى السورة، وقد قال السدي في سبب نزول هذه الآية الكريمة: "قال بعض المنافقين: والله لوددت أني قدمت فجلدت مائة، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا"، وقال مجاهد: "كانوا يقولون القول بينهم ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي علينا سرنا"، وسواء أكان هذا أم ذاك فإن فيه دليلاً على أن المقصود بالسورة هنا هو آية أو آيات تنزل (دفعة واحدة) كي تفضح نية بذاتها، أو تفشي سراً بعينه في دخائل هؤلاء الحاذرين من نزولها.

وإذا لم تكن صيغة التنزيل – بناء على ما تقدم – دالة على معنى التنجيم فعلام تدل إذن؟ وما سر العدول عنها – في الآيتين – إلى صيغة الإنزال مع التوراة والإنجيل؟

إن الفرق بين صيغتي (نَزَّل – أنزل) هو ما أشار إليه المفسرون من أن الأولى(نَزَّل) – بما تنضوي عليه بنيتها من تضعيف – تفيد معنى المبالغة، غير أن المبالغة فيها لا تدل – كما لاحظوا – على تنجيم النزول أو كثرة التنزيلات، **بل على تأكيد معنى النزول أي المبالغة في إثبات وقوعه**، أما الصيغة الثانية (أنزل) فإنها تدل على مجرد النزول دون مبالغة أو تأكيد في إثباته.(٢)

ولتجلية هذا الفارق بين الصيغتين في النسق القرآني نود أن نقف وقفة متأنية نتأمل فيها موقع كل منهما في صدر سورة آل عمران ﴿ **الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) (نَزَّلَ) عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (وَأَنْزَلَ) التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ (وَأَنْزَلَ) الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)**

---

(٢) ويرى الإمام الطاهر أن: **التَّضْعِيفُ فِي نَزَّلَ لِلتَّعْدِيَةِ فَهُوَ يُسَاوِي الْهَمْزَ فِي أَنْزَلَ، وَإِنَّمَا التَّضْعِيفُ يُؤْذِنُ (بِقُوَّةِ الْفِعْلِ) فِي كَيْفِيَّتِهِ أَوْ كَمِّيَّتِهِ، فِي الْفِعْلِ الْمُتَعَدِّي بِغَيْرِ التَّضْعِيفِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ قَدْ أَتَوْا بِبَعْضِ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِمْ: فَسَرَ وَفَسَّرَ، وَفَرَقَ وَفَرَّقَ، وَكَسَرَ وَكَسَّرَ، ....** إلى أن قال: **فَيَكُونُ قَوْلُهُ: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ أَهَمَّ مِنْ قَوْلِهِ: وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ نُزُولِ الْقُرْآنِ.** (وسنناقش هذا الرأى)

هُوَ الَّذِي (أَنْزَلَ) عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ..(٧)﴾ فنحن في هذه الآيات نلاحظ:

** أن الصيغة الأولى قد وردت مرة واحدة مقترنة بالقرآن ((**نَزَّلَ) عَلَيْكَ الْكِتَابَ**) أما الثانية فقد وردت ثلاث مرات: اقترنت في أولاها بالتوراة والإنجيل ((**وَأَنْزَلَ) التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ**)، وفي الثانية بالفرقان ((**وَأَنْزَلَ) الْفُرْقَانَ**)، وفي الثالثة بالكتاب (**هُوَ الَّذِي (أَنْزَلَ) عَلَيْكَ الْكِتَابَ**) والقرآن هو المقصود بلفظة الفرقان على أرجح الآراء، وهو المقصود بلفظة الكتاب بلا خلاف.

أن الصيغة الأولى قد وردت مسبوقة باسمين من أسماء الخالق عز وجل (الْحَيُّ الْقَيُّومُ**) ومشفوعة بدليل يدعم نسبة القرآن (المنزل) إليه سبحانه (**مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**)، أما الصيغة الثانية فقد شفعت في مواضعها الثلاثة ببيان أثر الإنزال – إيجاباً أو سلباً – لدى البشر: فالتوراة والإنجيل "هدى" للناس، والفرقان براهين ساطعة وآيات بينات يعاقب الذين "كفروا" بها أشد العقاب، وفي الكتاب آيات متشابهات يسيء تأويلها من في قلوبهم زيغ لإثارة "الفتنة" بين الناس، ويؤمن بها راجحوا العقل من الراسخين في العلم (**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**).

لعلنا في ضوء هاتين الملاحظتين نخطو خطوة أخرى فنقول: إن الإيمان بالكتب السماوية (وهو ما ترد الصيغتان لترسيخه في وجدان المؤمن) يقوم على دعامتين هما: التسليم بحقيقة (الوحي) أي بأن السماء – لا الرسول ولا أي جهة أخرى – هي مصدر هذه الكتب، والتسليم بأن (الموحى به) في أي كتاب منها هو طريق الهداية، وشريعة الحكم، ومنهاج سعادة الإنسان في عاجل أمره وآجله:

ولما كان **"الوحي"**– الذى مصدره من السماء– **أمراً غيبياً** قد تعوق التسليم به شبهات المكابرة ولجاجة الجدل، وكان "الموحى به" -**القرآن وما يحويه** -على العكس من ذلك **أمراً محسوساً** يقرع الأسماع وتردده الألسن – لما كان الأمر كذلك اختيرت أقوى الصيغتين لجانب الوحي (وهي: نَزَّلَ): لاصطباغ دلالتها بمعنى المبالغة أو التأكيد كما مر– **أى التأكيد على مصدره السماوى فقال عندها(نَزَّلَ)**–؛

وذلك تثبيتاً لقلب الموحى إليه محمد (ﷺ) والمؤمنين به من جهة، ودحضاً لافتراءات المنكرين ولجاجة المعاندين من جهة أخرى؛ ولهذا السبب – والله أعلم – كادت تقتصر هذه الصيغة في القرآن الكريم (إلا في مرة واحدة سنقف عليها) على نزول هذا الكتاب دون نزول غيره من الكتب السماوية، وذلك لأن كتاباً من هذه الكتب لم يتعرض لمثل ما تعرض له القرآن من تكذيب وإنكار، ولأن نبياً من الأنبياء (الموحى إليهم) لم يتعرض لمثل ما يتعرض محمد (ﷺ) من طعن في صدق تلقيه عن الله عز وجل (٣)

أما الآية الوحيدة التي وردت فيها تلك الصيغة (المشددة) (نَزَّلَ) مع غير القرآن وهي قوله تبارك وتعالى: (**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ (تُنَزَّلَ) التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣)**) (**آل عمران**) فإنها لا تعد استثناء مما نقرره الآن؛ إذ أن المقام الذي وردت فيه هو ذلك المقام الذي لاحظنا ملاءمة هذه الصيغة له، وإيثارها فيه في القرآن الكريم، أعني مقام إنكار (الوحي) واللجاجة في تكذيبه؛ فلقد روي في سبب نزولها أن اليهود أنكروا ما أخبر به القرآن عنهم في قوله تعالى: (**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)**) [النساء] وقوله: (**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)**) (الأنعام)

فلقد ادعى اليهود كذباً وافتراء على الله أن هذا التحريم لم تنزل التوراة به، وإنما هو تحريم قديم من عهد نوح وإبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل .. فنزلت هذه الآية الكريمة كي تدحض افتراءهم، وتقرر أن كل هذه المحرمات كانت حلالاً لمن

---

(٣) وأقول مضيفاً لأن القرآن الكريم هو المنهج والمعجزة معاً فلابد من التأكيد إذن على مصدره السماوى لأجل ذلك. أما باقى الكتب السابقة السماوية فلم تكن هى معجزة بذاتها، والمعجزة أمر آخر غير الكتاب .

قبلهم إلا ما حرمه منها إسرائيل (يعقوب عليه السلام) على نفسه، وأن تحريمها لم يبدأ إلا بنزول التوراة.

فالتعبير بالتنزيل لا بالإنزال في الآية الكريمة هو – والله أعلم – لأن اليهود قد أنكروا جانباً من "الوحي" لا في القرآن فحسب، بل في التوراة أيضاً، ومن ثم جاءت الآية الكريمة في نهايتها بما يبهتهم، ويدفع إنكارهم الزائف، وافتراءهم الكاذب (**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**).

الفرق بين التنزيل والإنزال – إذن – **هو كالفارق بين ما يُدرك بالعقل وما يُدرك بالحس، أو بين "الخبر" - الغيبى - و"المشاهدة"** في قابلية الأول– "الخبر"– منهما للجدل والمكابرة بالنفي والإنكار، لأنه أمر غيبى، الأمر الذي يجعل إثباته والإقناع بحقيقة وجوده يقتضي قدراً من المبالغة والتأكيد لا يقتضي مثله الآخر، وهذا ما يتضح بجلاء في استخدام كل من هاتين الصيغتين في القرآن الكريم(٤).

فلنتأمل:

* تكاد تلتقي السياقات التي وردت فيها مادة (التنزيل) متعلقة بالقرآن حول محور دلالي واحد، هو إقرار لحقيقة الوحي، ودحض الشبهات الكثيرة والافتراءات المتعددة التي أثارها الكفار والمشركون حول مصداقيته، فلقد طعنوا – من جهة – في حقيقة الوحي (**قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)**) الملك. ومن ثم جاء القرآن بما يؤكد هذه الحقيقة ويدعمها – بمادة التنزيل – في كثير من الآيات من بينها (**إِنَّا نَحْنُ (نَزَّلْنَا) الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)**) الحجر. (**إِنَّا نَحْنُ**) **الإنسان**. ((**تَنْزِيلُ**) **الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)**)

---

(٤) وأقول هذا ما بيناه وأكّدنا عليه فى مشوارنا على الصفحات الماضية وخاصة عند قوله تعالى (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) من أن النظم القرآنى يأتى بأساليب التوكيد المختلفة– من أدوات التوكيد أو أساليب الالتفات– فى مواطن الشك أو التى تحتاج إلى توكيد ورفع هذا الشك ، فراجعه مع هذا الباب لتتم الفائدة .

الزمر. (**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ**) الأحقاف. (**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)**) غافر – وشككوا – من جهة أخرى – في ملك الوحي وأمينه (جبريل عليه السلام) – فجاء القرآن – بمادة التنزيل أيضاً – بما يجتث هذا الشك من أساسه: ﴿ **قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ (فَإِنَّهُ) (نَزَّلَهُ) عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)** ﴾ البقرة. ﴿ **قُلْ (نَزَّلَهُ) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)** ﴾ النحل.

وكذبوا الموحى إليه (ﷺ) - من جهة ثالثة – في دعوى الوحي وصدق البلاغ عن الله زاعمين افتراءً وبهتاناً أن ما ينطق به من آيات بينات هو ضرب من ضروب السحر، أو من وسوسات الشياطين، أو من تخليط العقل والجنون، فنزل البيان القرآني بما يدحض هذا التكذيب، ويقوض تلك الافتراءات، مستخدماً مادة التنزيل حيناً، ومادة التنزّل (وهي في باب التوكيد أدخل) حيناً آخر، وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)**﴾ الأنعام. ﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)**﴾ الشعراء. ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)**﴾ الشعراء ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)**﴾ الحجر. وقد قام القرآن في آيات كثيرة منه (استخدمت فيها مادة التنزيل) بتعرية تلك الدعاوى الكاذبة حول الوحي، والكشف عن جذورها النفسية الخبيثة في دخائل هؤلاء الضالين من حسد للموحى إليه (ﷺ) ، أو بغض مطلق لوحي بصرف النظر عن متلقيه أو ما إلى ذلك: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)**﴾ (الزخرف) (**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)**) (البقرة) (**وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)**) (الشعراء)

* ... إذا كان "الوحي" قد استأثر بمادة التنزيل فإن "الموحى به" – القرآن- قد استأثر بمادة الإنزال، وإذا كانت دلالة هذه المادة الأخيرة تخلو – كما أسلفنا – من

معنى المبالغة أو التأكيد فذلك – والله أعلم – لأن الموحى به – القرآن المتلو– ليس كالوحي أمراً غيبياً يستطاع نفيه، أو الجدل حول حقيقة وجوده؛ إذ هو تلكم الآيات البينات التي (يتلوها) المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم، فترددها الألسنة، وتتلقفها الأسماع: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)** ﴾ العنكبوت. ﴿ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)** ﴾ الأحقاف. وهو – أيضاً – ما أمر الخالق عز وجل رسوله بتبليغه و(إعلانه) على الناس، وتوعد من يحاول كتمانه أو إخفاءه منهم بأشد العقاب: ﴿ **(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)** ﴾ المائدة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)** ﴾ البقرة.

وهو – كذلك – تلك المبادئ والقوانين السماوية التي دُعي الناس في كل الأديان إلى (اتباعها)، وأنذروا بأشد العقاب وسوء المصير إن لم يتخذوها منهج حياة، ودستور سلوك: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (وَأَنْزَلَ) مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣))** البقرة **(إِنَّا (أَنْزَلْنَا) التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤))** المائدة **(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا (أَنْزَلَ) اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) (وَأَنْزَلْنَا) إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا (أَنْزَلَ) اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ**

أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا (أَنْزَلَ) اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)﴾ المائدة. وليس في وسعنا في هذا المقام أن نستقصى المواطن القرآنية التي وردت فيها مادة الإنزال مقترنة بالكتب السماوية، غير أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذه المواطن – على كثرتها – تخلو كلها من مفردات: الشياطين – السحر – الجنون – جبريل ..

تلك التي تواردت معها مادة التنزيل، وهي ملاحظة تدعم ما نحن بصدد إثباته من أن الفارق **بين صيغتي ("نزّل" و "أنزل") هو أن الأولى تفيد تأكيد ذلك الأمر الغيبي الذي حاول المكابرون – عبثاً – إنكار حقيقته وهو (الوحي القرآني)، أما الثانية فهي تعني الجانب المحسوس من الوحي (الموحى به) في الكتب السماوية عامة.**

يتجلى هذا الفارق بوضوح في قوله عز وجل:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا (نُزِّلَتْ) سُورَةٌ فَإِذَا (أُنْزِلَتْ) سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠)﴾ (محمد). فلقد أسندت كل من الصيغتين في الآية الكريمة إلى لفظ "سورة" إلا أن الأولى "نزّل" قد جاءت مقترنة ب(لولا) الدالة على معنى التمني، أما الثانية "أنزل" فقد اقترنت بالأداة (إذا) المفيدة لمعنى التحقيق، **ومغزى ذلك أن السورة المقترنة بالتنزيل هي التي لا تزال رهن (الغيب)،(لولا نُزِّلت) ، أما السورة المقترنة بالإنزال فهي تلك التي تتحول بها الأمنية إلى (واقع) حقيقي متجسد في آية أو آيات بعينها تدعو الجهاد "وذكر فيها القتال" والتي يفتضح بها زيف النفاق، ويبدو عياناً ما تنطوي عليه نفوس المتخلقين به من جبن وهلع.**

(وأقول أنا الكاتب): هذا رأى يستحق التقدير نضيف إليه رأياً مكملاً وهو أن طلب (الذين آمنوا) نزول آية من القرآن – حينما طلبوها فى قوله (ويقول الذين آمنوا...)- كانوا يطلبونها (بشوق شديد)(وتوكيد قوى منهم) لحبهم لهذا الوحى، فهم يريدون أن ينزل عليهم وحياً كثيراً- لحبهم له- فقالوا (لولا نُزِّلَت) التى فيها أيضاً صيغة المبالغة- ولكن استجابة الله لهم تكون بغير مبالغة فى

التوكيد فقال (فإذا (أنزلت).. ونلاحظ أن بداية الآية تتحدث عن المؤمنين- وليس المنافقين- فقال (**وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا** (**نُزِّلَتْ**)).

أما نهاية الآية فهى تتحدث عن الذين فى قلوبهم مرض، وهم بالطبع لا يبالغون فى التوكيد على طلبهم بنزول سورة ، ولذلك قال (**فَإِذَا** (**أُنْزِلَتْ**) **سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ** (**الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**) **يَنْظُرُونَ**..)، وبذلك يصور النظم القرآنى ويبرز مداخل النفس بين المؤمن والمنافق بتغيير الصيغة بين الفعلين(**نَزَّلَ**) و (**أنزل**).

ولعل صاحب الظلال- رحمه الله- قد أشار إلى بعض ذلك المعنى فى قوله : وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة: إما أن يكون مجرد تعبير عن (شوقهم) إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذي يحبونه، ويجدون في كل سورة منه زاداً جديداً حبيباً. وإما أن يكون تطلعاً إلى سورة تبين أمراً من أمور الجهاد، (وتفصل) في قضية من قضايا القتال تشغل بالهم. فيقولون: «**لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ!**».. «**فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ**».. فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا «**وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ**».. أي الأمر به. أو بيان حكم المتخلفين عنه، أو أي شأن من شؤونه، إذا بأولئك «**الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**».. وهو وصف من أوصاف المنافقين.. يفقدون تماسكهم، ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف، ويبدون في حالة تزري بالرجال، يصورها التعبير القرآني المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار:«**رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**».

****

٢ - (نبّأ – أنبأ):

وذلك في قوله عز وجل:

﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا (نَبَّأَتْ) بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا (نَبَّأَهَا) بِهِ قَالَتْ مَنْ (أَنْبَأَكَ) هَذَا قَالَ (نَبَّأَنِيَ) الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)** ﴾ التحريم. فنحن نرى في نسق الآية الكريمة التفاتين: أولهما (نبأ .. أنبأ) والثاني (أنبأ.. نبَّأ) .

.فما هو سر التحول إليها ثم التحول عنها في الآية الكريمة إذن؟

بداية نود أن نشير إلى أن الفارق بين (نبّأ) و(أنبأ) هو بعينه ما لحظه المفسرون واللغويون – كما رأينا منذ قليل – من أن صيغة فعّل (بالتشديد) تتميز دون صيغة "أفعل" **بإفادة معنى المبالغة والتأكيد**، وهذا ما يقرره الراغب الأصفهاني حيث يقول: إن (نبَّأته) أبلغ من (أنبأته) مستدلاً على ذلك بالآية الكريمة، حيث لم يقل عز وجل على لسان نبيه (ﷺ): أنبأني، بل عدل إلى "نبَّأنى" الذي هو أبلغ، تنبيهاً على تحقيقه وكونه من قبل الله عز وجل.

ولقد سيقت الآية الكريمة لبيان سماحة مسلكه – صلوات الله وسلامه عليه – في عتاب إحدى أزواجه على إفشائها سراً كان قد استكتمها إياه، إذ أنه بعد علمه – بطريق الوحي – بحقيقة ما حدث من تلك الزوج تفصيلاً لم يظهر علمه إلا بجانب منه إذ "عرَّف بعضه وأعرض عن بعض" – غير أنها – رضوان الله عليها – لم تدرك ذلك في بدء عتابها على هذا الإفشاء، وهذا ما يوحى به الالتفات الأول في الآية (نَبَّأَهَا به .. أنبأك)، **فإذا كانت الصيغة الأولى (المشددة) تدل على علمه اليقيني – عليه السلام – بما أعلنه عتاباً، وما أخفاه سماحة وترفقاً ، فإن الصيغة الثانية تدل على أن تفكيرها آنذاك كان محصوراً في هذا الجانب المعلن** الذي تساءلت عمن يكون (من البشر الذين لا يتجاوز عملهم ظواهر الأمور) وراء إنبائه به؟ ومن ثم كان في العودة إلى الصيغة المشددة مرة أخرى على لسانه (ﷺ) (وهي الالتفات الثاني: أنبأك .. نبَّأني) لفتاً لها إلى ما غفلت عن إدراكه – رضي الله عنها – في بداية العتاب.

ولعلنا نلاحظ أن المفعول الثاني المذكور بعد الصيغة الأولى في الالتفات الأخير "أنبأك هذا" وقد حذف من الصيغة الثانية "نبأني"،- ولم يقل(نبَّأنى هذا)- وفي هذا الحذف ما يدعم دلالة العدول عن الأولى إلى الثانية، إذ هو يدل على أن ما "نبأه" به المولى تبارك وتعالى هذا الموقف تتسع دائرته وتتجاوز (هذا) الذي سألته زوجه عمن "أنبأه" به.

ولكن الدكتور فاضل ينظر إلى صيغة الفعل من ناحية الكثرة والقلة – وهو رأى مكمل- كما يلى:

السؤال في آية التحريم (**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)**). نبّأ يقتضي التنبيء أكثر من أنبأ مثل علّم وأعلم، أعلم مرة واحدة لكن علّم يقتضي وقتاً علّمته النحو. إذن التنبيء وقته أو ما يُذكر فيه أكثر من أنبأ مثل علّم وأعلم. إذن نبّأ أكثر، هو قال (**عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ**) قالت (**قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا**) يعني بهذا الجزء؟ ليس كله، لو قالت من نبّأك؟ يعني كله، هو قال (**قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**) يعني كله نبّأه به ربه. قال (**عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ**) أعرض يعني لم يذكره ما أراد أن يحاسبها حساباً عسيراً فذكر قسماً منه وأعرض عن الباقي، ذكر جزءاً من الحديث إذن هو أنبأها جزءاً **الإنباء أقل من التنبيء** هي قالت (مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا) وهو قال (نَبَّأَنِيَ) نبّأني كله لم ينبئها بكل ما حدث مع علمه به وإنما أنبأها بجزء فقالت (مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا) لأنه جزء والإنباء أقل من التنبيء مثل علّم وأعلم.

ويقف الدكتور.حسام النعيمى على ملحظ الكثرة فى طول الوقت نفسه حيث يرى أنَّ **(فعّل)- نَبَّأ- في اللغة تحتاج إلى وقت أطول من أفعل- أَنبأ-. وذلك فى التفصيل التالى:**

(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) **...الراجح في كلام العرب وهذا الذي عليه القرآن الكريم أنه إذا إستعمل بعض تعني واحداً وهنا**

جاء بمعنى واحد (بعض أزواجه). (فلما نبّأت به) فهي كانت إحدى زوجاته (ﷺ) ورضي الله عنهن جميعاً أسرّ إليها حديثاً ، هو قال (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ **حَدِيثًا**) ولا شك أنها في بداية الأمر ترددت قبل أن تتحدث فهذا أخذ زمناً، الحديث أخذ زمناً والتردد أخذ زمناً هذا يناسب صيغة (فعّل) **لأن (فعّل) في اللغة تحتاج إلى وقت أطول من أفعل**. نبّأ (فعّل) غير أنبأ (أفعل).

لما تقول: أعلمت زيداً أي أوصلت إليه معلومة لكن لما تقول علّمته التعليم يحتاج إلى وقت ويحتاج إلى جهد. أخرجت الشيء وخرّجته، وهكذا. فصيغة فعّل في لغة العرب تحتاج إلى تلبّث، وقت، زمن يأخذه (فلما نبّأت به) معناه أخذت وقتاً. أخذت وقتاً حتى في الكلام. الحكاية نفسها تحتاج إلى وقت الكلام في وقت هو لم يكن كلمة واحدة أو كلمتين وإنما حديث (**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا**). (**فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ**) أظهره أي أطلعه وعرّفه أن فلانة أخبرت بحديثك والحديث كاملاً فالرسول (ﷺ) لرعايته لبيته ولأهل بيته ولسماحته عرّف بعضه وأعرض عن بعض، معناها الحديث طويل ذكر بعضه وترك بعضه ما خاض في كل التفاصيل وإنما قال جزءاً من قولها (**عرّف بعضه وأعرض عن بعض**). (**فلما نبّأها به**) هذا التعريف، هذا البعض (به) تعود على البعض الذي تحدّث به كان حديثاً أخذ زمناً قال: (**فلما نبّأها**). قالت (**من أنبأك هذا**) (هذا) يعني إفشاء السر هي تعلم تفاصيل القول وهي لا تحتاج إلى نبّأ وإنما إلى أنبأ لأنه ليس فيها سرعة وليس فيها تلبّث ولا وقت. (نبّأها) شرح لها ماذا قالت جزء من الحديث هي قالت (من أنبأك هذا) من أعلمك إفشائي للسر. إفشائي السر لا تحتاج للفعل المشدّد (نبّأ) وإنما إلى (أنبأ) لأنه يحتاج إلى وقت قصير.

هذه الظاهرة إستعمال نبّأ وأنبأ مضطردة في القرآن الكريم بحيث أننا لما نأتي إلى أفعل كما في قوله (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)**) أنبأ وردت في أربعة مواضع في القرآن كله وسنجد أنها جميعاً فيها إختصار زمن، فيها وقت قصير وليس فيها وقت طويل.

أما نبّأ فحيث وردت، وردت في ستة وأربعين موضعاً (من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) سنعود إلى ذكر إحصائها لأن لنا رأياً فيها. لاحظ (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**) بمفهوم البشر التعليم يحتاج إلى وقت ولذا قال علّم ولم يقل أعلم. الأسماء كلها أي هذا الشيء إسمه كذا هذا المخلوق إسمه كذا ورب العالمين يمكن أن يقول كن فيكون. لكن أرادت الآية أن تبيّن أنه لقّنه هذه الأشياء بوقت كما أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان بإستطاعته أن يقول كن فيكون. ((**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**) وذكرنا في مرة سابقة استعمال عرضهم لأن فيها العاقل وغير العاقل. (فَقَالَ أَنْبِئُونِي) لأنه هذا ما إسمه؟ فلان أو كذا وهذا لا يحتاج إلى شرح وتطويل ما قال (نبّؤني) قال(أنبؤني) لكن في مكان آخر قال (**نبؤني بعلم إن كنتم صادقين**) . قالوا (**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (**٣٢**)) أيضاً ما تعلّموه على وقت. (**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ**) آدم هذا كذا إسمه وانتهى، وهذا؟ كذا وهذا؟ كذا. الإنباء بكل إسم على حدة لا يأخذ وقتاً ولهذا قال (**أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِم**) (**فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ**) واحداً واحداً لا يحتاج إلى وقت.

إذا جاء الفعل بصيغتي فعّل وأفعل نفس الفعل فيكون أفعل إذا جاء لزمن أقصر من فعّل مثل علّم وأعلم ونبّا وأنبأ. في سورة الكهف (**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا** (٧٨)).هذا ليس إنباءً وإنما تبيين من نبّأ لأن فيها كلام كثير (أما السفينة، أما الغلام، أما الجدار) فهي ليست مختصرة. (**سَأُنَبِّئُكَ**) جاءت بالتشديد مشددة ما قال سأنبئك. المضعّفة يعني فعّل من النبأ جاءت في ستة وأربعين موضعاً كما في سورة يوسف (**نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** (**٣٦**)) لأن فيها شرح بالتفصيل عن الرؤيا ولم يقل أنبئنا مختصرة وهم يريدون شرحاً مفصّلاً للرؤيا. أنبأ لم ترد إلا في أربعة مواضع. نبّأ وتفصيلاتها وردت في ستة وأربعين موضعاً في ست وثلاثين موضعاً كانت تحتمل أن تُقرأ أنبأ بالتخفيف ومنه هذا الموضع. من حيث الرسم لو رسمنا من غير همزة ونقاط وشدّة كان يمكن أن تُقرأ سأنبئك لكن رجعت

إلى القراءات وحتى الشاذّة منها ٣٦ موضعاً كان يمكن أن تُقرأ بالتخفيف لكن لم ترد قراءة واحدة بالتخفيف ولكن قُرئت كلها بالتشديد (**سأنبّئكم، أنبّئكم، تنبّؤنه**) لم يقرأها أحد أنبأكم. ستة وثلاثون موضعاً كلها كان يمكن أن تُقرأ بالتخفيف ولم تُقرأ بالتخفيف وعشرة مواضع لا يمكن أن تُقرأ بالتخفيف لأن نبّأت به وإنما (نبّأ) بالتضعيف مثل قوله تعالى (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الكهف**) بالتشديد لأن جاء الحديث بعدها طويل (**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)**) فيها تفصيل. وحيثما وردت ولذلك لم تُقرأ بالتخفيف ما دام فيها تلبّث وزمن فلا تُقرأ بالتخفيف. وهذا القرآن من أوله إلى آخره كله جاء بهذه الصورة والإنسان يعجب (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)**).

****

٣ -(اسطاع - استطاع):

وذلك في الوصف القرآني للسد الذي أقامه ذو القرنين لقوم استغاثوا به من ظلم "يأجوج ومأجوج"، ذلك السد الذي كان على قدر هائل من العلو بحيث عجز هؤلاء الظالمون عن تسوره، وعن الثخانة والصلابة بحيث عجزوا عن أن يفتحوا فيه ثغرة ينفذون من خلالها، وذلك من قوله سبحانه: ﴿ (**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**) ﴾ الكهف.

ولقد قيل في توجيه تلك المخالفة: إن الصيغتين هما بمعنى واحد، وإن حذف تاء الافتعال من أولاهما إنما هو للتخفيف، لأن التاء قريبة المخرج من الطاء.

وقيل أيضاً: إن الصيغة الثانية "تعدت إلى اسم وهو قوله نقباً، فخفف متعلقها فاحتملت أن يتم لفظها، فأما الأولى فإنها تعلق مكان مفعولها بأن والفعل بعدها، وهي أربعة أشياء. أن والفعل والفاعل والمفعول الذي هو الهاء فثقل لفظ استطاعوا

وكان يجوز تخفيفه حيث لا يقارنه ما يزيده ثقلاً فلما اجتمع الثقيلان، واحتملت الأولى التخفيف ألزم الأول دون الثاني الذي خف متعلقه واحتمل(٥)

وقيل كذلك: "لا شك أن الظهور عليه أيسر من النقب، والنقب أشق عليهم وأثقل، فجيء بالفعل خفيفاً مع الأخف، وجيء به مستوفي مع الأثقل، فتناسب، ولو قدر بالعكس لما تناسب".

وهذه هى ملخص آراء العلماء التى سنقوم بشرحها بعد قليل ولكن الدكتور حسن طبل لا يستريح لأىٍ منها ويقول: والواقع أن النفس لا تستريح لتلك الآراء التي ترددت في كثير من كتبِ التفسير واللغة، فالقول بتوحد المعنى أو تطابق الدلالة بين صيغتين مختلفتين – أياً كانت طبيعة هذا الاختلاف – إنما ينضوي على غير قليل من التحيف لأسرار اللغة الفنية فضلاً عن أن تكون هذه اللغة لغة البيان القرآني المعجز، أما القول بأن التخفيف هو غاية هذه المخالفة فهو ما يصعب التسليم به، إذا لو كان الأمر كذلك لكان في تكرار الصيغة الأولى (اسطاعوا) دون عدول عنها إلى الثانية ما يحقق هذه الغاية على نحو أمثل!!

إن الذي نطمئن إليه – والله أعلم – هو أن الصيغتين وإن تواردتا على معنى واحد فإن لكل منهما ظلالها وإيحاءاتها الخاصة في أدائه، وهذا هو سر إيثار كل منهما في موقعها من نسق الآية، **فكل منهما في سياق النفي يعني العجز**، غير أن العجز في "وما استطاعوا" **هو العجز عن الشيء بعد التعلق به، وتكلف محاولته، وبذل الجهد في سبيل تحقيقه**، أما العجز في "ما اسطاعوا" فهو العجز الموئس الذي يئد في النفس بواعث الأمل في الحصول على المراد، ويصرفها كلية عن التعلق به، أو بذل أي جهد في سبيل تحقيقه.

لقد وردت صيغة الاستطاعة مثبتة ومنفية في كثير من المواطن في القرآن الكريم، فدلت في إثباتها على الدعوة إلى بذلك الجهد، ومحاولة استنفاد الطاقة: **(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) التغابن (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) الأنفال، (وَلِلَّهِ**

---

(٥)"وسنقوم بتوضيح ذلك الرأى وإضافة آراء أخرى بعد تكملة عرض الدكتور طبل مباشرة.

عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) آل عمران. ودلت في نفيها على العجز بعد استفراغ الجهد ونفاد الوسائل: (**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ) النساء** (**وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)) يس.**

أما الصيغة الأخرى (**اسطاع**) فلم ترد في القرآن إلا في موطنين (سنعرض لثانيهما بعد قليل) استخدمت في كليهما منفية كي تدل – فيما نرجح – على العجز عن تحقيق الأمر ما إن تتصوره النفس، وتتعرف أبعاده حتى تدرك أن مساريها غليه فوق الوسع.

لعلنا في ضوء هذا الفارق نستطيع القول بأن إيثار (ما اسطاعوا) في الآية الكريمة إلى جانب "يظهروه" يوحي بأن السد الذي أقامه ذو القرنين كان على درجة كبيرة من الملاسة والارتفاع أحس إزاءها أهل يأجوج ومأجوج باليأس، وتيقنوا منذ البداية من فقدانهم لوسائل تسوره، وبالتالي فإن في التحول عن هذه الصيغة إلى الصيغة الأخرى "ما استطاعوا" إلى جانب "نقبا" ما يشعر بأنهم قد حاولوا فعلاً إحداث هذا النقب بكل ما أوتوه من قوة، وما تهيأ لهم – آنذاك – من وسائل، غير أن محاولاتهم في النهاية قد ذهبت أدراج الرياح أمام ثخانة هذا السد وصلابته.

(**وأقف لأقول**) : قد جاء كاتبنا الحبيب د: حسن طبل بهذا التصور (بأنهم قد حاولوا فعلاً إحداث هذا النقب بكل ما أوتوه من قوة) من قوة الفعل الذى جاء على صورة الزيادة(استطاعوا) ، وأقول أنَّ هذا التصور على وجاهته لا يمنع أن تكون قوة الفعل وثقله(استطاعوا) قد أتت أيضاً من قوة النقب ولا مانع أن يكونوا قد حاولوا الفعلين معاً (النقب و إظهاره)، ولذلك فأنا أميل للرأى- الذى ناقشته بالتفصيل فى كتابنا موسوعة الجلال والجمال فى رسم الكلمة وجرسها) الذى يحوى عدة تصورات تناسب القاعدة التى عشناها فى هذه الموسوعة وأن الكلمة إذا زادت فى المبنى زادت فى المعنى، فإظهار السد(أى القفز من فوق ظهره) أخف فى الثقل- يحتاج جهد أقل- ويحتاج إلى وقت زمنى أقل، فاختار لذلك الصيغة التى فيها حذف

الحرف من الفعل (اسطاعوا) الذى يعطى كلا المعنيين(الخفة- بحذف الحرف وتخفيف الكلمة- وكذلك قصر الوقت المتمثل أيضاً فى قصر الكلمة وسرعة النطق بها)... وهذا مخالف تماماً فى حالة النقب التى تحتاج إلى ثقل فى القوة والمجهود، فثقَّل الكلمة بزيادة الحرف(استطاعوا) ، ويحتاج هذا الفعل أيضاً إلى طول الزمن الذى يحدث فيه النقب وهذا أيضاً متحقق بطول الكلمة بزيادة التاء(استطاعوا).. وبذلك تتحقق المعادلة المتوازنة : الخفة فى الفعل مع الخفة فى الكلمة والسرعة فى الفعل مع سرعة النطق بالتخفيف من حروفها(اسطاعوا)، وكذلك ثقل الفعل مع ثقل الكلمة وطول زمن الفعل مع طول الكلمة بزيادة الحرف(استطاعوا)

وهذا الرأى يضاف إليه آراء أخرى تتكامل جميعها ولا تتعارض ومنها:

هذا الرأى الذى وعدنا بشرحه فى السطور السابقة وهو رأى للخطيب الإسكافى الذى قال فيه(إن الصيغة الثانية (استطاعوا)"تعدت إلى اسم وهو قوله (نقباً)، فخفف متعلقها فاحتملت أن يتم لفظها....الخ) وشرحه ما يلى:

أنه أراد أن يبرز لنا **ميزاناً لغوياً** بين طرفى الجملة فى كلا النصين هكذا: ﴿**فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ**) (**وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**﴾

فَمَا اسْطَـــــاعُوا (فيها تخفيف بحذف الحرف- التاء-) فعوّض هذا الحذف بالزيادة فى شق الجملة الثانى(**أَنْ يَظْهَرُوهُ**) **بأن أتى به على صورة الجملة الفعلية التى تتكون من فعل(يظهر) وفاعل(هم)** ومفعول به فى الهاء(أى السد)

وحدث عكس ذلك فى الجملة الثانية (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) هكذا:

الشق الأول (**وَمَا اسْتَطَاعُوا**) جاء الفعل(ثقيلاً)بدون حذف التاء(استطاعوا)، فقام النظم بإحداث التوازن والميزان بتخفيف الشق الثانى فأتى به إسماً فقط **(نَقْبًا)** وليس جملة فعلية مثقلة، وبذلك يحدث التوازن المدهش ونمثله للقارىء هكذا

اسطاعوا(+) ......(**يظهروه- فعل وفاعل-**)(++)

استطاعوا(++).....(**نقبا- إسم فقط-**)(+)

وهذا رأى وجيه قمنا بتوضيحه للقارىء ، يضاف إليه ميزان آخر **هو الميزان الصوتى** الذى ينظر فيه لجرس كلمة(اسطاعوا، استطاعوا) ومناسبة الجرس الصوتى لكل منهما للمشهد الذى تصوره هكذا:

يلاحظ القارىء السرعة والزحلقة الصوتية فى النطق بكلمة(اسطاعوا) وهو مناسب لمشهد التزحلق والملاسة فى حال الصعود على ظهره.. وهذا عكس الجرس الصوتى لكلمة (استطاعوا) الذى يعطى القوة والتوقف عند التاء والتفخيم الظاهر للطاء بعدها وهذا يصور حالة النقب خير تصوير.

وهذا يتناسب مع الالتفات أيضاً فى السياق التالى فى مثيلاتها من نفس السورة من (**مَا لَمْ تَسْتَطِعْ**) إلى صورة الحذف فى قوله بعدها من نفس السياق(**مَا لَمْ تَسْطِعْ**) حيث كان الهم ثقيلاً على قلب موسى حينما أتى اللخضر بأفعال ثقيلة ومنكرة أمام عينيه- من خرق السفينة وقتل الغلام - فقال له الخضر(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ **(سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ** (**تَسْتَطِعْ**) **عَلَيْهِ** صَبْرًا (٧٨)...**هكذا**(**مَا لَمْ تَسْتَطِعْ**) بالفعل المثقل أيضاً، أما بعد أن أخبره بالسبب فيما فعل وأتى به من أفعال استراح موسى و(خفَّ) الهم من على قلبه فعدل- والتفت- النظم القرآنى إلى الصيغة المخففة(تسطع) مناسبة لهذا المشهد التصويرى هكذا (**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا** (**٨٢**).إضافة إلى الملحظ الصوتى أيضاً بين الكلمتين. والله أعلم.

****

٤ -(نجىّ -أنجى):

يتجلى ذلك على سبيل المثال في قوله سبحانه في سياق تذكير بني إسرائيل بنعمه – عز وجل – عليهم: ﴿ (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)**﴾ البقرة.

ثم قوله في الآية التالية لتلك الآية مباشرة (مع التحول عن نجىّ إلى أنجى).

﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)**﴾ البقرة.

والمعنى الذي تؤديه كل من "نجى - أنجى" واحد وهو تخليص الإنسان مما يهدده من أخطار، ولكن يبقى بعد ذلك أن لكل منهما خصوصيتها في تأدية هذا المعنى، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الفارق بين فعّل (بتشديد العين) وأفعل **هو أن الأولى منهما تنفرد دون الثانية بالدلالة على تكثير المعنى وتأكيده والمبالغة في إثباته**، وهنا نشير إلى أن هذا الفارق بعينه هو سر العدول عن نجَّى إلى أنجى في الآيتين السابقتين، وهو كذلك – والله أعلم – سر إيثار إحداهما دون الأخرى في السياقات التي وردت فيها في البيان القرآني الخالد:

فنحن نلحظ في الآيتين أن التخليص المدلول عليه بفعل التنجية (نجّى) – في الآية الأولى – كان من شرور آل فرعون التي تعددت فشملت بني إسرائيل في ذواتهم تعذيباً، وفي أبنائهم تذبيحاً، وفي نسائهم استحياء، أما التخليص بفعل الإنجاء – في الآية الثانية – فقد كان فقط من خطر الغرق الذي كانت به نهاية هؤلاء الظالمين.

وبملحظ من هذا الفارق الدلالي بين الصيغتين – والله أعلم – كان التحول والالتفات عن كل منهما إلى الأخرى في قوله عز وجل فى آية الأنعام:

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) ﴾

ففي الآيتين الكريمتين عدول عن الصيغة المشددة المفيدة لمعنى المبالغة والتكثير في "ينجيكم" إلى الصيغة المخففة في "أنجانا"، ثم عدول عن هذه بالعودة إلى الأولى في "ينجيكم"، وهو عدول يجسد فداحة المسلك لدى ذلك الإنسان الذي لم يخامر الإيمان قلبه، والذي لا ترتفع كفاه إلى السماء إلا إذا عصفت به إحدى عواصف الأرض، فهو ما أمن سربه في غفلة، وما صفت مشاربه في سبات، أما إذا ألمت به إحدى كرب الحياة فإنها توقظه من سباته، وتصبح هي همة المقيم المقعد، واستغرق

الدعاء إلى الله بسببها سره وعلانيته، فإذا ما انكشفت كربته عاد إلى ما كان سادراً فيه قبلها من لهو وجحود، غافلاً عن أن الله الذي أنجاه – حين دعاه – من هم تلك الكربة هو المنجي له – دائماً – من كل هم، فالبون شاسع **بين عموم رحمة الخالق وخصوص دعاء المخلوق**، أو لنقل بين عموم التنجية التي ينعم بها – سبحانه – على عباده، وشمولها سائر ما ينزل بهم من محن (ينجيكم من ظلمات البر والبحر) (ينجيكم من كل كرب) وخصوص الإنجاء الذي تتعلق به آمال كل منهم عندما تلم به واحدة بخصوصها من تلك المحن (لئن أنجانا من هذه).

وأقول- الكاتب-: إن هذا يؤيده قول الإمام الرازى: (**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ**) غَيْرَ أَنَّ الِاخْتِيَارَ التَّشْدِيدُ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ كَانَ غَيْرَ مَرَّةٍ.

**وعلى هذا القول يكون سياق الآيات أن الله ينجى كثيراً (ينجِّيكم) أما طلب الإنسان فهو يقول : يارب (أنجينى) ولو هذه المرة أو أقل نجاة ..(لئن أنجانا)

ويقول الطاهر: وقرئت (يُنْجِيكُم)- بِسُكُونِ النُّونِ وَتَخْفِيفِ الْجِيمِ- عَلَى أَنَّهُ مِنْ (أَنْجَاهُ)، فَتَكُونُ الْآيَةُ – بالقراءتين- جَمَعَتْ بَيْنَ الِاسْتِعْمَالَيْنِ.(وأقول: كأنه بالتشديد (يُنَجِّيكُمْ) يفيد قوة النجاة، وبغير التشديد(يُنْجِيكُم) يفيد سرعة النجاة، وهذا نلاحظه فى جرس الكلمة والتشديد على الحرف)

ويقول الطاهر: وَهَذَا مِنَ التَّفَنُّنِ لِتَجَنُّبِ الْإِعَادَةِ.(أى أعطت القراءتان معنيين)

****

(فَمَهِّلِ) .. (أَمْهِلْ)

ثم يقول: وَنَظِيرُهُ **(فَمَهِّلِ) الْكافِرِينَ (أَمْهِلْهُمْ)** [الطارق:١٧] . فَالْجَمْعُ بَيْنَ «مَهِّلْ» وأَمْهِلْهُمْ تَكْرِيرٌ لِلتَّأْكِيدِ لِقَصْدِ زِيَادَةِ التَّسْكِينِ(للنبى (ﷺ))، وَخُولِفَ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ فِي التَّعْدِيَةِ مَرَّةً بِالتَّضْعِيفِ (مَهِّلْ) وَأُخْرَى بِالْهَمْزِ (أمهلهم) لِتَحْسِينِ التَّكْرِيرِ.

وهذا الرأى صحيح من الناحية النحوية و

لكنه لا يرضى أئمة البلاغة والبيان.

ويقول الإمام الزمخشرى: فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ يعنى لا تَدْعُ بهلاكهم ولا تستعجل به- **تمهل طويلاً(فَمَهِّلِ)** – **أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً** أى إمهالاً يسيراً.

(وأقول: لذلك جاءت على الصيغة الغير مشددة التى تشير إلى قصر الوقت(أَمْهِلْهُمْ).. وكأن اجتماع الصيغتين يشير إلى المعنى الذى أراه فى هذه الآية من أنه سبحانه يقول لنبيه: وطن نفسك على الصبر الطويل والإمهال الطويل(فمهِّل) ثم يؤانس قلبه ويطمئنه بأن الإمهال سوف لايكون طويلاً وأن وعد الله آت وسريع فقال(أمهلهم) رويدا، ولاننسى التناسب الجميل بين الصيغة المخففة(أمهلهم) وبين كلمة (رويداً)، ولذلك قال الإمام- وغيره من المفسرين- بعدها: وكرّر وخالف بين اللفظين **لزيادة التسكين منه والتصبير**.(ولعل ذلك لأن الإمهال وإتيان وعد الله سيكون قصير موعده(أمهلهم رويدا) ولو وقف النص على (مهِّلهم) لأشار إلى ثقل وطول الوقت ولا يكون فى ذلك تأنيس للنبى(ﷺ)....ويكرر ذلك القول الإمام الرازى ويضيف قوله: الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: **أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّمَا صُغِّرَ ذَلِكَ- أى أتى بالصيغة المخففة(أمهلهم) وبقوله (رويداً)- مِنْ حَيْثُ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ. (٦)

ويكمل الألوسى: وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا إِلَى يَوْمِ بَدْرٍ، وَالْأَوَّلُ – ليوم القيامة- أَوْلَى، لِأَنَّ الَّذِي جَرَى يَوْمَ بَدْرٍ وَفِي سَائِرِ الْغَزَوَاتِ لَا يَعُمُّ الْكُلَّ، وَإِذَا حُمِلَ عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ عَمَّ الْكُلَّ، وَلَا يَمْتَنِعُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَدْخُلَ فِي جُمْلَتِهِ أَمْرُ الدُّنْيَا، مِمَّا نَالَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرَهُ،

---

(٦) ومنها قرب الساعة كما فى قوله تعالى: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨))

وذكر الإمام الألوسى الإمهال ليوم القيامة أيضاً باعتبار أن كل آت قريب وعلى هذا النحو التقليل على أن (من مات فقد قامت قيامته)، ويقول: والظاهر ما قال السدي(وهو ما سيعرضه)

ويرى أبو السعود أنه: في إيرادِ البدلِ بصيغةٍ لا تحتملُ التكثيرَ(أمهلهم) وتقييدُه ب(رويداً) – أمهلهم رويدا- على أحدِ الوجهينِ المذكورينِ من تسليةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتسكينِ قلبه مالا يخفى.

وينقل الإمام الألوسى خبراً آخراً مقرباً للمعنى وهو: وأخرج ابن المنذر عن السدّي أنه قال أي أمهلهم **حتى آمر بالقتال** ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل.(وهو أيضاً يحوى صورة التطمين والتأنيس لقلبه(ﷺ)

****وعودة إلى السياق**

فى آية الأنعام ﴿ (**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)** ﴾ (الأنعام).

وعلى هذا الأساس – والله أعلم – تكررت الصيغة المخففة (دون عدول إلى الأخرى) في قوله تبارك وتعالى: ﴿ (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)**..)﴾ يونس؛ وذلك لأنها تعلقت في المرتين بمحنة إشراف هؤلاء الباغين في الأرض على الغرق، وهي ما تحددت في صدر الآية الأولى بقوله سبحانه: (**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ**..) **فهي محنة واحدة** دعوا الله عما وعدوا به، ورجعوا إلى ما كانوا عليه قبلها من بغي وضلال.فقالوا (**لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا**) (**فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ**).

ففى الآيات المثيلة فى سورة الأنعام يتحدث عن **النجاة من ظلمات البر والبحر وكل كرب** – وليس عن نعمة واحدة– فجاء على صيغة التكثير (**يُنَجِّيكُمْ**) وقال –(**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**...وهنا فى يونس كان الإنجاء من أمر واحد فقال (**لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ**) ، وقال:(**فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ**).

وبملحظ من هذا الفارق بين الصيغتين كذلك ورد العدول في قوله عز وجل: ﴿ (ثُمَّ نُنَجِّي** (رُسُلَنَا) وَالَّذِينَ آمَنُوا **كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)**﴾ يونس، وكان حقها أن تكون(حقاً علينا(نُنَجِّ))

وفي قوله سبحانه عن ذي النون عليه السلام: (**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ**-أى: النبى يونس- **مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** (٨٨)) [الأنبياء]- وكان حقها أن تكون (وكذلك (نُنَجِّى) المؤمنين).

وهذا تفرقة بين نجاة النبى – التى جاءت بالصيغة المشددة- ونجاة باقى المؤمنين- حيث جاءت بالصيغة المخففة- وكما يقول الدكتور حسن طبل: أن في إيثار الصيغة المشددة مع الرسل والمؤمنين من معاصريهم ما يضفي كل تأكيد على تحقق ذلك لهم، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: (**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** (٥١)) **غافر**.

**وإذا كان هذا الفارق يتجلى – كما رأينا – في العدول بين هاتين الصيغتين، وفي تكرار إحداهما دون عدول فإنه يتجلى كذلك عندما ترد إحداهما بديلاً للأخرى عند تكرار سياقها في موضع آخر:

لنتأمل على سبيل المثال قوله عز وجل في قصة نوح عليه السلام:

﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (٦٤)**﴾ الأعراف. ثم قوله في هذا المعنى عند تكرار القصة في موطن آخر:

﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)**﴾ يونس.

إن الذي نرجحه في تفسير تلك المخالفة هو – والله أعلم – ما ذهب إليه تاج القراء الكرماني حيث يقول في هذا الصدد:

"أنجينا ونجينا للتعدي، لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة، فكان في يونس (ومن معه) ولفظ "من" يقع على كثرة مما يقع عليه الذين؛ لأن "من" يصلح للواحد والتثينة والجمع والمذكر والمؤنث بخلاف الذين فإنه لجمع المذكر فحسب، فكان التشديد مع "من" أليق".

ففي اقتران الصيغة المخففة ب(الذين)آمنوا- في آية الأعراف، واقتران المشددة ب(من)آمن- في آية يونس ما يدل – كما يصرح الكرماني – على أن الأخيرة منهما تنفرد بالدلالة على المبالغة في معنى النجاة، وإفادة شموله لكل من آمن بنوح عليه السلام، بل لعل في إيثار "من" في آية يونس ما يدل – فوق ما لحظه الكرماني – على أن فعل التنجية لا يشمل المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث من المؤمنين فحسب، بل يشمل معهم – على سبيل التغليب – كل ما حمله سيدنا نوح عليه السلام على ظهر سفينته من أنواع الحيوانات والطيور التي كانت مع الناجين من البشر نواة لحياة بدأت مسيرتها من جديد، ولهذا – والله أعلم – .

وأقول- أنا الكاتب- وقد عشنا تفصيل ذلك فى موسوعة إعجاز التكرار فى قصص القرآن عند وقوفنا على قصة نوح عليه السلام فى المجلد الثانى- ونقتبس هنا موجزاً مما ذكرناه هناك بعد استعراض السياقين فى السورتين.

وإليك سياق قصة نوح فى السورتين (الأعراف ويونس)

الأعراف:

﴿ **(لَقَدْ) أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ (فَقَالَ) يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ (فَأَنْجَيْنَاهُ) (وَالَّذِينَ) مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)(٦٤)** ﴾.

وفى سورة يونس:

﴿ ((**وَاتْلُ**)) **عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ**- وهى بداية خاصة تختلف عن مثيلاتها فى السور الأخرى، والتلاوة تحتاج إلى وقتٍ وهدوءٍ وبالحكمة والموعظة الحسنة- (**وَاتْلُ**) **عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ (كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ)**- تصوير لطول المعاناة منهم ومعهم- (فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ) (**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ (ثُمَّ) لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً (ثُمَّ) اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ** (٧١)- فهو سياق يرسم **قوة التحدى** وإرخاء العنان لهم فى محاربته دون تعجل أو خوف

منهم مع ملاحظة تكرار حرف التراخى والإمهال**(ثم)**- **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ (فَنَجَّيْنَاهُ)**- قوة النجاة حيث لم يقل (فأنجيناه)- **وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ**- ولم ٢يقل(والذين معه)- **وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ**-وهذه زيادة تناسب جو السورة وصورة الاستخلاف جيل بعد جيل- **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ((فَانْظُرْ))**- دعوة للتأمل- **(فَانْظُرْ)كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ**)- لاحظ صورة هذه النهاية للقصة وقارنها بنهاية مثيلتها فى الأعراف((**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ**))**(٧٣) ثُمَّ** – حرف العطف الذى يفيد التراخى والتباعد الزمنى- **(ثُمَّ) بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**- التى تحتاج إلى وقت طويل لتأملها ولقوة مدلولها(**فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ**) قضاء يصدر بعد طول الدعوة والمعاناة **كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى**- ﴾ هكذا كما سبق شرحه.

الأعراف (نوح)	**يونس (نوح)**
فَكَذَّبُوهُ ((فَأَنْجَيْنَاهُ)) ((وَالَّذِينَ)) مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ((إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)) (٦٤)	**فَكَذَّبُوهُ ((فَنَجَّيْنَاهُ)) وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ((فَانْظُرْ)) ((كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ))**-.

وهنا تتوافد الأسئلة التالية:

١- لماذا فى الأعراف : **(فَأَنْجَيْنَاهُ) (وَالَّذِينَ) مَعَهُ.**

وفي يونس **(فَنَجَّيْنَاهُ) (وَمَنْ) مَعَهُ**

٢- في يونس إضافة قوله تعالي **(وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ)**

نعود لإجابة السؤال الأول لنري أن الإجابة واضحة بقليل من التأمل، فكما ذكرنا أن (أنجيناه) تفيد سرعة النجاه، (ونجّيناه) تفيد ثقل وقوه النجاة، أو النجاة الكاملة، ولا يشترط فيها ملحظ السرعة ....

وبناءً على ذلك نقول:قد عودنا القرآن الكريم أنه إذا كان الخوف شديداً كمثال موقف موسى ومن معه من المؤمنين والبحر أمامهم والعدو من ورائهم **(فَلَمَّا**

تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١))- أى: قوم موسى وقوم فرعون والبحر وراءهم- وهنا يظهر الرعب الشديد، فيكون المناسب هنا سرعة النجاة من هذا الهول على أى حال **فقال** (**أنجيناه**)- فى سورة الشعراء- أي سرعة النجاه – سرعة النجدة – ثم بعدها ينظر للنجاة الكاملة.

والملحظ الثانى- فى نظم القصص القرآنى-: أنه حينما يأتي السياق بمشهد دعاء النبي – لنصرته أو دعائه على قومه- فلابد أن تأتيه فى المشهد سرعة النجدة وسرعة الإجابة أيضاً- فيناسبها (أنجيناه).

لكن إذا كان الغرض هو ابراز قوة النجاة (النجاة الكاملة – النعمة الكبرى-) في مقابل مشهد الهلاك والدمار للطرف الآخر ... فهنا يأتي بالصيغة المثَّقَّلة (**نجَّيناه) وهذا هو ما سنعيشه علي الصفحات التالية.

مع ملاحظة أن (أنجيناه) أخف جرساً وأسرع نطقاً. و(نجَّيناه) فيها الثقل والاستطالة (والكثرة)- فى الجرس والمعنى- مما يناسب والمعني المراد على هذه الصورة. وهو ما يتناغم أيضاً مع المعني والسياق الذي سنعيشه.

ونبدأه من مثالنا المذكور:

ففي الأعراف قلنا (**أنجيناه**) يفيد السرعة والخفة بخلاف سياق سورة يونس.

فى الأعراف (أنجيناه والذين معه) تختلف عن قوله (ومن معه)-فى يونس-.

لأن (الذين) إسم موصول يفيد جمع المذكر العاقل فقط... أما (من)- ومن معه- فتفيد العاقل وغير العاقل وتفيد الجمع والمفرد، فهى أوسع معنى ومجالاً وكثرة، ولذلك فهي أوسع وأكثر من (الذين)، وجاءت كل صيغة فى سياقها: (أنجيناه والذين معه) و(نجَّينَاه ومن معه).

(فنجيناه) فيها الثقل والهدوء وكثرة النجاة، فقال: و (من معه) لتشمل الجميع من الإنس والطير والحيوان والمفرد والجمع.. لكن (الذين) تصور جمع المذكر السالم من الإنس فقط.

وإذا ذكر ظل الخلافة فى الأرض فإنه يناسبه أن يكون مع الإنسان مقومات الخلافة من وجود الأنعام والطير والزرع وغير ذلك معه.. وهو ما أشار إليه النظم

فى قوله (**ومن معه**)(.. **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ(خَلاَئِفَ) فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كيف تَعْلَمُونَ**) .. ويلزمه أيضاً قوة النجاة وكمالها وكثرتها (**فنجَّيناه**). فلا تناقض إذاً من أن يَرِد السياق مرة (**أنجيناه والذين معه**) ومرة أخرى(نجيناه ومن معه) وكلٌ ورد فى مكانه المكين من النظم الحكيم.

وهذا من كمال التناسق والفن التصويري المبدع ومن أسباب ورود التكرار القصصى فى القرآن الكريم.

فها هو نوح عليه السلام فى سورة يونس يقول النظم عنه: ﴿ (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)**) ﴾

وهنا يشير إلي (طول المدة) التي مكثها داعياً فيهم، ثم يعلنها لهم (بقوة) –إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي– (**فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ**)(ولا حظ حرف الفاء السريعة فى طلبه منهم سرعة إحضار أمرهم وشركائهم....وكأنه يطلب منهم جمع شركائهم وأمرهم بسرعة فهو لا يخافهم لأنه قوي التوكل علي الله، بل إنه يزيد التحدي لهم بقوله (**ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً**) وهنا يأتي دور (ثم) التي تفيد التراخي والتباعد الرتبي والزماني أيضاً... أي أترك لكم فرصة طويلة حتى تتبينوا الأمر ولا يكن هناك خطأ في التدبير والتفكير .... (ثم) لا يكن أمركم عليكم غمة (ثم)– إمهال مرة ثانية ليجمعوا باقي الشركاء والأعوان– وبعدها (ثم) أقضوا إليَّ ولا تنظرون ... ويعلن أنه لا يرجو منهم **شيئاً(إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللّهِ) وفى النهاية:(فَكَذّبُوهُ فَنَجّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ)**

قوة النجاة مقابل قوة التوكل وطول المدة وثقل التحدى.

ولعلنا جميعاً نذكر قاعدة الميزان الفكرى الذي يقول (لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه) فقوة التوكل وإطاله التحدي والإمهال لهم

ليجمعوا كل ما يستطيعون يناسبه قوة النجاه (نجَّيْنَاه) وأيضاً: النجاة الكاملة لجميع ما معه (نجيناه ومن معه).

ويزيد الأمر وضوحاً لبيان قوة وكمال النجاة قوله بعدها: جعلناكم (خلائف). **(وأرجوا من القارىء الكريم مراجعة هذا الباب بالتفصيل الكامل والشامل في المجلد الثاني من موسوعة "إعجاز التكرار ومتشابه النظم في قصص الأنبياء في القرآن الكريم، وأن ما سنعرضه هنا على سبيل التذكرة السريعة)**

كما يتجلى هذا الفارق أيضاً في قوله سبحانه مخبراً عن سيدنا لوط عليه السلام بصيغة **"أنجى" (**فَأَنْجَيْنَاهُ**) **وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣)**)(**الأعراف**) ومثله قوله: (**فَأَنْجَيْنَاهُ**) **وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧)**) (**النمل**) ثم قوله في ذلك المعنى أيضاً بصيغة **"**نَجَّى": (**وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ** (**نَجَّيْنَاهُ**) **وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ** (**١٣٤**) **إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ** (**١٣٥**)) الصافات. إذ في ضوء تأمل هذه الآيات يمكن القول بأن الصيغة المخففة في آيتي الأعراف والنمل تدل على تخليصه عليه السلام والمؤمنين من أهله، أما الصيغة المشددة في الصافات فإنها تدل على **تأكد هذا التخليص وشموله** لكل هؤلاء المؤمنين بلا استثناء- **وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ**- مع ملاحظة مفردات التوكيد(**وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**)، ولعل مما يدعم هذا الفارق بين الصيغتين أن آيتي الأعراف والنمل قد وردتا خاليتين تماماً من أي أداة من أدوات التوكيد، أما آيتا الصافات فقد تضمنتا ما يدعم دلالة الصيغة التي أوثرت فيهما على التأكيد والشمول (إن – اللام - أجمعين).

﴿ **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)**﴾ **النمل**.. هنا تبييت بالليل والخفاء والذى يفعل ذلك فإنه يفعله بسرعة وخفاء. ومثلها (**وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى**

النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)) فصلت.

****

وقفة أخرى تعتمد على ملحظ سرعة النجاة أو كمال النجاة

﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)** ﴾ البقرة.

ففى هاتين الآيتين نلاحظ أنه فى حال وقوف نبى الله موسى عليه السلام ومن معه فى هذا الموقف العصيب- البحر من أمامهم وجحافل فرعون ومن معه من ورائهم- فى موقف شبيه لهذا الموقف ذكره ربنا تبارك وتعالى فى سورة الشعراء ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) ((وَأَنْجَيْنَا)) مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)**﴾

فهذا الموقف يحتاج (لسرعة النجاة) وإلا كان القتل للجميع أو الغرق فى البحر، ولذلك جاء النظم بالصيغة التى تناسب ذلك الموقف، فقال(انجينا) ... وكذلك فى كل المواقف الشبيهة التى تحتاج إلى سرعة النجاة.. أما فى غير هذا الموقف حينما لا يحتاج إلى سرعة النجاة بل إن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً، أو يتطلب كمال النجاة وقوتها- وليست سرعتها- فإنه يأتى بالصيغة الأخرى- على التشديد-(نجّينا)-كما هو فى مثالنا هذا من تقتيل الأبناء واستحياء النساء الذى استمر أزماناً كثيرة وأجيالاً متعددة (وقد شرحنا ذلك بالتفصيل الكامل والممتع فى إعجاز النظم فى قصة موسى عليه السلام- من كتابنا إعجاز التكرار فى قصص القرآن- ووقفنا فى البحث على ارتباط (نجينا) أو (أنجينا) مع حرف العطف(ثم)

أو (الواو) فى المجلد الثالث فليراجعه قارئنا الحبيب).. وهذا الرأى الذى ارتضيناه وأكدنا عليه هناك لا ينافى ما ذهب إليه الدكتور حسن طبل هنا فى مواقف أخرى.

* ما الفرق بين (أنجى) و(نجّى) (٢) ؟

ووقفة مع الدكتور: (دكتور: فاضل السامرائى)

في سورة البقرة قال تعالى ﴿ (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ** .. (**٤٩**)) وفي سورة إبراهيم قال تعالى (**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ** ..(٦)) ﴾

في البقرة جعل سوء العذاب هو تذبيح الأبناء (بَدَل)، (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب)، ما هو سوء العذاب؟ (يذبحون أبناءكم)، هذه بدل من يسومونكم، هذه الجملة بدل لما قبلها فسّرتها ووضحتها، البدل يكون في الأسماء والأفعال وفي الجُمَل، إذن (**يذبّحون أبناءكم**) تبيين لسوء العذاب فنسميها جملة بَدَل. في سورة إبراهيم قال (**يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ**) إذن هنا ذكر أمران سوء العذاب بالتذبيح وبغير التذبيح، سيدنا موسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل أن الله سبحانه تعالى أنجاهم من آل فرعون من أمرين: يسومونهم سوء العذاب هذا أمر والتذبيح هذا أمر آخر. كان التعذيب لهم بالتذبيح وغير التذبيح باتخاذهم عبيداً وعمالاً وخدماً فيعذبونهم بأمرين وليس فقط بالتذبيح وإنما بالإهانات الأخرى فذكر لهم أمرين. إذن يسومونكم سوء العذاب هذا أمر، ويذبحونكم أبناءكم هذا أمر آخر، إذن بالتذبيح وفي غير التذبيح، سوء العذاب هذا أمر ويعذبونهم عذاباً آخر غير التذبيح. موسى عليه السلام يذكِّرهم بنعم الله عليهم (**اذكروا نعمة الله عليكم**) فيذكر لهم أموراً. ربنا تعالى قال في سورة البقرة (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ**) وفي إبراهيم قال على لسان سيدنا موسى (**إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ**) أنجاكم ولم يقل هنا نجّاكم. هناك فرق بين فعّل وأفعل، نجّى يفيد التمهل والتلبّث والبقاء مثل علّم وأعلم، علّم تحتاج إلى وقت أما أعلم فهو إخبار، فعّل فيها تمهل وتلبّث.

موسى عليه السلام يعدد النعم عليهم فقال (أنجاكم) فأنهى الموضوع بسرعة. كما قال (**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠)**) البقرة لأنهم لم يمكثوا في البحر طويلاً فقال أنجيناكم. حتى في إبراهيم قال (**فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ (٢٤)**) العنكبوت. لم يقل نجّاه لأنه لم يلبث كثيراً في النار.

****

(ب) بين صيغتي الاسم:

١ - (ضلال - ضلالة):

وذلك في قوله عز وجل في الإخبار عن قوم نوح وتكذيبهم له عليه السلام:

﴿ **قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١)** ﴾ [الأعراف].

فلقد كان مقتضى السياق أن ينفي نوح عليه السلام تهمة الضلال عن نفسه بصيغة المصدر "ضلال" التي وردت بها تلك التهمة على لسان قومه، ولكنه عدل عن تلك الصيغة إلى صيغة اسم المرة "ضلالة" مبالغة في النفي؛ وذلك لأن المصدر يدل على القليل والكثير، أما اسم المرة فلا يدل إلا على الفعلة الواحدة، ونفى الأدنى أو الأقل أبلغ من نفي الأكثر.و لقد جاء الاتهام بالضلال على لسان الملأ مؤكداً مبالغاً فيه عن طريق التعبير بفعل الرؤية – المفيد لمعنى التثبيت واليقين – وتأكيده بإن واللام، ثم تعديته بحرف الجر "في" المفيد لمعنى الإحاطة والظرفية، وقد اقتضى ذلك أن يسلك نفي هذا الاتهام – على لسان نوح عليه السلام – مسلكاً آكد وأبلغ من إثباته، فكان الالتفات عن صيغة المصدر إلى اسم المرة، وإيقاعها (وهي نكرة) في سياق النفي، ثم إيثار حرف الجر "الباء" حتى ينفي على نحو قاطع أن يكون قد علق به أدنى قدر مما يسمى ضلالة.

٢ - الحياة - الحيوان

وذلك في قول الحق تبارك وتعالى:﴿ (**وَمَا هَذِهِ (الْحَيَاةُ) الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ (الْحَيَوَانُ) لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)** ﴾ العنكبوت

فالحياة والحيوان بمعنى واحد؛ إذ أن كلاً منهما هي مصدر للفعل "حي"، غير أن في الثانية من المبالغة في أداء هذا المعنى ما ليس في الأولى، ومرد ذلك – كما يقرر بعض المفسرين – هو "ما في بناء فعلان – بفتح العين – من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون؛ فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضى للمبالغة".

وقد بين الفخر الرازي وجه الملاءمة بين صيغة الحيوان والحياة الأخروية فقال: "إن هذه الحياة لما كانت فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى: (**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ** (٢٦)) يونس. وكانت هي محل الإدراك التام الحق، كما قال تعالى: (**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**) الطارق: ٩. أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك(الحيوان)".

في التحول إلى صيغة الحيوان مع الدار الآخرة – إذن – مبالغة في تحقيق معنى الحياة في تلك الدار، والإشعار بأنها هي الجديرة بأن تسمى حياة، وقد حفلت الآية الكريمة بما يدعم هذا التحول، ويعمق دلالته على سمو الحياة الأخروية بالقياس إلى الحياة الأولى فلنتأمل:

بينما بولغ في إثبات معاني اللهو واللعب للحياة الأولى بأسلوب اقصر "ما – إلا"– بولغ في المقابل في إثبات معنى الحياة للدار الآخرة بإن واللام وتعريف طرفي جملة الخبر "لهي الحيوان".(**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٦٤))

بينما وردت صيغة الحياة مقيدة بالوصف "الدنيا" وردت صيغة الحيوان مطلقة بلا وصف، وذلك للإشعار بأن الحياة الأخروية في تساميها أبعد من أن يحيط بها وصف.

بينما وقعت صيغة الحياة مبتدأ أخبر عنه باللهو واللعب، وقعت صيغة الحيوان في جملة الإخبار عن الدار الآخرة، فكأن هذه الدار ليست مجرد وعاء أو مسرح للحياة الأخروية بل إنها ذاتها حياة.

****

٣ - (**أَبْنَاءِ - بَنِي**)

وذلك في قوله عز وجل:

﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ** (**٣١**)﴾ النور. فلقد وردت صيغة جمع التكسير "أبناء" في الآية الكريمة مضافة إلى ضمير المؤمنات وإلى بعولتهن، ثم عدل عنها إلى صيغة جمع المذكر السالم "بني" عند الإضافة إلى الإخوان والأخوات.

ولقد أجمع النحاة على أن الصيغة الأولى"أبناء" هي إحدى صيغ القلة في جموع التكسير والتي تنحصر عندهم في أوزان (أفعل – أفعال – أفعلة – فعلة)، أما صيغة جمع المذكر السالم"بني" فقد اختلفوا حول كونها للقليل أو للكثير، غير أن الذين ذهبوا إلى أنها للقليل نبهوا على أنها إذا اقترنت بأل الاستغراقية أو **أضيفت إلى ما يفيد الكثرة** (وقد تحقق ذلك بإضافة بني إلى الإخوان والأخوات- فى قوله بنى إخوانهن، أخواتهن) فإنها حينئذ – تدل على الكثير.

فالاختلاف بين الصيغتين هو كما يقرر النحاة اختلاف في الماصدق، أي في قلة الأفراد الذين تقع عليهم الصيغة الأولى(أبناء) – **أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ** –بالقياس إلى من تقع عليهم الثانية(بنى إخوانهن)، ولعل هذا – والله أعلم – هو سر العدول عن "أبناء" إلى "بني" في سياق الآية الكريمة؛ وذلك لأن من يباح للمرأة أن تبدي زينتها أمامهم من أبنائها أو أبناء زوجها – **أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ** –هم – عادة – أقل ممن يباح لهم ذلك في أن "أبناء بعولتهن" لا تتعدد أو تتنوع كما هو الشأن في علاقة الأخوة في (بني إخوانهن أو بني أخواتهن)، وذلك في ضوء ما هو معلوم من أن الإخوة والأخوات هم أعم من أن يكونوا أشقاء أو لأب أو لأم، وأن الأخوة أعم من أن تكون أخوّة نسب أو أخوّة رضاع.(بخلاف الأبناء، أو أبناء بعولتهن).

ولعلنا على أساس هذا الفارق بين الصيغتين نستطيع إدراك المغزى من تكرار أولاهما (أبناء) دون عدول عنها إلى الثانية في قوله سبحانه:

﴿ **لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ (٥٥)** ﴾ الأحزاب.. فهنا لم يقل(بنى إخوانهم، بنى أخواتهن)

فلقد نزلت هذه الآية الكريمة في حجاب **أزواج النبي** (ﷺ)، ومن ثم فإن تكرار صيغة القلة "أبناء" دون تحول إلى صيغة جمع المذكر (المفيدة للتكثير) مع الإخوان والأخوات هو – والله أعلم بمراده – إشعار لهن رضوان الله عليهن بضرورة التقليل من الظهور أمام بعض هؤلاء المحارم، وإيذان بأن ملازمة الحجاب أولى بهن(أزواج النبى)، ولعلها إحدى الخصوصيات التي اختصهن الله عز وجل بها تكريماً لشأن نبيه صلوات الله وسلامه عليه. ولعل في نفي الجناح في صدر الآية "لا جناح عليهن" ما يؤيد ذلك، إذ أن انتفاء الجناح أو الاثم عن عمل أو سلوك ما لا يتضمن الترغيب في الإقبال عليه.

وهذا الذى ذهب إليه أستاذنا الدكتور حسن طبل هو ما ذهب إليه الدكتور فاضل السامرائى فى قوله:

استعمال بني وأبناء: **بني (بنو بالرفع) أكثر من أبناء من حيث العدد.** بنو آدم ليست مثل أبناء آدم، بني إسرائيل كثير، أبناء يعقوب أقل. بني أكثر من أبناء. أبناء هي من صيغ جموع القِلّة: أفعُل، أفعال، أفعلة، فُعلة.

الفرق بين الآيتين لو لاحظنا آية النور التي فيها (بني) هذه **في عموم المؤمنين، الخطاب لعموم المؤمنين والمؤمنات.** بينما في آية الأحزاب الخطاب لنساء النبي (ﷺ). في آية النور قال تعالى (**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ**) نساء المؤمنين كثير فقال(بني أخواتهن وبني إخوانهن) . أما في الأحزاب **فالخطاب لنساء النبي** (ﷺ) **وهن قليلات بالنسبة لنساء المؤمنين** فقال (أبناء) لأن أبناء أقل من(بني) وفي الكثير قال (بني) لأنها في عموم نساء المؤمنين وهذه طبيعة اللغة.

(بنو) ملحقة بجمع المذكر السالم (**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** (٨٨) **الشعراء**). بنين حذفت النون للإضافة (بني آدم). فإذا أضيف المذكر السالم والمثنى تحذف النون فتصير بنو آدم وبني آدم.

****

٤ - (**شَاكِرًا -كَفُورًا**)

وذلك في قوله سبحانه:

﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** (٣) ﴾ الإنسان.

فقد استخدمت الآية الكريمة صيغة اسم الفاعل للدلالة على الشكر "شاكراً" ثم التفتت عنها إلى صيغة المبالغة عند التعبير عن الكفر "كفورا" وهو التفات يحقق غايتين في آن واحد: التوازي أو التوازن الإيقاعي بين الفواصل؛ فقبل هذه الآية وبعدها كانت الفواصل مبنية على روي الراء المتلوة بألف الإطلاق، والمردوفة بالمد الواوي أو اليائي (مذكوراً – بصيراً – سعيراً)، ومن ثم كان التحول عن كافراً إلى كفورا؛ إذ أن الأولى تفتقد الردف الذي تتوازن به فاصلة الآية مع قريناتها في السياق.

المبالغة التي تتفرد بها الصيغة الثانية دون الأولى، والتي تجسد البون الشاسع بين إقبال الإنسان على الشكر وإقباله على الكفر، فهو لا يخطو خطوة في طريق الشكر إلا وقد خطا في طريق الكفران والجحود خطوات، ففي هذا العدول – إذن – تأكيد لذلك المعنى الذي سيقت آيات أخرى لتقريره في طبيعة الإنسان من مثل قوله تبارك وتعالى:(...**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** (١٣)) سبأ، وقوله سبحانه: (...**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** (٣٤)) إبراهيم.

وقد لمس البيضاوي نكتة دقيقة في هذا التحول عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة في الآية – فهو يرى أن في العدول عن: شاكراً إلى كفورا إشعاراً بأن الإنسان – غالباً – لا يخلو عن كفران، وأنه عز وجل لواسع رحمته بعباده لا يؤاخذهم على قليل الكفران والجحود، بل على المبالغة أو التوغل فيه(كفور).

٥ - ((**مُشْتَبِهًا**) (**مُتَشَابِهٍ**))

وذلك في قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ (مُشْتَبِهًا) (وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ الأنعام.

أرى – اختصاراً لأقوال العلماء– أن هذه الآيات وردت فى سياق بيان قدرة الله على أن يخلق شيئان فى غاية المشابهة، مما يشتبه على الناظر ويجعله غير قادر على التفريق بينهما– وهو مدلول لفظ (مشتبهاً) - أما فى الآية الثانية ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ (كُلُوا) مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) (وَلَا تُسْرِفُوا) إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)** ﴾ فهى تتحدث عن تعداد النعم وعن تشريع الحلال والحرام - **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** - وهو لا يصح أن يكون (مشتبهاً) ، ولكنه يجوز أن يكون (متشابه) ، لأن الحلال بيِّن والحرام بيِّن،إضافة إلى أن (متشابه) يتناسب مع (تعداد) النعم؛ فكان ذلك مناسباً لتقديم (متشابهاً) الذى يعنى تشابه الشيئين مع التفرقة بينهما بوضوح. وهذا من جمال التناسق والتناغم بين المشاهد فى السياق الواحد.

ويركز الدكتور حسن طبل على ملحظ التعدد فى إبراز تعداد نعم الله– إضافة إلى ملحظ سياق التحليل والتحريم–، فيناسبها تقديم(متشابه)، كما أن سياق الاستدلال على قدرة الله فى جعل الشيئين كأنهما شيئاً واحداً – من شدة التطابق فى الصفات حتى يقف المشاهد أمامهما متعجباً فيقول متعجباً: سبحان الله– ففى هذا السياق يكون المناسب تقديم قوله(مشتبهاً).. فيقول:

والواقع أن النفس لا تطمئن إلى القول بتوحد المعنى بين صيغتي (اشتبه – تشابه)، وبالتالي لا تطمئن إلى ما ترتب على هذا القول من آراء في تفسير تبادلهما في نسق القرآن، فكل منهما تدل على التماثل – في الهيئة أو الخواص والأوصاف –

بين الشيئين أو الأشياء، إلا أن هناك فارقاً يمليه الحس اللغوي بينهما في أداء هذا المعنى؛ **حيث تختص أولاهما "اشتبه" بالدلالة على ما اشتد فيه التماثل وقويت درجته إلى حد تلتبس مع الأشياء المتماثلة وتختلط فلا يستطاع تمييز أحدهما عن الآخر، أما الثانية "تشابه" فتختص بما لا يبلغ فيه التماثل هذا الحد من الالتباس والاختلاط**، أي أنها تعني مجرد التماثل في بعض الوجوه والصفات.

إن هذا الفارق فيما نرجح – والله أعلم بمراده – هو مرد المخالفة بين الصيغتين في الآية الأولى(مشتبهاً وغير متشابه) دون الثانية من آيتي الأنعام(متشابه وغير متشابه)، ولكي نوضح ذلك نود أن نتعرف – أولاً – طبيعة السياق الذي وردت فيه كل من هاتين الآيتين:

لقد وردت الآية الأولى في سياق التدليل على وحدانية الخالق، ولفت الأنظار إلى مظاهر تفرده – عز وجل – بالخلق والإيجاد، فهو سبحانه القادر على إخراج الشيء من ضده ﴿ **(إِنَّ اللَّهَ (فَالِقُ) الْحَبِّ وَالنَّوَى (يُخْرِجُ) الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (وَمُخْرِجُ) الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) (فَالِقُ) الْإِصْبَاحِ (وَجَعَلَ) اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)** ﴾ **(الأنعام)** وبتدبيره جل شأنه يستحيل الشيء الواحد من طور إلى طور آخر مخالف للأول في بعض خواصه وسماته؛ فمن اليبس والجاف ينشق الحب والنوى بقدرته سبحانه عن طراوة النبت ونضارته (الآية: ٩٥)، والبقلة الغضة في أول النبات تتحول بعد حين (أولى الآيتين: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ (مُشْتَبِهًا) (وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)** ﴾ إلى حب متراكب وثمار مختلفات.

أما الآية الثانية فقد وردت في سياق التذكير بنعم الله عز وجل على خلقه فيما هيأه لهم من طعام لا تستقيم حياتهم إلا به، ففي الآيات التي سبقت تلك الآية والتي تلتها في نسق السورة كان الحديث عن الأنعام بوصفها مصدراً من مصادر

طعام الإنسان، فكان الأمر بالأكل منها، والنعي على من افترى على الله بتحريم بعضها ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (١٤١)﴾ ،

ثم توجيه الرسول (ﷺ) لإعلان القول الفاصل بين ما أحل منها وما حرم: (**قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (١٤٥)) [الأنعام] .. في ثنايا هذا السياق وردت تلك الآية الكريمة (**وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** (١٤١) [الأنعام] لتذكر المخلوقين بنعمة الطعام التي هيأها الخالق – عز وجل – لهم في صنوف النبات، والماثلة في قطاف الجنات، وجني النخل، وحصاد الزرع وثمار الزيتون والرمان.(فهما متشابهان لإظهار التعدد، وليسا مشتبهان التى تفيد إبراز القدرة على جعلهما كالشىء الواحد– وليس المتعدد–.

السياقان – إذن – متمايزان، وفي ضوء هذا التمايز يمكن الوقوف على السر في إيثار المخالفة بين الصيغتين (مشتبه – متشابه) في الآية الأولى دون الثانية:

ففي الآية الثانية حيث كان المحور الذي يدور حوله السياق **هو التذكير بنعمة الطعام**– أوثرت الصيغة الثانية وحدها مثبتة مرة– متشابه– (وتعرب حالاً من الزيتون والرمان) ومنفية مرة أخرى– غير متشابه–، وذلك لأن التشابه بين ثمار هذين الصنفين – في اللون أو الشكل – مهما بلغ فلن يبلغ حد الالتباس الذي يصعب معه التمييز بين صنف وصنف أو نوع ونوع.

أما في الآية الأولى فقد أوثرت الصيغة الأولى "مشتبهاً" ثم عدل عنها إلى الثانية "متشابه"، والذي نميل إليه – والله أعلم – أن الأولى ليست حالاً من

الزيتون والرمان، بل **هي نعت لكلمة "خضرا"** المذكورة في صدرها؛ وذلك لأن السياق الذي وردت فيه تلك الآية يدور – كما رأينا منذ قليل – حول التدليل على قدرة الخالق وتفرده بإخراج الشيء من ضده، وتحويله من طور إلى طور آخر، فمناط اللفت والاعتبار في تلك الآية – إذن – **ليس هو الجني الشهي والثمار العذبة، بل هو الكيفية التي يتحول بها النبات بقدرة الخالق وتدبيره المحكم من طور الخضرة والغضاضة (فأخرجنا منه خضرا) إلى طور النضح والإثمار** (نخرج به حباً متراكبا ...)،

وعلى ذلك فإن هذا "الخضر" الذي تنشق عنه الأرض والذي تتماثل خواصه بين كثير من أنواع النبات هو – فيما نحس – متعلق الصيغتين (مشتبه – متشابه) في الآية الكريمة، أما مغزى المخالفة بينهما فهو – فيما نرى – لفت الأنظار إلى دقة الصنع ولطف التدبير في هذا الطور المبكر من أطوار الإنبات، فإذا كانت الأولى تدل على التباس الخضر بين كثير من أنواع النبات إلى الحد الذي قد يعجز المخلوق معه عن التمييز بين نوع ونوع منها، فإن الثانية تدل عن أن هذه الأنواع ذاتها في الحقيقة وفي علم الخالق عز وجل لا تتشابه (فضلاً عن أن تشتبه)، بل إن كلاً منها – مع هذا الالتباس – ميسر لما خلق له، مسخر لتهيئة نعمة بذاتها، متمايز بخواصه وأوصافه النوعية التي لا يشاركه فيها سواه.

لم يكن اللفت – إذن – في تلك الآية (كما هو في الآية الثانية) إلى ثمار النبات أو الجنات، بل إلى الأطوار التي تتعاقب على هذا النبات منذ أن ينعم عليه الخالق سبحانه بماء السماء حتى يؤتى في النهاية تلك الثمار والخيرات، ولعل مما يدعم ذلك اختلاف التذييل الذي اختتمت به كل من هاتين الآيتين عنه في الأخرى؛ ففي الآية الأولى – حيث اللفت إلى أطوار النبات – كان التذييل أمراً بالنظر والتأمل (**انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ**)، أما في الآية الثانية – حيث اللفت إلى نعمة الحصاد والثمار – فقد جاء التذييل أمراً بالأكل وإخراج حق المنعم سبحانه، ونهيا عن الإسراف ((**كُلُوا**) **مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** (**وَلَا تُسْرِفُوا**)).

وهنا نقف الوقفة المكملة أيضاً مع الدكتور فاضل السامرائى حيث يقول:

الاشتباه هو شدة التشابه وكثرته بحيث يؤدي ذلك إلى الاشكال ويقال اشتبه عليه الأمر إذا أشكل عليه والتبس ويقال اشتبهت عليه القِبلة. واشتبه أكثر من تشابه وقد يؤدي إلى الاختلاط بين الشيئين بحيث لا يمكن أن يميّز بينهما. التشابه قد يكون في وجه من الأوجه أو في أمر بسيط لكن لا يصل لدرجة الاشكال والاشتباه.

متشابه ومشتبه: المشتبه هو المُلتبِس من شدة التشابه. عندنا إشتبه وتشابه، إشتبه مشتبهاً وتشابه متشابهاً. المشتبه هو الملتبس من شدة التشابه يلتبس على الرائي والأمور المشتبهة هي المشكلة. يقولون اشتبهت عليه القِبلة أي إلتبست. (التشابه) في أي معنى من المعاني، هذا متشابه مع هذا في هذه المسألة. أيهما الأدلّ على القدرة؟ أن الأمرين المختلفين يجعلهما متشابهين في أمر واحد أو مشتبهين؟ مشتبهين أدل على القدرة أنه يجعل أمرين مختلفين ملتبسان، يجعلهما من شدة التشابه كأنهما ملتبسان وهذا في أمر من الأمور. بعد أن عرفناها من حيث اللغة أين نضع متشابه وأين نضع مشتبه؟ مشتبه نضعها مع قدرة الله تعالى.

واضح أن الآية الأولى في سياق بيان قدرة الله والآية الثانية في سياق الأطعمة، بيان الأطعمة، ما حللّه وما حرّمه. قال (**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ**) هذا طعم، ما يتعلق بالمطعوم (**كُلُوا مِن ثَمَرِه**) في المطعوم وليس في بيان قدرة الله تعالى (**وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**) كل السياق في الأطعمة وما حلله بعضهم وما حرمه إفتراء عليه.

إذن الآية الأولى في بيان قدرة الله تعالى منذ بداية ﴿ (**إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥)**) (**وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)**) ﴾ أُنظر الفرق بين (**انظُرُوا إِلَى ثَمَرِه**) و (**كُلُوا مِن ثَمَرِه**)؛ النظر تدبر وتأمل و (كُلُوا) أكل.

ثم ننظر إلى التعقيب في الآيتين: (**إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) **مسألة تدبر، وفي الثانية** (**وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**) كلوا ولا تسرفوا. إحداهما في المطعوم والأخرى في التدبر في قدرة الله تعالى.

***قد يُثار سؤال:** لماذا قال في الآيتين (**وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**)؟ لِمَ لم يقل في الأولى وغير مشتبه- أي لم يقل(**مشتبه وغير مشتبه**)؟.

في الحالتين قال (**وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**). نفي الإشتباه لا ينفي التشابه، إذا نفيت الإلتباس قد يتشابهان في أمر ولكن غير مشتبه، إذا قلت هذا غير مشتبه يعني ليس متشابه أو قد يكون متشابهاً في شيء. إذا قلت هذا وهذا ليسا مشتبهين محتمل أن يكون فيهما تشابه لكن ليسا مشتبهين. **إذن نفي الإشتباه لا ينفي التشابه.** إذا قلت ليسا مشتبهين لكن قد يكونا متشابهين. نفي التشابه ينفي الإشتباه إذا قلت ليسا متشابهين ينفي الإشتباه. إذا قلت ليسا مشتبهين قد يكونا متشابهين.

مشتبه فِعلها إشتبه بمعنى إلتبس، هما مختلفان لكن من شدة التشابه إلتبسا عليك. متشابه قد يكون التشابه في أمر واحد أقول هذا يشبه هذا في الطول، في العرض، في اللون، إذن تشابها في أمر واحد، لكن إشتبها تكون في أمور كثيرة بحيث إلتبس عليك الأمر. مشتبه مثل التوأم التفريق بينهما صعب، وقد يتشابها أن كلاهما عيناه زرقاوان. (وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ): نفي الإشتباه إذا قلت هذان ليسا مشتبهين قد يكونا متشابهين في أمر من الأمور. نفي التشابه لا ينفي الإشتباه ولو نفيت التشابه فقد نفيت الاشتباه لأنه ليس هناك وجه تشابه لكن لو نفيت الإشتباه لا تنفي التشابه.

قال تعالى (**وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) لينفيها من أصلها لأنه لو قال غير مشتبه يبقى التشابه موجود. أراد أن ينفيها كلها حتى يفرق بينهما تفرقة كاملة ليس هناك وجه للشبه. ولو قال وغير مشتبه قد يكون بينهما تشابه في أمر آخر. فإذن قال (وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) في الحالين حتى ينفيهما. في الأولى (**مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) هذا نفي ولو قال وغير مشتبه قد يكون هناك تشابه وهو تعالى أراد أن يبين قدرته سبحانه. نفي الإشتباه لا ينفي التشابه وإنما نفي التشابه ينفي الإشتباه. ومشتبه أدلّ على القدرة فوضعها في بيان القدرة وطلب التأمل والتدبر (**انظروا إلى ثمره**).أما الثانية في وضع المأكولات (**مُخْتَلِفَاً أُكُلُهُ**) (**كلوا**) إذن استعمل (متشابهاً وغير متشابه).

ويضيف الدكتور فاضل قوله: المُشتبِه هو الملتبس من شدة التشابه، إشتبهت عليه القِبلة أي إلتبست. المتشابه قد يكون فيه صفة متشابهة واحدة لكن لا يؤدي إلى الإلتباس ويسهل التفريق بينهما في معنى من المعاني وليس بالضرورة أن يؤدي إلى الإلتباس. أما الاشتباه لكثرة التشابه فيما بينهم يلتبس عليكم هذا الشيء. يقال إشتبه عليه الأمر أي إلتبس عليه الأمر ، هذا من حيث اللغة إشتبه وتشابه، أيها الأدلّ على قدرة الله؟ أن يجعله متشابهاً أو مشتبهاً؟ أن يجعله مشتبهاً أدل على قدرة الله تعالى فجعلها في سياق بيان قدرة الله (**انظروا إلى ثمره**). المتشابه جعلها في سياق الأكل.

النفي (**وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**): قال في الحالتين (**وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) لأنه لو قال "وغير مشتبه" قد يكون متشابهاً لأن شيئين قد يتشابهان ولكن لا يشتبهان وقد يشبه شيء شيئاً من دون إلتباس. ولو قال "وغير متشبهاً" قد يكون متشابهاً، غير ملتبس وقد يكون متشابه، إذن نفي التشابه ينفي الإشتباه والالتباس. لما يقول (وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) يعني قطعاً غير مشتبه، نفى الإثنين معاً. وإذا قال وغير مشتبه ليس بالضرورة أن ينفي التشابه هو غير ملتبس ولكن قد يكون متشابهاً والله تعالى أراد أن ينفي الإثنين. فلما قال (**وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) يعني غير أيضاً مشتبه فإذن في الحالتين قال غير متشابه فنفى التشابه في الحالتين لأنه لو قال في الأولى غير مشتبه قد يكون متشابهاً. وهذا أدلّ على قدرة الله يفعل ما يشاء.

قوله تعالى (مشتبهاً وليس متشابه) تفيد لفت النظر إلى قدرة الله تعالى وهذا يفيد اللبس والإلتباس، أما في قوله تعالى (متشابهاً وغير متشابه) فهذا للتشابه وقد وردت الآيات في الإبل عامة ولا داعي للفت النظر إلى القدرة الإلهية هنا. فنفي التشابه ينفي الإشتباه من باب أولى، والتشابه قد يكون في جزئية معينة والإشتباه هو الإلتباس لشدة التشابه.

****

(جـ) بين صيغ الأفعال:

١- (ماضي - مضارع):

نجد ذلك - على سبيل المثال - في قوله عز وجل:

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ (سَخَّرَ) لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (وَيُمْسِكُ) السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥)** ﴾ الحج.

وقوله سبحانه:

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ (أَنْزَلَ) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (فَتُصْبِحُ) الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)** ﴾ الحج. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ (أَنْزَلَ) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (فَسَلَكَهُ) يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ (يُخْرِجُ) بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ (يَهِيجُ) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ (يَجْعَلُهُ) حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١)** ﴾ الزمر (٧)

ففي كل من الآيات الثلاث عدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع (سخر - يمسك) (أنزل - فتصبح) (أنزل - ثم يخرج)، وهو عدول يفسره ما بين هاتين الصيغتين من فارق في أداء المعنى أو الدلالة على الحدث؛ إذ إن المعنى مع أولاهما - لماضوية الزمن فيها - هو أمر مقطوع بحدوثه، أما مع الثانية فهو أمر آني (أى حاضر الآن) يتجدد حدوثه بتجدد الزمن، ومن ثم فإن هذه الصيغة الأخيرة تتفرد دون الأولى - كما أشار البلاغيون - بالقدرة على إثارة المعنى واستحضار صورته لدى السامع حتى كأنه يشاهدها.

لقد سيقت الآيات للفت نظر الإنسان أو إثارة تأمله واعتباره بما تضمنته من أحداث ومشاهد كونية، فهذا اللفت هو مدلول صيغة الاستفهام التقريري التي صُدرت بها الآيات الثلاث (ألم تر ...) ، وبإنعام النظر في تلك الأحداث والمشاهد يتجلى لنا سر المخالفة بين الصيغتين في التعبير عنها:

فلقد أوثرت صيغة الماضي في (سخر لكم ما في الأرض - أنزل من السماء - فسلكه ينابيع)؛ وذلك لأن الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك

---

(٧) وأولى الألباب يعلمون أن الدنيا سريعة الزوال، فإخراج الزرع مختلفاً ألوانه ثم يهيج- بعد هذه الخضرة والألوان- ويصبح حطاماً، هو مناسب للفظ(ذكرى)(لأولى الألباب).

الأحداث في ذاتها بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها، فمتعلق الرؤية ومناط التأمل في الآية الأولى هو فعل التسخير في ذاته؛ إذ أن هذا الفعل- التسخير- لا يُرى، وإنما هو آثاره المترتبة عليه (الدالة على حدوثه)- فتصبح الأرض مخضرة-، والتي تتمثل فيما ذلَّله الخالق لعباده ويسَّره لنفعهم من مخلوقات وكائنات – .كذلك فإن متعلق الرؤية ومثار الاعتبار في الآيتين الثانية والثالثة ليس هو نزول الماء؛ إذ أن هذا النزول لا يتيسر حدوثه إلا في الحين بعد الحين، ولأنه – حين يحدث – لا يدوم دوام آثاره المترتبة عليه والتي هي متعلق الرؤية وموطن العبرة في الآيتين.

وعلى هذا الأساس ذاته كان التحول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع في الآيات الثلاث عند التعبير عن الأحداث التي هي في ذاتها (أي بصورتها وكيفية حدوثها) موطن العبرة ومناط التأمل، فصورة السماء مرفوعة بغير عمد دون أن تقع على الأرض .. وصورة النبات الذي يزهو بالخضرة والنضارة ثم يئول في النهاية إلى الاصفرار فالجفاف -في الثالثة - كل هذه الصور (التي أوثرت صيغة المضارع في التعبير عنها) هي في ذاتها مثار تأمل الإنسان المؤمن الذي يرى في الصورتين الأوليين أدلة قاطعة على قدرة الخالق عز وجل، ويرى في الصورة الثالثة تجسيداً لزوال الحياة المحتوم.

وهنا نقف على بعض الإضافات والأمثلة التالية

قَوْلِهِ تعالى: ﴿ (**وَاللَّهُ**) **الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** (**فسقناه**) ﴾ **فاطر**. وَفَائِدَتُهُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ سَوْقُ السَّحَابِ إِلَى الْبَلَدِ إِحْيَاءً لِلْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْمَطَرِ دَالًّا عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْآيَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهُ عَدَلَ عَنْ لَفْظِ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ لِأَنَّهُ أَدْخَلُ فِي الِاخْتِصَاصِ وَأَدَلُّ عَلَيْهِ وَأَفْخَمُ.

وينقل الإمام الزركشى قوله: وَفِيهِ مَعْنًى آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْأَقْوَالَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الآية منها ما أخبر به سبحانه بسببه وهو سوق السحاب فإنه يسوق الرِّيَاحِ فَتَسُوقُهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِهِ وَإِحْيَاءُ الْأَرْضِ بِهِ بِوَاسِطَةِ إِنْزَالِهِ وَسَائِرُ الْأَسْبَابِ الَّتِي

يَقْتَضِيهَا حُكْمُهُ وَعِلْمُهُ. وَعَادَتُهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَفْعَال أَنْ يُخْبِرَ بِهَا بِنُون التَّعْظِيم الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ لَهُ جُنْدًا وَخَلْقًا قَدْ سَخَّرَهُمْ فِي ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} أَيْ إِذَا قَرَأَهُ رَسُولُنَا جِبْرِيلُ.

وأما إرسال السحاب فهو سحاب يَأْذَنُ فِي إِرْسَالِهَا وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ سَبَبًا بِخِلَافِ سَوْقِ السَّحَابِ وَإِنْزَال الْمَطَرِ فَإِنَّهُ قَدْ ذكر أسبابه: ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مختلفا ألوانها**} ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ**﴾ .

وَجَعَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْهُ قَوْلَهُ: فِي سُورَةِ طه: ((**وَأَنْزَلَ**) **مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** (**فَأَخْرَجْنَا**) **بِهِ أَزْوَاجًا من نبات شتى**) : وَزَعَمَ الْجُرْجَانِيُّ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْتِفَاتًا وجعل قوله: (وأنزل من السماء ماء) آخِرَ كَلَامِ مُوسَى ثُمَّ ابْتَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى فَأَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِأَوْصَافِهِ لِمُعَالَجَتِهَا.

وَأَشَارَ الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى أَنَّ فَائِدَةَ الِالْتِفَاتِ إِلَى التَّكَلُّمِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ التَّنْبِيهُ عَلَى التَّخْصِيصِ بِالْقُدْرَةِ وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ قُدْرَةِ واحد ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْل غَيْرِهِ إِنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى حِكَايَةِ الْحَال وَاسْتِحْضَار تِلْكَ الصُّورَةِ الْبَدِيعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْقُدْرَةِ. وَكَذَا يَفْعَلُونَ لِكُلِّ فِعْلٍ فِيهِ نَوْعُ تَمْيِيزٍ وَخُصُوصِيَّةٍ بِحَال تُسْتَغْرَبُ أَوْ تُهِمُّ المخاطب وإنما قال: (فتصبح الأرض مخضرة) لِإِفَادَةِ بَقَاءِ الْمَطَرِ زَمَانًا بَعْدَ زَمَان.

ويقف الإمام الطاهر على التغيير فى صيغة الفعل من الماضى(أرسل، فسقناه، أحيينا) إلى المضارع(فتثير) فيقول: (**وَاللَّهُ الَّذِي** (**أَرْسَلَ**) **الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** (**فَسُقْنَاهُ**) **إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ** (**فَأَحْيَيْنَا**) **بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ** (**النُّشُورُ**) (**٩**)) **فاطر**.

وَإِذْ قَدْ كَانَ الْقَصْدُ مِنَ الِاسْتِدْلَال هُوَ وُقُوعُ الْإِحْيَاءِ وَتَقَرُّرُ وُقُوعِهِ جِيءَ بِفعل الْمَاضِي فِي قَوْلِهِ: أَرْسَلَ. وَأَمَّا تَغْيِيرُهُ إِلَى الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: فَتُثِيرُ سَحاباً **فَلِحِكَايَةِ الْحَالِ الْعَجِيبَةِ** الَّتِي تَقَعُ فِيهَا إِثَارَةُ الرِّيَاحِ السَّحَابَ،(أى يصور لنا كيف تحمل الرياح هذه السحاب الثقال) وَهِيَ طَرِيقَةٌ لِلْبُلَغَاءِ فِي الْفِعْل الَّذِي فِيهِ خُصُوصِيَّة

بِحَالٍ تُسْتَغْرَبُ وَتَهُمُّ السَّامِعَ- فيأتى بها على صيغة الفعل المضارع الذى يفيد استحضار المشهد وتصويره أمام الأعين. وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا:

بأَنِّي قَدْ (لَقِيتُ) الْغُولَ تَهْوِي... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
(فَأَضْرِبُهَا) بلَا دَهَشٍ (فَخرَّتْ) ... صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

فَابْتَدَأَ بِ (لَقِيتُ) لِإِفَادَةِ وُقُوعِ ذَلِكَ ثُمَّ ثَنَّى بِ (أَضْرِبُهَا) – بصيغة الفعل المضارع بدل من الماضى حيث لم يقل"فضربتها"- لِاسْتِحْضَار تِلْكَ الصُّورَةِ الْعَجِيبَةِ(الضرب) مِنْ إِقْدَامِهِ وَثَبَاتِهِ حَتَّى كَأَنَّهُمْ يبْصِرُونَهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ.

وَلَمْ يُؤْتَ بِفِعْلِ الْإِرْسَالِ (أرسل) فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الرُّومِ [٤٨] (**اللَّهُ الَّذِي (يُرْسِلُ) الرِّيَاحَ**...)الْآيَةَ لِأَنَّ الْقَصْدَ هُنَا-(**اللَّهُ الَّذِي (أرسل)**) **فاطر** - اسْتِدْلَالٌ بِمَا هُوَ (وَاقِعٌ) إِظْهَارًا لِإِمْكَانِ نَظِيرِهِ- أى حدوث مثله(إحياء الموتى يوم القيامة)مرة أخرى-،

وَأَمَّا آيَةُ سُورَةِ الرُّوم ﴿ (**اللَّهُ الَّذِي (يُرْسِلُ) الرِّيَاحَ (فَتُثِيرُ) سَحَابًا (فَيَبْسُطُهُ) فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ (وَيَجْعَلُهُ) كِسَفًا (فَتَرَى) الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** (٤٨)﴾ – فهو لم يذكر هذا الحدث(سوق السحاب فى الدنيا)كحدث انتهى ليدلل به على حدوث مثله فى يوم القيامة(إحياء الموتى) بل هو هنا يقصد استمرار مشهد السحاب ووصفه ووصف حال القوم به فى مشهد متواصل ومتجدد حيث قال فى نهايتها (**إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**) وهو معنى قول الإمام: فَالْمَقْصُودُ مِنْهَا الِاسْتِدْلَالُ عَلَى (تَجْدِيدِ) صُنْعِ اللَّهِ وَنِعَمِهِ. ولذلك لم يقل(**كَذَلِكَ النُّشُورُ** الذى يكون يوم القيامة الذى قال فيه الإمام: إنه اسْتِدْلَالٌ بِمَا هُوَ (وَاقِعٌ) إِظْهَارًا لِإِمْكَانِ نَظِيرِهِ (أى النشر يوم القيامة)...

وأرى- أنا الكاتب-أن سورة فاطر جاءت جميعها على صيغة اسم الفاعل الذى يفيد الماضى أيضاً(**الْحَمْدُ لِلَّهِ** ((**فَاطِرِ**)) **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ((**جَاعِلِ**)) **الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا**) وهذا واضح من صيغة اسم السورة(فاطر).. فجاءت السياقات على هذا

النظم ﴿ **(وَاللَّهُ الَّذِي (أَرْسَلَ) الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (فَسُقْنَاهُ) إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ (فَأَحْيَيْنَا) بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ (النُّشُورُ) (٩)** ﴾ فاطر.

أما النص- فى سورة الروم- فقد ورد فيه الفعل المضارع (يرسل) استحضاراً لصور ومشاهد أخرى خاصة بهذا الإرسال تحتاج للاستحضار **(فَيَبْسُطُهُ) فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ (وَيَجْعَلُهُ) كِسَفًا (فَتَرَى) الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**.. وكلها مشاهد يطلب استحضارها لنفس الوصف وخاصة بكيفية إرسال السحاب المساق وتخيله، أما حينما انقطع الوصف وأتى لمشهد حكاية حال أخرى تحتاج لصيغة التوكيد – أتى بصيغة الفعل الماضى- فقال: **فَإِذَا (أَصَابَ) بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ (يَسْتَبْشِرُونَ) (٤٨)** وجاء بصيغة المضارع (يَسْتَبْشِرُونَ) لاستحضار صورة هذا الاستبشار والفرح وهو أمر يستحق الاستحضار وبقاء صورته فى الأذهان

ومثلها قوله تعالى: ﴿ **(وَهُوَ الَّذِي (يُرْسِلُ) الرِّيَاحَ (بُشْرًا) بَيْنَ يَدَيْ (رَحْمَتِهِ) حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ (فَأَخْرَجْنَا) بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ (نُخْرِجُ) الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)** ﴾.

ونلاحظ أيضاً أنه هنا يستمر فى وصف السحاب كحالة متجددة مع إبراز صورة الرحمة فى إرسالها- التى تفيد التجدد للنعم-(يرسل.. بشرا)- وكأنه يقول: إنَّ نِعَمى مترادفة ومتجددة، أما المحن والابتلاءات والعذابات فهى غير ذلك بل تأتى نادرة وغير متجددة، وكذلك أدلة القدرة تأتى على الماضى).

ونلاحظ أنه هنا يتحدث عن صورة (إخراج) الموتى- الذى ربطه مع إخراج كل الثمرات- وفى السورة الأخرى التى تحكى عن بسط السحاب فى السماء ويجعله كسفاً منتشرة يتحدث عن (النشر والنشور)-**(فَأَحْيَيْنَا) بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ (النُّشُورُ) (٩)) فاطر**- وهو تناسق مقصود نراه متكرراً فى هذا النظم المعجز؛ فالإخراج ربما يكون مرة واحدة فى مكان واحد فيناسبه صيغة الماضى التى لا تفيد التكرير**(فَأَخْرَجْنَا) بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ (نُخْرِجُ) الْمَوْتَى)** التى لا تفيد التجدد، أما النشر والنشور فيناسب تفرق الحدث وتكراره وهو ما يلائم صورة الفعل المضارع الذى يفيد التجدد والحدوث إضافة إلى تجدد النعم وترادفها فى السياق.

ومثلها قوله تعالى:

﴿ ((وَهُوَ)) الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ((لِنُحْيِيَ)) بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ((وَنُسْقِيَهُ)) مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾ الفرقان

وكان حقه فى غير النظم القرآنى أن يقول ((ليحيى)) ((ويسقيه)) ولكن لأنها مشاهد تستدعى الاستحضار أمام الأعين جاء بها على صيغة الحضور وبالفعل المضارع ((**لِنُحْيِيَ**)) ((**وَنُسْقِيَهُ**)). كما فِي قَوْلِهِ: (**فَسُقْنَاهُ**) بَعْدَ قَوْلِهِ:(**اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ**) أى التفات مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ ومن الجمع بعد الإفراد.

(وأقول : كلها جاءت بصيغة المضارع الذى يفيد التجدد لهذه النعم وترادفها).

﴿ (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩)﴾ فاطر.

ومثل هذا يقال فى المثال التالى:

﴿ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ (اللَّهَ) ((أَنْزَلَ)) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (فَأَخْرَجْنَا) بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)﴾ فاطر.

﴿ ((وَهُوَ)) الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ((لِنُحْيِيَ)) بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ((وَنُسْقِيَهُ)) مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾ الفرقان

وأقول : إن الذى يريد التركيز عليه وإبرازه واستحضاره أمام الأعين هو الذى يأتى بصيغة المضارع، وبالجمع للتوكيد.

ولتوضيح ذلك نود أن نلاحظ ما يلي:

أن فعل الإنزال قد ذكر في آية الفرقان بوصفه مُسَبَّباً عن إرسال الرياح- حيث ذكر قبلها إرسال الرياح لتسوق السحاب ، فالرياح هنا هى السبب-، أما في تلك الآيات – فاطر- فقد ذكر(السحاب) بوصفه سبباً للأحداث التالية له فيها.فلم يذكر الرياح بل قال ((وَهُوَ) الَّذِي (أَنْزَلَ) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (**فَأَخْرَجْنَا**) **بِهِ**) دون ذكر الرياح

التى تثير السحب، بخلاف آية الفرقان التى ذكر فيها السبب(الرياح) (**وَهُوَ الَّذِي** (**أَرْسَلَ**) **الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** (**وَأَنْزَلْنَا**) **مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا** (٤٨)) (الفرقان). (ومعنى ذلك أنه إذا ذكر سبب الإنزال (أرسل الرياح) يقول(وأنزلنا)- أى أن المنزل هو (الله) وليس ما ذكر من (الرياح) فإنها سبب فقط، وربما يعتمد الذهن على السبب وينسى المسبب- وهو الله تعالى- فجاءت صيغة التوكيد هنا بالالتفات لصيغة الجمع والحضور فقال (**وَأَنْزَلْنَا**).. وهذا يذكرنا بقول بعض الصحابة: إن أحدكم ليشرك بالله حتى فى كلبه؛ يقول: لولا الكلب لسُرِقت الدار.. واعتبر هذا الصحابى أن هذا نوع من الإشراك حيث التفت إلى السبب وهو (الكلب) ونسى ذكر الله تعالى وهو المسبب(٨) ،وأما حينما لم يذكر السبب(الرياح) فلا داعى لهذا الاحتراس والتوكيد فقال (أَنْزَلَ)ولم يقل(فأنزلنا).

ونضيف قولاً للدكتور حسن طبل يقول فيه:

بينما ورد هذا الفعل (وَأَنْزَلْنَا**) في آية الفرقان ملتفتاً إليه (وَأَنْزَلْنَا) مِنَ السَّمَاءِ) ، ورد في تلك الآيات ملتفتاً عنه ((**وَهُوَ الَّذِي** (**أَنْزَلَ**) **مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**).

كان موطن العبرة في آية الفرقان(**وَأَنْزَلْنَا**) – كما رأينا – **هو الجانب (المحسوس)** في الماء النازل من السماء،(**ماءً طَهُورًا** (٤٨) (**لِنُحْيِيَ**) **بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا** (**وَنُسْقِيَهُ**) **مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**....) فاستحق مشهد الحضور.

(.. أما في تلك الآيات فإن العبرة لا تتعلق بالماء في ذاته، بل بما يترتب عليه من إحياء الأرض أو إخراج النبات فقال(**فأخرجنا**)، (**وَهُوَ الَّذِي** (**أَنْزَلَ**) **مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** (**فَأَخْرَجْنَا**) **بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ** (**فَأَخْرَجْنَا**) **مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ**..) أو لنقل: إن الماء المراد في تلك الآيات التي أسند فيها فعل إنزاله إلى ضمير الغيبة(**أَنْزَلَ**) ليس هو الماء المرئي المحسوس الذي نطالع نزوله

---

(٨)وقد ذكر ذلك فى تفسير آية مذكره بموقف مشابه فى قوله تعالى(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) يقولون: لولا سكنت الريح لهلكنا أو لولا قوة المركب لهلكنا

من السماء (وتسقاه الأنعام والأناسي)، بل هو الماء الذي تسرب في باطن الأرض، وسلكه الخالق عز وجل فيها ينابيع- **فالمشهد الغيبى أو الذى لا يُراد إبرازه واستحضاره فإنه يأتى له بصيغة الغيبة**-فقال: ﴿ **(جَعَلَ) لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (وَأَنْزَلَ) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (فَأَخْرَجْنَا) بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)**﴾ [طه]. فأصبح (الماء) سبباً (خفياً) لإمدادها -أى الأرض- بأسباب الحياة الماثلة في خضرة النبت ونضارة الثمار.

****

****وقفة أخرى مع ما سبق**

وذهب باحث معاصر إلى أن سبب العدول في الآية الكريمة **هو إحداث اليقظة** "**عند هذا المقطع المهم من مقاطع المعنى**؛ ((وأقول أيضاً: هذا من فوائد الالتفات الذى يدندن حوله كثيرٌ من أئمة اللغة ولكن يُبحث معه على سبب الالتفات هذا الذى يفتش عنه ويستمتع به البلغاء)) ويقول: لأن سوق السحاب إلى الأرض الميتة فتحيا ضرب من قسمة الأرزاق فناسب أن ينتقل الإسناد إلى ضمير ذي الجلالة(فى أمر قسمة الأرزاق)((وأرى أن تقسيم الأرزاق هو أيضاً من باب تعداد النعم الذى سنلاحظ أنه يأتى له بصيغة الجمع والمخاطبة المناسبة لذلك)) ..

ثم يقول: الالتفات هنا يشير إلى أن الله سبحانه يسوق السحاب بذاته العلية، ويقسمه رحمة ورزقاً بيديه ولا يدع ذلك لأحد من خلقه".

والواقع- كما يرى الدكتور حسن طبل- أن الآراء الثلاثة – فيما نحسب – لا تفسر العدول في الآية الكريمة بقدر ما تثير التساؤل عنه من جديد، فمما لا مراء فيه أن سوق السحب هو أحد الظواهر الكونية الدالة على قدرة الخالق، وأن لتوجيه تلك السحب إلى بقعة من الأرض دون أخرى أثره الفعال في قسمة الأرزاق، وأن هذا السوق هو مما اختص به الخالق – سبحانه – دون المخلوقين، ولكنا نسأل: ألا يتصف إرسال الرياح (وهي مثيرة السحب ووسيلة سوقها) بكل تلك الأوصاف أيضاً؟ فما وجه المخالفة بينها وفي الإسناد إذن؟

وإذا سلمنا مع الزركشي بأن الفرق بين فعل الإرسال وفعل السوق هو أن أولهما لم تذكر أسباب – إذا سلمنا بذلك فسيظل التساؤل وارداً عن السبب في إسناد الفعل ذي الأسباب إلى ضمير المتكلم، والمجرد منها إلى ضمير الغيبة، مع أن فاعل الفعلين هو الخالق عز وجل؟

إن الذي نطمئن إليه في تفسير هذا العدول هو ما سبق أن لاحظناه من قبل من ارتداده في هذه الصورة (تكلم – غيبة – أو العكس) **إلى المغايرة بين المحسوس وغير المحسوس من الأحداث أو الظواهر**؛ فنحن لا نرى فعل إرسال الرياح ولا نرى كيف تثير الرياح السحب، وإنما نرى السحب ذاتها مسوقة، والأرض حية تكسوها الخضرة ويزينها النبات بعد أن كانت مواتاً جامدة (وهو الأثر الظاهر المرئى)، ومن ثم كان التعبير عن الإرسال بطريق الغيبة(الله..أرسل)، وعن السوق والإحياء بطريق التكلم أو الحضور(فسقناه.. فأنزلنا....فأحيينا).

ففي ضوء ذلك التفسير تتجلى القيمة التعبيرية لهذا العدول في الآية التي بين أيدينا الآن، وفي الآية الأخرى التي تلفت مثلها إلى تلك الظواهر الكونية المتعاقبة وهي قوله سبحانه:

﴿ (وَهُوَ الَّذِي (يُرْسِلُ) الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا (سُقْنَاهُ) لِبَلَدٍ مَيِّتٍ (فَأَنْزَلْنَا) بِهِ الْمَاءَ (فَأَخْرَجْنَا) بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ (نُخْرِجُ) الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) ﴾ الأعراف.

فالآيتان مسوقتان لإثبات حقيقة البعث، تلك التي أنكرها الملحدون وجادل فيها المجادلون استبعاداً لصيرورة الشيء إلى نقيضه، وتحول العظام التي رمّت وبليت بعد أن فارقتها الحياة إلى أجسام نابضة بالحياة(٩). ومن ثم كان تشبيه البعث في الآيتين بتلك الظواهر التي تبدأ بإرسال الرياح وتنتهي بإحياء الأرض والتي بدأ التعبير عنها بطريق الغيبة ثم تحول إلى طريق التكلم؛ إذ في هذا وذاك تأكيد لإثبات حقيقة البعث، ودحض لإنكار منكريه – **فإذا كانت تلك الظواهر التي يتولد**

---

(٩) ولذلك جاء اللفظ بصيغة الحضور والجمع(كَذَلِكَ (نُخْرِجُ) الْمَوْتَى).. ولم يقل(كذلك يخرج الموتى)).

فيها المحسوس من غير المحسوس، وتتدفق بها الحياة من الموات – لا سبيل إلى إنكارها أو الجدل في إسناد القدرة عليها إلى بارئ الكون ومبدع الحياة فكذلك النشور.(١٠)،

ولنتأمل كذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿ (وَهُوَ الَّذِي (أَرْسَلَ) الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ (**وَأَنْزَلْنَا**) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) (**لِنُحْيِيَ**) بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا (**وَنُسْقِيَهُ**) مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (**٤٩**)﴾ (الفرقان).

ففي الآية الأولى عدول عن ضمير الغيبة في "أرسل الرياح" إلى ضمير التكلم في (وأنزلنا من السماء ماء)، والسر في ذلك – والله أعلم – **أن الجانب المحسوس** في نعمة (إنزال) الماء هو مناط اللفت ومدار العبرة في هذا الموطن، ومما يؤيد ذلك في الآيتين:

١– وصف الماء في الأولى بكونه (طهوراً) فمعلوم أن طهارة الماء هي صفة محسوسة فيه يستدل على عكسها برؤية لونه أو تذوق طعمه أو شم رائحته.
٢– وصف الأنعام والأناسي في الآية الثانية بكونهم (كثيراً)؛ إذ من المعلوم أن جميع الناس والأنعام – لا أكثرهم – يسقون الماء – ومغزى ذلك أن المراد في الآية هم

---

(١٠) ولذلك تغير النظم من الغيبية إلى الشهود والحضور. بخلاف السياقات التالية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)).
(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤).. فهاتان الآيتان مسوقتان لإبراز النعم وليست لإحياء الموتى ولذلك ظلت على حال واحد(الله .. أخرج)، أما آيات إخراج الموتى والبعث فهى (إظهار) لما هو (غيب) ولذلك وردت على السياقين(الحضور والغيبة).(وهو الذى .. أخرجنا)

تلك الطوائف التي حرمت نعمة الماء في الأرض فعاشت حياتها على هذا الماء النازل من السماء(١١)، تترقبه في تطلع، وتتأمل مشهد نزوله في لهفة.

ولعلنا – بناء على ذلك – نستطيع إدراك السر في إسناد فعل الإنزال إلى ضمير الغيبة في قوله تبارك وتعالى:

﴿ (وَالَّذِي (نَزَّلَ) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ (فَأَنْشَرْنَا) بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) ﴾ (الزخرف) – أو في قوله ﴿ ((وَهُوَ الَّذِي (أَنْزَلَ) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (فَأَخْرَجْنَا) بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ (فَأَخْرَجْنَا) مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ (انْظُرُوا) إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي (ذَلِكُمْ) لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام]

أو في قوله ﴿ (الَّذِي) (جَعَلَ) لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (وَأَنْزَلَ) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (فَأَخْرَجْنَا) بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) ﴾ [طه]

أو في قوله: ﴿ (أَمَّنْ (خَلَقَ) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (وَأَنْزَلَ) لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (فَأَنْبَتْنَا) بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ (مَعَ اللَّهِ) بَلْ (هُمْ) قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل].

ومن مواطن تلك الصورة أيضاً قوله عز وجل:

﴿ (وَجَعَلْنَا) فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) (وَجَعَلْنَا) السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) (وَهُوَ) الَّذِي (خَلَقَ) اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء].

فيسأل عن

الأولى: عن(وَجَعَلْنَا) (حضور وجمع).. ثم (وَهُوَ) الَّذِي (خَلَقَ) - مفرد وغيبة -؟

---

(١١) وليست من الماء الخارج من ينابيع الأرض.

الثاني: لماذ(الجعل) فى الأولى و(خلق) فى الثانية؟

((الجعل هو تحول شيء إلى شيء،أو تولد شيء من شيء، بخلاف خلقنا التى تعنى إنشاء الشيء بداية، (فخلق الشمس والقمر يسمى خلقاً.. أما إظهار النور والليل والنهار المتولدة منهما فهو(جعل الظلمات والنور)) وعلى هذا نلاحظ أن هذه الصفات المذكورة مع(جعلنا) فيها أشياء ظاهرة ومتحولة–مثل الجبال الرواسى والطرق الفجاج الواسعة والوعرة وظهور السماء سقفاً فوقنا لاتقع على الأرض– وما ذكرناه هو تفسير لقوله تعالى فى مقدمة سورة الأنعام (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي** (**خَلَقَ**) **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** (**وَجَعَلَ**) **الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ..(١)) وهذه الأشياء الظاهرة والمجعولة ناسبها فعل (الجعل) و(الظهور والحضور) المتمثل فى وجود ضمير المتكلم الظاهر– وليس الغيبة– فى قوله((وجعلنا))– بخلاف قوله تعالى: (**وَهُوَ**) **الَّذِي** (**خَلَقَ**) **اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**– الذى يتحدث عن كيفية خلق الليل والنهار والشمس والقمر وهى غيبية وتحتاج للعقل ووسائل العلم والتدبر، وكذلك سباحة الشمس والقمر(كل فى فلك يسبحون) لا يعلم كنهها وحقيقتها بأمر ظاهر، بل هو أمر يستنبط بالعقل والعلم ، وهو أمر غيبى فاختار له صفة الغيبة ((وهو) الذى (خلق)..)، وهو كذلك خلقٌ أَوَّلِى وليس (جعل) فاختار له صفة الخلق، وأيضاً بصفة المفرد الغائب؛ فقال (هو) الذى (خلق).

وفي قوله تبارك وتعالى ﴿ ((**وَجَعَلْنَا**) **اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا** (١٢)﴾ **[الإسراء]** فهذه كلها صفات لتحول شيء من شيء وترتب شيء على شيء فناسبها الجعل، وناسب الظهور الإتيان بضمير المخاطب الظاهر(وجعلنا) .

أو قوله ﴿ (**هُوَ الَّذِي** (**جَعَلَ**) **الشَّمْسَ** (ضِيَاءً) **وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٥) ﴾ [يونس: ٥] – فعلم السنين والحساب مترتب على حركة القمر وتقديره

منازل، وكذلك هو يتحدث عن (جعل) الشمس ضياءً- وهو تحول وجعل- ولا يتحدث عن مجرد خلقها.

وكذلك قوله: ﴿ (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ نوح – **أو قوله:** ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١)**﴾ الفرقان.

ويقول الدكتور حسن طبل: نستطيع القول إذن: إن العدول عن فعل (الجعل) إلى فعل الخلق في آيات الأنبياء يرجع إلى المخالفة بين اللفت إلى الشكل المحسوس الذي يبده الحس المستبصر (جعلنا) في الآيتين الأوليين، واللفت إلى ما يمكن خلف هذا الشكل من حكم وأسرار في الآية الثالثة(يونس ٥)، وبناء على ذلك نستطيع القول بأن نكتة العدول عن ضمير التكلم في "جعلنا" إلى ضمير الغيبة في "خلق" هي ملاءمة طريق التكلم (وهو قرين الحضور والمشاهدة) لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين، **وملاءمة طريقة الغيبة (وهو قرين التواري والخفاء) لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة**، وبهذه الملاءمة وتلك تؤدي المخالفة بين الضميرين دورها في هذا السياق الذي يلفت الأبصار ويستثير البصائر والعقول إلى تأمل تلكم المشاهد الكونية الدالة على قدرته سبحانه وعلى أنه – جل شأنه – هو الظاهر والباطن.

ونود أن نبادر بالإشارة إلى أن هذا الذي نلاحظه في آيات الأنبياء من ارتداد المخالفة بين ضميري الخطاب والغيبة فيها إلى **المخالفة بين (المشاهد المحسوس) و(الخفي غير المحسوس)** – يقدم فيما نحس (والله أعلم) تفسيراً يكاد يكون مطروداً للعدول عن كل منهما إلى الآخر في غير هذا الموطن: لنتأمل – على سبيل المثال – قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ **(ثُمَّ اسْتَوَى**- هو- **إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ**- هو- **لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ** - هو- **سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي**

يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى- هو- **فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا**- نحن- **السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** - هو- **(١٢)**﴾ فصلت.

ففي إسناد الفعل (وزينا) إلى ضمير المتكلم سبحانه عدول عن إسناده إلى ضمير الغيبة الذي أسندت إليه الأفعال السابقة عليه (استوى – قال – فقضى – أوحى). وقد ذكر البلاغيون في تفسير هذا العدول آراء منها:

أن طائفة من الناس غير المتشرعين يعتقدون أن النجوم ليست في السماء الدنيا، وأنها ليست حفظاً ولا رجوماً، فلما صار الكلام إلى ههنا عدل به عن خطاب الغائب إلى خطاب النفس؛ لأنه مهم من مهمات الاعتقاد وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة بطلانه.

أن الأفعال المذكورة في هذا السياق نوعان: أحدهما: وجه الإخبار عنه بوقوعه في الأيام المذكورة، وهو خلق الأرض في يومين، وجعل الرواسي من فوقها((فقد خلقت الأرض أولاً، ثم حدث لها تحول- وجعل- الجبال من فوقها)) .. ثم الإخبار بأنه استوى إلى السماء فأتى في هذا النوع بضمير الغائب عطفاً على أول الكلام في قوله: ﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (٩)﴾ **فصلت**، والثاني قصد به الإخبار مطلقاً من غير قصد مدة خلقه، وهو تزيين السماء الدنيا بمصابيح، وجعلها حفظاً فإنه لم يقصد بيان مدة ذلك بخلاف ما قبله، فإن النوع الأول يتضمن إيجاداً لهذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة اليسيرة، وذلك من أعظم آثار قدرته، وأما تزيين السماء الدنيا بالمصابيح فليس المقصود به الإخبار عن مدة خلق النجوم فالتفت من الغيبة(١٢)-إلى التكلم فقال: "وزَيَّنَّا" .. إلى غير ذلك من الآراء التي نؤثر عليها ما لاحظناه من قبل من ارتداد العدول في تلك الصورة (تكلم – غيبة) إلى المغايرة بين المحسوس وغير المحسوس، أو المشاهد وغير

---

(١٢) التى فيها الحديث عن مدة الخلق والتسوية وهى أمور غيبية لا يعلمها إلا هو فاستخدم لها ضمير الغيبة

المشاهد؛ فالأفعال في الآيتين مسندة كلها إلى الخالق عز وجل، غير أن الأفعال السابقة على فعل الزينة (استوى – قال – أوحى) .. هي أفعال غيبية حدثت في الأزل البعيد ولا سبيل إلى الإقرار بنسبتها إليه سبحانه إلا صدور الإخبار عنها منه تبارك وتعالى – أما فعل الزينة فإنه بآثاره المشاهدة وعجائبه المرئية في صفحة السماء ماثل للحس جلي للعيان، لا يماري في نسبته إلى الخالق عز وجل إلا مكابر لجوج، ومن ثم فإن في العدول في إسناد هذا الفعل عن الغيبة إلى التكلم حفزاً للهمم ولفتاً للأنظار إلى تأمل آثاره، والتفطن لعجائب صنع الله فيها؛ إذ أن هذا التأمل هو طريق الاقتناع المطمئن، والتسليم بنسبة الأفعال المذكورة كلها – لا فعل الزينة وحده – إلى الخالق عز وجل قياساً للغائب منها على الحاضر، والخفي المستور على المحسوس المشاهد.

وينقل الإمام الزركشى لنا ملخص أقوال العلماء ومنها:عَدَلَ عَنِ الْغَيْبَةِ فِي (**قَضَاهُنَّ**) وَ(**سَوَّاهُنَّ**) إلى التكلم في قوله: (**وزينا**)، فَقِيلَ لِلِاهْتِمَامِ بِذَلِكَ وَالْإِخْبَارِ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ جَعَلَ الْكَوْكَبَ زِينَةَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَحِفْظًا تَكْذِيبًا لِمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: لَمَّا كَانَتِ الْأَفْعَالُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَوْعَيْنِ:–

أَحَدُهُمَا: وَجْهُ الْإِخْبَارِ عَنْهُ بِوُقُوعِهِ فِي الْأَيَّامِ الْمَذْكُورَةِ وَهُوَ خَلْقُ الْأَرْضِ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعْلُ الرَّوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَإِلْقَاءُ الْبَرَكَةِ فِيهَا وَتَقْدِيرُ الْأَقْوَاتِ فِي تَمَامِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَأَنَّهُ أَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا سَبْعًا فِي يَوْمَيْنِ فَأَتَى فِي هَذَا النَّوْعِ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ عَطْفًا عَلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ: {**قُلْ أإنكم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رواسي**} إلى قوله: {**فقضاهن سبع سماوات**} الْآيَةَ.(فذكر هذه المدة وكل هذه المذكورات هى فى عالم الغيب لم يطلع عليها أو يشاهدها أحد فناسبها الخطاب بصيغة الغيبة، بخلاف المذكورات فى البند التالى – من تزيين السماء– فهى حالات ظهور يناسبها ضمير الحاضر)

وَالثَّانِي: قُصِدَ بِهِ الْإِخْبَارُ مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ قَصْدِ مُدَّةِ خَلْقِهِ وَهُوَ تَزْيِينُ سَمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعْلُهَا حِفْظًا فَإِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بَيَانَ مُدَّةِ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا قَبْلَهُ فَإِنَّ نَوْعَ الْأَوَّلِ يَتَضَمَّنُ إِيجَادًا لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ آثَارِ قُدْرَتِهِ. وَأَمَّا تَزْيِينُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِالْمَصَابِيحِ فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِ الْإِخْبَارَ عَنْ مُدَّةِ

خَلْقِ النُّجُومِ فَالْتَفَتَ مِنَ الْغَيْبَةِ إلى التكلم فقال: {زينا}. وهذا الرأى قريب مما ذكره الدكتور حسن طبل (إذن التفت – من غيبة إلى خطاب وحضور- لتغير موضوع الحديث من غيب إلى ظهور، أو من حديث عن مدة وقدرة لا يعلمها إلا الله إلى حديث عن تزيين السماء والظهور ، وكان هذا التناسب الجميل والمبهر وهو الجلال والجمال الذى عودنا عليه القرآن الكريم).

****

٢- (مضارع - ماضي) :

من ذلك ما يتمثل في قوله سبحانه:

﴿ **(إِنْ (يَثْقَفُوكُمْ) يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً (وَيَبْسُطُوا) إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ (وَوَدُّوا) لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)** ﴾ الممتحنة.

ففي الآية الكريمة عدول عن صيغة المضارع الواقعة جواباً للشرط "يكونوا ويبسطوا" إلى صيغة الماضي المعطوفة عليها "وودوا" يقول الزمخشري في بيانه لنكتة هذا العدول:

".... الماضي وإن كان يجري في جواب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة كأنه قيل: (وودوا) (قبل كل شيء) كفركم وارتدادكم ، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض، وردِّكم كفاراً، وردُّكم كفاراً -(**وَوَدُّوا) لَوْ تَكْفُرُونَ**- أسبق المضار عندهم لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذّالون لها دونهن، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه".(١٣)

وإذا كان الزمخشري قد ركز في تفسيره للمخالفة بين هاتين الصيغتين على عنصر (الزمن) وكونه في صيغة الماضي أسبق منه في صيغة المضارع فإن أبا يعقوب السكاكي قد ركز على طبيعة المعنى أو (الحدث) وكونه **مع أولى الصيغتين أمراً**

---

(١٣) وأقول: هذا مثال قوله تعالى(وَيَوْمَ (نُسَيِّرُ) الْجِبَالَ (وَتَرَى) الْأَرْضَ بَارِزَةً (وَحَشَرْنَاهُمْ) فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧)) الذى عشناه على الصفحات الماضية.

مؤكداً محقق الوقوع بخلافه مع الثانية، فهو يسوق الآية الكريمة ثم يقول: "... ترك (يودوا) إلى لفظ الماضي(وودوا)؛ إذ لم تكن تحتمل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم – إن يثقفوهم يكونوا أعداء لهم، وباسطي الأيدي والألسنة إليهم للقتل والشتم".((أى أن ودادتهم كفرنا أمرٌ يقينى ليس فيه شك، فجاء على صيغة الماضى التى تفيد تحقق الوقوع، أما كونهم أعداء لنا إن ثقفونا وبسطهم الألسنة علينا بالسوء فهو شيء متغير فى الشدة والتكرار وليس بهذه الدرجة اليقينية لديهم بالنسبة للحالة الأولى)

ولعل من المناسب في هذا المقام أن نلاحظ أن التعبير عن معنى الودادة بصيغة الماضي في تلك الآية قد جاء مخالفاً – من زاوية أخرى – للتعبير عنه في الآية التي سبقتها، وهي قوله عز وجل:

﴿ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ (تُلْقُونَ) إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ (كَفَرُوا) (١٤) **بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ (يُخْرِجُونَ) الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي (تُسِرُّونَ) إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) ﴾ الممتحنة.**

لقد سيقت الآيتان لنهي المؤمنين عن موالاة الكفار وودادتهم واطلاعهم على حقيقة ما يكنه هؤلاء الكفار لهم من حقد وعداوة، وما يودونه لهم من خسران وضلال، ولعلنا نلاحظ أن التعبير عن **ودادة المؤمنين للكفار** – في الآية الأولى – قد أوثر فيه تعليق المصدر **"مودة"** بصيغة المضارع مرتين: **(تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)**، **((تُسِرُّونَ) إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ)–** أما التعبير عما **يوده الكفار للمؤمنين** فقد أوثرت به **صيغة الماضي "وودوا"**(١٥) وفي هذا وذاك – والله أعلم – إبراز للمفارقة أو البون

---

(١٤) وراجع توضيحنا على الصفحات الماضية عن ورود الكفر بصيغة الماضى و(يصدون) بصيغة المضارع(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥).

(١٥) التى تفيد تحقيق وقوع هذا الأمر .

الشاسع بين ما يحرص عليه بعض المؤمنين من موالاة الكفار سذاجة وغفلة، وما يضمره هؤلاء الكفار لهم من ضغينة وحسد،(وهذا من جانب المؤمنين ليس له صفة الدوام والثبوت -التى يعبر عنها صورة الماضى- ولذلك جاءت بصيغة المضارع، وأقول إن المؤمن يتعامل بما يمليه عليه دينه من أن يسالم من يسالمه ويعادى من يعاديه فالأمر عنده متغير(فجاء بصيغة المضارعة)، أما الكافر فهو على حالة واحدة من العداء القلبى للمؤمن(فجاء التعبير عنها بصيغة الماضى)) وفي هذا بيان منه سبحانه لهؤلاء الموالين: إن ودادتكم التي تتجدد لهؤلاء الكفار ظاهرة حيناً وباطنة حيناً آخر – صفة الفعل المضارع- لن يكون لها صدى يذكر في قلوبهم المجبولة على عداوتكم- صفة الفعل الماضى-، المفطورة على كراهيتكم وحسدكم على نعمة الإسلام التي هي أسمى ما تنعمون به دونهم.((وكأنه يريد أن يقول:أنتم أيها المؤمنون (تكررون) مودتهم بين الحين والآخر، وخاصة فى حالة مسالمتهم لكم وعدم حربهم لكم، أما هم فمودتهم كفركم هى دائمة لاتنقطع))

وهنا وقفة مع أقوال العلماء وأئمة التفسير

﴿ **وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا** (**بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**) **إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي** (**سَبِيلِي**) **وَابْتِغَاءَ** (**مَرْضَاتِي**) **تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ** .. (١)..﴾ وكان حقها: وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا (بِاللَّهِ رَبِّكُمْ) إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي (سَبِيلِه) وَابْتِغَاءَ (مَرْضَاتِه) تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ (وهو) **أَعْلَمُ**

{**يُخْرِجُونَ الرسول وإياكم**} أي منْ مكةَ ..وصيغةُ المضارعِ لاستحضارِ الصُّورَةِ، وقولِهِ تعالى {**أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبّكُمْ**} تعليل للإخراج- أى يخرجوكم لأنكم تؤمنون وتجددون الإيمان وتصرون عليه وهو ماتفيده صيغة المضارع (تؤمنوا)- ويقول الطاهر: فيه تغليب المخاطبِ على الغائبِ والتفاتٌ منَ التكلمِ إلى الغَيبة للإشعارِ بما يوجبُ الإيمانَ من الأُلوهيةِ والرُّبوبيةِ

والله عز وجل يصف المؤمنين بأنهم يكرروا مودة الكافرين، فكلما آذوهم جددوا لهم مودة من باب (ادفع بالتى هى أحسن) وهو حالهم المتكرر ولذلك جاء

النظم على صيغة الفعل المضارع (**تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**) وفى المقابل هم (ثابتون) على الكفر (لا يتغيرون) وهو ما أفادته صيغة الماضى فى قوله تعالى عنهم (**وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ**) فكفرهم ثابت ولكن إيذاءهم للنبى والمؤمنين متجدد فقال(**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**) والسبب هو أنكم تجددون الإيمان بعد كل إيذاءٍ منهم وأن سبب الإيذاء هو (**أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**).

ويقول الإمام الطاهر: لِأَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ، أَيْ هُوَ اعْتِدَاءٌ حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ أَنَّكُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ. وَأَنَّ ذَلِكَ لَا عُذْرَ لَهُمْ فِيهِ لِأَنَّ إِيمَانَكُمْ لَا يَضِيرُهُمْ. وَلِذَلِكَ أُجْرِيَ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ وَصْفُ رَبِّكُمْ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ثُمَّ قَالَ: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (الْكَافِرُونَ: ٦) .

وَحُكِيَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ (يخرجون الرسول) لِتَصْوِيرِ الْحَالَةِ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ لَمَّا وَقَعَتْ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ وَقَدْ كَفَرُوا كَانَ إِخْرَاجُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عَمَلًا فَظِيعًا، فَأُرِيدَ اسْتِحْضَارُ صُورَةِ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ الْعَظِيمِ فَظَاعَةَ اعْتِلَالِهِمْ لَهُ.

وَأُسْنِدَ الْإِخْرَاجُ إِلَى ضَمِيرِ الْعَدُوِّ كُلِّهِمْ (يخرجون) لِأَنَّ جَمِيعَهُمْ كَانُوا رَاضِينَ بِمَا يَصْدُرُ مِنْ بَعْضِهِمْ مِنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ. وَرُبَّمَا أَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ بِمَجْمُوعِهَا لَا تَنْطَبِقُ إِلَّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَمَجْمُوعُهَا هُوَ عِلَّةُ النَّهْيِ عَنْ مُوَادَّتِهِمْ.

وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْ تُؤْمِنُوا، لِإِفَادَةِ اسْتِمْرَارِ – وتجديد- إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى الثَّنَاءِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِثَبَاتِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ مَا سَبَّبَ لَهُمُ الْخُرُوجَ مِنْ بِلَادِهِمْ.

(**تُسِرُّونَ**) وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِتَصْوِيرِ حَالَةِ الْإِسْرَارِ إِلَيْهِ تَفْظِيعًا لَهَا.

(**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** (٢)). وَفِعْلُ يَكُونُوا مُشْعِرٌ بِأَنَّ عَدَاوَتَهُمْ قَدِيمَةٌ وَأَنَّهَا تَسْتَمِرُّ.

وَجُمْلَةُ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يَكُونُوا، وَالْوَاوُ وَاوُ الْحَال، أَيْ وَهُمْ قَدْ وَدُّوا مِنَ الْآن أَنْ تَكْفُرُوا فَكَيْفَ لَوْ يَأْسِرُونَكُمْ أَلَيْسَ أَهَمُّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ حِينَئِذٍ أَنْ يَرُدُّوكُمْ كُفَّارًا،((فَجاءت صيغة الماضى فى (وودوا لو تكفرون) لتفيد ثباتهم على هذا الشعور وتمسكهم به وأنه هو أهم شىء عندهم لا يتراجعون عنه وهم بالفعل قد فعلوه فى الزمن الماضى وليس الآن.. كل هذه المعانى جاءت بورود صيغة الفعل الماضى(وودوا).. أما أن يظفروا بنا فهو أمر غير دائم وهو يأتى أحياناً ولذلك قال (إن يثقفوكم)(يكونوا) (لكم أعداءً) فالعداء الظاهرى غير دائم أيضاً وهو متقطع ولكن الثابت هو العداء القلبى الذى أشار إليه بقوله(وودوا لو تكفرون) وهذا الوداد هو (كفرنا) الذى لا يشفى غليلهم إلا هو.وهذا الذى ذكرناه هو ملخص أقوال العلماء بعيداً عن التعقيدات النحوية وغيرها والله أعلم

ويشير الإمام الطاهر إلى ثبات ودهم لكفرنا بملاحظته أن هذه الجملة (وودوا لو تكفرون) غير مرتبطة بحال أن يثقفونا أو يتمكنوا منا ومن عداوتنا بل هو أمر ثابت و(مستقل) غير مرتبط بذلك –جواب هذا الشرط فى الآية– فيقول: وَلَيْسَتْ جُمْلَةُ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ مَعْطُوفَةً عَلَى جُمْلَةِ الْجَوَابِ(**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسُّوءِ**)، لِأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ أَنْ يَكْفُرَ الْمُسْلِمُونَ **مَحَبَّةٌ غَيْرُ مُقَيَّدَةٍ بِالشَّرْطِ**، وَلِذَلِكَ **وَقَعَ فِعْلُ وَدُّوا مَاضِيًا وَلَمْ يَقَعْ مُضَارِعًا مِثْلَ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ قَبْلَهُ** (**يَثْقَفُوكُمْ**) (**يَكُونُوا**) **لَكُمْ أَعْداءً** (**وَيَبْسُطُوا**) لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ.(وهو رأى لطيف أردنا إثباته لإمتاع القارىء) (١٦)

ويقول: وقوله تعالى: وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ.وصيغةُ الماضى للإيذان بتحقيق ودادتِهم قبل أن يثقفُوهُم أيضاً.

---

(١٦) وَهَذَا الْوَجْهُ أَحْسَنُ مِمَّا فِي كِتَاب «الْإِيضَاحِ» لِلْقَزْوِينِي فِي بَحْثِ تَقْيِيدِ الْمُسْنَدِ بالشَّرْطِ، إِذِ اسْتَظْهَرَ أَنْ يَكُونَ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ.وَنَظَّرَهُ بِجُمْلَةِ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ فِي آل عِمْرَانَ (١١١). فَإِنَّ الْمَعْطُوفَ ب (ثُمَّ) فِيهَا عَطْفٌ عَلَى مَجْمُوعِ الشَّرْطِ وَفِعْلِهِ وَجَوَابِهِ لَا عَلَى جُمْلَةِ فِعْلِ الشَّرْطِ. ولَوْ هُنَا مَصْدَرِيَّةٌ فَفِعْلُ تَكْفُرُونَ مُؤَوَّلٌ بِمَصْدَرٍ، أَيْ ودّوا كفركم.

ويقول الإمام الألوسى: وعبر بالماضي اعتبارا للتقدم الرتبي – أى ليس ودادتهم لكفرنا أسبق (فى الزمان) من محاربتنا ، بل إنه تقدم فى الرتبة ، أى أهم شىء فى ترتيب أولوياتهم هو ودادهم لكفرنا أولاً ثم الحرب والعداوة.

وبذلك يجتمع فى هذه الصيغة الماضوية التقدم الزمنى والتقدم الرتبى والله أعلم.

وهذا هو مايشير إليه الإمام بقوله: وعبر بالماضي اعتباراً للتقدم الرتبي من حيث إن الرد عند الكفرة أشق المضار لعلمهم أن الدين أعز على المؤمنين من أرواحهم لأنهم باذلون لها دونه، وأهم شيء عند العدو أن يقصد أهم شيء عند صاحبه

****

**ومن مواطن العدول عن صيغة المضارع إلى الماضي

قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ (وَيَوْمَ (نَبْعَثُ) فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (وَجِئْنَا) بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ (وَنَزَّلْنَا) عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ النحل. ولقد سيقت الآية الكريمة للإخبار عن بعث الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وإشهادهم على الناس يوم القيامة، وفي تخصيص محمد – عليه أفضل الصلاة والسلام – بالخطاب بعد الإخبار عن بعث الرسل بطريق الغيبة، ثم العدول (معجمياً) عن فعل البعث إلى فعل المجيء، ثم العدول (الذي نحن بصدده) عن صيغة المضارع "نبعث" إلى صيغة الماضي عند خطابه – (وجئنا بك)- في كل ذلك إشعار بأفضليته (ﷺ) على سائر المرسلين وأفضلية شهادته في هذا اليوم على شهاداتهم، وأنه لهذا وذاك يجاء به شاهداً (قبل) بعث هؤلاء الرسل في أممهم شهداء.(١٧)

---

(١٧) ولعل من المناسب في هذا المقام أن نشير إلى أننا في ضوء حفول الآية الكريمة بتلك التحولات الدالة على أفضلية نبينا – صلوات الله وسلامه عليه – على سائر الرسل لا نميل إلى ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن اسم الإشارة فيها (هؤلاء) يعود على الأمة المحمدية، وأنه عليه الصلاة والسلام يشهد على هذه الأمة فحسب – ونرجح ما رجحه العلامة أبو السعود في تفسيره من أنه يشهد على أمته، وعلى كل الأمم، وكل الشهداء، ويستند هذا الترجيح لدينا على ما يلي:

٣- (مضارع - أمر):

وذلك في قوله عز وجل:

﴿ ...**قَالَ إِنِّي (أُشْهِدُ اللَّهَ) (وَاشْهَدُوا) أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)** ﴾ هود –

والآية الكريمة تحكي مقولة سيدنا هود عليه السلام لقومه رداً على تكذيبهم له، وسخريتهم منه، وادعائهم الباطل بأن به مساً من آلهتهم (**إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ**).

وقد تضمنت هذه المقولة عدولاً عن صيغة المضارع (أشهد الله) إلى صيغة الأمر (واشهدوا)؛ وذلك لإبراز البون الشاسع بين الإشهادين، والدلالة على أن الثاني منهما ليس إشهاداً حقيقياً، وأنه عليه السلام إنما أمرهم به على سبيل

*** بينما وصفت الآية الكريمة شهيد كل أمة من الأمم بكونه (من أنفسهم) جاء الإخبار عن شهادة خاتمهم (ﷺ) خالياً من هذا الوصف، وفي ذلك دليل على أن كل نبي يبعث من أمته يوم القيامة ليشهد عليها (عليهم من أنفسهم)، أما هذا النبي الخاتم فإنه يبعث من أمته ليشهد عليها وعلى كل (هؤلاء) الشهداء والأمم.**

*** حين أخبر البيان القرآني عن شهادته عليه الصلاة والسلام جاءت هذه الشهادة مقيدة بقومه تارة: (... ويكون الرسول عليكم شهيداً ...)** البقرة – **(...وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (٧٨)) الحج. ومطلقة من هذا القيد تارة أخرى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)) الأحزاب (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨)) الفتح – وهذه الشهادة المطلقة هي ما اختص بها – في ذلك البيان – نبينا صلوات اله وسلامه عليه دون من سواه من الأنبياء والرسل، فحينما أخبر القرآن – على سبيل المثال – عن إقرار عيسى عليه السلام بالشهادة في قوله تبارك وتعالى: (وَكُنْتُ (عَلَيْهِمْ) شَهِيدًا (مَا دُمْتُ فِيهِمْ) (١١٧)) المائدة. جاءت تلك الشهادة مقيدة بقومه "عليهم" في فترة زمنية محددة "ما دمت فيهم".**

*** أخيراً .. قوله عز وجل عقب وصفه (ﷺ) بالشهادة: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩))، ففي ذلك – والله أعلم – إشعار بطبيعة الشهادة التي اختص بها صلوات الله وسلامه عليه، ودلالة على أنه سبحانه وقد آثره بهذا الكتاب الخالد المهيمن – بعموم بيانه – على ما سبقه من الكتب قد آثر كذلك بأن تكون لشهادته يوم القيامة صفة العموم والهيمنة على شهادات من سبقه من الرسل.**

السخرية بهم، والتحدي لإرادتهم – هذا ما يقرره الزمخشري إذ يقول في توجيه هذا العدول:

"لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما شهادتهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: أشهدُ على أني لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله .."

يقول ابن الأثير: فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر- اشهد الله واشهدوا..- للعناية بتوكيده فى نفوسهم)

****

وقبل أن ندع هذا المجال من مجالات الالتفات (بين صيغ الأفعال) نود أن نتوقف قليلاً إزاء ما ردده غير واحد من البلاغيين من أن من أمثلته في القرآن الكريم قوله عز وجل:

﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (وَأَقِيمُوا) وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)** ﴾ الأعراف.

(ولو قال (أقسطوا) لكان هذا الأمر خاص للمخاطبين فقط، ولكن لأن أمر القسط هو لجميع الخلق، فالقسط هو الذى قامت عليه السموات والأرض- **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)**-، أما(أقيموا وجوهكم) فهو فعل أمر موجه ومخصص للمخاطبين- أمة الدعوة- وهو يعطى الأمر هنا خصوصية وأهمية.

إن الذي نميل إليه – والله أعلم – أن صيغة الأمر "وأقيموا" وهي معطوفة على صيغة الأمر السابقة عليها في صدر الآية "قل"، ففي الآية الكريمة على هذا التقدير (الذي ينتفي معه القول بالعدول) أمران موجهان منه سبحانه إلى نبيه صلوات الله وسلامه عليه(وقد عشنا ذلك على الصفحات الماضية).

د- بين الاسم والفعل:

لكل من صيغتي الاسم والفعل خصوصيتها التي تتميز بها من الأخرى في أداء المعنى، وقد حدد البلاغيون هذه الخصوصية في كل منهما فقالوا: "إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء،(أى أن الاسم يفيد الثبات والدوام) وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به، شيئاً بعد شيء" (أى أن الفعل يفيد التجدد والتغير للحدث).

في ضوء هذا الفارق يمكن أن نستوحي بعض ما يوحي به العدول عن إحدى هاتين الصيغتين إلى الأخرى في البيان القرآني، فلنتأمل – على سبيل المثال – قول الحق تبارك وتعالى في وصف المتقين:

﴿ (الَّذِينَ (يُنْفِقُونَ) فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ (وَالْكَاظِمِينَ) الْغَيْظَ (وَالْعَافِينَ) عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ آل عمران.

(وكان حقه أن يقول: ويكظمون.. ويعفون)

ففي التعبير عن صفة الإنفاق بصيغة المضارع، ثم العدول عنها إلى صيغة اسم الفاعل في التعبير عن كظم الغيظ والعفو عن الناس – استثماراً لما بين الصيغتين من فارق في الدلالة على تأصل الأوصاف الثلاثة في نفوس المتقين والإيحاء بتحقيق الصورة المثلى لكل منها لديهم؛ ذلك أن الصورة المثلى لصفة الإنفاق لا تتحقق إلا عند تجددها وتتابعها على اختلاف الظروف وتنوع الأحوال- أى ربما يكون معه مال فينفق أو يفقده فلا ينفق- (دلالة الفعل المضارع)، أما في كظم الغيظ والعفو عن الناس فإنها لا تتحقق إلا مع الثبات عليهما، ومصابرة النفس على التمسك بهما (دلالة الاسم)، (١٨)

ففي المخالفة بين الصيغتين في تلك الآية – إذن – إشعار بأن هؤلاء لتمكن التقوى ورسوخها في قلوبهم قد أوفوا في كل ما وصفوا به على الغاية، وبلغوا حد الكمال أو درجة الإحسان (والله يحب المحسنين).

---

(١٨) فهو يملكه نفسه دائماً، أما المال فهو عارض يأتي ويذهب

ويقول الإمام أبو السعود: والعدولُ إلى صيغة الفاعلِ للدِلالة على الاستمرار وأما الإنفاقُ فحيث كان أمراً متجدداً – أى لا ينفق بصفة مستمرة– عبّر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد.

وأعجبنى قول الإمام الطاهر الذى يربط بين مفردات الآية – (**الَّذِينَ (يُنْفِقُونَ) فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ (وَالْكَاظِمِينَ) الْغَيْظَ (وَالْعَافِينَ) عَنِ النَّاسِ**) – فى قوله: الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: الْعَفْوُ عَنِ النّاس فِيمَا أساؤوا بِهِ إِلَيْهِمْ. وَهِيَ تَكْمِلَةٌ لِصِفَةِ كَظْمِ الْغَيْظِ بِمَنْزِلَةِ الِاحْتِرَاس لِأَنَّ كَظْمَ الْغَيْظِ قَدْ تَعْتَرِضُهُ نَدَامَةٌ فَيَسْتَعْدِي عَلَى مَنْ غَاظَهُ بِالْحَقِّ، فَلَمَّا وُصِفُوا بِالْعَفْوِ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ كَظْمَ الْغَيْظِ (وَصْفٌ مُتَأَصِّلٌ فِيهِمْ، مُسْتَمِرٌّ مَعَهُمْ)– وأقول:إن قوله(وَصْفٌ مُتَأَصِّلٌ فِيهِمْ، مُسْتَمِرٌّ مَعَهُمْ) هو موطن الإسم وليس الفعل الذى يفيد التجدد والتغير، وكظم الغيظ يعنى أنه ملىء بالغيظ ، وهو ممكن أن ينفجر فى لحظة ويقطع هذا الدوام، وحينما يقترن هذا الموقف بصفة العفو– التى تعنى إزالة أثر هذا الغيظ المكظوم تماماً– فهنا لاتوجد فرصة لانفجار الغيظ لأنه أزاله بالكلية، وهذا هو معنى العفو– لغوياً– وهو إزالة الأثر). ولنتأمل – أيضاً – قوله تعالى: (**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ (يُخَادِعُونَ) اللَّهَ وَهُوَ (خَادِعُهُمْ)** .. (**١٤٢**)) النساء

وقيل إنه خادعهم بإعلام المؤمنين وتثبيتهم ؛ فخداع الله هنا هو بمعنى خداع المؤمنين المثبتين بتدعيم الله وهو أقوى وأدوم فقال(**خَادِعُهُمْ**) ولم يقل (يخدعهم). حيث جاء التحول عن صيغة المضارع "يخادعون" إلى صيغة اسم الفاعل "خادعهم" مؤدياً دوره في تبكيت هؤلاء المنافقين الذين تسول لهم نفوسهم الملتاثة بمرض النفاق أن ظاهرهم الإيماني الزائف قد آتى ثماره في خداع المؤمنين (الذين هم فى جانب الله) ، وأن كفرهم في مأمن من الافتضاح، غافلين عن أن الخَلَّاق عز وجل عليم ببواطنهم، وأنه سبحانه إذا كان قد أمر المؤمنين بعصمة دمائهم – أى دماء المنافقين– فإنه بذلك يملي لهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون.(فهو خداع الله القوى، فقال وهو خادعهم).

ولعلنا نلاحظ أن العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة اسم الفاعل قد واكبه متآزراً معه في دلالته – عدول آخر يتمثل في صياغة اسم الفاعل من الثلاثي (خدع) لا من الرباعي(خادَع) الدال على المفاعلة – من الطرفين- والذي يقتضيه ظاهر السياق لمجيء المضارع منه (خادَع) بفتح الدال(١٩)،وفي هذا دلالة على أن هؤلاء المنافقين الذين يمعنون في محاولات الخداع، هم – لو عقلوا- المخدوعون(٢٠)، أي أن الآية الكريمة بهذا التحول الأخير تدل على ذلك المعنى الذي أكدته آية أخرى في شان هؤلاء المنافقين، وهي قوله سبحانه (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)) البقرة.

ولنتأمل – أخيراً – قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ (يُسَبِّحْنَ) بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ (مَحْشُورَةً) كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) ﴾ ص.

يقول الإمام الزمخشرى: فإن قلت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات ؟ قلت: نعم، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح. ومثله قول الأعشى: إلى ضوء نار في يفاع (تحرق) .. ولو قال: محرقة- بدل(تحرق)-، لم يكن شيئا. وقوله (مَحْشُورَةً) في مقابلة: يسبحن: إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء، أى إن التسبيح يأتى متكرراً(يسبحن)- بصيغة المضارع- ولكن الحشر يأتى دفعة واحدة (محشورة) - بصيغة الاسم التى تفيد ذلك فجيء به اسما لا فعلا.وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن- على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئا بعد شيء.والحاشر هو الله عز وجل- لكان خلفا)-أى على غير الطبيعة وغير مناسب لعظمة الله-، لأنّ حشرها جملة واحدة- والحاشر هو الله عز وجل- أدلّ على القدرة.

---

(١٩) فلم يقل: مخادعهم، الذى يأتى من الفعل الرباعى(خادَع))

(٢٠) ولا يحتاجون إلى وجود طرفٍ ثانٍ يخادعهم، وكأنه ألغى وجود الطرف الثانى- المؤمنين- وتولى هو سبحانه ذلك، ولذلك لم يأت بصيغة المفاعلة(مخادع) وقال (خادع).

ويضيف الدكتور حسن طبل – إلى ما ذكره الزمخشري – أن الآيتين مسوقتان لإبراز نعمتين خص الله بهما نبيه داود عليه السلام، وفي إيثار صيغة الفعل في التعبير عن النعمة الأولى(يسبحن) وصيغة الاسم في التعبير عن الثانية (محشورة) ما يجلي عظمة هاتين النعمتين من جهة، وخصوصيتهما بداود عليه السلام من جهة أخرى؛ ذلك أن من شأن الجبال التسبيح الدائم- لله تعالى-،(ويناسب ذلك أن تكون "مسبحات") فهي إحدى المخلوقات أو "الأشياء" التي يصدق عليها قوله تبارك وتعالى: (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** (٤٤)) الإسراء(٢١).

ومن ثم كان لإيثار صيغة الفعل المفيدة لمعنى التجدد "يسبحن" دلالتها على أن التسبيح المقصود من الجبال ليس هو ذلك التسبيح الدائم، بل هو تسبيح خاص بنبي الله داود يتجدد بتجدد تسبيحه(يسبحن)، وتلك الدلالة تدعمها دلالة الظرف "معه"- يسبحن معه- وتقديمه على الفعل يسبحن في الآية الأولى - **مَعَهُ (يُسَبِّحْنَ)** - .

كذلك فإن من شأن الطير الحركة وسرعة التنقل من مكان إلى مكان، ولهذا فإن لإيثار صيغة الاسم في التعبير عن حشرها "محشورة" دلالته على أنها حين

---

(٢١) وهو ما ذكرناه من سبب التكرار فى قوله تعالى(رأيت) مرتين عن يوسف عليه السلام(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي (رَأَيْتُ) أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (رَأَيْتُهُمْ) لِي سَاجِدِينَ (٤)) (إنى رأيت .. رأيتهم..) وكان يمكن الاستغناء عن تكرار قوله (رأيتهم) هكذا(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِي سَاجِدِينَ (٤)) ولكنه أتى بها مرة ثانية ليشير إلى سجود آخر لهم غير السجود المعتاد منهم، وهو سجود خاص ليوسف كسجود العقلاء بخلاف سجودهم المعتاد والدائم لرب العالمين، وقد أكد هذه الإشارة بقوله(رأيتهم ساجدين) و(ساجدين) صيغة جمع المذكر السالم التى تستخدم للعقلاء، وكأنه يريد أن يقول أنها رؤية ثانية تتمثل فى سجودهم سجود العقلاء، فهو سجود خاص فكرر قوله ((رَأَيْتُهُمْ) لِي)- كسجود العقلاء- .فهو فى مثالنا هذا أراد أن يبين لنا أنه تسبيح آخر (متجدد) لداوود عليه السلام فأتى بالصيغة الفعلية الدالة على ذلك(يسبحن)- وليس بالتسبيح الدائم والمستمر لله تعالى الذى يأتى بالصيغة الاسمية(مسبحات)-

تحشر أو تتجمع لتجاوب تسبيح داود عليه السلام تكاد تفارق طباعها فتثبت في مكان حشرها خاشعة لا تكاد تريم.

وأقول- أنا الكاتب- ولعلى أضيف القول بأن التسبيح لداوود – الذى هو حركة اللسان حينئذٍ- أمرٌ غير معتاد فجاء على صيغة الفعل(يسبحن له)، أما الحشر الذى هو الحركة فهو شأنها ودأبها المستمر الذى لا غرابة فيه فاستخدم صيغة الإسم (محشورة).

وهناك رأى آخر مكمل فى قوله تعالى: **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ** (١٨).وكان على السياق أن يقول(مسبحات) لأن التسبيح قد وقع فى زمن داوود عليه السلام(فى الماضى)، ولكن لما كان تسبيح الجبال من أعجب الأحداث وأدلها على قدرة الله عبر عنها بصيغة المضارع التى تستحضر الصورة والمشهد أمام الأعين فقال(يسبحن) ، وصيغة المضارع هى التى نقلت الحدث من الماضى السحيق وأحضرته فى مقام المشاهدة وكأنه يقع الآن ..

ولعل القارىء يلحظ من معنى المضارع التجدد والحدوث وهو شأن جميع المخلوقات ومنها الجبال فى أمر التسبيح..فقال(يسبحن).. أما تسخير الجبال- مظهرة لهذا التسبيح- فى يد نبى الله داوود فقد حدث مرة واحدة وانتهى فى الماضى ولم يتجدد، ولذلك قال(سخَّرنا) بصورة الماضى.

كما فى قوله عن نوح عليه السلام ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ...** ﴾

****

لون آخر من الالتفات

وهو التحول من صيغة الإفراد إلى الجمع أو المثنى والعكس

(طفل، أطفال)

﴿ (**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**.. (٦٨))﴾ وكان حقها أن تكون (يخرجكم أطفالاً) ليتناسب الجمع مع صيغ الجمع فى السياق نفسه، ولكن النظم القرآنى **الذى** (**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** (**٤٢**))**فصلت**. اختار صيغة الإفراد- التى تشير فيما تشير إلى توحد الجميع فى الصفة المراد تصويرها وكأنهم فرد واحد- لأنه فى حال إخراجنا من بطون أمهاتنا فنحن جميعاً نتوحد ولا نختلف فى صفة الضعف والعجز وعدم الإدراك وغيرها من الصفات التى نعلمها جميعاً،كما أشار سبحانه فى قوله: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨)﴾ ولذلك فنحن(جميعاً) كطفلٍ واحد، وليس كأطفال تتعدد وتتنوع وتختلف فيهم هذه الصفات التى ذكرناها، ويريد النص إبراز توحدنا جميعاً فى افتقارنا لها، ولذلك اختار النظم الحكيم صيغة الإفراد التى تشير إلى ذلك المعنى مفضلاً إياها على صيغة الجمع التى كان يجب أن تأتى عليها فقال(**يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**).

وكذلك الحال حينما يريد أن يصور اتحاد جميع الأطفال الأكبر سناً- ولكنهم ما زالوا فى مرحلة الطفولة- فى عدم إدراكهم لشهوة النساء وعورتهن، حيث إن جميعهم لا تتحرك فيهم هذه الشهوة فى هذا السن، فتوحدوا فى هذه الصفة فى حال نظرهم لعورة النساء، فوصفهم (جميعاً) ب(طفلٍ واحدٍ) ناظراً لهذا المعنى فقال: ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آباء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ (أَبْنَاءِ) **بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ**- وجميعها جاءت بصيغة الجمع- **أَوْ (أَبْنَاءِ) أو..**- ولكنه غير نظم الحديث ليأتى ب(الأطفال) على صيغة المفرد

ويقول(أو الطفل) لأنه يتحدث فى مقام الشهوة للنساء أو النظر لعوراتهن التى يتحدون جميعاً فى عدم إدراكها، بخلاف الذين عددهم النص فى السياق السابق، فقال: **أَوِ (التَّابِعِينَ) غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ (الرِّجَالِ) أَوِ (الطِّفْلِ) (الَّذِينَ) لَمْ (يَظْهَرُوا) عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ (٣١)﴾** .. وهذا أمر عجيب حقاً حيث أنه يصف(الطفل) ويشير عليه بصيغة الجمع فيقول(الذين) لَمْ (يَظْهَرُوا)، تأكيداً لنا على أنه يتحدث عن جماعة الأطفال، وليشير لنا أنه تعمد ذلك التحول- أو الالتفات- عن قصدٍ واضح ليشير- لأصحاب التدبر واللغة- إلى هذه المعانى التى ذكرناها.. ولعلنا نقول أن هذا الأسلوب لا يجرؤ عليه إلا أصحاب الشجاعة.

وأمثال هذا المعنى – من توحد الجميع على صفة واحدة فى الموقف المراد تصويره فيختار له صفة الإفراد بدلاً من صيغة الجمع- أمثلة كثيرة، فهو فى مثالنا السابق عن حال الأطفال مع عورة النساء ، وقد أشار بالإفراد (الطفل).. أما فى حال آخر حينما يبلغ هؤلاء ويدركون المشهد المراد تصويره ويتنوعون ويختلفون فى مدى إدراكهم له فيخاطبهم ويتحدث عنهم بصيغة الجمع(الأطفال) ويقول عنهم حينئذٍ ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ (الْأَطْفَالُ) مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (٥٩)** ﴾ نفس سورة النور. وهذا كثير فى القرآن الكريم نضرب له أمثلة سريعة منها:

١- قوله تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ (جَمِيعٌ) (مُنْتَصِرٌ) (٤٤) سَيُهْزَمُ (الْجَمْعُ) وَيُوَلُّونَ (الدُّبُرَ) (٤٥)﴾..فهم- كفار قريش- **يقولون (نَحْنُ)(جَمِيعٌ) (مُنْتَصِرٌ)**، وكان حقها – فى غير النظم القرآنى- أن يقولوا (نحن جميع منتصرون)، ولكن النظم اختار صيغة الإفراد ليشير إلى أنهم سيكونون(جميعاً)(يداً) واحدة مجتمعين على قلب رجلٍ واحد، كما نقولها(كلنا)(يد واحدة)..وكما يقول عنهم الإمام الزمخشرى: نَحْنُ جَمِيعٌ (جماعة) أمرنا مجتمع مُنْتَصِرٌ ممتنع لا نرام ولا نضام.

وسيقابل النظم ذلك القول منهم برد الله عليهم من أنهم سيفرون أيضاً فرار رجلٍ واحد، فلا يتأخر أحد ويختلف عن فراره معهم- مدعياً الشجاعة-، وستكون (أدبارهم)- فى حال فرارهم وإدبارهم هذا – ك(دبر) (واحد)، لأنه لم يتخلف منهم

أحد، ولذلك سيختار صيغة المفرد فى قوله سبحانه ﴿ (**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)**)﴾ وكان حقها أن تكون (ويولون الأدبار) كما وردت فى سياقات أخرى على صيغة الجمع هذه لأن المشهد فيها كان لا يشير إلى معنى توحدهم فى الفرار أو المبالغة فى هروبهم كقوله تعالى:﴿ **لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ (الْأَدْبَارَ) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١)**﴾ فهو لا يريد المبالغة فى شدة هروبهم هنا ، فهى معركة عادية فى نهايتها أنهم لا ينصرون فقط. ومثلها قوله:﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا (الْأَدْبَارَ) ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢)**﴾ الفتح.. **ومثلها قوله:** ﴿**لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ (الْأَدْبَار) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢)**﴾

وكقوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)**﴾.. فهو لا يقصد التوحد والمبالغة فى تولينا(الدبر) لأنه لا ينفى أن يكون منا الشجاع والأقل شجاعة فيكون هناك(أدبار) مختلفة.

وكذلك قوله: ﴿ **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥)**﴾ الأحزاب.

****

*** ومن الأمثلة الأخرى لهذا العدول

قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ (وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) (وَالْمَلَائِكَةُ) بَعْدَ ذَلِكَ (ظَهِيرٌ) (٤)** ﴾. فكان حقها – فى غير النظم القرآنى- أن يقول (**وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظهراء**) لتناسب صيغة الجمع مقام الجمع، والجمع فى هذه الآية واضح للعيان وهو كثير،فجبريل وصالح المؤمنين جمع، والملائكة أيضاً جمع، فكان حقها أن تكون(ظهراء) ولكنه لأنه أراد تصوير مشهد تجمعهم جميعاً(يدٍ واحدة وظهير واحد) مع النبى(ﷺ) دفاعاً عنه.

***** ومن الأمثلة الأخرى لهذا العدول قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ** (**أُولَئِكَ**)((**رَفِيقًا**)) (٦٩) ﴾..

وكان حقها أن تكون(رفقاء) لتعدد صيغ الجمع فى السياق، ولكن لأنه نظر إلى توحد قلوب هؤلاء- النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ -على النقاء والصفاء وعدم الغل والبغضاء فاختار لتلك الصحبة صيغة المفرد فقال(رفيقا)...

ومثل هذا التوحد فى الصفة نراه فى مثالٍ آخر- ولكنه توحد فى صفة الخضوع والاستسلام والعبودية- جميعهم يتساوون فى ذلك؛ فهم فى ذلك كفردٍ واحد- وذلك فى قوله تعالى ﴿ **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ** (**عَبْدًا**) - وكان حقها أن تكون(عبيداً)- **(٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا** (٩٤)(**وَكُلُّهُمْ**) **آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** (**فَرْدًا**) وكان حقها أن تكون(أفرادا)- **(٩٥)** ﴾

****

ومن مواطن الالتفات عن الإفراد إلى الجمع

قوله سبحانه: ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً** (**لِيَكُونُوا**) **لَهُمْ عِزًّا** (٨١) **كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** (٨٢) ﴾ **مريم.**

ففي الآية الثانية جاء اسم يكون – العائد على الآلهة – ضمير جمع، ثم جاء الخبر عنه مفرداً "ضدا"، عدولاً عن "أضدادا" التي يقتضيها ظاهر السياق، وهو عدول يحقق في الآية الكريمة غايتين: الأولى: اطراد الإيقاع الموسيقي بين فواصل الآيات؛ إذا بصيغة الإفراد "ضدا" تتوازى فاصلة الآية الكريمة مع فواصل الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في السورة (مدا. فردا. عزا. أزا. ضدا .. إلخ)، والثانية: هي الدلالة على (توحد) موقف الآلهة يوم القيامة في معاداة هؤلاء الكفار الذين عبدوهم من دون الخالق أو أشركوهم في عبادته عز وجل، فتوحيد الضد هو – كما ذكر المفسرون – لتوحيد المعنى الذي تدور عليه مضادة هؤلاء الآلهة للكفار؛ إذا إنهم يتفقون على هذه المضادة فيكونون كالشيء الواحد.

في التحول إلى الإفراد عن الجمع – إذن – إبراز للمفارقة بين موقف الكفار من آلهتهم في الدنيا وموقفها منهم يوم القيامة، فتلك التي توزعت أهواءهم وأذلوا أعناقهم لها من دون الله أملاً في التعزز بها – سوف تتناصر يوم القيامة على تكذيبهم، وتتحد على مضادتهم والتنكر لهم ﴿ (**وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** (٨٦)) ﴾ النحل.

****

ومثال ذلك نجده فى دعوة المتقين الذين يريدون أن يكونوا أئمة للهدى على (قلب رجل واحد) وغير مختلفين، فاختار لذلك صيغة الإفراد فى قوله تعالى﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ** ((**إِمَامًا**)) (٧٤)﴾ وكان حقها أن تكون: (**وَاجْعَلْنَا**) **لِلْمُتَّقِينَ** ((**أئمة**)).ولكنه أراد أئمة غير مختلفين بل أئمة توحدوا على هدف واحد وقلب واحد.

****

***** ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)** ﴾: يقول الإمام الزمخشرى: وإنما وحَّد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله (ﷺ)، فكانا في حكم مرضيّ واحد، كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشنى وجبر منى. أو والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك.

وهذا كلام طيب ورائع تعودنا على أمثاله كثيراً من الإمام الزمخشرى، ويضيف صاحب تفسير المنار ذلك المعنى توضيحاً بقوله: وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ: " يُرْضُوهُمَا " وَنُكْتَةُ الْعُدُول عَنْهُ إِلَى: (يُرْضُوهُ) الْإِعْلَامُ بِأَنَّ إِرْضَاءَ رَسُولِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ رَسُولُهُ عَيْنُ إِرْضَائِهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ إِرْضَاءٌ لَهُ فِي اتِّبَاعِ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ، وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي الْإِيجَازِ، وَلَوْ قَالَ: (يُرْضُوهُمَا) لَمَا أَفَادَ هَذَا الْمَعْنَى؛ إِذْ يَجُوزُ فِي نَفْسِ الْعِبَارَةِ أَنْ يَكُونَ إِرْضَاءُ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي غَيْرِ مَا يَكُونُ بِهِ إِرْضَاءُ الْآخَرِ، وَهُوَ خِلَافُ الْمُرَادِ هُنَا، وَكَذَلِكَ لَوْ قِيلَ: " وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ " لَا يُفِيدُ هَذَا

الْمَعْنَى أَيْضًا، وَفِيهِ مَا فِيهِ مِنَ الرَّكَاكَةِ وَالتَّطْوِيلِ، وَقَدْ خَرَّجَهُ عُلَمَاءُ النَّحْوِ عَلَى قَوَاعِدِهِمْ(٢٢)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ، وَيُقَدَّرُ مِثْلُهُ لِلرَّسُولِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ لِلرَّسُولِ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي إِيذَائِهِ، وَهُوَ أَضْعَفُ مِمَّا قَبْلَهُ، وَأَقْرَبُ الْأَقْوَالِ إِلَى قَوَاعِدِهِمْ قَوْلُ سِيبَوَيْهِ: الْكَلَامُ جُمْلَتَانِ حُذِفَ خَبَرُ إِحْدَيْهِمَا لِدَلَالَةِ خَبَرِ الْأُخْرَى عَلَيْهِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـــ ... دَكَ ((رَاضٍ)) وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

فهنا كان يجب أن يقول (راضون)- نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـدَكَ ((رَاضون))- فَهَذَا لَا تَكَلُّفَ فِيهِ مِنْ نَاحِيَةِ التَّرْكِيبِ الْعَرَبِيِّ، وَلَكِنْ تَفُوتُ بِهِ النُّكْتَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَهِيَ مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْبَيَانِ اقْتِبَاسُهَا، وَاسْتِعْمَالُ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي كُلِّ مَا كَانَ مِثْلَهُ فِي الْمَعْنَى، وَلَوْلَا هَذَا التَّنْبِيهُ لَمَا عُنِينَا بِنَقْلِ أَقْوَالِهِمْ فِي الْإِعْرَابِ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمِنْهَاجِنَا.

ويقول الإمام الرازى: وَأَمَّا قَوْلُهُ: يُرْضُوهُ بَعْدَ تَقَدُّمِ ذِكْرِ اللَّهِ وَذِكْرِ الرَّسُولِ فَفِيهِ وُجُوهٌ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُذْكَرُ مَعَ غَيْرِهِ بِالذِّكْرِ الْمُجْمَلِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالذِّكْرِ تَعْظِيمًا لَهُ(٢٣).

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمَقْصُودَ بِجَمِيعِ الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ هُوَ اللَّهُ، فَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِهِ.

---

(٢٢)فَقَالَ بَعْضُهُمْ كَأَبِي السُّعُودِ: إِنَّ الضَّمِيرَ الْمُفْرَدَ هُنَا يَعُودُ إِلَى مَا فُهِمَ مِمَّا قَبْلَهُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ أَوْ " مَا ذُكِرَ " كَقَوْلِ رُؤْبَةَ: فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ ...(كَأَنَّهُ) فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

(وكان حقه أن يقول(كأنها) ليعود الضمير على (خطوط) ولكنه أراد أن يقول: يَعْنِي كَأَنَّ ذَلِكَ أَوْ كَأَنَّ مَا ذُكِرَ، وَهُوَ تَخْرِيجٌ ضَعِيفٌ لَا يَظْهَرُ فِي الْمُثَنَّى.

(٢٣) ويقول ابن عطية فى تفسيره: ومذهب المبرد أن في الكلام تقديما وتأخيرا، وتقديره والله أحق أن يرضوه ورسوله، قال: وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير، حكاه النقاش عنه، وليس هذا بشيء، وفي مصنف أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما» فجمع في ضمير، وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر «بئس الخطيب أنت» ، إنما ذلك وقف في يعصهما فأدخل العاصي في الرشد.

وَيُرْوَى أَنَّ وَاحِدًا مِنَ الْكُفَّارِ رَفَعَ صَوْتَهُ. وَقَالَ: إِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَسَمِعَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ وَقَالَ: «وَضَعَ الْحَقَّ فِي أَهْلِهِ»..((وأنا أرتاح لهذا الرأى الذى يصور إخلاص العبادة لله(وحده)- فهو يرضيه وحده، فإرضاء الله هو (الأصل) أما إرضاء النبى(ﷺ) مهما علا قدره فهو تابع لله تعالى، وأنا أحبه وأطيعه لأنه(رسول الله).. ولو قال (أحق أن يرضوهما) لما كان فى الأمر أصل وفرع ولتساوى الطرفان- الله والرسول- فى هذا الإرضاء.. وأنا حينما ألقى خطبة عن الإخلاص لله تعالى أبدؤها بشرح وتوضيح هذه الآية كمثال على ذلك الإخلاص لله)).

الثَّالِثُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ يُرْضُوهُمَا فَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْوَاحِدِ كَقَوْلِهِ:

(نَحْنُ) بِمَا عِنْدَنَا (وَأَنْتَ) بِمَا ... عِنْدَكَ (رَاضٍ) وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْعَالِمَ بِالْأَسْرَارِ وَالضَّمَائِرِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِخْلَاصُ الْقَلْبِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، فَلِهَذَا السَّبَبِ خَصَّ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالذِّكْرِ. ((وهذا الرأى يكاد يكون نفس الرأى الثانى الذى قد استرحنا إليه، وهو نفس الرأى الذى سيميل إليه الإمام الطاهر فى السياق القادم))

الْخَامِسُ: لَمَّا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ رِضَا الرَّسُولِ مُطَابِقًا لِرِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَامْتَنَعَ حُصُولُ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَهُمَا وَقَعَ الِاكْتِفَاءُ بِذِكْرِ أَحَدِهِمَا كَمَا يُقَالُ: إِحْسَانُ زَيْدٍ وَإِجْمَالُهُ نَعَشَنِي وَجَبَرَنِي.(وهذا رأى جميلٌ أيضاً) السَّادِسُ: التَّقْدِيرُ: وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ وَرَسُولُهُ كَذَلِكَ

يقول الإمام الطاهر: وَإِنَّمَا أَفْرَدَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: أَنْ يُرْضُوهُ مَعَ أَنَّ الْمُعَادَ اثْنَانِ لِأَنَّهُ أُرِيدَ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى أَوَّلِ الِاسْمَيْنِ (الله)، وَاعْتِبَارُ الْعَطْفِ مِنْ عَطْفِ الْجُمَلِ بِتَقْدِيرِ: وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ وَ(رَسُولُهُ كَذَلِكَ)، وَمِنْ **نُكْتَةِ ذَلِكَ الْإِشَارَةُ إِلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْإِرْضَاءَيْنِ**، وَمِنْه قَول ضابىء بْنِ الْحَارِثِ:

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ ... **فَإِنِّي وَقَيَّارٌ** بِهَا لَغَرِيبُ

التَّقْدِيرُ: فَإِنِّي لَغَرِيبٌ وَقَيَّارٌ بِهَا غَرِيبٌ أَيْضًا. لِأَنَّ إِحْدَى الْغُرْبَتَيْنِ مُخَالِفَةٌ لِأُخْرَاهُمَا.

وَالضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ فِي يُرْضُوهُ عَائِدٌ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ، لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ فِي الْخَبَرِ، وَلِذَلِكَ ابْتُدِئَ بِهِ.

ويقف الدكتور محمد أبو موسى على ملحظٍ جميل فى تقديم الرسول على المسند المذكور- حيث قال : (**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ**) ولم يقل (والله أحق أن يرضوه ورسوله) - ليفيد أهمية إرضاء رسول الله (ﷺ) خشية أن تنصرف النفوس إلى إرضاء الله وتتوانى فى شىء من أمر رسوله (ﷺ) فنبه بهذا التقديم على عظمة إرضاء رسول الله، وأنه من الله بمكان.

وأقول : إن هذا ملحظ هام، فهو أولاً لايساوى إرضاء الرسول بإرضاء الله ولذلك لم يقل(يرضوهما) وقدم لفظ الجلالة(والله) ، ولكنه ربما يتخيل القارىء أو السامع التقليل من شأن إرضاء الرسول فقام النظم بالتنبيه على مكانة إرضاء النبى العالية فأشار إلى أهمية حب النبى بما ذكرناه من تقديمه على مسنده(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) ولم يقل (والله أحق أن يرضوه ورسوله). ، وبذلك أتى بالمطلوبين معاً، إرضاء الله أولاً وقبل كل شىء، والأمر الثانى هو الاهتمام بقيمة طاعة النبى (ﷺ) وإرضائه، وعبر عن ذلك بقوله (**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ**) ولم يقل (والله أحق أن يرضوه ورسوله).

ويؤيد هذا الرأى الذى اتجهنا إليه أنه حينما أراد النظم القرآنى تقليل أهمية دور إسماعيل عليه السلام فى بناء الكعبة أخَّر ذِكْرَه عن المسند فقال(**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ** .. (**١٢٧**)) وكان يمكن أن تقال(وإذ يرفع إبراهيم **وإسماعيل** القواعد) وحينها سيكون قد تساوى دور إبراهيم وإسماعيل فى أهمية البناء أو اقترب منه، ولكن الحقيقة التى أراد النظم إبرازها غير ذلك، لأن دور إبراهيم هو الأساس وهو الذى سيبنى أما إسماعيل فإنه سيناوله الحجارة فقط، ولذلك أخَّر ذكره (**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ** .. (**١٢٧**)).

****

وعودة لما سبق فى الحديث بين الإفراد والتثنية:

وحول قوله تعالى

﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ (يُرْضُوهُ) إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)** ﴾ **[التوبة]**

نقف مع الدكتور حسن طبل الذى يرى أن إفراد الضمير فى(يرضوه) – أنه يعود على الله ورسوله وإنما أفرد لتلازم الرضاءين—ويراه أنه أرجح الآراء؛ وذلك لقوه الملاءمة بينه وبين السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة؛ فهؤلاء الذين تخبر الآية عن حلفهم للمؤمنين كي يرضوهم هم فئة من المنافقين كانوا يتعمدون الرسول (ﷺ) بالإيذاء ويتقولون عليه الأقاويل، وهذا ما أخبرت عنه الآية السابقة على تلك الآية مباشرة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)** ﴾ التوبة.

في ضوء هذا السياق يرجح القول بأن الضمير في "يرضوه" عائد على الله والرسول، وأن في توحيده – عدولاً عن تثنية – دلالة على توحد الرضاءين، وإشعاراً بأن إرضاءه (ﷺ) هو في الوقت ذاته إرضاء للخالق عز وجل؛ إذ في ذلك دون ريب دعم لموقفه وسلوان له فيما تحمله من أذى هؤلاء المنافقين – فشأن الإرضاء في توحيده في تلك الآية الكريمة هو شأن الطاعة التي وحدها عز وجل في قوله: (**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** (٨٠)) النساء.

** وشبيه بالآية السابقة في عود الضمير مفرداً على الله ورسوله قوله تبارك وتعالى في شأن المنافقين: ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ (لِيَحْكُمَ) بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨)** ﴾ النور. وكان يجب أن تقال(**ليحكما**) **بينهم.**

وقوله سبحانه وتعالى بعد ذلك بآيتين:

﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ (لِيَحْكُمَ) بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)** ﴾ النور (٢٤)

حيث أسند الفعل يحكم إلى ضمير الإفراد (المستتر) لا إلى ضمير التثنية (ليحكما) كما يقتضي ظاهر السياق، وفي ذلك – والله أعلم – دلالة على توحد الحكم، وإشعار بأن ما ينطق به الرسول هو بعينه حكم الله، وأن هذا الذي يُدعى الناس إلى الاحتكام إليه، فيعرض عنه من طويت نفسه على النفاق ويذعن إليه من استضاء قلبه بنور الإيمان – إنما هو منهج (واحد) شرعه العليم الخبير وينفذه ويحكم بمقتضاه رسوله الأمين صلوات الله وسلامه عليه.

****

ومن مواطن التحول عن التثنية إلى الإفراد كذلك

قوله عز وجل مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام ﴿ **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا (إِنَّا رَسُولُ) رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)** ﴾ الشعراء

حيث وردت لفظة رسول مفردة مع أن ظاهر السياق يقتضي تثنيتها (فقولا إنا) لقد تساءل المفسرون عن سر إفراد تلك اللفظة هنا وتثينتها في سياق آخر للقصة ذاتها، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ **فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. (٤٧)** ﴾ طه

وقد أجاب بعضهم عن هذا التساؤل بأن لفظة رسول من الألفاظ أو الأوصاف المشتركة؛ فهي تعني المرسل- النبى موسى وهارون- أو محتمل القول- الرسالة- حيناً، والرسالة أو القول المتحمل حيناً آخر، فهي بالمعنى الأول في سورة طه، وبالمعنى الثاني في سورة الشعراء، ومن ثم ثنيت في الأولى لأنهما رسولان، وأفردت في الثانية لأنها رسالة واحدة.

---

(٢٤) وكان يجب أن تقال(ليحكما) بينهم.ولاحظ هذا المعنى المبهر الذى أشار إليه توحد الخشية(لله فقط) والطاعة (لله ورسوله) فى الآية بعدها(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)ولم يقل ويخش الله ورسوله، أو ليخشهما

ويتفق الزبير الغرناطي صاحب (ملاك التأويل) مع أصحاب هذا الرأي في أن لفظة رسول تدل على المرسل وعلى الرسالة، غير أنه يضيف أن استخدامها بمعنى المرسل هو اللغة الشهيرة، ولهذا – كما يرى – وردت بهذا المعنى في السورة الأولى في ترتيب المصحف (طه)، ووردت بالمعنى الثاني (الرسالة) في السورة المتأخرة (الشعراء) ثم يعقب على هذا الرأي قائلاً: "وعكس الوارد مخالف للترتيب ولا يناسب".

والواقع أن ورود لفظة رسول في كلتا الآيتين خبراً عن ضمير المتكلمين يبعد القول بأنها تعني في إحداهما غير ما تعنيه في الثانية، أما ما ذكره الغرناطي في سبب استخدامها بالمعنى الأولى في سورة طه، وبالمعنى الثاني في سورة الشعراء فهو أشد بعداً: فما نظن أن ترتب اللغات أو اللهجات العربية من حيث الشهرة أو الذيوع هو من بين الأسرار الكامنة في ترتيب سورة القرآن الكريم.

أما الزمخشري فقد تساءل عند تفسيره لآية الشعراء قائلاً: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله إنا رسولا ربك؟ ثم ذكر في الإجابة عن هذا التساؤل قولين:

أحدهما: ما جرى عليه الرأي السابق من أن لفظة الرسول في آية طه بمعنى المرسل، وفي آية الشعراء بمعنى الرسالة، ومن ثم وحدت كما يفعل الوصف بالمصدر نحو صوم وزور.

الثاني: أنها في آية الشعراء بمعنى الرسول وإنما وحدت لأن حكمهما – عليهما السلام – لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكماً واحداً، فكأنهما رسول واحد.

ولعلنا نلاحظ أن هذا الرأي الثاني – على وجاهته بالقياس إلى الرأي الأول – لا يجيب عن التساؤل الذي طرحه الزمخشري في البداية، بل إنه يثيره من جديد، إذ ما دامت لفظة "رسول" تعني الشخص المرسل في آيتي طه والشعراء فما هو سر تثنيتها في الأولى وإفرادها في الثانية إذن؟!

إننا نطمئن إلى القول بأن لفظة رسول في كل من الآيتين الكريمتين لا تعني سوى الشخص المرسل، أما تثنيتها في آية طه وإفرادها في آية الشعراء فإنه يرجع فيما نحسب – والله أعلم بمراده – إلى اختلاف السياق في كل من السورتين عنه في الأخرى؛ فكل من الآيتين الكريمتين قد سُبقت في سياقها بإعلان الخوف من بطش فرعون وطغيانه، غير أن **هذا الإعلان قد ورد في سورة طه على لسان الرسولين** موسى وهارون عليهما السلام – ومن ثم جاءت لفظة رسول مثناة لبعث الطمأنينة والثقة في قلبيهما، واقتلاع جذور الخوف من نفسيهما معاً: ﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧)**﴾ طه

اما في سورة الشعراء فقد ورد الإخبار عن الخوف من فرعون وآله **على لسان موسى عليه السلام وحده**، ومن ثم كان إفراد لفظة رسول في تلك السورة تهدئة لروعه، وتطميناً لمخاوفه عليه السلام: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦)**﴾

وهذا الرأى ذكره أيضاً الدكتور فاضل السامرائى وقد أفضنا فيه كثيراً فى كتابنا(موسوعة الجلال والجمال فى رسم الكلمة وجرسها فى القرآن الكريم، وكذلك موسوعة اعجاز التكرار فى قصص القرآن المجلد الرابع) وأضيف لذلك ما يلى:

** (**إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ**) طه (**إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الشعراء

ففي سورة طه السياق كله مبني على التثنية من قوله تعالى (**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢)**) إلى قوله (**فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**

(٤٧)) وقوله (**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى** (٦٣))

أما في سورة الشعراء فالسياق كله مبني على الإفراد والوحدة من قوله تعالى (**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** (١٨))

مع العلم أن أوائل السورة فيها تثنية من قوله تعالى (**قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ** (١٥)) إلى قوله (**فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦)) ثم يُغيّب هارون وتعود إلى الوحدة ويستمر النقاش مع موسى وحده (**قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** (٢٧)) ثم يوجّه فرعون الكلام إلى موسى مهدداً إياه وحده (**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** (٢٩)) (**قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ** (٣٠)) (**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** (٣٤)).

قال فى سورة "طه":(**إِنَّا رَسُولَا**)، إضافة لما سبق فإن ذلك لأن الحديث هنا في (طه) حديث عطف وحنان – كما ذكرنا – فيناسب أن يقول لهما: قولا(**إِنَّا رَسُولَا**)،: ناظراً إلى شخصيهما .. ومعلوم أن موسي (بشخصه) سيكون رحيماً علي فرعون، لأنه هو الذي رباه وهو في مقام والده، وكذلك"هارون" فمعلوم عنه- حتى في توراتهم- أنه كان رقيق القلب(وقد نصَّبوه فى مقام الكهنوتية) .. ولذلك كانوا يطلقون علي موسي : إنه زعيم سياسي وحربي، أما هارون فاسندوا إليه لقب الكاهن.. وإنني لأري أن هذا هو السبب الثالث في تقديم (هارون) علي (موسي) في هذه السورة التي تتحدث عن الحنان واللين ، الذى يناسبه تقديم هارون الألين قلباً وله صفة الكهنوتية التى تناسب أيضاً ظل دعاء الذكر والتسبيح السابق.

وهذا الرأي لا يوجد مانع منه في تناسق المشاهد مع الظلال – كما تعودناه دائماً في النظم القرآني- ويبقي سببٌ رابعٌ (لتقديم هارون علي موسي) نذكره بعد قليل حال استعراض حديث السحرة.((وراجع هذه الأسباب فى كتابنا: إعجاز التكرار فى قصص القرآن- المجلد الرابع الذى يتناول قصة موسى عليه السلام)

مع ملاحظة أنه سيقول له(إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ)طه، بإضافة صفة الربوبية لفرعون تحنيناً له وترقيقاً لقلبك، فإن الذى أدعوك إليه هو ربك حبيبك الذى رباك ورعاك، وهذا مناسب لجو السورة من الحنان والعطف والخصوصية، بخلاف قوله فى سورة الشعراء العنيفة فيقول له (**إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الشعراء.

أما فى سورة الشعراء القوية فى أحداثها وفى ظلالها وفى تهديداتها فهما سيقولان له (**إِنَّا رَسُولُ**) والرسول هنا بمعنى (الرسالة)، والرسالة هنا رسالة تهديد وإنذار، وهو ما يتناسب مع السياق القوى الذى سنقف عليه بعد قليل.

وهذا الرأى هو ضمن ما أشار إليه الإمام الزمخشرى فى قوله: فإن قلت: هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله (**إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ**)؟ قلت: الرسول يكون بمعنى المرسل، وبمعنى الرسالة، فجعل ثم – فى سورة طه– بمعنى المرسل فلم يكن بدّ من تثنيته، وجعل هاهنا– فى الشعراء– بمعنى الرسالة، والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قوله:

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بِسِرٍ ولا أرسلتهم برسول

ولكن الإمام الزمخشرى يرى أن صيغة الإفراد(رسول) والتثنية فى (رسولا) واحدٌ – وأنا أقره على ذلك– ولكنه لم يبين السبب فى اختيار كل صيغة فى السورة المناسبة لها حيث يقول: ويجوز أن يوحد، لأنّ حكمهما– أى موسى وهارون– لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة، واتحادهما لذلك وللإخوة كان حكما واحداً، فكأنهما رسول واحد. أو أريد أنّ كل واحد منا (أَنْ) أَرْسِلْ بمعنى: (أى) أرسل، لتضمن الرسول معنى الإرسال. وتقول: أرسلت إليك أن افعل كذا،

وأقول أنا الكاتب: وهذا ما قمت بالتقاطه من الإمام الزمخشرى وقمت بتوضيحه مستصحباً السياق والظل فى السورتين

ونعود بعد توضح هذا الميزان لحديث موسي مع فرعون: بعد أن قالا : فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. وفي سورة الشعراء يقول : إنا رسول رب العالمين :

وفى سورة الزخرف (إنى رسول)- **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (٤٦)-.

ونضيف أيضاً: أما في سورة الزخرف فلم يأت ذكر هارون في سياق السورة كلها أصلاً فقال تعالى (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (٤٦)).

وهذه الآيات الثلاثة لا تعارض فيها وإنما هي لقصة واحدة ذهب موسى وأخاه هارون إلى فرعون وفي كل سورة جاء بجزء من القصة بما يقتضيه السياق في السورة وهذه اللقطات إنما هي مشاهد متعددة يُعبّر عن كل مشهد حسب السياق، وليس في الآيات الثلاثة ما يخالف العربية لأن كلمة رسول تأتي كما قلنا سابقاً مفرد وجمع. كذلك يستعمل القرآن الكريم كلمة طفل مرة وأطفال مرة حسب ما يقتضيه السياق ولا يخرج عن اللسان العربي وسنن العربية.

****

بين الإفراد والجمع (٢):

من ذلك مثلاً إفراد السمع وجمع الأبصار والقلوب في مثل قوله تعالى: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى (قُلُوبِهِمْ) وَعَلَى (سَمْعِهِمْ) وَعَلَى (أَبْصَارِهِمْ) غِشَاوَةٌ** (٧) ﴾ البقرة

وهنا يوقفنا الدكتور حسن طبل على معنى جديد بعد عرض رأى العلماء السابقين فيقول: فلقد جاءت لفظة "سمعهم" مفردة بين جمعين "قلوبهم - أبصارهم" وهي بذلك تشكل في نسق الآية الكريمة تحولين: أولهما عن الجمع إلى الإفراد، والثاني عن الإفراد إلى الجمع.

والحقيقة أنَّا لا نطمئن لمثل تلك الآراء التي رددها مع الزمخشري كثير من المفسرين والتي لا تعدوا أن تكون "محاولات" لتبرير إفراد السمع في الآية عن طريق إثبات نظائره في موروث اللغة، أو الكشف عما يسوغه من قواعد الصرف أو النحو، ولعلنا نتساءل: إذا كان السبب في إفراد السمع هو أمن اللبس فلماذا لم تفرد القلوب والأبصار لهذا السبب ذاته؟ وإذا كان مرد هذا الإفراد هو كون السمع مصدراً في الأصل فإن البصر أيضاً مصدر، فما هو سر المخالفة بينهما إفراداً وجمعاً إذن؟ ... وهكذا نجد أن مثل تلك الآراء التي تدور حول تبرير الظاهرة لا تفسرها بقدر ما تثير التساؤل حولها من جديد!!

وقد ذهب مفسرون آخرون إلى أن السر في هذه المخالفة هو توحد مدركات السمع وتعدد مدركات القلوب والأبصار، هذا ما يقرره صاحب تفسير المنار حيث يقول: والذي آراه أن العقول والأبصار تتصرف في مدركات كثيرة، فكأنها صارت بذلك كثيرة فجمعت، أما السمع فلا يدرك إلا شيئاً واحداً هو الصوت ومن ثم أفرد

وقد نحا الشيخ محمد متولي الشعراوي مثل هذا المنحى في تفسيره لظاهرة إفراد السمع وجمع الأبصار في القرآن الكريم؛ فالأبصار – على حد تعبيره – "تتعدد: أنا ارى هذا وأنت ترى هذا وثالث يرى هذا إلى آخر تعدد الأبصار، وإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئاً، ولكن بالنسبة للسمع فنحن جميعاً ما دمنا

جالسين في مكان واحد نسمع نفس الشيء، ومن هنا اختلف البصر وتوحد السمع".

والواقع أن هذا الرأي – فيما نحسب – غير مسلم به كذلك، وذلك لسببين:

الأول: أن الأصوات أو مدركات السمع تختلف وتتعدد من حيث خصائصها وتنوع مصادرها، شأنها في ذلك شأن المرئيات أو مدركات البصر، وهذا ما لاحظه أبو الفضل القرشي حيث نقل الرأي السابق عن أحد المفسرين ثم عقب عليه قائلاً: ""فيه نظر؛ لأن مدركات السمع أيضاً أنواع مختلفة؛ فإن الصوت مُدْرَك بالسمع وكيفيتها الحرفية وغيرها من الجهارة والخفاء وهي أنواع مختلفة، غاية الأمر أن مدركات القلب والبصر أكثر كثيراً من أنواع مدركات السمع".

الثاني: أننا لو سلمنا بهذا الفارق بين مدركات السمع ومدركات البصر فمن الصعب أن نسلم بكونه السر في إفراد الأولى وجمع الثانية في سياقاتهما المتعددة في القرآن الكريم؛ وذلك لأن هذه السياقات لا تعني المدرَك – بفتح الراء ، أى الشىء المدرَك خارج آلة الإبصار– **بل عملية الإدراك ذاتها** في كلتا الحاستين، فالإدراك السمعي، أو البصري هو – لا المُدرَكات – متعلق الختم أو الغشاوة في آية البقرة، وهو كذلك متعلق الأخذ في قوله تبارك وتعالى:(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ** ..(٤٦)) **الأنعام**.

وهو أيضاً مناط النعمة التي يمن الله على خلقه أن اسبغها عليهم في قوله سبحانه: (**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨)) **النحل**.(فهو يتحدث عن نعمة السمع والبصر ذاتها وليست الأشياء التى ندركها بالسمع والبصر).

وهنا أقف- أنا الكاتب–مستدركاً لآيات لم يقف عليه كاتبنا الحبيب ونقول:

أما إفراد البصر فى قوله تعالى(**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** (٣٦)..) فهو يقصد الفعل نفسه–أى النظر

إلى ما حرم الله وأيضاً سماع ما يغضب الله- ولا يقصد آلة الإدراك- السمع أو البصر نفسها-.

ثم هو – أخيراً – متعلق الملكية الخالصة التي لا يملك المخلوق إلا الإقرار بنسبيتها للخالق عز وجل: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ** (٣١)﴾ يونس.

إننا بذلك نرجح – والله أعلم بمراده – أن إفراد السمع وجمع الأبصار في القرآن الكريم لا يرجع إلى توحد مدركات السمع وتعدد مدركات البصر – على فرض التسليم بذلك – **بل إلى توحد (وسيلة) الإدراك في حاسة السمع، وتعددها في حاسة البصر**، فلقد أثبت علما التشريح ووظائف الأعضاء أن مركز **الحس السمعي** في المخ يمده **عصب دماغي واحد** هو ما يسمى "العصب الثامن"، أما **الحس البصري** فإنه يرتكز **على أربعة أعصاب** تتضافر معاً في إحداثه: وتلك هي: العصبان "الرابع والسادس" المسئولان معاً عن حركة العين في مجال الحقل البصري، ثم "العصب الثالث" المسئول عن حركة العين في جزء من هذا الحقل، وعن التحكم في دخول الضوء للعين، وضبط الحدقة وشكل العدسة حسب نوع الإبصار، ثم – أخيراً – "العصب الثاني" المسئول عن توصيل الصور الساقطة على الشبكية على مراكز الإبصار العليا في مؤخرة الدماغ – فهذا – فيما نحس – هو سر إفراد السمع وجمع الأبصار في سياقاتهما القرآنية التي لا تدور كما رأينا حول ما يسمعه الإنسان أو يبصره، **بل على حقيقة إدراكه السمعي أو البصري ذاتها.**

ولعل من المناسب هنا أن نلاحظ أنه بينما أوثرت لفظة الختم – في آية البقرة – مع السمع أوثرت لفظة الغشاوة مع الإبصار، أي أن في هذه الآية مع العدول عن الإفراد إلى الجمع عدولاً (معجمياً) عن مادة (خ.ت.م) إلى مادة (غ.ش.ي) وكل من المادتين تؤدي معنى تعطل الحاسة، فما سر هذا العدول إذاً؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نشير إلى أن الإدراك البصري هو نتيجة مباشرة لانعكاس صور المرئيات على شبكية العين من خلال العدسة، فإذا كان هناك خلل بالعدسة أو حائل (خارجي) يحول دون ذلك الانعكاس توقف الإدراك البصري تماماً، أما الإدراك السمعي فهو على العكس من ذلك إدراك (داخلي) أي أنه ليس هناك سبب خارجي يحول دونه، بل لقد أثبت علم الطب أن قفل الأذن الخارجية أو فقدانها ليس شرطاً للصمم، وأن عظام الجمجمة (وموصلات أخرى) قد تنوب عن الأذن في نقل الموجات الصوتية إلى العصب السمعي.

لعل ذلك – والله أعلم – هو سر إيثار الختم مع السمع، والغشاوة مع الأبصار في آية البقرة، ولعل مما يؤيد ذلك أن فعل الصمم لم يوقع على الأذن كما أوقع فعل العمى على البصر عند الدلالة على تعطل الحاستين في قوله عز وجل:

﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)** ﴾ **محمد**. إذ لو كان الصمم هو تعطيل الأذن لقيل: فأصم آذانهم كما قيل "وأعمى أبصارهم".

****

ومن أمثلة العدول بين الإفراد والتثنية

كذلك قول الحق تبارك وتعالى:﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ ((يَدُ)) اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ ((يَدَاهُ)) مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦٤)** ﴾ المائدة.

فلقد جاءت لفظة اليد مثناة في دحض تلك الفرية بعد أن ذكرت مفردة على ألسنة أصحابها أو مردديها لعنهم الله، وفي نكتة هذا العدول ذكر المفسرون: أن اليهود قد جعلوا قولهم "يد الله مغلولة" كناية عن نسبة البخل إلى الله جل وتنزه عن ذلك فأجيبوا على وفق كلمهم – أي بطريق الكناية – فقيل: "بل يداه مبسوطتان" بتثنية اليد ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ في الدلالة على إثبات غاية

السخاء له سبحانه، أي ليس الأمر على ما وصفتموه من البخل، بل هو جواد على سبيل الكمال.

ويضيف ابن المنير السكندري ملحظاً دقيقاً في توجيه دلالة التحول عن الإفراد عن التثنية في الآية الكريمة فيقول:

".. لما كان المعهود في العطاء أن يكون بإحدى اليدين وهي اليمين، وكان الغالب على اليهود لعنة الله عليهم اعتقاد الجسمية – جاءت عباراتهم عن اليد الواحدة المألوف منها العطاء، فبين الله تعالى كذبهم في الأمرين: في نسبة البخل إلى الله بأن ذاته صفة الكرم المعبر عنها بالبسط، وفي إضافته إلى الواحدة تنزيلاً منهم على اعتقاد الجسمية، وذلك بأن إضافه إلى اليدين جميعاً، لأن كلتا يديه يمين كما ورد في الحديث تنبيهاً على نفي الجسمية؛ إذ لو كانت ثابتة جل الله عنها لكانت إحدى اليدين يميناً والأخرى شمالاً ضرورة، فلما أثبت أن كلتيهما يمين نفي الجسمية وأضاف الكرم إليهما لا كما يضاف في الشاهد إلى اليمني خاصة؛ إذ الأخرى شمال وليست محلاً للتكرم".

ومن أمثلة هذا العدول أيضاً قوله سبحانه:

﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ (لَكَ وَلِزَوْجِكَ) فَلَا (يُخْرِجَنَّكُمَا) مِنَ الْجَنَّةِ (فَتَشْقَى) (١١٧) ﴾ طه.

ففي إسناد فعل الشقاء إلى الضمير المفرد (المستتر) (**فَتَشْقَى**) العائد على آدم عليه السلام عدول عن إسناده إلى ضمير التثنية الذي يقتضيه ظاهر السياق (**لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا**)، وقد ذكر المفسرون في بيانهم لدلالة هذا العدول رأيين:

الأول: أن في ضمن شقاء الرجل– وهو قيم أهله وأميرهم– شقاءهم، كما أنه في ضمن سعادته سعادتهم، فاختص الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة.

الثاني: أن المراد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك على الرجل دون المرأة.

والرأي الثاني هو أكثر الرأيين قبولاً لسياق الآية الكريمة، ومن ثم فإنه – فيما يبدو لي – هو الأرجح؛ ذلك لأن الأكل أو القوت كان بمثابة "المحور الأساسي" في قصة آدم عليه السلام؛ فهو – من جهة – إحدى النعم التي امتن الله على آدم بتهيئتها له في الجنة، وكفايته مئونة تحصيلها والشقاء من أجلها ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)**﴾ **طه** – وهو – من جهة أخرى – مدار الأمر والنهي في تلك القصة: ﴿**وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ **البقرة: ٣٥** ﴿...**فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ **الأعراف: ١٩** – وهو – من جهة ثالثة – سبب حرمان آدم وزوجه من الجنة .. ﴿**فَأَكَلَا مِنْهَا**﴾ **طه: ١٢١** ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ **البقرة: ٣٦ –** فكأن هذه الأكلة الشيطانية قد كانت بمثابة الحد الفاصل بين تنعمهما – معاً – بلذائذ الطعام في ربوع الجنة، وشقاءه عليه السلام – وحده – في سبيل الكدح من أجله بعد الهبوط منها.

****

(جـ) بين التثنية والجمع:

من المواطن القرآنية التي تحقق فيها التحول عن التثنية إلى الجمع قوله سبحانه: ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ** .. (**١٩**)﴾ الحج – حيث اسند فعل الاختصام إلى ضمير الجماعة (اختصموا) لا إلى ضمير التثنية (اختصما) الملائم لظاهر السياق – يقول الزمخشري عند تفسيره لتلك الآية:"... الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان، وقوله هذا اللفظ واختصموا للمعنى كقوله: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا .. ولو قيل: هؤلاء خصمان أو اختصما جاز – يراد المؤمنون والكافرون".

ولعلنا نلاحظ أن الزمخشري بهذه العبارات لم يتجاوز نطاق تبرير الظاهرة أو تسويغها لغويهاً عن طريق القول بأنها من باب الحمل على المعنى (اختصموا) بعد الحمل على اللفظ (هذا خصمان) – أما سر المزاوجة بين الحملين أو علاقتها بالسياق الذي وردت فيه الآية الكريمة فإن ذلك ما لم يدر بخلده التوقف للبحث عنه.

ولكي نستجلى سر هذا العدول في الآية الكريمة نود – أولاً – أو نلاحظ:

أن هذه الآية مسوقة لبيان مصير كل من الخصمين – المؤمنين والكفار – يوم القيامة ﴿...**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠)**﴾ الحج ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)**﴾ الحج.

وفي آية سابقة على تلك الآية يخبرنا المولى عز وجل بأن يوم القيامة هو موعد الفصل بين طوائف الأديان أو أصحاب الملل المختلفة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)**﴾ الحج.

** أن فعل الاختصام الذي تمثل فيه العدول عن التثنية إلى الجمع قد جاء بصيغة الماضي (اختصموا) مما يدل على أن الخصومة بين الخصمين قد حدثت قبل زمن الإشارة إليهما (هذان خصمان).

لعلنا في ضوء الملاحظات الثلاث نستطيع القول: إن الخصمين المشار إليهما في الآية الكريمة هما في الأصل تلك الفرق أو الملل المختلفة التي حددتها الآية السابقة عليها، وعلى ذلك فإن التثنية في "هذان خصمان" هي – والله أعلم – للدلالة على أن تلك الفرق سوف تستحيل يوم القيامة (وبعد أن يفصل الله بينها) إلى فريقين – مؤمنين وكفار – فحسب، أما الجمع في "اختصموا" فمنظور فيه إلى الحال التي كانت عليها تلك الفرق في الدنيا، من تعدد التسميات، واختلاف المذاهب، وتضارب المسالك في قضية العقيدة وتصور الألوهية، ونحن في ضوء هذا التوجيه لدلالة العدول في الآية الكريمة نرفض تلك المقولة التي رددها مع الزمخشري وغير واحد من المفسرين من أنه لو قيل: هؤلاء خصمان اختصما لجاز؛ إذ كيف تجوز الإشارة إلى فريقين بهؤلاء؟ وكيف يجوز الإخبار عن الخصومة والاختلاف بين تلك الطوائف المتعددة بطريق التثنية (اختصما)؟

ومن مواطن التحول عن الجمع إلى التثنية قوله تبارك وتعالى:

﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ (الْخَصْمِ) إِذْ (تَسَوَّرُوا) الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ (دَخَلُوا) عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ (مِنْهُمْ) (قَالُوا) لَا تَخَفْ (خَصْمَانِ) بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢)** ﴾ ص.(خصمان)... (إذ دخلوا).(مثنى لجمع) إذ في مجيء لفظة خصمان مثناة مخالفة لما يقتضيه ظاهر السياق الحافل قبلها بضمائر الجمع (ادخلوا . منهم . قالوا).

لقد تساءل الزمخشري عن وجه تلك المخالفة قائلاً: فإن قلت هذا جمع وقوله خصمان تثنية فكيف استقام ذلك؟ ثم أجاب قائلاً: معنى خصمان فريقان خصمان والدليل عليه قراءة من قرأ: خصمان بغى بعضهم على بعض، ثم يضيف الزمخشري أن تفسير الخصمين بمعنى الفريقين لا يتنافى مع ما هو معلوم من سياق تلك القصة من أن الخصومة كانت بين شخصن اثنين؛ ذلك لأنه قد كان مع كل منهما صحب وأعوان يساندونه في خصومته ضد الآخر، فهما – إذن – فريقان.

والزمخشري هنا يبدو معنياً لا ببيان نكتة التحول عن الجمع إلى التثنية، بل بالكشف عن وجه أطراد المعنى واتساق الدلالة – مع هذا التحول – في مسار القصة وذلك ما يبدو جلياً في طبيعة التساؤل الذي طرحه في البداية (وكيف استقام ذلك؟).

ولعل مما يجلي هذه النكتة ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوماً يخلو فيه للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً للوعظ والتذكير، وأن هؤلاء الخصم قد دخلوا عليه في يوم خلوته.

ففي ضوء ما ذكره ابن عباس نستطيع القول – والله أعلم – إن في العدول عن الجمع إلى التثنية على ألسنة هؤلاء الخصم إيحاء برغبتهم في تهدئة روع داود عليه السلام بعد أن أحسوا بفزعه، فكأنهم أدركوا أن هذا الفزع ليس لأنهم

تسوروا عليه محرابه فحسب، بل لخوفه كذلك أن يضيع يوم خلوته للعبادة في الفصل بينهم، ومن ثم كان في إيثار العدول إلى التثنية على ألسنتهم "خصمان" إيماء إلى حرصهم على تطمينه من هذا الجانب، فكأنهم **بذلك يبادرونه بالقول: لا تخف من ضياغ يومك؛ فهذه الجموع التي تراها لم تأت إلا من أجل خصومة واحدة.**

ويقول الإمام الطاهر: وَضمير الْجمع(فى: تسوروا) مُرَادٌ بِهِ الْمُثَنَّى، وَالْمَعْنَى: إِذْ تَسَوَّرَا الْمِحْرَابَ، وَالْعَرَبُ يَعْدِلُونَ عَنْ صِيغَةِ التَّثْنِيَةِ إِلَى صِيغَةِ الْجَمْعِ إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ قَرِينَةٌ لِأَنَّ فِي صِيغَةِ التَّثْنِيَةِ ثِقَلًا لِنُدْرَةِ اسْتِعْمَالِهَا، قَالَ تَعَالَى: فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما. أَيْ قَلْبَاكُمَا.

ويقول صاحب تفسير الوسيط: وقال- سبحانه-: اصْبِرْ عَلى (ما يَقُولُونَ) بصيغة المضارع، لاستحضار الصورة الماضية. وللإشعار بأن ما قالوه في الماضي سيجددونه في الحاضر وفي المستقبل فعليه أن يعد نفسه لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بصبر وسعة صدر حتى يحكم الله- تعالى- بحكمه العادل، بينه وبينهم.

****

ومن مواطن العدول بين التثنية والجمع

**** كذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **(وَإِنْ (طَائِفَتَانِ) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (اقْتَتَلُوا) فَأَصْلِحُوا (بَيْنَهُمَا) ..(٩)** ﴾ الحجرات.

ففي تلك الآية الكريمة تحول عن التثنية إلى الجمع في (طائفتان – اقتتلوا–)، ثم تحول عن الجمع بالعودة إلى التثنية (اقتتلوا – فأصلحوا بينهما–)، وفي هذين التحولين – والله أعلم – إبراز اللبون الشاسع بين داعي الصلح ودواعي الاقتتال، أي بين توحد الكلمة – في كل الطائفتين – في حال الصلح ودواعي الاقتال، أي بين توحد الكلمة – في كل من الطائفتين – في حال الصلح، وتشتت الآراء وتطاير شرر النفوس وانقسام الصف الواحد – في كل منهما – إلى صفوف في حال الاقتتال، – وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازي في تفسيره لدلالة هذين التحولين في الآية الكريمة، فهو يقول: "عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة، وكل أحد برأسه يكون فاعلاً

فعلاً فقال: اقتتلوا ... وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة، وإلا لم يكن يتحقق الصلح، فقال: (بينهما) لكون الطائفتين حينئذ كنفسين".

والطائفة يعبر عنها بالجمع لأنها جمع فى الحقيقة – فتَرِد بصيغة الجمع على المعنى- ويمكن أن يُعَبِّر عنها بالمفرد- وذلك على اللفظ (فالطائفة مفرد مؤنث)- فروعي فيه اللفظ في قوله (بَيْنَهُما). هكذا ذكر علماؤنا لبيان جواز الجمع والإفراد من ناحية اللغة.

أما لماذا يأتى السياق بها مرة مفردة ومرة أخرى مثنى ومرة أخرى جمعاً فذلك لأن (الطائفة فيها أعدادٌ كثيرة –مئات أو آلاف-) وحين الاقتتال فإن هذه الأعداد فى كل طائفة تتقاتل مع الأعداد فى الطائفة الأخرى، ومن هنا جاء(الالتفات) إلى صيغة الجمع فى قوله(اقتتلوا)، أما فى حال الصلح فإن زعيم كل قبيلة يعقد الصلح مع زعيم القبيلة الأخرى، فالطائفتان يتحدث عنهما- فى حال الصلح- بصيغة التثنية (فَأَصْلِحُوا (بَيْنَهُما))

وقال صاحب تفسير الوسيط: قالوا: والنكتة في ذلك أنهم في حال القتال يكونون مختلطين فلذا جاء الأسلوب بصيغة الجمع، وفي حال الصلح يكونون متميزين متفرقين فلذا جاء الأسلوب بصيغة التثنية.

****

****ومثل ذلك** فى قوله تعالى عن صالح عليه السلام

** ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا (هُمْ)**- جمع- (**فَرِيقَانِ**) - مثنى- (**يَخْتَصِمُونَ**) - جمع- (٤٥)﴾ النمل. لنفس هذا السبب السابق

وكذلك فى قوله تعالى(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ**- مثنى- **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** – جمع، وكان حقها أن تكون طائعتين، ولكنه عدل عن المثنى إلى الجمع لأنه أراد أن تكون الطاعة والانقياد للسماء والأرض ومن فيهما من المخلوقات العاقلة)

**ولعل ذلك أيضاً ما نراه فى المثال التالى :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ**- مثنى- **وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ**- جمع﴾ ، لأنه قصد ما يشير إليه العلم الحديث من أن الشمس هى عدة شموس(٥٠٠مليون شمس) ومعها العدد الكثير من الأقمار أيضاً، فتحت لفظ الشمس جمع، وكذلك تحت القمر، فجاءت صيغة السجود لكل فرد من هذه الأعداد فلا يتأخر شىء منها عن السجود، أما الخلق فيكفى أن يشير إلى جنس الشمس وجنس القمر وهما حينئذٍ مثنى.

كما فى قَوْلِهِ: (**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ** (**وَاللَّهُ**) **عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (**بدلاً من(وهو العزيز الحكيم)**) الآية.

ويقول الإمام الطاهر: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا- مثنى- **نَكَالًا مِنَ اللَّهِ** (**وَاللَّهُ**) **عَزِيزٌ حَكِيمٌ**- ولم يقل (وهو) عزيز حكيم وهو من باب الإظهار فى مقام الإضمار- (٣٨) **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ** (**اللَّهَ**) **يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ** (**اللَّهَ**) **غَفُورٌ رَحِيمٌ** (**٣٩**) وهو أيضاً إظهار فى مقام الإضمار.

وَقَوْلُهُ: فَاقْطَعُوا (أَيْدِيَهُما) ..فهو يقصد اليدين وهو مثنى وكان يجب أن تقال يديهما- مثنى- ولكنه أتى بها على الجمع فقال (أَيْدِيَهُما). وهنا يقول الإمام الطاهر: وَجُمِعَ الْأَيْدِي بِاعْتِبَارِ أَفْرَادِ نَوْعِ السَّارِقِ(٢٥) وَثُنِّيَ الضَّمِيرُ بِاعْتِبَارِ الصِّنْفَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فَالْجَمْعُ هُنَا مُرَادٌ مِنْهُ التَّثْنِيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما (التَّحْرِيم: ٤) .والمراد به قلب زوجتين من أزواج النبى(ﷺ) وهو كمثال (وإن طائفتان...اقتتلوا).

وقال غيره من العلماء: وجمع- سبحانه- اليد فقال «أيديهما» ولم يقل يديهما بالتثنية، لأن فصحاء العرب يستثقلون إضافة المثنى إلى ضمير التثنية.

ويقول الإمام الطاهر:﴿ **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ** (**ظَهِيرٌ**) (**٤**) ﴾ التحريم.

---

(٢٥)لأنه لا يقصد بالطبع الحكم على سارق واحد بل الحكم على كل سارق

فالآية فيها التفاتان: الأول فى صيغة الجمع (قلوبكما) بدل (قلبيكما). والثانية فى إفراد كلمة(ظهير) وكان يجب أن تكون(ظهراء) فهو التفات فى وضع المفرد مكان الجمع

أما من حيث السياق فهو **الْتِفَاتٌ مِنْ ذِكْرِ الْقِصَّتَيْنِ إِلَى مَوْعِظَةِ مَنْ تَعَلَّقَتْ بِهِمَا**(٢٦) فَهُوَ اسْتِئْنَافُ خِطَابٍ وَجَّهَهُ اللَّهُ إِلَى حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ (**إِنْ تَتُوبَا–أنتما– إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**) لِأَنَّ إنباء النبيِء (ﷺ)بِعِلْمِهِ بِمَا أَفْشَتْهُ(عائشة أو حفصة) الْقَصْدُ مِنْهُ الْمَوْعِظَةُ وَالتَّحْذِيرُ وَالْإِرْشَادُ **إِلَى رَأْبِ مَا** انْثَلَمَ مِنْ وَاجِبِهَا نَحْوَ زَوْجِهَا(٢٧).وَإِذْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ إِثْمًا لِأَنَّهُ إِضَاعَةٌ لِحُقُوقِ الزَّوْجِ وَخَاصَّةٌ بِإِفْشَاءِ سِرِّهِ ذَكَّرَهَا بِوَاجِبِ التَّوْبَةِ مِنْهُ.(فاستحق استحضارهما ومواجهتهما بالنصح– إن تتوبا)

وَإِذْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مُثَنَّى كَانَتْ صِيغَةُ الْجَمْعِ فِي (قُلُوبٍ) مُسْتَعْمَلَةً فِي الِاثْنَيْنِ طَلَبًا لِخِفَّةِ اللَّفْظِ عِنْدَ إِضَافَتِهِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُثَنَّى كَرَاهِيَةَ اجْتِمَاعِ مُثَنَّيَيْنِ(قلبيكما) فَإِنَّ صِيغَةَ التَّثْنِيَةِ ثَقِيلَةٌ لِقِلَّةِ دَوَرَانِهَا فِي الْكَلَامِ. فَلَمَّا أُمِنَ اللَّبْسُ سَاغَ التَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ عَنِ التَّثْنِيَةِ.

وَهَذَا اسْتِعْمَالٌ لِلْعَرَبِ غَيْرُ جَارٍ عَلَى الْقِيَاسِ. وَذَلِكَ فِي كُلِّ اسْمٍ مُثَنًّى أُضِيفَ إِلَى اسْمٍ مُثَنًّى فَإِنَّ الْمُضَافَ يَصِيرُ جَمْعًا كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ

وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ وَأَفْصَحُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُعَبِّرُوا بِلَفْظِ الْجَمْعِ مُضَافًا إِلَى اسْمِ الْمُثَنَّى لِأَنَّ صِيغَةَ الْجَمْعِ قَدْ تُطْلَقُ عَلَى الِاثْنَيْنِ فِي الْكَلَامِ فَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ.

---

(٢٦)(يقصد أن الحديث فى السياق قبلها كان بصيغة الغيبة عنهما ثم تحول إلى صيغة الخطاب والنصح هكذا(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ– هن– وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ – هن– حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ– هى– وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا– هى– بِهِ قَالَتْ – هى– مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)ثم تحول الخطاب إليهما– وليس عنهما–فقال: إِنْ تَتُوبَا–أنتما– إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا – جمع وخطاب حاضر–)

(٢٧) (وقد ذكرنا من قبل أن النصح والموعظة يستحق أن يكون بصيغة الخطاب والمواجهة وذلك مثال قوله تعالى: عَبَسَ وَتَوَلَّى – هو–(١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى– هو– (٢) فجاء خطاب الغيبة لأنه فى سياق عتاب تكرهه النفس، أما حينما جاء دور النصح والموعظة فى الآيات بعدها توجه السياق إلى صيغة الخطاب والمواجهة فقال: وَمَا يُدْرِيكَ– أنت– لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)

ويقول صاحب التفسير الوسيط: وجاء الخطاب لهما على سبيل الالتفات من الغيبة (**فَلَمَّا نَبَّأَهَا**- هى- **بِهِ قَالَتْ** - هى- **مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا**) إلى الخطاب(إن تتوبا) ، مبالغة في المعاتبة، فإن المبالغ في ذلك يوجه الخطاب إلى من يريد معاتبته مباشرة.

وقال- سبحانه- (**فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**) بصيغة الجمع للقلوب، ولم يقل (قلباكما) بالتثنية، لكراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة، مع ظهور المراد، وأمن اللبس.

ولكن الإمام الرازى يرى أن: الْمُرَادُ بِالْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلُوبُكُما التَّثْنِيَةُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: وَإِنَّمَا اخْتِيرَ الْجَمْعُ عَلَى التَّثْنِيَةِ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ الْجَوَارِحُ اثْنَانِ اثْنَانِ فِي الْإِنْسَانِ كَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ، فَلَمَّا جرَى أكثره على ذلك ذهب الواحد مِنْهُ إِذَا أُضِيفَ إِلَى اثْنَيْنِ مَذْهَبُ الِاثْنَيْنِ)

ويبقى نوع آخر من الالتفات فى هذه الآيات الكريمة وهو فى صيغة الفعل (نبَّأ) و(أنبأ) عشناه على الصفحات الماضية تحت هذا العنوان.

****

ومن تلك الأمثلة قوله تعالى:

** ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ** — ان استطعتما- **أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا** — جمع - **لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥)** ﴾

هكذا حدث الالتفات من مثنى لجمع ثم لمثنى{يَا مَعْشَرَ الجن والإنس} هما الثقلانِ خوطِبا باسمِ جنسِهما- أى جنس الجن وما يشمله، وجنس الإنس وما يشمله- لزيادةِ التقريرِ، ويقول الإمام الرازى: (٢٨)لأنه يقصد جميع الآحاد من الفريقين.

---

(٢٨)الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: مَا الْحِكْمَةُ فِي تَقْدِيمِ الْجِنِّ على الإنس هاهنا وَتَقْدِيمِ الْإِنْسِ عَلَى الْجِنِّ فِي قَوْلُهُ تَعَالَى:قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ؟ (الإسراء: ٨٨) نقول: النفوذ من أقطار السموات وَالْأَرْضِ بِالْجِنِّ أَلْيَقُ إِنْ أَمْكَنَ، وَالْإِتْيَانُ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ بِالْإِنْسِ أَلْيَقُ إِنْ أَمْكَنَ، فَقَدَّمَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مَنْ يُظَنُّ بِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ. ولأنَّ الجنَّ مشهورونَ بالقدرةِ على الأفاعيلِ

وأقول: نلاحظ أن المعشر- برنة مفعل- اسم للجمع الكثير الذي يعد عشرة فعشرة. فهو يتحدث عن معشر الإنس ومعشر الجن، وكما يقول الإمام الرازى: الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: الْمَعْشَرُ الْجَمَاعَةُ الْعَظِيمَةُ، وَتَحْقِيقُهُ هُوَ أَنَّ الْمَعْشَرَ الْعَدَدُ الْكَامِلُ الكثير الذي لا عدد بعده إلا بابتداء فِيهِ حَيْثُ يُعِيدُ الْآحَادَ وَيَقُولُ: أَحَدَ عَشَرَ وَاثْنَا عَشَرَ وَعِشْرُونَ وَثَلَاثُونَ، أَيْ ثَلَاثُ عَشَرَاتٍ فَالْمَعْشَرُ كَأَنَّهُ مَحَلُّ الْعَشْرِ الَّذِي هُوَ الْكَثْرَةُ الْكَامِلَةُ.

وأرى أن الطلب من جنس الفريقين (المجموعتين) ولكن التحدى القوى جاء لكل فرد منهم، كما نقول أتحداكم فرداً فرداً (وليس مجموعتين)، حتى يكون التأكيد على أن التحدى جاءهم جميعاً فرداً فرداً وليس مجموعة مجموعة،وهذا أبلغ فى التحدى لأننى ربما أقف فى المسجد مثلاً بعد إلقاء الدرس وأسأل الفريق المتواجد هل فهمتم فيقولون نعم فهمنا ولكن ذلك الرد- جاء من مجموعهم- لا يعنى إقرار جميع الأفراد بذلك بل ربما يعنى إقرار أغلبهم وربما يكون واحد أو أثنين أو أكثر يكون قد توارى برأيه داخل هذا المجموع ربما يكون خجلاً أو لم يظهر بينهم،

ولذلك فالنص يقررهم فرداً فرداً فى المجموعتين ولم يعد التحدى القوى للمجموعتين بل لتقرير كل فرد حتى لا يبقى أحدٌ منهم لم يصله تحدى الله عز وجل لهم، فجاء النظم لقوة التحدى بلفظ الجمع الذى فى المجموعين- الإنس والجن- (فانفذوا) وليس المثنى.. ولكن فى حال شكر النعمة- **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا (تُكَذِّبَانِ)** – يخاطبهم كمجموعتين – وكأنه يطلب الشكر من كل مجموعة وليس من كل فرد فى المجموعة وكأنه بذلك لا يشدد عليهم فى طلب الشكر بحيث يطلبه من كل فرد ، وهذا نراه من غاية الرحمة بعباده- كما قال بذلك بعض العلماء- وكأن المجموعة التى تشكر تكفى لأن تغفر الذنب لبعض الأفراد منهم الذين لا يشكرون رحمة بهم وكرامة لمجموعهم، وكأنه يقول(هم القوم لا يشقى جليسهم)، وهذا يذكرنا بشرحٍ عظيم للإمام ابن تيمية وهو يشرح مقدمة خطبة الحاجة للحبيب محمد(ﷺ)

الشاقةِ فخُوطبوا بما ينبِىءُ عن ذلكَ لبيان أن قدرتَهُم لا تَفِي بما كُلِّفُوه (إِنِ استطعتم) (أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السماوات والأرض).

حيث يقول (الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره....بصيغة الجمع، ثم يقول: وأشهد أن لا إله إلا الله .. (ولم يقل: ونشهد أن لا إله إلا الله- بصيغة الجمع-) وقد أشار الإمام بأن ذلك لأن الشكر لله يمكن أن يقوم به الإمام نائباً عنا وكذلك الاستعانة والاستغفار، لكن شهادة التوحيد فلا يستطيع أن يؤديها الإمام إلا عن نفسه فقط.. وهذا الشرح اقتبسه أيضاً من شرح مماثل للإمام ابن القيم فى قوله تعالى:(أيود أحدكم) ولم يقل أتودون (يا مجموعة)- وقال بمثل ذلك الشرح بأنه لا يوجد فرد واحد (أحدنا) يرضى بذلك، وإليك الشرح مع السياق:

** ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ** (إِنِ) **اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**-جمع فى صيغة التحدى كأنه يتحدى مجموعهم فرداً فرداً، ولكن عند طلب الشكر للنعمة كان المثنى المشير إلى المجموعتين هكذا:- **(٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** (٣٤) **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥)** ﴾

وهنا يقول الإمام الرازى: الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: كَيْفَ ثَنَّى الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: عَلَيْكُما مَعَ أَنَّهُ جُمِعَ قَبْلَهُ بِقَوْلِهِ: **إِنِ اسْتَطَعْتُمْ** (الرحمن: ٣٣) وَالْخِطَابُ مَعَ الطَّائِفَتَيْنِ وَقَالَ: **فَلا تَنْتَصِرانِ** وَقَالَ من قبل: **لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ**؟(الرحمن: ٣٣) نَقُولُ: فِيهِ لَطِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّ قَوْلَهُ: إن اسْتَطَعْتُمْ لِبَيَان عَجْزِهِمْ وَعَظَمَةِ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: **إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا بِاجْتِمَاعِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ فَانْفُذُوا**، وَلَا تَسْتَطِيعُونَ لِعَجْزِكُمْ فَقَدْ بَانَ عِنْدَ اجْتِمَاعِكُمْ وَاعْتِضَادِكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَهُوَ عِنْدَ افْتِرَاقِكُمْ أَظْهَرُ،(فأتى بصيغة الجمع(لا تنفذون) فَهُوَ خِطَابٌ عَامٌّ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ عِنْدَ الِانْضِمَامِ إِلَى جَمِيعِ مَنْ عَدَاهُ مِنَ الْأَعْوَانِ وَالْإِخْوَانِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: **يُرْسَلُ عَلَيْكُما** فَهُوَ لِبَيَان الْإِرْسَال عَلَى النَّوْعَيْنِ لَا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِأَنَّ جَمِيعَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لَا يُرْسَلُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَالنَّارُ، فَهُوَ يُرْسَلُ عَلَى النَّوْعَيْنِ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهُ بَعْضٌ مِنْهُمَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنَ الْأَقْطَارِ

أَصْلًا، وَهَذَا يَتَأَيَّدُ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ قَالَ: لَا فِرَارَ لَكُمْ قَبْلَ الْوُقُوعِ، وَلَا خَلَاصَ لَكُمْ عِنْدَ الْوُقُوعِ لَكِنْ عَدَمُ الْفِرَارِ عَامٌّ وَعَدَمُ الْخَلَاصِ لَيْسَ بِعَامٍّ وَالْجَوَابُ الثَّانِي: مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ، هُوَ أَنَّ الْخِطَابَ مَعَ الْمَعْشَرِ فَقَوْلُهُ: إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَيُّهَا الْمَعْشَرُ وَقَوْلُهُ: يُرْسَلُ عَلَيْكُما لَيْسَ خِطَابًا مَعَ النِّدَاءِ بَلْ هُوَ خِطَابٌ مَعَ الْحَاضِرِينَ وَهُمَا نَوْعَانِ وَلَيْسَ الْكَلَامُ مَذْكُورًا بِحَرْفِ وَاوِ الْعَطْفِ حَتَّى يَكُونَ النَّوْعَانِ مُنَادَيَيْنِ فِي الْأَوَّلِ، **وَعِنْدَ عَدَمِ التَّصْرِيحِ بِالنِّدَاءِ فَالتَّثْنِيَةُ أَوْلَى** كَقَوْلِهِ تَعَالَى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما وَهَذَا يتأيد بقوله تعالى: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (الرحمن: ٣١) **وَحَيْثُ صَرَّحَ بِالنِّدَاءِ جَمَعَ الضَّمِيرَ (لَكُمْ) فهو يناديهم جميعاً فرداً فرداً**، وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: فَبِأَيِّ آلاءِ (رَبِّكُما) حَيْثُ لَمْ يُصَرِّحْ بِالنِّدَاءِ.

ويقول الإمام الألوسى: وقرأ زيد بن علي **إن استطعتما** رعاية للنوعين وإن كان تحت كل أفراد كثيرة والجمع لرعاية تلك الكثرة وقد جاء كل في الفصيح نحو قوله تعالى: وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما (الحجرات: ٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

ويقول الإمام الطاهر: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ (٣٣)

هَذَا مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، وَلَيْسَ خِطَابًا لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَالتَّقْدِيرُ: فَنَقُولُ لَكُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ** (الْأَنْعَام: ١٢٨) **الْآيَةِ**، أَيْ فَنَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ، وَتقدم فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

ويقول صاحب تفسير الوسيط: وقال- سبحانه-: **وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ** ولم يقل ويبقى **وجه ربكما**. كما في قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما...(وهو نوع من الالتفات)

لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التكريم والتشريف، ويدخل تحته كل من يتأتى له الخطاب على سبيل التبع.

ومن تلك المواطن كذلك قوله عز وجل:

** ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ (لَهَا وَلِلْأَرْضِ) (ائْتِيَا) طَوْعًا أَوْ كَرْهًا (قَالَتَا) أَتَيْنَا (طَائِعِينَ) (١١)** ﴾ فصلت

يقول الزمخشري في تفسيره لتلك الآية: فإن قلت: هلا قيل (طائعتين) على اللفظ أو طائعات على المعنى لأنها سماوات وأرضون؟ قلت: لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين". فتنزيل السماء والأرض في الآية الكريمة منزلة العقلاء في توجيه الأمر إليهما، ووصفهما بالاستجابة والانقياد هو – كما يرى الزمخشري – سر وصفهما بالطاعة بصيغة جمع المذكر العاقل (طائعين) عدولاً عن صيغة المثنى المؤنث (طائعتين) التي يقتضيها ظاهر السياق (قالتا) وعن صيغة جمع المؤنث (طائعات) الملائمة لما لا يعقل.

ونود هنا أن نلاحظ أن القيمة التعبيرية لهذا العدول كما تتجلى في ملاءمة صيغة الجمع (المعدول إليها) لنسق الآية الكريمة – كما أشار الزمخشري وغيره – تتجلى كذلك في ملاءمتها للسياق الذي وردت فيه تلك الآية؛ ففي صدر هذا السياق كان الأمر موجهاً إلى رسول الله (ﷺ) بمواجهة الكفار بحقيقة كفرهم، ومجابهتهم بمدى ما صاروا إليه من ضلال حين جعلوا للخالق – تنزه وجل عن ذلك – أنداداً: (**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠)**) فصلت. وفي نهايته كان أمره عليه السلام بإنذار هؤلاء الكفار بسوء العقبي وفداحة المصير إن أعرضوا عن الهداية واستمروا سبيل الضلال: (**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)**) فصلت.

وبين هذين الأمرين جاء توجيه الأمر إلى السماء والأرض – في الآية التي بين أيدينا – وجاء الإخبار عن طاعتهما متضمناً هذا العدول عن صيغتي التثنية وجمع غير العاقل إلى صيغة جمع العقلاء (طائعين)، وفي ذلك – والله أعلم – تعريض بهؤلاء الذين ضلت عقولهم، فتردت بهم سفاهتهم في هوة الشرك والغواية، فكأن

الآية الكريمة بتضمنها هذا العدول في ذلك السياق تجسد المفارقة الواضحة بين تلك الجمادات التي لا تملك إلا الطاعة والانقياد المطلق لجبروت الخالق عز وجل،(والتى أتت طائعة طاعة العقلاء) وبين هؤلاء الملاحدة من بني البشر (العقلاء) الذين تعطلت عقولهم فانغمسوا في مباءة المعصية بين إشراك به واقع، وإعراض عن تذكيرهم بآياته ودلائل قدرته متوقع.

ويقول الإمام الطاهر: وَإِنَّمَا جَاءَ قَوْلُهُ: طائِعِينَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِأَنَّ لَفْظَ السَّمَاءِ يَشْتَمِلُ عَلَى سَبْعِ سَمَاوَاتٍ كَمَا قَالَ تَعالَى إِثْرَ هَذَا فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ ، فَالِامْتِثَالُ صَادِرٌ عَنْ جَمْعٍ، وَأَمَّا كَوْنُهُ بِصِيغَةِ جَمْعِ الْمُذَكَّرِ فَلِأَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لَيْسَ لَهُمَا تَأْنِيثٌ حَقِيقِيٌّ.(٢٩)

****

﴿ قَدْ (كَانَ) لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (فِئَةٌ) تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ (يَرَوْنَهُمْ) مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ آل عمران إفراد ثم جمع.(فئة.. ترونهم) بدلاً من (ترونها)

وفيها يقول الإمام الرازى: **{يَرَوْنَهُمْ}** – وكان حقها أن تكون (**وَأُخْرَى كَافِرَةٌ (يَرَوْنَهُا) مِثْلَيْهِمْ**)– أي يري الفئةُ الأخيرةُ الفئةُ الأولى– وإيثارُ صيغة الجمعِ **{يَرَوْنَهُمْ}** للدلالة على **شمول الرؤيةِ لكل واحدٍ واحدٍ من آحاد الفئة** (ليبين أن جميع الأفراد رأو ذلك فرداً فرداً)، وأقول: حدث ذلك ليتذكروا نعمة النجاة هذه ولا ينسونها.

****

---

(٢٩) وَأَمَّا كَوْنُهُ بصِيغَةِ جمْعِ الْعُقَلَاء فَذَلِكَ تَرْشِيحٌ لِلْمَكْنِيَّةِ الْمُتقَدِّمَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ تعَالَى: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (يُوسُف: ٤) .وَاسْتَعْمَلَ ضَمِيرَ جَمْعِ الْمُذَكَّرِ لِلْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي قَوْلِهِ: رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ، لِأَنَّ كَوْنَ ذَلِكَ لِلْعُقَلَاءِ غَالِبٌ لَا مُطَّرِدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْأَصْنَامِ وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (سُورَة الْأَعْرَاف: ١٩٨) ، وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا (سُورَة النَّمْلُ: ١٨) .

وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْحَالَةُ الْمَرْئِيَّةُ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حَالَةَ الْعُقَلَاءِ، وَهِيَ حَالَةُ السُّجُودِ نَزَّلَهَا مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهَا ضَمِيرَ (هُمْ) وَصِيغَةَ جَمْعِهِمْ.

** ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)** ﴾ التوبة.

يقول الإمام الزمخشرى: فإن قلت: لم قيل: ولا ينفقونها، وقد ذكر شيئان؟ قلت: ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ: لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم، فهو كقوله وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا وقيل: ذهب به إلى الكنوز. وقيل: إلى الأموال. وقيل: معناه ولا ينفقونها والذه كما أن معنى قوله: فَإِنِّى وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ،أى: وقيار كذلك.

ويزيد الإمام الرازى بعض الأمثلة منها: **وَثَانِيهَا:** أَنَّ ذِكْرَ أَحَدِهِمَا قَدْ يُغْنِي عَنِ الْآخَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها** جَعَلَ الضَّمِيرَ لِلتِّجَارَةِ.((وأقول لأنها هى المعنية بالسياق وواقع الحال وقت نزول الآية حيث تركوا الإمام فى صلاة الجمعة وذهبوا للتجارة التى أتى بها عثمان، ولذلك كان التعميم اللهو والتجارة – لتكون قاعدة عامة– ثم يلتفت إلى واقعة الخصوص عن التجارة(انفضوا إليها)– وَقَالَ: (**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً**) [النِّسَاءِ: ١١٢] فَجَعَلَ الضَّمِيرَ لِلْإِثْمِ.

****

﴿ **وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾ يوسف. يقول الإمام الطاهر: وَأَفَادَ فِعْلُ الْكَوْنِ فِي الْمُضِيِّ– بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ– أَنَّ الْمُرَادَ مَا عَمِلُوهُ فِيمَا مَضَى. وَأفَاد صوغ (يَعْمَلُونَ) بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ أَنَّهُ أَعْمَالٌ (مُتَكَرِّرَةٌ) مِنَ الْأَذَى.(حيث كان حقها أن تقال (بما عملوا)) وَفِي هَذَا تَهْيِئَةٌ لِنَفْسِ أَخِيهِ– أخو يوسف– لِتَلَقِّي حَادِثِ الصُّوَاعِ بِاطْمِئْنَانٍ⁽٣٠⁾ حَتَّى لَا يَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِمَحَلِّ الرِّيبَةِ مِنْ يُوسُفَ– عَلَيْهِ السَّلَام⁽٣١⁾

** ﴿ **قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)** ﴾
وكان حقها أن يقول: (قالوا نفقد.. ونحن به زعماء)

---

(٣٠) أى حينما يُتهم بسرقة الصواع يطمئن أن هذا ليس من فعل أخيه بل إخوته المستمرون فى هذا

(٣١) أى لا يذهب ذهنه للشك فى أخيه يوسف بل ستكون الريبة فى إخوته الذين هم مستمرون فى هذا العمل– الكيد– ولذلك قال قبلها(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وفيها يقول الإمام الطاهر: ويبدو أن القائل لهذا القول هو المؤذن السابق، ولعله قد قال ذلك بتوجيه من يوسف- عليه السلام-.وأقول : لعل الجميع قد اتفقوا على رأى يوسف (وبذلك يكون قول هذا المؤذن نيابة عن قول الجميع، وصوغ النظم على ذلك الإفراد ليفيد أن المؤذن هو الذى سيتولى المهمة، فأشار النظم إلى المعنيين معاً بإيجاز غير مخل.. وقد تعودنا على ذلك فى النظم القرآنى حينما يخاطب الخلف من بنى إسرائيل الذين يعيشون أيام نزول القرآن ولم يعاصروا موسى عليه السلام بجرائم أسلافهم أيام موسى عليه السلام، ويخاطبهم القرآن وكأنهم هم المعاصرون لموسى عليه السلام حيث يقول لهم(**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى** (٨٠)) وغيرها من الآيات الشبيهة..وذلك لأنهم راضون بما فعله السلف فأنزل القرآن الخلف منزلة السلف.

وهذا يذكرنا بقول فرعون: (**قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى** (٤٩)) والتى قال فيها الإمام الزمخشرى: خاطب الاثنين، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى، لأنه الأصل في النبوة، وهرون وزيره وتابعه. ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هرون والرتة في لسان موسى. ويدل عليه قوله أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ.

****

** ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)** ﴾ النحل.

ولم يقل (عن اليمين والشمال) لأن اليمين يرمز للحق والشمال يرمز للباطل والأهواء، والحق واحد والباطل متعدد هكذا عودنا القرآن الكريم وعشنا أمثلته على الصفحات الماضية

** وعلى سبيل المثال والتذكرة قوله تعالى ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .. (١٥٣)** ﴾ الأنعام. وكما صور النبى (ﷺ)

ذلك بأن رسم خطاً مستقيماً- رمز به للحق- وعلى جانبيه خطوط متفرقة – رمز بها للباطل ثم تلا هذه الآية الكريمة، وهو على مثال جمع الظلمات وتوحيد النور.

وهنا أقف وقفة هامة مع الإمام ابن القيم

ومن كتابه بدائع الفوائد فى وقفة أراها جميعها فى غاية النفاسة ، أنقلها بنصها- بعد التوضيح والشرح- لما لها من الأهمية القصوى وما تحويه من الأمثلة الهامة فى باب الالتفات الذى نعيشه فى بحثنا هذا هكذا:

ابن القيم فى بدائع الفوائد :

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل والنور بمنزلة طريق الحق فقد أفرد النور وجمعت الظلمات وعلى هذا جاء قوله: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ فوحد ولي الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد وجمع الذين كفروا لتعددهم وكثرتهم، وجمع الظلمات وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ، ووحد النور وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه .

ولما كانت اليمين جهة الخير والفلاح وأهلها هم الناجون أفردت ولما كانت الشمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جمعت في قوله: ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ**﴾ فإن قيل فهلا كذلك في قوله: ﴿ **وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ**﴾ وما بالها جاءت مفردة قيل: جاءت مفردة لأن المراد أهل (هذه الجهة) (ومصيرهم ومآلهم) (إلى جهة واحدة) وهي جهة الشمال مستقر أهل النار؛ والنار من جهة الشمال فلا يحسن مجيئها مجموعة لأن الطرق الباطلة وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم وهي جهة الشمال، وكذلك مجيئها مفردة في قوله: ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**﴾لما كان المراد أن لكل عبد قعيدين؛ قعيدا عن يمينه وقعيدا عن شماله يحصيان عليه الخير والشر فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفظة فلا معنى للجمع هاهنا، وهذا بخلاف قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ**

مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ (شَمَائِلِهِمْ)﴾ فإن الجمع هنا في مقابلة (كثرة من يريد إغواءهم) فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ولا يحسن هنا عن يمينهم وعن شمالهم بل الجمع هاهنا من مقابلة الجملة بالجملة المقتضى توزيع الأفراد ونظيره: ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾

وقد قال بعض الناس: إن الشمال إنما جمعت في الظلال(٣٢) وأفرد اليمين لأن الظل حين ينشأ أول النهار يكون في غاية الطول يبدو كذلك ظلا واحدا من جهة اليمين ثم يأخذ في النقصان، وأما إذا أخذ في جهة الشمال فإنه يتزايد شيئا فشيئا والثاني منه غير الأول فلما زاد منه شيئا فهو غير ما كان قبله فصار كل جزء منه كأنه ظل فحسن جمع الشمائل في مقابلة تعدد الظلال وهذا معنى حسن

****

المشرق والمغرب بين الجمع والتثنية والإفراد

ومن هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين وتارة مثنيين وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك فالأول كقوله: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**﴾ والثاني كقوله: ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ والثالث كقوله: ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**﴾ فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب موادها يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وهي متعددة وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما فإنها تبتديء صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء: فجعل

---

(٣٢) يقصد قوله تعالى(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)).

مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا ومشرق هبوطها بجملته مشرقا واحدا ويقابلها مغرباها(٣٣) فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحداً تعرض له ولا فتح بابه وهو بحمد الله بين من السياق فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات فذكر أولا نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر

ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ووسط بينهما ذكر الميزان ثم ذكر العدل والظلم في الميزان فأمر بالعدل ونهى عن الظلم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك وقدر موضعهما اللفظ مفردا ومجموعا تجد السمع ينبو عنه ويشهد العقل بمنافرته للنظم

ثم تأمل ورودهما مفردين في سورة المزمل لما تقدمهما ذكر الليل والنهار فأمر رسوله علي الصلاة والسلام بقيام الليل ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلا فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه وذكر النهار وما يكون منه فيه عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر الليل والنهار فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع لأن ظهور الليل والنهار هما واحد فالنهار أبدا

---

(٣٣) وأرى أن تثنية المشرقين والمغربين ناظراً إلى نصفى الكرة الأرضية؛ فنصف الكرة الأعلى له مشرق يكون فى النصف الآخر مغرباً وكذلك المغرب هنا يكون له مشرقاً فى النصف الآخر، وقد جاء هذا الملفت هنا فى سورة الرحمن لأنها سورة الثنائيات– كما سيعرضها لنا الإمام فى السياق التالى، وهكذا وهو تناسب مقصود عودنا عليه النظم القرآنى.

يظهر من المشرق والليل أبدا يظهر من المغرب(٣٤) ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** ﴾ لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته والمقسم عليه أرباب هؤلاء والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء وينقل إلى أمكنتهم خيرا منهم وأيضا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات وانتقالها من حال إلى غيره ،ويبدل الحر بالبرد والبرد بالحر، والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف، إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها ، كان ذلك تقدير العزيز العليم فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيرا منهم ، وأكد هذا المعنى بقوله وما نحن بمسبوقين فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع

ثم تأمل كيف جاءت أيضا في سورة الصافات مجموعة في قوله: ﴿ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** ﴾ لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السماوات والأرض وما بينهما كان الأحسن مجيئها مجموعة لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد

ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب لاقتضاء الحال لذلك، فإن المشارق مظهر الأنوار وأسباب انتشار الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه، فهو إنشاء مشهود ، فقدمه بين يدي الرد على منكري البعث ثم ذكر تعجب بنيه

---

(٣٤) وأرى أن السياق أيضاً يشير إلى توحيد الله تعالى(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وهذا التوحيد يُشار إليه إشارة ضمنية فى دعوة موسى عليه السلام لفرعون(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

من تكذيبهم واستبعادهم البعث بعد الموت، ثم قدر الموت وحالهم فيه، وكان الإقتصار على ذكر المشارق هاهنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب والله أعلم.

(وأقول): وقد أفضنا فى شرح ذلك وأن السبب فى الاقتصار على المشارق – دون المغارب– فى سورة الصافات لأن سورة الصافات تتحدث من بدايتها إلى نهايتها عن مشاهد الإحياء فقط ولا تتحدث عن مشاهد الإماتة، ومنها ما ذكره الإمام من الرد على منكرى البعث والإحياء بعد الموت (.. **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** (١٩)) ويضاف لذلك حديثهم يوم الحشر وهو يتحدث عن التحدى فى الإحياء فى أشد المواقف التى تستدعى الإهلاك والفناء؛ فها هى شجرة الزقوم تطلع فى أصل الجحيم وتنمو بدلاً من أن تهلك وتفنى وتموت، وهكذا حديث القصص فى هذه السورة نجد إبراهيم عليه السلام ﴿ **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ** (٩٧) **فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ** (٩٨)).. ويقف نفس الموقف مع ابنه إسماعيل (**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** (١٠٢) وفى هذا الموقف لايأتى بمشهد الموت والذبح ولكنه يأت بمشهد النجاة والفداء (**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ** (١٠٣) .. **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** (١٠٧)﴾..

وكذلك فى باقى قصص الأنبياء عن إيليا– إل ياسين– الذى رفع حياً إلى السماء كما تحكى كتبهم المقدسة، وبعدها يونس عليه السلام إذ أنجاه الله من الموت المحقق– بطن الحوت– ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** (١٤٢) **فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** (١٤٣) **لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** (١٤٤) **فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ** (١٤٥) **وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ** (١٤٦)﴾ – حتى شجرة القطين تنمو فى غير مكان إنباتها وفى غير موعدها، ويستمر حديث السورة عن الولد والذرية والتناسل وغيرها من المشاهد التى عشناها فى كتبنا عن إعجاز التكرار فى قصص القرآن– وقصة إبراهيم عليه السلام فى المجلد الثالث–. وكلها جميعاً تشير إلى الإحياء– الذى يرمز إليه بالمشارق– ولا يأتى بمشاهد الإماتة –التى يرمز إليها بالمغارب– ولذلك قال (**إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ** (٤) **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**

وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) – ولم يقل(المغارب)- لكل ما ذكرناه إضافة إلى مناسبة ذلك للفاصلة القرآنية، لكن ليس السبب هو الفاصلة وحدها كما ذكر كثير من العلماء.

((وهكذا جاء الالتفات وعشنا معه أجمل النفحات))

****

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ((الْحُجُرَاتِ)) أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ الحجرات.

يقول الإمام الزمخشري- ونقله عنه باقي المفسرين-: والمراد: حجرات نساء رسول الله (ﷺ)، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة. ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، **ولكنها جمعت إجلالا لرسول الله (ﷺ) ولمكان حرمته** –

(وأقول موضحاً قول الإمام): إن الحجرة يشار بها إلى حجرة النوم التى يكون فيها الرجل مع زوجته ، ومعلوم أن النبى(ﷺ) لا يكون فى كل الحجرات بل هو فى حجرة واحدة، ولكنه لو قال: إن الذين ينادونك وراء الحجرة فسيذهب الذهن لتلك الحجرة ، وفيها بعض الخدش لحياء ومقام النبى(ﷺ) فقال النظم الحكيم(من وراء الحجرات) لتدخل فيها حجرة الضيافة وحجرة المعيشة- ولو تخيلاً- ويكون ذلك الجمع(إجلالاً له (ﷺ) ، بل وصيانة ومراعاة لمشاعر النبى(ﷺ))

ويضيف الإمام الألوسى توضيحاً لذلك فى قوله: وفي ذكر الْحُجُراتِ كناية عن خلوته عليه الصلاة والسلام بنسائه لأنها معدة لها، ولم يقل: حجرات نسائك ولا حجراتك توقيرا له (ﷺ) وتحاشيا عما يوحشه عليه الصلاة والسلام، ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها فيكون القصد إلى الاستغراق العرفي أي جميع حجرات نسائه صلّى الله عليه وسلّم أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام(٣٥).. وحمل الْحُجُراتِ على الجمع

---

(٣٥)على أن الاستغراق إفرادي لا شمولي مجموعي ولا أنه من مقابلة الجمع بالجمع المقتضية لانقسام الآحاد على الآحاد لأن من ناداه صلّى الله عليه وسلّم من وراء حجرة منها فقد ناداه من وراء الجميع على ما قيل

الحقيقي هو الظاهر الذي عليه غير واحد من المفسرين، وجوز كون الحجرة واحدة وهي التي كان فيها الرسول عليه الصلاة والسلام وجمعت إجلالا له (ﷺ) على أسلوب حرمت النساء سواكم، وأيضا لأن حجرته عليه الصلاة والسلام لأنها أم الحجرات وأشرفها بمنزلة الكل على نحو أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ** ﴾ البقرة: ١١٤ .

ويضيف الإمام الطاهر: وَتَعْرِيفُ الْحُجُرَاتِ بِاللَّامِ تَعْرِيفُ الْعَهْدِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: يُنادُونَكَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ الْحُجُرَاتِ حُجُرَاتُهُ فَلِذَلِكَ لَمْ تُعَرَّفْ بِالْإِضَافَةِ. وَهَذَا النِّدَاءُ وَقَعَ قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ فَالتَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ (الْمُضَارِعِ) فِي (يُنادُونَكَ) لِاسْتِحْضَارِ حَالَةِ نِدَائِهِمْ.

****

** ﴿ **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)** ﴾ الأنبياء.

وقوله تعالى {إِذْ يَحْكُمَانِ} وصيغةُ المضارعِ حكايةٌ للحال الماضيةِ لاستحضار صورتِها- أى صورة المحاكمة- أي اذكر خبرَهما وقت حُكمِهما.

ويقصد الجمع فى لفظ الجلالة (كنا.. شاهدين) وهو للتعظيم والاهتمام والتزكية للحكم. ويقول الألوسى: وضمير الجمع - لِحُكْمِهِمْ - قيل: لداود وسليمان ويؤيده قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «لحكمهما» بضمير التثنية، واستدل بذلك من قال: إن أقل الجمع اثنان، وجوز أن يكون الجمع للتعظيم كما في رَبِّ ارْجِعُونِ (المؤمنون: ٩٩) .

وقيل: هو للحاكمين والمتحاكمين. (وَتَأْنِيثُ) الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ فَفَهَّمْناها،ولم يقل(ففهمناه)، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ لَفْظٌ مُعادٌ مُؤَنَّثُ اللَّفْظِ، عَلَى تَأْوِيلِ الْحُكْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: لِحُكْمِهِمْ بِمَعْنَى (الْحُكُومَةِ) أَوِ (الْخُصُومَةِ).(وأقول: لذلك يصح الجمع(لحكمهم) قاصداً حكم الخصومة وفيها المتخاصمان والحكمان).

****

﴿ **وَقَالَ- مفرد- **يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا**- جمع و لم يقل(علمت)- **مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا** - جمع- **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)** ﴾ **النمل.**

وتغير لصيغة الجمع التى تفيد التعظيم لشخصه – كعادة الملوك- يقول عظمتنا.

** ﴿ **قَالَ** – مفرد-**سَنَشُدُّ** –جمع- **عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ** –جمع- **لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا** –جمع- **أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)** ﴾

****

** ﴿ **كَمَثَلِ الَّذِي** –مفرد- اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ **مَا حَوْلَهُ** ذَهَبَ اللَّهُ **بِنُورِهِمْ**- جمع، وكان حقه أن يكون(بنوره) وهكذا السياق بعدها:- **وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** (١٧)).وبعدها قوله تعالى: (**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)** ﴾ البقرة..

فعدل عن الجمع فى الرعد والبرق، وكان- فى غير القرآن- يجب أن يأتى ب (رعود وبروق)كما أتى به فى (الظلمات)، وخاصة أن السياق يصور المبالغة فى الرعب لهم (حذر الموت)، وكان يجب أن يقول(رعود)و(بروق) ليكثف هذا الشعور، ولكنه عدل عن ذلك الجمع فيهما إلى الإفراد لأن من صفات الرعد والبرق هى ظهور الضوء، فلو قال رعود وبروق لتكاثر الضوء وحينها ستزال الظلمات ويتم إفساد المشهد التصويري الذى يريد المحافظة عليه.(وراجع المجلد الأول من موسوعة إعجاز التكرار فى قصص القرآن عن جرس الكلمة والمشهد التصويرى)

** **ومثله قوله تعالى**

﴿ **وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)** ﴾.

وكان حقه فى غير النظم القرآنى(وكلٌ أتوه داخراً) فالجمع (داخرين) على المعنى والتوحيد (داخراً) على اللفظ ناظراً للفظ المفرد(كلٌ). مثال قوله: (وكلهم

آتيه يوم القيامة فردا) فاللفظ (كلهم) جمع، فقال كلهم سيأتون على قلب رجل واحد- تساووا جميعاً فى الذل-.

****

** ﴿ **مَنْ جَاءَ**- هو- **بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا** ((**وَهُمْ**)) – و لم يقل: وهو- **مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ** (**٨٩**) **وَمَنْ جَاءَ** – هو- **بِالسَّيِّئَةِ** ((**فَكُبَّتْ**))-هم- **وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ** – أنتم- **إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (**٩٠**)﴾ فهنا تحول والتفت إلى أهل الجحيم مقرعاً وموبخاً وهذا التوبيخ يكون على أتمه فى المواجهة(**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)).

وجاء لفظ الكب فى جهنم – هذا المجهول المرعب- بصيغة المبنى للمجهول- ((**فَكُبَّتْ**)) **وُجُوهُهُمْ** – للتهويل والتعظيم والرعب من هذا الهول المجهول ، ويدل حذف الفاعل أيضاً على سرعة الكب ولذلك لم يقل(كبهم الله أو كبتهم الملائكة).

ويقول الإمام الزمخشرى: يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة، فكأنه قيل: فكبوا في النار، كقوله تعالى فَكُبْكِبُوا فِيها، ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين **هَلْ تُجْزَوْنَ** يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

ويقول الإمام الطاهر: فَالْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ بِذِكْرِ الْأَسْمَاءِ الظَّاهِرَةِ وَهِيَ مِنْ قَبِيلِ الْغَائِبِ. وَذِكْرُ ضَمَائِرِهَا ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتى)النَّمْل وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِلَى هُنَا. **وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَال: هَل يجزون إِلَّا مَا كَانُوا يعْملُون** فَكَانَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ كَالتَّلْخِيصِ لِمَا تَقَدَّمَ وَهُوَ أَنَّ الْجَزَاءَ عَلَى حَسَبِ عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ **وَمَا الْعَقِيدَةُ إِلَّا عَمَلُ الْقَلْبِ فَلِذَلِكَ وُجِّهَ الْخِطَابُ إِلَيْهِمْ بِالْمُوَاجَهَةِ.**

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَقُولًا لِقَوْل مَحْذُوفٍ يُوَجَّهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَئِذٍ، أَيْ يُقَالُ لِكُلِّ فَرِيقٍ: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.(وهو رأى لا أحبذه)

** ﴿ (**مَنْ عَمِلَ**) **صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** (**فَلَنُحْيِيَنَّهُ**) **حَيَاةً طَيِّبَةً** (**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ**) **أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٩٧) ﴾.

يقول الإمام الرازى: السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: لَفْظَةُ «مَنْ» فِي قَوْلِهِ: مَنْ عَمِلَ صالِحاً تُفِيدُ الْعُمُومَ فَمَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لِلْوَعْدِ بِالْخَيْرَاتِ وَالْمُبَالَغَةُ فِي تَقْرِيرِ الْوَعْدِ مِنْ أَعْظَمِ دَلَائِلِ الْكَرَمِ وَالرَّحْمَةِ إِثْبَاتًا لِلتَّأْكِيدِ وَإِزَالَةً لِوَهْمِ التَّخْصِيصِ.(يريد أن يقول: إن هذه الآية تبالغ فى كرم الله وعطائه ورحمته الواسعة(الوعد)، ولفظ(من عمل صالحاً) رغم أنه لفظ عام ويشمل الذكر والأنثى، ولكنه ربما يذهب ذهن القارىء إلى أنه يخص الذكور فقط، ولذلك أتى بهذا التفصيل (من ذكرٍ وأنثى).

ويقول الإمام أبو السعود:(**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ**) في الآخرة (**أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) (والجمعُ) في الضمائر العائدةِ إلى الموصول لمراعاة جانبِ المعنى ،كما أن الإفراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ- يقصد أن قوله (من عمل صالحاً)(فلنحيينه).. هى مفرد فى اللفظ، ويراد بها الجمع من ناحية المعنى، وهو الذى جاء فى قوله (ولنجزينهم).. وإيثار ذلك على العكس- أى بأن يأتى بالجميع على صيغة الجمع مثلاً (فلنحيينهم .. ولنجزينهم)- لِما أن وقوعَ الجزاءِ (ولنجزينهم) بطريق الاجتماعِ المناسبِ للجمعية، ووقوعَ مَا في حيز الصلةِ وما يترتب عليه – يقصد قوله تعالى: (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** (**فَلَنُحْيِيَنَّهُ**) **حَيَاةً طَيِّبَةً – وقع بطريق الافتراقِ والتعاقُب الملائمِ للإفراد،**

(يقصد أن إحياءهم (**فَلَنُحْيِيَنَّهُ**) فى الدنيا حياة طيبة لا يشترط فيها التجمع لأن الجميع – فى الدنيا- متفرق فى طلب الرزق وظروف الحياة الدنيا، ولذلك ناسبها صيغة التفرق والتوحد وليس الاجتماع- فقال (فلنحيينه) حياة طيبة.. بخلاف وقت الجزاء فى الآخرة فإن نعيم أهل الجنة (دائماً) فى القرآن يأتى بصيغة الاجتماع ويتحول فيها السياق من المفرد إلى الجمع،

وقد ذكرنا لذلك شواهد كثيرة وحققناها على الصفحات الماضية وفى كتابنا موسوعة إعجاز التكرار فى قصص القرآن المجلد الأول، وهذا الرأى الذى ذهبنا إليه على اعتبار أن الحياة الطيبة فى الدنيا والجزاء فى الآخرة، ولكن الإمام الألوسى وضح الأمر بصورة أخرى على اعتبار أن الحياة الطيبة أيضاً فى الآخرة وأهل الجنة المشار إليهم فى هذه الآية، يتساوون فى ذلك فجميعهم فى حياة طيبة كأنهم على صورة واحدة (فجاء فيها بصيغة التوحد(فلنحيينه)، أما الجزاء فهم متفاوتون فيه ومختلفين فى درجاته وأنواعه، ولذلك جاء على صيغة الجمع (ولنجزينهم)، وهذا ما فهمته من كلام الإمام الألوسى- ولعل القارىء يجد فيه معنىً آخر لم ألحظه- ولذلك أسوقه فيما يلى: فلما (أن الإحياء حياة طيبة) بمعنى ما سلمت مما تقدم أمر واحد في الجميع **لا يتفاوت فيه أهل الجنة فكأنهم في ذلك شيء واحد، ولما لم يكن الجزاء كذلك وكان أهل الجنة فيه متفاوتين جيء بضمير الجمع معه فتأمل كل ذلك.**

****

وأذكر القارىء على سبيل التذكر السريع فقط بإيراد بعض الآيات التى يفهم منها **تغير صيغة النظم من الإفراد إلى الجمع- مع جزاء المؤمنين من أهل الجنة-**، وعكس ذلك ببقاء أهل الجحيم فى النار منفردين- فى سجن انفرادى فى جهنم ولا يتغير فيها السياق من الإفراد للجمع ويبقى على صيغة الانفراد هكذا:

** ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ** (**وَمَنْ يُطِعِ**) -مفرد وسيتحول السياق- ويلتفت- إلى صيغة الجمع وقت تنعيمهم فى الجنة ويقول(خالدين).. أما أهل المعصية والجحيم فسيبقى السياق بصيغة الانفراد (خالداً) وذلك فى السياق التالى: (**وَمَنْ يُطِعِ**)**اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ((**خَالِدِينَ**)) **فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (**١٣**) (**وَمَنْ يَعْصِ**) **–** مفرد- **اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا** ((**خَالِدًا**)) **فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ** (**١٤**) ﴾النساء

□

وكذلك فى السياقات التالية

**﴿ (مَنْ كَانَ) يُرِيدُ (الْعَاجِلَةَ)- أهل الشقاء- عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا (لَهُ) جَهَنَّمَ (يَصْلَاهَا) مَذْمُومًا مَدْحُورًا- فقد استمر السياق على الإفراد- بخلاف السياق القادم على أهل الجنة الذى سيتحول- ويلتفت- إلى صيغة الجمع هكذا: (١٨) (وَمَنْ أَرَادَ)- مفرد- الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) ((فَأُولَئِكَ)) كَانَ ((سَعْيُهُمْ)) مَشْكُورًا (١٩) ﴾ هكذا تحول السياق إلى صيغة الجمع.

**﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ((فَمَنْ أُوتِيَ)) كِتَابَهُ (بِيَمِينِهِ) ((فَأُولَئِكَ)) يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ (وَلَا يُظْلَمُونَ) فَتِيلًا (٧١) (وَمَنْ كَانَ) فِي هَذِهِ (أَعْمَى) – أهل الجحيم- (فَهُوَ) فِي الْآخِرَةِ (أَعْمَى) وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) ﴾

**﴿ إِنَّهُ (مَنْ يَأْتِ) رَبَّهُ (مُجْرِمًا) فَإِنَّ (لَهُ) جَهَنَّمَ (لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) (٧٤) (وَمَنْ يَأْتِهِ) (مُؤْمِنًا) قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ((فَأُولَئِكَ)) (لَهُمُ) الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) ﴾.

وراجع ذلك بتوسع فى كتابنا إعجاز التكرار فى قصص القرآن المجلد الأول)

****

ومن العدول (الالتفات) عن الجمع إلى الإفراد والتذكير فى مقام التأنيث والعكس

فى قوله سبحانه:

** ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ (ثَمَرِهِ) وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾ .. وكان حقها أن تكون (ليأكلوا من ثمرها)

وفى ذلك يقول الإمام الطاهر: وَضَمِيرُ مِنْ ثَمَرِهِ عَائِدٌ إِلَى الْمَذْكُورِ، أَيْ مِنْ ثَمَرِ مَا ذَكَرْنَا (مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)، كَقَوْلِ رُؤْبَةَ:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ ... (كَأَنَّهُ) فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعَ الْبَهَقْ

فَقِيلَ لَهُ: هَلَّا قُلْتَ: كَأَنَّهَا؟ فَقَالَ: أَرَدْتُ **كَأَنَّ ذَلِكَ**(٣٦) وَيْلَكَ. وَتَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى:عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَقَوْلُهُ: بَيْنَ ذلِكَ- فى قوله(**إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ**)-ولم يقل (بين هذين)- أَي بَين هَذَيْنِ السِّنَّيْنِ، فَالْإِشَارَةُ لِلْمَذْكُورِ الْمُتَعَدِّدِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى النَّخِيلِ وَتُتْرَكُ الْأَعْنَابُ لِلْعِلْمِ بِأَنَّهَا مِثْلُ النَّخِيلِ. كَقَوْلِ الْأَزْرَقِ بْنِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَمُودِ الْقَرَاطِيِّ الْبَاهِلِيِّ:

رَمَانِي بِذَنْبٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي... (بَرِيئًا) وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَّانِي

فَلَمْ يَقُلْ: كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئَيْنِ، لِلْعِلْمِ بِأَنَّ وَالِدَهُ مِثْلُهُ.(٣٧)

((وهذه النماذج تدخل أيضاً فى باب الالتفات)) (٣٨)

ومنهم من نظر إلى السياق بعد الضمير فى(ثمره)- ﴿ **لِيَأْكُلُوا مِنْ (ثَمَرِهِ) وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾، وهو (وما عملته) وهو مذكر فقال(مِنْ (ثَمَرِهِ) ولم يقل(من ثمرها)، وهو الرأى الذى ذكره الإمام الطاهر فى قوله: وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَا فِي قَوْلِهِ: وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ مَوْصُولَةً مَعْطُوفَةً عَلَى ثَمَرِهِ، أَيْ لِيَأْكُلُوا **مِنْ ثَمَرِ مَا أخرجناه وَمن ثَمَرِ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**، فَيَكُونُ إِدْمَاجًا لِلْإِرْشَادِ إِلَى إِقَامَةِ الْجَنَّاتِ بِالْخِدْمَةِ(٣٩)- وَالسَّقْيِ وَالتَّعَهُّدِ(٤٠) لِيَكُونَ ذَلِكَ أَوْفَرَ لِأَغْلَالِهَا(أى ثمرها). وَضَمِيرُ عَمِلَتْهُ عَلَى هَذَا عَائِدٌ إِلَى اسْمِ الْمَوْصُولِ. وَيجوز أَن يكون (مَا)(نَافِيَةً)-أى إن الذى يأكلونه لم تعمله أيديهم- وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ) انتهى كلام

---

(٣٦) وهو على مثال قوله تعالى(فلما رأى الشمس بازغة.. فلما أفلت) الذى سنعيشه على الصفحات التالية.

(٣٧) وأرى أن ذلك مثال قوله تعالى فى الآية القرآنية (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) وعودة الضمير فى(يرضوه) على الله، ويكون الرسول كذلك.

(٣٨) وأرى أن ذلك مثال قوله تعالى فى الآية القرآنية (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) وعودة الضمير فى(يرضوه) على الله، ويكون الرسول كذلك.

(٣٩) فى قوله: عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ.

(٤٠) فى قوله(مَا أخرجناه).

الإمام الطاهر بعد الشرح والتعليق المفيد عليه، وهذه المعانى كلها جاءت من هذا الالتفات الذى حدث فى وضع ضمير التذكير بدل التأنيث.

وأقول: فالتذكير فى موضع التأنيث ليس اعتباطاً ولكنه لحكمة وتقدير، وقد ذكرنا من أمثلته الكثير فى باب المتشابهات من كتبنا (موسوعة إعجاز التكرار فى قصص القرآن وخاصة المجلد الأول)

****

****ومثل ذلك قوله تعالى**

﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ** (٥١) **لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ** (٥٢) **فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ** (٥٣) **فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ** (٥٤) ﴾ الواقعة.

فإن (**مِنْ شَجَرٍ**)-مذكر- (**فَمَالِئُونَ مِنْهَا**)-مؤنث-(**فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ**)- مذكر- فكيف حدث ذلك التغيير رغم أن الأكل من (شجر) وهو مذكر،

وكان يجب أن يكون السياق هكذا: (لَآكِلُونَ مِنْ **شَجَرٍ مِنْ** زَقُّومٍ – فَمَالِئُونَ **(منه)** الْبُطُونَ – فَشَارِبُونَ **عَلَيْهِ** مِنَ الْحَمِيمِ)

والمتدبر للذكر الحكيم يرى أن الأكل (من شجر) بصيغة الجمع وهو يُذكَّر، ولو قال (من شجرة) بالمفرد لجعلها مؤنثة-كما في آية سورة الصافات التالية-

والأكل ليس من الشجر نفسه بل من (ثمره) والثمر بعد نزوله المعدة يكون عصيرا، فيكون معنى السياق : (**لَآكِلُونَ** مِنْ **شَجَرٍ مِنْ** زَقُّومٍ –**(أي من ثمر هذا الشجر-بجمع الشجر-)** فَمَالِئُونَ **(منها)** الْبُطُونَ –**(أي: من هذه الثمرة والثمرات ، لأنهم يدخلون في فمهم ثمرة أو ثمرات تملأ** **(منها)** البطون ، فتصبح في أمعائهم عصيرا، فَشَارِبُونَ **عَلَيْهِ** مِنَ الْحَمِيمِ-أي من هذا العصير .. **** وفي آية الصافات** :

﴿ **(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ** (٦٤) **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** (٦٥) **فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ** ((**مِنْهَا**)) **فَمَالِئُونَ** ((**مِنْهَا**)) **الْبُطُونَ** (٦٦) **ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ** ((**عَلَيْهَا**)) **لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ** (٦٧) **ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** (٦٨) ﴾ الصافات

فالحديث هنا جاء بوصف (شجرة واحدة)- (مؤنث)- وكذلك (الثمرة) – مؤنث–، فتوحد السياق كله على التأنيث، فقال (لآكلون منها..،فمالئون منها..،) ثم قال (**ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ** ((**عَلَيْهَا**)) **لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ**) ولم يقل (**لشاربون عليه– أي العصير**) لأنه هنا لايريد إبراز مشهد تحول الثمرة إلي عصير يشربون عليه من الجميم ، **بل هو يريد أن يُبقِي على مشهد الثمرة نفسها بأشواكها وصورتها القبيحة** ،التي وصفها بقوله (**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** (٦٥))–**وهو الظل المراد هنا**– والتي لا تفني شجرتها في النار ،بل تظل باقية لا تحترق (**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**)، فكان من المناسب أن يُبقِي على ظلها وصورتها دون تغير هيئتها هي أيضا– بالمرحلة التالية وهي الهضم وتحولها إلى عصير –، ولذلك لم يسقيهم هنا من شراب الحميم، بل سيكتفي بأن يجعله معداً وجاهزاً (**ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ** ((**عَلَيْهَا**)) **لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ**) ليشربوه فيما بعد ، ولكن بعد أن يُثبِّت في أذهاننا وأمام أعيننا هذا المشهد وهذا الظل قبل ذوبانه مع عصارة المعدة في مرحلة أخرى رسمتها آية سورة الواقعة

ويبقى السؤال الذي تعودنا على ذكره مع متشابهات النظم وهو:

لماذا أبقى على الظل المائي (العصير) مع (الحميم الناري) في آية الواقعة
وأبقى على ظل الثمرة الخبيثة دون هضمها وزوالها في آية الصافات

نقول:

عودنا النظم المبهر أن الكلمة القرآنية تختار بعناية ربانية فائقة لتتناغم مع المشاهد التصويرية المحيطة بها

* **ففي آية الواقعة**: تعرض علينا الآيات السابقة واللاحقة مشاهد مائية أولها في مشهد التنعيم في قوله ﴿ **وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) ... ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)**

وبعدها مشهد ماء الرجل وماء المزن من السماء في قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ...أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ((وحاجة النبات الذي ينمو للماء)) أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ...ولذلك أتى بعدها بالموقف المتناغم معه في قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ((وهذا أيضاً يتناغم مع إنزال المني من المعصرات التناسلية بعد امتلاء الحوصلة المنوية به ثم مشهد اندفاعه لينبت جنيناً، يناسب مشهد إنزال الماء من المزن–المعصرات–من السماء)) (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا (غير صالح للشرب وفيه الغصة الشديدة التي ستذكرنا بغصة هذا العصير) (٧٠)﴾ الواقعة

ثم يأتي للمشهد المتناغم مع مشهد (شرب الحميم) وقوله هنا : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ الواقعة

وهذه المشاهد–كما ترى– تتناغم مع مشهد العصير مع شرب الحميم

ولكنه في آية الصافات نجد أن المشاهد قبلها وبعدها يناسبها بقاء الثمرة كطُعم يتناسب مع وصف طعام المتقين قبلها ﴿ **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** (٤٠) **أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ** (٤١) **فَوَاكِهُ** ((فحدد الرزق المعلوم هنا ب (فواكه فقط) ولذلك تُعرب"فواكه" على أنها بدل من "رزق معلوم"–أي محدد– فناسب ذلك تحديد الثمرة)) **وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) ... وذلك بخلاف** (تنوع) **المأكولات والشرب الفعلي في سورة الواقعة التي لم تقتصر على** (ثمرة) **الفاكهة فقط بل قال (وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)الواقعة**

وبعدها–في سورة الصافات– يقول:- **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧)**

((ونلاحظ هنا أنه يقول (**يُطَافُ عَلَيْهِمْ** بكأس) ولم يقل (يسقون أو يشربون – كالتي في سورة الواقعة– (فَشَارِبُونَ **عَلَيْهِ** مِنَ الْحَمِيمِ)–) حيث يتناسب هناك شرب الحميم بالفعل فوق هذا العصير ،

لكن في آية الصافات فقد ناسبها إبراز الثمرة ورؤيتها مع رؤية الكأس والطواف به وليس الشرب الفعلي

ففي سورة الصافات وصف للثمرة فقط وليس الأكل الفعلي، ولذلك رسمت (شجرة) بالتاء المغلقة (شجرة الزقوم)

ورسمت في سورة الدخان بالتاء المفتوحة (شجرت) لما كانت تصور مشهد الأكل الفعلي في قوله تعالى (**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ** (٤٣) **طَعَامُ الْأَثِيمِ** (٤٤) **كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ** (٤٥) **كَغَلْيِ الْحَمِيمِ** (٤٦) **خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ** (٤٧) **ثُمَّ** صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) **ذُقْ** إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩))الدخان.. فهو يأكل بالفعل بدليل أنه يقول له (ذق)– (وراجع ذلك في موسوعة الجلال والجمال في رسم الكلمة) والحال كذلك هنا.

ثم يأتي الحديث بعدها –في الصافات–عن شجرة الأنبياء (المثمرة) (الباقية ثمرها للناظرين) متمثلة في نوح وابراهيم وذريته اسماعيل وإسحاق ويعقوب وكذلك الياسين ولوط ويونس، وبقاء (الثمرة) رغم المحن المذكورة من نجاة ابراهيم من النار حيّا وكذلك يونس من بطن الحوت حيّاً، وانبات شجرة من يقطين متحدية الموت عليه....

فناسب تلك المشاهد هنا بقاء الثمره(بضمير التأنيث) دون تغير هيئتها

فيالك من نظم مبهر تتعانق وتتناغم فيه المشاهد التصويرية مع جرس الكلمة وبلاغتها والحرف ورونقه هذا التناغم المبهر.

****

وهذا قريب من قوله تعالى:

** ﴿ **فَلَمَّا رَأَى (الشَّمْسَ) (بَازِغَةً) قَالَ (هَذَا) رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا (أَفَلَتْ) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)** ﴾

فهذه الشمس(المؤنثة) وصفاتها التى تشير على هذا التأنيث(بازغة)،(أفلت) ورغم ذلك قال عنها ((هَذَا) رَبِّي) وكان حقها أن تقال(هذه ربى) وكلا الصيغتين جائزتان –لأن الشمس مؤنث مجازى يجوز فيه التذكير والتأنيث ، والتذكير هنا للشمس كأنه يريد أن يقول(هذا الشىء- الشمس- ربى)

ويبقى السؤال: لماذ اختار صيغة التذكير هنا؟

وهنا يجيب الإمام الزمخشرى بقوله: فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله هذا رَبِّي والإشارة للشمس؟ قلت: ... وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث. ألا تراهم قالوا في صفة الله «علام» ولم يقولوا «علامة» ، وإن كان العلامة أبلغ، احترازا من علامة التأنيث،

وقد اختلط تذكير الرحمة (**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ**) على بعض العلماء- كما سنعيشها على الصفحات التالية- وقد وضحها الإمام ابن القيم فى قوله: فصل: المسلك العاشر: أن تأنيث الرحمة لما كان غير حقيقي ساغ فيه حذف التاء ، كما تقول طلع الشمس وطلعت ، وهذا المسلك أيضا فاسد ، فإن هذا إنما يكون إذا أسند الفعل إلى ظاهر المؤنث (كقوله تعالى: فلما رأى الشمس بازغة)- حيث جاء بالشمس ولم يأت بضميرها-) فإما إذا أسند إلى ضميره فلا بد من التاء؛ كقولك الشمس طلعت وتقول الشمس طالعة ، ولا تقول طالع ، لأن في الصفة ضميرها فهي بمعنى الفعل في ذلك سواء.

****

**** ونذكر منه هنا على سبيل المثال (التذكير والتأنيث)** قوله:

﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي (بُطُونِهِ) مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)** ﴾ النحل.

﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي (بُطُونِهَا) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)** ﴾ المؤمنون.

وقد تناولنا ذلك وأمثاله الكثير الذى لم نتناوله هنا- فى المجلد الأول من كتابنا إعجاز التكرار- ولكننا نأخذ هنا أمثلة سريعة، منها هذا المثال الذى يدل على غيره؛ فقد قال فى الآية الأولى بصيغة التذكير(مِمَّا فِي (بُطُونِهِ)- أى بطون هذا النوع من الأنعام- وذلك التذكير لأنه خصص فى هذا السياق نوعاً معيناً من الأنعام ، وهى التى تدر اللبن حيث أشار إلى ذلك بقوله(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) فهذا(نوع) من الأنعام وليس (جماعة) الأنعام كلها ، ولذلك وردت بصيغة التذكير(مما فى بطونه:أى فى بطون هذا النوع).

أما فى الآية الثانية فهو يتحدث عن(جماعة) الأنعام ، وليست نوعاً واحداً؛ فإنه يتحدث عن الأنعام التى تُركب وتدر اللبن وفيها منافع كثيرة (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) ، ولذلك جاءت الصيغة على التأنيث(نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي (بُطُونِهَا))

***

ومن مواضع تذكير الضمير بعد تأنيثه كذلك قوله عز وجل:

﴿ **كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢)** ﴾ عبس.

لقد ذكر المفسرون عدة آراء في بيان المراد بضميري التأنيث والتذكير في (**إِنَّهَا- ذَكَرَهُ**):

الأول: أنهما للتذكرة، وأن التذكير في ثانيهما هو من باب الحمل على المعنى، لأن التذكرة في معنى الوعظ والتذكير

الثاني: أنها للقرآن أو العتاب المذكور، وأن تأنيث أولهما راجع إلى تأنيث خبره "تذكرة".

الثالث: أنهما للقرآن، وأن أولهما إنما أنث لأن المراد به آيات القرآن، وبناء على هذا الرأي يفسر الكرماني والفيروز آبادي وجه المخالفة بين تأنيث الضمير الأول في هاتين الآيتين وتذكيره في قوله عز وجل: (**كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ** (٥٤) **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ** (٥٥)) [المدثر] بأن التقدير في المدثر: إن القرآن تذكرة، وفي عبس: إن آيات القرآن تذكرة. .(يعنى إذا كان معنى التذكرة هو الوعظ أو القرآن ذاته قال(إنه تذكره)، وإن كان المقصود آيات القرآن قال(إنها تذكرة). وهذا الرأي هو ما نميل إليه، غير أننا نرى أن ضمير التأنيث لا يعود في سورة عبس إلى آيات القرآن كلها، بل إلى الآيات السابقة عليه في تلك السورة، وقد سبقنا إلى التنبيه لذلك محقق كتاب "أسرار التكرار في القرآن" للكرماني. حيث قال:

"يحتمل أن تكون التذكرة الثانية متوجهة إلى قصة الأعمى والآيات التي نزلت فيها توجيهاً للمؤمنين، وإلى وسائل تربية المسلمين، أما الأولى فللقرآن كله، لأن المقام مقام الكلام عن الإيمان والكفر لا طرائق تربية المسلمين".

ويدعم هذا الرأي لدينا أمران:

** أن آيتي المدثر قد سبقتا بما يدل على نفور المخاطبين وإعراضهم عن التذكرة (**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ** (٤٩)) المدثر – وأردفتا بما يدل على أن هذه التذكرة لم تثمر ثمارها في قلوبهم: (**وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** (٥٦)) المدثر–فقال(إنها تذكرة)–.

أما آيتا "عبس" فلم يكتنفهما شيء من ذلك، وهذا دليل على أن المراد هنا هم المؤمنون بالقرآن، وأن متعلق التذكرة هو – فقط – تلك الآيات التي تدور حول موقف محدد عوتب بينهم (ﷺ) فيه.

**لقد صدرت آية التذكرة في كلتا السورتين بلفظ "كلا"، وهي فيهما – كما ذكر المفسرون والنجاة – حرف يفيد معنى الردع والزجر، غير أنها في سورة المدثر

ردع للكفار عن إعراضهم عن القرآن تكذيباً له، وتشكيكاً في طريق الإيحاء به – (**بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢)**) المدثر – أما في سورة عبس فهي ردع عن المعاتب عليه في آياتها الأولى – وفي هذا وذاك تأييد لهذا الرأي الذي نحن بصدد إثباته من أن التذكرة في سورة المدثر تعني القرآن، أما في سورة عبس فإنها تعني – فحسب – آياتها الأولى التي تضمنت قصة العتاب عن الأعمى.

****

**** ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ ((لَهَا)) وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ ((لَهُ)) مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ فاطر. تأنيث وتذكير الضمير مع الرحمة.**

يقول الإمام أبو السعود: {مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ **مِن رَّحْمَةٍ**} عبَّر عن إرسالِها بالفتحَ إيذاناً بأنَّها أنفسُ الخزائنِ التي يتنافسُ فيها المتنافسونَ وأعزُّها منالاً وتنكيرُها–(رحمة)– للإشاعةِ والإبهام أيْ أي شئ يفتحُ اللَّهُ من خزائنِ رحمتِه، أيَّة رحمةٍ كانتْ من نعمةٍ وصحَّةٍ وأمنٍ وعلمٍ وحكمةٍ إلى غيرِ ذلكَ ممَّا لا يُحاط به {فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا} أي لا أحدَ يقدِر على إمساكِها **{وَمَا يُمْسِكْ} أي أي شئ يُمْسِكْ - وليس إمساك الرحمة فقط- {فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ}** أي لا أحدَ يقدِر على إرسالِه. واختلافُ الضَّميرينِ لما أنَّ مرجعَ الأوَّلِ مفسَّرٌ بالرَّحمةِ **{مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ}** ومرجعَ الثَّانِي مطلقٌ يتناولُها وغيرَها كائناً ما كان– حيث قال:**{وَمَا يُمْسِكْ}** ولم يقل(يمسك) ماذا؟ولذلك غير الضمير للتذكير فقال: **فَلا مُرْسِلَ لَهُ** –ولم يقل(فلا مرسل لها)..

وأضيف لقول الإمام أن فتح الرحمة على عباده شيء محبوب فأعاد الضمير إليها، أما حينما تحدث عن إمساكها فهذا نوع من العذاب ولذلك لم يشر إلى الرحمة فى حال الإمساك، وعمم القول ليكون الإمساك لأى شيء، ومن ذلك الضر والهلاك وغيره. وهذا هو ما سيشير إليه الإمام الألوسى بقوله: وفي ذلك مع تقديم أمر فتح الرحمة إشعار بأن رحمته تعالى سبقت غضبه عزّ وجلّ كما ورد في الحديث الصحيح.

ويقول الرازى: وَثَانِيهَا: ..وَلَكِنْ قَالَ تَعَالَى: (لَها) لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَفْتُوحَ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ وَلَا مُمْسِكَ لِرَحْمَتِهِ فَهِيَ وَصْلَةٌ إِلَى مَنْ رَحِمَتْهُ، وَقَالَ عِنْدَ الْإِمْسَاكِ **(وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ)** بالتذكير ولم يقل لها فَمَا صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا مُرْسِلَ لِلرَّحْمَةِ، **بَلْ ذَكَرَهُ بِلَفْظٍ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي لَا يُرْسِلُ - وما يمسك - هُوَ غَيْرُ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: وَما يُمْسِكْ عَامٌّ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَتَخْصِيصٍ بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَإِنَّهُ مُخَصَّصٌ مُبَيَّنٌ ..**

(وأقول فربما يكون الإمساك وعدم الإرسال لعذاب أو ضر أو هلاك فلذلك أتى بلفظ التذكير المناسب). (٤١)

****

****﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾ تأنيث وتذكير الضمير.**

يقول الإمام الألوسى: والهاء للنعمة، والتذكير- فى **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ** وكان حقها (إنما أوتيتها)- لتأويلها بشيء من النعم، والقرينة على ذلك التنكير،- كأنه يقول: إنما أوتيت شيئاً من النعم لأنه لا يجرؤ أن يقول أوتيت كل النعم من عندى-

وقيل: لأنها بمعنى الإنعام، أى أوتيت هذا الإنعام.

وقيل: لأن المراد بها المال،(وهو إشارة لطيفة لهؤلاء القوم الذين لا يرون النعمة إلا فى المال وهذا الالتفات أشار لذلك المركوز فى نفوسهم)

وقيل: لأنها تشتمل على مذكر ومؤنث فغلب المذكر، وجوز أن يكون لما في (إنَّما) على أنها موصولة أي (إن الذي) أوتيته كائن على علم، ويبعد موصوليتها كتابتها متصلة، ثم يستمر السياق فى الرد عليه: بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ رد لقوله ذلك(٤٢)

---

(٤١) وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: مِنْ بَعْدِهِ أَيْ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، فَاسْتَثْنَى هاهنا وَقَالَ لَا مُرْسِلَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ فَنزَلَ له مرسلا. وعند الْإِمْسَاكِ قَالَ لَا مُمْسِكَ لَهَا، وَلَمْ يَقُلْ غَيْرُ اللَّهِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ إِذَا جَاءَتْ لَا تَرْتَفِعُ فَإِنَّ مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَا يُعَذِّبُهُ بَعْدَهَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، وَمَنْ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ فَقَدْ يَرْحَمُهُ اللَّهُ بَعْدَ الْعَذَابِ كَالفساق من أهل الإيمان.

وجوز أن يكون التأنيث باعتبار الخبر.

وقيل: هو ضمير الإتيان (أوتيت هذا الإتيان) وهو ما يقول فيه الإمام الطاهر: وَضَمِيرُ أُوتِيتُهُ عَائِدٌ إِلَى (مَا) الْمَوْصُولَةِ فِي قَوْلِهِمْ **وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**) الْقَصَص .

والالتفات من الإفراد للجمع فى قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ**-هو- **نِعْمَةً مِنَّا (قَالَ) إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ** -هم- **لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)**﴾ (**وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**) وهذا ظاهر في أن المراد بالإنسان الجنس – الذى يحوى أعداد جنسه فى داخله ومضمون- لذلك جاز الالتفات لصيغة الجمع (بل أكثرهم) إذ لو أريد العهد لقيل لكنه لا يعلم أو لكنهم لا يعلمون.

وقوله ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ((عَلَى)) عِلْمٍ﴾ فيه التفات ولكن فى نوع الحرف حيث إن السياق يكون (**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ** ((ب)) عِلْمٍ أو (مع) علم) ولكنه أتى بحرف الاستعلاء(على علم) الذى يفيد التمكن من العلم.

وهو نفس ما قاله الإمام الطاهر عند نفس القول من قارون: (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) بقوله: و(عَلى) لِلِاسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ بِمَعْنَى التَّمَكُّنِ وَالتَّحَقُّقِ، أَيْ مَا أُوتِيتُ الْمَالَ الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا فِي حَالِ تَمَكُّنِي مِنْ عِلْمٍ رَاسِخٍ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ عِلْمَ أَحْكَامِ إِنْتَاجِ الْمَالِ مِنَ التَّوْرَاةِ، أَيْ أَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِمَا تَعِظُونَنِي بِهِ، يَعْنِي بِذَلِكَ قَوْلَهُمْ لَهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ- وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ [الْقَصَص: ٧٦، ٧٧] . وَقَدْ كَانَ قَارُونُ مَشْهُورًا بِالْعِلْمِ بِالتَّوْرَاةِ وَلَكِنَّهُ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَأَرَادَ بِهَذَا الْجَوَابِ قَطْعَ مَوْعِظَتَهُمْ

****

---

(٤٢) والضمير للنعمة باعتبار لفظها كما أن الأول لها باعتبار معناها، واعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى جائز وإن كان الأكثر العكس.

ومن أمثلة العدول عن التأنيث للتذكير

تذكير (الصيحة) و تأنيثها .

مثال قوله تعالى عن صالح عليه السلام﴿ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ** (٦٧) ﴾ هود،

وعن شعيب عليه السلام﴿ **وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ** .. (٩٤) ﴾ هود.

ما الفرق بين أخذ وأخذت ودارهم وديارهم؟

وراجع ما ذكرناه من شرحٍ مسهبٍ فى كتابنا إعجاز التكرار فى قصص القرآن، ونسوق بعضه هنا تلخيصاً فيما يلى:

في سورة هود في قصة قوم صالح قال تعالى ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)** ﴾ ، في قصة شعيب قال ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)** ﴾

لو لاحظنا قال في صالح (وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) لم يقل في قوم شعيب (وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) والخزي مذكّر فإذن هذا أنسب للتذكير (أخذ) ستكون الصيحة هنا بمعنى الخزي مع سيدنا صالح.

هذا أمر **وعندنا من الملاحظ أن التذكير في العقوبات أقوى من التأنيث**، يعني المفروض أنه أخذ الذين ظلموا الصيحة أشد من وأخذت الذين ظلموا الصيحة كيف؟ قال أولاً (وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) ولم يقلها في قوم شعيب، وقال (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) القوة والعزة مع قوم صالح ولم يقلها في شعيب، والأمر الآخر قال (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ) ولم يذكرها في قوم شعيب. إذن نلاحظ أنه ذكر الخزي والخزي مذكر وذكر ربنا تعالى وصف القوة (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) ثم

ذكر أمراً آخراً سيئاً في قوم صالح وهو (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ) أما في شعيب ما قال كفروا ربهم قال (ألا بعداً لمدين) إذن هنالك صفات في قوم صالح أشد فإذن تذكير الفعل مع قوم صالح أشد وهو أنسب مع قوله (وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ). من حيث اللغة يجوز تذكير وتأنيث الفعل أولاً لأن الصحة مؤنث مجازي والمؤنث المجازي يجوز تذكيره وتأنيثه هذا من حيث اللغة ليس فبها إشكال لكن السؤال لماذا اختار التذكير في موضع والتأنيث في موضع؟ هذا السؤال أما من حيث اللغة ليس فيه إشكال وحتى الفواصل واحدة (الذين ظلموا) هذه التي تفصل بين الفعل والفاعل حتى لو كان مؤنثاً حقيقياً يجوز تذكيره.

****

وهناك مثالٌ آخر للتذكير والتانيث

﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ ((كَانَ)) عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

*ما اللمسة البيانية في تذكير كلمة عاقبة مرة وتأنيثها مرة أخرى في القرآن الكريم؟

وهنا يضيف الدكتور: فاضل السامرائى: تذكير الفاعل المؤنث له أكثر من سبب وأكثر من خط في القرآن الكريم. فإذا قصدنا باللفظ االمؤنّث معنى المذكّر جاز تذكيره وهو ما يُعرف بالحمل على المعنى. وقد جاء في قوله تعالى عن العاقبة تأتي بالتذكير مرة وبالتأنيث مرة ، وعندما تأتي بالتذكير تكون بمعنى العذاب، وقد وردت في القرآن الكريم ١٢ مرة بمعنى العذاب أي بالتذكير. والأمثلة في القرآن كثيرة منها قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)**) و(**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) الأعراف**) و(**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)**﴾ **الصافّات**) وسورة يونس (**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)**) المقصود بالعاقبة هنا محل العذاب فجاء الفعل مذكراً ، وعندما تأتي بالتأنيث لا تكون إلا بمعنى الجنّة كما في قوله

تعالى ﴿ **(وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)** ﴾ القصص. وفي قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ {١٣٥}** ﴾.

****

مثال آخر للتذكير والتأنيث)

﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾

وكان الظاهر السماء (منفطرة) بتأنيث الخبر لأن المشهور أن السماء مؤنثة.. وقد كثرت الآراء حول تذكير لفظ السماء هنا فقال الفراء: السماء يعني المظلة تذكر وتؤنث فجاء مُنْفَطِرٌ على التذكير(فهو يبين جواز التذكير من ناحية اللغة ولكنه لم يبين سبب ورود التذكير هنا) فالتذكير عنده لتأويل السماء بالسقف وكان النكتة فيه تذكير معنى السقفية والإضلال ليكون أمر الانفطار أدهش وأهول- فهو انهيار السقف فوق الرأس-، وقال أبو عليّ الفارسي التقدير ذات انفطار كقولهم امرأة مرضع أي ذات رضاع(٤٣) فجرى على طريق النسب، وحكي عنه أيضا أن هذا من باب الجراد المنتشر والشجر الأخضر وأعجاز نخل منقعر يعني أن السماء من باب اسم الجنس(٤٤) الذي بينه وبين مفرده تاء التأنيث وأن مفرده سماءة واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث فجاء منفطر على التذكير

---

(٤٣)- ولا يشترط أنها ترضع الآن وتلقم طفلها الثدى ولكنها ذات إرضاع فتسمى (مرض) أما لو باشرت الرضاعة والطفل يلتقم الثدى – فهى الآن معها دليل التأنيث العملى فتسمى (مرضعة)، ولذلك ورد هذا الوصف فى قوله تعالى(يوم تذهل كل مرضعة) فقال (مرضعة) أى التى تلقم ثديها للطفل فإنها حين ترى أهوال القيامة فإنها تلقى بطفلها وهو يلتقم الثدى وهى حالة تصوير للرعب وشدته)

(٤٤) (مثلها: قول النبى (ﷺ) أهلك الناس الدينار والدرهم) فجاء بلفظ المفرد – وهو لا يقصد دينار واحد ولا درهم واحد- ولكنه أراد جنس الدينار وجنس الدرهم، كما نقول القرش هو سبب فساد العلاقة، وهو لا يريد قرشاً واحداً ولكنه يريد(جنس) المال-

وكما رأينا أن جميع الآراء متقاربة ولكنها لا توضح السبب فى اختيار تذكيرها هنا فى هذا الموضع، وقد أعجبنى – فيما قرأت– رأى الإمام الألوسى الذى قال فيه: لكن اعتبر إجراء ذلك على (موصوف) مذكر فذكر، أي (شيء) منفطر به(٤٥)، **والنكتة فيه التنبيه على أنه تبدلت حقيقتها - أى السماء - وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبق منها إلّا ما يعبر عنه بالشيء.**

وهذا رأى أراه فى غاية الدقة ويمكن تطبيقه على كثير من الأمثلة التى ورد فيها التذكير فى موضع التأنيث كما ذكرنا فى قول إبراهيم عن الشمس (هذا ربى) وكان حقها أن تكون (هذه ربى)((**فَلَمَّا رَأَى (الشَّمْسَ) بَازِغَةً قَالَ (هَذَا) رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا (أَفَلَتْ) قَالَ** ..(٧٨) وفيها يقول الإمام أبو السعود: **{هذا رَبّى}** وإنما لم يؤنِّثْ لَمَا أنَّ المشارَ إليهِ والمحكومَ عليه بالربوبية هو الجِرمُ المشاهَدُ ... أو لتذكير الخبر وصيانةِ الربِّ عن وَصْمة التأنيث لو قال (هذه ربى).. فكأنه قال عن الشمس (هذا الشىء ربى)

ويتعرض الإمام الطاهر للأمر من الناحية الصوتية فيقول: وَلَعَلَّ الْعُدُولَ فِي الْآيَةِ عَنِ الِاسْتِعْمَالِ الشَّائِعِ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ فِي إِجْرَاءِ السَّمَاءِ عَلَى التَّأْنِيثِ، إِلَى التَّذْكِيرِ إِيثَارًا لِتَخْفِيفِ الْوَصْفِ لِأَنَّهُ لَمَّا جِيءَ بِهِ بِصِيغَةِ مُنْفَعِلٍ – منفطر– بِحَرْفَيْ زِيَادَةٍ وَهُمَا الْمِيمُ وَالنُّونُ كَانَتِ الْكَلِمَةُ مُعَرَّضَةً لِلثِّقَلِ إِذَا أُلْحِقَ بِهَا حَرْفٌ زَائِدٌ آخَرُ ثَالِثٌ، وَهُوَ هَاءُ التَّأْنِيثِ–لتكون منفطرة– فَيَحْصُلُ فِيهَا ثِقَلٌ يُجَنَّبُهُ الْكَلَامُ الْبَالِغُ غَايَةَ الْفَصَاحَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهَا لَمْ تَجْرِ عَلَى التَّذْكِيرِ فِي قَوْلِهِ: إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (الانفطار: ١) إِذْ لَيْسَ فِي الْفِعْلِ إِلَّا حَرْفٌ مَزِيدٌ وَاحِدٌ وَهُوَ النُّونُ– فى كلمة انفطرت– إِذْ لَا اعْتِدَادَ بِهَمْزَةِ الْوَصْلِ لِأَنَّهَا سَاقِطَةٌ فِي حَالَةِ الْوَصْلِ، فأنا أقرأ كلمة انفطرت فى السياق بدون النطق بالألف وتسمى ألف وصل هكذا: **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ** (١)– فَجَاءَتْ بَعْدَهَا تَاءُ التَّأْنِيثِ) انتهى.وهذا رأى يعتبر من الجهة الصوتية التى يراعيها النظم القرآنى– بكل تأكيد– ولكنه لا يكون ذلك على حساب المعنى

---

(٤٥)– كأنه يقول: السماء شيء منفطر–

بل لابد أن يكون ذلك مصحوباً بالمعنى، ولذلك لابد من استعراض السياقين ، وأرى أن السبب – الذى عودنا عليه النظم القرآنى- هو قوة المشهد والسياق الذى يناسب ورود صيغة التذكير وقد قال هنا (السماء منفطر به) ويقول الإمام الطاهر: وَالْبَاءُ بِمَعْنَى (فِي) وَهُوَ ارْتِقَاءٌ فِي وَصْفِ الْيَوْمِ بِحُدُوثِ الْأَهْوَال فِيهِ فَإِنَّ انْفِطَارَ السَّمَاء أَشد هُوَلًا وَرُعْبًا مِمَّا كُنِّيَ عَنْهُ بِجُمْلَةِ (**يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً**). أَي السَّمَاءُ عَلَى عِظَمِهَا وَسُمْكِهَا تَنْفَطِرُ لِذَلِكَ الْيَوْمِ فَمَا ظَنُّكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْثَالِكُمْ مِنَ الْخَلَائِقِ فِيهِ

ولكنى أميل لرأى الإمام الزمخشرى فى جعل الباء على موضعها حيث يقول: (والباء في بِهِ مثلها في قولك: فطرت العود بالقدوم فانفطر به، يعنى: أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به. ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالا يؤدّى إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه، كقوله ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ). وهذا السياق القوى يختلف عن السياق – فى سورة الانفطار التى جاءت الصيغة فيها على التأنيث(انفطرت)- حيث جاء السياق فيها متعاطفاً على الإنسان وكأن السماء تتقاطر دموعها شفقة على هذا الإنسان نستشعره فى قوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)** ﴾ ولعل هذه المشاهد فى سورة الانفطار تتحدث عن بداية الحدث ولم تأت أهوال الموقف بعد، أما سورة المزمل ففى داخل الحدث أو نهايته ، ففيها أهوال الحشر، فناسبه صيغة التذكير(٤٦)

****

---

(٤٦) وراجع وقفتنا المطولة مع سورة الانفطار فى كتابنا إعجاز التكرار فى قصص القرآن المجلد الأول.

ومن الالتفات إلى التذكير فى مقام التأنيث قوله :

﴿ **إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ** ﴾

فى نظم يخاطبهن بصيغة التأنيث من نفس السياق فى قوله تعالى:﴿ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا (جَاءَكُمُ) الْمُؤْمِنَاتُ (مُهَاجِرَاتٍ) (فَامْتَحِنُوهُنَّ) اللَّهُ أَعْلَمُ (بِإِيمَانِهِنَّ) فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ (لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ)** ﴾(٤٧)..

فالسياق كله عن التأنيث ولكن مجيئهن جاء بصيغة التذكير (إِذَا (**جَاءَكُمُ**) **الْمُؤْمِنَاتُ** (**مُهَاجِرَاتٍ**)).**وعن السبب فى تذكير الفعل (إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ) بدلاً** من تأنيثها (جاءتكم).. نراه من السياق الذى يبين أن هؤلاء النساء (جاءوا) بأشق الأمور التى هى من فعل الرجال ، وهو أمر الهجرة – فى هذه الأوقات العصيبة التى يعلمها القاصى والدانى من القتل والتنكيل لمن يحاول ذلك من الرجال فما بالكم بالنساء الذين سيتركون الديار والأهل والأوطان وأزواجهن وربما أولادهن، وهن يعلمن أنهن ربما يردهن النبى(ص) حسب الاتفاقية المبرمة مع كفار قريش– فى صلح الحديبية–(وهذا الصُّلْحَ صُرِّحَ فِيهِ بِأَنَّ مَنْ جَاءَ إِلَى النبيء (ﷺ) مِنْ غَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ مِنْ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ يُرَدُّ إِلَى وَلِيِّهِ) – فهذا يصور لك صورة المجيء وقوته، إضافة إلى موقف امتحانهن قبل قبول إيمانهن،(فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ) وهو العلم الذي تبلغه طاقتكم وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات– كما يقول العلماء– وقد علمنا أن مواقف الشدة–والسياق الذى يشير لذلك– يناسبها صيغة التذكير، فإذا كانت الرياح هينة لينة تأتى بالخير واليسر واللين وصفت بالتأنيث ، وإذا كانت للتدمير والزمجرة وصفت بالتذكير– **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ**

---

(٤٧) وهذه لها موقف تالى نعيشه بالشرح المفصل

(طَيِّبَةٍ) وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ (عَاصِفٌ)- ولم يقل(عاصفة)- **وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ..)**

****

مثال آخر: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)** ﴾ الأعراف.

فكلمة رحمة جاءت بالمؤنث وقريب بالمذكر فما اللمسة البيانية في هذا؟

وقد أمتعنا الإمام ابن القيم فى شرحها وعرض الآراء الكثيرة التى اقتربت من العشر فى كتابه القيم (بدائع الفوائد)

وقد وقف الإمام ابن القيم فى المجلد الثالث من بدائع الفوائد على فوائد جليلة حول هذه الآية الكريمة بدأها بقوله:

وأما الإخبار عن الرحمة وهي مؤنثة بالتاء بقوله (قريب) وهو مذكر ففيه اثنا عشر مسلكا نذكرها ونبين ما فيها من صحيح وسقيم ومقارب.. وفى نهاية العرض والمناقشة الممتعة قال: فهذا تمام اثني عشر مسلكا في هذه الآية أصحها المسلك المركب من السادس والسابع وباقيها ضعيف وواه ومحتمل، والمبتدىء والمقلد لا يدرك هذه الدقائق والفاضل المنصف لا يخفى عليه قويها من ضعيفها وليكن هذا آخر الكلام على الآية والله أعلم.

ولذلك سنقف على ما قاله فقط فى المسلك السادس والسابع وسنشير فى الطريق لبعض المسالك لبيان عظمة هذا البحث الذى نشير للقارىء عليه لمراجعته هكذا:

فصل: المسلك الثالث أن (قريبا) في الآية من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه مع الالتفات إلى المحذوف فكأنه قال إن مكان الرحمة قريب من المحسنين ثم حذف المكان وأعطى الرحمة إعرابه وتذكيره .. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد أخذ بيديه ذهبا وحريرا فقال: **"** هذان حرام على ذكور أمتي**"** فقال

حرام بالإفراد والمخبر عنه مثنى كأنه قال استعمال هذين حرام وهذا المسلك ضعيف جدا لأن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه لا يسوغ ادعاؤه مطلقا .....

وأما قوله: " هذان حرام" ففي إفراد الخبر سر بديع جدا وهو التنبيه والإشارة على أن كل واحد منهما بمفرده موصوف بأنه حرام فلو ثنى الخبر لم يكن فيه تنبيه على هذا المعنى فلهذا أفرد الخبر فكأنه قال وكل واحد من هذين حرام فدل إفراد الخبر على إرادة الإخبار عن كل واحد بمفرده فتأمله فإنه من بديع اللغة(٤٨)

فصل: المسلك الرابع: أنه من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامة كأنه قال إن رحمة الله شيء قريب من المحسنين أو لطف قريب أو بر قريب

وقال: وهذا المسلك أيضا ضعيف لثلاثة أوجه:..

وهكذا فى مناقشته الطويلة لباقى المسالك، إلى أن وصل إلى المسلك السادس والسابع هكذا:

فصل: المسلك السادس إن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الأخر لكونه تبعاً له ومعنى من معانيه، فإذا ذكر أغنى عن ذكره لأنه يفهم منه، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: **{إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ}** فاستغنى عن خبر الأعناق بالخبر عن أصحابها ، ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى: **{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ}** المعنى والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فاستغنى بإعادة الضمير إلى الله إذ إرضاؤه هو إرضاء رسوله فلم يحتج أن يقول يرضوهما فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله قريبة من المحسنين فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ذلك ظهور المعنى، وهذا المسلك مسلك حسن إذا كسي تعبيراً أحسن من هذا، وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الأفهام وهو من أسرار القرآن والذي ينبغي أن يعبر عنه به أن الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه لأن الصفة لا تفارق موصوفها؛ فإذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى

---

(٤٨) وقد ذهبنا إلى هذا الرأى فى قوله تعالى(ترونهم مثليهم رأى العين)فراجعه.

أولى بالقرب منه بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين(٤٩). (وقد تقدم في أول الآية أن الله تعالى قريب من أهل الإحسان بإثابته، ومن أهل سؤاله بإجابته، وذكرنا شواهد ذلك وأن (الإحسان) يقتضي (قرب الرب) من عبده (كما أن العبد قرب من ربه بالإحسان)، وأن من تقرب منه شبرا تقرب الله منه ذراعا ومن تقرب منه ذراعا تقرب منه باعا، (فالرب) تبارك وتعالى قريب من المحسنين (ورحمته قريبة) منهم، وقربة يستلزم قرب رحمته(٥٠)

ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة وأن الله تعالى قريب من المحسنين ،وذلك يستلزم القربين قربة وقرب رحمته ولو قال إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم لأن قربة تعالى أخص من قرب رحمته، والأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف قربه فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب

---

(٤٩) وأقول: قد وقفنا مثل هذا الموقف فى كتب المتشابهات وإعجاز التكرار فى قصص القرآن المجلد الأول على قوله تعالى(ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) وأنه جاء بحرف الإلصاق(الباء فى بنورهم) وعدل عن الصيغة الأخرى التى يُحذف فيها حرف الإلصاق(أذهب الله نورهم) وعددنا أسباباً بلاغية كثيرة تعدوا الثلاثين موضعاً منها قولنا أن الصيغة القرآنية (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) لاتفيد أن النور ذهب عنهم فقط ولكنها تفيد أن النور ذهب لصيقاً برب العالمين– الذى تشير به حرف الإلصاق– ويفيد ذلك أن الله عز وجل ذهب بعيداً عنهم أيضاً، فالله ذهب بنورهم وذهب سبحانه بعيجداً عنهم فلم يبق معهم الرحيم العليم الخبير السميع البصير القادر القوى .. وغيرها من الصفات التى تستلزم– وتصاحب– وجود الله تعالى.. وهذه المعانى جميعها نفتقدها لو جاءت على الصيغة البديلة (أذهب الله نورهم) حيث يقف المعنى على ذهاب النور فقط مع احتمال بقاء الله تعالى بجوارهم.. وأرى أن هذا هو الحال فى بحثنا هذا حول قوله تعالى(إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ وهذا الكلامِ الرائع من الإمام الذى يشير فيه إلى أن الله قريب ورحمته قريبه، وأرى أن قرب الرحمة لا تكون بديلاً عن قرب الرب سبحانه بكل صفات الجلال والجمال والكمال فهى الرحمة والقدرة والعلم وغيرها من الصفات التى يستحضرها المؤمن فى معية الله سبحانه صاحب هذه الصفات، ولا أنسى أن أشير للقارىء الكريم على الالتفات والإعجاز فى كتابة(رحمت) بالتناء المبسوطة– أى المفتوحة–ولم تكتب على الصورة المعتادة (رحمة) وقلنا أن ذلك ناتج عن ملحظ قرب الرحمة وتواجدها وفتحها على المحسنين بخلاف مواقف أخرى تأتى فيها التاء مقبوضة (رحمة) تكون فيها هذه الرحمة بعيدة (إنه لا يقنط من رحمة ربه) فالذى يقنط من الرحمة تكون الرحمة بعيدة عنه فكتبت مغلقة، وكذلك إذا كان يتحدث عن (خزائن)(رحمة) ربك) فهى حزائن وهى لم تصل ولم تفتح بعد على العبد فكتبت بالتاء المغلقة.وهكذا يتكامل الإعجاز فى بلاغة الكلمة ورسم الكلمة وليراجع القارىء الكريم كتابنا موسوعة الجلال والجمال فى رسم الكلمة وجرسها المجلد الأول)

(٥٠)(وأقول: بل قربه يزيد معانٍ أخرى على قرب رحمته فقط)

رحمته ، فلا تستهن بهذا المسلك فإن له شأنا وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب، وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به، وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم ، فهو مسلك سابع في الآية، وهو المختار، وهو من أليق ما قيل فيها ،وإن شئت قلت قربه تبارك وتعالى من المحسنين وقرب رحمته منهم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فإذا كانت رحمته قريبة منهم فهو أيضا قريب منهم، وإذا كان المعنيان متلازمين صح إرادة كل واحد منهما، فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ وأشرفه وأجله على الإطلاق، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد وهو قربة تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأماني ونهاية الآمال وقرة العيون وحياة القلوب وسعادة العبد كلها فكان في العدول عن قريبة إلى قريب من استدعاء الإحسان وترغيب النفوس فيه ما لا يتخلف بعده إلا من غلبت عليه شقاوته ولا قوة إلا بالله تعالى.

وقد حام الدكتور فاضل السامرائى حول هذا المعنى الذى سنقوم بعرضه والتعليق عليه فى قوله: المعروف في اللغة أن كلمة **قريب إذا كان القُرب للنَسَب تطابق؛ تقول هو قريبي وهي قريبتي**، هذا قريب في النسب تحديداً. وإذا لم تكن للنسب فتجوز المطابقة وعدمها؛ قال تعالى (**لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)**) الأحزاب. (**لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧)**) الشورى. هذه ليست للنسب. هذا أمر.

وهذا الرأى قد ضعَّفه الإمام ابن القيم فى المسلك التاسع له فى قوله: فصل: المسلك التاسع أن القريب يراد به شيئان:

أحدهما : النسب والقرابة فهذا بالتاء تقول فلانه قريبة لي.

والثاني: قرب المكان وهذا بلا تاء تقول جلست فلانه قريباً مني ولا تقول قريبة منى، وهذا مسلك الفراء رحمة الله وجماعة وهو أيضا ضعيف فإن هذا إنما هو إذا كان لفظ القريب ظرفاً فإنه يذكر كما قال: تقول جلست المرأة مني قريباً فأما إذا كان اسماً محضاً فلا.

ونعود للدكتور فاضل السامرائى فى قوله: والأمر الثاني من جهة **أخرى رحمة الله مضاف ومضاف إليه ، وعندنا في باب الإضافة أن المضاف يكتسب من المضاف إليه التذكير والتأنيث أو غير ذلك**(٥١) . لغة يجوز أن يكتسب في مواطن إذا كان المضاف جزء أو كالجزء وليس في عموم الإضافة ؛ لا نقول جاءت غلام هند، إذا كان المضاف جزء أو كالجزء أو ما لايصح الاستغناء عنه. في الآية الرحمة يصح الإستغناء عنه بحيث إذا حذفنا يبقى المعنى العام واحد (إن الله قريب من المحسنين). لغوياً يجوز(٥٢)إذن من حيث اللغة أولاً هي ليست من باب قرابة النسب فيجوز فيها الوجهان. **يبقى السؤال عن سبب الاختيار**، لو قال قريبة ستكون الرحمة هي القريبة فقط ، لما قال (قريب) كسب معنيين (رحمته) و(هو) قريب- أى الله **قريب** ، **ورحمة الله** قريبة،(٥٣) فالله قريب كما فى قوله:(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ (١٨٦) البقرة) **فذكر التذكير يشعر بقربه هو وقرب رحمته(معاً)**. وقَال تعالَى (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) الشعراء) لم يقل خاضعة جعل الخضوع للمضاف إليه (هم) (خاضعين) هذا يجوز لأن هذا جزء، الأعناق جزء من الإنسان.(وراجع تفسيرها على الصفحات الماضية)

إذن من الناحية النحوية يجوز ومن الناحية البيانية يجوز.

---

(٥١)، ويضربون أمثلة (أرى مر سنين تعرقتني) (كما شرقت صدر القناة من الدم) شرقت وصدر القناة ،(إمارة العقل مكسوفٌ) لم يقل مكسوفة وإنما قال مكسوف، (مشينا كما اهتزت رماحٌ تسفّهت أعاليها مَرُّ الرياح المواسم) (مرّ) مذكر وقال تسفهت لأن الرياح مؤنث، (الليالي أسرعت في نقضي نقضن كلي) لو حذفنا الليالي يكون الكلام صحيح

(٥٢)حتى (كل وبعض) يمكن تذكيرها وتأنيثها بحسب المضاف إليه (وما حب الديار شغفن قلبي) الحب مفرد وشغفن مؤنث وجمع (للديار وليست للحب).

(٥٣)وأقول: وهما فقرتان فأخذ من الثانية (رحمة الله) ومن الفقرة الأولى كلمة (قريب) فضمن المعنيين معاً، وعشنا قريباً من ذلك المعنى فى شرحنا لقوله تعالى(وتبتل إليه تبتيلا) فراجعه،

المخالفة بين الأدوات:

ومن مواطن المخالفة بين الأدوات كذلك قوله عز وجل:

** ﴿ **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ (لَعَلَى) هُدًى أَوْ (فِي) ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)** ﴾ (سبأ).

ففي تلك الآية الكريمة استثمار للتباين بين أداتي الجر (على – في) من حيث خصوصية المعنى الوظيفي في كل منهما – في إبراز البون الشاسع والمفارقة الواضحة بين الهداية والضلال- إذ في إيثار الحرف الأول الدال على معنى الاستعلاء مع الهدى وإيثار الآخر المفيد لمعنى الظرفية مع الضلال ما يشعر بأن المهتدي – كما قيل – كأنه مستعل على فرس يركضه حيث شاء، أو على منار ينظر من فوقه الأشياء ويتطلع عليها(على هدى)، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه(فى ضلال).

فالإمام الزمخشرى نظر إلى استعلاء أهل الحق (على هدى) ولكن الدكتور حسن طبل نظر إلى أن حرف الظرفية يفيد التمكن فى الصفة(فى ضلال)،ولعل هذا هو مقصود قوله: لقد سيقت الآية الكريمة لمجابهة المشركين بالتواء مسلكهم في قضية العقيدة، وإلجامهم بالحجة القاطعة في اتصافهم – دون المؤمنين – بالضلال، ومن ثم كان لإبراز التقابل بين الهدى والضلال – المخالفة بين حرفي الجر – دوره في هذا السياق؛ إذ في هذا التقابل ما يشعر بأن هؤلاء الذين سلكوا طريق الضلال (بعبادتهم غير الرازق سبحانه) وقد سلكوها لا عن جهل أو التباس بينها وبين طريق الهداية، ولعل هذا هو سر وصف الضلال في الآية الكريمة بأنه "ضلال مبين"؛ إذ في هذا الوصف ما يدل على أن هؤلاء المشركين إنما تنكبوا طريق الهداية عامدين وانحرفوا عنها معاندين.((فلعله نظر إلى أن حرف الظرفية(فى) يفيد التمكن فى الصفة- كما ذكرنا ذلك الرأى فى تفضيل حرف الظرفية مع(الغارمين وفى الرقاب))- والله أعلم، ولعل ذلك الرأى يكون مكملاً لرأى الإمام الزمخشرى

الذى نظر إلى حرف الاستعلاء(على)) وهذا من جمال النظم القرآنى الذى تكتمل فيه الآراء الكثيرة)

****

ومن هذه المواطن أيضاً قول الحق تبارك وتعالى :

** ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢))** ﴾ **الكهف**

وهنا يلحظ القارىء الكريم ورود ثلاثة أقوال وقد ورد القول الأول والثانى بدون حرف الواو: ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ، خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ.. ولكنه فى القول الثالث ورد بحرف الواو هكذا: سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ.. ومن أبرز ما ذكره المفسرون في توجيه ذكرها:

** أنها واو الثمانية؛ وذلك لأن السبعة عند العرب في نهاية العدد، وهي الأصل في المبالغة، وإذا كان كذلك فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظاً يدل على الاستئناف فقالوا: وثمانية، فجاء الكلام في الآية الكريمة على هذا القانون، وقد استدل أصحاب هذا الرأي بقوله سبحانه: (**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)**) التوبة- وقوله: (**عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)**) (التحريم) – وقوله (في آية الموطن السابق) (**...وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)..**) (الزمر) حيث لم تذكر الواو إلا مع الصفة الثامنة في الآيتين الأوليين، ومع أبواب الجنة لأنها ثمانية.

والواقع أن هذا الرأي غير مسلم به، وقد رفضه غير واحد من المفسرين مستدلين بقوله سبحانه: (**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ**

الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)) (الحشر) – حيث جاءت أوصاف المولى عز وجل على وجه التعديد دون ذكر الواو في الوصف الثامن "المتكبر".

ويرد ابن المنير الاستدلال على واو الثمانية بالآيات السابقة فيقول: "ويعدون من هذه الواو في قوله في الجنة: وفتحت أبوابها ... قالوا: لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة، وهب أن في اللغة واواً تصحب الثمانية فتختص بها فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهي إلى الثامن فتصحبه الواو؟ وربما عدوا من ذلك: والناهون عن المنكر وهو الثامن من قوله: التائبون، وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة لتربط بينها وبين الأولى التي هي الآمرون بالمعروف لما بينهما من التناسب والترابط ... وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله: ثيبات وأبكارا؛ لأنه وجدها مع الثامن، وهذا غلط فاحش، فإن هذه واو التقسيم، ولو ذهبت تحذفها فتقول: ثيبات أبكاراً لم يستدل الكلام ...".

وأقول:

ويرد على ذلك الأسئلة التالية

السؤال الأول : لماذا لم يقطع النص القرآنى برأى واحد من هذه الثلاثة آراء

السؤال الثانى: لماذا ورد الواو فى القول الثالث؟

السؤال الثالث: لماذا قال: فَلَا تُمَارِ (فِيهِمْ)، ولم يقل(فلا تمار عليهم) بحرف الاستعلاء (على)كما وردت فى سورة النجم (أَفَتُمَارُونَهُ (عَلَى) مَا يَرَى (١٢)) ولم يقل(فيما يرى)؟

للإجابة السريعة على هذه الأسئلة نوضح أنه قد سأل المشركون النبى (ﷺ) أسئلة منها مايخص الإخبار عن أهل الكهف وما شأنهم وما عددهم فجاءهم الرد بهذه الآيات الكريمة، وكان أهل الكتاب من النصارى هم الذين دفعوا المشركين ليسألوا هذه الأسئلة، وكان هذا الفريق من أهل الكتاب منقسم على ثلاثة أقوال لديهم دون معرفة منهم بوجه الحق فيهم؛ فقالت فرقة منهم (ثلاثة رابعهم كلبهم، والفرقة الثانية قالت : خمسة وسادسهم كلبهم، وقد حكى الله قول هذين الفريقين

ولكنه عقب عليه بأنه قول غير صحيحٍ منهما حيث وصفه بقوله(رجماً بالغيب).. ثم حكى سبحانه رأى الفريق الثالث الذى أضاف له الواو(سبعة (و)ثامنهم كلبهم) ولم يقل رجماً بالغيب.

وهنا وقف العلماء على هذه الواو التى جعلتهم يؤكدون على أن هذا الرأى الثالث هو الرأى الصحيح الذى أراد القرآن الكريم إثباته بهذه الواو التى تسمى واو الحال ، أى أن حالهم هو هذا العدد، وفيها يقول الإمام أبو السعود: **{وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}** هو ما يقوله المسلمون- أى يؤكده المسلمون- بطريق التلقي من هذا الوحي وما فيه مما يرشدهم إلى ذلك من عدم نظمِه في سلك الرجْمِ بالغيب – أى لم يقل فيها رجماً بالغيب- وتغييرُ سبكه بزيادة الواو المفيدةِ لزيادة وكادةِ – أى زيادة توكيد–النسبة فيما بين طرفيها لا بوحي آخرَ كما قيل {قُلْ} تحقيقاً للحق وردًّا على الأولين **{رَّبِّى أَعْلَمُ}** أي أقوى علماً **{بِعِدَّتِهِم}** بعددهم **{مَّا يَعْلَمُهُمْ}** أي ما يعلم عِدّتهم أو ما يعلمهم فضلاً عن العلم بعِدتهم **{إِلاَّ قَلِيلٌ}** من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد- التى ذكرناها- قال ابن عباس رضي الله عنه حين وقعت الواو انقطعت العِدّةُ ، وعليه مدارُ قوله رضي الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما خفيَ عليه ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوةً له في العلم بذلك

ولكن يبقى السؤال: لماذ لم يقلها صريحة هم سبعة وثامنهم كلبهم؟ الإجابة: أن هؤلاء السائلين- من النصارى- كانوا مختلفين فيما بينهم على العدد الحقيقى ولم يكن معهم أحد ولم يرهم أحد وأراد الله عز وجل أن يخبرهم بما قالوه وتداولوه فى الخفاء ثم أعطى إشارة يعلمها أهل اللغة فى زيادة هذه الواو- واو الحال- لمعرفة العدد الحقيقى، ولو قال: هم سبعة وثامنهم كلبهم لكذبه الفريقان الآخران، ولذلك كان ما عليه هذا النظم الحكيم، وبذلك أعطى المعنيين ؛ فى إعلامهم بغيب ما قالوه سراً مع الإعلام بالعدد الحقيقى بالطريقة البلاغية الحكيمة.

وعن الإجابة عن السؤال الثالث : لماذا أتى بحرف الاستعلاء فى آية النجم (**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى** (١٢)) ولم يأت به فى آية الكهف؟ والإجابة هى فى اختلاف المقام، حيث إن المقام فى آية النجم التى أخبرهم فيها النبى (ﷺ) بإسرائه ومعراجه إلى السماوات العلى (فاستعلوا) عليه بالصوت والهجوم والجدال القوى الذى ترتب عليه ارتداد عدد كثير عن لإسلام فناسب ذلك ورود صيغة الاستعلاء (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى).

أما فى آية الكهف فكان الجدال هيناً بل يكاد يكون منعدماً لأن فريق النصارى أنفسهم كانوا لا يعلمون الحقيقة فى شأن ما يسألونه فقال تعال لنبيه (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) (فِيهِمْ)أي: في شأن الفتية {إلاَّ مِرَآء ظاهرا} قدرَ ما تعرّض له الوحيُ من وصفهم بالرجم بالغيب وعدمِ العلم على الوجه الإجمالي وتفويضِ العلم إلى الله سبحانه من غير تصريحٍ بجهلهم وتفضيح لهم فإنه مما يُخِلُّ بمكارم الأخلاق (**وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ**) في شأنهم (**مِنْهُمْ**) من الخائضين (**أَحَدًا**) لأنهم لا يعلمون.

وهذا (الالتفات) فى الحرف هو أحد أنواع الالتفات، وسنعيش أمثلة لهذا الالتفات فى الحرف تحت باب التضمين... **وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو التي آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم".**

﴿ **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)** ﴾ الكهف.

لماذا قال الخضر فى خرق السفينة(فأردت) وفى قتل الغلام (فأردنا) وفى بناء الجدار قال(فأراد ربك)؟

وهنا تتعدد الآراء ومنها:

الرأى الأول: أن العبد الصالح "لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه(فأردت)، ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع (فأردنا) تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية .. ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى(فأراد ربك)؛ لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى".

الرأى الثانى: أن الفعل الأول إفساد ظاهر فأسنده إلى نفسه(فأردت)، والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله سبحانه(فأراد ربك)، أما الثاني فهو إفساد من حيث القتل وإنعام من حيث التبديل، ومن ثم جمع بين الأمرين، ويمكن أن يقال: أن القتل كان منه ولكن إزهاق الروح كان من الله فقال(فأردنا).(وهذا ما نقله الإمام الزركشى فى البرهان).

ويرى الدكتور حسن طبل – إضافة إلى ما لاحظه المفسرون – نكتة أخرى في تلك المخالفة. فبتأمل الأفعال الثلاثة التي قام بها العبد الصالح في ضوء تأويله لها بعد ذلك نلاحظ ما يلي:

٢- أن الفعلين الأولين منها (خرق السفينة – قتل الغلام) إنما كانا لدفع شر، وهو اغتصاب الملك الظالم لسفينة المساكين في الفعل الأول، وتوقع طغيان والدي الغلام المؤمنين وكفرهما في الفعل الثاني، أما الفعل الثالث "إقامة الجدار" فقد كان لجلب خير لليتيمين اللذين ورثاه عن أبيهما الصالح.

٣- أن الشر الذي دُفع بالفعل الأول وهو غصب السفينة هو ظلم الإنسان للإنسان، أما الشر الذي دفع بالفعل الثاني فهو يتضمن ذلك الظلم الذي كان الأبوان سينساقان إليه لو لم يقتل الغلام، كما يتضمن أيضاً فساد عقيدتهما بالكفر (فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا).

لعلنا في ضوء هاتين الملاحظتين نستطيع القول والله أعلم بمراده: أن المخالفة في إسناد فعل الإرادة في الآيات ترتد إلى المخالفة بين غاياتها، فلما كانت الغاية في الإرادة الأولى هي دفع المنكر ومنع ظلم الإنسان للإنسان كان إسناد فعلها إلى ضمير العبد الصالح وحده؛ إشعاراً بمسئولية الإنسان – وهو خليفة الله في أرضه – عن مقاومة المنكر ومحاربته ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولما كانت الغاية الثانية هي منع طغيان الوالدين وكفرهما أسند فعل الإرادة إلى ضمير الفاعلين "فأردنا"؛ إذ إن الإنسان لا يملك إلا مقاومة طغيان الطاغية، أما تصحيح عقيدته أو سلامة قلبه من الزيغ والضلال فهو فعل الله عز وجل – أما الإرادة الثالثة فهي – كما ذكرنا – ليست لدفع شر أو مقاومة طغيان، بل هي لجلب خير، ومن ثم كان إسناد فعل الإرادة فيها إلى الله عز وجل "فأراد ربك" إعلاماً بارتداد الخير إلى رحمانيته سبحانه وحده (رحمة من ربك).

** ﴿ **(لَقَدْ (نَصَرَكُمُ) اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ (أَعْجَبَتْكُمْ) كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ (عَنْكُمْ) شَيْئًا وَضَاقَتْ (عَلَيْكُمُ) الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ (وَلَّيْتُمْ) مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ((وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ))** (٥٤) **وَأَنْزَلَ جُنُودًا (لَمْ تَرَوْهَا) وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)** ﴾ **التوبة**

.. ففى إظهار المؤمنين بدل أن يقول(ثم أنزل الله سكينته عليكم)،إظهاراً لمن ثبت منهم فى مظهر من يستحق إسم المؤمن الحقيقى.

****

** ﴿ **(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)** ﴾ النساء.

فهنا التباين فى النظم القرآنى فى فعل (يريد) حتى لا تتساوى إرادة الله بإرادة الذين يتبعون الشهوات فقدم لفظ الجلالة الله فى (وَاللَّهُ يُرِيدُ) فهى تعطى ملمح كمال الإرادة فهى إرادة الله، وهى أيضاً جملة أسمية (الله يريد) تعطى القوة والثبات والدوام، أما إرادة الذين يتبعون الشهوات فجاءت بالصيغة الفعلية(ويريد

---

(٥٤) وكان يجب أن تقال(على رسوله وعليكم) تمشياً مع السياق قبلها وبعدها.

الذين يتبعون) التى تفيد التغير والتبديل والضعف وتشير أيضاً إلى أنهم يجددون غوايتهم ، ولكن إرادة الله غالبة وغلابة.

وفى هذا يقول الإمام ابو السعود: **{والله يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ}** جملةٌ مبتدأةٌ مَسوقةٌ لبيان كمالِ منفعةِ ما أراده الله تعالى وكمال مضرة مايريد الفجرة لا لبيان إراداته تعالى لتوبته عليهم حتى يكونَ من باب التكريرِ للتقرير ولذلك غُيّر الأسلوبُ إلى الجملة الاسميةِ دلالة على دوام الإرادةِ ولم يُفعلْ ذلك في قوله تعالى **(وَيُرِيدُ الذين يَتَّبِعُونَ الشهوات)** للإشارة إلى الحدوثِ وللإيماء إلى كمال المباينةِ مضموني الجملتين كما مر في قوله تعالى ﴿ **(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّور إِلَى الظُّلُمَاتِ .. (٢٥٧)** ﴾ الآية(٥٥) كقوله تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ (أَوْلِيَاءَ) ..(٥٧))**.. وقوله **(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ (فَهُوَ) الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ (لَهُمْ أَوْلِيَاءَ) مِنْ دُونِهِ .. (٩٧))**الإسراء. **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .. (١٥٣))**الأنعام. **(وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦))** المائدة **(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ .. (١))...(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ).. (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١))**

---

(٥٥) وقد قال الإمام الألوسى أيضاً: ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطَّاغُوتُ في مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الاسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضا،

وأقول : فى الآية التفات آخر نراه فى صيغة التوحيد مع ولاية الله (يخرجهم من الظلمات إلى النور)،وكقوله تعالى(إِنَّمَا (وَلِيُّكُمُ) اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)) وتعدد الولايات مع الذين كفروا (أولياؤهم الطاغوت) فقال(أولياؤهم) بالجمع رغم إضافته إلى (الطاغوت) بصفة المفرد وكان يجب أن تكون أيضاً(أولياؤهم الطواغيت) لبيان تعدد الأهواء على عادة القرآن الكريم فى وحدة(النور) و(سبيل الحق) وتعدد (الظلمات) و(سبل الباطل)

فهذا الالتفات الذى هو تحول من صيغة الإفراد إلى الجمع هو تحول مقصود

ويقول الإمام الألوسى: وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ جعله بعضهم تكرارا لما تقدم للتأكيد والمبالغة وهو ظاهر إذا كان المراد من التوبة هناك وهنا شيئا واحدا، وأما إذا فسر يَتُوبَ أولا بقبول التوبة والإرشاد مثلا، وثانيا بأن يفعلوا ما يستوجبون به القبول فلا يكون تكرارا، وأيضا إنما يتمشى ذلك على كون لِيُبَيِّنَ لَكُمْ مفعولا وإلا فلا تكرار أيضا لأن تعلق الإرادة بالتوبة في الأول على جهة العلية، وفي الثاني على جهة المفعولية وبذلك يحصل الاختلاف لا محالة وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ يعني الفسقة لأنهم يدورون مع شهوات أنفسهم من غير تحاش عنها فكأنهم بانهماكهم فيها أمرتهم الشهوات باتباعها فامتثلوا أمرها واتبعوها فهو استعارة تمثيلية، وأما المتعاطي لما سوغه الشرع منها دون غيره فهو متبع له لا لها.

ويقول الإمام الطاهر: ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** (**٢٧**)﴾ كَرَّرَ قَوْلَهُ: **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ** لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً** فَلَيْسَ بِتَأْكِيدٍ لَفْظِيٍّ، وَهَذَا كَمَا يُعَادُ اللَّفْظُ فِي الْجَزَاءِ وَالصِّفَةِ وَنَحْوِهَا، كَقَوْلِ الْأَحْوَصِ فِي الْحَمَاسَةِ. فَإِذَا تَزُولُ تَزُولُ عَنْ مُتَخَمِّطٍ ... تُخْشَى بَوَادِرُهُ عَلَى الْأَقْرَانِ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (**رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا**)(الْقَصَص: ٦٣) وَالْمَقْصِدُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِإِرَادَةِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ تَنْبِيهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى دَخَائِلِ أَعْدَائِهِمْ، لِيَعْلَمُوا الْفَرْقَ بَيْنَ مُرَادِ اللَّهِ مِنَ الْخَلْقِ. وَمُرَادِ أَعْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ.

وَلِذَلِكَ قَدَّمَ الْمُسْنَدَ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ لِيَدُلَّ عَلَى التَّخْصِيصِ الْإِضَافِيِّ. أَيِ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ، أَيْ يُحَرِّضَكُمْ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الْمَعَاصِي، وَأَمَّا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ فَيُرِيدُونَ انْصِرَافَكُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَمَيْلَكُمْ عَنْهُ إِلَى الْمَعَاصِي. وَإِطْلَاقُ الْإِرَادَةِ عَلَى رَغْبَةِ أَصْحَابِ الشَّهَوَاتِ فِي مَيْلِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْحَقِّ لِمُشَاكَلَةِ (**يُرِيدُ**

اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)(النِّسَاء: ٢٦) . وَالْمَقْصُودُ: وَيُحِبُّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا. وَلَمَّا كَانَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي مَيْلِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْحَقِّ رَغْبَةً لَا تَخْلُو عَنْ سَعْيِهِمْ لِحُصُولِ ذَلِكَ، أَشْبَهَتْ رَغْبَتُهُمْ إِرَادَةَ الْمُرِيدِ لِلْفِعْلِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى- بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ- (**يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ**) (النِّسَاء: ٤٤) .

وَحُذِفَ مُتَعَلِّقُ تَمِيلُوا لِظُهُورِهِ مِنْ قَرِينَةِ الْمَقَامِ، وَأَرَادَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ الَّذِينَ تَغْلِبُهُمْ شَهَوَاتُهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُمْ: مِنَ الَّذِينَ لَا دِينَ لَهُمْ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُونَ فِي عَوَاقِبِ الذُّنُوبِ وَمَفَاسِدِهَا وَعُقُوبَتِهَا، وَلَكِنَّهُمْ يُرْضُونَ شَهَوَاتِهِمُ الدَّاعِيَةَ إِلَيْهَا. وَفِي ذِكْرِ هَذِهِ الصِّلَةِ هُنَا تَشْنِيعٌ لِحَالِهِمْ، فَفِي الْمَوْصُولِ إِيمَاءٌ إِلَى تَعْلِيلِ الْخَبَرِ.

وأقول : فى آية أخرى قدمت إرادة غير الله فى السياق كما فى قوله تعالى:(**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ (تُرِيدُونَ) عَرَضَ الدُّنْيَا (وَاللَّهُ يُرِيدُ) الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)**.. لأن إرادة الله عز وجل جاءت لتصحيح إرادة بعض الصحابة لأخذ الأسرى (والله يريد) لهم الآخرة، فجاءت إرادة الله التصحيحية بعد ذكر إرادتهم، ولكن النظم قدم ذكر لفظ الجلالة (الله) فى قوله (والله يريد)

****

**** ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) ﴾** يونس

وهنا نلحظ الالتفات فى بنية الفعل (**يَهْدِي**) إلى الصيغة المشددة (**لَا يَهِدِّي**)
وهنا أترك الإجابة للأستاذ الدكتور فاضل السامرائى فى قوله : قال تعالى في سورة يونس (**قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)**) من حيث التكوين اللغوي كلمة يهدّي تعني يهتدي وحصل فيها إبدال معلوم التاء

انقلبت دال مثل قوله (**يخِصّمون**) في سورة يس وهي (يختصمون) وكلمة (ازّينت) وهي تزينت.

يبقى السؤال لماذا جاءت (**يهدّي**) هي فيها تضعيف الدال بينما يهتدي ليس فيها تضعيف الدال والتضعيف يفيد المبالغة أي بالغ في عدم اهتداء هؤلاء. وعندنا التضعيف فيه مبالغة مثل كسر وكسّر. هذه الآية الوحيدة في القرآن كله التي وردت فيها (**يهدّي**) والباقي (**يهتدي**)، ربنا تعالى أراد أن يذكر المبالغة في عدم اهتدائهم وفي القرآن كله الكلام في الإنسان (يهتدي) إلا هذه الآية فالكلام في الأصنام وفيها مبالغة في عدم الإهتداء فأُبدل ليصير مبالغة وتكثير وهؤلاء ايسوا مثل البشر. في الأصنام مبالغة في عدم الإهتداء أُبدل وقال (**لا يهدّي**) للمبالغة في عدم الهداية. والأصنام ليست كالبشر لأنها غير قادرة على فعل شيء ولم يرد في القرآن نفي الهداية عن الأصنام إلا في هذه الآية. في كل القرآن ورد نفي الهداية عن البشر فجاء بلفظ يهتدي وتهتدي. وإذا فقد السمع والبصر مبالغة في عدم الهداية لذا المبالغة في عدم الهداية جاءت كلمة (يهدّي) فكيف تهتدي الأصنام؟ لذا اقتضى المبالغة. وتوجد قراءة متواترة (يهدي).

ويضيف صاحب التبيان فى روائع القرآن الدكتور تمام حسان الملحظ الصوتى وشدته ووعورته فى الكلمة المشددة التى ترمز- بجرسها الصوتى- لشدة ووعورة طريق هداية الأصنام وعابديها.

****

** ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ** (**يَتَطَهَّرُوا**) **وَاللَّهُ يُحِبُّ** (**الْمُطَّهِّرِينَ**) (**١٠٨**)﴾ البقرة.. فك وإدغام.

وأرى- أنا الكاتب- أن صيغة يتطهروا فيها التدرج وليس القوة، أما صيغة (**الْمُطَّهِّرِينَ**) فينظر فيها إلى **القوة والجدية والسرعة** فى التزام أمر التطهر، وهذا كمثال عشناه فى المجلد الأول من إعجاز التكرار والمتشابهات فى ورود صيغة (يتدبرون) و(يدَّبروا) وكانت الصيغة الأولى يلحظ فيها التمهل وطول المدة،

والثانية فيها السرعة والقوة.. ومثل ذلك فى مثالنا هذا؛ فإن الله يحب السرعة والقوة فى امتثال أمر التطهر والبعد عن الرذائل (**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**) ولكنه يأخذنا ويقبل منا التدرج للوصول((**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**)).

****

كذلك (**ومن يشاقق**) (**ومن يشاق**)

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾ النساء.

﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ﴾ الأنفال

﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾ الحشر.

نلاحظ ورود الصيغتين(**يشاق**) و(**يشاقق**)، وقد لا حظ علماء المتشابهات كالإمام الخطيب الإسكافى والإمام الكرمانى أنه إذا كان الخطاب عن مشاقة (الله)و(رسوله) أتى بالقفين مناسبة لذلك فقال(**وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) فى سورة الأنفال.. وإذا جاءت المشاقة (لله) فقط أتى بقافٍ واحدة وقال(**وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)**) فى سورة الحشر، وهذا تناسق لطيف تعودنا عليه فى النظم القرآنى، ولكننا تعودنا أن النظم القرآنى يغمض أحياناً عن الفهم الظاهرى ويحتاج إلى قوة تأمل وتدبر ليبقى دائماً مفتوحاً للعلماء يتدبرونه إلى يوم القيامة، وهذا الذى نقوله يتضح لنا فى هذا المثال حيث أنه تبقى آية لا تخضع- ظاهرياً أو بالنظرة السطحية- لهذه القاعدة وهى فى قوله تعالى فى آية النساء التى وردت المشاقة

للرسول فقط، وكان يجب أن تأتى المشاقة بقاف واحدة كالتى جاءت مع قوله (**وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ**) ولكنه هنا خالف وجاءت بقافين (**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ**)، وهنا نعود للتأمل لنرى أن هناك فارقاً ملحوظاً، فإن مشاقة الرسول لا تستقل بنفسها بل إنه تابع لله تعالى ولذلك جاءت بالقافين(يُشَاقِقِ) لترمز لهذا الملحظ.. أما مشاقة الله تعالى وحده فهى تكفى ولا تحتاج لتقدير التبعية الثانية ولذلك قال (**وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ**).

وهذا ملحظ بديع وممتع للعقل ومشبع للعاطفة ويزيد ذلك الجمال جمالاً حينما يلحظ البعض الآخر من العلماء أن السياق فى آيات الحشر تصور مشهد القاء الله تعالى الرعب فى قلوب اليهود(**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)**) وأن النبى(ﷺ) لم يحاربهم هو ولا الصحابة وكان الدور الكامل هنا لله تعالى هو الذى تولى ذلك ولم يكن للرسول(ﷺ) دور ولذلك جاءت المشاقة بقافٍ واحدة(**وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ**).. وذلك بخلاف آية الأنفال التى تتحدث عن غزوة بدر وقد علمنا جميعاً دور النبى (ﷺ) فى المعركة هو وصحابته الكرام بجانب تدخل الله تعالى فوردت القافين لتشير إلى ذلك فى قوله((**وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**)

****

**** ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥) ﴾** النساء.

ولفظة الكفل كما تدل – معجمياً – على معنى النصيب تدل كذلك على معان أخرى تنعكس ظلالها – ضرورة – على دلالتها في الآية الكريمة، وتوحي ببعض أسرار العدول إليها:

فمن معاني الكفل: المثل المساوي، ويملحظ من هذا المعنى ذكر بعض المفسرين أن في العدول إليها في الآية إشعاراً بالمماثلة بين الفعل ورد الفعل في الشفاعة السيئة "فاختيار النصيب أولاً لأن جزاء الحسنة يضاعف والكفل ثانياً، لأن من جاء بالسيئة لا يجزى إلا بمثلها، ففي الآية إشارة لطيفة إلى لطف الله بعباده".

ومن تلك المعاني أيضاً: الكفيل أو الضامن، وفي ضوء هذا المعنى رتب غير واحد من المفسرين القول بأن في العدول إلى تلك اللفظة مع الشفاعة السيئة دلالة على حتمية عود المردود السيئ على صاحب تلك الشفاعة، وإشعاراً بأنه إذ يقدم على إقحام نفسه في تلك الشفاعة يتكفل بجرائرها.

بهذه الظلال والإيحاءات – إذن – كان اللفظة الكفل مجالها الدلالي الخاص الذي تتمايز به من لفظة النصيب، وتتواءم دونها بمقتضاه مع الشفاعة السيئة، وهذا التمايز هو ما أومأ إليه أبو حيان عند تفسيره للمغايرة بين اللفظي في الآية الكريمة، وذلك حين قال: "إن الكفل أكثر ما يستعمل في الشر"، وهو ما يتجلى بوضح في المواطن القرآنية التير وردت فيها لفظة النصيب، إذ إنها لم ترد في الأعم الأغلب من هذه المواطن إلا مقترنة بالخير أو بما يرجى منه خير.

** **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ (سَنَةٍ) إِلَّا خَمْسِينَ (عَامًا) فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾** العنكبوت.

حيث جاء تمييز المستثنى بلفظ "العام" لا بلفظ "السنة" الوارد في تمييز المستثنى منه، وكل من اللفظين يدل على معنى الحول أو مقدار قطع الشمس البروج الإثنى عشر، فما هو سر المخالفة بينهما في الآية الكريمة إذن؟

لقد ذكر غير واحد من المفسرين ان السر في ذلك هو تحاشي تكرار لفظة السنة؛ "لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا إذا أوقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك".

ولعلنا نلاحظ أن هذا الراي لا يكفي في تفسر تلك المخالفة؛ إذ لو كان الغرض هو – فحسب – تجنب تكرار لفظة السنة لما كان هناك ما يدعو إلى العدول

عنها إلى لفظة العام، ولقيل: (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين) بحذف تمييز المستثنى استغناء بذكره في المستثنى منه.

والحق أن العدول عن لفظة السنة إلى لفظة العام في تلك الآية، أو إيثار إحداهما دون الأخرى في غيرها من الآيات – إنما يرتد إلى خصوصية كل منهما في الدلالة على معنى الحول، حيث تختص السنة – كما تقول المعاجم – بالحول الذي يكون فيه الجدب أو الشدة، ويختص العام بما فيه الخصب والرخاء، ولهذا أوثرت لفظه السنة في قوله (ﷺ): "اللهم أعني على مضر بالسنة"، وقوله في حديث الدعاء على قريش: "اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف"، وأوثرت لفظة العام في قوله سبحانه (**ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** (٤٩))

في ضوء هذه التفرقة بين السنة والعام يرجح عندنا الرأي القائل بأن نكتة المخالفة بينهما في الآية الكريمة هي الإيحاء بأن نوحاً عليه السلام قد قاسى ما قاسى من قومه في تلك الحقبة الطويلة التي استغرقتها دعوته إياهم، والتي بلغت تسعمائة وخمسين سنة، أما المدة المستثناة فهي التي جاءه في صدرها الغوث والفرج بإهلاكهم غرقاً ونجاته ومن معه من المؤمنين.

ففي العدول – في ضوء هذا الرأي – إبراز اللبون الشاسع بين مدة ابتلاء نوح عليه السلام بقومه، ومدة رخائه بعد هلاكهم، وهو بذلك يؤدي دوره في تسلية نبينا (ﷺ) وتثبيت قلبه في مواجهة ما كان يلقاه من عنت الكفار والمشركين، وهو بذلك أيضاً يؤدي دوره في سياق تلك السورة المكية التي تكرر فيها قبله ذكر الفتنة والإيذاء لفتاً إلى سنة الله سبحانه في التمييز بين صادق الإيمان وزائفه: (**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** (٢) **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** (٣).. **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ** (١٠)) (العنكبوت).

****

وقفات إضافية مع
الالتفات فى صيغ الفعل ما بين الماضى والمضارع
ومع آيات الذكر الحكيم

وقبل البداية نذكر القارىء بأننا سنقوم بالشرح والتفصيل لأقوال العلماء فى أثناء نقل حديثهم وذلك لصعوبته على الدارس وسيكون فى الغالب بين الأقواس أو غير مشكل بالعلامات الإعرابية حتى يسهل البحث على الباحث ويكون ميسراً للجميع .

والمثال الأول فى قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا (جَاءَتْهُمُ) الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ (تُصِبْهُمْ) سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ .. (١٣١) ﴾ الأعراف.

هنا الالتفات من الماضى – الذى يفيد تحقيق الوقوع والتأكيد والاستمرار- إلى المضارع الذى يفيد التجدد والتكرار

والالتفات الثانى فى أداة الشرط من (إذا) إلى (إن).

فإن قلت: كيف. قيل: فإذا جاءتهم الحسنة (بإذا) وتعريف الحسنة- بالألف واللام-، وإن تصبهم سيئة (بإنّ) وتنكير السيئة- بدون الألف واللام-؟ قلت: لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب- فناسبه (إذا)- لكثرته واتساعه. وأمّا السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها – فناسبه(إن) التى تفيد الشك فى الوقوع-. ومنه قول بعضهم: قد عددت أيام البلاء، فهل عددت أيام الرخاء.

ويضيف الإمام أبو السعود قوله: كما أن تنكيرَ السيئةِ – فى قوله: وإن تصبهم (سيئة) ولم يقل السيئة- وإيرادَها بحرف الشكِّ(إن) للإشعار بنُدرة وقوعِها وعدم تعلّقِ الإرادةِ بها إلا بالعَرَض (فهى نكرة غير معلومة وهى نادرة الوقوع)

وهو ما يوضحه صاحب تفسير المنار فى قوله: أَيْ: **وَإِن اتَّفَقَ أَنْ أَصَابَتْهُمْ** سَيِّئَةٌ – أَيْ: حَالَةٌ تَسُوؤُهُمْ كَجَدْبٍ أَوْ جَائِحَةٍ أَوْ مُصِيبَةٍ أُخْرَى فِي الْأَبْدَانِ أَوِ الْأَرْزَاقِ – تَشَاءَمُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ..

(وَأقول مضيفاً : لأن الحسنة مستمرة طوال وجود الإنسان من بداية وجوده حتى مماته فى كل لحظة من حياته– حتى فى النفس الذى يتنفسه– وهو حقيقة ثابته فجاء بها بصيغة الماضى(فَإِذَا (جَاءَتْهُمُ)) واختار لها لفظ المجىء الذى يفيد الظهور والقوة حتى فى جرس الكلمة والمعنى أيضاً وهو الذى يختلف عن الإصابة (تصبهم) فى المصيبة التى تصيب وتأتى نادراً – وإن تجددت أو تكررت لكنها غير ثابته أو دائمة – ولذلك اختار لها صيغة المضارع مع لفظ الإصابة وأداة الشك فى حدوثها(إن) **وَإِنْ (تُصِبْهُمْ) سَيِّئَةٌ** هكذ: **(فَإِذَا (جَاءَتْهُمُ) الْحَسَنَةُ.. وَإِنْ (تُصِبْهُمْ) سَيِّئَةٌ**)

وهو نفس ما ذكره صاحب تفسير المنار فى قوله: وَفِي الْآيَةِ مِنْ نُكَتِ الْبَلَاغَةِ أَنَّهُ عَبَّرَ عَنْ مَجِيءِ الْحَسَنَةِ بِـ " إِذَا " الدَّالَّةِ عَلَى تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ، وَعَرَّفَهَا– **فَإِذَا جَاءَتْهُمُ** (**الْحَسَنَةُ**)– لِإِفَادَةِ **أَنَّهَا الْأَصْلُ الثَّابِتُ** بِغَلَبَةِ رَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ عَلَى سُخْطِهِ وَعِقَابِهِ، وَعَبَّرَ بِإِصَابَةِ السَّيِّئَةِ بِـ " إِنَّ " الَّتِي هِيَ أَدَاةُ الشَّكِّ – أَيْ: إِنَّ شَرْطَهَا **إِمَّا مَشْكُوكٌ فِي وُقُوعِهِ، وَإِمَّا مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الْمَشْكُوكِ فِيهِ لِنُدْرَتِهِ أَوْ لِسَبَبٍ آخَرَ** – وَنَكَّرَ السَّيِّئَةَ؛ لِإِفَادَةِ أَنَّ وُقُوعَهَا قَلِيلٌ وَخِلَافُ الْأَصْلِ الْغَالِبِ..

ويقف الإمام الطاهر على **همس المجىء** هنا والإصابة هناك فيقول: وَالْمَجِيءُ: الْحُصُولُ وَالْإِصَابَةُ، وَإِنَّمَا عُبِّرَ فِي جَانِبِ الْحَسَنَةِ بِالْمَجِيءِ لِأَنَّ حُصُولَهَا مَرْغُوبٌ، فَهِيَ بِحَيْثُ تُتَرَقَّبُ كَمَا يُتَرَقَّبُ الْجَائِي، وَعُبِّرَ فِي جَانِبِ السَّيِّئَةِ بِالْإِصَابَةِ لِأَنَّهَا تحصل فَجْأَة من غَيْرِ رَغْبَةٍ وَلَا تَرَقُّبٍ.

وَجِيءَ فِي جَانِبِ الْحَسَنَةِ بِإِذَا الشَّرْطِيَّةِ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي (إِذَا) الدَّلَالَةُ عَلَى الْيَقِينِ بِوُقُوعِ الشَّرْطِ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنَ الْيَقِينِ كَقَوْلِكَ: إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَعَلْتُ كَذَا، **وَلِذَلِكَ غَلَبَ أَنْ يَكُونَ فِعْلُ الشَّرْطِ مَعَ (إِذَا) فِعْلًا مَاضِيًا لِكَوْنِ**

الْمَاضِي أَقْرَبَ إِلَى الْيَقِينِ فِي الْحُصُولِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا فِي الْآيَةِ، فَالْحَسَنَاتُ أَيِ: النِّعَمُ كَثِيرَةُ الْحُصُول تَنْتَابُهُمْ مُتَوَالِيَةً مِنْ صِحَّةٍ وَخِصْبٍ وَرَخَاءٍ وَرَفَاهِيَةٍ. وَجِيءَ فِي جَانِبِ السَّيِّئَةِ بِحَرْفِ (إِنْ) لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنْ تَدُلَّ (إِنْ) عَلَى التَّرَدُّدِ فِي وُقُوعِ الشَّرْطِ، أَوْ عَلَى الشَّكِّ، وَلِكَوْن الشَّيْءِ النَّادِرِ الْحُصُول غَيْرَ مَجْزُومٍ بِوُقُوعِهِ، وَمَشْكُوكًا فِيهِ، جِيءَ فِي شَرْطِ إِصَابَةِ السَّيِّئَةِ بِحَرْفِ (إِنَْ) لِنُدْرَةِ وُقُوعِ السَّيِّئَاتِ أَيِ: الْمَكْرُوهَاتِ عَلَيْهِمْ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَسَنَاتِ، أَيِ: النِّعَمِ، وَفِي ذَلِكَ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ نِعَمَ اللَّهِ كَانَتْ مُتَكَاثِرَةً لَدَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُعْرِضِينَ عَنِ الشُّكْرِ، وَتَعْرِيضٌ بِأَنَّ إِصَابَتَهُمْ بِالسَّيِّئَاتِ نَادِرَةٌ وَهُمْ يَعُدُّونَ السَّيِّئَاتِ مِنْ جَرَّاءِ مُوسَى وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، فَهُمْ فِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ بَيْنَ كَافِرِينَ بِالنِّعْمَةِ وَظَالِمِينَ لِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، وَلِهَذَيْنِ الِاعْتِبَارَيْنِ عُرِّفَتِ الْحَسَنَةُ تَعْرِيفَ الْجِنْسِ الْمَعْرُوفَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي بِالْعَهْدِ الذِّهْنِيِّ، أَيْ: جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَاتُ(المعروفة لديهم ولا ينكرونها)، لِأَنَّ هَذَا الْجِنْسَ مَحْبُوبٌ مَأْلُوفٌ كَثِيرُ الْحُصُول لَدَيْهِمْ، وَنُكِّرَتْ سَيِّئَةٌ لِنُدْرَةِ وُقُوعِهَا عَلَيْهِمْ، وَلِأَنَّهَا شَيْءٌ غَيْرُ مَأْلُوفٍ حُلُولُهُ بِهِمْ، أَيْ: وَإِنْ تُصِبْهُمْ آيَةٌ سَيِّئَةٌ، كَذَا فِي «الْكَشَّاف» و «الْمِفْتَاح»

ونجد نفس ما ذكرناه فى المثال التالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا ((أَذَقْنَا)) الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ ((تُصِبْهُمْ)) سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ الروم.

وأقول – المؤلف–:إن التفرقة بين الحسنة ب(جاءتهم) والمصيبة أو السيئة ب (أصابتهم) يكون فى الدنيا، أما فى الآخرة فالمجيئان واحد **هكذا:**

﴿ مَنْ (جَاءَ) بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ (فَكُبَّتْ)(وُجُوهُهُمْ) فِي النَّارِ هَلْ(تُجْزَوْنَ) إِلَّا (مَا كُنْتُمْ) تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾ النمل.

وهنا نلاحظ أيضاً كيف صور النظم الحكيم صورة الرعب الحادث من (كبهم) فى جهنم حيث جاء به على صيغة المبنى للمجهول والماضى فلم

يقل(فكبتهم الملائكة فى النار) أو (فكبهم الله فى النار) ولكنه قال(فَكُبَّتْ) (وُجُوهُهُمْ) هكذا لتصوير الغموض والرعب من المجهول، وأتى بصيغة الماضى للتأكيد على وقوع هذا الأمر الخطير ودوامه، إضافة إلى الخطاب(عنهم- هم- هكذا بصيغة الغيبة).. والذى (سيلتفت) بعدها إليهم بالخطاب التقريعى والتوبيخى – فى نفس السياق- الذى يستلزم حضورهم فى المشهد مع توبيخهم فى قوله **((هل تُجْزَوْنَ)**- أنتم- **إِلَّا (مَا كُنْتُمْ) تَعْمَلُونَ**- أنتم-)

****

** **﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾** المؤمنون.

وأرى أن الاستكانة كما قَالَ الْوَاحِدِيُّ: الِاسْتِكَانَةُ الْخُضُوعُ، وَهُوَ أَنْ يَسْكُنَ لِصَاحِبِهِ لِيَفْعَلَ بِهِ مَا يُرِيدُ، **وهى حالة سلبية**، وكما قال الإمام الرازى: مَا وَزْنُ اسْتَكَانَ؟ الْجَوَابُ: اسْتَفْعَلَ من السكون وقيل أيضاً: ووزن استكان استفعل من الكون لأن الخاضع ينتقل من كون الى كون – أى من كونه متحركاً إلى كونه ساكناً-كما قيل استحال(أى لا يمكن فعل هذا الشىء) .. والاستحالة هى (دوام) الحال، **فالاستكانة سكون ودوام وسلبية**، وهو ما أشار إليه الإمام الطاهر: وَالِاسْتِكَانَةُ: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْخُضُوعِ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السُّكُونِ لِأَنَّ الَّذِي يَخْضَعُ **يَقْطَعُ الْحَرَكَةَ أَمَامَ مَنْ خَضَعَ لَهُ**، فَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ السُّكُونِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَمَكُّنِ السُّكُونِ وَقُوَّتِهِ.**أما التضرع فهو الابتهال** كما قال العلماء أن: جأر الرجل إلى الله تعالى إذا تضرع بالدعاء، فهو **تحرك إيجابى متكرر** يناسبه صيغة المضارع والتكرار.

فالأول يناسبه صيغة الماضى(استكانوا) والثانى(التضرع) يناسب صيغة المضارع والله أعلم.

ويضيف الإمام الرازى رأياً آخر يقول فيه:

السُّؤَالُ الثَّانِي: لِمَ جَاءَ اسْتَكَانُوا بلفظ الماضي ويَتَضَرَّعُونَ بِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ؟ الْجَوَابُ: لِأَنَّ الْمَعْنَى امْتَحَنَّاهُمْ فَمَا وَجَدْنَا مِنْهُمْ عَقِيبَ الْمِحْنَةِ

اسْتِكَانَةً، **وَمَا مِنْ (عَادَةِ) هَؤُلَاءِ أَنْ يَتَضَرَّعُوا** حَتَّى يُفْتَحَ عَلَيْهِمْ بَابُ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ.(والعادة – التى هى عادة المخاطَبين من صناديد قريش سادة القوم والبلاد فى أنهم لايكررون التضرع ولو حدث مرة لا يتكرر منهم ذلك– ولذلك تناسبها صيغة المضارع فى النفى)

وأقول مضيفاً رأياً آخر يرى فيه أن الحال فى النفى عكس الحال فى الإثبات، فالفعل المضارع أقل توكيداً فى الإثبات من الماضى ولكن العكس يكون فى النفى، وهو ما ذكره الإمام ابن جنى وقال به بعض العلماء هكذا: والاستكانة أقل من التضرع فإذا نفينا الاستكانة منهم فنحن نؤكد و(نكرر) التأكيد على نفى التضرع، فجاء نفى التضرع على صورة تكرار التوكيد– وهى صيغة المضارع– ولذلك قيل إن (نفى) المضارع أشد تأكيداً من (نفى) الماضى– كما ذكر الإمام ابن جنى– لأن الماضى أقوى من المضارع، فإذا نفينا الأقل الاستكانة– فإنه لابد أن ينتفى الأقوى وهو التضرع، ولعل هذا هو مقصود قول العلماء بأن نفى المضارع يفيد(تجدد) الانتفاء، وكأنى بالسياق يقول (ما تضرعوا، وما تضرعوا، وما تضرعوا،...) فهى فى النفى أشد توكيداً.. ولذلك قال الإمام الألوسى: وعبر فى التضرع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أن المراد دوام النفى ، لا نفى الدوام).. ولو جرى السياق على النمط المتوقع فجاء هكذا(فما استكانوا لربهم وما تضرعوا) لكان المقصود والله أعلم– وما تضرعوا التضرع المطلوب لرفع البلاء وكشف العذاب، وإنما جاء (وما يتضرعون) لنفى حصول (أدنى) شىء من التضرع أصلاً.

فعلى أى رأى من الآراء جاء النظم الحكيم (**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** (٧٦)) والله أعلم.

** **وذلك المعنى نجده أيضاً فى المثال التالى** لنفس القوم المذكورين فى المثال السابق وهو قوله تعالى:

﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ** (**خَرَجُوا**) **مِنْ دِيَارِهِمْ** (**بَطَرًا وَرِئَاءَ**) **النَّاسِ** (**وَيَصُدُّونَ**) **عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** (٤٧) ﴾ الأنفال.

الالتفات الأول هو التحول فى صيغة الفعل(خَرَجُوا)- ماضى- (وَيَصُدُّونَ)- مضارع- فخروجهم بطراً ورياءً صفة **طبيعية ملازمة لهم** – كالاستكبار فى المثال السابق- وفيها مشهد الدوام على هذا الحال فكانوا يخرجون على صورة تهابهم منهم العرب، بخلاف الصد الذى هو تصور حركى ومتكرر ومتجدد منهم، وهو واقع الحال من تكرار صدهم ومحاربتهم لأتباع الدعوة فى حال نزول الآيات. فناسب الأول الماضى، وناسب(الصد) المضارع.

الالتفات الثانى هو: الإظهار فى مقام الإضمار عَنْ سَبِيلِ (اللَّهِ) (وَاللَّهُ) بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ. وكان حقها أن تكون((وهو) بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ، ولكنه أراد إبراز لفظ الجلالة الذى يستدعى المهابة والإجلال ، **والمعنى الثانى** الذى سيردده البعض من العلماء فى مثل هذا المثال(من الإظهار فى مقام الإضمار) وهو قولهم: **ولتكون هذه الجملة مستخدمة على سبيل المثل الذى يضرب.**وهو ما سنوضحه على الصفحات التالية.

وفى هذا الالتفات من الماضى(خرجوا) إلى المضارع(ويصدون) يقول الإمام الرازى: وَالثَّالِثُ: قَوْلُهُ: (**وَيَصُدُّونَ**) **عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** فِعْلٌ مُضَارِعٌ وَعَطْفُ الْفِعْلِ عَلَى الِاسْمِ – **بَطَرًا وَرِئَاءَ** –، على اعتبار كون السياق خرجو بطراً ورئاء ويصدون، والبطر والرئاء أسماء-غَيْرُ حَسَنٍ. وَذَكَرَ الْوَاحِدِيُّ فِيهِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ: **الْأَوَّلُ**: أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ صَادِّينَ(فيكون عطف للأسماء). وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: بَطَراً وَرِئَاءَ بمنزلة يبطرون ويراؤن، وَأَقُولُ: إِنَّ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ لَا يَشْفِي الْغَلِيلَ، لِأَنَّهُ تَارَةً يُقِيمُ الْفِعْلَ مَقَامَ الِاسْمِ وَأُخْرَى يُقِيمُ الِاسْمَ مَقَامَ الْفِعْلِ، لِيَصِحَّ لَهُ كَوْنُ الْكَلِمَةِ مَعْطُوفَةً عَلَى جِنْسِهَا، **وَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ السَّبَبَ الَّذِي لِأَجْلِهِ عَبَّرَ عَنِ الْأَوَّلَيْنِ بِالْمَصْدَرِ**(بطراً ورئاء)، وَعَنِ الثَّالِثِ بِالْفِعْلِ(ويصدون). وَأَقُولُ: إِنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيَّ، ذَكَرَ أَنَّ الِاسْمَ يَدُلُّ عَلَى التَّمْكِينِ وَالِاسْتِمْرَارِ وَالْفِعْلَ عَلَى التَّجَدُّدِ

وَالْحُدُوثِ، قَالَ وَمِثَالُهُ فِي الِاسْمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بالْوَصِيدِ** [الْكَهْفِ] وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَوْنَ تِلْكَ الْحَالَةِ ثَابِتَةً رَاسِخَةً(٣٠٩ سنة)، وَمِثَالُ الْفِعْلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**(يُونُسَ: ٣١) **وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يُوصِلُ الرِّزْقَ إِلَيْهِمْ سَاعَةً فَسَاعَةً**، هَذَا مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنَّ أَبَا جَهْلٍ وَرَهْطَهُ وَشِيعَتَهُ كَانُوا **مَجْبُولِينَ** عَلَى الْبَطَرِ وَالْمُفَاخَرَةِ وَالْعُجْبِ- وبهذا يكون طبع ثابت ودائم فى الجبلة-، وَأَمَّا صَدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّه فَإِنَّمَا حَصَلَ فِي الزَّمَانِ الَّذِي ادَّعَى مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ النُّبُوَّةَ- ولم يكن طبعاً متأصلاً دائماً حيث كان أمر الدين لا يعنيهم قبل رسالة محمد ﷺ لهم. وَلِهَذَا السَّبَبِ ذَكَرَ الْبَطَرَ وَالرِّئَاءَ بِصِيغَةِ الِاسْمِ، وَذَكَرَ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّه بِصِيغَةِ الْفِعْلِ واللَّه أَعْلَمُ.

ويضيف الإمام صاحب تفسير المنار: وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَيْ: **(وَالْحَالُ) أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ** - وَهُوَ الْإِسْلَامُ - بِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى عَدَاوَةِ الرَّسُولِ ﷺ ـ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ تَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ، وَتَعْذِيبِ مَنْ أَجَابَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْ يَمْنَعُهُمْ وَيَحْمِيهِمْ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ حِلْفٍ أَوْ جِوَارٍ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ عِلْمًا وَسُلْطَانًا.

ويقول الإمام الطاهر: وَجِيءَ فِي (يَصُدُّونَ) بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى حُدُوثِ وَتَجَدُّدِ صَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ حِينَ خَرَجُوا صَادِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَمُكَرِّرِينَ ذَلِكَ وَمُجَدِّدِينَهُ.وَبِاعْتِبَارِ الْحُدُوثِ كَانَتِ الْحَالُ مُقَارِنَةً، وَأَمَّا التَّجَدُّدُ فَمُسْتَفَادٌ مِنَ الْمَضَارِعِيَّةِ وَلَا يُجْعَلُ الْحَالُ مُقَدَّرَةً.

****

** ﴿ **وَكَمْ (أَرْسَلْنَا) مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) (وَمَا يَأْتِيهِمْ) مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ (يَسْتَهْزِئُونَ) (٧)** ﴾ الزخرف. فالإرسال حدث مرة فى الماضى ولكن الاستهزاء بكل نبى يأتيهم هو عادة متكررة لهم ولكل الأجيال

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا (كَذَّبْتُمْ**) وَفَرِيقًا (**تَقْتُلُونَ**) (٨٧) ﴾** البقرة. ومثلها: **﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) ﴾** المائدة. وفيها يقول الإمام الرازى: أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: (**فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**) فَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا قِيلَ وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ؟ وَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يُرَادَ الْحَالُ الْمَاضِيَةُ لِأَنَّ الْأَمْرَ (**تَقْتُلُونَ**) فَظِيعٌ فَأُرِيدَ اسْتِحْضَارُهُ فِي النُّفُوسِ وَتَصْوِيرُهُ فِي الْقُلُوبِ.

الثَّانِي: أَنْ يُرَادَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَهُمْ بَعْدُ –أى استمرار تكرر الفعل منهم– لِأَنَّكُمْ حَاوَلْتُمْ قَتْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْلَا أَنِّي أَعْصِمُهُ مِنْكُمْ وَلِذَلِكَ سَحَرْتُمُوهُ وَسَمَمْتُمْ لَهُ الشَّاةَ. وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ مَوْتِهِ: «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدُنِي. فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي»

وأقول: (فبهذا يجتمع **إرادة استحضار المشهد** مع نية تكرار القتل مع النبى محمدﷺ) وهو ما يتناسب **مع صيغة المضارع** (تقتلون).

وعلى هذا المنوال قوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا (وَيَسْخَرُونَ) مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا (٢١٢) ﴾ البقرة

(١) يقول الإمام الرازى:[1]

وجيء بقوله: (زُيِّنَ) ماضيا للدلالة على أنه قد وقع وفرغ منه. وجيء بقوله (وَيَسْخَرُونَ) مضارعا للدلالة على تجدد سخريتهم من المؤمنين وحدوثها

---

[1] الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: زُيِّنَتْ لِوُجُوهٍ أَحَدُهَا: وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ: أَنَّ الْحَيَاةَ وَالْإِحْيَاءَ وَاحِدٌ، فَإِنْ أُنِّثَ فَعَلَى اللَّفْظِ، وَإِنْ ذُكِّرَ فَعَلَى الْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ (الْبَقَرَةِ: ٢٧٥) ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ (هُودٍ: ٦٧) وَثَانِيهَا: وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ أَنَّ تَأْنِيثَ الْحَيَاةِ لَيْسَ بِحَقِيقِيٍّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ حَيَوَانًا بِإِزَائِهِ ذَكَرٌ، مِثْلُ امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ، وَنَاقَةٍ وَجَمَلٍ، بَلْ مَعْنَى الْحَيَاةِ وَالْعَيْشِ وَالْبَقَاءِ وَاحِدٌ فَكَأَنَّهُ قَالَ: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْبَقَاءُ وَثَالِثُهَا: وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ: إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: زُيِّنَتْ، لِأَنَّهُ فُصِلَ بَيْنَ زُيِّنَ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِقَوْلِهِ:لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَإِذَا فُصِلَ بَيْنَ فِعْلِ الْمُؤَنَّثِ وَبَيْنَ الِاسْمِ بِفَاصِلٍ، حَسُنَ تَذْكِيرُ الْفِعْلِ، لِأَنَّ الْفَاصِلَ يُغْنِي عَنْ تَاءِ التَّأْنِيثِ.)انتهى. وأقول : سيكون لنا تعقيبٌ على هذا الرأى فى التذكير مكان التأنيث والعكس تحت باب التذكير والتأنيث

بين وقت آخر. قال- تعالى-: إنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ..:

ويقول الإمام أبو السعود: (**وَيَسْخَرُونَ مِنَ الذين آمنوا**) عطفٌ على (زُين) وإيثارُ صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار- تكرر- السُّخريةِ منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضي الله عنهم كانوا يسترذلونهم ويستهزءون بهم علىً رفضهم الدُّنيا وإقبالِهم على العقبى (ومن) ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم.

****

ومثلها قوله تعالى:

﴿ وَقَدْ (كَفَرُوا) بِهِ مِنْ قَبْلُ (وَيَقْذِفُونَ) بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾ سبأ.

والمعنى هو: قوله- سبحانه- وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ **مِنْ قَبْلُ** أى: قالوا آمنا بأن يوم القيامة حق، والحال أنهم قد **كفروا به من قبل في الدنيا**، عندما دعاهم إلى الإيمان به رسول الله (ﷺ) وَيَقْذِفُونَ -كما يقول الزمخشرى- معطوف على قد كفروا، على (حكاية) الحال الماضية (أى استحضار صورة الحدث الماضى أمام الأعين كأنه حاضرٌ نتملاه)، يعنى: وكانوا يتكلمون بِالْغَيْبِ ويأتون به مِنْ مَكان بَعِيدٍ، وهو قولهم في رسول الله (ﷺ) شاعر. ساحر. كذاب. وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي، لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كذبًا، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله، لأن أبعد شيء مما جاء به: الشعر والسحر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت: الكذب والزور: وقرئ: ويُقذَفون بالغيب، على البناء للمفعول، أى: يأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه.

وأقول: وهذا الاتهام منهم كان متكرراً أيضاً، أما الكفر فهو ثابت، إضافة إلى إرادة استحضار الصورة لنا وكأنها حاضرة أمام أعيننا. وكما يقول الإمام الألوسى: وَقَدْ (كَفَرُوا) وكان الظاهر (وقذفوا) إلا أنه عدل إلى صيغة المضارع حكاية للحال الماضية.

ويقول الإمام الطاهر: وَاخْتِيَارُ صِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِحِكَايَةِ الْحَالَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ (هود: ٣٨) وهو بالطبع قد صنع الفلك قبل تَنَزُّل القرآن بتلك الآيات.

****

﴿ ((وَذَرْنِي))-أنا- وَالْمُكَذِّبِينَ- هم(بصيغة الغيبة التى ستتحول إلى خطاب مباشر لهم فى قوله (إنا أرسلنا إليكم)- أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ ((لَدَيْنَا**)) أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) (يَوْمَ ((**تَرْجُفُ**)) الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ((**وَكَانَتِ**)) **الْجِبَالُ** كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) (**إِنَّا أَرْسَلْنَا**) إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا (أَرْسَلْنَا) إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥)..فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ (**مُنْفَطِرٌ**) **بِهِ** كَانَ (**وَعْدُهُ**) مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ (**إِلَى رَبِّهِ**) سَبِيلًا (١٩) ﴾ المزمل.

وقال: (**يوم ترجف..**) عقب بقوله تعالى (**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ الله إِنْ كَفَرْتُمْ به**) فجاءت على صيغة المضارع- ((**تَرْجُفُ**)) **الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ** -لأنها لم تقع بعد ولاستحضار هذا المشهد الذى يساعد على حصول التقوى؛ فاستحضار رجفة الأرض بجوار رجفة القلب من التقوى، فيه حسن الجوار والقرابة المعنوية والمكانية معاً، وأعيد ذكر اليوم بصفة أخرى زيادة في التهويل

ويضيف الإمام الطاهر قوله: وَجِيءَ بِفِعْلِ (كانَتِ) فِي قَوْلِهِ: وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً، لِلْإِشَارَةِ إِلَى تَحْقِيقِ وُقُوعِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ وَقَعَ فِي الْمَاضِي. وَوَجْهُ مُخَالَفَتِهِ لِأُسْلُوبِ (تَرْجُفُ) أَنَّ صَيْرُورَةَ الْجِبَال كُثُبًا أَمْرٌ عَجِيبٌ غَيْرُ مُعْتَادٍ، فَلَعَلَّهُ يَسْتَبْعِدُهُ السَّامِعُونَ وَأَمَّا رَجْفُ الْأَرْضِ فَهُوَ مَعْرُوفٌ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجْفَ الْمَوْعُودَ بِهِ أَعْظَمُ مَا عرف جنسه.

كما قيل (إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ) خطاب للمكذبين أولي النعمة سواء جعلوا القائلين أو بعضهم ففيه التفات من الغيبة(ذرنى والمكذبين) وهو التفات جليل الموقع، أي إنا أرسلنا إليكم **أيها المكذبون** من أهل مكة رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ يشهد يوم القيامة بما صدر منكم من الكفر والعصيان كما أَرْسَلْنا إِلى

فِرْعَوْنَ رَسُولًا هو موسى عليه السلام. ((وأقول: إن الأمر لا يحتاج إلا إلى قليل من التذوق ليستشعر أهمية هذا الالتفات الذى يأخذ بمجامعهم ليوبخهم ويهزهم هزاً).أما تذكير(منفطر) للسماء بدلاً من تأنيثها(منفطرة) فهو التفات عشناه

ومثل ذلك قوله تعالى:

**﴿ يَوْمَ ((يُنْفَخُ)) فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) ((وَفُتِحَتِ)) السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) ﴾ النبأ.

وَفُتِحَتِ السماء عطفٌ على ينفخُ وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على التحققِ من هذا الأمر، وأقول: ربما لغرابة الأمر فى أن نرى هذه السماء التى عهدناها مفتوحة وتتنزل منها الملائكة وباقى الأحداث الكونية الأخرى فأراد تأكيدها بصيغة الماضى(فتحت).

وقيل: أو يكون المضارع حكاية حال ماضية وما نحن فيه – فتحت السماء- مضارع جيء به بلفظ الماضي تفخيما وتحقيقا لوقوعه فهو أقرب قريب منه

وجاء الفتح بهذا المعنى كفتح الجسور وما ضاهاها ولعل نكتة التعبير به عنه الإشارة إلى كمال قدرته تعالى حتى كان شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة و(كان) معنى (صار) ولدلالتها على الانتقال من حال إلى أخرى

****

**﴿ وَمَا (نَقَمُوا) مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ (يُؤْمِنُوا) بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) ﴾ البروج.

فهم نقموا من تجديد إيمانهم بالله وكأنهم يغتاظون كلما جددوا إيمانهم

**﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ – مفرد- وَجْهَهُ (لِلَّهِ) وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ (رَبِّهِ) وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ – ﴾ جمع وكان حقه أن يكون فلا خوف عليه ولا يحزن- (١١٢)) البقرة. ووضعُ اسمِ الربِّ مُضافاً إلى ضمير من أسلم موضعَ ضميرِ الجلالة- فكان حقه أن يكون(أجره عند الله) ولكنه قال(عند ربه)- لإظهار

مزيدِ اللُطفِ به وتقريرِ مضمونِ الجملة أي فله أجره عتد مالكِه ومدبِّرِ أموره ومبلِّغِه إلى كماله

** ﴿ (**يَقْدُمُ**) **قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** (**فَأَوْرَدَهُمُ**) **النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** (**٩٨**) (**وَأُتْبِعُوا**) **فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ** (**٩٩**)). ﴾ هود. (يقدم)- مستقبل- فأوردهم وأتبعوا (ماض)

وأرى أنه يريد التوكيد على انكبابهم فى النار ولحوق اللعنة بهم لا محالة ((**فَأَوْرَدَهُمُ**) **النَّارَ** (**وَأُتْبِعُوا**) **فِي هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**- فجاء بصيغة الماضى التى تعطى هذا المعنى وكأنه أمر قد تحقق وقوعه وانتهى أمره (فأوردهم النار)، وحينما أراد استحضار خطوات فرعون ومشهده وهو يقود قومه-كما كان يقودهم فى الدنيا- ولكنها هنا قيادة الذليل لهذا القطيع الذى يسير بهم إلى جهنم- تهكماً عليه واستدعاء التحسر منهم- أمام الأعين – وهو مشهد يستحق استحضاره أمام الأعين، فأورد هذا السياق بصيغة المضارع التى تعطى هذا المعنى فقال:((**يَقْدُمُ**) **قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)... وهو معنى قول الإمام الزمخشرى: فإن قلت: **هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم**؟ ولم جيء بلفظ الماضي؟ قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدّمهم فيوردهم النار لا محالة

وما زاده توضيحاً قول الإمام الرازى: فَإِنْ قِيلَ: **لِمَ لَمْ يَقُلْ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ فَيُورِدُهُمُ النَّارَ؟** بَلْ قَالَ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ بِلَفْظِ الْمَاضِي.

قُلْنَا: لِأَنَّ الْمَاضِيَ قَدْ وَقَعَ وَدَخَلَ فِي الْوُجُودِ فَلَا سَبِيلَ أَلْبَتَّةَ إِلَى دَفْعِهِ، **فَإِذَا عُبِّرَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي دَلَّ عَلَى غَايَةِ الْمُبَالَغَةِ**، ثُمَّ قَالَ: وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ وَفِيهِ بَحْثَانِ:

الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: لَفْظُ «النَّارِ» مُؤَنَّثٌ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: وَبِئْسَتِ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ إِلَّا أَنَّ لَفْظَ «الْوِرْدِ» مُذَكَّرٌ، فَكَانَ التَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ جَائِزَيْنِ كَمَا تَقُولُ: نِعْمَ الْمَنْزِلُ دَارُكَ، وَنَعِمَتِ الْمَنْزِلُ دَارُكَ، فَمَنْ ذَكَّرَ غَلَّبَ الْمَنْزِلَ وَمَنْ أَنَّثَ بَنَى عَلَى تَأْنِيثِ الدَّارِ هَكَذَا قَالَهُ الْوَاحِدِيُّ.

(وأقول): إن ما ذكره الإمام صحيح فى جواز ورود الصيغتين لأنه مؤنث مجازى، ولكنه لم يذكر لنا: لماذا أتى بصيغة التذكير هنا؟ وأقول : بناءً على استقراء كثير من الأمثلة الشبيهة: إن التذكير يأتى فى المواطن التى فيها الشدة والكراهية- كما هو الحال هنا-، بخلاف صيغة التأنيث والله أعلم.

ومثاله ما ذكرناه فى حال تأنيث وتذكير الريح، فحينما تكون ليِّنة (رخاء) يأتى وصفها على صيغة التأنيث، وإن كانت فى العقاب والعذاب جاءت على التذكير هكذا:

﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ..(٨١) ﴾ فهى ريح مسخرة لسليمان وبأمره فهى فى الخير فأنَّثها

﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ﴾ - هكذا يصفها بصيغة التأنيث- ..

﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ (تَجْرِي) بِأَمْرِهِ (رُخَاءً) حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)** ﴾

وفى العقاب والهلاك جاءت على صيغة التذكير﴿ (**وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ** (٤١) ﴾ ولم يقل العقيمة) وكذلك قوله: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا (صَرْصَرًا) فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ** ﴾.

وتأتى بوصف التأنيث والتذكير فى سياق واحد

(وهو من باب الالتفات) كما فى آية يونس هكذا﴿ **حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ (طَيِّبَةٍ)**- الوصف بالتأنيث- **وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ (عَاصِفٌ)**- ولم يقل(عاصفة) لأن السياق تحول لجو الإهلاك- **وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ (٢٢)** ﴾.

وكذلك كلمة(رياح) تأتى فى الجمع إذا كانت فى الخير- وهى أيضاً على التأنيث(مجموعة الرياح) كما يقول الإمام بن القيم على تصور أنها إذا قامت ريح أنشأ الله لها ريحاً أخرى تهدىء من ثورتها وقوتها) وتأتى على الإفراد والتذكير(الريح) إذا كانت فى سياق العذاب والهلاك.

** ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ**- مضارع- **الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ**-(هم)- **فَأَلْقَوُا السَّلَمَ** – ماضٍ- **مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** – أنتم بدلاً من هم-(**٢٨**) ﴾ النحل.

ويقول الإمام أبو السعود: {الذين تتوفاهم الملائكة} والعدولُ إلى صيغة المضارعِ لاستحضار صورةِ توفِّيهم إياهم لما فيها من الهول**{ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ}** أي حالَ كونهم مستمرين على الكفر .. **{فَأَلْقَوُاْ السلم}** أي فيُلقون **والعدولُ إلى صيغة الماضي الدلالة على تحقق الوقوع** ..

وقوله تعالى**{إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** فيه التفات واضح من الغيبة إلى الحضور والمواجهة – وكان يجب أن تكون بما كانوا يعملون- وذلك للتهديد والتوبيخ.

ويقول الإمام الطاهر: فَإِنَّ صِيغَةَ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ قَرِيبَةٌ مِنَ الصَّرِيحِ فِي أَنَّ هَذَا التَّوَفِّيَ مَحْكِيٌّ فِي حَال حُصُولِهِ ..

وَعَنْ عِكْرِمَةَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِالْمَدِينَةِ فِي قَوْمٍ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ وَلَمْ يُهَاجِرُوا فَأَخْرَجَهُمْ قُرَيْشٌ إِلَى بَدْرٍ كُرْهًا فَقُتِلُوا بِبَدْرٍ.

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الصِّلَةِ **وَصْفُ حَالَةِ** الَّذِينَ يَمُوتُونَ عَلَى الشِّرْكِ، فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَالَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِمَنْ حَلَّ بِهِمْ الِاسْتِئْصَالُ وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ- فى الآيات قبلها- ذُكِرَتْ **حَالَةُ وَفَاتِهِمُ** – الحاضرة- الَّتِي هِيَ بَيْنَ حَالَي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهِيَ حَالٌ تَعْرِضُ لِجَمِيعِهِمْ سَوَاءٌ مِنْهُمْ مَنْ أَدْرَكَهُ الِاسْتِئْصَالُ وَمَنْ هَلَكَ قَبْلَ ذَلِك.(فهى إذن استحضار للصورة)

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

** ﴿ **وَلَوْ تَرى إِذْ** (**يَتَوَفَّى**) **الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ** (**يَضْرِبُونَ**) **وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ** (**وَذُوقُوا**) **عَذابَ الْحَرِيقِ**) ﴾ (سُورَة الْأَنْفَال: ٥٠) .

ففى الآية نوعان من الالتفات

الأول: استخدام صيغة المضارع فى استحضار الصورة والمشهد وتصويره أمام الأعين (يتوفى) و (يضربون) ثم توجه بعد ذلك لنوع الالتفات

الثاني وهو: أنه كان يتحدث عنهم بصيغة الغيبة((**يَتَوَفَّى**) **الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ** (**يَضْرِبُونَ**) **وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ**) ثم يتحول إليهم بالخطاب المباشر والمواجهة الشديدة وكأنهم يأمرهم بالأمر المباشر بقوله:(**وَذُوقُوا**) **عَذابَ الْحَرِيقِ**.. والمتذوق لما عشناه فى رحلتنا هذه يجد الهزة القوية فى هذا الالتفات وكأنه يرجهم رجاً شديداً ويعنفهم تعنيفاً شديداً.

ومثاله أيضاً :

**﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾.

**﴿ (وَوُضِعَ) الْكِتَابُ (فَتَرَى) الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ الكهف.

يقول الإمام أبو السعود: {وَوُضِعَ الكتاب} عطف على (عُرِضوا) داخلٌ تحت الأمور الهائلة التي أريد تذكيرُها بتذكير وقتِها أُورد فيه ما أورد في أمثاله من صيغة الماضي دَلالة على التقرر أيضاً أي وُضع صحائفُ الأعمال.

ويقول الإمام الطاهر: **وَالتَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ فِي يَقُولُونَ لِاسْتِحْضَارِ الْحَالَةِ الْفَظِيعَةِ، أَوْ لِإِفَادَةِ تَكَرُّرِ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ وَإِعَادَتُهُ شَأْنُ الْفَزِعِينَ الْخَائِفِينَ.**

وعبر سبحانه بالماضي في قوله: قَدْ جِئْتُمُونا، لتحقق الوقوع وتنزيله منزلة الواقع بالفعل.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-:﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ. لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ .

**﴿ ((وَمَا نُرْسِلُ)) الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ((آيَاتِي)) وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) ﴾ الكهف.

ويقول الإمام الطاهر: .. وَاخْتِيَارُ فِعْلِ الْمُضَارَعَةِ –وَيُجَادِلُ– لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَكَرُّرِ الْمُجَادَلَةِ، أَوْ لِاسْتِحْضَارِ صُورَةِ الْمُجَادَلَةِ.

وأرى أن استحضار صورة المجادلة ورد فى هذه السورة– باستخدام صيغة المضارعة– ولم ترد مع صورة الاستهزاء فى نفس السياق، لأن السياق قبلها ورد فى المجادلة وليس الاستهزاء نراه فى قوله: (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا** (٥٤)) فهذا السياق يتحدث عن جو المجادلة ، بخلاف السياق القادم الذى يتحدث عن أناس زُينت لهم الحياة الدنيا وهذا يناسبه استحضار سخريتهم من المؤمنين بصيغة المضارعة هكذا:((**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** (**وَيَسْخَرُونَ**) **مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**) البقرة.

﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ– مضارع للمستقبل– **فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ**– ماض– **شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا** – ماض– **عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** (**٨٩**) ﴾ النحل

يقول الإمام أبو السعود: {**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ**} أي نبياً {**مّنْ أَنفُسِهِمْ**} {**وَجِئْنَا بِكَ**} إيثارُ لفظ المجيء على البعث لكمال العنايةِ بشأنه عليه السلام وصيغةُ الماضِي للدِلالة على تحقق الوقوع .

وأرى أنه جاء به بصيغة الماضى تقديماً لمقام النبى(ﷺ) فى الآخرة كما كان فى الدنيا–(**شَهِيدًا على هَؤُلآء**) الأمم.

وهو ما يشير به الإمام الطاهر: **وَجِئْنَا بِكَ لَمَّا أَرْسَلْنَاكَ إِلَى أُمَّتِكَ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ**– فى الدنيا–، أَيْ مُقَدَّرًا **أَنْ تَكُونَ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**، لِأَنَّ النَّبِيءَ (ﷺ) لَمَّا كَانَ حَيًّا فِي آنِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ شَهِيدًا فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ، **فَاخْتِيرَ لَفْظُ الْمَاضِي فِي جِئْنَا لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ مَجِيءٌ حَصَلَ مِنْ يَوْمِ بِعْثَتِهِ.**
ويقول: وَهَذَا الْوَجْهُ شَدِيدُ الْمُنَاسَبَةِ بِأَنْ يُعْطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ (سُورَة النَّحْل)

وَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَفَ عَلَى جُمْلَةِ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَتَدْخُلُ فِي حَيِّزِ الظَّرْفِ **وَيَكُونُ الْمَاضِي مُسْتَعْمَلًا فِي مَعْنَى الِاسْتِقْبَالِ مَجَازًا لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ، فَشَابَهَ بِهِ مَا حَصَلَ وَمَضَى، فَيَكُونُ الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ: شَهِيداً. وَيَتَحَصَّلُ مِنْ تَغْيِيرِ صِيغَةِ الْفِعْلِ عَنِ الْمُضَارِعِ إِلَى الْمَاضِي تَهْيِئَةَ عَطْفِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ.**

ويلتفت الإمام الطاهر إلى نوع آخر من الالتفات فى قوله: وَعَلَى هَذَا فَضَمِيرُ (**بكَ**)– **وَجِئنَا بكَ**– وَاقِعٌ مَوْقِعَ الِاسْمِ الظَّاهِرِ لِأَنَّ مُقْتَضَى هَذَا أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مَسُوقًا لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ، فَيَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ: **وَجِئنَا بِالرَّسُولِ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا، فَعَدَلَ إِلَى الْخِطَابِ(بك - أنت -) تَشْرِيفًا لِلرَّسُولِ (ﷺ) بِعِزِّ الْحُضُورِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ.**

ويقول الإمام الألوسى: **وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ** ..... وإيثار لفظ المجيء – جئنا– على البعث – **بعثنا**– لكمال العناية بشأنه صلى الله عليه وسلم، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع انتهى. وتعقب بأن حمل هؤُلاءِ على ما ذكر خلاف الظاهر، وجوز أن يكون إيثار المجيء على البعث للإيذان بالمغايرة بين الشهادتين بناء على أن شهادته صلى الله عليه وسلم على أمته للتزكية ، ولا كذلك شهادة سائر الأنبياء عليهم السلام على أممهم.

وأقول شرحاً لذلك: (أى أن شهادة النبى محمد(ﷺ) تختلف عن شهادة باقى الأنبياء على أممهم، ولذلك خالف بين اللفظين؛ فمحمد فى الصيغة– ماضى(جئنا)، ومضارع (نبعث) للأنبياء– والصفة بالمجىء لمحمد (ﷺ) (جئنا بك) والبعث (بعثنا) (مع باقى الأنبياء)

(**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**) ومحمد (ﷺ):(**وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ**) وهو تناغم تصويرى هام فالله (يبعث) الأنبياء وأممهم وكأنهم ينتظرون (مجىء) النبى محمد (ﷺ) المعلوم سلفاً مجيئه من قبل بعثهم بأنه سيكون شهيداً عليهم جميعاً– ولذلك ورد مجيئه أيضاً بصيغة الماضى(جئنا) وهم بالمضارع(نبعث))

ويقول الإمام الطاهر:وَعُدِّيَ فِعْلُ نَبْعَثُ هُنَا بِحَرْفِ فِي، وَعُدِّيَ نَظِيرُهُ فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ بِحَرْفِ (مِنْ) **لِيَحْصُلَ التَّفَنُّنُ بَيْنَ الْمُكَرَّرَيْنِ تَجْدِيدًا لِنَشَاطِ السَّامِعِينَ.**

وأرى أن هذا الرأى-هو من فوائد الالتفات ولكنه لايكفى وحده لأنه بالنظر للسياقين يتبين لنا أن هناك فارقاً بينهما تحتم عليه هذا التغيير فى الحرف هكذا:

السياق الأول: ﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ** ((**مِنْ**)) **كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** (**٨٤**) ﴾ النحل.

السياق الثانى: ﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ** ((**فِي**)) **كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** (**٨٩**) ﴾ النحل.

فالآية الأولى تتحدث عن مرحلة جمع الشهود – جمعاً أولياً من الشهود الأباعد والأقارب بدون تخصيص- وفيها يُمنعون من الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة، والشهود هنا شهود عموميون وليسوا أخص الشهود وأقربها منه، فهى شهادة عامة يكون الشاهد فيها (من كل أمة)- وهو ما ورد فى الآية الأولى....

ثم تأتى المرحلة الثانية وهى الإتيان بأخص الشهود المتغلغلين فيهم ، وهم الذين ورد وصفهم فى الآية الثانية بقوله ((**فِي**) **كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا**)- مفضلاً هنا حرف الظرفية(فى) التى تعطى معنى الوجود فى وسطهم وأنه متغلغل (فيهم) ، يؤيد ذلك باقى السياق من قوله تعالى(**شَهِيدًا** (**عَلَيْهِمْ**)) و(**مِنْ أَنْفُسِهِمْ**) فهو شهيد خاص ، ثم يأتى بأخص الشهداء وهو الحبيب محمد(ﷺ) :(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ)،وكل هذه المفردات لم تأت فى الآية الأخرى، فكان من المنطق أن يأتى بحرف الظرفية هنا((**فِي**)) **كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا**) الذى يعطى كل هذه المعانى. فالأمر إذن ليس كما قال الإمام الطاهر بأنه حدث هذا التعديل لحرف

الظرفيةمن (من)إلى(فى) **لِيَحْصُلَ التَّفَنُّنُ بَيْنَ الْمُكَرَّرَيْنِ تَجْدِيدًا لِنَشَاطِ السَّامِعِينَ.فقط**، وإن كان هذا أيضاً من أهداف النظم القرآنى، ونكرره دائماً مع أسباب ورود الالتفات، ولكنه لا يكون ذلك على حساب المعنى بل يتعانقا.

وقد تصفحتُ الكثير من كتب التفسير والمتشابهات فلم أجد لهم وقوفاً على ذلك التحول غير ما قاله الإمام الرازى فى قوله:

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَصَمُّ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الشَّهِيدِ هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يُنْطِقُ عَشَرَةً مِنْ أعضاء الإنسان حتى إِنَّهَا تَشْهَدُ عَلَيْهِ وَهِيَ: الْأُذُنَانِ وَالْعَيْنَانِ وَالرِّجْلَانِ وَالْيَدَانِ وَالْجِلْدُ وَاللِّسَانُ.

قَالَ: وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ فِي صِفَةِ الشَّهِيدِ **أَنَّهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** وَهَذِهِ الْأَعْضَاءُ لَا شَكَّ أَنَّهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

وأَجَابَ الْقَاضِي عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: **شَهِيداً عَلَيْهِمْ** أَيْ عَلَى الْأُمَّةِ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ غيرهم- وليس أبعاضهم-. الثاني: أنه قال: فِي كُلِّ أُمَّةٍ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الشَّهِيدُ مِنَ الْأُمَّةِ وَآحَادُ الْأَعْضَاءِ لَا يَصِحُّ وَصْفُهَا بِأَنَّهَا مِنَ الْأُمَّةِ

وأقول : لعل هذا القول يؤيد ما ذهبنا إليه، والله أعلم. وأراه نفس العدول الذى حدث فى قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ (وَفِي) الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ (وَفِي) سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

** ﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا** (٢٥) ﴾ الفرقان

وأرى أن تشقق السماء أمر ظاهر ومحسوس أما تنزيل الملائكة فهو من الغيب الذى يخفى علينا، ويقول الإمام أبو السعود: **{وَنُزّلَ الملائكة تَنزِيلاً}** أي تنزيلاً عجيباً غيرَ معُهودٍ قيل تنشق سماءً سماءً وينزل الملائكةُ خلالَ ذلك الغمامِ بصحائفِ أعمالِ العبادِ.

يقول الألوسى: وعن أبي عمرو أيضا أنه قرأ (وتنزلت الملائكة) فهذه مع قراءة الجمهور وما في بعض المصاحف عشرة قراءات **وما كان منها بصيغة المضارع وجهه ظاهر، وأما ما كان بصيغة الماضي فوجهه على ما قيل الإشارة إلى سرعة الفعل.**

ويقول الإمام الطاهر: وَأُعِيدَ لَفْظُ يَوْمَ عَلَى طَرِيقَةِ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَوْمًا وَاحِدًا لِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْمَعَادِ وَمَكَانِ الضَّمِيرِ.

** **﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٦٥) ﴾** الحج.

والظاهر أيضا أن مساق الآية للامتنان لا للوعيد كما جوزه بعضهم، (والامتنان بالنعمة يتطلب التجدد والتكرار) ويؤيد ذلك قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** حيث سخر لهم ما سخر ومَنَّ عليهم بالأمن مما يحول بينهم وبين الانتفاع به من وقوع السماء على الأرض، ولذلك حسن استحضار هذه الصورة بصفة خاصة أمام الأذهان، وهى صورة ظاهرة أيضاً.

** **﴿ وَإِذْ ((أَخَذْنَا))- نحن- مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) ((لِيَسْأَلَ)) الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ((وَأَعَدَّ)) -هو- لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾** الأحزاب.

يقول الإمام الطاهر: وَضمير (لِيَسْئَلَ) عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ(وإذ أخذنا) إِلَى الْغَيْبَةِ.

وَجُمْلَةُ وَأَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَطْفٌ على جملَة لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ، وَغُيِّرَ فِيهَا الْأُسْلُوبُ – من مضارع(ليسأل) إلى الماضى(وأعد) للكافرين، لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَحْقِيقِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ حَتَّى لَا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ سُؤَالَ مَنْ يُسْمَعُ جَوَابُهُمْ

أَوْ مَعْذِرَتُهُمْ- كالأنبياء وأتباعهم الذين ورد ذكرهم فى نفس السياق-[٢] وَجاء على الماضى أيضاً لِإِفَادَةِ أَنَّ إِعْدَادَ عَذَابِهِمْ أَمْرٌ مَضَى وَتَقَرَّرَ فِي علم الله.

ويقف الإمام أبو السعود على ملفت آخر فى قوله:

(**لِّيَسْأَلَ الصادقين عَن صِدْقِهِمْ**) ووضعَ الصَّادقينَ موضعَ ضميرِهم – أى كان يجب أن يكون (ليسألهم) ليكون ذلك عائداً على هؤلاء النبيين فى السياق قبلها(**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** (٧) **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ** – أى هؤلاء الأنبياء المذكورين-**عَنْ صِدْقِهِمْ**..) للإيذان من أول الأمر بأنَّهم- أى هؤلاء الأنبياء- صادقون فيما سُئلوا عنه، وإنَّما السُّؤالُ- لهم- لحكمةٍ تقتضِيه؛ أي ليسألَ الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عمَّا قالُوه لقومِهم أو عن تصديقِهم إيَّاهم تبكيتاً لهم- لأتباع الأنبياء- كما في قوله تعالى (**يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ**) أو المصدِّقين لهم – من أتباع الأنبياء- عن تصديقِهم فإنَّ مصدِّقَ الصَّادقِ صادقٌ وتصديقَه صدقٌ

** ﴿ **وَإِذْ (زَاغَتِ) الْأَبْصَارُ (وَبَلَغَتِ) الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (وَتَظُنُّونَ) بِاللَّهِ الظُّنُونَا** (١٠) ﴾ الأحزاب.

يقول الإمام أبو السعود: وصيغةُ المضارعِ (وَتَظُنُّونَ) لاستحضارِ الصُّورةِ والدِّلالة على الاستمرار، ويضيف الإمام الألوسى: والخطاب في قوله تعالى: **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**.. وإنما جمع للدلالة على تعدد أنواعه

ويزيد الإمام الطاهر الأمر توضيحاً بقوله: **وَجِيءَ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ تِلْكَ الظُّنُونِ بِتَجَدُّدِ أَسْبَابِهَا كِنَايَةً عَنْ طُولِ مُدَّةِ هَذَا الْبَلَاءِ.**

---

[٢] أقول: (لهم سؤال ولكنه سؤالٌ بعده عذابٌ معدٌ لهم، فليس لهم عذر يُسمع كما قال تعالى(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)، لأنه لا معذرة مع الشرك ، ولكن الله يغفر- للمؤمنين الموحدين- ما دون ذلك- ويُسمع منهم)

وَفِي صِيغَةِ الْمُضَارِعِ مَعْنَى (التَّعْجِيبِ) مِنْ ظُنُونِهِمْ لِإِدْمَاجِ الْعِتَابِ بِالِامْتِنَانِ (٣) **فَإِنَّ شِدَّةَ الْهَلَعِ الَّذِي أَزَاغَ الْأَبْصَارَ وَجَعَلَ الْقُلُوبَ بِمِثْلِ حَالَةِ أَنْ تَبْلُغَ الْحَنَاجِرَ.** دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَشْفَقُوا مِنْ أَنْ يُهْزَمُوا لِمَا رَأَوْا مِنْ قُوَّةِ الْأَحْزَابِ وَضِيقِ الْحِصَارِ أَوْ خَافُوا طُولَ مُدَّةِ الْحَرْبِ وَفَنَاءَ الْأَنْفُسِ، أَوْ أَشْفَقُوا مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْهَزِيمَةِ جَرَاءَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّنُونِ وَتَفَاوُتِ دَرَجَاتِ أَهْلِهَا.

****

**﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ (آمَنُوا) وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) ﴾.

فالإيمان يجب أن يكون ثابتاً ومستمراً فى كل حياتنا – فجاء على صيغة الماضى (آمنوا)– أما التوكل فهو متجدد مع الحوادث والأحداث وهو أيضاً يتغير– فجاء على صيغة المضارع (يتوكلون).

****

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ –جمع لذات الله وللمخاطبين أيضاً– **مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) ﴾** البقرة. وحقها أيضاً أن تكون (ومن بَدَّلَ .. بعد ما جاءته) أو (من يبدل .. من بعد ما تأتيه).

وفيها يقول الإمام أبو السعود: **{وَمَن يُبَدّلْ نِعْمَةَ الله مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ}** ووصلتْ إليه وتمكَّن من معرفتها، والتصريحُ بذلك مع أنَّ التبديلَ لا يُتصوَّرُ قبل المجيءِ– أى أننى لاأقول بدّل النعمة أو كفر بها إلا بعد أن تكون قد جاءته، فكان حق السياق أن يقول (ومن بدَّل.. بعد ما جاءته) أو(من يبدل .. بعد ما تأتيه)ولكنه جاء على الصيغة القرآنية **{وَمَن يُبَدّلْ نِعْمَةَ الله مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ}** للإشعار بأنهم قد بدَّلوها بعد ما وقفوا على تفصيلها كما في قوله عز وجلَّ (ثُمَّ يُحَرّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يعلمون)، قيل تقديره فبدَّلوها ومن

---

(٣) والقارىء الكريم يشعر بذلك المعنى حين قراءة هذه الفقرة بصيغة المضارع) فهو يمتن عليهم بنعمة النجاة بعد اشتداد الكرب إلى هذه الحالة وفى طى ذلك القول بهذه الصيغة– وتظنون– عتاب،

يبدل، (وأرى أن صيغة المضارع(يبدل) نعمة الله تفيد أنهم يجددون هذا التبديل وكفر النعمة أما مجيء النعمة من الله فهو محقق ومستمر فجاء على صيغة الماضى (جاءته) التى تفيد ذلك).

{فَإِنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَاب} .. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (الله – ولم يقل"فإنه" شديد العقاب–) لتربية المهابة وإدخال الروعة.

ويزيد الإمام الطاهر هذا الأمر توضيحاً فى قوله: وَقَوْلُهُ: (**مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُ**) **الْمَجِيءُ فِيهِ كِنَايَةٌ عَنِ الْوُضُوحِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَالتَّمكُّنِ**، لِأَنَّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْمَجِيءِ عُرْفًا.فكأنه يشير بتلك المعانى بقوله (جاءته) للنعمة.

وَإِنَّمَا جُعِلَ الْعِقَابُ مُتَرَتِّبًا على التبديل الْوَاقِع بَعْدَ هَذَا التَّمكُّنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ تَبْدِيلٌ عَنْ بَصِيرَةٍ لَا عَنْ جَهْلٍ أَوْ غَلَطٍ ((وهو معنى (يبدل) بصيغة المضارع الذى يفيد استحضار الصورةً والتجدد)كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِيمَا تَقَدَّمَ: **ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**(الْبَقَرَة). وَحَذَفَ مَا بُدِّلَ بِهِ النِّعْمَةُ– أى لم يقل بدلوها بالجحود أو الإنكار أو الكفر أو غير ذلك من الصيغ– لِيَشْمَلَ جَمِيعَ أَحْوَالِ التَّبْدِيلِ مِنْ كَتْمِ بَعْضِهَا وَالْإِعْرَاضِ عَنْ بَعْضٍ وَسُوءِ التَّأْوِيلِ.

وَالْعِقَابُ نَاشِئٌ عَنْ تَبْدِيلِ تِلْكَ النِّعَمِ فِي أَوْصَافِهَا أَوْ فِي ذَوَاتِهَا، وَلَا يكون تبديلها إِلَّا لِقَصْدِ مُخَالَفَتِهَا، وَإِلَّا لَكَانَ غَيْرَ تَبْدِيل بَلْ تَأْيِيدًا وَتَأْوِيلًا، بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى:(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ** (**بَدَّلُوا**) **نعْمَتَ اللَّهِ** ((**كُفْراً**)) إِبْرَاهِيم: ٢٨، هنا ذكر نوع التبديل(كفرا) لِأَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ لَمْ يَتَقَدَّمْ فِيهَا مَا يُؤْذِنُ بِأَنَّ النِّعْمَةَ مَا هِيَ – أى لم يقل قبلها(آيات الله)– وَلَا تُؤْذِنُ بِالْمُسْتَبْدَل بِهِ هُنَالِكَ فَتَعَيَّنَ التَّصْرِيحُ بِالْمُسْتَبْدَل بِهِ(كفرا)، وَالْمُبَدِّلُونَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ (**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ** ((**آيَةٍ بَيِّنَةٍ**)) **وَمَنْ يُبَدِّلْ نعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُ** .. ((**٢١١**)) غَيْرُ الْمُرَادِ مِنَ الْمُبَدِّلِينَ فِي هَذِهِ، لِأَنَّ تِلْكَ فِي كَفَّارِ قُرَيْشٍ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهَا: وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً (إِبْرَاهِيم: ٣٠) .

وأضيف لقول الإمام أنه حينما ذكر النعمة بأنها آية بينة فلم يقل (كفرا) لأنه معلوم أن تبديل هذه الآيات هى الكفر، والسياق قبلها عن بنى إسرائيل ﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** (**٢١٠**) **سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (**٢١١**)﴾ .. أما حينما لم يذكر الآية البينة فقال(كفرا) وخاصة أنها نزلت فى كفار قريش وجاء فيها بلفظ الكفر مقابل صورة الإيمان فى الآية السابقة لها﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** (**٢٧**) **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** (**٢٨**)﴾ إبراهيم

وَقَوْلُهُ: (**فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب**) وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ هُنَا مَعَ أَنَّ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، لِإِدْخَالِ الرَّوْعِ فِي ضَمِيرِ السَّامِعِ وَتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ، **وَلِتَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ كَالْكَلَامِ الْجَامِعِ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ، لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْمَثَلِ أَمْرٌ قَدْ عَلِمَهُ النَّاسُ مِنْ قَبْلُ**

(وأرجو من القارىء الكريم أن يتذكر هذه الفقرة- بأن تكون الجملة مستقلة لتصلح أن يُضرب بها مثلاً فى كل المواقف الشبيهة-)

ويضيف الإمام الطاهر ملحظاً آخر فى الالتفات من الإظهار فى موضع الإضمار مصطحباً للآية التى قبلها فى السياق حيث يقول: الآية قبلها (**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ** .. (**٢١٠**)) وَعَلَى احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي (**يَنْظُرُونَ**) لِأَهْلِ الْكِتَابِ: أَيْ بَنِي إِسْرَائِيلَ- وهذا واضح من السياق فلا داعى للتصريح باسمهم"بنى إسرائيل" فى الآية بعدها (سل بنى إسرائيل) وكان حقها أن يقول (سلهم)- فَالْعُدُولُ عَنِ هذا الْإِضْمَارِ هُنَا إِلَى الْإِظْهَارِ بِقَوْلِهِ: بَنِي إِسْرَائِيلَ لِزِيَادَةِ النِّدَاءِ عَلَى فَضِيحَةِ حَالِهِمْ- فالذى يقول هذا الكلام المخزى هم بنو إسرائيل أتباع الأنبياء بكل أسفٍ- وَيَكُونُ الِاسْتِدْلَالُ عَلَيْهِمْ حِينَئِذٍ أَشَدَّ، أَيْ هُمْ قَدْ رَأَوْا آيَاتٍ كَثِيرَةً – مع أنبيائهم(بنى

إسرائيل)- فَكَانَ الْمُنَاسِبُ لَهُم أَن يبادروا بِالْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَحْوَالِ الرُّسُلِ- هم بنو إسرائيل-.

ويضيف الإمام قوله: (**نِعْمَةَ اللَّهِ**) مِنْ قَبِيلِ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ بِأَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ (وَمَنْ يُبَدِّلْهَا)- أَيِ الْآيَاتِ- فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِظُهُورِ أَنَّ فِي لَفْظِ (نِعْمَةِ اللَّهِ) مَعْنًى جَامِعًا لِلْآيَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ النِّعَمِ. وأقول موضحاً قول الإمام: لو قال (ومن يبدلها) فسيعود على (الآيات) فقط المذكورة فى السياق السابق، ولكنه يريد أن يقول من يبدلون نعم الله جميعها فأصبح السياق عاماً لكل النعم.. وهذا هو السبب فى الالتفات هنا(الإظهار فى موضع الإضمار).

وقفة هامة:

ونلاحظ مما سبق أن صيغة الماضى – فى مدلولها - قريبة من الصيغة الإسمية من إفادة كليهما الثبوت والدوام، ولذلك سنردف بعض الأمثلة التقريبية التالية:

** ﴿ **عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ** (**أَذِنْتَ**) **لَهُمْ حَتَّى** (**يَتَبَيَّنَ**) **لَكَ الَّذِينَ** ((**صَدَقُوا**)) **وَتَعْلَمَ** ((**الْكَاذِبِينَ**) - اسم-) **(٤٣)** ﴾ التوبة. ف(**الْكَاذِبِينَ**)- اسم-(وصدقوا ويتبين) أفعال

يقول الإمام أبو السعود: وتغييرُ الأسلوب بأن عبّر عن الفريق الأول بالموصول الذي صِلتُه فعلٌ دالٌ على الحدوث(**الذين صدقوا**) وعن الفريق الثاني باسم الفاعل(**الكاذبين**) المفيدِ للدوام للإيذان بأن ما ظهر من الأوّلين (**الذين صدقوا**) صدقٌ حادثٌ في أمرٍ خاص غيرُ مصحِّحٍ لنظمهم في سلك الصادقين- لأنهم فى الأصل فى سلك الصادقين وهذا الصدق الحادث يضاف إلى صدقهم المتكرر-، وأن ما صدر من الآخَرين (الكاذبين)- وإن كان كذبا حادثاً متعلقاً بأمر خاص- لكنه أمرٌ جار على عادتهم المستمرة ناشئ عن رسوخهم في الكذب.. ((فالصدق عند الصادقين متجدد ولايضيف لهم شيء فوق صفاتهم

الطيبة التى هم عليها، أما الكاذبون فهم على الاستمرار فى الكذب الطبيعى والفطرى فيهم، هكذا يشير النظم، فأتى بالفعل الماضى فى الأولى والاسم فى الثانية)

ويشرح الإمام السبب فى ورود ظهور الصدق بقوله (**يَتَبَيَّنَ**) - **حَتَّى** (**يَتَبَيَّنَ**) **لَكَ الَّذِينَ** (**صَدَقُوا**)- وذلك لأن الصدق له جذوره الراسخة والمتواجده وتحتاج فقط لمجرد (التبيين)، وهو لايترتب عليه حساب حتى يُعلم هذا الحساب، وعكس ذلك فى (الكاذبين) الذين يحتاج الأمر فيهم إلى (علم) بحقيقتهم والحساب عليها، وكأن الصادق أمره معلوم دائماً ظاهره كباطنه ولكنه يحتاج فقط إلى تبيين وليس علم، بخلاف الكاذب الذى يخفى ما لا يظهر ويحتاج للعلم بذلك ، والقول منه غير الواقع،وفى ذلك يقول الإمام:

والتعبيرُ عن ظهور الصدق بالتبين – يتبين لك الذين صدقوا- وعما يتعلق بالكذب بالعلم- تعلم الكَاذبين- لما هو المشهورُ من أن مدلولَ الخبر هو الصدقُ، والكذبُ احتمالٌ عقلي، فظهورُ صدقِه إنما هو تبيّنُ ذلك المدلول – الصدق الموجود بالفعل- وانقطاعُ احتمال نقيضِه – الكذب- بعد ما كَان محتمِلاً له احتمالاً عقلياً، وأما كذبُه فأمرٌ حادَثٌ لا دِلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكونَ ظهورُه تبيّناً له[٤] بل هو نقيضٌ لمدلوله، فما يتعلق به **يكون عِلْماً مستأنفاً**.

وإسنادُه إلى ضميره ﷺ (**وَتَعْلَمَ** -أنت يامحمد- **الْكَاذِبِينَ**- بنفسك) لا إلى المعلومين ببناء الفعلِ للمفعول، مع إسناد التبيّنِ إلى الأولين ((**يَتَبَيَّنَ**) **لَكَ الَّذِينَ** (**صَدَقُوا**)- أى يبينه لَك طرف آخر ، ولم يقل تَتبين- أنت يا محمد- الذين صدقوا) لما أن المقصود ههنا (**وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**) علمه ﷺ بهم (الكاذبين) **ومؤاخذتُهم** بموجبه- والمؤاخذة تكون بعلم أيضاً منه مؤكداً-، بخلاف الأولين

---

[٤] أى أن الكذب ليس له جذور فى الأصل حتى يبينه ويظهره، فلم يقل (يتبين).

(الذين صدقوا) حيث لا مؤاخذةَ عليهم، فيجوز أن يبينه لك غيرك يا محمد، وقد كان ذلك بالفعل .(٥)

وأضاف الإمام الطاهر قوله: وَفِي زِيَادَةِ (لَكَ) بَعْدَ قَوْلِهِ: يَتَبَيَّنَ- يَتَبَيَّنَ- يَتَبَيَّنَ لَكَ- زِيَادَةُ مُلَاطَفَةٍ بِأَنَّ الْعِتَابَ مَا كَانَ إِلَّا عَنْ تَفْرِيطٍ فِي شَيْءٍ يَعُودُ نَفْعُهُ إِلَيْهِ صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلة عطف الاسم على الفعل ودلالة الالتفات فيها

قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ** (**لِتَسْكُنُوا**) **فِيهِ وَالنَّهَارَ** (**مُبْصِرًا**) **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ** (٦١) ﴾.. فقال(لتسكنوا فيه) ولكنه لم يقل (لتبصروا فيه) وقال (مبصراً). وقد كانت النظرة السابقة على الاكتشافات العلمية تقول إن عملية الإبصار للأشياء تتم نتيجة خروج شعاع من العين يسقط على هذا الشىء ثم يرتد للبصر فيبصره، ولكن العلم الحديث أثبت أن عملية الإبصار ليست من خروج شعاع من البصر بل إن الأشعة تأتى من مصدر الضوء أو الشمس فى النهار على هذا الشىء ثم يعكسه على البصر فيراه، فالنهار هو الذى يبصر لنا ويوضحه لنا وبذلك أتى بصيغة اسم الفاعل(مبصراً) للنهار ولم يقل (لتبصروا فيه).. أما الليل فليس له هذا الدور الفعلى الذى للنهار بل هو(سكن (لنا)) فقال: **جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ** (**لِتَسْكُنُوا**) **فِيهِ**..وهو يتناغم مع قول الله تعالى: **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا..** فالنهار (مبصرا) بالمعنى الذى ذكرناه وأيضاً هو مبصر لأعمالنا وشاهد علينا،

---

(٥) ويعلق الإمام: ومن لم ينتبه لهذا قال: حتى يتبين لك مَنْ صدق في عذره ممن كذَب فيه ، وإسنادُ التبيُّنِ إلى الأولين وتعليقُ العلمِ بالآخَرين –مع أن مدارَ الإسنادِ والتعلقِ أولا وبالذات هو وصفُ الصدقِ والكذب كما أشير إليه– لما أن المقصِدَ هو العلمُ بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورَين ومعاملتِهما بحسب استحقاقِهما لا العلمُ بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامِهما بموصوفيهما هذا.

وقد نقل الإمام أبو السعود هذا النص من الإمام الألوسى وزاد الإمام الألوسى قوله: قاله شيخ الإسلام ولا يخفى حسنه. ونقله بنصه صاحب تفسير المنار وغيره من المفسرين

فكان الجمال فى ورود الاسم، وهو معنى آخر يرمى إليه النظم الحكيم، وخص النهار بالإشهاد على الأعمال لكونه محلاً لحركة المكلفين لذلك يقول المولى سبحانه (**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ** ..(٦٠))

وقد حام الدكتور فاضل السامرائى حول هذا المعنى - مع بعض الإضافات اللطيفة - فى قوله:

فلم يقل (ساكناً ومبصراً) ولا (لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه) مع أن الاستعمال الحقيقى هو (لتبصروا فيه). وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز فى تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية؛ فإنه ذكر نعمة الله علينا فى الليل فقال(**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** (٦٧)) يونس، ولو قال (هو الذى جعل لكم الليل ساكناً) لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية(فالنعمة هى: لتسكنوا فيه) ولكانت(لكم) هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء ب(لكم) وبالصيغة الفعلية "لتسكنوا" للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا. وعلاوة على ذلك فإنه لو قال: (ساكنا) لم يكن التعبير مجازياً لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال: ليل ساكن وليل ساجٍ، فتحويله إلى الصيغة الإسمية(ساكنا) ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولما تقررت دلالة النعمة فى صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازى بعد ذاك كسباً فنياً.

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلى فقال(والنهار مبصرا) ذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه: فجمع بين التعبير الحقيقى والمجازى ودلَّ على القصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً، ولو قال (لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه) لفات التعبير الفنى الجميل تعبير المجاز. ولو قال(ساكناً ومبصراً) لفاتت الدلالة على النعمة التى هى القصد الأول من هذه الآية. ولو قال(ساكناً ولتبصروا فيه)

لفات المجاز فى التعبيرين ولكان التعبير سمجاً لا معنى تحته كما أوضحنا من قبل قليل.

فانظر كيف دل على المعنى بأسلوب فنى جميل من أخصر طريق وأيسره، فأنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التى عبر بها القرآن ما أدى هذا المؤدى. هذا علاوة على ما فى جعل النهار مبصراً من جمالٍ وزيادة فى المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معنيين:

الأول: أننا نبصر فيه كما قيل: ليل نائم والمقصود: نائم أهله.

والمعنى الآخر: أنه جعله مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا بالخير والشر فكأن له عينين تبصران. فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته.

جاء فى الكشاف: مُبْصِراً من الإسناد المجازى، لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار(وليس للنهار نفسه). فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازى، ولو قيل: ساكنا- والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج، وساكن لا ريح فيه- لم تتميز الحقيقة من المجاز. فإن قلت: فهلا قيل: لمفضل، أو لمتفضل؟

***ما اللمسة اليانية في استخدام فعل (يخرج) مرة والإسم (مخرج)** في مرة أخرى في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ **إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {٩٥}** ﴾ وهو نوع من الالتفات؟

نبدأ المناقشة برأى الدكتور فاضل السامرائى ثم نسرد باقى آراء العلماء الأجلاء ونبدى معهم رأينا هكذا:

يقول الدكتور فاضل: قاعدة نحوية: الإسم يدل على الثبوت، والفعل يدل على الحدوث والتجدد. وهذه الآية تدخل في هذه القاعدة.

أبرز صفات الحيّ الحركة والتجديد (من الحياة) وقد قال تعالى مع الحيّ ((يُخرج) الحي من الميت) جاء بالصيغة الفعلية التي تدل على الحركة. ومن صفات الميّت هو السكون لذا جاء بالصيغة الإسمية (**وَمُخْرِجُ**) **الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ** مع ما تقتضيه من السكون.

وكذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام أيضاً ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {٩٦}** ﴾ فالليل فيه السكون والهدوء فجاءت معه الصيغة الفعلية ((**وَجَعَلَ**) **اللَّيْلَ سَكَناً**) والإصباح يدلّ على الحركة والحياة فجاء بصيغة اسم الفاعل التى تفيد تلبث الفاعل بالفعل واستمرار الفعل (**فالق**)، ((وأقول- أنا الكاتب-: وهو مناسب للمشهد للتصويري والجرس الصوتى المصاحب فى كلمة(فالق) وكلمة (**الإصباح**) وللقارىء الكريم أن يعيد تذوق هذا الجرس(الحركى) فى هذه الصيغة ويقارنها- صوتياً وتصويرياً- بالصيغة البديلة (يفلق)(الصبح)))

*ويضيف الدكتور فاضل السامرائى: وكلمة (**يُخرج**) لا تأتي دائماً مع الحركة وإنما تأتي حسب السياق .لو نقرأ الآية (**فَالِقُ الإِصْبَاحِ**) مطلقة لم يذكر منتفع (**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا**) إذن السكن لمن يسكن (**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا**) حسباناً لمن يحسب، إذن الإصباح موجود ثابت سواء كان هناك منتفع أو لم يكن هناك منتفع، فالإصباح ثابت موجود. (**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا**) إذا كان هناك من يسكن ، إذا لم يكن هناك من يسكن فهو ليس سكناً لأحد. إذن أيها الأثبت؟ الأثبت والأدوم فالق الإصباح ، جعل الليل سكناً إذا لم يكن هنالك خلق أو متحرك فكيف يسكن؟ هنا قيّد الليل بالسكن (**وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا**) لمن يسكن وجاء بالإصباح مطلقاً فجاء فالق الإصباح.

(**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا**) لمن يحسب، وهنا قيّد أيضاً الشمس والقمر وعطفها على الفعل (**وجعل الليل سكناً**). عندما وضع منتفعاً قيّد لأنه أقل ثباتاً من ذاك، لأنه إذا فُقِد المنتفع انتهت المسألة. (**فَالِقُ الإِصْبَاحِ**) لم يكن هناك منتفع حتى قبل خلق آدم لم يكن هناك منتفع فقال فالق الإصباح، أما سكناً فيجب أن تكون بعد الخلق لو هلك كل الأحياء على الأرض فالق الإصباح(مستمر) لكن لا يوجد سكن فالأدوم هو الإصباح فأتى بالإسم الدال على الثبوت (فالق الإصباح). وللعلم هنالك آية أخرى فيها ﴿ **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)** ﴾ آل عمران. هذه الآية في التغييرات التي يحدثها الله تعالى ليست باقيةً على حالها (**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)**) آل عمران. حيث لا يبقى أحد على حاله وليس هناك حالة ثبات (**وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء**) والآية في سياق التغييرات فقال تخرج وتخرج،(بالصيغ الفعلية التى تشير إلى ذلك) ذكر تعالى التغييرات التي يجريها وليست الحالات التي يبقيها (تخرج الحي من الميت، تؤتي الملك من تشاء) كلها تتحدث عن التغييرات.

أما الآية الآخرى(آية الأنعام) **فليست في التغييرات - بل هى فى تنوع قدرة الله**، (فجاء بالفعلية والاسمية) وبدأ بها بالجملة الإسمية (فالق الإصباح).

وأقول: هذا يوضحه الإمام أبو السعود فى قوله: وَعَطَفَ عَلَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ قَوْلَهُ **وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ بِضِدِّ مَضْمُونِ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَصُنْعٍ آخَرَ عَجِيبٍ دَالٍّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَنَافٍ تَصَرُّفَ الطَّبِيعَةِ بِالْخَلْقِ**،(٦) لِأَنَّ الْفِعْلَ الصَّادِرَ مِنَ الْعَالِمِ الْمُخْتَارِ يَكُونُ عَلَى أَحْوَالٍ مُتَضَادَّةٍ بِخِلَافِ الْفِعْلِ الْمُتَوَلِّدِ عَنْ سَبَبٍ طَبْعِيٍّ- الذى يسير على طبيعةً

---

(٦) عكس الرتابة التى نشاهدها كل ثانية من إخراج الحى من الميت والذى يظن البعض من الدهريين أن هذا الخلق يأتى بفعل الطبيعة التى تسير على هذا المنوال.

واحدة يناسبها سياق واحد-، وَفِي هَذَا الْخَبَر تَكْمِلَةُ بَيَان لِمَا أَجْمَلَهُ قَوْلُهُ: فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى، لِأَنَّ فَلْقَ الْحَبِّ عَنِ النَّبَاتِ وَالنَّوَى عَنِ الشَّجَرِ يَشْمَلُ أَحْوَالًا مُجْمَلَةً، مِنْهَا حَالُ إِثْمَارِ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ: حَبًّا يَيْبَسُ وَهُوَ فِي قَصَبِ نَبَاتِهِ فَلَا تَكُونُ فِيهِ حَيَاةٌ، وَنَوَى فِي بَاطِنِ الثِّمَارِ يَبَسًا لَا حَيَاةَ فِيهِ كَنَوَى الزَّيْتُون وَالتَّمْرِ، وَيَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ الْبَيَان بِإِخْرَاجِ الْبَيْضِ وَاللَّبَنِ وَالْمِسْكِ وَاللُّؤْلُؤِ وَحَجَرِ (الْبَازَهر) مِنْ بَوَاطِنِ الْحَيَوَانِ الْحَيِّ(وهو إخراج ميت من حى)، **فَظَهَرَ صُدُورُ الضِّدَّيْنِ عَنِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ تَمَامَ الظُّهُورِ**.(وأقول: وناسب ذلك أيضاً تغير الصيغة من (يخرج) إلى (مخرج) ليشير إلى ذلك.

ولعل صاحب تفسير الظلال رحمه الله يقرب لنا هذا المعنى والمقابلة بين (فالق الحب والنوى) و(فالق الإصباح)بقوله: وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة. وانبثاق النور في تلك الحركة، كانبثاق البرعم في هذه الحركة.. وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك..

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى.. إن الإصباح والإمساء، والحركة والسكون، في هذا الكون- أو في هذه الأرض- ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة.

وأقول معقباً:(فالق الإصباح وجعل الليل سكنا) إن صيغة(سكن) تدل بصورتها – و كفعل ماضٍ- مع جرسها الصوتى على هذا السكون الذى يناسب الليل وصورته، وفى هذا يقول العلم الحديث: الإصباح طارىء وأما الليل فهو سكن دائم تنغمر فيه الكرة الأرضية ويحيط بها من جميع جوانبها كأنه لباس للأرض كما وصفه تعالى بقوله(**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠)**) وهو ما أشار إليه قوله تعالى(**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)**) ⁽⁷⁾

---

(٧) ثم يعرج على توضيح المشهد فى قوله (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ (الْعَزِيزِ) (الْعَلِيمِ) (٩٦))

(وهذا هو سياق الآيات الذى يدل على قدرته سبحانه بخلاف سياق آيات سورة آل عمران التى تتحدث عن (سنة الله) تعالى فى التغيير والتبديل وأنه لا يبقى شىء على حاله يرفع ويخفض ويعز ويذل- فهو تغيير مستمر – وفق سنة الحياة التى تتجدد – ويناسبها صيغة الفعل المضارع فى جميع مراحلها- **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾**

وكما يقول الدكتور فاضل السامرائى:

الذي يحدد استعمال الإسم أو الفعل في القرآن الكريم هو السياق؛ فالله تعالى مثلاً يصف نفسه مرة بأنه عالم ومرة عليم ومرة علاّم **ومرة يعلم**، ولكل منها استعماله حسب ما يقتضيه السياق، فنلاحظ أنه تعالى لا يستعمل عالم إلا مع المفرد (عالم الغيب) أما علاّم فلا يستعملها إلا مع الجمع (علاّم الغيوب). **فإذا كان السياق في التجدد والتغيرات يأتي بالفعل، وإن كان السياق في الثبوت يأتي بالإسم** ، فلا بد من أن نضع الكلمة في سياقها. والكلمة لا توصف بأنها بليغة وإنما يقال عنها كلمة فصيحة، لكن بلاغة الكلمة عندما تضعها في كلام وفي سياق. ولا بد من معرفة قواعد اللغة العربية وأحكامها حتى لا نخرج من قواعدها عندما نتكلم عن القرآن . السياق يحدد الكلمة في القرآن لذلك قال القدامى السياق أكبر القرائن. يجب أن توضع الكلمة في سياقها. وهذا ما يُعرف بمطابقة الكلام لمقتضى الحال.

جيء بجملة (**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**) فِعْلِيَّة للدلالة على أن هذا الفعل متجدد ويتكرر في كل آن فهو أمر متكرر معلوم وليس مصادفة. ثم تلاها بقوله (**وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**) بصيغة الإسم لا الفعل للدلالة على الدوام والثبات، وبذلك عبر عن معنيين وحالتين هما (التجدد) و(الثبوت) من خلال

الفعل المضارع (يُخرج) والإسم (مُخرج).((أى للتدليل على قدرة الله تعالى على كل الأحوال) وهو ما أشار إليه الإمام الرازي فى قوله: والمقصود منه أن الحي والميت **متضادان متنافيان**، فحصول المثل عن المثل يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية. أما حصول الضد من الضد فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية بل لا بد أن يكون بتقدير المقدر الحكيم والمدبر العليم».

ويقول الإمام الزمخشرى: فإن قلت: كيف قال (**مُخْرِجُ) الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ** بلفظ اسم الفاعل، بعد قوله يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ. قلت: عطفه على (**فالق) الحب والنوى**، لا على الفعل(**يخرج الحى من الميت**)، **ويخرج الحىَّ من الميت**: موقعه موقع الجملة المبينة لقوله فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى، لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامين من جنس إخراج الحىّ من الميت، لأنّ النامي في حكم الحيوان. ألا ترى إلى قوله يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها،

فهو يقصد بذلك المقابلة اللطيفة بين(فالق الحب والنوى) و(قالق الإصباح) وربطهما بالعطف لهذا التشابه، والثانى معطوف على الأول، وكلاهما فى غاية التناسق فى المعنى والمشهد التصويرى.. أما (يخرج الحى من الميت..) فهى تفسير لمعنى فالق الإصباح أو تصوير وتكملة له، وكما قال صاحب تفسير الوسيط: والجملة الكريمة(يخرج الحى من الميت..) مستأنفة – أى لم تأت بحرف العطف، فهى ليست معطوفة ولكنها شارحة وموضحة لمثيلتها– مبينة لما قبلها ولذلك ترك العطف، (أى لم يقل إن الله فالق الحب والنوى..(و)يخرج الحى من الميت) بل حذف حرف العطف(الواو) لتكون الجملة مبينة لما قبلها وليست معطوفة عليها وعلى هذا يكون تركيب الآية – على رأى الإمام – هكذا: ﴿ **إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ {٩٥}فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ..(٩٦)** ﴾ على أن تكون (**إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى** متناسقة مع قوله (**فَالِقُ الْإِصْبَاحِ**) على وزن وصورة وجرس (فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) ففى كليهما الحركة بالحياة والزيادة ويوضحه ويبينه هذه الجملة الغير معطوفة ولكنها مبينة

لذلك قوله: **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ**...وحدث تغيير فى صيغتى الفعل(يخرج) إلى (مخرج) ليدلل على طلاقة القدرة وليس المقصود التدليل على سنة كونية

وهو نفس ما قاله الإمام أبو السعود: وَقَدْ رَجَّحَ عَطْفُ هَذَا الْخَبَرِ لِأَنَّهُ كَالتَّكْمِلَةِ لِقَوْلِهِ: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ أَيْ يَفْعَلُ الْأَمْرَيْنِ مَعًا كَقَوْلِهِ بَعْدَهُ فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلُ اللَّيْلَ سَكَناً.

وَجِيءَ فِي قَوْلِهِ: وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ اسْمًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ، فَحَصَلَ بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ أَنَّ كِلَا الْفِعْلَيْنِ مُتَجَدِّدٌ وَثَابِتٌ، أَيْ كَثِيرٌ وَذَاتِيٌّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحَدَ الْإِخْرَاجَيْنِ لَيْسَ أَوْلَى بِالْحُكْمِ مِنْ قَرِينِهِ فَكَانَ فِي الْأُسْلُوبِ شِبْهُ الِاحْتِبَاكِ.(٨)

---

(٨) وجمع ذلك صاحب تفسير المنار بقوله:

(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) كَالْحَبِّ وَالنَّوَى مِنَ النَّبَاتِ وَالْبَيْضَةِ وَالنُّطْفَةِ مِنَ الْحَيَوَانِ. وَهَذَا قِيلَ إِنَّهُ عَطْفٌ عَلَى " فَالِقِ الْحَبِّ " لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ أَنْ يُعْطَفَ الِاسْمُ عَلَى الِاسْمِ، وَلِأَنَّ إِخْرَاجَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لَا يَدْخُلُ فِي بَيَانِ فَلْقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَقِيلَ إِنَّهُ عَطْفٌ عَلَى " يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ " سَوَاءٌ كَانَ بَيَانًا لِمَا قَبْلَهُ أَوْ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ، لِأَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ أَقْوَى مِنَ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الثَّانِي وَبَيْنَ فَلْقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى ؛ وَلِذَلِكَ وَرَدَا بِصِيغَةِ الْفِعْلِ فِي سُورَتَيْ يُونُسَ وَالرُّومِ (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) ١٠: ٣١، ٣٠: ١٩ وَقَدْ حَسُنَ عَطْفُ اسْمِ الْفَاعِلِ بِمَعْنَى فِعْلِ الْمُضَارِعِ، فَإِنَّ مُخْرِجَ الشَّيْءِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُهُ فِي الْحَالِ أَوِ الِاسْتِقْبَالِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْفِعْلَ يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ. وَقَدْ يُرَادُ بِوَضْعِهِ مَوْضِعَ اسْمِ الْفَاعِلِ أَوْ مَوْضِعِ الْفِعْلِ الْمَاضِي إِفَادَةُ تَجَدُّدِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، أَوْ تَصَوُّرُ حُدُوثِ مُتَعَلِّقِهِ وَاسْتِحْضَارِ صُورَتِهِ. مِثَالُ الْأَوَّلِ: الْمُقَابَلَةُ الَّتِي أَوْرَدَهَا الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ) ٣٥: ٣ وَقَوْلُهُ: (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) ١٨: ١٨ فَصِيغَةُ الْفِعْلِ فِي " يَرْزُقُكُمْ " تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَرْزُقُهُمْ حَالًا فَحَالًا وَسَاعَةً فَسَاعَةً، وَصِيغَةُ الِاسْمِ فِي بَاسِطٍ ذِرَاعَيْهِ تُفِيدُ الْبَقَاءَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، وَمِثَالُ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) ٢٢: ٦٣ جَعَلَ " فَتُصْبِحُ " مَوْضِعَ " فَأَصْبَحَتْ " لِإِفَادَةِ اسْتِحْضَارِ تِلْكَ الْهَيْئَةِ الْجَمِيلَةِ وَتَمَثُّلِهَا كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ مُشَاهَدَةٌ، وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ لِلْمُضَارِعِ قِيلَ بِأَنَّهُ مُرَادٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) الْقَائِلُ بِالْأَوَّلِ هُوَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ، وَالْقَائِلُ بِالْآخَرِ هُوَ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي الِانْتِصَافِ عَلَى الْكَشَّافِ. وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي تَعْلِيلِ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي الْمَعْنَى: إِنَّ الْعِنَايَةَ بِإِيجَادِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَكْثَرُ وَأَكْمَلُ مِنَ الْعِنَايَةِ

وَذَهَبَ الْخَطِيبُ الْإِسْكَافِيُّ فِي " دُرَّةِ التَّنْزِيل " إِلَى جَعْلِ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ لَفْظِيًّا مَحْضًا.(وهو تناسب صوتى) وَمُلَخَّصُ كَلَامِهِ أَنَّ مُقْتَضَى السِّيَاق أَنْ يُقَالَ: " **وَمُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ** " لِمُنَاسَبَةِ " فَالِقَ الْحَبِّ " الَّتِي اجْتَمَعَ فِيهَا ثَلَاثَةٌ مِنْ حُرُوفِ الْعِلَّةِ عَدَلَ عَنْ " وَمُخْرِجُ " الْمُبْدَأِ بِحَرْفِ الْعِلَّةِ إِلَى " يُخْرِجُ " الَّتِي بِمَعْنَاهَا ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهَا " وَمُخْرِجُ " لِمُنَاسَبَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ انْتَهَى. وَالْمُرَادُ أَنَّ " وَالنَّوَى " بُدِئَتْ بِالْوَاو الْمَفْتُوحَةِ وَخُتِمَتْ بِهَا، فَإِذَا عَطَفَ عَلَيْهَا " وَمُخْرِجُ " تَتَكَرَّرُ الْوَاوُ الْمَفْتُوحَةُ تَكْرَارًا مُسْتَثْقَلًا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

ومثال هام آخر فى سياق عقائدى :

قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ**- أى المؤمنات- **إِلَى الْكُفَّارِ** (**لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ**)- أى المؤمنات لا تحل للمشركين وهى جملة إسمية (مصدر) تفيد دوام المنع- **وَلَا هُمْ** (**يَحِلُّونَ لَهُنَّ**) ﴾ - أى المشركين الرجال لا يحلون للمسلمات وهى جملة فعلية أقل توكيداً- .. **(١٠)**

فلماذا هذا الالتفات بين الاسم والفعل؟

هناك آراء فى ذلك التحول منها: أن هذه المرأة التى أسلمت لا بد من قطع العلاقة قطعاً أبدياً مع زوجها الكافر، أما زوجها فهو تحريم موقوت يزول بزوال الكفر منه ودخوله فى الإسلام، لأن الفعل المضارع يفيد التجدد والتغيير - **وَلَا هُمْ** (**يَحِلُّونَ لَهُنَّ**)- ، وهذه لمحة لطيفة من النظم القرآنى تفتح باب الأمل فى تغيير حالة هذا الزوج الكافر من الكفر إلى الإسلام(لا يحلون لهن) فهى صيغة فعلية توحى بالتغير فربما يسلم الزوج – وتعطى بشارة بذلك- وبهذا

بِإِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ. وَقَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: إِنَّ الْأَوَّلَ أَظْهَرُ فِي الْقُدْرَةِ مِنَ الثَّانِي وَأَنَّهُ أَوَّلُ الْحَالَيْنِ وَالنَّظَرُ أَوَّلُ مَا يُبْدَأُ بِهِ ؛ فَلِهَذَا كَانَ جَدِيرًا بِالتَّصَوُّرِ وَالتَّأْكِيدِ فِي النَّفْسِ وَبِالتَّقْدِيمِ انْتَهَى.

تَحِل له، أما المسلمة التى أسلمت فلا يرجى تغيرها عن الإسلام ورجوعها إلى الكفر- فهى تعطى اليأس من حدوث تغيير واليأس منه وليس البشارة بتغييره- فأتى فى حقها بصفة الدوام وهى الصيغة الإسمية(لاهن حل لهم) ..

وهذا رأى هام يضاف إليه رأى الإمام الألوسى الذى يقول فيه: (**لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**) فإنه تعليل للنهي عن رجعهن إليهم، والجملة الأولى- (**لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ**)- لبيان الفرقة الثابتة وتحقق زوال النكاح الأول- أى بحدوث الفراق الجبرى لها منه-. والثانية(**وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**) لبيان امتناع ((ما يستأنف ويستقبل)) من النكاح- أى إنه سيطلب الزواج منها بعقد جديد يُستأنف فى المستقبل(وهو وظيفة الفعل المضارع)- ويشعر بذلك التعبير (بالاسم) في الأولى (والفعل) في الثانية.

ويضيف الإمام الطاهر قولاً مؤكداً: وَجِيءَ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا مُضَارِعًا لِدِلَالَتِهِ عَلَى التَّجَدُّدِ لِإِفَادَةِ نَفْيِ الطَّمَاعِيَةِ فِي التَّحْلِيلِ وَلَوْ بِتَجَدُّدِهِ فِي الْحَالِ بِعَقْدٍ جَدِيدٍ أَوِ اتِّفَاقٍ جَدِيدٍ عَلَى الْبَقَاءِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ.

ويرى الإمام أن الجملة الثانية- يحلون- فعل مضارع تكون حالاً للجملة الأولى فقال: وَيَجُوزُ فِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ تَأْكِيدَ نَفْيِ الْحَال فَبَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَهُوَ الْأَصْلُ كَمَا عَلِمْتَ آنِفًا أَكَّدَ بِجُمْلَةِ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ أَيْ أَنَّ انْتِفَاءَ الْحِلِّ حَاصِلٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ كَمَا يُقَالُ: لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٨٧] تَأْكِيدًا لِشِدَّةِ التَّلَبُّسِ وَالِاتِّصَال مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

ونكتفى بهذا القدر لنعيش ألواناً أخرى من الالتفات وهى أيضاً فى (صيغ الفعل)

****

تكملة الالتفات فى صيغ الفعل (٢)

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا (**يُنْفِقُونَ**) **قُلْ** (**مَا أَنْفَقْتُمْ**) مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ البقرة.

ويقول الإمام الطاهر: وَمَا أَنْفَقْتُمْ شَرْطٌ، فَفِعْلُ أَنْفَقْتُمْ مُرَادٌ بِهِ الِاسْتِقْبَالُ- أى بمعنى: قل ما ستنفقوا- كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الشَّرْطِ، وَعَبَّرَ بِالْمَاضِي- **قُلْ** (**مَا أَنْفَقْتُمْ**) – **لِإِظْهَارِ الرَّغْبَةِ فِي حُصُولِ الشَّرْطِ فَيَنْزِلُ كَالْحَاصِلِ الْمُتَقَرِّرِ.**

وأقول: وأرى أن ذلك النظم والالتفات فيه إحسان للظن من الله بهم فى سرعة تنفيذهم للأمر وكأنه حدث بالفعل ومضى دون تردد.

وهذا الاستخدام لصيغة الماضى قد عشناه على الصفحات الماضية وذكرنا أن ذلك لتأكيد حصول الفعل وكأنه قد حدث بالفعل، ولذلك كثر استخدامه **فى الحديث عن أحوال الآخرة** ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ ﴿ **وَجَاءَتْ** سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) **وَنُفِخَ** فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) **وَجَاءَتْ** كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا **فَكَشَفْنَا** عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) **وَقَالَ** قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) **أَلْقِيَا** فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) **الَّذِي جَعَلَ** مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) **قَالَ قَرِينُهُ** رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) **قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا** لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) .. **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ** لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)).. (فَأَمَّا **مَنْ أُوتِيَ** كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) **إِنِّي ظَنَنْتُ** أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾.. **هكذا..**

****

ومثل ما قيل فى المثال السابق يقال فى هذا المثال:

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ (**وَاشْتَرَوْا**) بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ (**مَا يَشْتَرُونَ**) (١٨٧) ﴾ آل عمران.

﴿ **وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ (اللَّه) إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** (١١٦) **إِنَّ (رَبَّكَ) هُوَ أَعْلَمُ مَنْ (يَضِلُّ) عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ (بِالْمُهْتَدِينَ)** (١١٧) ﴾ الأنعام.

فهما التفاتان الأول فى لفظ الجلالة من الغيبة (الله) إلى الخطاب والربوبية(**إِنَّ (رَبَّكَ)**).

والالتفات الثانى : فى تحول الصيغة من (فعل)- (يَضِلُّ) - إلى(اسم) (بِالْمُهْتَدِينَ).

وَكذلك تَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: **إِنَّ رَبَّكَ**- بعد قوله(عن سبيل الله) ولم يقل(إن الله) أو (إنه)وقال (إن ربك) لِتَشْرِيفِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ (محمد ﷺ)، وَإِظْهَار أَنَّ هَدْيَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الْهُدَى، وَأَنَّ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ مُضِلُّونَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْهُدَى لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ رَبًّا لَهُمْ.

فى آية الأنعام هذه نجد السياق القوى والخطاب مع أعتى المجرمين- رءوس وصناديد قريش- وهو أيضاً مناسب لجو السورة القوى حتى فى هيئة نزولها وقد سُمع لها وجبة فى السماء ويحملها سبعون ألف ملك وتتحدث عن أعتى المجرمين فيهم المتطاولين بالحرب وأشد المجادلات ولذلك جاء السياق عن هؤلاء بالوصف بالصيغة المتكررة فى الضلال والمتجددة حال نزول هذه السورة فقال(من يضل) وفى المقابل سيشير على الفئة المؤمنة – فى هذا الزمن من الابتلاءات الشديدة-كبلال وغيره- ويأتى بوصفهم على صورة الثبات والدوام على الهدى والتى يناسبها الجملة الإسمية فقال(**بِالْمُهْتَدِينَ**) (**مَنْ (يَضِلُّ) عَنْ سَبِيلِهِ**- من الكفار المكررين للضلال- **وَهُوَ أَعْلَمُ (بِالْمُهْتَدِينَ)** - المؤمنون الثابتون على الهدى-.

ولكنه فى سورة النجم يأتى عن المؤمنين بصيغة الفعل الماضى (بمن اهتدى) ورغم القرابة التوكيدية بين الاسم والفعل الماضى إلا أنه قد ورد هذا الالتفات لنكتة هامة نراها من السياق

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) ﴾ النجم.. فهنا نلاحظ أنه وصف حال ماضية عن كلا الفريقين- وقد كتب حالهما فى الأزل- ويطالبه فيها بأن يعرض عنهم ويقطع هذه الحالة ويجعلها فى خبر الماضى، بخلاف آيات سورة الأنعام التى يفتح فيها جو الجدال وصورته المتكررة فجاء فيها بصيغة المضارعة (يضل) وفى هذه الحالة يصور مدى ثبات الفئة المؤمنة فى صورة الاستمرار والثبات وهو حال الجملة الاسمية (المهتدين) ولم يقل(اهتدى).. والحال فى سورة النجم- كما قلنا- عن مطالبة الله له عن قطع الخطاب معهم ويعرفه أن حال الفريقين- الضال والمهتدى- معلوم من الأزل لله تعالى- فخبرهما فى الماضى يعلمه الله وليس الآن- فهما فريقان(ضل) و(اهتدى) فى الأزل الماضى، فقال(هو أعلم بمن (ضل) .. وهو أعلم بمن (اهتدى).. وهو ما عبر عنه الإمام الرازى فى قوله: ثُمَّ ابْتَدَأَ وَقَالَ: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى ،وَفِي الْمُنَاسَبَةِ وُجُوهٌ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَعْرِضْ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْمَيْلِ إِلَى إِيمَان قَوْمِهِ وَكَانَ رُبَّمَا هَجَسَ فِي خَاطِرِهِ، أَنَّ فِي الذِّكْرَى بَعْدُ مَنْفَعَةٌ، وَرُبَّمَا يُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِينَ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنْ غَيْرِ قِتَال فَقَالَ لَهُ: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ (ضَلَّ) عَنْ سَبِيلِهِ، علم أنه يؤمن بمجرد الدعاء أَحَدٍ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ فِيهِمْ أَنْ يَقَعَ السَّيْفُ وَالْقِتَالُ فَأَعْرِضْ عَنِ الْجِدَال وَأَقْبِلْ عَلَى الْقِتَال، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: بِمَن (اهْتَدى) أَيْ عَلِمَ فِي الْأَزَلَ، مَنْ ضَلَّ فِي تَقْدِيرِهِ وَمَنَ اهْتَدَى، فَلَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الْأَمْرَان، وَلَا يَأْسَ فِي الْإِعْرَاض وَيُعَدُّ فِي الْعُرْفِ مَصْلَحَةً . ثَانِيهَا: هُوَ عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلال مُبِين**)(سَبَأٍ: ٢٤) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (**يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا**) (الْأَعْرَافِ: ٨٧) وَوَجْهُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ عَلَى الْهُدَى وَأَنْتُمْ مُبْطِلُونَ وَأَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ الْحُجَّةَ عَلَيْهِم فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَجْرُكَ وَقَعَ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ مُهْتَدُونَ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُمْ ضَالُّونَ، وَالْمُتَنَاظِرَانِ إِذَا تَنَاظَرَا عِنْدَ مَلِكٍ قَادِرٍ مَقْصُودُهُمْ ظُهُورُ الْأَمْرِ

عِنْدَ الْمَلِكِ فَإِن اعْتَرَفَ الْخَصْمُ بِالْحَقِّ فَذَاكَ، وَإِلَّا فَغَرَضُ الْمُصِيبِ يَظْهَرُ عِنْدَ الْمَلِكِ فَقَالَ تَعَالَى: جَادَلْتَ وَأَحْسَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمُحِقِّ مِنَ الْمُبْطِلِ

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ قَالَ هَا هُنَا: بِمَنْ ضَلَّ وَقَالَ هُنَاكَ: يَضِلُّ؟ قُلْنَا: لِأَنَّ هَاهُنَا حَصَلَ الضَّلَالُ فِي الْمَاضِي وَتَأَكَّدَ حَيْثُ حَصَلَ يَأْسُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمِرَ بِالْإِعْرَاضِ، وَأَمَّا هُنَاكَ – فى الأنعام– فَقَالَ تَعَالَى مِنْ قَبْلُ: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (الْأَنْعَامِ: ١١٦) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ) الأنعام. بِمَعْنَى إِنْ ضَلَلْتَ يَعْلَمُكَ اللَّه فَكَانَ الضَّلَالُ غَيْرَ حَاصِلٍ فِيهِ فَلَمْ يَسْتَعْمِلْ صِيغَةَ الْمَاضِي.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: **قَالَ فِي الضَّلَالِ عَنْ سَبِيلِهِ (ضل عن سبيله) وَلَمْ يَقُلْ فِي الِاهْتِدَاءِ إِلَى سَبِيلِهِ،** لِأَنَّ الضَّلَالَ عَنِ السَّبِيلِ هُوَ الضَّلَالُ، وَهُوَ كَافٍ فِي الضَّلَالِ، لِأَنَّ الضَّلَالَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي السَّبِيلِ، وَأَمَّا بَعْدَ الْوُصُولِ فَلَا ضَلَالَ. أَوْ لِأَنَّ مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ سَوَاءٌ سَلَكَ سَبِيلًا أَوْ [لَمْ] يَسْلُكْ، وَأَمَّا مَن اهْتَدَى إِلَى سَبِيلٍ فَلَا وُصُولَ إِنْ لَمْ يَسْلُكْهُ، وَيُصَحِّحُ هَذَا أَنَّ مَنْ ضَلَّ فِي غَيْرِ سَبِيلِهِ فَهُوَ ضَالٌّ وَمَن اهْتَدَى إِلَيْهَا لَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا إِلَّا إِذَا اهْتَدَى إِلَى كُلِّ مَسْأَلَةٍ يَضُرُّ الْجَهْلُ بِهَا بِالْإِيمَانِ فَكَانَ الِاهْتِدَاءُ الْيَقِينِيُّ هُوَ الِاهْتِدَاءُ الْمُطْلَقُ، فَقَالَ بِمَنِ اهْتَدى وقال **بِالْمُهْتَدِينَ** (القلم: ٧) وَجِيءَ بِالِاسْمِ الظَّاهِرِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ فَقِيلَ (**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا**) دُونَ: (**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**) لِمَا تُؤْذِنُ بِهِ صِلَةُ الْمَوْصُولِ مِنْ عِلَّةِ الْأَمْرِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَمِنْ تَرَتُّبِ تَوَلِّيهِمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَلَى مَا سَبَقَ وَصْفُهُ مِنْ ضَلَالِهِمْ إِذْ لَمْ يَتَقَدَّمْ وَصْفُهُمْ بِالتَّوَلِّي عَنِ الذِّكْرِ وَإِنَّمَا تَقَدَّمَ وَصْفُ أَسْبَابِهِ.

وَتَقْدِيم ذكر بِمَنْ ضَلَّ على ذكر بِمَنِ اهْتَدى لِأَن الضالّين أهمّ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَأَمَّا ذِكْرُ الْمُهْتَدِينَ فَتَتْمِيمٌ.

ويقول صاحب تفسير المنار كلاماً طيباً يخص الدارسين وأنقله لهم بنصه وهو: (**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَنَّ الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ مِنَ النُّحَاةِ اضْطَرَبُوا فِي إِعْرَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ**﴾ لِمَجِيئِهِ عَلَى خِلَافِ الْمَعْهُودِ الشَّائِعِ مِنَ اقْتِرَانِ مَعْمُولِ اسْمِ التَّفْضِيلِ بِالْبَاءِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْقَلَمِ: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (٦٨: ٧) فَكَانَ أَبْعَدُ إِعْرَابِهِمْ لَهُ عَنِ التَّكَلُّفِ أَنَّ الْبَاءَ حُذِفَتْ مِنْهُ اكْتِفَاءً بِاقْتِرَانِهَا بِمُقَابِلِهِ الْمُتَّصِلِ بِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿**أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ وَمُخَالَفَةُ الْمَعْهُودِ فِي أَسَالِيبِ اللُّغَةِ لَا يَكَادُ يَقَعُ فِي كَلَامِ بُلَغَاءِ أَهْلِهَا إِلَّا لِنُكْتَةٍ يَقْصِدُونَهَا بِهِ، وَكَلَامُ رَبِّ الْبُلَغَاءِ وَمُنْطِقِهِمْ بِاللُّغَاتِ أَوْلَى بِذَلِكَ. وَالنُّكَتُ مِنْهَا لَفْظِيٌّ كَالِاخْتِصَارِ وَالتَّفَنُّنِ فِي الْأُسْلُوبِ، وَمِنْهَا مَعْنَوِيٌّ وَهُوَ أَعْلَى. وَقَدْ يَكُونُ مِنْ نُكَتِ مُخَالَفَةِ الْمَعْهُودِ الْكَثِيرِ تَنْبِيهُ الذِّهْنِ الْمُتَأَمِّلِ، كَمَنْ يُرِيدُ إِيقَافَ سَالِكِ الطَّرِيقِ فِي مَكَانٍ مِنْهُ لِفَائِدَةٍ لَهُ فِي الْوُقُوفِ، كَمَا أَرَى اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُوسَى النَّارَ فِي الشَّجَرَةِ بِجَانِبِ الطُّورِ فَحَمَلَ أَهْلَهُ عَلَى الْمُكْثِ فِيهِ لِمَا عَلِمْنَا مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ. وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا النَّوْعَ مِنَ النُّكَتِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلْنَا مِنْهُ عَطْفَ الْمَرْفُوعِ عَلَى الْمَنْصُوبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ**﴾ (٥: ٦٩) أَيْ وَكَذَا الصَّابِئُونَ أَوْ وَالصَّابِئُونَ كَذَلِكَ، خَصَّ هَؤُلَاءِ بِإِخْرَاجِهِمْ عَنْ نَسَقِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْإِعْرَابِ لِأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ بَقَايَا أَهْلِ كِتَابٍ

وَقَدْ يَكُونُ حَذْفُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ لِلتَّنْبِيهِ إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي كَوْنِ اللهِ تَعَالَى أَعْلَمَ بِأَحْوَالِهِمْ لِأَنَّهَا هِيَ الْمَقْصُودَةُ هُنَا بِالذَّاتِ بِدَلِيلِ سَابِقِ الْكَلَامِ وَلَاحِقِهِ إِذْ هُوَ فِيهِمْ، وَمَا ذَكَرَ الْعِلْمَ بِالْمُهْتَدِينَ إِلَّا لِأَجْلِ التَّكْمِلَةِ وَالْمُقَابَلَةِ ؛ وَلِذَلِكَ عُطِفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ عَطْفَ جُمْلَةٍ لَا عَطْفَ مُفْرَدٍ، فَتَأَمَّلْ. وَلَوْ جَازَتِ الْإِضَافَةُ هُنَا نَحْوُ " أَفْضَلُ مَنْ حَجَّ وَاعْتَمَرَ ". لَكَانَ الْكَلَامُ احْتِبَاكًا تَقْدِيرُهُ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ وَمَنْ يَهْتَدِي وَهُوَ أَعْلَمُ بِالضَّالِّينَ وَبِالْمُهْتَدِينَ، فَحَذَفَ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْمُتَقَابِلَيْنِ مَا أَثْبَتَ نَظِيرَهُ فِي الْآخَرِ، وَلَيْسَ الْمَانِعُ مِنْ جَوَازِ الْإِضَافَةِ هُنَا كَوْنَ صِلَةِ " مَنْ " فِعْلًا مُضَارِعًا لَا مَاضِيًا كَالْمِثَالِ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ وَنَظَائِرِهِ، بَلِ الْمَانِعُ هُوَ أَنَّ الْمُضَافَ فِي مِثْلِ هَذَا

الْكَلَام مِنْ جِنْسِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي الْآيَةِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا جِنْسَ لَهُ، وَلَو اقْتَرَنَ الْمَوْصُولُ هُوَ بِالْجَارِ فَقِيلَ: هُوَ أَعْلَمُ مِمَّنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، لَجَزَمْنَا بِالِاحْتِبَاكِ.

ويضيف الإمام الطاهر: وَحَقُّهُ هُنَا أَنْ يُعَدَّى بِالْبَاءِ، فَحُذِفَتِ الْبَاءُ إِيجَازَ حَذْفٍ، تَعْوِيلًا عَلَى الْقَرِينَةِ. وَإِنَّمَا حُذِفَ الْحَرْفُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْأُولَى، وَأُظْهِرَ فِي الثَّانِيَةِ، دُونَ الْعَكْسِ، مَعَ أَنَّ شَأْنَ الْقَرِينَةِ أَنْ تَتَقَدَّمَ، لِأَنَّ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ يُضَافُ إِلَى جَمْعٍ يَكُونُ الْمُفَضَّلُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، نَحْوُ: هُوَ أَعْلَمُ الْعُلَمَاءِ وَأَكْرَمُ الْأَسْخِيَاءِ، فَلَمَّا كَانَ الْمَنْصُوبَانِ فِيهِمَا غَيْرُ ظَاهِرٍ عَلَيْهِمَا الْإِعْرَابُ، يَلْتَبِسُ الْمَفْعُولُ بِالْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ غَيْرُ مُلْتَبِسٍ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى، لِأَنَّ الصِّلَةَ فِيهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِهِمْ، فَلَا يُتَوَهَّمُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: اللَّهُ أَعْلَمُ الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ، أَيْ أَعْلَمُ عَالِمٍ مِنْهُمْ، إِذْ لَا يَخْطُرُ بِبَالِ سَامِعٍ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ أَعْلَمُ الْجَاهِلِينَ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ مُتَنَاقِضٌ، فَإِنَّ الضَّلَالَ جَهَالَةٌ، فَفَسَادُ الْمَعْنَى يَكُونُ قَرِينَةً عَلَى إِرَادَةِ الْمَعْنَى الْمُسْتَقِيمِ، وَذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقَرِينَةِ الْحَالِيَّةِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ: وَهُوَ أَعْلَمُ الْمُهْتَدِينَ، فَقَدْ يَتَوَهَّمُ السَّامِعُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ الْمُهْتَدِينَ، أَيْ أَقْوَى الْمُهْتَدِينَ عِلْمًا، لِأَنَّ الِاهْتِدَاءَ مِنَ الْعِلْمِ. هَذَا مَا لَاحَ لِي فِي نُكْتَةِ تَجْرِيدِ قَوْلِهِ: هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ مِنْ حَرْفِ الْجَرِّ الَّذِي يَتَعَدَّى بِهِ أَعْلَمُ.

****

﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** (**لَا تَعْبُدُونَ**) **إِلَّا اللَّهَ** (**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**)-..**وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ** (**وَقُولُوا**) **لِلنَّاسِ حُسْنًا** (**وَأَقِيمُوا**) **الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ** ((**تَوَلَّيْتُمْ**)) **إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ** ((**وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**)) (**٨٣**) ﴾ البقرة

(**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**) كان يجب أن تقال (وأن تحسنوا للوالدين) أو (أن لا تعقوا الوالدين) بدليل ما قبلها (لا تعبدون) وما بعدها (وأقيموا) هكذا: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ** (**لَا تَسْفِكُونَ**) **دِمَاءَكُمْ** (**وَلَا تُخْرِجُونَ**) **أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** (**٨٤**)) ولكنه أراد هنا – بورود الوصية على الصيغة الإسمية

((وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)- أن يصور المكانة العالية للوالدين اللذين لا يحتاجان إلى توجيه أمر ببرهما فإن برهما والإحسان بهما أمر (ثابت ودائم) سواء توجه الأمر ببرهما أم لم يتوجه وهذا هو مكان الجملة الإسمية وليست الفعلية- وبذلك اتضح التوكيد على الإحسان بالوالدين، كما تأكد عبادة الله تعالى بالإتيان بصيغة الفعل المضارع بدلاً من توجيه الأمر أو النهى فقال (**لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**..وهذه الصيغة (**لا تَعْبُدُونَ**) إخبار في معنى النهى، لأنه لو كان نهياً لجاءت الصيغة على الجزم(لا تعبدوا)- وهو كما تقول: تذهب إلى فلان (تقول) له كذا، تريد الأمر- أى: قل له كذا-، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى هذا، لأنه – بصيغة الإخبار عنه(لا تعبدون) وليس بصيغة النهى(لا تعبدوا)-كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه.

وهو ما ذكره صاحب تفسير الوسيط ميسراً فى قوله: وجاء التعبير بقوله تعالى (**لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**) في صورة الخبر المنفي والمراد منه النهى عن عبادة غير الله، لإفادة المبالغة والتأكيد، فكأن الأمر والنهى قد امتثلا فيخبر بوقوعها، أو أنهما لأهمّيّتهما- لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا- يخبر عنهما بأنهما سيتلقيان بحسن الطاعة حتما، فينزل ما يجب وقوعه منزلة الواقع، ويخبر عن المأمور بأنه فاعل لما أمر به ومجتنب لما نهى عنه في الحال، وفي ذلك ما فيه من إفادة المبالغة في وجوب امتثال الأمر والنهى. فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخشوع وإخلاص، (**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**) وبالمحافظة على أداء الزكاة (**وَآتُوا الزَّكَاةَ**) بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، تفخيما لشأنهما وتوكيدا لأمرهما.

وقوله تعالى: (**وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**) جملة حالية – إسمية- تفيد أن الإعراض عن الطاعة، وعدم التقيد بالمواثيق التي أقروا بها، (عادة متأصلة فيهم ووصف ثابت لهم، وسجية معروفة منهم).

قال صاحب المنار: قد يتولى الإنسان منصرفا عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شيء معرضا عنه ومهملا له على

طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد ، وأنتم معرضون لازما لا بد منه، وليس تكرارا كما يتوهم).

ويقول الإمام الطاهر: وقوله ﴿**وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً**﴾ إما أن يقدّر: وتحسنون بالوالدين إحسانا. أو وأحسنوا.(أو ما ذكرناه سابقاً) .... **ثُمَّ** ﴿**تَوَلَّيْتُمْ**﴾ **على طريقه الالتفات**- لأن بداية السياق كان(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)- أى: هم- فكان يجب أن تكون(ثم تولوا) - أى: هم-.. ولكنه قال(ثم توليتم)- أى توليتم عن الميثاق ورفضتموه. ﴿**وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ وفى هذا الالتفات ما فيه من التوبيخ والتقريع فى حضورهم

ويقول الإمام الرازى: الْقَوْلُ الرَّابِعُ: قَوْلُ الْفَرَّاءِ إِنَّ مَوْضِعَ «**لَا تَعْبُدُونَ**» عَلَى النَّهْيِ إِلَّا أَنَّهُ جَاءَ عَلَى لَفْظِ الْخَبَرِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **لَا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها**) (الْبَقَرَةِ: ٢٣٣) بِالرَّفْعِ، وَالْمَعْنَى عَلَى النَّهْيِ- ولم يقل(لا تضرْ الوالدة بولدها) على صيغة النهى وتكون ساكنة وليست مرفوعة بخلاف الآية التى معنا التى جاءت مرفوعة وغير مرتبطة بأداة النهى(لا) ولو كانت مجذومة لحذف حرف النون(لا تعبدوا) ولكنه لم يحذف حرف النون وجاءت هكذا على الرفع(لا تعبدون)- وَالَّذِي يُؤَكِّدُ كَوْنَهُ نَهْيًا أُمُورٌ. أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: أَقِيمُوا، وَثَانِيهَا: أَنَّهُ يَنْصُرُهُ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ وَأُبَيٍّ: لَا تَعْبُدُوا. **وَثَالِثُهَا: أَنَّ الْإِخْبَارَ - لا تعبدون - فِي مَعْنَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ آكَدُ وَأَبْلَغُ مِنْ صَرِيحِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ - لاتعبدوا -، لِأَنَّهُ - فى حالة الصيغة المضارعة - لا تعبدون - وليست الأمر - كَأَنَّهُ سُورِعَ إِلَى الِامْتِثَالِ وَالِانْتِهَاءِ فَهُوَ يُخْبِرُ عَنْهُ.(لا تعبدون)**

ويضيف الإمام الطاهر قوله:

وَأَظْهَرَ هُنَا لَفْظَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَعَدَلَ عَنِ الْأُسْلُوبِ السَّابِقِ الْوَاقِعِ فِيهِ التَّعْبِيرُ **بِضَمِيرِ الْخِطَابِ الْمُرَادِ بِهِ سَلَفُ الْمُخَاطَبِينَ**[٩] **وَخَلَفُهُمْ**[١٠] لِوَجْهَيْنِ:

---

[٩] المشار إليهم بقوله(ميثاق بنى إسرائيل)

[١٠] فى قوله:(ثم توليتم).

أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذَا رُجُوعٌ إِلَى مُجَادَلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَوْقِيفِهِمْ عَلَى مَسَاوِيهِمْ فَهُوَ افْتِتَاحٌ ثَان جَرَى عَلَى أُسْلُوبِ الِافْتِتَاحِ الْوَاقِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ (الْبَقَرَة: ٤٠) الْآيَةَ.

ثَانِيهِمَا: أَنَّ مَا سَيُذْكَرُ هُنَا لَمَّا كَانَ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا السَّلَفُ وَالْخَلَفُ وَكَانَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ مِنْهُ إِثْبَاتَ سُوءِ صَنِيعِ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ الْقُرْآنِ(١١) تَعَيَّنَ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ سَلَفِهِمْ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ (**وإذ أخذنا ميثاق (بنى إسرائيل**) لِيَتَأَتَّى تَوْجِيهُ الْخِطَابِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ(١٢) حَتَّى لَا يُظَنَّ أَنَّهُ مِنَ الْخِطَابِ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ أَسْلَافُهُمْ عَلَى وِزَانِ (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**) (الْبَقَرَة: ٤٩) أَوْ عَلَى وِزَانِ (**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ**) (الْبَقَرَة: ٥١) .

وأقول موضحاً لقول الإمام:

إنه استخدم الصيغتين؛ الغائب(بنى إسرائيل) والحاضرين فى زمن النبى محمد(ﷺ) (لا تعبدون...ثم توليتم) فخاطبهم خطاب الحاضر، فأصبح معلوماً أنه يقصد الفريقين- القدامى والحاضرين- ولو لم يفعل ذلك التلوين فى الصيغتين (وقال: ثم تولوا..) لتخيل القارىء أنه يريد السابقين فقط كما هو المعتاد بأن يقرع الخلف بما فعل السلف لرضائهم عما فعلوه كما فى قوله((**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**) (**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ**) (الْبَقَرَة) ولذلك جاء التلوين فى الصيغتين ليثبت إجرام خاص بالحاضرين منهم- فى الصفات المذكورة فى الآية- وليس مجرد رضاهم فقط.

وَقَوْلُهُ: مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أُرِيدَ بِهِ أَسْلَافَهُمْ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ أَعْطَوُا الْمِيثَاقَ لِمُوسَى عَلَى امْتِثَالِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ التَّوْرَاةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ، أَوِ الْمُرَادُ بِلَفْظِ (**بَنِي إِسْرَائِيلَ**) الْمُتَقَدِّمُونَ وَالْمُتَأَخِّرُونَ، وَالْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي (**تَوَلَّيْتُمْ**) خُصُوصُ مَنْ بَعْدَهُمْ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ تَوَلَّوْا (وبذلك يكون القرآن قد برأ الذين كانوا فى عهد

---

(١١) المشار إليهم بقوله: ثم توليتم).

(١٢) (لا تعبدون)- أنتم- للحاضرين من الخلف.

موسى وقت أخذ الميثاق وقال(ثم توليتم) ليخصص هذا الخلف بهذا الفعل (وهو ما سيوضحه الإمام الطاهر فى قوله: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي تَوَلَّيْتُمْ الْمُخَاطَبِينَ زَمَنَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَبَعْضُ مِنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ (متوسط) عصور الإسرائيليين – بعد غياب موسى- فَيَكُونُ ضَمِيرُ الْخِطَابِ(ثم توليتم) تَغْلِيبًا، نُكْتَتُهُ إِظْهَارُ بَرَاءَةِ الَّذِينَ أُخِذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ أَوَّلًا- أيام موسى- مِنْ نَكْثِهِ وَهُوَ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْجَمْعِ وَالْمُرَادُ التَّوْزِيعُ أَيْ تَوَلَّيْتُمْ فَمِنْكُمْ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ لِلْوَالِدَيْنِ وَذِي الْقُرْبَى إِلَخْ وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ الْيَهُودِ فِي عَصْرِ نُزُولِ الْآيَةِ -كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا- وَمِنْكُمْ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَهَذَا لَمْ يُنْقَلْ عَنْ يَهُودَ زَمَنَ النُّزُولِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ بَعْدِ سُلَيْمَانَ – أى بعد جيل الذين أخذ عليهم الميثاق- فَقَدْ كَانَتْ مِنْ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ عَبَدَةُ أَصْنَامٍ وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ فِيهِمْ مِرَارًا كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي سِفْرَيِ الْمُلُوكِ الْأَوَلِ وَالثَّانِي من التَّوْرَاة).

وَقَوْلُهُ: (**وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ**) جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ وَلِكَوْنِهَا (اسْمِيَّةً) أَفَادَتْ أَنَّ الْإِعْرَاضَ وَصْفٌ ثَابِتٌ لَهُمْ وَعَادَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْهُمْ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي «الْكَشَّافِ» .. أَيْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ الْوَصَايَا الَّتِي تَضَمَّنَتْ ذَلِكَ الْمِيثَاقَ، أَيْ **تَوَلَّيْتُمْ عَنْ تَعَمُّدٍ وَجُرْأَةٍ وَقِلَّةِ اكْتِرَاثٍ بِالْوَصَايَا** وَتَرْكًا لِلتَّدَبُّرِ فِيهَا وَالْعَمَلِ بِهَا.

****

﴿ **وَالَّذِينَ (يُمَسِّكُونَ) بِالْكِتَابِ (وَأَقَامُوا) الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)) ماضى- مضارع.**

والمراد بالكتاب التوراة أو القرآن أو جنس الكتب السماوية عموما.

وخص الصلاة بالذكر - (**وَأَقَامُوا) الصَّلَاةَ**- هكذا وبصيغة الماضى- مع دخولها فيما قبلها إظهارا لمزيتها لكونها عماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر.

ويقول الإمام أبو السعود: {وأقاموا الصلاة} ولعل التغيير في المشهور للدلالة على أن التمسّك بالكتاب أمرٌ مستمرٌ في جميع الأزمنة – لعله يقصد أمراً متجدداً ومتغيراً بتجدد الأحداث وتغيرها- بخلاف إقامةِ الصلاة فإنها مختصةٌ بأوقاتها- الثابتة-، وتخصيصُها بالذِّكرِ من بين سائر العبادات لإنافتها عليها

وهناك رأى آخر يرى أنه لعل المقصود- فى هذا السياق – بإقامة الصلاة هى الإيمان بمحمد ﷺ وهذا أمر يستحق أن يكون بالصيغة التوكيدية والدوامية فجاءت على صيغة الماضى، وكما يقول الإمام الطاهر: **فَكُنِّيَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمد ﷺ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ شِعَارُ دِينِ الْإِسْلَامِ، حَتَّى سُمِّيَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ أَهْلَ الْقِبْلَةِ**، فَالْمُرَادُ مِنْ هَؤُلَاءِ(الذين يمسكون بالكتاب) هُمْ مَنْ آمَنَ مِنَ الْيَهُودِ بِعِيسَى فِي الْجُمْلَةِ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعُوا النَّصْرَانِيَّةَ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوهَا مُبَدَّلَةً مُحَرَّفَةً فَبَقُوا فِي انْتِظَارِ الرَّسُولِ الْمُخَلِّصِ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ، ثُمَّ آمنُوا بِمُحَمد ﷺ حِينَ بُعِثَ: مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ.(فالتمسك بالكتاب كان متجدداً من موسى وعيسى ثم محمد، أما إقامة الصلاة- إن كانت شعار أمة محمد ﷺ فهى ثابتة ومستمرة على ذلك، فجاء (يمسكون)- على صيغة المضارع- وجاء إقامة الصلاة على الماضى لذلك السبب.

****

وأقول مثل ما قلناه فى قوله تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) ﴾

ونلاحظ دائماً ورود التلاوة بصيغة المضارع التى تفيد التجدد الذى هو حال التلاوة كقوله تعالى: (**وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ .. (١١٣)**) البقرة. (**لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)**) .. (.. **يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٧٢)**).. وفى الآخرة أيضاً يحدثهم عن التلاوة فى ماضى الدنيا (**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ**

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)).

****

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ (يَكْتُمُونَ) (مَا أَنْزَلْنَا) مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ (تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا) فَأُولَئِكَ (أَتُوبُ) عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)** ﴾ البقرة.

ونلاحظ هنا التفات من الجمع (**مَا أَنْزَلْنَا**) إلى المفرد ((**أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا**) وهذا- كما ذكرنا كثيراً- عادة القرآن الكريم حينما يستخدم أسلوب الجمع للتعظيم والتفخيم (**مَا أَنْزَلْنَا**) ثم يعود لصورة المفرد لإثبات التوحيد والإشارة على أن هذا الجمع ليس لتعدد الآلهة والشركاء فى الألوهية- كما يتوهم المتوهمون- ولكنه كان للتعظيم لهذا الواحد الأحد سبحانه.

أما النوع الثانى من الالتفات الذى نقف عليه الآن فهو التغير من المضارع الذى يفيد التجدد إلى الماضى الذى يفيد الثبات وهو هنا فى قوله تعالى(**إِلَّا الَّذِينَ** (تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا) وهذا يفيد الحث على التوبة والإصلاح والتبيين وأن يكون منهجاً ثابتاً ودائماً ومتحققاً.

**** ﴿ وَلَقَدْ (آتَيْنَا) لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ (لِلَّهِ) وَمَنْ (يَشْكُرْ) فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ (كَفَرَ) فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ لقمان.**

فهنا نوعان من الالتفات: **الأول** فى صيغة الخطاب من الله عن نفسه بصيغة الجمع **(آتَيْنَا)** وقد حدث تحول إلى صيغة الغيبة والإفراد(أَنِ اشْكُرْ (لِلَّهِ)، ففيها غيبة وإظهار بعد إضمار.

أما الالتفات الثانى فهو فى صيغة الفعل من المضارع (يشكر) إلى الماضى (كفر) - ولم يقل(ومن يكفر).

ويقول الإمام الرازى: الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَ فِي الشُّكْرِ وَمَنْ يَشْكُرْ بِصِيغَةِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَفِي الْكُفْرَانِ: وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ، وَإِنْ كَانَ الشَّرْطُ يَجْعَلُ الْمَاضِيَ وَالْمُسْتَقْبَلَ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ: مَنْ دَخَلَ دَارِي فَهُوَ حُرٌّ، وَمَنْ يَدْخُلْ دَارِي فَهُوَ حُرٌّ، فَنَقُولُ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنًى وَإِرْشَادٌ إِلَى أَمْرٍ، **وَهُوَ أَنَّ الشُّكْرَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَرَّرَ فِي كُلِّ وَقْتٍ لِتَكَرُّرِ النِّعْمَةِ، فَمَنْ شَكَرَ يَنْبَغِي أَنْ يُكَرِّرَ، وَالْكُفْرُ يَنْبَغِي أَنْ يَنْقَطِعَ** فَمَنْ كَفَرَ يَنْبَغِي أَنْ يَتْرُكَ الْكُفْرَانَ، **وَلِأَنَّ الشُّكْرَ مِنَ الشَّاكِرِ لَا يَقَعُ بِكَمَالِهِ**، بَلْ أَبَدًا يَكُونُ مِنْهُ شَيْءٌ فِي الْعَدَمِ يُرِيدُ الشَّاكِرُ إِدْخَالَهُ فِي الْوُجُودِ، كَمَا **قَالَ: رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ** [النَّمْلِ: ١٩] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوها** [النحل: ١٨] **فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِصِيغَةِ الْمُسْتَقْبَلِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ بِكَمَالِهِ لَمْ يُوجَدْ** (فأتى به بصيغة المضارع) وَأَمَّا الْكُفْرَانُ فَكُلُّ جُزْءٍ يَقَعُ مِنْهُ تَامٌّ، فَقَالَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَالَ تَعَالَى هُنَا: وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ بِتَقْدِيمِ الشُّكْرِ عَلَى الْكُفْرَانِ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الرُّومَ: **مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** [الروم: ٤٤] فَنَقُولُ هُنَاكَ كَانَ الذِّكْرُ لِلتَّرْهِيبِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ قَبْلُ: **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** [الرُّوم: ٤٣] وَهَاهُنَا الذِّكْرُ لِلتَّرْغِيبِ، لِأَنَّ وَعْظَ الْأَبِ لِلِابْنِ يَكُونُ بِطَرِيقِ اللُّطْفِ وَالْوَعْدِ، وَقَوْلُهُ: وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً يُحَقِّقُ مَا ذَكَرْنَا أَوَّلًا، لِأَنَّ الْمَذْكُورَ فِي سُورَةِ الرُّومِ لَمَّا كَانَ بَعْدَ الْيَوْمِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ تَكُونُ الْأَعْمَالُ قَدْ سَبَقَتْ فَقَالَ بِلَفْظِ الْمَاضِي وَمَنْ عَمِلَ وَهَاهُنَا لَمَّا كَانَ الْمَذْكُورُ فِي الِابْتِدَاءِ قَالَ وَمَنْ يَشْكُرْ بِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ

ويقول الإمام الألوسى في اختيار صيغة المضي في هذا الشق: قيل: إشارة إلى قبح الكفران وأنه لا ينبغي إلا أن يعد في خبر كان، وقيل:إشارة إلى أنه كثير متحقق بخلاف الشكر وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (سبأ: ١٣)

ويؤكد على ذلك صاحب تفسير الوسيط بقوله: وعبر- سبحانه- في جانب الشكر بالفعل المضارع، للإشارة إلى أن من شأن الشاكرين أنهم دائما

على تذكر لنعم الله- تعالى-، وإذا ما غفلوا عن ذلك لفترة من الوقت، عادوا إلى طاعته- سبحانه- وشكره.

وعبر في جانب الكفر بالفعل الماضي، للإشعار بأنه لا يصح ولا ينبغي من أى عاقل، بل كل عاقل عليه أن يهجر ذلك هجرا تاماً، وأن يجعله في خبر كان.

مع ملاحظة أن الطلب والأمر يستدعى حضور المأمور فى الصورة.. أما الوصف وإثبات الصفات لله تعالى أو الذوات والأشخاص فيستلزم الغيبة فيكون بلفظ الغيبة (إنه هو السميع...هو...)، إضافة إلى أن الغيبة فيها شعور بالرهبة والتعظيم أيضاً، وكما ذكرنا أن المدح والوصف فى الغيبة يكون أكمل من الحضور، وأن العبادة وتقريرها أو الدعاء أيضاً يستلزم الحضور ، كما ذكرنا ذلك عند قوله تعالى (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)**)

والذى يجب أن ننبه له أن السياق هو الذى يحدد مدلول الصيغة فإذا كان السياق يحض على شكر النعمة فهنا يأتى بفعل الشكر على صيغة المضارع الذى يفيد التجدد لفعل الشكر - وخاصة أنه فى مثالنا هذا قد ورد فى السياق قبلها (الأمر) بالشكر(أن اشكر لله). وعكس ذلك يكون مع الكفر، حيث قد ورد فى سياقها (النهى) عن الشرك (يا بنى لا تشرك بالله) والنهى عن هذا الفعل- الشرك- يتطلب تغييبه عن الوجود وعدم استحضاره فجاء به على صيغة الماضى التى تجعل الفعل فى خبر كان.

أما السياقات الأخرى فى القرآن الكريم التى أوردت صيغة الكفر بصيغة المضارع فذلك لأنها تقوم بوصف حالهم كما يلى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ (يَكْفُرُونَ) بِآيَاتِ اللَّهِ (وَيَقْتُلُونَ) النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ (وَيَقْتُلُونَ) الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)** ﴾ آل عمران... وقد جاءت

بصيغة الماضى هكذا (إِنَّ الَّذِينَ (كَفَرُوا) (وَصَدُّوا) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)) فذلك أنها لاتحكى لنا حالاً متجددة بل لأنها تتحدث عن هؤلاء الذين اتخذوا المسيح إلهاً من دون الله وهؤلاء الذين قالوا أنهم قد صلبوا المسيح فى السياق السابق لها فى قوله تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ وهو حدث قد مضى ويستحقوا أن يدمغوا به بالصفة الدائمة التى ماتوا عليها ولا يتحدث عن وجوده واستمراره حال تنزل القرآن، فجاءت الصيغ بالماضى. بخلاف السياقات التالية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) ﴾ النساء.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) ﴾

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ النساء.

وأحياناً يتحول السياق إلى صيغة الأمر بشىء معين يريد التوكيد عليه والإلزام الشديد به (بدون فعل القول)كما فى الأمثلة التالية:

﴿ وَإِذْ (نَتَقْنَا) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ (خُذُوا) مَا آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾

والأمر كما يقول ابن الأثير: فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر- **خُذُوا مَا آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا** – للعناية بتوكيده فى نفوسهم.

وهو رأى جليل نراه متكرراً فى مثل تلك الحالات ويكرره باقى الأئمة الأعلام ولكن الإمام الطاهر يقول: وَجُمْلَةُ: **خُذُوا مَا آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ.** وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُ نَظِيرِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ... **وأرى أن قول الإمام الطاهر(مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ) - أى : (قلنا) خذوا ما آتيناكم..-** لم يستسغه الإمام الطاهر فى أماكن أخرى عشناها ولذلك أرى أنه من أسلوب الالتفات الذى عشنا له أمثلة كثيرة فى بحثنا هذا وارتضاه هو أيضاً.

****

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) ﴾ فالالتفات من الغيبة -(**أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ**)- (هم)، إلى الحضور والمواجهة (أفلا تعقلون)

يقول عنه الإمام الطاهر وغيره: وَقد قريء بِتَاءِ الْخِطَابِ(**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**) ، عَلَى الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ. لِيَكُونَ أوقع فِي توجبه التَّوْبِيخِ إِلَيْهِمْ مُوَاجَهَةً.

ويضيف صاحب تفسير المنار: فَقِيلَ: إِنَّ الْخِطَابَ بِهِ لِلْيَهُودِ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ بِطَرِيقِ الِالْتِفَاتِ، وَقِيلَ: بَلْ هُوَ خِطَابٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ لِتَعْتَبِرَ بِحَالِهِمْ، وَتَجْتَنِبَ مَا كَانَ سَبَبًا لِسُوءِ مَآلِهِمْ، مِنَ الْإِصْرَار عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ (يَعْقِلُونَ) عَلَى الْأَصْلِ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْغَائِبِينَ، وَلَوْ صَحَّ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ وَحْدَهَا فِي الْمَدِينَةِ لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْخِطَابَ مُوَجَّهٌ إِلَى

الْيَهُودِ الْمُجَاورِينَ لَهَا ؛ لِأَنَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ الْخَلْفِ، الَّذِي نَزَلَ فِيهِ هَذَا الْوَصْفُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

** ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ ولم يقل (ولنبشرن الصابرين) وذلك لتوكيد الرغبة فى الصبر والالتزام بهذا الالتفات إليهم بصيغة الطلب المباشر منه.

**﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ (أَقِيمُوا) الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ (تُحْشَرُونَ) (٧٢) ﴾ وكان يجب أن تكون (أمرنا لنسلم.. ولنقيم الصلاة ونتقيه) وهو الذى إليه (نُحْشَر)... ولكنه عدل عن ذلك إلى صيغة الأمر (أقيموا واتقوه) لتعطى معنى الفرض والإلزام، أما (تُحْشَرُونَ) فهى فى صيغة المضارع لاستحضار صورة الحشر التى تحث على الالتزام بصورة الفعل

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ (تُطِيعُوا) الَّذِينَ كَفَرُوا (يَرُدُّوكُمْ) عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ (اللَّهُ) - بل أنا مولاكم- (مَوْلَاكُمْ) وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي – كان يجب أن تكون سألقى- فِي قُلُوبِ (الَّذِينَ كَفَرُوا) الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا (وَمَأْوَاهُمُ) النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾ آل عمران.

فالالتفات إلى صيغة الجمع والتكلم فى قوله (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) لتعظيم هذا الأمر.

**ومثلها : ﴿ (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ) إِلَى الْمَلَائِكَةِ (أَنِّي) مَعَكُمْ (فَثَبِّتُوا) الَّذِينَ آمَنُوا (سَأُلْقِي) -سيلقى- فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ (فَاضْرِبُوا) فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)) ﴾ الأنفال.. وكان يمكن أن يكون ((إِذْ يُوحِي رَبُّكَ) إِلَى الْمَلَائِكَةِ (أنه) مَعَهم)، ناظراً إلى قوله ((إِذْ يُوحِي رَبُّكَ) – ولكنه عدل إلى الصيغة القرآنية ملتفتاً إليهم (أنى معكم) لإظهار أهمية الأمر وقربه سبحانه

منهم، مراعاة لذكر الوحى -لتثبيت الملائكة-الذى هو إعلام بقرب من الموحى إليه.

نكتة بلاغية

والنكتة البلاغية الهامة أنه قال هنا- **فى الأنفال** -(**سألقى**) وورد فى السياق السابق- **آل عمران**- (**سنلقى**). والسؤال هو لماذا لم يأت هنا بقوله(سنلقى) على صورة التعظيم للأمر كما فى المثال السابق؟

والإجابة تكون بتتبع السياق حيث إنه فى آية الأنفال – **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)** ...فكانت الملائكة هنا تشترك فى الفعل، فلو قال سنلقى فحينئذٍ ربما ينصرف الذهن إلى اشتراك الملائكة أيضاً فى عملية الإلقاء للرعب مع الله، فأفرد الإلقاء هنا وقال (سألقى) دفعاً لهذه الشبهة. ،

بخلاف السياق فى آل عمران فكان مع البشر دون ذكر للملائكة.. (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)**) فهنا لاتوجد هذه الشبهة التى ذكرناها.حيث لم يرد ذكر الملائكة في السياق ، فجاءت (سنلقي) بصيغة الجمع لتعظيم ذاته سبحانه بلا مانع.

****

﴿ **وَمَا كَانَ (صَلَاتُهُمْ) عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)** ﴾.. هكذا (غيبة)(صلاتهم) ثم توجه بالخطاب إليهم (فذوقوا) لبيان شدة الغضب عليهم بعد التشنيع على أعمالهم بصيغة الغيبة(وما كان صلاتهم)

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ (نُداوِلُها) بَيْنَ النَّاسِ (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ) الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ (وَاللَّهُ) لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾.
(**نداولها**- نحن-) (**وليعلم الله**- هو-) هكذا التفات من الجمع والحضور إلى الغيبة والإفراد.

ويقول الإمام الرازى: تِلْكَ الْأَيَّامُ إِشَارَةٌ إِلَى **جَمِيعِ أَيَّامِ الْوَقَائِعِ الْعَجِيبَةِ**، فَبَيَّنَ أَنَّهَا دُوَلٌ تَكُونُ عَلَى الرَّجُلِ حِينًا وَلَهُ حِينًا وَالْحَرْبُ سِجَالٌ... وَذَلِكَ **لِأَنَّ نُصْرَةَ اللَّهِ** مَنْصِبٌ شَرِيفٌ وَإِعْزَازٌ عَظِيمٌ.

ويرى الإمام الألوسى وكذلك أبو السعود أن: صيغة المضارع (**نداولها**) الدالة على التجدد والاستمرار للإعلام بأن تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة إلى أن يأتي أمر الله تعالى {وَتِلْكَ الايام} إشارةٌ إلى الأيام الجارية **فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا إلى الأيامِ المعهودةِ خاصةً من يوم بدرٍ ويومِ أحدٍ** بل هي داخلةٌ فيها دخولاً أولياً والمرادُ بها أوقاتُ الظَفَرِ والغَلَبةِ... وصيغةُ المضارعِ(نداولها) الدالةُ على التجدد والاستمرارِ للإيذانِ بأن تلك المداولةَ **سنةٌ مسلوكةٌ** فيما بين الأممِ قاطبةً سابقتِها ولاحقتِها وفيه ضربٌ من التسلية

والالتفاتُ إلى الغَيبة (**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ**) بإسناده إلى اسم الذاتِ المستجمِعِ للصفات **لتربية المهابةِ** والإشعار بأن صدورَ كلٍّ واحدٍ مما ذكر بصدد التعليلِ من أفعاله تعالى باعتبار منشإٍ معيَّنٍ من صفاته تعالى مغايرٌ لمنشإ الآخَر)انتهى.

وأقول موضحاً: فلفظُ الجلالَة (الله) هو اسم جامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى ولكل اسم دلالة على الفعل الخاص بهذه الصفة، فحين نذكر لفظ الجلالة (الله) يتذكر الكافر والمسلم هذه المعانى، وهو ما يجب أن نتذكره دائماً حينما يلتفت السياق إلى هذا اللفظ الشريف.

ويقول صاحب المنار: قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: عَبَّرَ بِالْمُضَارِعِ(إن يمسسكم) بَدَلَ الْمَاضِي فَلَمْ يَقُلْ " إِنْ مَسَّكُمْ قَرْحٌ " لِيُحْضِرَ صُورَةَ الْمَسِّ فِي أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ (لعله يقصد استحضار ماجرى فى بدر وأحد) .

ويضيف الإمام الطاهر تفصيلاً آخر بقوله: وَالتَّعْبِيرُ عَمَّا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ فِي يَمْسَسْكُمْ (لِقُرْبِهِ مِنْ زَمَنِ الْحَالِ)- أى ما حدث فى أحد-، وَعَمَّا أَصَابَ الْمُشْرِكِينَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي (فقد مَسّ) لِبُعْدِهِ لِأَنَّهُ حَصَلَ يَوْمَ بَدْرٍ.

ومن لطائف الالتفات مانراه فى الأمثلة التالية:

﴿ **بَلْ نَقْذِفُ**- نحن- **بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** (١٨) (**وَلَهُ**) **مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ** (١٩) ﴾ الأنبياء. ولم يقل(ولنا من فى السموات)، وقيل إن إسناد (قذف الحق على الباطل فيدمغه) يحتاج إلى قوة فجاء على صيغة الجمع والحضور(نقذف). ولاحظ- أيها القارىء- هذه المفردات المشيرة لذلك أيضاً حيث إنه قد اسْتَعَارَ لِذَلِكَ الْقَذْفَ وَالدَّمْغَ تَصْوِيرًا لِإِبْطَالِهِ فَجَعَلَهُ كَأَنَّهُ جِرْمٌ صُلْبٌ كَالصَّخْرَةِ مَثَلًا قَذَفَ بِهِ عَلَى جِرْمٍ رَخْوٍ فَدَمَغَهُ.

أما العدول إلى لفظ الغيبة فى ذكر ملكه للسموات والأرض((**وَلَهُ**) **مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ** فذلك لأن فى التغييب معنى التعظيم والإجلال والخشية، وهو معنى لا يحتاج إلى إظهار معلوميته.

****

﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا** (**رَبَّكُمْ**) **ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** (**إِنَّ رَبِّي**) **رَحِيمٌ وَدُودٌ** (٩٠) ﴾ هود.

وكان يجب أن يكون ((**وَاسْتَغْفِرُوا** (**رَبَّكُمْ**) **ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** (إنه) **رَحِيمٌ وَدُودٌ**، ولكنه قال (**إِنَّ رَبِّي**) لأنهم اتخذوا لهم أرباباً كثيرة غير الله فكان من الاحتراس أن يقول(**إِنَّ رَبِّي**) إبعاداً لهذا الظن، إضافة إلى ما يستشعره القارىء من ملفت القرب من ربه ومدلول صفة الربوبية وهو ينطق بهذه الصيغة (**إِنَّ رَبِّي**) والتى تتناسب مع مابعدها فى قوله(رَحِيمٌ وَدُودٌ)..

ومثل تلك المعانى نجدها فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا (اللَّهَ) مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ (إِنَّ رَبِّي) قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) ﴾ هود.

وسوف لا نقف على سبب الالتفات من الغيبة(الله) إلى الحضور (إن ربى) ولكن نقف على السؤال: لماذا لم يقل (إن ربكم قريب..)؟

الإجابة: إن ذلك لدفع التوهم بأنه يقصد ربهم الذى اتخذوه من دون الله، فقال (**إن ربى**).

****

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا (قِيلَ لَهُمُ) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ (آبَاؤُهُمْ) لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾.

يقول الإمام الزمخشرى: وعدل بالخطاب عنهم – من مخاطبتهم (**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ**) .. **إلى قوله** (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**) على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم،– أى يشنع عليهم– لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون.

ومثلها قوله:

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي (كُنْتُمْ) تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ (عَلَى أَفْوَاهِهِمْ) وَتُكَلِّمُنَا (أَيْدِيهِمْ) وَتَشْهَدُ (أَرْجُلُهُمْ) بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ يس. التفت عنهم لصيغة الغيبة إهانة لهم وتشهيراً بهم وحكاية حالهم لغيرهم.

****

﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ**-أنا- **عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ**- هو- **أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)** ﴾ آل عمران.

*في سورة آل عمران عندما تحدث عن الكفار ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ((فَأُعَذِّبُهُمْ)) عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)** ﴾ **قال (فأعذبهم) حاضر**.. وعندما تحدث عن المؤمنين **(وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ((فَيُوَفِّيهِمْ)) أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧))** قال (فيوفّيهم) ولم يقل فأوفيهم.

العمل كله لله تعالى فلماذا قال في الأولى فأعذبهم ثم فيوفّيهم؟

ويرى الإمام أبو السعود رأياً لطيفاً وهو: ولعل الالتفات إلى الغَيبة- (**فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ**)- للإيذان بما بين مصدري التعذيبِ(للكافرين) والإثابةِ (للمؤمنين) من الاختلاف من حيث الجلال- فى التعذيب- والجمال- فى الإثابة- وقرئ فنوفيهم جرياً على سَنن العظمةِ والكبرياء.

ويقول الإمام الألوسى: وعلق التوفية على الإيمان والعمل الصالح ولم يعلق العذاب بسوى الكفر تنبيها على درجة الكمال في الإيمان، ودعاء إليها وإيذانا ًبعظم قبح الكفر، وقرأ حفص، ورويس عن يعقوب- فيوفيهم- بياء الغيبة، وزاد رويس ضم الهاء، وقرأ الباقون بالنون جريا على سنن العظمة والكبرياء، ولعل وجه الالتفات إلى الغيبة على القراءة الأولى الإيذان بأن توفية الأجر مما لا يقتضي لها نصب نفس(أى حضور نفس) – فأتى بلفظ الغيبة-لأنها من آثار الرحمة الواسعة ، ولا كذلك العذاب- فلابد من حضور عمله معه-.

❖ ❖وبعد هذه الوقفات القيمة أترك الدكتور حسام النعيمى ليعرض علينا رأياً أراه ألطف من سابقه -وهو نوع من إعجاز تنوع الفهم فى النظم القرآنى - يقول فيه:

الآيات التي في سورة آل عمران في هذا الموضع فيها نوع من التنويع والتلوين بين الإفراد والجمع وبين الحاضر والغائب لكن لكل موضعه. ننظر في الآيات يبدأ بقوله تعالى ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)** ﴾ لمّا يقول: (إذ قال) قال للغائب لكن حينما نسمع (**إذ قال الله**) الله عز وجل حاضر في القلب دائماً فهو حاضر في قلبك عندما تقول الله الحضور دائم فصار عندك: **قال للغائب والله حاضر فلوّنت العبادة بين غائب وحاضر.**

(**يا عيسى إني متوفيك**) (إنّي) هنا الإفراد لأن هذا أمر – توفية عيسى عليه السلام حياً- لا يُنسب إلا لله عز وجل.(وجاعل الذين اتّبعوك) [١٣] (**ثُمَّ إِلَيَّ** (**مَرْجِعُكُمْ**) **فَأَحْكُمُ** (**بَيْنَكُمْ**) **فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ** (**تَخْتَلِفُونَ**)) الذي هو خلاف أمته. (فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا (فَأُعَذِّبُهُمْ) عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)) لاحظ الحضور المتكلم الحاضر (فَأُعَذِّبُهُمْ) لماذا؟ لأن العذاب دنيا وآخرة.

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ((**فَيُوَفِّيهِمْ**)) أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)) أولاً: الأجور متى تُدفع؟ بعد العمل، فينبغي أن ينتهي العمل حتى تُدفع الأجور، فإذن الأمر (فيوفيهم) غائب ؛ سوف ينتهي العمل وسوف يوفّون الأجور، هذه واحدة.. (**فيوفيهم**) بالمضارع وهو الغيبة ، هنا تتناسب مع غيبة الأجور التي ستعطى لهم ، (**فأعذبهم**) في الدنيا يعذبون، (**فَأَحْكُمُ** (**بَيْنَكُمْ**)) عند رجوعكم أحكم مباشرة، (**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ .. فأعذبهم**). ((**وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ((**فَيُوَفِّيهِمْ**)) **أُجُورَهُمْ**) صار بُعد، جاء ابتعاد في الكلام عن الكلام الأول. أنت أمام عبارة انتهت وبدأت عبارة أخرى. لم يقل

---

[١٣] (نشدد على كلمة (اتبعوك) حتى لا تُفهم خطأ: الذين اتبعوك اي الذين اتبعوا عيسى بمبادئه التي جاء فيها وليست المحرّفة فالكلام عن الذين اتبعوه قبل التحريف.

(والذين آمنوا) وإنما العبارة تبدأ (**وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ((**فَيُوَفِّيهِمْ**)) **أُجُورَهُمْ**) صار هناك مسافة مبتعدة ابتعدت فقال (**فَيُوَفِّيهِمْ**) هذه واحدة.

والمسألة الثانية لما استعمل الغيبة لأن عندنا في نهاية الآية قاعدة عامة، القاعدة العامة جاءت بالغيبة (والله لا يحب الظالمين) هذه قاعدة عامة[١٤] . لم يقل أنا لا أحب الظالمين إنما يعني هو لا يحب الظالمين فكأن يوفيهم كانت تمهيداً لمجيء هذه القاعدة العامة (فيوفيهم أجورهم). (والله لا يحب الظالمين) غيب ، وهي قاعدة عامة، فمهّد لها بالعبارة التي فيها الغيب (فيوفيهم أجورهم) (والله لا يحب الظالمين) بينهما مجانسة لا شك، لكن قلنا هناك تلوين في العبارة بين الحضور والغيبة: حضور وغيبة، حضور وغيبة، لكن في الوقت نفسه يمكن أن تكون (فنوفّيهم أجورهم) وعند ذلك تكون ممهدة لقوله (**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ** (٥٨)). هناك روايتانَ (فيوفيهم) و (فنوفيهم). (فيوفيهم) ترتبط بالقاعدة العامة(والله لا يحب الظالمين) ، (نوفيهم) تنسجم مع ما قبلها من المتحدث(**ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ**) [١٥]

(**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٥٩)) رجع إلى الإفراد. لاحظ الغيبة والحضور والتعظيم وعدم التعظيم كل في موضعه لأن هنا (خلقه) الخلق هنا إفراد لعيسى أو لآدم. هذا التنويع نقول حقيقة التنويع بوصفه تنويعاً في الأصل هو نوع من إراحة القراءة يعني هذا التلوين يرتاح فيه القارئ : مرة مفرد ومرة جمع، مرة يتحدث عن نفسه ومرة غائب، وفي كلٍّ يراد به واحد، هذا التلوين ((هو ما نسميه بالتفات ووظيفته)) ونجد مع هذه الأزمة نجد أن كل كلمة جاءت في موضعها.

---

(١٤)يقصد ما كررناه دائماً من أن صفاته سبحانه تأتي بصيغة الغيبة ليترتب عليها الوصف مع تربية المهابة

(١٥) لكن صار المعظم نفسه (نحن نصنع كذا وهو واحد لتعظيم الله تعالى) ومهّدت لــ (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) صار فيه تعظيم.

(رَبَّنَا (وَآتِنَا) (مَا وَعَدْتَنَا) عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (إِنَّكَ) لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ (لَهُمْ) رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ (مِنْكُمْ) مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى .. (١٩٥))آل عمران. فمن (لهم) إلى(منكم) إقبال على الداعى وتشريف له، وعمل عامل منكم للإشعار بأن مدار إجابة الدعاء هو الأعمال.

****

﴿ **قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ (فَعَلَيَّ إِجْرَامِي) وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا (تُجْرِمُونَ) (٣٥)** ﴾ هود . ولم يقل : وَأَنَا بَرِيءٌ من إجرامكم . اسم فعل.

وفيها يقول الإمام الطاهر: وَأَيْضًا قَوْلُهُ: قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ شَاكًّا، إِلَّا أَنَّهُ قَوْلٌ يُقَالُ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَار عِنْدَ الْيَأْسِ مِنَ القبول.

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَوْجِيهٌ بَدِيعٌ وَهُوَ إِفَادَةُ تَبْرِئَةِ نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَفْتَرِيَ الْقُرْآنَ فَإِنَّ افْتِرَاءَ الْقُرْآن دَعْوَى بَاطِلَةً ادَّعَوْهَا عَلَيْهِ فَهِيَ إِجْرَامٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْ قَوْلِكُمُ الَّذِي تُجْرِمُونَهُ عليَّ بَاطِلا.

قال: **مِمَّا (تُجْرِمُونَ)** ولم يقل : من إجرامكم ، لأنه يريد أن يثبت لهم تجدد إجرامهم ولا يريد أن يوصمهم بصفة الإجرام المستمرة فيهم طبعاً وخلقاً لعدم إحراجهم وتجريحهم، بل إنه وضع صفة الإجرام لنفسه على صفة التأصيل والدوام إن افترى على الله بالجملة الإسمية، فتلطف فى محاورتهم لاستمالة قلوبهم- وهو ما يسمى بأسلوب الانصاف فى المحاورة

****

ومثلها قوله تعالى فى سورة سبأ ﴿ **قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ **سبأ**. فنسب لنفسه الإجرام- فقال: **عَمَّا أَجْرَمْنَا** -وقال عنهم (**عَمَّا تَعْمَلُونَ**) ولم يقل(عَمَّا تجرمون)-كما يقول الإمام الرازى: أَضَافَ الْإِجْرَامَ إِلَى النَّفْسِ وَقَالَ فِي حَقِّهِمْ: **وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**، ذَكَرَ بِلَفْظِ الْعَمَلِ لِئَلَّا يَحْصُلَ الإغضاب المانع من الفهم.. وكما يقول الإمام أبو السعود: وهذا أبلغُ في الإنصافِ وأبعدُ من الجَدَلِ والاعتسافِ..

وأضاف الإمام الطاهر كلاماً ماتعاً فى قوله: وَإِسْنَادُ الْإِجْرَامِ إِلَى جَانِبِ الْمُتَكَلِّمِ وَمَنْ مَعَهُ **مَبْنِيٌّ عَلَى زَعْمِ الْمُخَاطَبِينَ** أى على زعم كفار مكة فى المؤمنين بأنهم مجرمون، فأخذ بزعمهم هم تلطفاً بهم، قَالَ تَعَالَى: **وَإذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّون** ، كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُؤَنِّبُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ خَاطِئُونَ فِي تَجَنُّبِ عِبَادَةِ أَصْنَامِ قَوْمِهِمْ.

وَهَذِهِ نُكْتَةُ صَوْغِهِ فِي صِيغَةِ الْمَاضِي(فقال: عما **أجرمنا**) لِأَنَّهُ مُتَحَقِّقٌ عَلَى زَعْمِ الْمُشْرِكِينَ. وَصِيغَ مَا يَعْمَلُ الْمُشْرِكُونَ فِي صِيغَةِ الْمُضَارِعِ –(**عَمَّا تَعْمَلُونَ**)– لِأَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ مِنْهُمْ عَمَلًا، تَعْرِيضًا بِأَنَّهُمْ يَأْتُونَ عَمَلًا غَيْرَ مَا عَمِلُوهُ، أَيْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ بَعْدَ كُفْرِهِمْ.(أى ينتظر المؤمنون أن يقطع الكافرون جرمهم و(يعملون) عمل أهل الإيمان ويؤمنون– على باب الاستبشار والتمنى –، ولذلك لم ينسب لهم صفة الإجرام ولا الدوام على هذا العمل السىء– الذى يأتى من صيغة الماضى– فاستخدم صيغة المضارع وقال(**وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)، إضافة إلى أسلوب الإنصاف الذى يُقَرِّب ولا يُبَعِّد ولا يظهر المتكلم بمظهر المتعالى عليهم والمهين لهم.

وكما يقول الإمام الألوسى: إنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضى الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التى لاتدل على ذلك) وكما يقول الإمام الطاهر مكملاً: **وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْمُشَارَكَةِ وَالْمُوَادَعَةِ** لِيَخْلُوَا بِأَنْفُسِهِمْ فَيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ وَلَا يُلْهِيَهُمْ جِدَالُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اسْتِعْرَاضِ ومحاسبة أنفسهم. وَفِيه زِيَادَة إنصاف إِذْ فرض الْمُؤْمِنُونَ الإجرام فِي جَانب أَنْفُسِهِمْ وَأَسْنَدُوا الْعَمَلَ عَلَى إِطْلَاقِهِ فِي جَانِبِ الْمُخَاطَبِينَ لِأَنَّ النَّظَرَ وَالتَّدَبُّرَ بَعْدَ ذَلِكَ يَكْشِفُ عَنْ كُنْهِ كِلَا الْعَمَلَيْنِ.(وأقول: إن الواثق من نفسه يقول مثل ذلك، فهو يقول لهم : أفترض أنى مجرم وأنتم على صواب، أو أنا كامل الإجرام وأنتم أقل منى إجراماً ونحن نبحث عن الحق، فتعالوا نناقش القضية لنرى أين الحق بعيداً عن التعصب وعن الجدال،

وهو كما قال الإمام الرازى: ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ إِلَى الْمُنَاظَرَاتِ الْجَارِيَةِ فِي الْعُلُومِ وَغَيْرِهَا وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحَدَ الْمُتَنَاظِرَيْنِ إذَا قَالَ لِلْآخَرِ هَذَا الَّذِي تَقُولُهُ خَطَأٌ وَأَنْتَ فِيهِ مُخْطِئٌ يُغْضِبُهُ، وَعِنْدَ الْغَضَبِ لَا يَبْقَى سَدَادُ الْفِكْرِ، وَعِنْدَ اخْتِلَالِهِ لَا مَطْمَعَ فِي الْفَهْمِ فَيَفُوتُ الْغَرَضُ، وَأَمَّا إذَا قَالَ لَهُ بِأَنَّ أَحَدَنَا لَا يَشُكُّ فِي أَنَّهُ مُخْطِئٌ وَالتَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ قَبِيحٌ وَالرُّجُوعُ إلَى الْحَقِّ أَحْسَنُ الْأَخْلَاق فَنَجْتَهِدُ وَنُبْصِرُ أَيُّنَا عَلَى الْخَطَأِ لِيَحْتَرِزَ فَإِنَّهُ يَجْتَهِدُ ذَلِكَ الْخَصْمُ فِي النَّظَرِ وَيَتْرُكُ التَّعَصُّبَ، وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ نَقْصًا فِي الْمَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ أَوْهَمَ بِأَنَّهُ فِي قَوْلِهِ شَاكٌّ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى** .. مَعَ أَنَّهُ لَا يَشُكُّ فِي أَنَّهُ هُوَ الْهَادِي وَهُوَ الْمُهْتَدِي وَهُمُ الضَّالُّونَ وَالْمُضِلُّونَ.

ويقف الإمام الزمخشرى على قوله عزّ وجلّ فى الآيات قبلها فيقول: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا) وأمره أن يقول لهم بعد- هذا- الإلزام والإلجام بهذه الأدلة الكونية الملجمة لهم والدالة يقينياً على سداد منطقه (ﷺ) هو والمؤمنون معه فقال قولة الواثق: **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السماوات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لَعَلَى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجه -بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ-: دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا، وسيفسر ذلك الإمام الطاهر فى السطور التالية، ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق منى ومنك، وإن أحدنا لكاذب.

فإن قلت: كيف خولف بين حرفى الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ – **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ** ((**لَعَلَى**)) **هُدًى أَوْ** ((**فِي**)) **ضَلَالٍ مُبِينٍ**– قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء((**لَعَلَى**)) **هُدًى** ، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه((**فِي**)) **ضَلَالٍ**.

ويكمل الإمام الطاهر موضحاً:

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْكَلَامِ يُسَمَّى الْكَلَامَ الْمُنْصِفَ وَهُوَ أَنْ لَا يَتْرُكَ الْمُجَادِلُ لِخَصْمِهِ مُوجِبَ تَغَيُّظٍ وَاحْتِدَادٍ فِي الْجِدَالِ، وَيُسَمَّى فِي عِلْمِ الْمُنَاظَرَةِ إِرْخَاءَ الْعِنَانِ لِلْمُنَاظِرِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَرِينَةُ إِلْزَامِهِمُ الْحُجَّةَ قَرِينَةٌ وَاضِحَةٌ(فى قول تعالى قبلها:﴿ **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)** ﴾.

وَمِنْ لَطَائِفِهِ هُنَا

أَن اشْتَمَلَ عَلَى (إِيمَاءٍ) إِلَى تَرْجِيحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ فِي أَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ بِطَرِيقِ مُقَابَلَةِ الْجَانِبَيْنِ **فِي تَرْتِيبِ الْحَالَتَيْنِ** بِاللَّفِّ وَالنَّشْرِ الْمُرَتَّبِ وَهُوَ أَصْلُ اللَّفِّ. (يقصد الترتيب فى قوله تعالى فى **الشق الأول**: (**وَإِنَّا**)(١) **أَوْ إِيَّاكُمْ**(٢) **وفى الشق الثانى** راعى ما يناسب هذا الترتيب (**لَعَلَى هُدًى** (١) **أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**(٢)– ويكون الإيماء فى ذلك الترتيب أن يكون الأول مع الأول، والثانى مع الثانى هكذا: (إنَّا على هدى) و(إياكم على ضلال) ويفهم ذلك بالإيماء–كما يقول الإمام– وهذا ملحظ لطيف وفراسة منه(١٦)

---

(١٦)وقد ذكرنا لها أمثلةً فيها تلك الإيماءة فى رسم الكلمة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) ((بِأَيِّيكُمُ)) الْمَفْتُونُ (٦) حيث رسمت(بأيكم) هكذا:(بأييكم) بياءين اثنين، وقلنا حينها أنهما جاءا على ترتيب الآية هكذا: الياء الأولى مع (ستبصر– أنت يامحمد– والثانية مع (ستبصرون–

وهذا الحكم جاء عن طريق التلميح وليس التصريح- وهو ما سيوضح الإمام لطافته بقوله: فَإِنَّهُ ذَكَرَ ضَمِيرَ جَانِبِ الْمُتَكَلِّمِ وَجَمَاعَتِهِ وَجَانِبِ الْمُخَاطَبِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الْهُدَى وَحَالَ الضَّلَال عَلَى تَرْتِيبِ ذِكْرِ الْجَانِبَيْنِ، فَأَوْمَأَ إِلَى أَنَّ الْأَوَّلِينَ مُوَجَّهُونَ إِلَى الْهُدَى وَالْآخِرِينَ مُوَجَّهُونَ إِلَى الضَّلَالِ الْمُبِينِ، لَا سِيَّمَا بَعْدَ قَرِينَةِ الِاسْتِفْهَامِ(قل من يرزقكم..)، **وَهَذَا أَيْضًا مِنَ التَّعْرِيضِ وَهُوَ أَوْقَعُ مِنَ التَّصْرِيحِ لَا سِيَّمَا فِي اسْتِنْزَالِ طَائِرِ الْخَصْمِ**.(أى الذى يتسبب فى استسلام الخصم لك، ولكنها بصورة بلاغية رائعة)

ويكمل: وَفِيهِ أَيْضًا **تَجَاهُلُ الْعَارِفِ**- فالمتكلم عارف ومتأكد من صواب رأيه ولكنه يتجاهل ذلك مع خصمه ليجعله هو يفكر معه فى القضية دون إلزام له أو قيد وهو متأكد من أنه سيصل إلى نفس رأيه-

وَجِيءَ فِي جَانِبِ أَصْحَابِ الْهُدَى بِحَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ الْمُسْتَعَارِ لِلتَّمَكُّنِ (لعلى هدى) تَمْثِيلًا لِحَالِ الْمُهْتَدِي بِحَال مُتَصَرِّفٍ فِي فَرَسِهِ يُرْكِضُهُ حَيْثُ شَاءَ فَهُوَ مُتَمَكِّنٌ من شَيْءٍ يبلغ بِهِ مَقْصِدَهُ. وَهِيَ حَالَةٌ مُمَاثِلَةٌ لِحَالِ الْمُهْتَدِي عَلَى بَصِيرَةٍ فَهُوَ يَسْتَرْجِعُ مَنَاهِجَ الْحَقِّ فِي كُلِّ صَوْبٍ، مُتَّسِعَ النَّظَرِ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ: فَفِيهِ تَمْثِيلِيَّةٌ مَكْنِيَّةٌ وَتَبَعِيَّةٌ.

أى أنتم أيها الكافرون) وجاء بالياءين فى الشق الثانى(بأييكم) لتناسب الياء الأولى مع محمد(ﷺ)- ستبصر- والياء الثانية للكافرين- ويبصرون- ، وكذلك لا يُجمع الحبيب(ﷺ) مع الكافرين فى ياء واحدة – إكراماً لحبيبه محمد(ﷺ)- وجاء بياءين ليربط الياء الثانية- الخاصة والمشيرة على الكافرين- بقوله بعدها مباشرة (المفتون) هكذا((بِأَيِّيكُمُ)) الْمَفْتُونُ.. وابتعدت الياء الأولى- الخاصة بالحبيب(ﷺ) عن صفة هذا الذم..

وقد حدث مثل ذلك أيضاً فيما ذكرناه فى سورة هود(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (إِنَّنِي) لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢).والخطاب هنا-(إِنَّنِي) لَكُمْ- للحبيب محمدً (ﷺ) الذى وصفه هنا بصفتين(نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) ولذلك أتى مقابلاً لهما بنونين فى قوله(إننى) ولم يقل(إنى)، وفى نفس السورة جاء وصف نوح عليه السلام بصفة واحدة- نَذِيرٌ مُبِينٌ- فأتى التوكيد بنون واحدة- إِنِّي- هكذا:. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ (إِنِّي) لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، وهو ميزان متكرر فى القرآن الكريم تعودنا عليه كثيرا.

وَجِيءَ فِي جَانِبِ الضَّالِّينَ بِحَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ الْمُسْتَعَارِ لشدَّة التَّلَبُّس بِالْوَصْفِ (فى ضلال) تَمْثِيلًا لِحَالِهِمْ فِي إِحَاطَةِ الضَّلَالِ بِهِمْ بِحَالِ الشَّيْءِ فِي ظَرْفٍ مُحِيطٍ بِهِ لَا يَتْرُكُهُ يُفَارِقُهُ وَلَا يَتَطَلَّعُ مِنْهُ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ضِيق يُلَازِمُهُ. وَفِيهِ أَيْضًا تَمْثِيلِيَّةٌ تَبَعِيَّةٌ، وَهَذَا يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنَّ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً** (الْأَنْعَام: ١٢٥) ..... وَهَذَا إِعْجَازٌ بَدِيعٌ)انتهى.

****

وأضيف- أنا الكاتب- القول بأنه من باب الإنصاف أيضاً قول مؤمن آل فرعون- الذى يدخل أيصاً فى باب الالتفات- فى سورة غافر:

﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا (فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ ((بَعْضُ) الَّذِي يَعِدُكُمْ) ..(٢٨)** ﴾ غافر.

وفيها يقول الإمام الزمخشرى: ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو- هذا النبى- من أن يكون كاذباً أو صادقا، وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ أى يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت: لم قال: بعض الَّذِي يَعِدُكُمْ وهو نبىّ صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة، فجاء بما علم **أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه،** فقال (وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه، ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه (يُصِبْكُمْ **بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**) ليهضمه بعض حقه في ظاهر

الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً، فضلا أن يتعصب له، أو يرمى بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل.

ويوضح ذلك الإمام الطاهر بقوله: وَقَوْلُهُ: **(وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ)** رُجُوعٌ إِلَى ضَرْبٍ مِنْ إِيهَامِ الشَّكِّ فِي صِدْقِ مُوسَى لِيَكُونَ كَلَامُهُ مُشْتَمِلًا عَلَى احْتِمَالَيْ تَصْدِيق وَتَكْذِيبٍ يَتَدَاوَلُهُمَا فِي كَلَامِهِ فَلَا يُؤْخَذُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمُوسَى بَلْ يُخَيِّلُ إِلَيْهِم **أَنَّهُ فِي حَالَةِ نَظَرٍ وَتَأَمُّلٍ** لِيَسُوقَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ إِلَى أَدِلَّةِ صِدْقِ مُوسَى بِوَجْهٍ لَا يُثِيرُ نُفُورَهُمْ، فَالْجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَتَكُونُ حَالًا.

وَقَدَّمَ احْتِمَالَ كَذِبِهِ عَلَى احْتِمَال صِدْقِهِ زِيَادَةً فِي التَّبَاعُدِ عَنْ ظَنِّهِمْ بِهِ الِانْتِصَارَ لِمُوسَى فَأَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فِي مَظْهَرِ الْمُهْتَمِّ بِأَمْرِ قَوْمِهِ ابْتِدَاءً.

وَمَعْنَى: وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ اسْتِنْزَالُهُمْ لِلنَّظَر، أَيْ فَعَلَيْكُمْ بِالنَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَلَا تَعْجَلُوا بِقَتْلِهِ وَلَا بِاتِّبَاعِهِ فَإِنْ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَذِبُهُ فِيمَا تَحَدَّاكُمْ بِهِ وَمَا أَنْذَرَكُمْ بِهِ مِنْ مَصَائِبَ فَلَمْ يَقَعْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّكُمْ ذَلِك شَيْئًا وَعَادَ كَذِبُهُ عَلَيْهِ بِأَنْ يُوسَمَ بِالْكَاذِبِ، وَإِنْ تَبَيَّنَ لَكُمْ صِدْقُهُ يُصِبْكُمْ بَعْضُ مَا تَوَعَّدَكُمْ بِهِ، أَيْ تُصِبْكُمْ بَوَارِقُهُ فَتَعْلَمُوا صِدْقَهُ فَتَتَّبِعُوهُ، وَهَذَا وَجْهُ التَّعْبِير بِ بَعْضُ دُونَ أَنْ يَقُولَ: يُصِبْكُمُ الَّذِي يَعِدُكُمْ بِهِ. وَالْمُرَادُ بِالْوَعْدِ هُنَا الْوَعْدُ بِالسُّوءِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْوَعِيدِ. أَيْ فَإِنِ اسْتَمْرَرْتُمْ عَلَى الْعِنَادِ يُصِبْكُمْ جَمِيعُ مَا تَوَعَّدَكُمْ بِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى.

وكل هذه الأمثلة التى ذكرناها هى أيضاً من ألوان الالتفات

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ هود.

﴿ (تَجْرِي (بِأَعْيُنِنَا) جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ (عَذَابِي) وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ (يَسَّرْنَا) الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ (عَذَابِي) وَنُذُرِ (١٨) ﴾ القمر.

فهى جمع (**بِأَعْيُنِنَا**) يتبعها الإفراد(**كَانَ** (**عَذَابِي**) وكذلك فى باقى السياقات بعدها يأتى بالجمع (**وَلَقَدْ** (**يَسَّرْنَا**) يتبعها الإفراد (**كَانَ** (**عَذَابِي**)

رغم أنه جاء بالإفراد للعين مع موسى عليه السلام فى قوله ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**) (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) ﴾..

وهنا يحلو لنا أن نقف وقفة لطيفة أخرى مع الإمام ابن القيم- فى بدائع الفوائد- نبدؤها بالتعقيب على موقف موسى عليه السلام مع ربه حيث يعقب الإمام على استخدام حرف الاستعلاء(على) فى قوله (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**)..فيقول:

ويربى موسى على حال أمن وظهور لا تحت خوف واستسرار ولذلك دخلت (على) في اللفظ تنبيها على المعنى لأنها تعطي الإستعلاء والإستعلاء ظهور وإبداء فكأنه يقول سبحانه وتعالى ولتصنع على أمن لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة وأما قوله تعالى: (**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**) (**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا**) فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره بعد كتم، فلم يحتج في الكلام إلى معنى على.

ويعقب على وجه الإفراد هناك والجمع هنا فيقول: وهو من ألطف معاني الآية والفرق بينهما يظهر من الإختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى: (**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**) فاقتضى هذا الإختصاص الإختصاص الآخر في قوله: (**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**) فإن هذه الإضافة إضافة تخصيص وأما قوله تعالى: (**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**) (**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا**) فليس فيه من الإختصاص ما في صنع موسى على عينه سبحانه وتعالى واصطناعه إياه لنفسه،

ثم يضيف الإمام ملحظاً هاماً جداً يفيدنا فى مشوارنا مع أسلوب الالتفات واستخدام صيغة الجمع فى أوامر الله تعالى حيث يقول: وما يسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع (قد يريد به ملائكته) كقوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} وقوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ} ونظائره فتأمله.

****

**** ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَاب (١٩) الَّذِينَ (يُوفُونَ)" بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ (يَصِلُونَ) مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ (صَبَرُوا) ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ (وَأَقَامُوا) الصَّلَاةَ (وَأَنْفَقُوا) مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً (وَيَدْرَءُونَ) بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾**

(وأرى) أن جميع هذه الصفات جاءت على صيغة المضارع الذى يفيد التجدد مع تجدد الأحداث منها ((**يُوفُونَ**)" **بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا** (**يَنْقُضُونَ**) **الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ** (**يَصِلُونَ**) **مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** (**وَيَخْشَوْنَ**) **رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)** ..(**وَيَدْرَءُونَ**) **بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** .. (**٢٢**)) وكلها ينطبق عليها هذا الوصف، ولكنه حينما أتى بصفات الصبر والصلاة والزكاة – وهى أركانٌ ثابتة- فقد أتى بها بالصيغة التى تفيد الثبات والدوام (**وَالَّذِينَ** (**صَبَرُوا**) **ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** (**وَأَقَامُوا**) **الصَّلَاةَ** (**وَأَنْفَقُوا**) **مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً** ..(**٢٢**) ليبين أن الصبر والصلاة والزكاة هم عماد كل هذه الصفات المذكورة، وهى التى تغير لها النظم فى سورة البقرة والنساء أولها: (**ليس البر... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)** .. وكان حقها (**الموفون .. والصابرون**) ولكنه التفت إلى أسلوب القطع وغيّر (الصابرون) إلى(الصابرين) وقال (**وَالْمُوفُونَ .. وَالصَّابِرِينَ**) لتخصيص صفة الصبر بالمدح وتمييزها والإشارة على أنها عماد كل هذه الصفات السابقة.. وكذلك الأمر قلناه وحققناه فى سورة النساء (**لَكِنِ** (**الرَّاسِخُونَ**) **فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ** (**وَالْمُؤْمِنُونَ**) **يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** ((**وَالْمُقِيمِينَ**)) **الصَّلَاةَ** (**وَالْمُؤْتُونَ**) **الزَّكَاةَ** (**وَالْمُؤْمِنُونَ**) **بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا** (**١٦٢**).. فكل هذه الصفات جاءت معطوفة على بعضها بالرفع ماعدا إقامة الصلاة التى جاءت على القطع للاختصاص بالمدح والتمييز فجاءت على النصب (المقيمين).. وقلنا حينها أن هذه الصفة هى أهم الصفات فى هذا السياق التى يريد النص الالتفات إليها وإلى أهميتها، وكأنه يترجم قوله تعالى

فى أول الكتاب من سورة البقرة (**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)**).

فهكذا السياق هنا فى سورة الرعد جاء على التخصيص للصبر والصلاة ولكنه أضاف التخصيص لصفة الإنفاق وجعلها بصيغة الماضى أيضاً مع الصبر والصلاة وذلك لأن سياق الآيات فيها يركز على صلة الأرحام والعلاقات الاجتماعية وبسط الرزق ﴿ (**وَالَّذِينَ (يَصِلُونَ) مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**) (**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ..(٢٦)**) ﴾

وهذا الرأى الذى ارتأيناه- فى هذا الالتفات من المضارع إلى الماضى- لاينفى الوقوف على باقى الآراء التالية:

يقول الإمام الطاهر: وَجَاءَتِ الصِّلَاتُ الَّذِينَ يُوفُونَ والَّذِينَ يَصِلُونَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِمَا بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ فِي تِلْكَ الْأَفْعَالِ الْخَمْسَةِ لِإِفَادَةِ التَّجَدُّدِ كِنَايَةً عَنِ الِاسْتِمْرَارِ.

وَجَاءَتْ صِلَةُ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا وَهُوَ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا بِصِيغَةِ الْمُضِيِّ لِإِفَادَةِ تَحَقُّقِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ لَهُمْ وَتَمَكُّنِهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ تَنْوِيهًا بِهَا لِأَنَّهَا أُصُولٌ لِفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ.

فَأَمَّا الصَّبْرُ فَلِأَنَّهُ مِلَاكُ اسْتِقَامَةِ الْأَعْمَال وَمَصْدَرها فَإِذَا تَخَلَّقَ بِهِ الْمُؤمن صدرت عَنْهَا الحسنات وَالْفَضَائِلُ بِسُهُولَةٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى:(**إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ) العصر**.

وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَلِأَنَّهَا عِمَادُ الدِّين وَفِيهَا مَا فِي الصبر مِنَ الْخَاصِيَّةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ.

وَأَمَّا الْإِنْفَاقُ فَأَصْلُهُ الزَّكَاةُ، وَهِيَ مُقَارِنَةٌ لِلصَّلَاةِ كُلَّمَا ذُكِرَتْ، وَلَهَا الْحَظُّ الْأَوْفَى مِنِ اعْتِنَاءِ الدِّينِ بِهَا، وَمِنْهَا النَّفَقَاتُ وَالْعَطَايَا كُلُّهَا، وَهِيَ أَهَمُّ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّ بَذْلَ الْمَالِ يَشُقُّ عَلَى النُّفُوسِ فَكَانَ لَهُ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ مَا جَعَلَهُ ثَانِيًا لِلصَّلَاةِ.

ثُمَّ أُعِيدَ أُسْلُوبُ **التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ** فِي الْمَعْطُوفِ عَلَى الصِّلَةِ وَهُوَ قَوْله: **وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** لِاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ **إِفَادَةَ التَّجَدُّدِ** إيماءً إِلَى أَنَّ **تَجَدُّدَ هَذَا الدرء** مَا يُحْرَصُ عَلَيْهِ لِأَنَّ النَّاسَ عُرْضَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ **عَلَى تَفَاوُتٍ**، فَوُصِفَ لَهُمْ دَوَاءُ ذَلِك بِأَن يدعوا السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ.

ويقول الإمام الرازى: وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَإِنْ كَانَتَا دَاخِلَتَيْنِ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى إِلَّا أَنَّهُ تَعَالَى أَفْرَدَهَا بِالذِّكْرِ تَنْبِيهًا عَلَى كَوْنِهَا أَشْرَفَ مِنْ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ ..)انتهى.

وأرى أيضاً أن الصبر ورد مقيداً بصيغة تستدعى الاستمرار فيها وذلك فى قوله (**ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**) وهذا الوصف وهذا القيد يعطيه صفة الاستمرار لمن تذوقه كما يقول الإمام الرازى: وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: **ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** فِيهِ دَقِيقَةٌ، وَهِيَ أَنَّ الْعَاشِقَ إِذَا ضَرَبَهُ مَعْشُوقُهُ، فَرُبَّمَا نَظَرَ الْعَاشِقُ لِذَلِكَ الضَّارِبِ وَفَرِحَ بِهِ فَقَوْلُهُ: ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ مَحْمُولٌ عَلَى هَذَا الْمَجَازِ، يَعْنِي كَمَا أَنَّ الْعَاشِقَ يَرْضَى بِذَلِكَ الضَّرْبِ لِالْتِذَاذِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ مَعْشُوقِهِ، فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ يَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ، وَيَرْضَى بِهِ لِاسْتِغْرَاقِهِ فِي مَعْرِفَةِ نُورِ الْحَقِّ. وَهَذِهِ دَقِيقَةٌ لَطِيفَةٌ.

فهذا القيد أعطى الصبر صفة التلذذ والاستمرار فيه مما يناسب صيغة الماضى.

وكذلك ورد الإنفاق بصيغة التواصل فى تقييده بقوله (سراً وعلانية)، - إضافة إلى احتياج السياق لذلك كما ذكرنا- وهما كل حالات وأحوال المنفق فجاءت على صيغة الماضى المناسبة لذلك المعنى:(**وَأَنْفَقُوا) مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**

سِرًّا وَعَلَانِيَةً.. أما فى دفع السيئة بالحسنة فلم يقيدة بصفة تفيد الاستمرار هكذا: (**وَيَدْرَءُونَ) بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**. مكتفياً بذلك، وبذلك ناسبها صيغة التجدد التى فى صيغة المضارع، إضافة إلى أن دفع السيئة بالحسنة أمور متجددة وليست دائمة، كعادة القرآن دائماً فى ذكر النعمة- على الاستمرار- والبلاء على التقطع والتجدد وليس الاستمرار.

وتجد ذلك أيضاً فى قوله ﴿ **أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا (وَيَدْرَءُونَ) بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤)** ﴾ القصص...

لكننا نلاحظ أن باقى الصفات بصيغة المضارع لأنها وصف متجدد مثل قوله تعالى(**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ (هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ)** -أى بالقرآن وهى حالة حاضرة- **(٥٢) وَإِذَا (يُتْلَى) عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ**- وأتت هذه الصفة على صيغة الماضى التى تفيد التحقق والاستمرار وليس التجدد، كذلك فى الوصف التالى:- **إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا (كُنَّا) مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣)**

وكذلك حينما يتحدث عن الحاضرين من أهل الصفة الفقراء ﴿ ((**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ (يُنْفِقُونَ) أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)** ﴾ فهو هنا يتحدث عن حالة واقعة تتطلب الإنفاق (الطارىء) و(تجديده) على أهل الصفة الذين نزلت فيها هذه الآية الكريمة بالوصف(لا يسألون الناس إلحافاً)، فجاء بها على صفة المضارعة(**الَّذِينَ (يُنْفِقُونَ) أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً**

**** ﴿ وَلَقَدْ (أَرْسَلْنَا) مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا (يَأْتِيهِمْ) مِنْ (رَسُولٍ) إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١)** ﴾ الحجر..

فإرسال الرسل أمر تحقق أما استهزاؤهم بالأنبياء فهو متجدد ومتكرر.

****

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ **لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾النحل

يقول الإمام الزمخشرى: ويقصد هنا الالتفات من صيغة الفعل المضارع (لتركبوها) إلى صيغة الإسم (وزينة) وكان حقها عطف فعل على فعل هكذا: (لتركبوها ولتجعلوها زينة)..وهنا نورد السؤال والإجابة على لسان الإمام الزمخشرى حيث يقول: فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد– أى فعل يُعطف على فعل أو اسم يُعطف على اسم–؟ قلت: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق. – فأنا أركب الدابة وهذا فعل منى، أما أن الدابة خلقت مزينة ولتكون زينة فهذا ليس منى بل من الذى خلقها(ولذلك غاير بين الصيغتين) وهذا هو رأى الإمام الزمخشرى وكثير من المفسرين الذين ساروا على دربه.. وقرئ: لتركبوها زينة، بغير واو، أى: وخلقها زينة لتركبوها. أو تجعل زينة حالا منها، أى: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال

ويقول الإمام الرازى: وَقَوْلُهُ: وَزِينَةً أَيْ وَخَلَقَهَا زِينَةً، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿**زَيَّنَّا**﴾ - فعل- **السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ** ﴿**وَحِفْظاً**﴾ - اسم- (فُصِّلَتْ: ١٢) الْمَعْنَى: **وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا**.(ليصح عطف فعل على فعل كما ذكرنا) قَالَ الزَّجَّاجُ: نُصِبَ قَوْلُهُ: وَزِينَةً عَلَى أنه مفعول له (أى لتكون حفظاً.. وفى مثالنا هذا: لتكون زينةً). والَمعنى: وخالقها لِلزِّينَةِ.

المسألة الرَّابِعَةُ: لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ لَمَّا كَانَ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا **وَلِيَجْعَلَهَا زِينَةً لَكُمْ**، فَلِمَ تَرَكَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ؟

وَجَوَابُهُ أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ ذَكَرَ هَذَا الْكَلَامَ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ لَصَارَ الْمَعْنَى أَنَّ التَّزَيُّنَ بِهَا أَحَدُ الْأُمُور الْمُعْتَبَرَةِ فِي الْمَقْصُودِ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ، لِأَنَّ التَّزَيُّنَ بِالشَّيْءِ يُورِثُ الْعُجْبَ وَالتِّيهَ وَالتَّكَبُّرَ، وَهَذِهِ أَخْلَاقٌ مَذْمُومَةٌ وَاللَّهُ تَعَالَى نَهَى عَنْهَا وَزَجَرَ عَنْهَا فَكَيْفَ يَقُولُ إِنِّي خَلَقْتُ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ لِتَحْصِيلِ هَذِهِ

الْمَعَانِي بَلْ قَالَ: خَلَقَهَا لِتَرْكَبُوهَا فَتَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ بِوَاسِطَتِهَا ضَرَرَ الْإِعْيَاءِ وَالْمَشَقَّةِ، وَأَمَّا التَّزَيُّنُ بِهَا فَهُوَ حَاصِلٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، ولكنه غير مَقْصُودٍ بِالذَّاتِ، فَهَذَا هُوَ الْفَائِدَةُ فِي اخْتِيَارِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ).انتهى. (١٧)

وأقول: هذا كلام رائع وممتع ولكنى أضيف إليه أن الركوب حركة يفعلها المرء حين يركب الدابة والحركة يناسبها الصيغة الفعلية(لتركبوها)، أما الزينة فليس فيها حركة منى- فهى صفة ذات فى هذه الدابة- فيناسبها صيغة الاسم(وزينة)، وهذا متكرر كثيرا ، فقد لاحظناه حتى فى رسم المصحف وسجلناه فى كتابنا (موسوعة الجلال والجمال فى رسم الكلمة وجرسها فى القرآن الكريم) وأضرب لذلك مثالاً سريعاً فى رسم الكلمة ناقشناه فى وصفه تعالى بأنه (ذو الجلـــــــل والإكرام) حيث لاحظنا أن كلمة الجلال حذفت منها الألف فى الرسم وكتبت ألف خنجرية بدلاً منها، أما الإكرام فبقيت الألف ظاهرة على حالها، وقلنا ساعتها – فى قواعد الرسم- أن الجلال صفة ذات وليست صفة فعل- وسماها الإمام الرازى صفة سلبية- فحذفت منها الألف، أما صفة الإكرام فهى صفة فعل وحركة فناسبها وجود الألف الظاهرة.. وكذلك فى كلمة (باسط) التى كتبت أيضاً على الصورتين ؛ مرة بالألف والثانية بدون الألف، وقلنا نفس الكلام من أن التى أتت بدون الألف هى التى لايصاحبها حركة كما فى قوله(كلبهم بـــسط ذراعيه بالوصيد) فهو باسطها بدون حركة

---

(١٧) ويضيف الإمام الألوسى وأياً وتعليقاً يقول فيه:

وإلا فليس التزين بالعرض الزائل مما يقصده أهل الله تعالى وهم أهل الخطاب بالقصد الأول

قيل: وأما لزوم تخصيص الركوب المطلوب بكونه لأجل الزينة وكون الحكمة في خلقها ذلك وكون ذلك هو المقصود الأصلي لنا فلا ضير فيه لأن التجمل بالملابس والمراكب لا مانع منه شرعا وهو لا ينافي أن يكون لخلقها حِكَمٌ أهم كالجهاد عليها وسفر الطاعات، وإنما خص لمناسبته لمقام الامتنان- فى سورة النعم هذه- مع أن الزينة على ما قال الراغب ما لا يشين في الدنيا ولا في الآخرة، وأما ما يزين في حالة دون أخرى فهو من وجه شين) اه فتأمل ولا تغفل.- يقصد أن الزينة التى تزين الشخص أيضاً فى الآخرة- أى الغير محرمة- فهى التى لا تشين صاحبها، أما الزينة التى تزينه فى الدنيا وتكون عقاباً له فى الآخرة فهى التى تشين.

فحذف منها الألف، وكذلك فى قوله (كبسط كفيه إلى الماء) فهو لا يحركها لتبلغ فاه- ثابتة- فوردت بدون الألف .. أما حينما يريد الصورة الفعلية والحركية فإنه يظهر الألف كما فى قوله تعالى﴿ **لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ** .. (٢٨).(**وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ** .. (٩٣)﴾.

وكذلك فى مثالنا هذا حينما كان الركوب صورة حركية فوردت بالصيغة الفعلية (**لتركبوها**)، أما الزينة فليست فيها حركة منى وهى صفة ذات فوردت بصيغة الاسم (**وزينة**)- الذى لا يعطى المعنى الحركى الذى فى الفعل-)

ويضيف الإمام أبو السعود قوله:.. فالعدولُ إلى صيغة الاستقبال (و"يخلق" بدل و"خلق") للدِلالة على الاستمرار والتجددِ أو لاستحضار الصورة، أو يخلق لكم في الجنة غيرَ ما ذُكر من النعم الدنيوية مالا تعلمون أي ما ليس من شأنكم أن تعلموه، وهو ما أُشير إليه بقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر(وهذا رأى أراه ضعيفاً عن إخوانه).

ويجوز أن يكون هذا إخباراً بأنه سبحانه **يخلق من الخلائق مالا علمَ لنا به**- أى فى المستقبل- .. وأقول: وهذا هو ما ينتجه لنا العلم الحديث من القطارات والطائرات والمركبات الفضائية وغيرها مما يظهره لنا العلم فى المستقبل ويتجدد حدوثه. وهو ما أفاض في توضيحه صاحب تفسير الظلال رحمه الله..

****

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ (بَاسِطُو) أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** (٩٣) **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا**

خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ (**افْتَرَى**)- هو مفرد غائب لأنه يصف هذا الشخص لنا الذى ستترتب عليه الأحداث التى سنستعرضها فى السياق التالى- **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ** (**افْتَرَى**)- **عَلَى** (**اللَّهِ**)- لفظ الجلالة وبالإفراد، وسوف يتغير فى السياق التالى- (**افْتَرَى عَلَى** (**اللَّهِ**)**كَذِبًا أَوْ قَالَ**- هو- **أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** (**وَلَوْ تَرَى إِذِ** ((**الظَّالِمُونَ**))- "هم" بدلاً من "هو"- **فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا** ((**أَنْفُسَكُمُ**))- "أنتم"- متوجها إليهم بالخطاب التهديدى والتوبيخى والتعنيفى والمواجهة المباشرة، ولذلك جاءت الصيغة بدون فعل القول: أى لم يقل (**وقالت** الملائكة أخرجو أنفسكم) بل جاءت مباشرة بصيغة الخطاب المباشر والمواجهة (أخرجوا أنفسكم)، والقارىء الكريم ليس فى حاجة إلى شرحٍ لهذا التحول – بدون فعل القول- وتأثيره، بل يحتاج إلى مجرد التذوق لهذا السياق وليحاول استبداله بالسياق الغير قرآنى بأن يقوله (وقالت الملائكة لهم أخرجوا أنفسكم).. فحينها سيشعر القارىء بانطفاء قوة السياق وجذوته وتباطؤه، ولعله حذف فعل القول هذا **لسرعة الموقف** الذى عبر عنه الإمام الألوسى خير تعبير فى قوله: أنهم يضربون وجوههم وأدبارهم **قائلين لهم** أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ، أي خلصوها مما أنتم فيه من العذاب، والأمر للتوبيخ والتعجيز، وذهب بعضهم أن هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل **الغريم الملح** – صاحب الدَّيْن الذى يلح على أخذه- يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة **ولا يمهله ويقول له: أخرج ما لي عليك الساعة ولا أريم مكاني حتى أنزعه من أحداقك**، وفي الكشف أنه كناية عن العنف **في السياق** – ويتبين ذلك من نوعية المجرم المخاطب بهذا الحديث(**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ**) وهو

أعتى المجرمين ويستحق أشد التعنيف - وكناية عن الإلحاح والتشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ولا بسط ولا قول حقيقة هناك.

ويستمر هذا السياق التهديدى بنبرته المتصاعدة التى جلاها لنا أسلوب الالتفات هذا: **وَلَوْ تَرَى إِذِ** ((**الظَّالِمُونَ**))- هم- **فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا** ((**أَنْفُسَكُمُ**))- **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ** ((**جِئْتُمُونَا**))- **"نحن"** جمع لذات الله- بدلاً من لفظ المفرد الغائب(الله) فى بداية السياق- ﴿ **وَلَقَدْ** ((**جِئْتُمُونَا**)) **فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ**- "نحن" مازال بصيغة الجمع والخطاب- **أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ** - نحن- **وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى**- نحن- **مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)** ﴾.. وبعدها ينتقل السياق بنا إلى التفات آخر يستدعى إظهار لفظ الجلالة(الله) الذى يستدعى المهابة والإجلال ويجمع فى داخله كل صفات الجلال والجمال والكمال، وعادة ما تستدعى ظهوره سياقات إبراز القوة وإظهار العبودية، وهو ما سنلاحظه فى تكملة السياق الذى سيلتفت من صيغة الجمع والحضور فى استخراج روح الكافر إلى صيغة الإفراد والغيبة (الله) التى تفيد التوحيد للخالق القوى القادر المعبود بحق (هو الله) هكذا :﴿ **إِنَّ** (**اللَّهَ**) **فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥)** ﴾ ... وهذه الآيات الكريمة بما فيها من التفاتات متنوعة سنفرد لها وقفة مستقلة.

****

وكذلك الالتفات- من خطاب الغيبة إلى المواجهة-

فى قوله تَعَالَى : ﴿ **(وَيَوْمَ (يَحْشُرُهُمْ)** - هم- **جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ (مَثْوَاكُمْ)** – أنتم- **خَالِدِينَ فِيهَا** – أنتم- **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ (رَبَّكَ)** – أنت يا محمد (التفات فيه الرفق والحنان به ﷺ) ولم يقل أيضاً(إنه حكيم) وهو أيضاً إظهار فى مقام الإضمار- **حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)** ﴾ الأنعام.

وَالْمَثْوَى. الْمَرْجِعُ. مِنْ ثَوَى إِذَا رَجَعَ، أَو الْمَقَامُ مِنْ ثَوَى إِذَا أَقَامَ. وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ** فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (١٢٨) .

ومن العدول والالتفات أيضاً فى استبدال (داركم) ب (مثواكم).

وَلَمْ يُعَبِّرْ عَنْ جَهَنَّمَ بِالدَّار- وقال عنها(مثواكم)- كَمَا عَبَّرَ عَن الْجَنَّةِ فِيمَا يَأْتِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ** (سُورَة النَّحْل: ٣٠) تَحْقِيرًا لَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا فِي جَهَنَّمَ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الدَّارِ بَلْ هُمْ مُتَرَاصُّونَ فِي النَّارِ وَهُمْ فِي مَثْوًى، أَيْ مَحَلِّ ثَوَاءٍ

****

﴿ **(يُحَلَّوْنَ) فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)** ﴾ الكهف.

هنا التفات من صيغة الفعل المبنى للمجهول (**يُحَلَّوْنَ**- أى يُحليهم طرف آخر-) إلى المبنى للمعلوم (**وَيَلْبَسُونَ**- هم بأنفسهم-).

وفيها يقول الإمام الرازى: وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُحَلِّيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ أَوْ تُحَلِّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ((وأقول هذا بالطبع قمة التشريف حينما يحليهم رب العزة أو الملائكة، وهذا يكون فى الزينة الخارجية) أما اللباس فهم يلبسونه بأنفسهم لأن فى ذلك ستراً لهم) وكما يقول الإمام الرازى: .. وَأَمَّا **لِبَاسُ التَّسَتُّرِ** فَقَوْلُهُ: وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُس وَإِسْتَبْرَق ..،ويكمل القول: **فَإِنْ قِيلَ: مَا السَّبَبُ فِي أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي الْحُلِيِّ: يُحَلَّوْنَ عَلَى فِعْلِ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ**- مبنى

للمجهول- وَقَالَ فِي السُّنْدُسِ وَالْإِسْتَبْرَقِ (وَيَلْبَسُونَ) فَأَضَافَ اللُّبْسَ إِلَيْهِمْ، قُلْنَا: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اللُّبْسُ إِشَارَةً إِلَى مَا اسْتَوْجَبُوهُ بِعَمَلِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ الْحُلِيُّ إِشَارَةً إِلَى مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمِ ابْتِدَاءً مِنْ زَوَائِدِ الْكَرَمِ) وهذه إضافة رائعة أخرى.

****

﴿ **(لَا يَتَّخِذِ** (**الْمُؤْمِنُونَ**) **الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ** (**مِنَ اللَّهِ**) **فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ** (**تَتَّقُوا**) **مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ** (**اللَّهُ**) **نَفْسَهُ** (**وَإِلَى اللَّهِ**) **الْمَصِيرُ**(**٢٨**) ﴾ آل عمران .

النوع الأول: **إظهار فى موطن الإضمار** إذ كان حق قوله **(وَإِلَى اللَّهِ) الْمَصِيرُ)** أن تكون (وإليه المصير)- ولكنه حدث ذلك استحضاراً وإبرازاً للفظ الجلالة وترديده.

والنوع الثانى : أنه كان قوله (**إِلَّا أَنْ** (**تَتَّقُوا**) **مِنْهُمْ تُقَاةً**) حقها أن تكون (إلا أن (**يتقوا**) منهم تقاة).

وفى هذا يقول السمين الحلبى فى الدر المصون: وأبدوا للالتفات هنا معنى حسناً، وذلك أن موالاة الكفار مستقبحة لم يواجه عباده بخطاب النهى بل جاء به فى كلام اسند الفعل المنهى عنه- (**لَا يَتَّخِذِ**) (**الْمُؤْمِنُونَ**) **الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ**- لغيب- (أى تحدث عنهم بصيغة الغيبة وليست بالمواجهة لهم وذلك تلطفاً بهم) حيث قال: (**لَا يَتَّخِذِ** (**الْمُؤْمِنُونَ**) **الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**)- ولما كانت المجاملة فى الظاهر والمحاسنة جائزة لعذر- وهو اتقاء شرهم (إلا أن تتقوا منهم تقاة) حسن الإقبال إليهم وخطابهم برفع الحرج عنهم فى ذلك) انتهى.

وأقول: كأنه يفسر القاعدة التى أشرنا إليها كثيراً فى مشوار الالتفات وهى: أن الحبيب لا يواجه حبيبه بما يكره – أى يتحدث عنه بصيغة الغيبة- فإذا تحدث عنه بخبر خيرٍ جاء به مواجهة.

وأرى أيضاً أنه سبحانه التفت إليهم كأنه يُسِرّ هذا العذر فى أذنهم بقوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة) – وكأنه يقول لهم : هنا فقط وليس كقاعدة عامة–.

أما نفس الالتفات فى باقى السياق (**وَيُحَذِّرُكُمُ** (**اللَّهُ**) **نَفْسَهُ** (**وَإِلَى اللَّهِ**) **الْمَصِيرُ**) ففِيهِ تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ يُشْعِرُ بِتَنَاهِي الْمَنْهِيِّ عَنْهُ مِنَ الْمُوَالَاةِ فِي الْقُبْحِ.

وأقول: ويظهر ذلك التهديد بقوة فى إبراز وإظهار لفظ الجلالة فى موضع الإضمار حيث كان حقه أن يكون السياق (وإليه المصير) وذلك لتربية المهابة والإجلال فى إبراز لفظ الجلالة.كأنه يقول إن التحذير هذا يأتى من (الله) وهذا يكفى لأن يستشعره فى نفسه.

****

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاق **لَوْلَا** (**أُنْزِلَ**) إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ (**يُلْقَى**) **إِلَيْهِ** كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ((وَقَالَ الظَّالِمُونَ)) إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) ﴾.. وكان حقها أن تكون (وقالوا) بدلاً من ((وَقَالَ الظَّالِمُونَ))

وفيها يقول الإمام أبو السعود: {وَقَالَ الظالمون} هم القائلونَ الأوَّلونَ – فكان حق أن تكون (وقالوا)– وإنما وضع المظهر وضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوزِ الحدِّ فيما قالوه لكونه إضلالاً خارجاً عن حدِّ الضَّلال مع ما فيه من نسبته صلى الله عليه وسلم إلى المَسْحُوريَّةِ أي قالُوا للمؤمنينَ **{إِن تَتَّبِعُونَ}** أي ما تَتَّبِعُونَ **{إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا}** قد سُحرَ فغُلبَ على عقلِه ..

وأحياناً يتغير السياق من المبنى للمعلوم للمبنى للمجهول هكذا:

﴿ (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ **فَقَدْ كَذَّبَتْ** قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ (**وَكُذِّبَ** مُوسَى) ﴾ الحج.

وفيها يقول الإمام الزمخشرى -ونقله منه باقى الأئمة ومنهم الإمام الرازى-: قيل **وَكُذِّبَ مُوسى** ولم يقل: وقوم موسى؟ - وكذب قوم موسى- قلت: لأنّ موسى ما كذَّبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط.

وفيه شيء آخر، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكّذِّب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته، فما ظنك بغيره.

وهذا كلام طيب ولكن الإمام أبو السعود لا يرى ذلك ويرى رأياً- أراه مكملاً لا متناقضاً - هو أن بني إسرائيلَ أيضاً قد كذَّبوه مرَّةً بعد أُخرى حسبما ينطِق به قوله تعالى لن نؤمن لك حتى نَرَى الله جَهْرَةً ونحو ذلك من الآيات الكريمة- ويقول: **بل ذلك للإيذانِ بأنَّ تكذيبَهم له — لموسى -كان في غاية الشَّناعةِ لكون آياتِه في كمال الوضوحِ)**انتهى.

وأرى أنه نفس الرأى السابق

﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ (لَمَيِّتُونَ) (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (تُبْعَثُونَ) (١٦)** ﴾
المؤمنون

الالتفات هنا من اسم (لَمَيِّتُونَ) مع التوكيد الزائد بلام القسم إلى صيغة الفعل المضارع المعرى أيضاً من أداة التوكيد(تبعثون).

ويقول الإمام الألوسى: (**لَمَيِّتُونَ**) أي لصائرون إلى الموت لا محالة كما يؤذن به اسمية الجملة وإن اللام وصيغة النعت الذي هو للثبوت(١٨)

(**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**) عند النفخة الثانية (**تُبْعَثُونَ**) من قبوركم للحساب والمجازاة بالثواب والعقاب، ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ثم نقله

---

(١٨) وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما وابن أبي عبلة وابن محيصن «لمائتون» وهو اسم فاعل يراد به الحدوث، قال الفراء وابن مالك: إنما يقال مايت في الاستقبال فقط.

من طور إلى طور حتى أنشأه خلقاً آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب (يقصد ماذكره الله تعالى فى الآيات قبلها التى تتحدث عن خلق الإنسان من نطفة إلى أن أوصله إلى خلقاً آخر ، وهذا المثال هو دليل البعث مرة ثانية بل إن البعث -إعادة هذا الخلق- أهون من ابتدائه من لا شىء- فلذلك لم يؤكد فى السياق بعدها على البعث ، ولكنه أكد على إماتته حتى يوقظ المؤمن من غفلته ويتذكر الموت) والآيات قبلها هى﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)**﴾.

ويقول الإمام: فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته ، وأنه جل وعلا لا يهمل أمره ويتركه بعد موته نسياً منسياً مستقراً في رحم العدم كأن لم يكن شيئاً، ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأتقنه بالغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته- مع أنه غير منكر- لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله جل جلاله أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الإتقان،(لعل الإمام يقصد أن الآيات التى تتحدث عن إحكام خلق الإنسان على أجمل وأبهى صورة تجعله ينسى الموت لهذا المخلوق ويستبعده فأكد على الموت) ويقول الإمام: وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث. ثم يقول الإمام: لم أر أني سبقت إليه.

وقيل في ذلك: إنه تعالى شأنه لما ذكر في الآيات السابقة من التكليفات ما ذكر نبه على أنه سبحانه أبدع خلق الإنسان وقلَّبه في الأطوار حتى أوصله إلى طور **هو غاية كماله وبه يصح تكليفه بنحو تلك التكليفات** وهو كونه حيّاً عاقلاً سميعاً بصيراً وكان ذلك مستدعياً لذكر طور يقع فيه الجزاء على ما كلفه

تعالى به وهو أن يبعث يوم القيامة فنبه سبحانه عليه بقوله: (**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ**) فالمقصود الأهم بعد بيان خلقه وتأهله للتكليف بيان بعثه **لكن وسط حديث الموت** لأنه برزخ بين طوره الذي تأهل به للأعمال التي تستدعي الجزاء وبين بعثه فلا بد من قطعه للوصول إلى ذلك، فكانه قيل: أيها المخلوق العجيب الشان إن ماهيتك وحقيقتك تفنى وتعدم ثم إنها بعينها من الأجزاء المتفرقة والعظام البالية والجلود المتمزقة المتلاشية في أقطار الشرق والغرب تبعث وتنشر ليوم الجزاء لإثابة من أحسن فيما كلفناه به وعقاب من أساء فيه، فالقرينة الثانية وهي الجملة الدالة على البعث لم تفتقر إلى التوكيد افتقار الأولى- وهي الجملة الدالة على الموت- لأنها كالمقدمة لها وتوكيدها راجع إليها، ومنه يعلم سر نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب انتهى، وفيه من البعد ما فيه.

وقيل: إنما بولغ في القرينة الأولى لتمادي المخاطبين في الغفلة فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك، وأخليت الثانية لوضوح أدلتها وسطوع براهينها، قال الطيبي: هذا كلام حسن لو ساعد عليه النظم الفائق، وربما يقال: إن شدة كراهة الموت طبعا- التي لا يكاد يسلم منها أحد- نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه، وأما البعث فمن حيث إنه حياة بعد الموت لا تكرهه النفوس ومن حيث إنه مظنة للشدائد تكرهه، فلما لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين أكدت الجملة الدالة عليه تأكيدا واحدا، وهذا وجه للتأكيد لم يذكره أحد من علماء المعاني ولا يضر فيه ذلك إذا كان وجيها في نفسه.

ويقول الإمام الطاهر: وثُمَّ لِلتَّرْتِيبِ الرُّتْبِيِّ لِأَنَّ أَهَمِّيَّةَ التَّذْكِيرِ بِالْمَوْتِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَقْوَى مِنْ أَهَمِّيَّةِ ذِكْرِ الْخَلْقِ لِأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنْ مَوْتِهِمْ تَوْطِئَةٌ لِلْجُمْلَةِ بَعْدَهُ وَهِيَ قَوْلُهُ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ وَهُوَ الْمَقْصُودُ. فَهُوَ كَقَوْلِهِ: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (الْملك: ٢) .. وَأَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ بِ (إِنَّ) وَاللَّامِ مَعَ كَوْنِهِمْ لَا يَرْتَابُونَ فِيهِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا أعرضُوا عَنِ التَّدْبِيرِ فِيمَا بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ كَانُوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُنْكِرُونَ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ.

وَتَوْكِيدُ خَبَرِ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ لِأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ. وَيَكُونُ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ دَلِيلًا عَلَى إِمْكَانِ الْخَلْقِ الثَّانِي كَمَا قَالَ تَعَالَى: أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (ق: ١٥) ، فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى تَقْوِيَةِ التَّأْكِيدِ بِأَكْثَرَ مِنْ حَرْفِ التَّأْكِيدِ وَإِنْ كَانَ إِنْكَارُهُمُ الْبَعْثَ قَوِيًّا.

وَنُقِلَ الْكَلَامُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، وَنُكْتَتُهُ هُنَا أَنَّ الْمَقْصُودَ التَّذْكِيرُ بِالْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعْرِيضِ بِالتَّخْوِيفِ وَإِنَّمَا يُنَاسِبُه الْخطاب.

ويضيف الدكتور فاضل السامرائي رأياً مكملاً فى قوله:

جاء توكيدان في الموت وتوكيد واحد في البعث مع ان الناس يشككون في البعث أكثر

﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)** ﴾ جاء التوكيد في الآية ١٥ مع ذكر الموت بـ (إنّ) واللام، أما في الآية ١٦ مع ذكر ابعث جاء التوكيد بـ (إنّ) فقط ولم يأتي باللام لأن هناك قاعدة نحوية أن اللام **إذا دخلت على الفعل المضارع أخلصته للحال فلا يصح أن يقال لتبعثون لأنها لن تفيد الإستقبال ولكنها تخلص الفعل المضارع للحال -أى لتبعثون الآن - وليس هذا هو المقصود في الآية.** يوم القيامة استقبال ولا تصح اللام هنا لأن الكلام على يوم القيامة واللام تخلّصه للحال، ولو أن عندي رأي آخر كما جاء في قوله تعالى (إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة) قال النحاة هذا تنزيل المستقبل تنزيل الماضي.

** وفي سورة يوسف الآية (**لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ**) النون نون التوكيد التي تخلص الفعل للمستقبل واللام هي لام القسم وليست لام التوكيد هنا.

مسألة التوكيد أولاً تعود للسياق ومع أنه أكد الموت توكيدين في آية سورة المؤمنون ومرة واحدة في آية سورة الزمر (**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)**) ولم يذكر اللام هنا والسبب أنه ذكر الموت في سورة المؤمنون ١٠ مرات بينما ذكر

في سورة الزمر مرتين فقط وتكررت صور الموت في سورة المؤمنون أكثر منها في سورة الزمر ففي سورة المؤمنون الكلام أصلاً عن خلق الإنسان وتطويره وأحكامه (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)**) وهذا أكبر دليل على أن إعادته ممكنة ولا شك أنها أسهل من الخلق والإبتداء فلهذا جعل سبحانه وتعالى توكيدين في الخلق وتوكيداً واحداً في البعث لأن البعث أهون عليه من الخلق من عدم وكلهما هين على الله تعالى.

الأمر الآخر لو لاحظنا ما ذكره تعالى في خلق الإنسان لتُوهّم أن الإنسان قد يكون مخلّداً في الدنيا لكن الحقيقة أن الإنسان سيموت وكثيراً ما يغفل الإنسان عن الموت وينساق وراء شهواته (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) فيعمل الإنسان عمل الخلود (ألهكم التكاثر) فأراد تعالى أن يُذكّرهم بما غفلوا عنه كما ورد في الحديث الشريف (أكثروا من ذكر هادم اللذات) ثم الآية لم ترد في سياق المنكرين للبعث فليس من الضرورة تأكيد البعث كما أكدّ الموت. وقد أكدّ لأطماع الناس في الخلود في الدنيا وكل المحاولات للخلود في الدنيا ستبوء بالفشل مهما حاول الناس للخلود لا يمكنهم هذا.

****

﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا ((يَكُونُوا)) مُؤْمِنِينَ (٣)** ﴾ الشعراء.

وَجِيءَ بِمُضَارِعِ ((**يَكُونُوا**)) الْكَوْن لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَأْسَفُ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِمْ وَلَو (اسْتَمَرَّ) ذَلِكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَيَكُونُ انْتِفَاؤُهُ فِيمَا مَضَى أَوْلَى بِأَنْ لَا يُؤْسَفَ لَهُ.

حُوِّلَ الْخِطَابُ مِنْ تَوْجِيهِهِ إِلَى الْمُعَانِدِينَ إِلَى تَوْجِيهِهِ لِلرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.وأقول: كأن الإمام يشير إلى آية الكهف:﴿ **مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ (أَفْوَاهِهِمْ) إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)** ﴾ وكأنه يعاتب النبى

ويقول الكلام لكى يا جارة كما قال تعالى فى موقف شبيه ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ** (٤٤) **لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ** (٤٥) **ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ** (٤٦) **فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** (٤٧) ﴾

****

﴿ **وَنَجِّنِي**- خطاب لله تعالى بصيغة المفرد توحيداً له فى الطلب والدعاء- **وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (١١٨) **فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** (١١٩) **ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ** (١٢٠) ﴾ الشعراء. **فَأَنْجَيْنَاهُ**- خطاب من الله تعالى بصيغة الجمع تعظيماً لأمر النجاة لحبيبه والاغراق لعدوه-

﴿ **أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** (٦٤) **لَوْ نَشَاء** ((**لَجَعَلْنَاهُ**)) **حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ** {٦٥}).. **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ** (٦٩) **لَوْ نَشَاء** ((**جَعَلْنَاهُ**)) **أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** (٧٠))(**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ** (٧١) **أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ** (٧٢) **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ** (٧٣) ﴾ الواقعة.

يقول الإمام الألوسى: وخير منه عندي قول ابن الأثير في المثل السائر: إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحا أسهل إمكانا في العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق، وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد وإذا وقع يكون عن سخط شديد، فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره انتهى.

وهنا نقف وقفة إضافية أخرى مع الدكتور: فاضل السامرائى

قال تعالى في سورة الواقعة ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ** (٦٣) **أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** {٦٤} **لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ** (٦٥)) والآية

تتحدث عن الزرع أما الآية الثانية (**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ** (٦٨) **أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ** (٦٩) **لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** (٧٠)) فهي تتحدث عن الماء والآيتان فيهما تهديد ؛ الأولى أنه تعالى لو شاء يجعل الزرع حطاماً فلا يمكن أن يكون طعاماً أو يستفاد منه، وهذه عقوبة أشد من جعل الماء أجاج لأن الماء الأجاج يمكن أن يُحوّل إلى ماء عذب ، والتهديد لم يأت في الآية بغور الماء كلياً كما في تهديد جعل الزرع حطاماً **فكانت العقوبة في الزرع أشد من العقوبة في الماء** فجاء باللام لتأكيد التهديد في آية الزرع وحذفها من آية التهديد بالماء ، وهذه اللام تُسمى لام المؤكدة.

أما في النار فلم يذكر تحذيراً أو تهديداً وإنما ذكر حالتها فقط (**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ** (٧١) **أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ** (٧٢) **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ** (٧٣) ﴾ لم يقل لو نشاء لذهبنا بها لأن الناس يمكن أن يعيشوا بلا نار لكن لا يمكنهم أن يعيشوا بلا طعام أو ماء.

****

﴿ **وَإِذْ** (**قُلْنَا**) **لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي** ((**وَهُمْ**)) **لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ** (**لِلظَّالِمِينَ**) **بَدَلًا** (٥٠) ﴾ – فالسياق تحول إلى التوحيد والبعد عن الشرك فجاء اللفظ على الإفراد الذى يناسب قوله (من دونى)– **أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي**، ثم يتحول السياق إلى التفاتٍ آخر بعدها: ((**وَهُمْ**)) **لَكُمْ عَدُوٌّ** ، فقال: (وَهُمْ): يقصد ذرية إبليس وهذا التفات أيضاً، لأن السياق فى بدايته كان يتحدث عن إبليس (إلا إبليس) وهو مفرد، فكان يجب أن يكون (وهو لكم عدو)، ولكن لأن السياق هنا يتحدث عن ذرية آدم وأنهم بالطبع قد اتخذوا (ذرية) إبليس (**أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**) فكان الالتفات من المفرد إلى الجمع.. ثم يستمر السياق مبرزاً لوناً آخر من الالتفات وهو الإظهار فى مقام الإضمار: (**وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**..**بِئْسَ** (**لِلظَّالِمِينَ**) **بَدَلًا**) بدلاً من قوله(**بئس لكم بدلاً**) وفي ذلك من الإيذان بكمال السُخطِ والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلمٌ قبيح ما لا

ما لا يخفى، وكذلك فى الآية بعدها (**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ** (**الْمُضِلِّينَ**) **عَضُدًا** (٥١)..بدلاً من (متخذهم).وكذلك: (**وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ**) وُضع المُظْهر مقامَ المُضْمَر –بدلاً من(ورأوا) النار– تصريحاً بإجرامهم وذماً لهم بذلك (**فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا** (٥٣)) الكهف.

****

** **وعلى مثال ما سبق** نعيش مع قوله تعالى: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ** – نحن– **الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا** (**آيَاتِي**) -أنا- **وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا** (٥٦)﴾ الكهف.

(وقد لاحظ الدكتور فاضل السامرائى وغيره من العلماء المحققين أن الله عز وجل يأتى بصيغة الجمع لذاته سبحانه للتفخيم والتعظيم، ولكنه خوفاً من سوء الظن من أصحاب الأفكار الوثنية -الذين يتخيلون فى صيغة الجمع أنها دليلٌ على تعدد الآلهة - فإنه يأتى بالسياق بعدها بصيغة الإفراد لذاته سبحانه لدفع هذه الشبهة

وأقول: ذلك القول يضاف إليه بعض الخصائص الخاصة لكل سياق فيه هذا الالتفات، وأنه لا يأتى اعتباطاً وبدون ضابط بلاغى ومقياس جمالى، وهو ما سنعيشه على الصفحات التالية ، ولكننى أوافق الدكتور فاضل تمام الموافقة فى هذا الرأى وقد عشت ذلك فى رحلتى مع مقارنة الأديان ورد الشبهات على أمثلة عديدة من هذا اللون من الشبهات فها هو أحدهم – أحد القساوسة– يقول إن لديكم تعدد آلهة بدليل قوله (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩)) التى أتت جميعها بصيغ الجمع حتى باقى السياقات بعدها وردت على صيغ الجمع، ولكنه غفل هو وكل مغرضٍ جهول أن السياق سيتحول بعدها إلى صيغة الإفراد فى مواطن هامة من السياقٍ تستدعى التوحيد لذاته تعالى هكذا: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ .. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** (١٢) .. **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ**

(١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) **وَلَقَدْ جَعَلْنَا** فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا **وَزَيَّنَّاهَا** لِلنَّاظِرِينَ (١٦) **وَحَفِظْنَاهَا** مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) .. وَالْأَرْضَ **مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا** فِيهَا رَوَاسِيَ **وَأَنْبَتْنَا** فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) **وَجَعَلْنَا** لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا **عِنْدَنَا** خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) **وَأَرْسَلْنَا** الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) **وَإِنَّا لَنَحْنُ** نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ **عَلِمْنَا** الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ **وَلَقَدْ عَلِمْنَا** الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) ثم يأتى بعدها لصيغة التوحيد والإفراد فى مكانها المناسب والمكين ثم يعود لصيغ الجمع مرة ثانية فى داخل السياق الواحد هكذا: **وَإِنَّ** ((**رَبَّكَ**)) **هُوَ يَحْشُرُهُمْ** إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) وَلَقَدْ **خَلَقْنَا** الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ **خَلَقْنَاهُ** مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) **وَإِذْ** ((**قَالَ رَبُّكَ**)) - إفراد- لِلْمَلَائِكَةِ ((**إِنِّي خَالِقٌ**)) بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا ((سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي)) - إفراد- فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ((**قَالَ**)) - إفراد- يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) ((**قَالَ**)) لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) ((**قَالَ**)) - إفراد- فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ ((**رَبِّ فَأَنْظِرْنِي**)) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ((**قَالَ**))- إفراد- فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ((قَالَ رَبِّ)) بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ((إِلَّا عِبَادَكَ)) مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ((قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ)) مُسْتَقِيمٌ (٤١) ﴾ وهكذا جاءت صيغ الإفراد فى سياق العبادة والتوحيد، والجمع فى سياقات الخلق والجعل والتعظيم والإظهار للخفاء والتوكيد على أمر ما.

وبذلك يأتى السياق بصيغة الجمع للتعظيم والتفخيم لذاته ولآياته ولا ينسى بعدها إثبات حقيقة التوحيد. وأنا أؤيد هذا الرأى بعد استقراء الكثير من تلك الآيات الشبيهة، إضافة إلى اللطائف الأخرى التى سنعيشها مع كل التفات، ومنها ما يلى:

** **﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا (بِآيَاتِنَا) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ (كَيْدِي) مَتِينٌ (١٨٣) ﴾** الأعراف.

وإضافةُ الآياتِ إلى نُونِ العظمةِ لتشريفها واستعظامِ الإقدام على تكذيبها .. (وَأُمْلِى لَهُمْ) عطفٌ على (سنستدرجهم) غيرُ داخلٍ في حكم السين لِما أن الإملاءِ الذي هو عبارةٌ عن الإمهال والإطالةِ ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصلِ في نفسه شيئاً فشيئاً بل هو فعلٌ يحصُل دفعةً وإنما الحاصلُ بطريق التدريج آثاره وأحكامهُ لا نفسُه كما يلوح به تغييرُ التعبيرِ بتوحيد الضميرِ – ولعله يقصد الإفراد فى الشيء الذى حدث دفعة واحدة(الإمهال- وأملى لهم)، ووضع صيغة الجمع للشيء الذى حدث بالتدريج – سنستدرجهم- فهو فعل بعد فعل، ولكل فعل له آثار).

ثم يكمل الإمام: مع ما فيه من الافتنان المنبىءِ عن مزيدِ الاعتناءِ بمضمون الكلامِ لابتنائه على تجديد القصدِ والعزيمة – لعله يقصد بذلك أمر الاستدراج- وأما أن ذلك للإشعار بأنه بمحض التقديرِ الإلهي، والاستدراجِ بتوسط المدبّرات فمبْناه دِلالةُ نون الفظيعة على الشركة...

ويضيف الألوسى: وقيل: إنه كلام مستأنف أي وأنا أملي لهم، والخروج من ذلك الضمير إلى ضمير المتكلم المفرد شبيه الالتفات، واستظهر أنه من التلوين.

ويضيف الإمام الطاهر لذلك ملحظاً صوتياً يقول فيه: وَالْمُغَايَرَةُ بَيْنَ فعلي (نستدرج) و (أملي) فِي كَوْنِ ثَانِيهِمَا بِهَمْزَةِ الْمُتَكَلِّمِ، وَأَوَّلِهِمَا بِنُونِ الْعَظَمَةِ مُغَايَرَةٌ اقْتَضَتْهَا الْفَصَاحَةُ مِنْ جِهَةِ ثِقَلِ الْهَمْزَةِ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ فِي النُّطْقِ فِي سَنَسْتَدْرِجُهُمْ (١) وَلِلتَّفَنُّنِ وَالِاكْتِفَاءِ بِحُصُولِ مَعْنَى التَّعْظِيمِ الْأَوَّلِ- فى "سنستدرجهم"-.

---

(١) لو قال: سأستدرجهم (يقصد وجود الهمزة على الألف بين سينين) وهى فعلاً تعطى ثقلاً فى النطق ويتلعثم اللسان فيها على المبتدىء.

واكتفى الإمام بهذا الملحظ لكنه استدرك بكلام رائع فى التعقيب على آية شبيهة من سورة القلم ﴿ **فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)** ﴾

فقال: وَنُونُ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ نُونُ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ، وَالْمُرَادُ **اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ الْمُوَكَّلُونَ** بِتَسْخِيرِ الْمَوْجُودَاتِ وَرَبْطِ أَحْوَال بَعْضِهَا بِبَعْض عَلَى وَجْهٍ يَتِمُّ بِهِ مُرَادُ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ جِيءَ بِنُون الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ فَالْاسْتِدْرَاجُ تَعَلُّقٌ تَنْجِيزِيٌّ لِقُدْرَةِ اللَّهِ فَيَحْصُلُ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ الْآيَة (الْأَنْفَال: ١٢) .

وَأَمَّا الْإِمْلَاءُ فَهُوَ عِلْمُ اللَّهِ بِتَأْجِيلِ أَخْذِهِمْ. **وَتَعَلُّقُ الْعِلْمِ يَنْفَرِدُ بِهِ اللَّهُ** فَلِذَلِكَ جِيءَ مَعَهُ بِضَمِيرِ الْمُفْرَدِ. وَحَصَلَ فِي هَذَا الْاخْتِلَافِ تَفَنُّنٌ فِي الضَّمِيرَيْنِ.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ فِي الْأَعْرَافِ (١٨٢- ١٨٣) : ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴾

وأنا أوافق الإمام فى كل كلمة قالها وقد عشنا أمثلة لها على الصفحات الماضية، وأُذكِّر بالمثال التالى: ﴿ **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (فَنَفَخْنَا) فِيهَا مِنْ** (رُوحِنَا) **(وَجَعَلْنَاهَا) وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)** ﴾.. فالنفخ والجعل هنا جاء بصيغة الجمع رغم أنه سيأتى على صيغة الإفراد فى قول جبريل لها ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩)** ﴾ ويزيد ذلك توضيحاً بقوله ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. (٤٥)** ﴾ فقد ورد بالجمع- فى قوله (**فَنَفَخْنَا**) **فِيهَا مِنْ** (**رُوحِنَا**) لإشراك الملائكة فى تنفيذ أمر الله

وهكذا فى حال تدمير الملائكة على لوط، فحينما كان السياق يشير إلى الملائكة المشاركة فى تنفيذ أمر الله جاء على صيغة الجمع ﴿ **قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ**

(٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ ((قَدَّرْنَا))إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠))﴾ فقال ((قَدَّرْنَا)) بصيغة الجمع.

وسنعيش أمثلةً أخرى على الصفحات التالية- إضافة إلى معنى التعظيم لصيغة الجمع والتوحيد وترتيب الصفات لصيغة الإفراد- وأرجو من القارىء الكريم أن لا ينسى هذه التعبيرات فى مشوارنا هذا.

****

****﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)﴾** آل عمران

وفيها يقول الإمام أبو السعود وتبعه الألوسى: والالتفاتُ إلى التكلم - بِآيَاتِنَا - أولاً للجَريِ على سَنَنِ الكبرياءِ، وإلى الغَيبة ثانياً بإظهار الجلالة لتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة.

وأقول : هذه قاعدة جليلة وعامة سنراها وسنذكرها كثيراً فى مشوارنا هذا فلينتبه إليها القارىء الكريم)

****

****﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾ طه.**

فهو هنا إفراد لله تعالى يتناسب مع إفراد المحبة لموسى- **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**- ، أما فى سياق الابتلاء لحكمة والتنجية فقد أتى بصيغة الجمع إبرازاً لعظمتها.. وقد سعدت جداً بأن أجد الإمام أبو السعود وتبعه الألوسى- كالعادة فى تطابقهما الدائم فى مثل هذه الآراء فى الالتفات- أشار إلى مثل ذلك بقوله: والعدولُ عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى (وفتناك) ونظيرَيه السابقين **تمهيدٌ لإفراد لفظِ النفسِ - وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**- اللائقِ بالمقام فإنه أدخلُ في تحقيق معنى الاصطناعِ والاستخلاص أي اصطفيتُك برسالاتي وبكلامي

وعلى نفس المنوال قوله تعالى :

** ﴿ (ووَصَّيْنَا))– جمع– الْإِنْسَانَ بوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾.. أَنِ اشْكُرْ لِي – مفرد، وهو من باب إفراد ذات الله فى الشكر والعبادة والتوحيد والوصف له سبحانه بعد صيغة الجمع– وفى هذه الآية بصفة خاصة لا يصح أن يُقال (إلينا المصير) لأنه ربما يذهب الذهن إلى أن ورود صيغ الجمع وردت لإشراك الوالدين مع الله فى ذلك، وكذلك لايصح القول:(أن اشكر لنا) لذلك السبب رغم ورود طلب الشكر للوالدين فى السياق ولكنه أتى على صيغة الفصل(اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) حتى لا يجتمع شكر الله بشكر الوالدين فى قرن واحد ، فكان الإفراد إضافة إلى ما كررناه من أسلوب القرآن الكريم فى الإتيان بالإفراد بعد الجمع فى صفات الله تعالى.

ويضيف الإمام الطاهر: وَجُمْلَةُ(ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَعْدٌ وَوَعِيدٌ. وَفِي هَذِهِ الضَّمَائِرِ تَغْلِيبُ الْخِطَابِ عَلَى الْغَيْبَةِ لِأَنَّ الْخِطَابَ أَهَمُّ لِأَنَّهُ أعرف.

** ﴿ (وَإِذْ (بَوَّأْنَا) لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ (بِي) شَيْئًا وَطَهِّرْ (بَيْتِيَ) لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾. فالتمكين لإبراهيم جاء بصيغة الجمع (بوأنا) ثم بعد ذلك عاد إلى الإفراد عند حديث الشرك والتوحيد وقال: وَطَهِّرْ (بَيْتِيَ).

ومثلها قوله تعالى:

** ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) ﴾ العنكبوت. (فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) فيها الإفراد لإخلاص العبادة ، ثم بعدها الرجوع لصاحب الجلال والعظمة– إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ–.

**** ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**- إفراد- (٣٠) **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ** (٣١) **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** (٣٢)- جمع-.ومثلها **(**فَطَمَسْنَا** – جمع- **أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ**- إفراد- (٣٧) **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ** (٣٨) **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ** - إفراد- (٣٩) **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا** – جمع- **الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** (٤٠) ﴾ **القمر.**

**** وكذلك قوله: ﴿ **وَعَرَضْنَا** –جمع- **جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا** (١٠٠) **الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي** – إفراد- **وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا** (١٠١) (**أَفَحَسِبَ** (**الَّذِينَ كَفَرُوا**) **أَنْ يَتَّخِذُوا** (**عِبَادِي**) **مِنْ** (**دُونِي**) **أَوْلِيَاءَ** – إفراد وسيأتى بعدها جمع هكذا:-(**إِنَّا أَعْتَدْنَا**) **جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا** (١٠٢) ﴾ **الكهف.**

ويبرز الإمام الطاهر ملحظاً هاماً سنكرره كثيراً فى المواقف الشبيهة وهو: وَإِظْهَارُ **الَّذِينَ كَفَرُوا** دُونَ أَنْ يُقَالَ: أَفَحَسِبُوا، بِإِعَادَةِ الضَّمِيرِ إِلَى الْكَافِرِينَ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا، **لِقَصْدِ اسْتِقْلَالِ الْجُمْلَةِ بِدَلَالَتِهَا، وَزِيَادَةً فِي إِظْهَارِ التوبيخ لَهَا**...وكذلك فى قوله:

(**إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ**) بدلاً من((إِنَّا أَعْتَدْنَا لهم) .. ويضيف: وَصِيغَ فِعْلُ الِاتِّخَاذِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ- **أَنْ يَتَّخِذُوا**- **لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِهِ** مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُقْلِعِينَ عَنْهُ. ولكن الإمام الزمخشرى يرى أن فِعْلَ (يَتَّخِذُوا) لِلْمُسْتَقْبَلِ، أَيْ أَحَسِبُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي أَوْلِيَاءَ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** كَمَا اتَّخَذُوهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً. وَنَظَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ

((إذن الالتفات إلى صيغة المضارع أعطى المعنيين معاً))

وَجَعَلَ الْمُسْنَدَ إِلَيْهِ ضَمِيرَ الْجَلَالَةِ (أعتدنا)- أى "نحن" بالجمع- **لِإِدْخَالِ الرَّوْعِ فِي ضَمَائِرِ الْمُشْرِكِينَ.**

ويكمل: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ((رَبِّهِمْ))**- هو- **وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا ((نُقِيمُ))**- نحن- **لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)** ﴾

وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا (بِآيَاتِنَا)، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ (رَبِّهِمْ) لزيادة تقبيحِ حالِهم في الكفر المذكور.حيث يكفرون بآيات ربهم- الذى رباهم ورعاهم وهم يتقلبون فى خيره-.

وَأيضاً مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: فَلَا (يُقِيمُ) لَهُمْ).

﴿ **ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)** ﴾ الكهف.

**ومنها قوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ (ذِكْرِي) فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ((وَنَحْشُرُهُ)) يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ ((رَبِّ)) لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) ((قَالَ)) كَذَلِكَ أَتَتْكَ ((آيَاتُنَا)) فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) ﴾ طه.
(ذِكْرِي)- أنا الله-((قَالَ))- هو الله-((آيَاتُنَا))- "نحن" للتعظيم-.

** ومنها قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ النحل.

وفي الالتفات إلى الغَيبة مع إسناد الخبرِ إلى الاسم الجليلِ(والله أعلم) **المستجمِع للصفات ما لا يَخفْى من تربية المهابةِ وتحقيقِ معنى الاعتراض.**

وأقول : يقصد الإمام بمعنى الاعتراض أن الجملة (**وَاللَّهُ** أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) جملة معترضة تشير إلى معلومة تريد منك الوقوف عليها قبل إكمال السياق، وسميت الجملة بأنها معترضة لأن السياق يمكن أن يمر بدونها هكذا**(**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ**) بدون الجملة المظللة- الاعتراضية- وفوق ذلك تكون هذه الجملة مستقلة بذاتها ويمكن إخراجها من السياق كما هى لتكون بصيغتها هذه مثلاً يضرب فى أى وقت شبيه نقوله لغيرنا ويقوله لنا (**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ**)، ولو أتى على نظم السياق لقال:(**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ((ونحن أعلم بما نتزل)) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ**) فسنجد وقتها أن هذه الجملة لم تعط هذه

المعانى السابقة ولا يصح استقلالها كجملة معترضة ، وأنها تؤخذ كمثلٍ يضرب ، وكذلك تشير إلى التوحيد بعد الجمع.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ((مِنْ رَبِّكَ)) بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾ قال:(**مِن رَبِّكَ**)- وكان حقها أن تقال (منه) أو (من الله)- لأن في إضافة الربِّ إلى ضميره (ﷺ) من **الدلالة على تحقيق إفاضةِ آثارِ الربوبية عليه** (ﷺ) ما ليس في إضافته إلى ياء المتكلم (منى) المبنيةِ على التلقين المحض (بالحق).

****

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ النساء.

وفيها يقول الإمام أبو السعود: وإظهارُ الاسمِ الجليلِ(الله) بطريق الالتفاتِ **لتهويل الأمرِ وتربية المهابةِ وتعليلِ الحكم فإن عنوانَ الألوهيةِ مناطٌ لجميع صفاتِ كمالِه تعالى.**

(وأرى أن النص أيضاً حينما يتحول لذكر صفات الله تعالى فإنه يسندها إلى صيغة المفرد الغائب (الله أو هو) العزيز الحكيم، وقلنا ذلك لأن المدح فى الغيبة يكون أولى وأكمل من أن تمدحه فى الحضور، ولله المثل الأعلى.. وذلك إضافة إلى ماذكره وكرره الأئمة الأعلام.. وباستكمال السياق نجده يعود لصيغة الجمع والحضور للتعظيم والتفخيم هكذا:**﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (سَنُدْخِلُهُمْ) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (وَنُدْخِلُهُمْ) ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾ النساء.**

﴿ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا (لِلَّهِ) إِنْ كُنْتُمْ ((إِيَّاهُ)) تَعْبُدُونَ (١٧٢) ﴾ فالجمع لتعظيم النعمة والإفراد لتوحيد العبادة والشكر.

****

** ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ((الَّذِينَ)) يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ ((نُؤْتِيهِ)) أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)** ﴾ - نؤتيه – هو – وكان حقها أن تكون نؤتيهم، أو بالأصح (يؤتيهم)- أى (الله)- ولكنه التفت إلى الجمع بنون العظمةِ التفاتاً يقول عنه الإمام الألوسى-: فَسَوْفَ **نُؤْتِيهِ ولا بدّ**،(لأن الجمع التعظيمى يعطى معنى التوكيد) وفي الالتفات مزيد التفات. أَجْراً عَظِيماً لا يكاد يعلم كمية وكيفية- **أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)** ولذلك ناسبه صيغة الجمع التعظيمى.

ثم نعود للسياق:

** ﴿ **فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ**- هو- **أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) (وَمَا لَكُمْ)** -أنتم- **لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ..(٧٥)** ﴾ النساء. **هكذا التغيير فى الضمائر.**

(وَما لَكُمْ) خطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات (إليهم فجأة) مبالغة في التحريض والحث عليه (وكأنه كان يتحدث مع غيرهم- أو عنهم فى غيبتهم- ثم التفت إليهم بالخطاب تنبيهاً لهم من الغفلة واستنهاضاً لهم)، وهو المقصود أيضاً من الاستفهام.يقصد فى الآية بعدها (**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**) (**وَمَا لَكُمْ**) خطابٌ للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفاتِ مبالغةً في التحريض عليه وتأكيداً لوجوبه

ومثلها قوله تعالى:

﴿ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾النساء

ويقول الإمام الألوسى: (**فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ**) بنون العظمة على الالتفات. وخاصة أنه يصف الإيتاء بأنه (أَجْراً عَظِيماً) لا يحيط به نطاق الوصف.

** ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ (اللَّهُ) مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (وَبَعَثْنَا) مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ (١٢)** ﴾ المائدة. كأنه يقول: هو وحده المعين والناصر والقادر..وإظهارُ الاسمِ الجليلِ- وَقَالَ اللَّهُ - لتربية المهابةِ وتفخيمِ الميثاق وتهويلِ الخطبِ في نقضه، مع ما فيه من رعاية حقِّ الاستئنافِ المستدعى الانقطاع عما قبله، والالتفات في قوله تعالى

{**وَبَعَثْنَا** مِنهُمُ اثنى عَشَرَ نَقِيباً} **للجَري على سَنَنِ الكبرياءِ** أو **لأن البعثَ** – للإثنى عشر نقيباً من بنى إسرائيل– **كان بواسطة موسى عليه السلام** ..{وَقَالَ اللهُ} (وهنا جاء الإفراد لدفع توهم الجمع الشركى فى أمر الله، ولذلك قال فى المعية {وَقَالَ اللهُ}كما يُنْبىءُ عنه الالتفاتُ مع ما فيه – من ذكر لفظ الجلالة (الله)–من تربية المهابة وتأكيدِ ما يتضمنه الكلام من الوعد.

****** ودفع التوهم هذا – والإتيان بالإفراد بعد الجمع– نجده واضحاً فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ** (**فَخَشِينَا**) **أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** (٨٠) (**فَأَرَدْنَا**) **أَنْ يُبْدِلَهُمَا** ((**رَبُّهُمَا**)) **خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا** (٨١) ﴾ الكهف. فقد اشترك الخضر فى الخشية والإرادة مع الله – (فَخَشِينَا) ..(فَأَرَدْنَا)– ولكن صاحب الأمر والفعل– التبديل– هو الله وحده فقال (يُبْدِلَهُمَا ((رَبُّهُمَا))

**** وكذلك قوله تعالى فى الأنعام:** ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ** (٦١)**ثم ردوا إلى الله مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** (٦٢) ﴾ الإفراد مع الوصف والمدح ويكون فى الغيبة (وهو..) أولى– **وَيُرْسِلُ** (**عَلَيْكُمْ**) **حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ** (**أَحَدَكُمُ**)–أنتم– **الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ**– "هو" مفرد– **رُسُلُنَا** –(ولم يقل (رسله) بالجمع التعظيمى لذاته–**وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ** (٦١)**ثم ردوا إلى الله** – "هم" جمع وقد كان مفردا "أحدكم" قبلها–ردوا **إلى الله**– ولم يقل : ثم ردوا إلينا–.

ويقول الإمام الألوسى: .. والإفراد أولا (توفته) والجمع آخراً (ثم ردوا) لوقوع التوفي على الانفراد– فى قبض روحه منفرداً– والرد على الاجتماع– أى فى الحشر مجتمعين–.

وذهب بعض المحققين أن فيه التفاتا من الخطاب–أحدكم– إلى الغيبة – توفته– هو– ، ومن التكلم إليها (ثم ردوا) لأن الرد يناسبه الغيبة بلا شبهة،(فهو الرد ليوم القيامة وهو غيب)– وإن لم يكن الرد حقيقة لأنهم ما خرجوا من قبضة حكمه سبحانه طرفة عين–.

****

** ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ (بِاللَّهِ) (وَمَا أَنْزَلْنَا) عَلَى عَبْدِنَا – وكان حقها أن تكون (وما أنزل– هو الله– على عبده) – يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) ﴾ الأنفال.

يقول الإمام الزمخشرى والرازى وغيرهما فى توضيح هذا الالتفات لصيغة الجمع: والمراد ما أنزل عليه **من الآيات والملائكة والفتح** يومئذ **(وَمَا أَنْزَلْنَا)** ثم رجع إلى الغيبة فى إظهار لفظ الجلالة (الله) لتربية المهابة وترتيب الصفات عليه (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

****

** ﴿ تِلْكَ آيَاتُ (اللَّهِ) (نَتْلُوهَا) عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾ البقرة.

قال الإمام أبو السعود: (نَتْلُوهَا عَلَيْكَ) أي **بواسطة جبريلَ عليهِ السَّلامُ** (ولذلك جاءت بصيغة الجمع، وهو رأى سنعيشه كثيراً فى بحثنا هذا).

وهو نفس ما ذهب إليه **الإمام ابن القيم من أن الجمع ربما يكون لإشراك الملائكة**. وهو متكرر كثيرا مثال قوله (**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا (٩١)**) وغيرها.

****

** ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ– ولم يقل" من دوننا"– آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) — وكان حقها أن تكون: فإذا هو منه يوقد- **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ يس.**

****** ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا**- "نحن" وستتحول إلى الإفراد والغيبة "الله" فى قوله وَاتَّخَذُوا مِنْ دُون ((اللَّهِ)) - **أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)** ((**وَلَهُمْ**)) **فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ** ((**اللَّهِ**)) — وكان حقها واتخذوا من دوننا آلهة ولكنه تحول لصيغة الجمع لتناسب سياق توحيد الله- **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ** ((**اللَّهِ**)) **آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ**- وهكذا عاد لصيغة الجمع والحضور فى موضعها- **مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ** ((**الْإِنْسَانُ**)) **أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا** ((**هُوَ**))- بدلاً من هم- **خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا** ((**وَنَسِيَ**)) **خَلْقَهُ** ((**قَالَ**)) **مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا** ((**الَّذِي أَنْشَأَهَا**)) - هو الله بدلاً من "إنا"- **أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ** - هو الله - **لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾ يس.**

****** ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ** ((**اللَّهِ**)) **آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ**﴾

يقول الإمام الطاهر: وَالْإِتْيَانُ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ الْعَلَمِ دُونَ ضَمِيرٍ إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِمَا يُشْعِرُ بِهِ اسْمُهُ الْعَلَمُ (الله) **مِنْ عَظَمَةِ الْإِلَهِيَّةِ** إِيمَاءً إِلَى **أَنَّ اتِّخَاذَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ جَرَاءَةٌ عَظِيمَةٌ** لِيَكُونَ ذَلِكَ تَوْطِئَةً لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ (فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ) (يس: ٧٦) أَيْ فَإِنَّهُمْ قَالُوا مَا هُوَ أَشَدُّ نُكْرًا (فى ذات (الله) العظيم نفسه).

وَأَمَّا الْإِضْمَارُ فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ (٣) فى آية مماثلة : ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾- حيث لم يقل (من دون الله)- فَلِأَنَّهُ **تَقَدَّمَ ذِكْرُ**

انْفِرَادِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ صَرِيحًا مِنْ قَوْلِهِ- فى الآية قبلها-: (**الَّذِي لَهُ مُلْكُ** السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ** فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) (الْفرْقَان: ٢) فقال بعدها(وَ**اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ** آلِهَةً) ولم يقل (من دون الله آلِهَةً) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ الرعد.

ويقول الإمام الطاهر: وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ بَعْدَ الْإِضْمَارِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ- بلفظ الجلالة (والله)- **لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ، وَلِلتَّذْكِيرِ بِمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الِاسْمُ الْعَظِيمُ مِنْ مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ عَدَمَ الْمُنَازِعِ، وَأَيْضًا لِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ وَالْمَثَلِ**.(أى: **نقولها ونرددها: وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**) فتصبح هذه الجملة- كجملة مستقلة عن سابقتها- وتكون بمفردها مثلاً نقوله ونردده لغيرنا ويُقال لنا فى مثل هذه المواقف الشبيهة.

****

﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ ((رَبِّ الْعَالَمِينَ)) (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ ((عَلَيْنَا)) بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) ﴾ الحاقة. والقارىء الكريم يشعر بلفتة قوية- **مِنْ ((رَبِّ الْعَالَمِينَ))**-هو الله-إلى الجمع التعظيمى **وَلَوْ تَقَوَّلَ ((عَلَيْنَا))**-نحن الله- وفيه انتباه مفاجىء وقوى مع ما يحويه من التعظيم فى صيغة الجمع (علينا) يلحظه حتى فى ارتفاع الصدر لأعلى حينما يقرأ (**وَلَوْ تَقَوَّلَ ((عَلَيْنَا))** بخلاف لو قال (لو تقول علىَّ)

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا(كُنَّا) عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ (رَبِّكَ) مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) ﴾ .. وصيغة الجمع فى ذات الله (كنا.. شهودا) وكذلك فى المخاطبين (عليكم) (**إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا**) تفيد تعظيم شهود الله عز وجل وأنه شهود عظيم، أو النظر إلى الذين كلفهم الله بالمراقبة

والشهادة عليهم **من الملائكة الموكلين**.. ويقول الإمام أبو السعود: وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ – ربك، بعد أن كان الخطاب لهم (**عليكم**) فحقها أن يقول: وما يعزب عن ربكم– من الإشعار باللطف ما لا يخفى..حيث ترك الخطاب عنهم وتوجه بصفة الربوبية الحانية لحبيبه محمد(ﷺ) –ربك– ومثلها:

** ﴿ **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ**– يا محمد– **يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)** ﴾ **يونس.**

****

** ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ (اللَّهِ) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ** (**نَضْرِبُهَا**) **لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَاللَّهُ..** ﴾ الحشر.

ويقول الإمام أبو السعود: (**لو أنزلنا هذا القرآن**) **العظيمَ الشأن** المنطويَ على فنون القوارعِ (**على جَبَلٍ**) (**لَّرَأَيْتَهُ**)(**خاشعا مُّتَصَدّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله**) وهذا تمثيلٌ وتخييلٌ لعلوِّ شأن القرآن وقوةِ تأثيرِ ما فيهِ من **المواعظِ** كما ينطق به قوله تعالى (**وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**) (وأقول : لهذه المعانى جاء (**لَوْ أَنْزَلْنَا**)..(**نَضْرِبُهَا**).. على صيغة الجمع للتعظيم إضافة إلى الصفات التى سيوصف بها رب العزة، والتى ستستدعى ورود وإبراز لفظ الجلالة (الله) فى قوله:**"من خشية الله"** لبيان جهة الخشية وصاحبها إنه هو(الله)!!، وأن المدح لله والوصف له سبحانه يأتى عادة مع صيغة الغيبة(هو الله....) وهو ما سيكون عليه النظم فى الآيات التالية، لأن المدح فى الغيبة أكمل كما ذكرنا ذلك كثيراً).

ويضيف الإمام الرازى توضيحاً: وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا وَصَفَ الْقُرْآنَ بِالْعِظَمِ– فى قوله (**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ (اللَّهِ)**– وَمَعْلُومٌ أَنَّ عِظَمَ الصِّفَةِ تَابِعٌ لِعِظَمِ الْمَوْصُوفِ(الله)– فقال(أنزلنا)–، وأَتْبَعَ ذَلِكَ بِشَرْحِ عَظَمَةِ اللَّه فَقَالَ: (**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (٢٢)**).

ويقول الإمام الطاهر: وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ الِاقْتِصَارَ عَلَى الضَّمِيرِ دُونَ ذِكْرِ اسْمِ الْجَلَالَةِ- يقصد عدم تكرار قوله: (هُوَ اللَّهُ) مع كل آية- لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْإِخْبَارُ عَنِ الضَّمِيرِ بِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَبِمَا بَعْدَ ذَلِكَ من الصِّفَات الْعلية، فَالْجَمْعُ بَيْنَ الضَّمِيرِ وَمَا يُسَاوِي مُعَادَةَ اعْتِبَار **بِأَنَّ اسْمَ الْجَلَالَةِ يَجْمَعُ صِفَاتَ الْكَمَالِ لِأَنَّ أَصْلَهُ الْإِلَهَ وَمَدْلُولُ الْإِله يَقْتَضِي جَمِيع صِفَاتِ الْكَمَالِ.**

ويقول فى مكان آخر: وَعَدَلَ عَنْ ضَمِيرِ الْعَظَمَةِ (نا) إِلَى ضَمِيرِ النَّفْسِ(الله) لِإِفَادَةِ الِانْفِرَادِ بِالتَّصَرُّفِ وَلِأَنَّهُ الْأَصْلُ، مَعَ مَا فِي هَذَا الِاخْتِلَافِ من التفنن.

ويقول فى مكان آخر: فإن الأولهية مقتضيةٌ للتبتلِ إليهِ تعالى بالكليةِ وقطعِ التعلقِ عما سواه بالمرةٍ.

وأقول: هذا كلام فى غاية النفاسة سنحتاجه فى مثل تلك الالتفاتات لاسمه الجليل على الصفحات القادمة.

****

**﴿ فَآمِنُوا (بِاللَّهِ) وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي (أَنْزَلْنَا) .... ﴾ التغابن.

يقول الإمام أبو السعود: (والنور الذى أَنزَلْنَا) وهُو القرآنُ .. **والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبرازِ كمالِ العنايةِ بأمرِ الإنزالِ.** ويقول الإمام الطاهر: وَفِي قَوْلِهِ: الَّذِي أَنْزَلْنا الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ **لِزِيَادَةِ التَّرْغِيبِ فِي الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ تَذْكِيرًا بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّ ضَمِيرَ التَّكَلُّمِ أَشَدُّ دَلَالَةً عَلَى مَعَادِهِ مِنْ ضَمِيرِ الْغَائِبِ، وَلِتَقْوِيَةِ دَاعِي الْمَأْمُورِ.**

**﴿ فَآمِنُوا (بِاللَّهِ) وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي (أَنْزَلْنَا) (وَاللَّهُ) بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)﴾ التغابن. والالتفاتُ إلى الإسم الجليل (وَاللَّهُ) لتربية المهابة وتأكيد استقلالِ الجُملةِ.

﴿ ..وَأَطِيعُوا (اللَّهَ) وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى (رَسُولِنَا) الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ **التغابن {وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول} كرَّر الأمرَ (وَأَطِيعُواْ.. وَأَطِيعُواْ) للتأكيدِ والإيذانِ بالفرقِ بينَ الطاعتين- طاعة الله وطاعة الرسول- في

الكيفيةِ .. **{فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين}**.. وإظهارُ (الرسولِ) – وتكراره مرة ثانية–مضافاً إلى نون العظمةِ– "**رسولنا**"– في مقامِ إضمارِهِ– وكانَ حقها أن تكون" **فإن تولوا فإنما عليه**"– ولكنه قال(على رسولنا) **لتشريفِهِ** عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، (و) **الإشعارُ** بمدارِ الحكمِ الذي هوَ كونُ وظيفتُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ محضَ البلاغِ– فهو "رسولنا" ويطاع لأنه رسول (و) **لزيادةِ** تشنيعِ التولِّي عنْهُ لأنه حينئذٍ سيتولى عن الرسول وليس شخصاً عادياً ..

**** ﴿ (اللَّهُ) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ التغابن** –وكان حقها أن تكون(وعليه)– وإظهارُ الجلالةِ –وَعَلَى اللَّهِ– في موقعِ الإضمارِ للإشعارِ بعلةِ التوكلِ والأمرِ به **فإن الأولهية مقتضيةٌ للتبتلِ إليهِ تعالى بالكليةِ وقطعِ التعلقِ عما سواه بالمرة** (وأرجو من القارىء أن يتذكر هذه التعبيرات وغيرها فى مثل تلك الالتفاتات).

****

**** ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾** الطلاق .. فالقرية عتت عن أمر من؟ إنها عن أمر(ربها)، والرب هو المنعم والمتفضل والمربى، وذلك الالتفات لصفة(ربها) لتعظيم جرم هذه القرية، ولذلك قال(أمر ربها)، ولم يقل(أمرنا) تمشياً مع قوله(فحاسبناها) التى وردت على جمع التعظيم لهذا الحساب، ويقول الإمام أبو السعود: المرادُ حسابُ الآخرةِ وعذابُها– فهو سيأتى بعد– والتعبيرُ عنهما بلفظِ الماضى **(فحاسبناها)**– وكان حقها أن تكون فسنحاسبها– للدلالة على تحقيقها كما في قوله تعالى (وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّة..) وهم لم ينادوا بعد.. وقد حققنا ذلك

**** ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) ﴾ الأحزاب**

****

**﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا (لِنَعْلَمَ) مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ سبأ.

****

**﴿ وَالَّذِي (أَوْحَيْنَا) إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ (أَوْرَثْنَا) الْكِتَابَ الَّذِينَ (اصْطَفَيْنَا) مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ فاطر

**﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) (إِنَّا زَيَّنَّا) السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) ﴾ الصافات.

**﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا (فَتَنَّاهُ) فَاسْتَغْفَرَ (رَبَّهُ) وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ص

**﴿ يَا دَاوُودُ (إِنَّا جَعَلْنَاكَ) خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ... وَاذْكُرْ (عَبْدَنَا) أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ﴾ص.

**﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا (بَأْسَنَا) سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ .. (٨٥) ﴾ غافر.

** ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا (بِآيَاتِنَا) يَجْحَدُونَ (١٥) (فَأَرْسَلْنَا) عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ فصلت.

**﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا (بِآيَاتِنَا) يَجْحَدُونَ (٢٨) ﴾ فصلت

**﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ (رَبِّهَا) وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾التحريم والإضافة في قولها تعالى: مِنْ رُوحِنا للتشريف- فى نسبته لذاته بصفة الجمع-، ويقول الإمام الطاهر: وَإِضَافَةُ

الرُّوحِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ -مِنْ رُوحِنا- لِأَنَّ تَكْوِينَ الْمَخْلُوقِ الْحَيِّ فِي رَحِمِهَا كَانَ دُونَ الْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ (فهو أمر يستحق التعظيم وصيغة الجمع التوكيدية)، **أَوْ أُرِيدَ بِالرُّوحِ الْمَلَكُ الَّذِي يُؤْمَرُ بِنَفْخِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجِنَّةِ** (ولذلك ناسبها صيغة الجمع أيضاً).

ويقول الإمام الطاهر: وَإِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَى اللَّهِ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ لِأَنَّهُ رُوحٌ مَبْعُوثٌ مِنْ لَدُنِ اللَّهِ تَعَالَى بِدُونِ وَسَاطَةِ التَّطَوُّرَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ لِلتَّكْوِينِ النَّسْلِيِّ. وَجَعْلُهَا وَابْنِهَا آيَةً هُوَ مِنْ أَسْبَابِ تَشْرِيفِهِمَا وَالتَّنْوِيهِ بِهِمَا إِذْ جَعَلَهُمَا اللَّهُ وَسِيلَةً لِلْيَقِينِ بِقُدْرَتِهِ وَمُعْجِزَاتِ أَنْبِيَائِهِ. وبِكَلِماتِ رَبِّها: هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَيْهَا بِطَرِيقِ الْوَحْيِ. ولاحظ الالتفات لصيغة الربوبية الحانية عليها (بكلمات ربها).(٢)

﴿ (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ) مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى (وَجَعَلْنَاكُمْ) شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ (اللَّهِ) أَتْقَاكُمْ إِنَّ ((اللَّهَ)) عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ الحجرات. – قال(عِنْدَ (اللَّهِ) ولم يقل(عندنا) حسب السياق- ولم يقل: (وَجَعَلْنَاكُمْ).. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ (عندنا) أَتْقَاكُمْ (إِنَّنا) عليم.. حسب السياق، وذلك لاستحضار لفظ الجلالة الجامع لكل صفات الجلال والجمال وتمشياً مع ماكررناه من أن النظم القرآنى **إذا جاء فيه لفظ الجلالة بصيغة الجمع التى تأتى للتعظيم للذات وللفعل فإنه يردفه بصيغة الإفراد التى تعنى توحيده وإزالة اللبس الذى ربما يدخل فى فكر هؤلاء من أن الجمع جاء لتعدد الآلهة**. وكذلك الإظهار فى لفظ الجلالة الثانى(**إِنَّ ((اللَّهَ)) عَلِيمٌ**) بدلاً من (إنه عليم).

** **ومنها قوله: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ (رَبِّكَ) فَإِنَّكَ ((بِأَعْيُنِنَا)). ﴾.(رَبِّكَ)** - الذى رباك وتحنن عليك- **فَإِنَّكَ** ((**بِأَعْيُنِنَا**)) تعظيم لرعاية الله به فجاء على صيغة

---

(٢) وَغلَبَتْ صِيغَةُ جَمْعِ الذُّكُورِ وَلَمْ يَقُلْ: مِنَ الْقَانتَاتِ، جَرْيًا عَلَى طَرِيقَةِ التغليب وَهُوَ من تَخْرِيجُ الْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ مِثَالٌ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي. وَنُكْتَتُهُ هُنَا الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهَا فِي عِدَادِ أَهْلِ الْإِكْثَارِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَأَنَّ شَأْنَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلرِّجَالِ لِأَنَّ نِسَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُنَّ مَعْفَيَاتٍ مِنْ عبادات كَثِيرَة.

الجمع- ثم عاد لأسلوب التحنن على حبيبه (ﷺ)- ربك- قائلاً: **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ (رَبِّكَ) حِينَ تَقُومُ** (٤٨)) الطور.

وكذلك نلاحظ تغير الحديث من غيبة إلى تكلم إلى غيبة، ونلاحظ مجيء التكلم فى حال القرب والرعاية والعناية(**فَإِنَّكَ** ((**بِأَعْيُنِنَا**))

****

**** ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ (مَنْ تَوَلَّى) عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** (٢٩) **ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ)) ﴾** فنلاحظ: (**مَنْ تَوَلَّى**)- مفرد- وبعدها(**ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ** – جمع-) و(**عَنْ ذِكْرِنَا**) – لتعظيم ذكر الله فجاء بصيغة الجمع-و(**إِنَّ رَبَّكَ**) لإبراز صفة الربوبية تطميناً لقلب النبى (ﷺ) بتذكيره بهذه الصفة ليقول له: إن (ربك) الذى رباك وتولاك يعلم حالك وحالهم وهذا يكفى لتطمينه- **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى** (٣٠) النجم-

ونلاحظ أنه فى حالة **اظهار القوة والعقاب، أو العبودية والطاعة، أو ترتيب الأوصاف والمدح لله ، فإنه يأتى بلفظ الجلالة(الله)** لتربية المهابة أيضاً بذكره ظاهراً كما يلى: ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى** (٣١) **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ**- ثم يلتفت مرة أخرى إلى الحبيب (ﷺ) فى أمر المغفرة فيقول: **إِنَّ (رَبَّكَ) وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ**. ﴾.ولاحظ(ربك) و (بهم) فى سياق واحد وبسرعة عجيبة.ومثلها:

****﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** (٤٦) ﴾ القصص.

****

** ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ (**إِلَيْنَا**) مَرْجِعُهُمْ (**فَنُنَبِّئُهُمْ**) بِمَا عَمِلُوا **إِنَّ** (**اللَّهَ**) عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(**٢٣**) ﴾ لقمان.هنا إبرز صفة الألوهية (**إِنَّ** (**اللَّهَ**) وهناك(**إِنَّ** (**رَبَّكَ**)) لاختلاف الموقف والشخص.

** **ومثلها :** ﴿ (**وَعَرَضْنَا**) جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ **عَنْ** (**ذِكْرِي**) ﴾ الكهف(٣).

** ﴿ وَلَوْ **شِئْنَا لَآتَيْنَا** كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ **حَقَّ الْقَوْلُ** ((**مِنِّي**)) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ- هم- (١٣) **فَذُوقُوا** – أنتم- بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا **إِنَّا نَسِينَاكُمْ** وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا **كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا –هم- سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ ((**رَبَّهُمْ**)) خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا ((**رَزَقْنَاهُمْ**)) يُنْفِقُونَ (١٦) ﴾ السجدة. ولعل القارىء الكريم لا يحتاج منا توضيحاً لهذا **الالتفات العجيب والسريع والمفاجىء** والذى يكاد لا يشعر القارىء بوقوعه إلا شديد التأمل والتعمق والتدبر منهم لأنه **يحدث بسلاسة عجيبة ويجرى على طبيعة النفس** ،

---

(٣) وأرى أن السياق الذى يشير إلى توحيد الفاعل– فى الحكم والحساب– يأتى الذكر بالإفراد: وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) فهو سياق واضح فى يوم القيامة ولمن الملك والحكم اليوم وكذلك الذكر له سبحانه ولهذا اليوم إضافة إلى سياق التوحيد.

وهكذا فى هذه الآية التالية: فهو سياق إفرادى (من أعرض) هكذا: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥).. إلى (وكذلك اليوم تنسى))

أما سياق جمع الذكر(ذكرنا) فهو سياق العظمة والاستغناؤ، وليس الحكم والحساب هكذا: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) ومثلها: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ

ويجعل القارىء يشعر بتنقل النفس من خطاب لغيبة، ومن جمع لإفراد ، ومن تغيير فى زمن الفعل من الماضى السحيق إلى استحضاره فجأة ليكون معنا فى الزمن الحاضر ، أو يخاطبه بالمفرد أو النكرة ثم يتغير خطابه لصيغة الجمع، وغير ذلك مما عشناه ونعيشه على الصفحات القادمة ، وربما لا يستطع كاتب مثلى أو مفسرٍ عظيم إلا أن يقف على بعض الإشراقات التى يفتحها الله بإذنه وتوفيقة ولكنه بالتأكيد يعجز عن الشرح الكامل ويحتاج إلى الرجوع لذوق وإحساس القارىء الذى ربما يعجز عن توصيله للقارىء، ونقولها دائماً: وما خفى كان وما زال أعظم، ولكن القارىء يجد نفسه فى غاية الانبهار وهو يرى هذه الالتفاتات التى لا يعهد لها مثيل من قول البشر إضافة إلى السلاسة العجيبة التى ذكرناها ولا نمل من تكرارها، فلا يشعر القارىء بالملل أو السآمة وهو يتنقل بين هذه الرياض بهذه الصورة العجيبة، ويزداد هذا الشعور كلما أعاد القارىء القراءة والتأمل ويجد نفسه بإذاء معانٍ جميلة ومشاهد مبهرة مع كل تلاوة، فهو الكتاب الذى لا يشبع منه العلماء ولا تنقضى عجائبة ولا يمل من كثرة التلاوة كحال باقى كتابات البشر، والذى أرجوه من القارىء الكريم أن يتذوق بنفسه هذا الجمال والبهاء والروعة ، وهذا هو ما يميز هذا النظم القرآنى

****

﴿ **إِنَّمَا (يُؤْمِنُ) بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا -هم- **سُجَّدًا (وَسَبَّحُوا) بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ السجدة(**وَسَبَّحُوا) بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**- ولم يقل (بحمدنا)كما قال (بآياتنا)- والتعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيةِ بطريقِ الالتفاتِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم -**وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**- للإشعارِ بعلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ وبأنَّهم يفعلونهما بملاحظةِ ربوبيتِه تعالى لهم

يقول الإمام الطاهر: وَأُوثِرَتْ **صِيغَةُ الْمُضَارِعِ** فِي **إِنَّما (يُؤْمِنُ)** لِمَا تُشْعِرُ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ يَتَجَدَّدُونَ فِي الْإِيمَانِ وَيَزْدَادُونَ يَقِينًا وَقْتًا فَوَقْتًا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **اللَّهُ (يَسْتَهْزِئُ) بِهِمْ** فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٥]، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ حَصَلَ إِيمَانُهُمْ فِيمَا مَضَى فَفِعْلُ الْمُضِيِّ - كأن يقول: إنما آمن- آثَرُ بِحِكَايَةِ حَالِهِمْ فِي الْكَلَامِ

الْمُتَدَاوَلِ لَوْلَا هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ- تجديد إيمانهم بتكرار التذكير-، وَلِهَذَا عُرِّفُوا بِالْمَوْصُولِيَّةِ وَالصِّلَةِ الدَّالِّ مَعْنَاهَا عَلَى أَنَّهُمْ رَاسِخُونَ فِي الْإِيمَانِ - **الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا** (**خَرُّوا**) **سُجَّدًا** (**وَسَبَّحُوا**) **بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**-، فَعَبَّرَ عَنْ إِبْلَاغِهِمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهَا عَلَى أَسْمَاعِهِمْ- الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا - بِالتَّذْكِيرِ الْمُقْتَضِي أَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ الْآيَاتُ حَقَائِقُ مُقَرَّرَةٌ عِنْدَهُمْ- وهو يذكرهم بها فقط ولكنها موجودة- لَا يُفَادُونَ بِهَا فَائِدَةً لَمْ تَكُنْ حَاصِلَةً فِي نُفُوسِهِمْ وَلَكِنَّهَا-أى الآيات- تُكْسِبُهُمْ تَذْكِيرًا فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

وَعَدَلَ عَنْ ضَمِيرِ الْعَظَمَةِ إِلَى ضَمِيرِ النَّفْسِ - **وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**- لِإِفَادَةِ الِانْفِرَادِ بِالتَّصَرُّفِ- وكذلك العبادة والتسبيح- وَلِأَنَّهُ الْأَصْلُ، مَعَ مَا فِي هَذَا الِاخْتِلَافِ من التفنن.

** ﴿ **وَلَقَدْ** (**كَتَبْنَا**) **فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا** (**عِبَادِيَ**) **الصَّالِحُونَ** (١٠٥) ﴾ الأنبياء

** ﴿ **لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ** (**مِنَّا**) **لَا تُنْصَرُونَ** (٦٥) **قَدْ كَانَتْ** (**آيَاتِي**) **تُتْلَى عَلَيْكُمْ**.. ﴾ المؤمنون.. ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ** (٥٢) ﴾ الشعراء. مع ملاحظة عادة القرآن فى الإفراد بعد الجمع.

** ﴿ **فَأَوْحَيْنَا**-نحن- **إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي**- أنا- **فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** (٢٧) ﴾ **المؤمنون**. إفراد بعد جمع.

** ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ** (**أَنْجَيْنَاكُمْ**) **مِنْ عَدُوِّكُمْ** (**وَوَاعَدْنَاكُمْ**) **جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ** (**وَنَزَّلْنَا**) **عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى** (٨٠) **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ** (**غَضَبِي**) - ولم يقل (غضبنا)- **وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى** (٨١) (**وَإِنِّي**) **لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى** (٨٢) ﴾.**طه**.(وكأنه

يقول : لا يغفر الذنوب إلا أنت وحدك) ولكنه يرد فى سياق آخر بالجمع لتعظيم التوبة(نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨))

﴿ **وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ – نحن- **فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)** ﴾ سبأ.كأنه يقول: رُسُلِي أنا الله الواحد

﴿ **لَا (أُقْسِمُ) -أنا الله- **بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا**- نحن الله- **الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)** ﴾ البلد. فالإفراد للتوحيد والجمع للتعظيم.

****

﴿ **وَإِنَّ لَنَا- جمع- **لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤)** ﴾ الليل. **فَأَنْذَرْتُكُمْ**- "أنا" مفرد وحقها أن تكون أيضاً "فسأنذركم" –

فَيَكُونُ فِعْلُ «أَنْذَرْتُكُمْ» وَإِنَّمَا صِيغَ **فِي صِيغَةِ الْمُضِيِّ** لِتَقْرِيبِ زَمَانِ الْمَاضِي مِنَ الْحَالِ كَمَا فِي: قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ (وهى لم تقم بعد) ويريد استحضارك للصلاة قبل التهيؤ لها لقيمتها العظمى) ، وَقَوْلِهِمْ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا فَعَلْتَ كَذَا، أَيْ أَعْزِمُ عَلَيْكَ، وَمِثْلَ مَا فِي صِيَغِ الْعُقُودِ:

وأقول: ومثلها قوله تعالى:(**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)**) فقال(قرأت) وهو لم يقرأ بعد، وكأنه يريد منك استحضار القراءة العظيمة قبل الدخول عليها، ويقول الإمام أبو السعود: {فإذا قرأت القرآن} أي إذا أردت قراءتَه عبّر بها عن إرادتها على طريقة إطلاقِ اسمِ المُسبَّبِ على السبب إيذاناً بأن المرادَ **هي الإرادةُ المتصلةُ بالقراءة** ..ويقول الإمام الطاهر: قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ، **أَيْ إِذَا شَرَعْتَ فِي قِرَاءَةِ هَذَا الْكِتَابِ الشَّرِيفِ** الْجَامِعِ الَّذِي نَبَّهْتَ عَلَى بَعْضِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ، **وَنَازَعَكَ فِيهِ الشَّيْطَانُ بِهَمْزِهِ وَنَفْثِهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** مِنْهُ وَالْمَقْصُودُ إِرْشَادُ الْأُمَّةِ»

ويقول الطاهر: وَالْأَظْهَرُ أَنَّ قَرَأْتَ مُسْتَعْمَلٌ فِي إِرَادَةِ الْفِعْلِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ** ﴿ **إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ (الْمَائِدَة: ٦) ، **وَقَوْلِهِ:** ﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ** ﴾ – وهو لم يكل بعد–(سُورَة الْإِسْرَاء: ٣٥) وَقَوْلُهُ: ﴿ **وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا** ﴾ (سُورَةِ المجادلة: ٣) ، أَي يُرِيدُونَ الْعود إِلَى أَزوَاجهم بِقَرِينَة قَوْله بعده مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فِي سُورَة الْمُجَادَلَةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً** ﴾ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، أَيْ أَوْشَكُوا أَنْ يَتْرُكُوا بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَقَوْلِهِ ﴿ **وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ** ﴾ (الْأَحْزَاب: ٥٣) ، أَيْ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْأَلُوهُنَّ.

** ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)** ﴾ البقرة

(**فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ**) فَضَّلْنَا – "**نحن**" بالجمع والحضور–.. وإيرادُ الاسمِ الجليلِ– **مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ** (**اللَّهُ**) – بطريق الالتفاتِ لتربية المهابةِ والرمزِ إلى ما بين التكليم والرفعِ – مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ – وبين ما سبَقَ من مطلق التفضيل وما لحق من إيتاء البينات والتأييد بروحِ القدسِ من التفاوت، فهناك تكريم عام(فضلنا بعضهم على بعض ورفعنا وأيدنا) وهنا تكريم خاص بموسى(كلم الله)، فالتكريم العام أتى له بصيغة الجمع (فضلنا)، والتكريم الخاص–كلم الله– جاء له بصيغة الإفراد ولفظ الجلالة (الله)، وأعتقد أن تكليم الله يناسبه إفراد الذات وملحظ الغيب (الله) الذى يجمع كل صفات الجلال والجمال.

(**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات**) أي ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين في معارجِ الفضل بدرجات قاصية.. **وتغييرُ الأسلوب لتربية ما بينهم من اختلاف الحالِ في درجات الشرفِ،** والظاهرُ **انه رسول الله** صلى الله عليه وسلم– الذى رفعه درجات– كما ينبىء عنه الإخبارُ بكونه عليه الصلاة والسلام منهم، فإن ذلك في قوة

بعضهم فإنه قد خُصَّ بالدعوة العامة والحُجج الجمة والمعجزاتِ المستمرة والآياتِ المتعاقبة بتعاقُب الدهور والفضائلِ العلمية والعمليةِ الفائتة للحصر والإبهامُ – وعدم إبراز اسم محمد(ﷺ) وقال: (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات) - لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلَمُ الفردُ الغنيُّ عن التعيين

****

﴿ (رَبَّنَا**) إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ (**إِنَّ اللَّهَ**) لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾** آل عمران. **﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا.. وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (إِنَّكَ) لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾**

يقول أبو السعود: وإظهارُ الاسمِ الجليل مع الالتفات لإبراز كمالِ التعظيم والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المَهيب الهائل بخلاف ما في آخرِ السُّورَةِ الكريمة (إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ)- فى قوله تعالى: رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ **إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)** ولم يقل(إن الله لا يخلف) فإنه ورد فى سياق طلب الإنعام كما سيأتي، وللإشعار بعلة الحُكم، فإن الألوهيةَ منافيةٌ للإخلاف- أى لو قال(إن الله لا يخلف الميعاد)، لأن مجرد ذكر لفظ الألوهية يكفى لإعطاء هذا المعنى (لايخلف الميعاد، وهذا تقدير للفظ الألوهية وصيانتها) وهذا رأى هام.

وقد جُوِّز أن تكون الجملةُ مَسوقةً من جهته تعالى- أى القول: إن الله لا يخلف الميعاد تعليماً للأمة هذا القول ليرددوه كقول منفصل يصلح فى أى زمان وموقف- ويضيف الإمام أنه أيضاً: لتقرير قولِ الراسخين) انتهى قول الإمام مع التوضيح له.

ولعل هذا هو ما أشار إليه الإمام الألوسى بقوله: وجوز أن تكون هذه الجملة من كلامه تعالى لتقرير قول الراسخين لا من كلام الراسخين فلا التفات حينئذ، (ولذلك جاءت كأنها جملة مستقلة تُضرب كمثلٍ: (إن الله لا يخلف الميعاد) وهذا السياق – بالجملة المستقلة يناسب سياق هذه الآياتٍ بصفة خاصة لأن الكلام قبلها ليس عن الميعاد وبذلك لا يكون مرتبطاً بها فجاز أن تكون مستقلة، بخلاف الآية الأولى التى تحدث شقيها عن الميعاد هكذا **﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** – ميعاد القيامة والجزاء الحسن-**(١٩٤) ﴾**

فلا يحسن فيها جواز الفصل. وهذا الرأى موضح لقول الإمام الطاهر، وقال السفاقسي: وهو الظاهر.

** **وهناك رأى آخر** يقف على السياق فى الآيتين وما حولهما هكذا:

الآية الأولى: **﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)...(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾**

الآية الثانية: فى سياق دعاء خاشع من أولى الألباب، وظل هذا الدعاء يناسب صيغة الربوبية وليس الألوهية، فالألوهية تأتى فى العزة والنصر والعبودية والقهر والسلطان ولذلك أتت فى سياق الآية الأولى ولم تأت هنا فالسياق هنا هكذا:﴿ **(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)** ﴾ فالسياق هنا فيه طلب ودعاء**(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا)** فلم يذكر لفظ الألوهية.

* وهذا السياق يختلف عن السياق الآخر فى أول السورة ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ**

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) **رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ** النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾..

فهو هنا يتحدث عن العزة ومنصب الألوهية (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ) ولم يأت فى سياق الدعاء كالآية السابقة (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا) ولذلك أتى بصيغة الألوهية بعدها(إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

ولعل هذا ماحام حوله الإمام الألوسى فى قوله: وقال الكرخي: الفرق بينهما أن ما هنا متصل بما قبله اتصالا لفظيا فقط (رَبَّنَا **إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ** لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ) (**إِنَّ اللَّهَ** لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) ، وما في الآخر متصل اتصالا معنويا ولفظيا لتقدم لفظ الوعد (**رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا**) (**إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**).

****

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا – هم- إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ (سَنَكْتُبُ) مَا قَالُوا – هم- وَقَتْلَهُمُ – هم- الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ (وَنَقُولُ) ذُوقُوا (٤)عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ– أنتم- وَأَنَّ (اللَّهَ) لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ آل عمران. وهكذا الالتفات بين الحاضر((سَنَكْتُبُ)(وَنَقُولُ)) والغائب (سَمِعَ اللَّهُ – وَأَنَّ (اللَّهَ))

وَقَوْلُهُ: (**وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**) هُوَ أَمْرُ اللَّهِ بِأَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ.

ويرد السؤال: لماذا قال: (ونقول) ولم يأت بها على الالتفات بدون فعل القول **كما فى قوله:(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠))الأنفال.** لأنها تصور المشهد بصورة المشهد الحاضر الذى يحدث فى الدنيا (يتوفى) (يضربون) فالتفت إليهم وهم حضور. أما السياق الآخر–

---

(٤) (وقرئت: (وَيَقُولُ) بِيَاءِ الْغَائِبِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ

الذى معنا- فيتحدث عن أمر سيحدث فى المستقبل (سنكتب ماقالوا) فناسبها أن يقول (ونقول ذوقوا..)أى وسنقول.

**﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ (يَتَوَفَّى) (الَّذِينَ كَفَرُوا) الْمَلَائِكَةُ (يَضْرِبُونَ) وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (وَذُوقُوا) عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ﴾ الأنفال.

وعلى غرار المثال السابق نجد السياق يقول(وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق) ونسأل: من القائل: هل هو الله أم الملائكة أم أهل المحشر؟ كله جائز ومراد.

ولذلك سيقول أهل اللغة والنحو أنه على إرادة القولِ (أى يقال لهم: ذوقوا...) معطوفاً على يضربون أو حالاً من فاعلهِ أي ويقولون أو قائلين ذوقوا ..بشارةً لهم بعذاب الآخرة.

ويقول الطاهر: فَالْإِتْيَانُ بِالْمُضَارِعِ -(**يَتَوَفَّى**) (**يَضْرِبُونَ**) - فِي الْمَوْضِعَيْنِ مَكَانَ الْمَاضِي لِقَصْدِ اسْتِحْضَار تِلْكَ الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ، وَهِيَ حَالَةُ ضَرْبِ الْوُجُوهِ وَالْأَدْبَار، لِيُخَيَّلَ لِلسَّامِعِ أَنَّهُ يُشَاهِدُ تِلْكَ الْحَالَةَ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُمَا كَانُوا كَانَ التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ.

وَجُمْلَةُ: وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيق مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ: يَضْرِبُونَ بِتَقْدِيرِ الْقَوْل، لِأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ لَا مَوْقِعَ لَهَا مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، أَيْ: وَيَقُولُونَ: ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيق كَقَوْلِهِ: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا (الْبَقَرَة: ١٢٧)

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ ((نُصْلِيهِ)) نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى ((اللَّهِ)) يَسِيرًا (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ((نُكَفِّرْ)) عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ((وَنُدْخِلْكُمْ)) مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١) ﴾ النساء.

يقول أبو السعود: وإظهارُ الاسمِ الجليلِ –على (الله)- بطريق الالتفات لتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ استقلالِ الاعتراضِ التذييليِّ.

** ﴿ **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ((نُكَفِّرْ)) عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ((وَنُدْخِلْكُمْ)) مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١)** ﴾.ويقول الإمام الألوسى: وقيل: يحتمل أن يراد به الشرك نُكَفِّرْ أي نغفر ونمحو، واختيار ما يدل على العظمة بطريق الالتفات**(نُكَفِّرْ) (وَنُدْخِلْكُمْ)** تفخيماً لشأن ذلك الغفران.

** ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**- ولم يقل بإذننا- **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ**- ولم يقل (واستغفرت أنت لهم) إبرازاً لصفة الرسالة فيه وأنه رسول الله الكريم عليه، وكما يقول الإمام ابو السعود: {واستغفر لَهُمُ الرسول} على طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسولِ الله (ﷺ) وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعتَه في حيِّز القَبول لأنه رسول.

- **وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤)** ﴾ ثم يلتفت إلى الرسول (ﷺ) تعظيماً له بصيغة الربوبية الخاصة به والحانية عليه قائلاً: (**فَلَا** (**وَرَبِّكَ**) **لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)**) النساء.

****

** ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)** ﴾ النساء.

ويقول الإمام الطاهر: فَإِنَّ اسْمَ الْجَلَالَةِ -**وَعْدَ اللَّهِ**- أَعْظَمُ مِنْ بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ لِأَنَّهُ عِلْمُ الذَّاتِ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ مَوْجُودٌ فِي إِطْلَاقِهِ وَلَا فِي مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ الْمَنْقُولِ مِنْهُ إِلَى الْعِلْمِيَّةِ.(٥)

---

(٥)قَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» : (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا) هُمَا مَصْدَرَانِ: الْأَوَّلُ: مُؤَكِّدٌ لِنَفْسِهِ، كأنه قال: وعد وعدا وحقا مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِغَيْرِهِ، أَيْ حَقَّ ذَلِكَ حَقًّا. ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا وَهُوَ تَوْكِيدٌ ثَالِثٌ بَلِيغٌ. وَفَائِدَةُ هَذِهِ التَّوْكِيدَاتِ مُعَارَضَةُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْطَانُ لِأَتْبَاعِهِ مِنَ الْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ وَالْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ وَعْدَ اللَّه أَوْلَى بِالْقَبُولِ وَأَحَقُّ بالتَّصْدِيقِ مِنْ قَوْلِ الشَّيْطَانِ الَّذِي لَيْسَ أَحَدٌ أَكْذَبَ مِنْهُ

**** ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا (٣٧) ﴾ الأعراف.** وهذا المثال لا يحتاج إلى تعليق.

****﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ (وَصَّيْنَا) الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) ﴾ النساء**

**** ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ (رَبِّكُمْ)** - ويقول الألوسى: والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبينَ لإظهار اللُّطفِ بهم (**رَبِّكُمْ**) والإيذان بأن مجيئَه إليهم لتربيتهم وتكميلِهم. - (**وَأَنْزَلْنَا**) **إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا (بِهِ) (فَسَيُدْخِلُهُمْ)** - "هو" بدلاً من (فسندخلهم)- **فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ (وَيَهْدِيهِمْ) إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**- "هو" بدلاً من (وسنهديهم)- **(١٧٥) ﴾** النساء.

يقول أبو السعود: وعبر عن ملابسته للمخاطَبين(جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ) تارةً بالمجيء المسنَدِ إليه (**مِنْ** (**رَبِّكُمْ**)) المنبيء عن كمال قوتِه في البرهانية (جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ (رَبِّكُمْ) كأنه يجيء بنفسه – دليل القوة- فيُثبِتُ أحكامَه من غير أن يجيءَ به أحدٌ، فهو يجيء على شُبَه الكفرةِ بالإبطال، وأخرى بالإنزال الموُقَعِ عليه((**وَأَنْزَلْنَا**) **إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا**) الملائمِ لحيثية كونِه نوراً – والنور يأتى عادة من فوق لأن مصدر النور الأقوى ينظر فيه إلى الشمس- توقيرا له **(بقوله أنزلنا)** ، وإسنادُ إنزالِه إليه تعالى بطريق الالتفاتِ لكمال تشريفِه هذا على تقديرِ كونِ البرهانِ عبارةً عن القرآن العظيمِ وأما على تقدير كونِه عبارةً عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرةِ على يده أو عن الدينِ الحقِّ فالأمرُ هيِّنٌ، وقولُه تعالى **إِلَيْكُمْ** – أنزلنا إليكم- متعلقٌ بإنزالنا فإن إنزالَه بالذات وإن كان إلى النبيِّ صلَّى الله عليهِ

(وأقول- إضافة للالتفات فى لفظ الجلالة لما ذكرناه-: لأجل تلك التوكيدات كرر لفظ الجلالة (الله) وأظهره فى مقام الإضمار هكذا(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) وكان يمكن أن يقال: (ومن أصدق منه قيلاً)

وسلم لكنه منزلٌ إليهم أيضاً بواسطته عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإنَّما اعتبر حاله – ولم يقل أنزلنا إليه أو عليه–لإظهار كمالِ اللطفِ بهم والتصريح بوصوله إليهم مبالغا في الإعذار، وتقديمُه على المفعول الصريحِ – (وأنزلنا إليكم نورا، وحقها أن تكون وأنزلنا نوراً إليكم)– مع أن حقَّه التأخرُ عنه لما مر غيرَ مرة من الاهتمامِ بما قُدِّمَ–(إليكم)– والتشويق إلى ما أُخِّر–(نورا)– وللمحافظة على فواصلِ الآيِ الكريمة.

(ونلاحظ أن (البرهان)يعبر عنه بأنه (جاء) ليفند مزاعم الشرك وأباطيله عن طريق النبى محمد(ﷺ)، فقال (جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ))

أما النور– وهو القرآن الكريم والوحى الإلهى– فأنزله (إليكم) لينير (لكم) الطريق، وجاء مسنداً به لله الذى هو مصدر هذا الضوء الذى يعطيه القوة والاستمرار ولذلك جاء به بصيغة الجمع تعظيماً وتكثيراً لهذا النور الذى قال فيه(لكم) مع صيغة الإنزال فقال(أنزلنا).

ولقد أشار الإمام الرازى لمثل ذلك القول– فى الفرق بين (جاء) هنا و(أنزلنا) هناك فقال: وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى: لَمَّا أَوْرَدَ الْحُجَّةَ عَلَى جَمِيعِ الْفِرَق مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى(٦) وَأَجَابَ عَنْ جَمِيع شُبُهَاتِهِمْ عَمَّمَ الْخِطَابَ(يَا أَيُّهَا النَّاسُ). وَدَعَا جَمِيعَ النَّاس إِلَى الِاعْتِرَافِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَالْبُرْهَانُ هُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،(وأقول: لذلك ناسبه لفظ المجىء–وهو الحركة الأرضية لمحمد(ﷺ)–) وَإِنَّمَا سَمَّاهُ بُرْهَانًا لِأَنَّ حِرْفَتَهُ إِقَامَةُ الْبُرْهَان عَلَى تَحْقِيق الْحَقِّ وَإِبْطَال الْبَاطِلِ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ هُوَ الْقُرْآنُ، وَسَمَّاهُ نُورًا لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِوُقُوعِ نُور الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ،(وأقول: هو نازل من أعلى فقال (أنزلنا) وبصيغة الجمع أيضاً التى تفيد التشريف والتعظيم، وعلى قول الدكتور حسن طبل– الذى ارتضيناه فى أمثلة شبيهة– فإنه جاء بصيغة الجمع التعظيمى والخطاب المباشر لأن القرآن هو الجانب الغيبى الذى يحتاج التوكيد

---

(٦)–فى السياق قبلها(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢))–

عليه وعلى مصدره فقال(أنزلنا) بصيغة الجمع التوكيدى، أما البرهان الذى هو النبى (ﷺ) فهو الجانب الظاهر فقال جاءكم برهان).

وهو سبحانه يعرفهم بمصدر الحنان والعطف عليهم فقال: (ربكم) ثم يعرفهم أن هذا الرب ذو العظمة والقوة والجلال المناسب لإنزال النور فقال:(وأنزلنا) وأرجو من القارىء الكريم- وأكرر الرجاء- أن يعيد قراءة الآية بهذا الالتفات ويتذوقه، ثم يعيد قراءته بدون هذا الالتفات ولينظر إلى مدى الهبوط والتدنى عن هذه القمة السامقة.

وقال صاحب تفسير الوسيط: وقال (إِلَيْكُمْ) – أنزلنا إليكم- مع أن المنزل عليه هو النبي صلى الله عليه وسلم للإشعار بكمال اللطف بهم، وللمبالغة في إزالة أعذارهم.((وهذا التفات آخر له جماله الذى لا ينكر))

ويقول الألوسى: ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ** -وهو التوحيد الذاتي، **وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً** وهو ((التفصيل)) في عين الجمع ((وأقول: وقوله: وهو التوحيد الذاتي .. يتناسب أيضاً مع إفراد الرب (ربكم)) -**قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ** –(وخاصة أنها جاءت بعد سياق مفعم بالتوحيد فى الآيات قبلها حتى قوله: (**إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ**) إثبات لوحدانية الله- تعالى- بأقوى طريق. أى: إن المعبود بحق ليس إلا واحد، وهو الله- تعالى- ذو الجلال والإكرام، الخالق لهذا الكون، والمدبر لأمره.

وقوله (**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً**) وهو ((التفصيل)) في عين الجمع هذا يتناسب مع صيغة الجمع أيضاً فى قوله(وأنزلنا)).

﴿ (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ولم يقل (بحمدنا)- والتعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيةِ بطريقِ الالتفاتِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم- **بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** -للإشعارِ بعِلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ وبأنَّهم يفعلونهما بملاحظةِ ربوبيتِه تعالى لهم-ويقول الإمام الطاهر: وَأُوثِرَتْ **صِيغَةُ الْمُضَارِعِ** فِي إِنَّما

(يُؤْمِنُ) لِمَا تُشْعِرُ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ يَتَجَدَّدُونَ فِي الْإِيمَانِ وَيَزْدَادُونَ يَقِينًا وَقْتًا فَوَقْتًا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **اللَّهُ (يَسْتَهْزِئُ) بِهِمْ** فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٥] ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ حَصَلَ إِيمَانُهُمْ فِيمَا مَضَى فَفِعْلُ الْمُضِيِّ آثَرُ بِحِكَايَةِ حَالِهِمْ فِي الْكَلَامِ الْمُتَدَاوَلِ لَوْلَا هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ- الإشارة إلى تجديد إيمانهم- وَلِهَذَا عُرِّفُوا بِالْمَوْصُولِيَّةِ وَالصِّلَةِ- يقصد قوله تعالى: **الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**- الدَّالِّ مَعْنَاهَا عَلَى أَنَّهُمْ رَاسِخُونَ فِي الْإِيمَانِ (وخاصة أنها جاءت بصيغة الماضى الدالة على الثبوت والرسوخ والتحقيق-، فَعَبَّرَ عَنْ إِبْلَاغِهِمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهَا عَلَى أَسْمَاعِهِمْ بِالتَّذْكِيرِ- إذا ذكروا..- الْمُقْتَضِي أَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ الْآيَاتُ حَقَائِقُ مُقَرَّرَةٌ عِنْدَهُمْ لَا يُفَادُونَ بِهَا فَائِدَةً لَمْ تَكُنْ حَاصِلَةً فِي نُفُوسِهِمْ وَلَكِنَّهَا تُكْسِبُهُمْ تَذْكِيرًا فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (الذاريات:٥٥)—يقصد أن آيات ربهم هى راسخة فى قلوبهم ويقينهم ولكنها تحتاج إلى تذكير فقط ولذلك قال (إذا ذكروا بها..)-. وَهَذِهِ الصِّفَةُ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الصِّلَةُ هِيَ حَالُهُمُ الَّتِي عُرِفُوا بِهَا- وهو ما تفيده صيغة الماضى- لِقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ وَتَمَيَّزُوا بِهَا عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ..

****

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ — وكان حقها: ومما رزقهم يُنْفِقُونَ (١٦) ويقول الإمام الطاهر: وَجُمْلَةُ **تَتَجافى** جُنُوبُهُمْ .. جِيءَ فِيهَا بِالْمُضَارِعِ لِإِفَادَةِ تَكَرُّرِ ذَلِكَ وَتُجَدُّدِهِ مِنْهُمْ فِي أَجْزَاءٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ الْمعدة للاضطجاع وَهِيَ الْأَوْقَاتُ الَّتِي الشَّأْنُ فِيهَا النَّوْمُ. وَالتَّجَافِي: التَّبَاعُدُ وَالْمُتَارَكَةُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ تَجَافِيَ جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ **يَتَكَرَّرُ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ**، أَيْ: يُكْثِرُونَ السَّهَرَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ وَالدُّعَاءِ لِلَّهِ

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ (رَبِّهِ) ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا (إِنَّا) مِنَ (الْمُجْرِمِينَ) — بدلاً من"إنا منهم"- **مُنْتَقِمُونَ (٢٢) ﴾** وَالْمُرَادُ بِالْمُجْرِمِينَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ، عَدَلَ عَنْ ذِكْرِ

ضَمِيرِهِمْ لِزِيَادَةِ تَسْجِيلِ فَظَاعَةِ حَالِهِمْ بِأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ مَعَ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ.(وهو إظهار فى مقام الإضمار).إضافة إلى جلال الالتفات (**بآيَاتِ (رَبِّهِ)** ..(**إِنَّا**) **وروعته لمن يتذوق**

﴿ (فَأغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾ المائدة.

والالتفاتُ إلى ذكر الاسم الجديد (الله) لتربية المهابة وإدخال الروعة لتشديد الوعيد، والتعبيرُ عن العمل بالصنع (يَصْنَعُونَ) للإيذان برسوخهم في ذلك.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) ﴾ المائدة.

{قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا} الاضافة للتشريف والايذان بموجوب اتباعه وقوله تعالى **{يُبَيّنُ لَكُمْ}** حال من رسولنا وإيثارُ الجملة الفعلية- يُبَيِّنُ- على غيرها للدَلالة على تجدّد البيان أي قد جائكم رسولُنا حال كونه **مبيِّناً لكم على التدريج** حسبما تقتضيه المصلحة **{ يُبَيّنُ لَكُمْ كَثِيراً مّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ}**...

****

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾.الأنعام ويقول الإمام أبو السعود: والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ- **أَتَاهُمْ نَصْرُنَا**- لإبراز الاعتناء بشأن النصر.

وقوله تعالى **{وَلاَ مُبَدّلَ لكلمات الله}** هى جملة اعتراضية ويمكن أن تستقل بنفسها وتردد كمثلٍ يُضرب، ولذلك أظهر فيها لفظ الجلالة (الله) بدلاً من إضماره حيث كان حقها أن تكون (ولا مبدل لكلماتنا) ووقتها لم تصلح كجملة مستقلة – وهو ما يسميه العلماء جملة اعتراضية- وكما يقول الإمام: اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبله من إتيان نصره إياهم، والمراد بكلماته تعالى ما ينبىء عنه قوله تعالى (**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون**) ... والالتفاتُ

إلى الإسم الجليل- فى قوله: **وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**- للإشعار بعلَّةِ الحُكم، **فإنَّ الألوهية من موجبات أن لا يغالبه أحدٌ في فعلٍ من الأفعال ولا يقعَ منه تعالى خُلْفٌ في قول من الأقوال.**

ووالله لقد أحسست بهذه الرجفة عند وقوفى على هذا الاسم الجليل.

****

** ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ ويقول الإمام أبو السعود: وقوله تعالى (حُجَّتُنَا) في إضافتها إلى نون العظمةِ من التفخيم ما لا يخفى ويقول الإمام الطاهر: وَإِضَافَةُ الْحُجَّةِ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهَا وَصِحَّتِهَا. (نَرْفَعُ) بنون العظمةِ وقرىء بالياء على طريق الالتفات وكذا الفعل الآتي (درجات) أي رتباً عظيمةً عالية من العلم والحكمة ، (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) وفي وضع الرَّبِّ مُضافاً إلى ضميرِه عليهِ السَّلامُ موضِعَ نونِ العظمةِ- بدلاً من: إننا- بطريق الالتفاتِ في تضاعيف بيان أحوال إبراهيم عليه السلام – إن ربك- إظهارٌ لمزيد لُطفٍ وعنايةٍ به عليه السلام.

**ومثلها فى الأنعام:﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ – إفراد الرب وضمير الغيبة عنهم الذى سيتحول إلى صيغة الحضور والمواجهة- ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ – أنتم- إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) ﴾ وإيرادُ ضمير الأنعام والدواب على صيغة جمع العقلاء- فى قوله: ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ-(بدل من "ربها") عن أمم الطيور والأنعام التى لا تعقل- لإجرائها مُجراهم-أى مجرى العقلاء، والتعبير عنها بالأمم أي إلى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا إلى غيره فيجازيهم فيُنصِفُ بعضَهم من بعض حتى يبلُغ من عدله أن يأخذ للجّماءِ من القَرْناء

** ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ

فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً **فَأَخْرَجْنَا** بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ **فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ** خَضِرًا **نُخْرِجُ** مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

{فأخرجنا به} التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أُنزل الماءُ لأجله أي فأخرجنا بعظمتِنا بذلك الماءِ مع وحْدته .. وليرجع القارىء لما عشناه مع تلك الأمثلة الشبيهة على الصفحات الماضية وقد أوضحنا أنه يأتى بنون الجمع والظهور فى الموقف الذى نزل لأجله الماء (وهو المشهد الذى يستحق الظهور) فالمسألة مسألة غيب وحضور يناسبها ذلك فى الضمائر

** ﴿ **كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ**– بدلاً من "ثم إلينا"– **مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)** ﴾ **الأنعام.**

****

وقفة هامة ومناقشة لطيفة مع قوله تعالى:

** ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) .. ﴾ الأنعام

**** ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ الأنعام...**

وقد لاحظنا أن المتحدث هنا هو الله تعالى بداية من قوله تعالى (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا**..) (٧)ولكنه سيتغير فى نفس السياق ليكون المتحدث هو رسول الله (ﷺ) بدون فعل القول- أى لم يقل النظم (قل يا محمد)- بل قال مباشرة: **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا** ثم بعدها فى نفس السياق **وبدون فاصل- وفى نفس الجلسة-** يتولى هو سبحانه الخطاب هكذا: **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** (فمن القائل؟ إنه الله. ولمن؟ إنه يقول ذلك لمحمد(ﷺ) بعد أن كان محمد(ﷺ) هو المتكلم) ثم يستمر الخطاب من الله **لنبيه محمد**(ﷺ)، ولكنه فجأة وفى نفس السياق- وفى نفس الجلسة- يتحول خطاب رب العزة (ملتفتاً عن محمد(ﷺ) ومتوجهاً لباقى الأمة أو الحضور هكذا: **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)**..

والقارىء يرى أن هذه الالتفاتات قد تمت دون أن يشعر بها القارىء لسلاستها وسرعتها دون توقف أو ورود لفظ القول(قال أو قل) أو حتى توهم لهذا القول، ولكنه هو الالتفات الجميل العذب الذى ينقل لنا الحدث بأشخاصه ويصوره تصويراً حياً- على الهواء مباشرة-أمام أعيننا- ولم يعد حكاية أقوال تحكى لنا- كالقاضى الذى يجلس على المنصة- ولله المثل الأعلى- ويخاطب- أمام أعيننا- الشاهد ثم ينتقل فى نفس اللحظة ليخاطب المتهم أو الحضور ثم ينطق الشاهد

---

(٧)-{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ} .. والتعرضُ لوصفِ الربوبيةِ مع الإضافةِ إلى ضميره صلى الله عليه وسلم المُعربة عن كمال اللطفِ في التسلية.. ومثلها قوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) فهو التفات لتسلية الحبيب(ﷺ) وَأَعْقَبَ التَّسْلِيَةَ بِالْوَعْدِ بهدَايَةِ كَثِيرٍ مِمَّنْ هُمْ يَوْمَئِذٍ مُعْرِضُونَ عَنْهُ كَمَا قَالَ النَّبِيءُ (ﷺ): «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ» وَبِأَنَّهُ يَنْصُرُهُ عَلَى الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى عَدَاوَتِهِ لِأَنَّ قَوْلَهُ: وَكَفَى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً تَعْرِيضٌ بِأَنْ يُفَوِّضَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ كَافٍ فِي الْهِدَايَةِ وَالنَّصْرِ.

ويخاطب غيره ونشترك نحن الحضور فى الحديث ولم نعد من المتفرجين فقط، وهذا الأسلوب وهذا المنهج قد تعودنا عليه وعشناه فى نماذج كثيرة أذكِّر القارىء الكريم بمثال سريع ذكرناه من سورة الصافات﴿ **وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)** ﴾...

(**وَقَالُوا**- وهم فى الدنيا- **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** – ولم يقل: فإذا أنتم تنظرون ولاحظ انتقال مشهدهم فى عرضات القيامة دون أن نشعر بها-(١٩) **وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** – من الذى يقول ذلك؟ إنه الله ويقوله لهم- المتهمين - ولكن كيف حدث؟إنه العجب. ولاحظ أنه يكلمهم هنا ثم فى الآية التالية – **فى نفس الجلسة – سيخاطب الملائكة** بدون توقف أو ورود فعل القول هكذا:(٢١) **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . ثم فجأة نجد النص التالى يقول:**(٢٤) **مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)** ؟

ويقف القارىء مدهوشاً: ممن يقول ذلك ؟ إنه يوجه خطابه ويعيد الالتفات لهؤلاء المتهمين الأول، ثم فى نفس الجلسة وبنفس السرعة وبجمال هذا الالتفات يقول: **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)!! ويستمر السؤال:** فلمن يقول هذا؟ إنه يقوله لنا نحن المشاهدون أو المتابعون أو من يهمه الأمر قبل يوم العرض، ثم يتحول بعد هذا العرض اللاهث والقوى **والذى انتهى فى سطرين بحكاية أمرهم لنا: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالوا..**

وهكذا حدثت هذه الالتفاتات بسرعة عجيبة وقد عشناها فى قاعة المحكمة وكنا مشاركين ولم نكن مستمعين لحكاية تحكى، وهكذا الحال مع آياتنا الكريمة، وهاهى الجلسة هى نفس الجلسة- ولكن مع اختلاف المكان والزمان والأشخاص – نعيد تأملها فى سياقها هكذا: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)** ﴾

ولكن البعض من أئمة التفسير يقدر فعل القول- ويقف عند ذلك القول فقط الذى لايصور الواقع ولا يشبع النفس المتأملة- و كما قال الإمام الطاهر:

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا: اسْتِئْنَافٌ بِخِطَابٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى رَسُوله (ﷺ) بِتَقْدِير الْأَمْرِ بِالْقَوْلِ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ [الْبَقَرَة: ٢٨٥] أَيْ يَقُولُونَ لانفرق، فى قوله تعالى(**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**-يقولون- **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)**

يريد الإمام أن يقول هنا بتقدير فعل القول: أى:((قل) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا..) ولكن المتأمل فى باقى النظم سيجد أن السياق لايمكن الوقوف معه عند هذا المقطع لأنه سيأتى هكذا: ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.** ﴾. فهل قوله: والذين آتيناهم... تخضع لتقدير فعل القول لمحمد(ﷺ)

وتتماشى مع السياق؟ لا أظن ذلك، ولكنه الالتفات الذى يأخذ بالقلوب ويطرب النفس فى سرعة عجيبة ومدهشة

والعجيب أن الإمام نفسه قد عدَّ ذلك الأمر التفاتاً فى شرح قوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)**﴾ ، قال: وَهُوَ يَحْتَمِلُ الِالْتِفَاتَ. (٨) وهو هو نفس السياق، ولعل الإمام يعتبر أن تقدير فعل (القول) هو من الالتفات وحينئذٍ لا يوجد تعارض بيننا هنا، ولكن البعض من العلماء حينما يذكر ذلك التقدير يقول: فهو ليس التفاتاً.. والإمام الطاهر (هنا) يقول: (**لَا نُفَرِّقُ**) ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ الِالْتِفَاتَ: بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَقُولِ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَعُطِفَ وَقَالُوا عَلَيْهِ)انتهى.

وهذا ما قاله أيضاً الإمام أبو السعود حيث قال: وقوله تعالى **{والذين آتيناهم الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مّن رَّبّكَ بالحق}** كلامٌ مستأنفٌ **غيرُ داخلٍ تحت القولِ المقدَّر** مَسوقٌ من جهته سبحانه لتحقيق حقِّيةِ الكتابِ .. وتقريرِ كونِه منزلا من عنده عزَّ وجلَّ(٩).

---

(٨)—ويقول فيه الإمام الطاهر: وَقَوْلُهُ: لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ قَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِنُونِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ (لَا نُفَرِّقُ) ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ الِالْتِفَاتَ: بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَقُولِ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَعُطِفَ وَقَالُوا عَلَيْهِ. أَوِ النُّونُ فِيهِ لِلْجَلَالَةِ أَيْ آمَنُوا فِي حَالِ أَنَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ، لِأَنَّنَا لَا نُفَرِّقُ، فَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ. وَقِيلَ: هُوَ مَقُولٌ لِقَوْلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ آمَنَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ اعْتِقَادٌ وَقَوْلٌ. وَقَرَأَهُ يَعْقُوبُ بِالْيَاءِ: عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ.

(٩)ولكن الإمام الطاهر يقول كلاماً طيباً نرى فيه كثرة الاحتمالات نأخذ بعضه ونترك الآخر وهو: وَجُمْلَةُ وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْقَوْلِ الْمَحْذُوفِ، فَتَكُونُ اسْتِئْنَافًا مِثْلَهُ، (أَوْ) مَعْطُوفَةً عَلَى جُمْلَةِ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي (أَوْ) عَلَى جُمْلَةِ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ، فَهُوَ عَطْفُ تَلْقِينٍ عُطِفَ بِهِ الْكَلَامُ الْمَنْسُوبُ إِلَى اللَّهِ عَلَى الْكَلَامِ الْمَنْسُوبِ إِلَى النبيء (ﷺ) تَعْضِيدًا لَمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ الْمَنْسُوبُ إِلَى النبيء (ﷺ) مِنْ كَوْنِ الْقُرْآنِ حَقًّا، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [الْبَقَرَة: ١٤٧] يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خطابا للنبيء (ﷺ)..وَالْمَقْصُودُ تَأْكِيدُ الْخَبَرِ كَقَوْلِ الْقَائِلِ بَعْدَ الْخَبَرِ: هَذَا مَا لَا شَكَّ فِيهِ، ..وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ، لِيَعُمَّ كُلَّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْخِطَابِ، أَيْ فَلَا تَكُونَنَّ– أَيُّهَا السَّامِعُ– مِنَ الْمُمْتَرِينَ، أَيِ الشَّاكِّينَ فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ..وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

ومهما كان من تنوع الآراء فإنه يبقى لنا النظم القرآنى اللذيذ والحبيب لنعيد تأمله وتذوقه مرات ومرات

تعقيب هام

قد تعمدنا التوسع والإسهاب فى شرح هذا المثال وذلك لأهميته فى فهم أسلوب الالتفات وتطبيقه على باقى الأمثلة الشبيهة .

ونعود للسياق: لنرى وضوح هذا الالتفات بين الإفراد والجمع وبين الحضور والغيبة وغيرها هكذا:

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ **مِنْ رَبِّكَ** بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤).. وَهَذَا **صِرَاطُ رَبِّكَ** مُسْتَقِيمًا **قَدْ فَصَّلْنَا** الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ﴾ الأنعام.. ويقول الإمام الطاهر: وَإِضَافَتُهُ إِلَى الرَّبِّ لِتَعْظِيمِ شَأْنِ الْمُضَافِ، فَيُعْلَمُ أَنَّهُ خَيْرُ صِرَاطٍ. وَإِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَى ضَمِيرِ الرَّسُولِ تَشْرِيفٌ لِلْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَتَرْضِيَةٌ لِلرَّسُولِ (ﷺ) بِمَا فِي هَذَا السَّنَنِ مِنْ بَقَاءِ بَعْضِ النَّاسِ غَيْرَ مُتَّبِعِينَ دِينَهُ.

. **.﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ **أَنَّ اللَّهَ** حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ **وَلَا تَتَّبِعْ** أَهْوَاءَ الَّذِينَ **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**) ﴾ الأنعام.

وكان حقها أن تكون (ولا تتبعوا أهواءهم) وَلكنه أَظْهَرَ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ قَوْلَهُ: **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا** لِأَنَّ فِي هَذِهِ الصِّلَةِ تَذْكِيرًا بِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وللدِلالة على أن من كذَّب بآياتِ الله تعالى وعدَل به غيرَه فهو متبع للهوى لا غيرُ وأن من اتبع الحجةَ لا يكون إلا مصدقاً بها ﴿ وَالَّذِينَ **لَا يُؤْمِنُونَ** بِالْآخِرَةِ **وَهُمْ بِرَبِّهِمْ** يَعْدِلُونَ (١٥٠)... **ثُمَّ آتَيْنَا** مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ **بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ** يُؤْمِنُونَ (١٥٤)... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ

وَالسَّلَامُ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ الْمُشْرِكُونَ الْمُمْتَرُونَ، عَلَى طَرِيقَةِ التَّعْرِيضِ، كَمَا يُقَالُ: (إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ) . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ [الزمر: ٦٥] . وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ.

بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا (**سَنَجْزِي**) الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ (**آيَاتِنَا**) سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا **كَانُوا يَصْدِفُونَ** (١٥٧) ﴾ **الأنعام.**

** ﴿ يَا بَنِي آدَمَ **قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ** لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى **ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** (٢٦) ﴾ الأعراف.

وقد وقفنا كثيراً على الالتفات فى ذات الله تعالى بين الجمع ثم الإفراد ، وهنا يضيف النص نوعاً آخر من الالتفات وهو ما سيشير إليه الإمام أبو السعود بكلام طيب فى قوله: وَضَمِيرُ الْغَيْبَةِ فِي: (**لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**) وكان حقها (لعلكم تذكرون) هو الِتْفَاتٌ، أَيْ جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ آيَةً لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ عَظِيمَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ وَاللُّطْفِ، **وَفِي هَذَا الِالْتِفَاتِ تَعْرِيضٌ بِمَنْ لَمْ يَتَذَكَّرْ مِنْ بَنِي آدَمَ فَكَأَنَّهُ (غَائِبٌ) عَنْ حَضْرَةِ الْخِطَابِ، عَلَى أَنَّ ضَمَائِرَ الْغَيْبَةِ، فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ فِي الْقُرْآنِ، كَثِيرًا مَا يُقْصَدُ بِهَا مشركو الْعَرَب.**

****

** ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ((**يَنْزِعُ**))عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ((**لِيُرِيَهُمَا**)) سَوْآتِهِمَا .. (٢٧) ﴾ **الأعراف.**

وَالتَّعْبِيرُ عَمَّا مَضَى بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ –((يَنْزِعُ)) **عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا** ((لِيُرِيَهُمَا))– لِاسْتِحْضَارِ الصُّورَةِ الْعَجِيبَةِ مِنْ تَمَكُّنِهِ مِنْ أَنْ يَتْرُكَهُمَا عُرْيَانَيْنِ.

****

** ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ **بِإِذْنِ رَبِّهِ** وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ **نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ** يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾ الأعراف.

﴿ تِلْكَ الْقُرَى **نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ **يَطْبَعُ اللَّهُ** عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) ﴾ الأعراف.

﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي **بَارَكْنَا** فِيهَا وَتَمَّتْ **كَلِمَتُ رَبِّكَ** الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا **وَدَمَّرْنَا** مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا **يَعْرِشُونَ** (١٣٧) ﴾ الأعراف.

﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً **وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ** فَتَمَّ **مِيقَاتُ رَبِّهِ** أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى **لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ.. ﴾ الأعراف.

** ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ **مِنْ رَبِّهِمْ** وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا **وَكَذَلِكَ نَجْزِي** الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ الأعراف.

﴿ (وَإِنْ تَعُودُوا **نَعُدْ – نحن- وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ **وَأَنَّ اللَّهَ** مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾ الأنفال.

﴿ (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ (رَبِّهِمْ**) (**فَأَهْلَكْنَاهُمْ**) بِذُنُوبِهِمْ (**وَأَغْرَقْنَا**) آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾ الأنفال. - وكان حقها (فأهلكهم بذنوبهم وأغرق آلَ فِرْعَوْنَ..)- وفيها يقول الإمام الألوسي: والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ في أهلكنا جرياً على سَنن الكبرياءِ لتهويل الخطبِ ....

ويضيف الإمام الطاهر قوله: وَذِكْرُ وَصْفِ الرُّبُوبِيَّةِ هُنَا –**كَذَّبُوا بِآيَاتِ** (**رَبِّهِمْ**)– دُونَ الِاسْمِ الْعَلَمِ (الله) لِزِيَادَةِ تَفْظِيعِ تَكْذِيبِهِمْ، لِأَنَّ الِاجْتِرَاءَ عَلَى اللَّهِ مَعَ مُلَاحَظَةِ كَوْنِهِ رَبًّا لِلْمُجْتَرِئِ، يَزِيدُ جَرَاءَتَهُ قُبْحًا لِإِشْعَارِهِ بِأَنَّهَا جَرَاءَةٌ فِي مَوْضِعِ الشُّكْرِ، لِأَنَّ الرَّبَّ يَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ.

****

** ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ (**اللَّهُ**) لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ (**فَنَذَرُ**)- **نحن**- الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ (**لِقَاءَنَا**) فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) ﴾ يونس.

ويقول الإمام أبو السعود: **{لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}** ..وفي إيثار صيغةِ المبنيِّ للمفعول(**لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**) **جري على سنن الكبرياء** – مما يعطى ظل الإهمال بهم وأنه سبحانه لا يهتم بهم –مع الإيذان بتعين الفاعلِ وقرىء على البناء للفاعل – فى قوله فنذر–نحن– كما قرىء (لقضينا) واختيارُ صيغةِ الاستقبال (**فنذر**) في الشرط وإن كان المعنى على المضيِّ– كما ورد فى السياق قبلها لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ – لإفادة أن عدم قضاءِ الأجلِ (لاستمرار) عدمِ التعجيل– الواضح فى قوله:(**فنذر**).

(**فَنَذَرُ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا**) بنون العظمة الدالة على التشديد في الوعيد.

يقول الإمام الطاهر: وَقَدْ جَاءَ نَظْمُ الْآيَةِ عَلَى إِيجَازٍ مُحْكَمٍ بَدِيعٍ، فَذُكِرَ فِي جَانِبِ الشَّرِّ يُعَجِّلُ الدَّالُّ عَلَى أَصْلِ جِنْسِ التَّعْجِيلِ (بدون مبالغة أو تكثير لهذا الشر) وَلَوْ بِأَقَلِّ مَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ مَعْنَاهُ، وَعُبِّرَ عَنْ تَعْجِيلِ اللَّهِ الْخَيْرَ لَهُمْ بِلَفْظِ اسْتِعْجالَهُمْ الدَّالِّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي التَّعْجِيلِ – أى أن الله يعجل لهم الخير تعجيلاً كثيراً ومضاعفاً– بِمَا تفيده زِيَادة السِّينِ وَالتَّاءِ

ونظراً لأن البعض من الدارسين يفهم بأن السين والتاء فى (استعجالهم) يفيد طلب الاستعجال، وهذا بالطبع هنا غير مراد وهو فهم خاطىء يوضحه لنا الإمام الطاهر حيث يقول: بِمَا تفيده زِيَادة السِّينِ وَالتَّاءِ لِغَيْرِ الطَّلَبِ إِذْ لَا يَظْهَرُ الطَّلَبُ هُنَا، وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِمُ: اسْتَأْخَرَ وَاسْتَقْدَمَ وَاسْتَجْلَبَ وَاسْتَقَامَ وَاسْتَبَانَ وَاسْتَجَابَ وَاسْتَمْتَعَ وَاسْتَكْبَرَ وَاسْتَخْفَى وَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ (نوح: ٧) .

فَلَيْسَ الِاسْتِعْجَالُ هُنَا بِمَعْنَى طَلَبِ التَّعْجِيلِ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَسْأَلُوا تَعْجِيلَ الْخَيْرِ وَلَا سَأَلُوهُ فَحَصَلَ، **بَلْ هُوَ بِمَعْنَى التَّعْجِيل الْكَثِيرِ** لهم من الله.

وَالْمَعْنَى: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرّ كَمَا يَجْعَل لَهُمُ الْخَيْرَ كَثِيرًا(استعجالهم بالخير)، .. وَفَاعِلُ الِاسْتِعْجَال هُوَ اللَّهُ تَعَالَى – وليس الناس هم الذين يستعجلون– كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ.

وعن الالتفات فى الحرف – وهو هنا حرف الباء فى قوله استعجالهم بالخير– يقول الإمام: وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: بِالْخَيْرِ لِتَأْكِيدِ اللُّصُوق، كَالَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ (الْمَائِدَة: ٦). وَأَصْلُهُ: اسْتِعْجَالَهُمُ الْخَيْرَ، فَدَلَّتِ الْمُبَالَغَةُ بِالسِّينِ وَالتَّاءِ وَتَأْكِيدُ اللُّصُوق – بالباء فى "بالخير"– عَلَى الِامْتِنَان بِأَنَّ الْخَيْرَ لَهُمْ كَثِيرٌ وَمَكِينٌ. وَقَدْ كَثُرَ اقْتِرَانُ مَفْعُولِ فِعْلِ الِاسْتِعْجَالِ بِهَذِهِ الْبَاءِ وَلَمْ يُنَبِّهُوا عَلَيْهِ فِي مَوَاقِعِهِ الْمُتَعَدِّدَة.

ويلتفت الإمام الزمخشرى لنوع آخر من الالتفات: وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) أصله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ تعجيله لهم الخير، فوضع اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم(وذلك فى قوله"استعجالهم")، حتى كأنّ استعجالهم بالخير عجيل لهم، والمراد أهل مكة وقولهم: فأمطر علينا حجارة من السماء، يعنى: ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ لأميتوا وأهلكوا. وقرئ: لقضى إليهم أجلهم، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل، وتنصره قراءة عبد الله: لقضينا إليهم أجلهم فإن قلت، فكيف اتصل به قوله فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وما معناه؟

قلت: قوله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ متضمن معنى نفى التعجيل، كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر، ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم فِي طُغْيانِهِمْ أى فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم، إلزاما للحجة عليهم.

**** ﴿ (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ يونس.** وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف ما لا يخفى.

****

** ﴿ (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ هود.

****

**﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ هود.

** ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ -هو- كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ- نحن- عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ يوسف..

وقرىء ليَصرف على إسناد الصرْف إلى ضمير الرب... **ويقول الإمام الطاهر:** وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْعِصْمَةِ بِالصَّرْفِ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ أَسْبَابَ حُصُولِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ صَرَفَهُمَا عَنْهُ. وقوله- سبحانه- **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**) بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله- تعالى- به، ورعايته له. فصيغة الجمع (لنصرف، عبادنا) لتعظيم هذا الأمر الذى هو صرف السوء والفحشاء عنه.

****

** ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾ الرعد.. تكلم غيبة.

** ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ (كِتَابٌ) (٣٨) ﴾

ولعلى أتجاوز حد الالتفات فى الأفعال والضمائر وأحيل القارىء إلى الالتفات حتى فى رسم الكلمة؛ حيث نجد لفظ الكتاب كتب على صورتين : الأولى بالألف(لِكُلِّ أَجَلٍ (كِتَابٌ) وفى نفس السياق تأتى الثانية بدون ألف(يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ ((أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ)) (٣٩)) وقد أشبعنا القول فى ذلك المثال وغيره من

آلاف الأمثلة فى كتابنا(موسوعة الجلال والجمال فى رسم الكلمة وجرسها فى القرآن)، وهو مجلدان، وهذا المثال فى المجلد الثانى فليراجعه القارىء.. وقد ذكرنا هناك أنه إذا كان الكتاب بصفة الخصوص فإنه يضهر الألف كالكتاب الذى أظهرت فيه آجال الأمم السابقة- المعلومة والخاصة- بخلاف الكتاب الجامع الذى يأتى فيه بصفة العموم كأم الكتاب هنا فإنه يأتى بدون ألف.. وغير ذلك من الأسباب والتوضيحات

****

﴿ (وَمَا أَرْسَلْنَا- نحن- **مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾** إبراهيم.

والالتفاتُ بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنِهما وترشيح مناطِ كلَ منهما .والعدولُ إلى صيغة الاستقبالِ (يضل) و(يهدى)- وكان يجب أن تكون على صيغة الماضى تناسقاً مع السياق قبلها هكذا:(وَمَا أَرْسَلْنَا- نحن- .. (**فَأَضَل**) **اللَّهُ مَنْ شَاءُ** (**وَهَدي**) **مَنْ شَاءُ**) أو (فأضللنا وهدينا)- ولكنه جاء على صيغة الاستقبال والحضور(يضل) و(يهدى) لاستحضار الصورةِ أو للدِّلالةِ على التَّجددِ والاستمرارِ حسب تجدد البيانِ من الرسل المتعاقبةِ عليهم السلام، وتقديمُ الإضلال على الهداية إما لأنه إبقاءُ ما كان على من كان- أى قبل هداية الرسل كان الناس على غير هداية-، والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيانِ أن لا تأثيرَ للتبيين والتذكير من قبل الرسلِ- الذين ذكر إرسالهم- وأن مدارَ الأمر إنما (هو مشيئتُه تعالى) بإيهام أن ترتبَ الضلالةِ على ذلك أسرعُ من ترتب الاهتداءِ، وهذا محقِّقٌ لما سلف من تقييد الإخراجِ مِّنَ الظلمات إِلَى النور بإذن الله تعالى- ولاحظ تقديم الظلمات على النور ولذلك قدّم يضل على يهدى-.

****

﴿ (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ (هُوَ) يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ .. (٢٦) ﴾ الحجر.

** **﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى (اللَّهُ) وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .. (٣٦) ﴾** النحل. وقد حدث الالتفات من الحضور إلى الغيبة ومن الجمع التعظيمى للإفراد التوحيدى كالمعتاد، ولكننا نلاحظ هنا حيث إنه قال فى حال الهداية(**من هدى الله**) ناسباً الهداية لله، ولكن فى الضلاله لم يقل(ومنهم من أضل الله) بل قال (**وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ**) حتى لا ينسب الضلالة لله تأدباً معه سبحانه فالخير كله بيديه والشر ليس إليه، وقد تغيير الأسلوبِ للإشعار بأن ذلك لسوء اختيارِهم الذى تسبب فى إضلالهم كقوله تعالى وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ

ويضيف الإمام الطاهر رأياً لطيفاً يقول فيه: وَالتَّعْبِيرُ فِي جَانِبِ الضَّلَالَةِ بِلَفْظِ « حَقَّتْ عَلَيْهِمْ » دُونَ إِسْنَادِ الْإِضْلَالِ إِلَى اللَّهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ لَمَّا نَهَاهُمْ عَنِ الضَّلَالَةِ فَقَدْ كَانَ تَصْمِيمُهُمْ عَلَيْهَا إِبْقَاءً لِضَلَالَتِهِمُ السَّابِقَةِ « فَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ » ، أَيْ ثَبَتَتْ وَلَمْ تَرْتَفِعْ. وَفِي ذَلِكَ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ بَقَاءَ الضَّلَالَةِ مِنْ كَسْبِ أَنْفُسِهِمْ

** **﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ النحل..** وتخصيصُ لفظة الجلالة بالذكر للإيذان بأنه متعيِّنُ الألوهية.

(**لاَ تَتَّخِذُواْ إلهين اثنين**) وإنما ذُكر العددُ(اثنين) مع أن صيغة التثنيةِ (إلهين) مغنيةٌ عن ذلكَ دلالةٌ على أنَّ مساق النهي هي الاثنَيْنيّة وأنها منافيةٌ للألوهية، كما أن وصفَ الإله بالوَحدة في قولِه تعالى **{إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ}** لدلالة على أن المقصودَ إثباتُ الوحدانية وأنها من لوازم الإلهية، وأما الإلهية فأمرٌ مسلَّمُ الثبوت له سبحانه وإليه أشير حيث أُسند إليه القول.فالكفار أنفسهم يعترفون بوجود إله ولكنهم يشركون به ويعددون.

ويوضح ذلك الإمام الطاهر بقوله: وَإِذْ نُهُوا عَنِ اتِّخَاذِ إِلَهَيْنِ فَقَدْ دَلَّ بِدَلَالَةِ الِاقْتِضَاءِ عَلَى إِبْطَالِ اتِّخَاذِ آلِهَةٍ كَثِيرَةٍ...

ويكمل: وَوَقَعَ فِي ضَمِيرِ (فَإِيَّايَ) الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ لِمُنَاسَبَةِ انْتِقَالِ الْكَلَامِ مِنْ تَقْرِيرِ دَلِيلِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ عَلَى وَجْهٍ كُلِّيٍّ إِلَى تَعْيِينِ هَذَا الْوَاحِدِ أَنَّهُ اللَّهُ مُنَزِّلُ الْقُرْآنِ تَحْقِيقًا لِتَقْرِيرِ الْعَقِيدَةِ الْأَصْلِيَّةِ. وَفِي هَذَا الِالْتِفَاتِ اهْتِمَامٌ بِالرَّهْبَةِ **لِمَا فِي الِالْتِفَاتِ مِنْ هَزِّ فَهْمِ الْمُخَاطَبِينَ.**

(**فإياي فارهبون**) التفاتٌ من الغَيبةِ (الله) إلى التَّكلمِ (فإياي فارهبون) لتربية المهابةِ وإلقاءِ الرهبة في القلوب، ولذلك قدَّم وكرر الفعلَ أي إن كنتم راهبين شيئاً فإيايَ ارهبوا فارهبوا لا غيرُ فإني ذلك الواحدُ الذي يسجُد لَّهُ مَا فِي السموات والارض

ويوضح ذلك الإمام الألوسى: وإما قوله تعالى: **فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ففيه التفات من الغيبة إلى التكلم على مذهب الجمهور أيضا، **والنكتة فيه بعد النكتة العامة - أعني الإيقاظ وتطرية الإصغاء - المبالغة في التخويف والترهيب فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام.**

ثم يعود للفظ الغيبة مرة ثانية ﴿ **وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** (٥٢) ﴾ .. لِأَنَّ عَظَمَةَ الْإِلَهِيَّةِ اقْتَضَتِ الرَّهْبَةَ مِنْهُ وَقَصْرَهَا عَلَيْهِ(ولذلك ناسبها الحديث عنه سبحانه بصيغة الغيبة (وله) ولينسب إليه الصفات الخاصة به سبحانه).

****

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

ويقول الإمام الطاهر: وَالِاخْتِلَافُ فِي الأسلوب- بين الإفراد والجمع- إِنَّمَا يومىء إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَقْصُودِ أَوَّلًا وَالْمَقْصُودِ ثَانِيًا(ولها تفصيل طويل لاداعى لنقله هنا وليعد إليه القارىء فى كتب التفسير).

(فهو ينفق) **وَجَعَلَ الْفِعْلَ مُضَارِعًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالتَّكَرُّرِ. أَيْ يُنْفِقُ وَيَزِيدُ.**

****

** ﴿ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ** آمَنُوا (**بِرَبِّهِمْ**) **وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** (١٣).. وَكَذَلِكَ **أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** .. (**٢١**) ﴾ (آمنوا بربهم) أوثر الالتفاتُ- بربهم- للإشعار بعلّية وصفِ الربوبية لإيمانهم، ولمراعاة ما صدرَ عنهُم من المقالة حسبما سيُحكى عنهم(**إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**).

وفي (زِدْناهُمْ) التفات من الغيبة إلى التكلم الذي عليه سبك النظم الكريم سباقا وسياقا، وفيه من تعظيم أمر الزيادة ما فيه (**وزدناهم**) (**وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ**).

****

﴿ وَاضْرِبْ **لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ** مِنَ السَّمَاءِ **فَاخْتَلَطَ** بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ **فَأَصْبَحَ** هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ **وَكَانَ اللَّهُ** عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (**٤٥**) ﴾ الكهف.

** ﴿ (**مَا** (**أَنْزَلْنَا**) عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) **إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى** (٣) **تَنْزِيلًا مِمَّنْ** (**خَلَقَ**) **الْأَرْضَ** وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى – هو و لم يقل خلقنا-(**٤**) ﴾ **طه.**

﴿ وَكَذَلِكَ (أَنْزَلْنَاهُ**) قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** (**١١٣**) **فَتَعَالَى اللَّهُ** الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا **تَعْجَلْ** بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ **يُقْضَى** إِلَيْكَ وَحْيُهُ **وَقُلْ رَبِّ** زِدْنِي عِلْمًا (**١١٤**))**طه.**

﴿ (وَكَذَلِكَ نَجْزِي** مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ **بِآيَاتِ رَبِّهِ** (**١٢٧**) ﴾ تكلم و غيبة.

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى **مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ **وَرِزْقُ رَبِّكَ** خَيْرٌ وَأَبْقَى (**١٣١**) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا **لَا نَسْأَلُكَ** رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (**١٣٢**)) ﴾ **طه.**

﴿ (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ** عَلَى الْبَاطِلِ **فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ** زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) **وَلَهُ** مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ **وَمَنْ عِنْدَهُ لَا** يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (**١٩**) ﴾.الأنبياء يقول الإمام أبو السعود: (**فَإِذَا هُوَ** زَاهِقٌ) أي ذاهب بالكلية **وفي إذا الفجائية والجملة الاسمية (هو زاهق) من الدلالة على كمال المسارعةِ في الذهاب والبطلان** مالا يخفى فكأنه زاهقٌ من الأصل.(ولذلك لم يقل(فيزهق))

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ الأنبياء. غيبة و تكلم.

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (**٣٢**) **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ** وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ **فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (**٣٣**) ﴾ **الأنبياء.**

﴿ (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ **مِنَ الرَّحْمَنِ** بَلْ هُمْ عَنْ **ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ** (**٤٢**) ﴾ **الأنبياء..** يقول الإمام أبو السعود: وفي التعرض لعنوان الرحمانية- مِنَ الرَّحْمَنِ- ولم يقل(منه)- إيذان بأن كلئهم ليس إلا رحمتُه العامةُ .. وإيرادِ اسمِ الرب المضافِ إلى ضميرهم- ذكر ربهم- المنبىء عن كونهم تحت ملكوتِه وتدبيره وتربيتِه تعالى من الدلالة على كونهم في الغايةِ القاصيةِ من الضلالة والغيّ مالا يخفى- فهو معهم فى غاية الرحمة وهم معه فى غاية العصيان والمحاربة-

وأرجو من القارىء الكريم أن يعيد تذوق هذه الآية بغير هذا الالتفات مع استبدال لفظ الرحمن ولينظر ماذا جنى .. ويضيف الإمام الألوسى قوله: وقيل إن ذلك إيماء إلى أن بأسه تعالى إذا أراد شديد أليم ولذا يقال نعوذ بالله عز وجل من **غضب الحليم**، وتنديم لهم حيث عذبهم من غلبت رحمته ودلالة على شدة خبثهم.

وهكذا أتى السياق بصيغة الغائب﴿ **قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ) ﴾ مع مواجهتهم (**قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ** – أنتم-) ثم يتغير النظم فى نفس السياق- عكس هذا المسار- هكذا: **أَمْ** (**لَهُمْ**)- هم بدلاً من أنتم- **أَمْ** (**لَهُمْ**)آلِهَةٌ

تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا –(نحن بدلاً من هو)– **لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ (مِنَّا) يُصْحَبُونَ** (٤٣) **بَلْ (مَتَّعْنَا) هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** (٤٤).. ثم يتغير– يلتفت– السياق مرة ثانية هكذا: **قُلْ إِنَّما (أُنْذِرُكُمْ)** - أنتم بدلاً من هم– **بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ** – بدلاً من قوله (ولا تسمعون) فوضَعَ المُظهرَ موضعَ المُضمر للتسجيل عليهم بالتصامّ – **إِذا مَا يُنْذَرُونَ**– هم– **(٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ** - هم– **نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ**– هم– **يَا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ** (٤٦) **وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ** – هكذا التفت الحديث بعيداً عنهم وأخذ صفة العمومية لأى نفس– المخاطبة وغير المخاطبة– **فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى (بِنا) حاسِبِينَ** (٤٧)﴾

وهنا يطيب لنا أن نقف على بعض الوقفات مع أئمتنا الأعلام فى تذوقهم لهذا الجمال حيث يقول الإمام الألوسى: وقوله تعالى: **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا** إعراض عن وصفهم بالإعراض (إلى توبيخهم) باعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها، (وأقول: وكأنه ترك مخاطبتهم وتعنيفهم ثم توجه إلينا بالخطاب للتشهير بهم وبفعلهم وحكاية جرمهم لنا).

ويضيف الإمام: وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر – (أم لهم آلهة تمنعهم) – لا إلى نفس الصفة بأن يقال (أم تمنعهم آلهتهم) إلخ من الدلالة على سقوطها–أى الآلهة– عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى(فلذلك لم يقدم فعل (المنع) لهم لأنهم لا يملكونها واحتقارا لها).

وأقول: هذا كلام رائع ما أجمله ولا يحتاج إلا إلى إعادة القراءة والتذوق.

ويضيف: وقوله تعالى: بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ إلخ .. وأخرجهم عن الخطاب – لم يقل بل متعتكم– **عدم مبالاة بهم، وفي العدول إلى الإشارة عن الضمير إشارة إلى تحقيرهم ..**

ويقول الإمام الطاهر: وَقَدْ وُجِّهَ الْخِطَابُ إِلَيْهِمُ ابْتِدَاءً بِقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْخِطَابِ إِلَى طَرِيقِ الْغَيْبَةِ لِأَنَّ مَا وُجِّهَ إِلَيْهِمْ مِنْ إِنْكَارِ أَنْ يَكْلَأَهُمْ أَحَدٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ جَعَلَهُمْ أَحْرِيَاءَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ الْآيَةَ فِي سُورَةِ [يُونُسَ: ٢٢] .

** ﴿ (وَنَضَعُ) الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ (أَتَيْنَا) بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ وَتَكُونَ نُونُ الْمُتَكَلِّمِ (نضع، أتينا) الْمُعَظَّمِ الْتِفَاتًا لِمُنَاسِبَةِ الْجَزَاءِ لِلْأَعْمَالِ ..

****

** ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ غيبة تكلم

** ﴿ (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ (رَبِّ) - بصيغة الإفراد، ولاحظ تناغم الإفراد مع السياق بعدها:- لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) (فَاسْتَجَبْنَا) لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى (وَأَصْلَحْنَا) لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ (وَيَدْعُونَنَا) رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا (لَنَا) خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ الأنبياء.

****

**﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ (جَعَلْنَا) مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ (وَالْمُقِيمِي) الصَّلَاةِ وَمِمَّا (رَزَقْنَاهُمْ) يُنْفِقُونَ (٣٥).. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ (مَكَّنَّاهُمْ) فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١).. وَمَا (أَرْسَلْنَا) مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)..

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا (بِآيَاتِنَا) فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) ﴾ -

**** ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ (جَعَلْنَا) مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧)** ﴾ الحج.

**** ﴿ ثُمَّ (خَلَقْنَا) النُّطْفَةَ عَلَقَةً (فَخَلَقْنَا) الْعَلَقَةَ مُضْغَةً (فَخَلَقْنَا) الْمُضْغَةَ عِظَامًا (فَكَسَوْنَا) الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ (أَنْشَأْنَاهُ) خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)** ﴾ **المؤمنون.** وفيها يقول الإمام أبو السعود: (**فَتَبَارَكَ اللهُ**) فتعالى شأنُه في علمه الشَّاملِ وقُدرتهِ الباهرة والالتفات إلى الإسم الجليل - **فَتَبَارَكَ اللَّهُ**- لتربية المهابةِ وإدخال الرَّوعة والإشعارِ بأنَّ ما ذُكر من الأفاعيلِ العجيبة من أحكام الأُلوهيَّةِ، ..

ويلفت الإمام الألوسى نظرنا إلى نوع آخر من الالتفات فى قوله: وجمع الْعِظَامَ دون غيرها-من نطفة وعلقة مما في الأطوار لأنها متغايرة هيئة وصلابة بخلاف غيرها ألا ترى عظم الساق وعظم الأصابع وأطراف الأضلاع.

**** (**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)**) المؤمنون. ويقول الإمام الطاهر: وَنُقِلَ الْكَلَامُ مِنَ الْغَيْبَةِ -**ثُمَّ** (**أَنْشَأْنَاهُ**) **خَلْقًا آخَرَ**- إِلَى الْخِطَابِ- ثُمَّ إِنَّكُمْ- عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، وَنُكْتَتُهُ هُنَا أَنَّ الْمَقْصُودَ التَّذْكِيرُ بِالْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعْرِيضِ بِالتَّخْوِيفِ وَإِنَّمَا يُنَاسِبه الْخطاب(إنكم).

**** (**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)**) ولم يقل(وما كنا عنكم غافلين)

وفيها يقول يقول الإمام الطاهر: والعدول عَنِ الْإِضْمَار- وَمَا كُنَّا عَنكم- إِلَى الْإِظْهَار -**وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْق** - لِمَا يُفِيدُهُ الْمُشْتَقُّ مِنْ مَعْنَى التَّعْلِيلِ، **أَيْ مَا كُنَّا عَنْكُمْ غَافِلِينَ لِأَنَّكُمْ مَخْلُوقَاتُنَا** فَنَحْنُ نُعَامِلُكُمْ بِوَصْفِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَفِي ذَلِكَ تَنْبِيهٌ عَلَى وُجُوبِ الشُّكْرِ وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الْكفْر.

****

**﴿ (فَأَرْسَلْنَا) ((فِيهِمْ)) -هم- رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ((أَفَلَا تَتَّقُونَ))-أنتم- (٣٢).. وَلَقَدْ (أَخَذْنَاهُمْ) بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ- هم،ولم يقل(فما استكانوا لنا) وهو"الرب المنعم والمربى"- وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) -هم- (٧٦) حَتَّى إِذَا (فَتَحْنَا)- نحن(لذات الله بالجمع بعد الافراد والغيبة)- حَتَّى إِذَا (فَتَحْنَا) عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا (هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) -هم- (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ- أنتم- السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ((قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)) - أنتم- (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ-أنتم- (٧٩))(وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠).. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا (خَلَقْنَاكُمْ) عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ المؤمنون.

****

**﴿ (وَجَعَلْنَا) بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) .. كَذَلِكَ (جَعَلْنَا) لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)..وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (وَرَتَّلْنَاهُ) تَرْتِيلًا (٣٢) ﴾ الفرقان.

**﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ (جَعَلْنَا) الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ﴾ والخطابُ لرسول الله (ﷺ).. والتَّعرضُ لعُنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره (ﷺ)لتشريفه (ﷺ) وللإيذانِ بأنَّ ما يعقُبه من آثارِ ربوبيَّتِه ورحمتِه تعالى.

****

**﴿وَلَقَدْ (صَرَّفْنَاهُ) بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ (شِئْنَا لَبَعَثْنَا) فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ

رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)﴾ الفرقان

****

**﴿وَلَقَدْ (فَتَنَّا) الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾

**﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ – هو"الله"- إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا – نحن- إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾ العنكبوت.

****

** ﴿ (إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)..﴾ الأحزاب.

** ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ (فَأَخَذْتُهُمْ) – "أنا" وأرى أن الإفراد هنا لإتيانه بجوار "الحق" الذى هو واحد، بل وأتذوق لهذا الإفراد (فَأَخَذْتُهُمْ) مذاقاً خاصاً بعد تعداد الأمم المكذبة وكأنه يقول المعذب لهم واحد رغم تعددهم فى الزمان والمكان- فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ- هو - عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)﴾ غافر.

** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ-هم- فِي (آيَاتِنَا) لَا يَخْفَوْنَ (عَلَيْنَا) أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا – أنتم- مَا شِئْتُمْ (إِنَّهُ) - ولم يقل"إننا"- بِمَا تَعْمَلُونَ-أنتم- بَصِيرٌ (٤٠)﴾ فصلت.

**﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)... سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ فصلت.

****

** ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** –كان حقه أن يقول: إنه قسّم بينهم معيشتهم.. ورفع – **وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)**﴾ الزخرف.

ويقول الإمام الطاهر: وَوُجِّهَ الْخِطَابُ إِلَى النبيء (ﷺ) وَأُضِيفَ لِفَظُ (الرَّبِّ) إِلَى ضَمِيرِهِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ اللَّهَ مُؤَيِّدُهُ تَأْنِيسًا لَهُ، لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [الزخرف: ٣١] قَصَدُوا مِنْهُ الِاسْتِخْفَافَ بِهِ، فَرَفَعَ اللَّهُ شَأْنَهُ بِإِبْلَاغِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ بِالْخِطَابِ وَبِإِظْهَارِ أَنَّ اللَّهَ رَبَّهُ، أَيْ مُتَوَلِّي أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ.

** ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)**﴾ الزخرف.

(عَن ذِكْرِ الرحمن) وهو القرآنُ وإضافتُه إلى اسم الرَّحمن للإيذان بنزولِه رحمةً للعالمينَ.. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ نُقَيِّضْ بِنُونِ الْعَظَمَةِ. وَقَرَأَ يَعْقُوب بياء الْغَائِبِ عَائِدًا ضَمِيرُهُ على الرَّحْمنِ.

ويقول الطاهر: وَجِيءَ بِالْجُمْلَةِ الْمُفَرَّعَةِ جُمْلَةً اسْمِيَّةً (**فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**) لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ، أَيْ فَكَانَ قَرِينًا مُقَارَنَةً **ثَابِتَةً دَائِمَةً**، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا قَرِينًا لَهُ

** ﴿**تِلْكَ آيَاتُ (اللَّهِ) (نَتْلُوهَا) عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ (اللَّهِ) وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)**﴾ الجاثية.

** ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)**﴾ الجاثية

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ (٣٠)**﴾ الجاثية

**﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ .. (٣)﴾ الأحقاف.

**﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾ الأحقاف.

**﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ الأحقاف

****

** ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ (بِاللَّهِ) وَرَسُولِهِ (فَإِنَّا أَعْتَدْنَا) لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)﴾ الفتح. ومع هذا الالتفات من الإفراد للجمع يوجد نوع آخر وهو الإظهار فى موضع الإضمار: يقول أبو السعود: {فَإِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سَعِيراً} أي لَهم وإنما وُضع موضعَ الضميرِ الكافرونَ إيذاناً بأنَّ منْ لم يجمعْ بينَ الإيمانِ بالله وبرسولِه فهو كافرٌ وأنه مستوجبٌ للسعيرِ بكفرِه .

****

** ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ (رَبِّكَ) الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ الواقعة

** ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧).. مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ الحديد.

**﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) لَقَدْ (أَرْسَلْنَا) رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ (وَأَنْزَلْنَا) مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (وَأَنْزَلْنَا) الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ (اللَّهُ) مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ الحديد.

** ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا **مَا كَتَبْنَاهَا** عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ **رِضْوَانِ اللَّهِ** فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا **فَآتَيْنَا** الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾ الحديد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ **يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ **كُبِتُوا** كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ **وَقَدْ أَنْزَلْنَا** آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥)﴾.المجادلة

وقيل: معنى (كُبِتُوا) (سيكبتون) على طريقة قوله تعالى: أَتى أَمْرُ اللَّهِ(النحل: ١) وهو بشارة للمؤمنين بالنصر على الكفار وتحقق كبتهم. وكأنه قد حدث وانتهى.

والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حادّ الله تعالى ورسوله من قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم، وهذا بلا شك يستدعى الالتفات إلى ضمير الجميع للتعظيم، وقد علمنا الآيات ومنها عذاب الاستئصال وغيره فى الأمم السابقة، وقيل: آيات تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به ((وهى أيضاً تستدعى هذا التعظيم))

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ (رَبِّهِمْ)** - ولم يقل رسولنا- **فَأَخَذَهُمْ** أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) **إِنَّا لَمَّا** طَغَى الْمَاءُ **حَمَلْنَاكُمْ** فِي الْجَارِيَةِ (١١) **لِنَجْعَلَهَا** لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾ الحاقة

ويوقفنا الإمام الطاهر على ملحظٍ صوتى- بجانب الملحظ البلاغى- فيقول: **وَرَسُولَ رَبِّهِمْ** هُوَ الرَّسُولُ الْمُرْسَلُ إِلَى كُلِّ قَوْمٍ مِنْ هَؤُلَاءِ.

فَإِفْرَادُ رَسُولَ مُرَادٌ بِهِ التَّوْزِيعُ عَلَى الْجَمَاعَاتِ، أَيْ رَسُولَ اللَّهِ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ، وَالْقَرِينَةُ ظَاهِرَةٌ، **وَهُوَ أَجْمَلُ نَظْمًا مِنْ أَنْ يُقَالَ: فَعَصَوْا رُسُلَ رَبِّهِمْ، لِمَا فِي إِفْرَادِ رَسُولَ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي صِيَغِ الْكَلِمِ مِنْ جَمْعٍ وَإِفْرَادٍ تفاديا من تَتَابُعِ ثَلَاثَةِ جُمُوعٍ- يقصد قوله** ((**فَعَصَوْا** رَسُولَ (رَبِّهِمْ) فيها جمعان فقط)ولم يقل (وعصو رسل ربهم) التى تحوى ثلاث جموع وهى بالفعل أثقل من الصيغة القرآنية (فعصوا رسول ربهم)، والتى يشعر القارىء بأن وجود الواو بمدها اللطيف فى "رسول" تخفف من شدة هذه الجموع فى النطق (فعصوا.. ربهم))**وكما يقول الإمام: لِأَنَّ صِيَغَ الْجَمْعِ لَا تَخْلُو مِنْ ثِقَلٍ لِقِلَّةِ اسْتِعْمَالِهَا** - وخاصة لو جاءت على ثلاث

جموع- ، ثم يقف على ملحظ بلاغى فى المتشابهات- بجانب الملحظ الصوتى- فيقول: وَعَكْسُهُ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْفُرْقَان [٣٧] (**وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ**)، وَإِنَّمَا كَذَّبُوا رَسُولًا وَاحِدًا، وَجُعِلَ قَوْمُ نُوحٍ مُكَذِّبِينَ الرُّسُلَ مَعَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولًا وَاحِدًا لِأَنَّهُمُ اسْتَنَدُوا فِي تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُمْ إِلَى إِحَالَةِ **أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ بَشَرًا لِأَنَّهُمْ قَالُوا: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ** [الْمُؤْمِنُونَ: ٢٤] فَكَانَ تَكْذِيبُهُمْ مُسْتَلْزِمًا تَكْذِيبَ عُمُومِ الرُّسُلِ، وَلِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ كَذَّبَ رَسُولَهُمْ، فَكَانُوا قُدْوَةً لِلْمُكَذِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وأقول: وهذا الملحظ غير متواجد فى آية الحاقة، ولذلك قال(رسول) بالإفراد إضافة إلى الملحظ الصوتى الذى ذكرناه، وهى هنا لم يقل فيها(ربهم)وقال: (**كَذَّبُوا الرُّسُلَ**) فقط.

وقال مثل ذلك فى آيات سورة الشعراء: وَجُمِعَ الْمُرْسَلِينَ وَإِنَّمَا كَذَّبُوا رَسُولًا وَاحِدًا أَوَّلَ الرُّسُلِ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ رَسُولٌ وَهُمْ أَوَّلُ الْمُكَذِّبِينَ، فَإِنَّمَا جُمِعَ لِأَنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَمْ يَكُنْ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَلَكِنَّهُ كَانَ لِإِحَالَتِهِمْ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ بَشَرًا، وَأَنْ تَكُونَ عِبَادَةُ أَصْنَامِهِمْ ضَلَالًا فَكَانَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ مُقْتَضِيًا تَكْذِيبَ كُلِّ رَسُول لِأَنَّ كُلَّ رَسُول يَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَهُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِذَلِكَ تَكَرَّرَ فِي قَوْلِهِ: كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ [الشُّعَرَاء: ١٢٣] وَمَا بَعْدَهُ. وَقَدْ حُكِيَ تَكْذِيبُهُمْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا فِي قَوْلِهِ: (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ) فِي الْأَعْرَافِ [٦٣] .(وأكرر القول بأن هذا الملحظ لم يوجد فى سورة الحاقة) فجاء إفراد الرسول فيها (كذبوا رسول ربهم- وجمعه فى السورتين- كذبوا الرسل) لما ذكر.

****

﴿ **لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ ((رَبِّهِ)) يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ الجن

﴿ ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا**)) **عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ** ((**رَبِّكَ**)) ﴾ الإنسان.

﴿وَإِذَا شِئْنَا ((بَدَّلْنَا**)) أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ **اتَّخَذَ إِلَى** ((**رَبِّهِ**)) سَبِيلًا (٢٩).... فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى ((**رَبِّهِ**)) **مَآبًا** (٣٩) **إِنَّا** ((**أَنْذَرْنَاكُمْ**)) **عَذَابًا قَرِيبًا....﴾ النبأ**

يقول الإمام الطاهر: وَعُبِّرَ عَنْ الإنذار(**أنذرناكم**) بِالْمُضِيِّ لِأَنَّ أَعْظَمَ الْإِنْذَارِ قَدْ حَصَلَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً إِلَى قَوْلِهِ: فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً [النبأ: ٢١- ٣٠] .

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا)﴾ النبأ.

وإظهارُ الرحمنِ في موضعِ الإضمارِ للإيذانِ بأنَّ مناطَ الإذنِ هو الرحمةُ البالغةُ لا أنَّ أحداً يستحقُّه عليهِ سبحانَه وتعالَى.

ويفسر ذلك الإمام الطاهر بقوله: وَإِطْلَاقُ صِفَةِ الرَّحْمنُ عَلَى مَقَامِ الْجَلَالَةِ(الله) إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ إِذْنَ اللَّهِ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ فِي الْكَلَامِ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ لِأَنَّهُ أَذِنَ فِيمَا يَحْصُلُ بِهِ نَفْعٌ لِأَهْلِ الْمَحْشَرِ مِنْ شَفَاعَةٍ أَو اسْتِغْفَار.

****

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)﴾... الأعلى.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾- وحقها ("إلا ما شئنا" لتتناسق مع صيغة الجمع "سنقرئك")- وفيها يقول الإمام أبو السعود: والالتفاتُ إلى الإسم الجليل(الله)

لتربية المهابةِ والإيذانِ بدورانِ المشيئةِ على عُنوانِ الأُلوهيةِ المستتبعةِ لسائرِ الصفاتِ.

**** (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ (اللَّهُ) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) (وَنُيَسِّرُكَ) لِلْيُسْرَى (٨))**

ويقول الإمام الطاهر: وَالِالْتِفَاتُ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَظَّمِ -(وَنُيَسِّرُكَ) بعد قوله (**إِلَّا مَا شَاءَ** (**اللَّهُ**)- بالإفراد والغيبة- وقبلها قوله **(سنقرئك)** بالجمع أيضاً- لِأَنَّ التَّكَلُّمَ – بالجمع والحضور والمواجهة- أَنْسَبُ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْمُبَشَّرِ.

ثم يوقفنا الإمام على معنىً لطيف فى قول الله تعالى لحبيبه (ﷺ) **(وَنُيَسّرُكَ لليُسْرَى)** ومدى اللطف فيها عن قول الله لنبى الله موسى عليه السلام {وَيَسّرْ لِى أَمْرِى} فهنا ييسر لمحمد (ﷺ) اليسرى وموسى يطلب أن ييسر له الأمر..**فما الفارق بين التعبيرين والمقامين فيقول:** وتعليقُ التيسيرِ به عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ – ونيسرك لليسرى- مع أنَّ الشائعَ تعليقُه بالأمورِ المسخرةِ للفاعلِ كما في قوله تعالى (وَيَسّرْ لِى أَمْرِى) **للإيذانِ بقوةِ تمكينِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من اليُسرى** – ونيسرك أنت لليسرى- والتصرفِ فيها بحيثُ صارَ ذلكَ ملكةً راسخةً له – ونيسرك لليسرى- كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُبلَ عليها – ونيسرك لليسرى- كما في قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اعملُوا فكُلٌّ ميسرٌ لِمَا خُلقَ له، أي نوفقكَ توفيقاً مستمراً للطريقةِ اليُسرى في كُلّ بَابٍ من أبوابِ الدينِ علماً وتعليماً واهتداءً وهدايةً فيندرجُ فيه تيسيرُ طريقِ تلقِّي الوَحْي والإحاطةِ بما فيه منْ أحكامِ الشريعةِ السمحةِ والنواميسِ الإلهيةِ مما يتعلقُ بتكميلِ نفسِه عليه الصلاةُ والسَّلامُ وتكميلِ غيرِه كَما تُفصحُ عنه الفاءُ في قوله تعالى: فسنيسرك–حتى بدون طلبٍ منه بالتيسير، فالله ييسر الأمر لنا أما محمد (ﷺ)هنا فسييسره الله لهذا الأمر – وسمى الأمر باليسرى لشدة تيسيره أيضاً للنبى (ﷺ)، فهو (ﷺ) مُيسَّر والأمور أيضاً مُيسّرة له من الله –.

ثم يعود لصيغة الجمع والإفراد كما يلى:

** ﴿ ((**وَرَفَعْنَا**)) **لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى** ((**رَبِّكَ**)) **فَارْغَبْ (٨)** ﴾ الشرح(وإلى ربّك) وَحْدَهُ (إخلاص العبادة).

** ﴿ (**لَقَدْ** ((**خَلَقْنَا**)) **الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ** (**رَدَدْنَاهُ**) **أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧)** ﴾.**التين.** وَالْخِطَابُ لِلْإِنْسَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. وَضَمِيرُ الْخِطَابِ -فَمَا يُكَذِّبُكَ- الْتِفَاتٌ، وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: فَمَا يُكَذِّبُهُ. وَنُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ هُنَا أَنَّهُ أَصْرَحُ فِي مُوَاجَهَةِ الْإِنْسَانِ الْمُكَذِّبِ بِالتَّوْبِيخِ.

ثم يعود للإفراد والغيبة فى لفظ الجلالة (الله) بعد الجمع (ثُمَّ (رَدَدْنَاهُ)..).أَلَيْسَ ((اللَّهُ)) بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) – ولم يقل ألسنا بأحكم..لاستحضار لفظ الجلالة، فهو الحكم وحده وهو أحكم الحاكمين-

****

** ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ** (١) **إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ** (٢) **إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣)** (**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ** ((**اللَّهَ**)) **يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ** ((**لَنَسْفَعًا**)) **بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)** ((**سَنَدْعُ**)) **الزَّبَانِيَةَ (١٨)** ﴾ العلق.

وأعجبنى تعقيب الإمام أبو السعود على تنوع الخطاب الذى نشاهده كثيراً فى النظم القرآنى حينما يخاطب فلاناً ثم فجأه نجده يخاطب شخصاً آخر دون فاصل يلاحظه القارىء، بل إن القارىء للنظم القرآنى يتخيل أن المحاكمة منصوبة (وحاضرة ومُشاهدة بالفعل أمام الأعين) كما نقول: وكأنها تُنقل بالنقل الحى المباشر دون تدخل من راوٍ للحدث ينقله لنا، فأنت لا تسمع كلمات تقال لك بل تشاهد مشاهد حيَّة متحركةً أمام الأعين، تعيشها واقعاً ينبض بالحركة والحياة،

وكما يقول الإمام فى قوله: **{(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ((اللَّهَ)) يَرَى }** .. وقيلَ الخطابُ الثاني للكافرِ (١٠) **فإنَّه تعالَى كالحاكمِ الذي حضَرهُ الخصمانِ يخاطبُ هذا مرةً والآخرَ أُخرى** – ولعل الإمام يقصد (**أرأيت**(١) – للمؤمن– و **أرأيت**(٢) للكافر)– وكأنَّه قالَ يا كافرُ أخبرني إنْ كانَ صلاتُه هُدى ودُعاؤُه إلى الله تعالى أمراً بالتَّقوى أتنهاهُ ((ثم يلتفت لخطاب المؤمن وهكذا كأنهم حضور فى جلسة الحكم والمحاكمة ونحن نراها ونعيشها))

ويقول الإمام الطاهر: وَالْخِطَابُ فِي (**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)**) لِغَيْرِ مُعَيَّن. وَالْمُرَادُ بِالْعَبْدِ النَّبِيءُ (ﷺ). وَإِطْلَاقُ الْعَبْدِ هُنَا على معنى الْوَاحِد مِنْ عِبَادِ اللَّهِ– أَيْ شَخْصٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْس شَدِيدٍ [الْإِسْرَاء: ٥] ، أَيْ رِجَالًا غير معينين–. **وَعَدَلَ عَنِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِضَمِيرِ الْخِطَابِ**– أى لم يقل أرأيت الذى ينهاك، أو ينهى عبدنا ، بل قال عبداً دون تحديد– لِأَنَّ التَّعْجِيبَ مِنْ نَفْسِ النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ يقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ خُصُوصِيَّةِ الْمُصَلِّي– من هو؛ محمد أو غيره–. فَشُمُولُهُ لِنَهْيِهِ عَنْ صَلَاةِ النَّبِيءِ (ﷺ) أَوْقَعُ(من باب أولى).

وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: (يَنْهى) لِاسْتِحْضَارِ الْحَالَةِ الْعَجِيبَةِ وَإِلَّا فَإِنَّ نَهْيَهُ قَدْ مَضَى– أى قد حدث اعتداؤهم على النبى ونهيهم له عن الصلاة قبل نزول هذه الآية – وكان يجب أن يقال (أرأيت الذى نهى) بصيغة الماضى.

□

---

(١٠)– أى أن الله كان يخاطب المؤمن فى الخطاب الأول ثم هاهو يخاطب الكافر فى الخطاب الثانى– وأكرر القول بأن القارىء للسورة يكاد لا يعرف كيف يحدث هذا التحول والالتفات دون أن يشعر به–

** ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) **قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ** الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤).. (وَمَا أَرْسَلْنَا **قَبْلَكَ** إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ **فَاسْأَلُوا** أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾.

(فَاسْأَلُوا) بدلاً من **(فاسأل) وفيها** يقول الإمام الطاهر: وَتَوْجِيهُ الْخِطَابِ لَهُمْ **بَعْدَ كَوْنِ الْكَلَامِ جَرَى عَلَى أُسْلُوبِ الْغَيْبَةِ الْتِفَاتٌ** (يقصد السياق قبلها (**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ** (رَبِّهِمْ) **مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**- غيبة وجمع "هم"وكان حقها (فليسألوا) ولكنها ستتحول إلى صيغة حضور وجمع(**فَاسْأَلُوا**) – **(٢) .. قَالَ** (**رَبِّي يَعْلَمُ**) **الْقَوْلَ** – ولم يقل (ربهم) يعلم – تمشياً مع السياق السابق –(**ذِكْرٍ مِنْ** (رَبِّهِمْ)) **فى قوله:(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)**) – لئلا يذهب وَهْمُ بعض الواهمين إلى أنه أحد الأرباب الذين اتخذوهم من دون الله فقال(**قَالَ** (**رَبِّي يَعْلَمُ**) **الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** (**وَهُوَ**) **السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٤)

** ((**وَمَا أَرْسَلْنَا**)) **قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا** ((**نُوحِي**)) **إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا**-يقول الألوسى: وقوله تعالى: (**نُوحِي**) **إِلَيْهِمْ** ..وحقها أن تكون(أوحينا إليهم)-هكذا: ((**وَمَا أَرْسَلْنَا**)) **قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا** ((أوحينا)) **إِلَيْهِمْ** – ﴾ وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة واستحضار الصورة أمام الأعين- وحذف المفعول-أى لم يقل: نوحى إليهم الكتب - لعدم القصد إلى خصوصه، والمعنى ما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمتك إلا رجالا لا ملائكة نوحي إليهم بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي وحقيقة مدلوله كما لا فرق بينك وبينهم في البشرية – جنس البشرية ولذلك قال عنهم(**جسداً**) **بالإفراد**-..وقرأ الجمهور «يوحى إليهم» بالياء على **صيغة**

المبني للمفعول – أى تكون هكذا: (**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا** ((**يُوحِي**)) **إِلَيْهِمْ**) **جريا على سنن الكبرياء** وإيذانا بتعين الفاعل- الله الذى يوحى إليهم وهذا معلوم لدى الجميع فلم يذكره- على هذه القراءة- تعظيماً لله كما يقول الإمام: جريا على سنن الكبرياء .. وأنا أتعمد تكرار قول الإمام هذا لنتذكره مع مثل تلك الأمثلة من الالتفاتات.

وقوله تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ تلوين للخطاب- فهو الآن خطاب لهم بعد أن كان خطاب لمحمد(ﷺ) فى الآية السابقة لها- وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير إثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم **لأنه الحقيق بالخطاب في أمثال تلك الحقائق الأنيقة**،(**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ**) وأما الوقوف عليها بالسؤال من الغير- **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** - فهو من وظائف العوام-فى حال جهلهم بذلك- وأمره صلّى الله عليه وسلّم بالسؤال في بعض الآيات ليس للوقوف وتحصيل العلم بالمسئول عنه بل لأمر آخر(١١)

- **وَمَا** ((**جَعَلْنَاهُمْ**)) **جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** (٨) **ثُمَّ** ((**صَدَقْنَاهُمُ**)) **الْوَعْدَ** ((**فَأَنْجَيْنَاهُمْ**)) - أى من عذاب الاستئصال أو الإهلاك فى الدنيا- **وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ** (٩) والتعبير ب(من نشاء) دون (من آمن) أو (من معهم) مثلا ظاهر في أن المراد بذلك المؤمنون **وآخرون معهم**- ممن لم يؤمنوا بعد ولكن الله يعلم أنهم سيؤمنون فيما بعد بل وسيحملون هم راية الإسلام كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهم-وهذا احتراس قرآنى حكيم-.

---

(١١) مثال قوله تعالى: (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤).. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١).. الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩).. وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥).. فكلها أسئلة تقريرية وتوبيخية لهم وليس لطلب العلم لمحمد (ﷺ) منهم أو أن محمدا (ﷺ) يجهل ذلك.

والتعبير (بنشاء) مع أن الظاهر (شئنا) هكذا: ونجيناهم ومن شئنا- لحكاية الحال الماضية فى قوله (ومن نشاء) بصيغة المضارع،.. وفي إيثار (وَما كانُوا خالدين) على (وما جعلناهم خالدين) تنبيه على أن عدم الخلود والبقاء من توابع جبلتهم – المخلوقين عليها-في هذه النشأة- أى صفة ثابتة ودائمة وهو مايشير إليه (وما كانوا)أى فى أصل كينونتهم وخلقتهم- التي أشير إليها بقوله تعالى: وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً .. (وَما كانُوا خالدين)

(**وَمَا** (**جَعَلْنَاهُمْ**) (**جَسَدًا**) **لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** (٨)) **وقال(جسداً) ولم يقل(أجساداً) وفيها** يقول الزمخشرى: والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله (ذوى جسد) (غير طاعمين). ووحد الجسد لإرادة الجنس، كأنه قال: ذوى ضرب من الأجساد.

ويقول الألوسى: **وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً** بيان لكون الرسل عليهم السلام **أسوة لسائر أفراد الجنس** في أحكام الطبيعة البشرية-(وأقول: ولذلك جاء (جسداً) على الإفراد لهذا المعنى من إفراد جنس الأنبياء وأنه واحد(جسداً) فى جبلتهم).... وقيل: لإرادة الاستغراق الإفرادي في الضمير-فلم يقل أجساداً وقال جعلناهم جسدا- أي جعلنا كل واحد منهم بلا استثناء جسداً.. كقوله تعالى(**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**..)البقرة، والتى فضلها الإمام ابن القيم عن قوله(أتودون أن تكون لكم..) لأن فى الصيغة القرآنية (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ) على الإفراد تقرير لكل فرد دون نسيان أو تخطى أحد).. فأنا حينما ألقى محاضرة وأسأل بعدها الحاضرين:أتودون أن تسألوا؟ فيعلو الصوت يقولون لا. ولكنه ربما يوجد واحد أو بعض الأفراد لم أره أو أسمعه أو لم يتمكن من التعبير، ولذلك فضل أن يقول: أيود أحدكم أن يسأل سؤالاً؟ هنا يكون التقرير فرداً فرداً.

وهكذا المثال الذى معنا فى قوله تعالى(**وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً**..) ولم يقل أجساداً لمثل هذا المعنى، أى لا يوجد فرد منهم ليس جسداً، وهو معنى قول الإمام: وقيل: لإرادة الاستغراق الإفرادي في الضمير.

ويضيف الإمام الطاهر: وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَما كانُوا خالِدِينَ** فَهُوَ زِيَادَةُ اسْتِدْلَال لِتَحْقِيق بَشَرِيَّتِهِمُ اسْتِدْلَالًا بِمَا هُوَ وَاقِعٌ مِنْ عَدَمِ كَفَاءَةِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالْمُشَاهَدَةِ، لِقَطْعِ مَعَاذِيرِ الضَّالِّينَ، فَإِنْ زَعَمُوا أَنْ قَدْ كَانَ الرُّسُلُ الْأَوَّلُونَ مُخَالِفِينَ لِلْبَشَرِ فَمَاذَا يَصْنَعُونَ فِي لَحَاقِ الْفَنَاءِ إِيَّاهُمْ(أى موتهم). فَهَذَا وَجْهُ زِيَادَةِ وَما كانُوا خالِدِينَ.

وَأُتِيَ فِي نَفْيِ الْخُلُودِ عَنْهُمْ بِصِيغَةِ **مَا كانُوا** –بصيغة الماضى- **تَحْقِيقًا** لِتَمَكُّنِ عَدَمِ الخلود مِنْهُم.

**** (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ ((أَنْزَلْنَا)) إِلَيْكُمْ**- ولم يقل(إليهم) جرياً مع السياق قبلها- **لَقَدْ ((أَنْزَلْنَا)) إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)**- توجه آخر بالخطاب المباشر لهم **(فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)** ، وفيها يقول الإمام الطاهر: وَنُكْتَتُهُ أَنَّ الْكَلَامَ لَمَّا كَانَ **فِي بَيَان الْحَقَائِق الْوَاقِعَةِ**(١٢) **أَعْرَضَ عَنْهُمْ** فِي تَقْرِيرِهِ، وَجُعِلَ مِنَ الْكَلَامِ الْمُوَجَّهِ **إِلَى كُلِّ سَامِعٍ** وَجُعِلُوا فِيهِ مُعَبَّرًا عَنْهُمْ بِضَمَائِرِ الْغَيْبَةِ- كأنه ترك خطابهم المباشر فى الحقائق الواقعة وأخذ يتحدث على أنها حقائق للعامة ويعبر لنا عنهم بصيغة الغيبة (الآية ٩)- **وَلَمَّا أُرِيدَ تَجْهِيلُهُمْ** (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وَإِلْجَاؤُهُمْ إِلَى الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ **غُيِّرَ الْكَلَامُ إِلَى الْخِطَابِ** – المباشر لهم بصيغة المواجهة لهم- **تَسْجِيلًا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُم بتجهيلهم (أَفَلَا تَعْقِلُونَ).**

****

**** ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ (آيَةً) .. (٥٠)﴾ المؤمنون**

وكان يجب أن تقال ابن مريم وأمه(آيتان) ولكن لأن آية مريم هى فى ولادتها لابنها هذا بدون أب؛ فالإثنان هما آية واحدة.

---

(١٢)–أى فى نجاهم من عذاب الاستئصال الذى هو معلوم يقيناً عندهم بأنه أصاب الأمم المكذبة قبلهم فى قوله: ثم صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ–

****

**** ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) ﴾** المؤمنون.

حقها أن تكون (رب ارجعنى) يقول الزمخشرى: خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم، كقوله: فإن شئت حرّمت النّساء سواكم .

وقوله:ألا فارحمونى يا إله محمّد . إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فرّط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأل ربه الرجعة وقال لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً في الإيمان الذي تركته.

ويضيف الإمام الطاهر قوله: وَضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي ارْجِعُون تَعْظِيمٌ لِلْمُخَاطَبِ(الله). وَالْخِطَابُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ لِقَصْدِ التَّعْظِيمِ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ، **وَهُوَ يَلْزَمُ صِيغَةَ التَّذْكِيرِ** فَيُقَالُ فِي خِطَابِ الْمَرْأَةِ إِذَا قُصِدَ تَعْظِيمُهَا:أَنْتُمْ. وَلَا يُقَالُ: أَنْتُنَّ. قَالَ الْعَرَجِيُّ:

فَإِنْ شِئْتِ-أنتِ- **حَرَّمْتُ النِّسَاءَ** (**سِوَاكُمُ**) ...

وأقول: فهى إمرأة واحدة ولكنه أراد تعظيمها، والتعظيم يكون بصيغة الجمع، وصيغة الجمع هنا يجب أن تكون جمع تأنيث- أى سواكن- ولكنه أراد زيادة التعظيم فقال(سواكم).

ويقول الإمام الرازى: المسألة الرَّابِعَةُ: اخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (ارجِعُون) مَنِ الْمُرَادُ بِهِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: **الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ الْأَرْوَاحَ** وَهُمْ جَمَاعَةٌ فَلِذَلِكَ ذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْجَمْعِ، وَقَالَ آخَرُونَ بَلِ **الْمُرَادُ هُوَ اللَّه تَعَالَى** لِأَنَّ قَوْلَهُ رَبِّ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يَقُولَ يَا رَبِّ وَإِنَّمَا ذَكَرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ لِلتَّعْظِيمِ كَمَا يُخَاطِبُ الْعَظِيمُ بِلَفْظِهِ فَيَقُولُ فَعَلْنَا.

وَمَنْ يَقُولُ بِالْأَوَّلِ يَجْعَلُ ذِكْرَ الرَّبِّ لِلْقَسَمِ، فَكَأَنَّهُ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ قَالَ بِحَقِّ الرَّبِّ **ارْجِعُونِ**.

ويزيد أبو السعود قوله: {رَبّ ارجعون} أي رُدَّني إلى الدُّنيا والواوُ لتعظيم المخاطَبِ **وقيل لتكرير قوله ارجعنِي** كما قيل في قفانيك ونظائرِه

ويقول صاحب تفسير الوسيط: وجاء لفظ ارْجِعُونِ بصيغة الجمع. لتعظيم شأن المخاطب، وهو الله- تعالى- **واستدرار عطفه- عز وجل**-.أو أن هذا الكافر استغاث بالله- تعالى- فقال: «رب» ثم وجه خطابه بعد ذلك إلى خزنة النار من الملائكة فقال: «ارجعون» .

وهو – فى مجموع أقوالهم- كلام طيب لا تعليق عليه

****

** ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)﴾ المؤمنون.

يقول الألوسى: وجمعت (الأمانة) دون (العهد) جاء مفردا. قيل لأنها متنوعة متعددة جداً بالنسبة إلى كل مكلف ((أى: تعددها من جهته تعالى))، ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العهد(١٣)

ويضيف الإمام الطاهر الأمر توضيحاً حيث يرى أن:جَمَعَ الْأَمانات بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ أَنْوَاعِهَا **وَتَعَدُّدِ الْقَائِمِينَ بِالْحِفْظِ** تَنْصِيصًا عَلَى الْعُمُومِ.

ويجوز عندي أن يراد بالأمانات ما ائتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى، والمراد برعيها حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره عز وجل. وأن يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله (ﷺ)، والمراد برعيه حفظه عن الإخلال به وذلك بفعله على أكمل وجه، **فحفظ الأمانات كالتخلية، وحفظ العهد كالتحلية**، (فأنا أتخلى عن سوءات كثيرة وأتحلى بحق واحد) وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها.

ويجوز أن تعمم الأمانات بحيث تشمل الأموال ونحوها وجمعها لما فيها لمن التعدد المحسوس المشاهد فتأمل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو في رواية «لأمانتهم» بالإفراد

---

(١٣) ولعلى أضيف توضيحاً لتعدد الأمانات بأن السمع أمانة والبصر أمانة و..و.. وجميع حرمات الشرع أمانة.

****

****﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ- ﴾** وكان حقها أن تكون (ليحكما- أى الله ورسوله- بينهم) ولكن لأنه أراد أن يكون الحكم لله تعالى، أما رسوله فهو تابع لحكم الله وليس له حكم منفرد عنه، فهو مبلغ عن الله ، ولو قال ليحكما إذن سيثبت أن لكلٍ منهما حكماً منفصلا فلا يكون فى السياق أصل وتبع حينئذٍ-

****

**** ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا (وَهُمْ) مُهْتَدُونَ (٢١) ﴾** وحقها أن يقول: (وهو مهتدى)

مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا – (هو) النبى محمد(ﷺ) ولكنه سيخبر عنه ويلتفت السياق ليخاطبه كنائب عن إخوانه جماعة الأنبياء- فقال:((**وَهُمْ) مُهْتَدُونَ**. – أى الأنبياء الذين ينوب عنهم هذا النبى-

ويضيف الإمام الطاهر ملحظاً آخر فى السياق: وَجَاءَتِ الْجُمْلَةُ الْأُولَى مِنَ الصِّلَةِ فِعْلِيَّةً مَنْفِيَّةً – (**لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا**)-لِأَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْيُ أَنْ يَحْدُثَ مِنْهُمْ- من الأنبياء- سُؤَالُ أَجْرٍ فَضْلًا عَنْ دَوَامِهِ وَثَبَاتِهِ، وَجَاءَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ اسْمِيَّةً- (**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**)-لِإِفَادَةِ إِثْبَاتِ اهْتِدَائِهِمْ (وَدَوَامِهِ)-كحال الجملة الإسمية- بِحَيْثُ لَا يُخْشَى مَنْ يَتَّبِعُهُمْ أَنْ يَكُونَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ غَيْرَ مهتد.

ومثلها قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ (الَّذِينَ كَفَرُوا) إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ - إظهار فى مقام الإضمار، وحقها (ليقولن) إن أنتم-.

وفيها يقول الإمام الألوسى: وَفِي تَوْحِيدِ الْخِطَابِ بِقَوْلِهِ: وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ وَالْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: إِنْ أَنْتُمْ – يقصد ردهم على النبى يقولهم له: **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ** – فيه لَطِيفَةٌ وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ- يامحمد- بِآيَةٍ جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ –من

قبلك–وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَاءَ بِهَا، يَقُولُونَ (**أَنْتُمْ كُلُّكُمْ**) أَيُّهَا الْمُدَّعُونَ لِلرِّسَالَةِ مُبْطِلُونَ.(فهم لا يسبونك وحدك يا محمد– حين تدعوهم– بل سيسبون جميع الأنبياء والرسل الذين أنت منهم) وهو رأى ذكره الإمام الألوسى.

ولكن الإمام الطاهر يرى رأياً– أراه مكملاً– يقول فيه: فَقَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ. وَضَمِيرُ جَمْعِ الْمُخَاطِبِ لِلنَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِنْ أَنْتُمْ- **لِقَصْدِ تَعْظِيمِهِ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى**، وَإِنَّمَا يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: إِنْ أَنْتَ إِلَّا مُبْطِلٌ، فَحُكِيَ كَلَامُهُمْ بِالْمَعْنَى **لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الرَّسُولِ** (ﷺ). وَقِيلَ: الْخِطَابُ **لِلرَّسُول** (ﷺ)**وَالْمُؤْمِنِينَ** فَهُوَ حِكَايَةٌ بِاللَّفْظِ. وَهَذَا تأنيس للرسول (ﷺ)مِنْ إِيمَانِ مُعَانَدِيهِ، أَيْ أَيِمَّةِ الْكُفْرِ مِنْهُمْ، وَلِذَلِكَ اعْتَرَضَ بَعْدَهُ بِجُمْلَةِ (كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ الْمُتَعَاطِفَتَيْنِ تَمْهِيدًا لِلْأَمْرِ بِالصَّبْرِ عَلَى غَلْوَائِهِمْ– يقصد فى السياق التالى: **لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)**).

ولا ننسى النوع الثانى من الالتفات وهو الإظهار فى موضع الإضمار، حيث قال(**لَيَقُولَنَّ** (**الَّذِينَ كَفَرُوا**) **إِنْ أَنْتُمْ**) وحقها أن تكون (ليقولن إن أنتم..)

ويقول الإمام الألوسى: وإذا أريد بالناس ما يعم الكفرة غيرهم فوجه الإظهار ظاهر– أى أنه أظهر ذلك بقوله(ليقولن الذين كفروا) ليميزهم عن غيرهم، وتوحيد الخطاب في (جِئْتَهُمْ) على ما يقتضيه الظاهر، وأما جمعه في قولهم: (إِنْ أَنْتُمْ) – وكان حقها أن تكون(إن أنت لمفترى) تمشياً مع السياق–فذلك الالتفات لصيغة الجمع فى الرد عليه (ﷺ) لئلا يبقى بزعمهم له عليه الصلاة والسلام شاهد من المؤمنين حيث جعلوا الكل مدعين (أى يقصدون أنت ومن اتبعك من المؤمنين بك لمفترون) فلا يبقى له شاهد صدق على رأيهم.

ومثل ذلك الالتفات نجده فى قوله تعالى:

﴿ (قَالَ**) أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ**–أنا– **بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا (أُرْسِلْتُمْ بِهِ**)– وكان يجب أن تقال: بما أرسلتَ به– **كَافِرُونَ** (٢٤) ﴾ وذلك لأنهم سيقولون له نحن كافرون بك وبكل الرسل أمثالك أو المؤمنين معك فقالوا(**إِنَّا بِمَا** (**أُرْسِلْتُمْ**).

﴿ قَالَ كَلَّا (فَاذْهَبَا) بِآيَاتِنَا إِنَّا (مَعَكُمْ) مُسْتَمِعُونَ (١٥) ﴾.. وجاءت مثلها فى طه على الإفراد لذاته تعالى﴿ **قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى** (٤٦) ﴾.

وذلك لقوة السياق فى آية الشعراء والسياق حولها الذى استدعى ورود صيغة الجمع لذات الله تعالى(**إِنَّا (مَعَكُمْ) مُسْتَمِعُونَ**) وخاصة أن السياق قوى من بدايته هكذا (**وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (١٠) **قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ** (١١)– هكذا بالصيغة القوية التى تختلف عن سياق اللين فى سورة طه(**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** (٤٣) **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** (٤٤)) وهنا يستعرض السياق شدة الخوف وظهور موسى وحده فى السياق فى هذا الجو هكذا(**قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** (١٢) **وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ** (١٣) **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** (١٤) **قَالَ(كَلَّا) فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ** (١٥)) فهنا موسى عليه السلام قد أظهر خوفاً شديداً من(فرعون وملئه معه) وكان لا يخاف من فرطهم أو طغيانهم بل إنه يخاف أن(أن يقتلون) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) فجاء الرد من الله تعالى على النجدة القوية له التى تتناسب مع هذا الرعب، ويكون ذلك بصيغة الجمع(**إِنَّا (مَعَكُمْ) مُسْتَمِعُونَ**)

أما سياق آية طه فهو اللين الذى يغطى جو السورة كلها حتى فى قول الله تعالى لموس(**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى** (٤٣) **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** (٤٤)) وكان خوف موسى من فرعون وحده– الذى هو بمثابة أبيه الذى رباه فربما يظن من ذلك قلة الخوف منه، ولم يعرض الخوف من الملأ هكذا(**قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ**

أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا– أى فرعون فقط– **أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥)** وكان الخوف من الفرط أو الطغيان الذى ربما يكون الضرب أو الحبس– وهو ما دون القتل الذى ذكره فى سورة الشعراء، ولذلك كانت استجابة الله تعالى له على قدر هذا الخوف– لكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ومضاد له فى الاتجاه– هكذا(**قَالَ لَا تَخَافَا** (**إِنَّنِي**)– مفرد– **مَعَكُمَا**– المثنى المطمئن له وليس الإفراد– **أَسْمَعُ وَأَرَى**– بالإفراد للسمع بخلاف صيغة الجمع فى الشعراء(**إنا معكم مستمعون**) **(٤٦).**

****

﴿ (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾ الشعراء **

يقول الإمام الزمخشرى– ونقله بنصه أغلب المفسرين–فإن قلت: لم جمع الشافع– **شَافِعِينَ**– ووحد الصديق– **صَدِيقٍ حَمِيمٍ** ؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق . ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق– وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك– فأعز من بيض الأنوق(١٤). وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق: الجمع.

ويقول الإمام أبو السعود: كما أنَّ إفرادَ الصَّديقِ لقلَّتهِ **أو لصحَّةِ إطلاقِه على الجمعِ كالعدوِّ تشبيهاً لهما بالمصادرِ** كالحنينِ والقَبولِ.

ويقول الإمام الألوسى: وذكر البيضاوي في توحيد الصديق وجهاً آخر أيضاً، وهو أن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء، وحاصله أن الواحد في معنى الجمع بحسب العادة فلذا اكتفي به لما فيه من المطابقة المعنوية كما قيل:

---

(١٤) قوله «فأعز من بيض الأنوق» في الصحاح: الأنوق– على فعول–: طائر وهو الرخمة.

ويقول الإمام الرازى: وَالْحَمِيمُ مِنَ الِاحْتِمَامِ وَهُوَ الِاهْتِمَامُ وَهُوَ الَّذِي يَهُمُّهُ مَا يَهُمُّكَ، أَوْ مِنَ الْحَامَّةِ بِمَعْنَى الْخَاصَّةِ وَهُوَ الصَّدِيقُ الْخَالِصُ((وهذا ما يسميه أئمة اللغة ومنهم ابن جنى– بأنه اشتقاق– وقد عشناه وتذوقناه فى المجلد الأول فى جرس الكلمة من إعجاز التكرار فى قصص القرآن)

الناس ألف منهمو كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنا

وقال بعض الكلمة: إن إيراد الشافعين بصيغة الجمع لمجرد مصلحة الفاصلة، وأما إيراد الصديق مفردا فلأن المقام مقام المفرد ومصلحة الفاصلة حصلت قبله وهو كما ترى.

والذي أميل إليه أن الإفراد على الأصل، والجمع – فى الشفعاء– وإن أدى مؤداه على سنن ما كانوا يقولونه **ويزعمونه** – أى المشركون– **في الدنيا من تعدد الشفعاء. وشموله للأصنام والكبراء والملائكة والأنبياء عليهم السلام كما هو المتبادر إلى الفهم**، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة عن ابن جريج أن المعنى فما لنا من شافعين من أهل السماء ولا صديق حميم من أهل الأرض.(ويرى بذلك أن أهل السماء أكثر عدداً وأعظم قدراً)

وزعم بعضهم أنهم عنوا بالشافعين هنا ما عنوا بالمجرمين من كبرائهم وساداتهم وفرعوا النفي على قولهم (**ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ**) فكأنهم قالوا: سادتنا وكبراؤنا الذين أضلونا مجرمون معذبون مثلنا فلم يقدروا على السعي في نفعنا والشفاعة لنا (فما لنا من شافعين)، وفي الكشاف فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين، ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء فإنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون– فهو عزيز ونادر – قال تعالى: **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** (الزخرف)

ويقول الإمام الطاهر: وَالْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ، فَعِيلٌ مِنْ حَمَّ (بِفَتْحِ الْحَاءِ) إِذَا دَنَا وَقَرُبَ فَهُوَ أَخَصُّ مِنَ الصَّدِيقِ.(فهو صديق وحميم فى نفس الوقت وهو نادر جداً فأفرده)

وَالْمُرَادُ نَفْيُ جِنْسِ الشَّفِيعِ وَجِنْسِ الصَّدِيقِ لِوُقُوعِ الِاسْمَيْنِ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ الْمُؤَكَّدِ بِ (مِنْ) الزَّائِدَةِ– من شافعين–، وَفِي ذَلِكَ السِّيَاقِ يَسْتَوِي الْمُفْرَدُ وَالْجَمْعُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْجِنْسِ(أى تتساوى الصيغتان(فما لنا من شافع، فما لنا من شافعين). وَإِنَّمَا خُولِفَ بَيْنَ اسْمَيْ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ فِي حِكَايَةِ كَلَامِهِمْ إِذْ جِيءَ بِ شافِعِينَ جَمْعًا، وَبِ صَدِيقٍ مُفْرَدًا، **لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِالشَّافِعِينَ الْآلِهَةَ الْبَاطِلَةَ وَكَانُوا**

يَعْهَدُونَهُمْ عَدِيدِينَ فَجَرَى عَلَى كَلَامِهِمْ مَا هُوَ مُرْتَسِمٌ فِي تَصَوُّرِهِمْ. وَأَمَّا الصَّدِيقُ **فَإِنَّهُ مَفْرُوضٌ جِنْسُهُ دُونَ عَدَدِ أَفْرَادِهِ** إِذْ لَمْ يَعْنُوا عَدَدًا مُعَيَّنًا- كما عددوا من شفعائهم- فَبَقِيَ عَلَى أَصْلِ نَفْيِ الْجِنْسِ، وَعَلَى الْأَصْلِ فِي الْأَلْفَاظِ إِذْ لَمْ يَكُنْ دَاعٍ لِغَيْرِ الْإِفْرَادِ. **وَالَّذِي يَبْدُو لِي أَنَّهُ أُوثِرَ جَمْعُ شَافِعِينَ لِأَنَّهُ أَنْسَبُ بِصُورَةِ مَا فِي أَذْهَانِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ**- أى من تعديد آلهتهم التى هى شفعاؤهم(صنم وحجر وشجر وبشر واللات والعزى و..)-. **وَأَمَّا إِفْرَادُ صَدِيقٍ فَلِأَنَّهُ أُرِيدَ أَنْ يُجْرَى عَلَيْهِ وَصْفُ حَمِيمٍ** فَلَوْ جِيءَ بِالْمَوْصُوفِ جَمْعًا لَاقْتَضَى جَمْعُ وَصْفِهِ، وَجَمْعُ حَمِيمٍ(أحماء) فِيهِ ثِقَلٌ لَا يُنَاسِبُ مُنْتَهَى الْفَصَاحَةِ وَلَا يَلِيقُ بِصُورَةِ الْفَاصِلَةِ مَعَ مَا حَصَلَ فِي ذَلِكَ مِنَ التَّفَنُّنِ الَّذِي هُوَ مِنْ مَقَاصِدِ الْبُلَغَاءِ)انتهى كلام الإمام الطاهر بعد شرحنا له.

****

﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ- أنت- **لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** - الإفراد مناسبة لذكر التوحيد(حنيفاً) ولتقرير كل فرد على حدة لأهميتها- **لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ**- أنتم بدلاً من "أنت"- **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ** .. ﴾ الروم

ويقول الإمام الزمخشرى: فإن قلت: لم وحد الخطاب أولا، ثم جمع؟ قلت: خوطب رسول الله (ﷺ) أولا، وخطاب **الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام**، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص.

ويقول الإمام الألوسى: وأما قوله تعالى: (مُنِيبِينَ) فهو حال من الضمير في (أقم)، وإنما جمع لأنه مردود على المعنى لأن الخطاب للنبي (ﷺ) وهو خطاب لأمته فكأنه **قيل: أقيموا وجوهكم منيبين.**

وقال الفراء: أي أقم وجهك **ومن تبعك** كقوله تعالى: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ [هود] فلذلك قال سبحانه: مُنِيبِينَ .. ولا يخفى على المنصف حسن كلام الزمخشري

وهو ما ذكره الإمام الطاهر بقوله: مُنِيبِينَ حَالٌ مِنْ ضمير فَأَقِمْ ،لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْخِطَابَ الْمُوَجَّهَ إِلَى النَّبِيءِ (ﷺ) مُرَادٌ مِنْهُ نَفْسُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ كَمَا تَقَدَّمَ.

****

**** ﴿مَنْ كَفَرَ (فَعَلَيْهِ) كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (فَلِأَنْفُسِهِمْ) يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾** الروم.

وتقديم الظرف في الموضعين – (فعليه)- مفرد للكافر- و (فلأنفسهم) جمع للمؤمن –للدلالة على أنّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعدّاه(فجاء بالإفراد). ومنفعة الإيمان والعمل الصالح: ترجع إلى المؤمن وتتجاوزه.

ويقول الإمام الرازى: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: **قَالَ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** (وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً) **وَلَمْ يَقُلْ** (**وَمَنْ آمَنَ**)–عكس(ومن كفر)- وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ بِهِ يَكْمُلُ الْإِيمَانُ فَذَكَرَهُ تَحْرِيضًا لِلْمُكَلَّفِ عَلَيْهِ- أى على أن يعمل عملاً صالحاً ولا يكتفى بالإيمان القولى-، وَأَمَّا الْكُفْرُ (مَنْ كَفَرَ) إِذَا جَاءَ فَلَا زِنَةَ لِلْعَمَلِ مَعَهُ.(أى لا ينفع أى عمل صالح مع الكفر ولا يعتد به)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: قَالَ: (فَعَلَيْهِ) فَوَحَّدَ الْكِنَايَةَ وَقَالَ: (فَلِأَنْفُسِهِمْ)(يمهدون) جَمَعَهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الرَّحْمَةَ أَعَمُّ مِنَ الْغَضَبِ فَتَشْمَلُهُ وَأَهْلَهُ وَذُرِّيَّتَهُ، أَمَّا الْغَضَبُ فَمَسْبُوقٌ بِالرَّحْمَةِ، لَازِمٌ لِمَنْ أَسَاءَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَالَ: **فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** وَلَمْ يُبَيِّنْ–أى لم يقل عليه كفره من الضلال والعقوبة–، وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنِ **فَلِأَنْفُسِهِمْ** (**يَمْهَدُونَ**) تَحْقِيقًا لِكَمَالِ الرَّحْمَةِ، فَإِنَّهُ عِنْدَ الْخَيْرِ بَيَّنَ وَفَصَّلَ بِشَارَةً (يمهدون)، وَعِنْدَ غَيْرِهِ- الكفر والشر- أَشَارَ إِلَيْهِ إشارة فقط.

ويقول الألوسى: وجمعه في قوله تعالى: **وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** باعتبار معناها، **وفيه مع رعاية الفاصلة إشارة إلى كثرة قدرهم وعظمهم عند الله تعالى**

****

وهذا يذكرنى بقول صاحب تفسير المنار فى قوله تعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ **أَنْ ((**تُوَلُّوا**)) **وُجُوهَكُمْ** قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ((**مَنْ آمَنَ**)) **بِاللَّهِ** وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ **وَآتَى الْمَالَ** عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ **وَأَقَامَ الصَّلَاةَ** وَآتَى الزَّكَاةَ **وَالْمُوفُونَ** بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا **وَالصَّابِرِينَ** فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ البقرة.

جيث إنه قد حدث الالتفات من الفعل(**أَنْ** ((**تُوَلُّوا**)) **وُجُوهَكُمْ**).. إلى الإسم (**وَلَكِنَّ الْبِرَّ** ((**مَنْ آمَنَ**)) ولم يقل(أن تؤمنوا) لتناسب (أن تولوا)، وهنا يقف صاحب تفسير المنار هذه الوقفة اللطيفة – التى تجعلنا نتذوق القرآن دون النظر للتعقيدات النحوية أو الفلسفية التى تخرجنا أحياناً كثيرة عن جلال النظم وحلاوته وسهولته مع الفطرة – حيث يقول: (**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**) ..أَيْ: وَلَكِنْ جُمْلَةُ الْبِرِّ هُوَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ إِلَخْ، وَفِيهِ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمَعْنَى بِالذَّاتِ–أى يقصد ذات الشخص وسلوكه الفعلى وليس كلامه فقط، فهو شخص آمن فى شخصه وأفعاله–، وَهُوَ مَعْهُودٌ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ، **وَالْقُرْآنُ جَارٍ عَلَى الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى لَا عَلَى فَلْسَفَةِ النُّحَاةِ وَقَوَانِينِهِمُ الصِّنَاعِيَّةِ، وَبَلَاغَةُ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ إِنَّمَا هِيَ فِي إِيصَالِ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةِ إِلَى الذِّهْنِ عَلَى أَجْلَى وَجْهٍ يُرِيدُهُ الْمُتَكَلِّمُ وَأَحْسَنِ تَأْثِيرٍ يَقْصِدُهُ**، وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ لَا يَزَالُ مَأْلُوفًا عِنْدَ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى فَسَادِ أَلْسِنَتِهِمْ فِي اللُّغَةِ، يَقُولُونَ: لَيْسَ الْكَرْمُ أَنْ تَدْعُوَ الْأَغْنِيَاءَ وَالْأَصْدِقَاءَ إِلَى طَعَامِكَ وَلَكِنَّ الْكَرَمَ مَنْ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ، فَالْكَلَامُ مَفْهُومٌ بِدُونِ أَنْ نَقُولَ إِنَّ مَعْنَاهُ: وَلَكِنَّ (ذَا) الْكَرَمِ مَنْ يُعْطِي، أَوْ لَكِنَّ الْكَرَمَ (عَطَاءُ) مَنْ يُعْطِي. فالأمر مفهوم من النص نفسه دون الحاجة لمثل هذه التأويلات النحوية وهو ما سيوضحه الإمام بقوله: وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى بَيَانِ النُّكْتَةِ فِي اخْتِيَارِ ذَلِكَ عَلَى قَوْلِ: وَلَكِنَّ الْبِرَّ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ إِلَخْ– حيث قال: وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ، وَهَذِهِ النُّكْتَةُ مَفْهُومَةٌ مِنَ الْعِبَارَةِ ؛ فَإِنَّهَا تُمَثِّلُ لَكَ الْمَعْنَى فِي نَفْسِ الْمَوْصُوفِ بِهِ – الشخص المؤمن– فَتُفِيدُكَ أَنَّ الْبِرَّ هُوَ الْإِيمَانُ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ بِاعْتِبَارِ اتِّحَادِهِمَا، وَتَلَبُّسِ الْمُؤْمِنِ الْبَارِّ بِهِمَا مَعًا–أى يجمع الإيمان والعمل الصالح

معاً-، مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإِيمَانَ بَاعِثٌ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَهِيَ مُنْبَعِثَةٌ عَنْهُ وَأَثَرٌ لَهُ تَسْتَمِدُّ مِنْهُ وَتَمُدُّهُ وَتُغَذِّيهِ ؛ أَيْ: أَنَّهَا تُمَثِّلُ لَكَ الْمَعْنَى فِي الشَّخْصِ، أَو الشَّخْصَ عَامِلًا بِالْبِرِّ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النَّفْسِ هُنَا مِنْ إِسْنَادِ الْمَعْنَى إِلَى الْمَعْنَى، وَمِنْ إِسْنَادِ الذَّاتِ إِلَى الذَّاتِ كَمَا هُوَ مَذُوقٌ وَمَفْهُومٌ.

****

** ﴿ **وَقَالَ (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ)** -هم- **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ (وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** -أنتم للتوبيخ المباشر لهم- **(٥٦) فَيَوْمَئِذٍ (لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** -هم- ﴾ للتشهير بهم وإعلان فضيحتهم علينا، وهكذ الالتفاتات العجيبة بين(هم، نحن، هم) وكان حقها أن تكون (فيومئذٍ لا ينفعكم معذرتكم)-بدلاً من: (**فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ**) الروم ...

ويقول الإمام الطاهر: فَالتَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا -**لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا**- إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَار – حيث كان حقها(لا ينفعكم)- لِغَرَضِ التَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِوَصْفِ الظُّلْمِ وَهُوَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ لِأَنَّهُ جَامِعٌ لِفُنُونِ الظُّلْمِ ..

وأقول:إن المتذوق للنظم القرآنى يرى أننا قد عشنا أمثلة كثيرة لهذا التحول اللذيذ والممتع والذى يعطى معانٍ وإشاراتٍ كثيرة للنص الواحد، وهذا المثال الذى نعيشه نجد فيه المتكلم يتحول فى خطابه بسرعة مذهلة ليخاطب طرفاً آخر أو أطرافاً آخرين أو يشركهم فى المشهد وكأنهم حاضرون وهو سبحانه يوزع الأقوال علي كلٍ منهم فى مشهدٍ حى قائم أمام الأبصار دون أن يشعر القارىء إلا بحلاوة وجمال هذا الالتفات هكذا:

** ﴿ **وَقَالَ (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ) لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ (وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** ﴾ وهنا يقف القارىء ليسأل: من الذى قال ذلك القول: فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ..وتأتى كافة التقديرات وكلها محتملة وجائزة، فربما يكون القائل هو الله تعالى، وربما يكون الذين أوتوا العلم وربما تكون الملائكة أو الناس

أجمعين أو الكون كله لهم (هذا يوم البعث) وكأن جميع هؤلاء يوبخونه.. فكل ذلك جائز وأراده النظم القرآنى بهذا الالتفات السريع لأنه حذف فعل القول- الذى يقدره كثير من العلماء فى مثل ذلك الموقف- فلم يقل (**وقالوا** لهم فهذا يوم البعث) والتى كانت ستشير إلى قول الذين أوتوا العلم لهم، ولكنه أتى بالآية على هذه الصورة بدون فعل القول هكذا (فهذا يوم البعث) لتعطى كل هذه الاحتمالات المرادة أيضاً.

ولذلك نرى الإمام أبو السعود وغيره يقولون: **فردٌ العالِمونَ مقالتَهم** (فهذا يوم البعث) وقالوها بسرعة يشير إليها حذف فعل القول) ونبَّهوهم على أنَّهم لبثُوا إلى غايةٍ بعيدةٍ كانُوا يسمعونَها وينكرونَها **وبكَّتوهم** بالإخبار بوقوعِها حيثُ قالُوا {فهذا يَوْمُ البعث} الذي كنتُم تُوعدون في الدُّنيا {ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ} أنَّه حقٌّ فتستعجلون به استهزاءً(١٥)

****** وهذا مثال وجدناه متكرراً وله لطافته وبهجته وجلاله وجماله عشناه فى قول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام(**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)**) ووقفنا وقتها متسائلين: من الذى قال: ربنا تقبل منا..-لأنه حذف فعل القول فلم يقل (وقالا ربنا تقبل..) وقلنا : أراد النظم أن يجعلنا نحن أيضاً مشاركون معه فى هذا الدعاء وكأننا ندعوه ونردده معهما.

****

**** وَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ تَرى (إِذِ الْمُجْرِمُونَ) ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾** السَّجْدَة: ١٢

وَقَوْلِهِ: وَلَوْ تَرى (إِذِ الْمُجْرِمُونَ)- وكان حقها ولو تراهم- والْمُجْرِمُونَ هُمُ الَّذِينَ (**قَالُوا**) **أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** [السَّجْدَة: ١٠] فى الآية قبلها

---

(١٥) والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ كما في قول من قالَ

قالُوا خراسانُ أقْصَى ما يراد بنا ... ثمَّ القُفولُ فقد جئنا خُراساناً

، فَهُوَ إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَار لِقَصْدِ التَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ مُجْرِمُونَ، أَيْ آتُونَ بِجُرْمٍ وَهُوَ جُرْمُ تَكْذِيبِ الرَّسُول (ﷺ) وَتَعْطِيلِ الدَّلِيلِ.

وَجُمْلَةُ (**رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا**) إِلَى آخِرِهَا **مَقُولُ قَوْل مَحْذُوفٍ** دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ هُوَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيِ ناكسو رؤوسهم **يَقُولُونَ أَوْ قَائِلِينَ**: أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا،
((وأقول: هذا هو الالتفات الذى عشنا مناقشته على الصفحات الماضية)).

****

** ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ (الَّذِينَ كَفَرُوا) عَلَى النَّار أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ الأحقاف. وحقها أن يقول(يقال لهم أذهبتم طيباتكم...) ولكنه التفت إليهم التفاتاً سريعاً بدون فعل القول (يقال لهم) الذى يجعل المشهد حياً متحركاً نابضاً بالحياة والحركة والتنقل برشاقة وليس حكاية تحكى لنا، وهذا الالتفات من الغيبة للحضور لتوبيخهم مواجهة لأن التوبيخ فى المواجهة يكون أشد وأقسى.

****

** ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا (آتَيْنَاهُمْ) - بدلاً من آتاهم- ((فَتَمَتَّعُوا)) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ –أنتم بدلاً من هم ملتفتاً إليهم فى الخطاب تقريعاً وتوبيخاً وإظهاراً لشدة الغضب –ثم يعود لصيغة الغيبة (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) ﴾.

(**ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ –** هم، وأيضاً جاء ذكره سبحانه بصيغة الغيبة "هو" التى سيتلوها وروده بصيغة الجمع والحضور(**آتيناهم**) (**أَمْ أَنْزَلْنَا**) والخطاب المباشر التهديدى منه سبحانه(**فتمتعوا**)– أنتم– لأنه سيتركهم ويتكلم عنهم بصيغة الغيبة فى قوله (**بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ**)–هم– **الروم**.

وكما يقول الإمام الطاهر: وَالْكَلَامُ تَوْبِيخٌ وَلَوْمٌ مُتَّصِلٌ بِالتَّوْبِيخِ الَّذِي أَفَادَهُ قَوْلُهُ **فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** [الرّوم: ٣٤] . وَفِيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ إِعْرَاضًا عَنْ مُخَاطَبَتِكُمْ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمُسْلِمِينَ تَعْجِيبًا مِنْ حَال أَهْلِ الشِّرْكِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَهَا مُتَّصِلًا بَقَوْلِهِ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ [الرّوم: ٢٩] فَهُوَ عَطْفُ ذَمٍّ عَلَى ذَمٍّ وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ.

ويضيف الإمام أبو السعود قوله: والالتفاتُ إلى الغيبة في قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم) للإيذان بالإعراضِ عنهم وتعديدِ جناياتِهم لغيرِهم بطريقِ المُباثّةِ (سلطانا) أي حجَّةً واضحةً

** ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)**﴾

****

** ﴿ **لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ((وَاتَّقِينَ اللَّهَ))**﴾ — وحقها أن تكون: وليتقين الله ولكنه التفت إليهم بالخطاب المباشر(**وَاتَّقِينَ اللَّهَ**)، وفيها يقول الإمام الألوسى: وفي نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب فضل تشديد في طلب التقوى منهن- ويرى الإمام الطاهر أن: **وَاتَّقِينَ اللَّهَ**. إلتفات مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى خطابهن فِي قَوْله: وَاتَّقِينَ اللَّهَ لتشريف نساء النبيء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْجِيهِ الْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ إِلَيْهِنَّ. (وأقول : هذا المعنى- بطرفيه-يتضح لك عزيزى القارىء مغزاه هذا لو حاولت أن تسير يالنص بغير التفات ويستمر الحديث عن نساء النبى (ﷺ) بصيغة الغيبة (وليتقين الله) فسوف تفقد هذه المعانى وتجد فيها قوة التجريح وربما التشنيع بهن، بل إنك تسمع الهمس فى (واتقين الله) كقول عزيز مصر (**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**) وكالالتفات فى قول الله تعالى لداود: (**اعْمَلُوا لِدَاوُدَ شُكْرًا**) له وَآلِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** [طه: ١٣٢] أَوْ لَهُ وَحْدَهُ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ.

(**وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)**)

وفى تكرار لفظ الجلالة (الله) إظهار فى مقام الإضمار.

****

﴿ **ثُمَّ تَوَلَّوْا-هم- **عَنْهُ** (**وَقَالُوا**) **مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ** (١٤) **إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا** (**إِنَّكُمْ**) **عَائِدُونَ** (١٥) ﴾ الدخان. {إنا كاشفو العذاب **قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ**} جوابٌ من جهتهِ تعالى عن قولِهم رَّبنا اكشفْ عنا العذاب إنا مؤمنون وجاء هذا الجواب بطريق الالتفات–(**إِنَّكُمْ**) **عَائِدُونَ**– بدلاً من (إنهم عائدون)– لمزيد التوبيخ والتهديد .. أيْ إنا نكشفُ العذابَ المعهود عنكم كشفنا قليلاً أو زماناً قليلاً إنكم تعودون إثرَ ذلك إلى ما كنتُم عليه من العُتوِّ والإصرارِ على الكفر وتنسَون هذه الحالَة. وكان يجب أن يكون السياق – فى غير النظم القرآنى– هكذا(**ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ** (**وَقَالُوا**) **مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ** (١٤) **إِنَّا** ((سنكشف)) عنهم الْعَذَابِ قَلِيلًا و(إِنَّهمْ سيعودون).. ولكنه حدث الالتفات إليهم بالخطاب المباشر والمواجهة لهم لتقريعهم وتهديدهم(إنكم عائدون) لما ذكرناه من الشرح السابق، ولكن الإمام أبو السعود يقف على التفات آخر وهو التغيير فى صيغة الفعل لتكون إسم فاعل (كاشفوا بدلاً من سنكشف) و(عائدون بدلاً من ستعودون) ويوقفنا على السبب فى ذلك الالتفات بقوله: وصيغةُ الفاعلِ في الفعلينِ للدِلالة على تحققُّهما لا محالةَ، ولقد وقعَ كلاهُما حيث كشف الله تعالى بدعاءِ النبيِّ (ﷺ) فمَا لبِثُوا أنْ عادُوا إلى ما كانُوا عليه من العتو والعِنادِ

****

ومثلها قوله: ﴿ (**ثُمَّ** (**ذَهَبَ**) **إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى** (٣٣) **أَوْلَى** (**لَكَ**) **فَأَوْلَى** (٣٤) **ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى** (٣٥) ﴾ **القيامة.** وكان حقها أن تكون: أولى له، وَالْكَافُ خِطَابٌ لِلْإِنْسَانِ الْمُصَرِّحِ بِهِ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِطَرِيقِ الْغَيْبَةِ إِظْهَارًا وَإِضْمَارًا، وَعَدَلَ هُنَا عَنْ طَرِيقِ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ لِمُوَاجَهَةِ الْإِنْسَانِ بِالدُّعَاءِ لِأَنَّ الْمُوَاجَهَةَ أَوْقَعُ فِي التَّوْبِيخِ، وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ: أَوْلَى لَهُ.

وَقَوْلُهُ: فَأَوْلَى تَأْكِيد ل (أَوْلَى لَكَ) جِيءَ فِيهِ بِفَاءِ التَّعْقِيبِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ يُدْعَى عَلَيْهِ بِأَنْ يَعْقُبَهُ الْمَكْرُوهُ وَيُعْقَبَ بِدُعَاءٍ آخَرَ.

****

** ﴿ **فَأَمَّا (الْإِنْسَانُ) إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (فَيَقُولُ) (رَبِّي) أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ (لَا تُكْرِمُونَ) الْيَتِيمَ (١٧)** ﴾ فهو(ربى) – مفرد للمخاطَب– وهو سيمثل الجنس البشرى ولذلك سيأتى فى الرد عليه بصيغة الجمع **كَلَّا بَلْ (لَا تُكْرِمُونَ) الْيَتِيمَ**.. وفيها يقول الإمام أبو السعود: وقولُه تعالَى(**بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم**) انتقالٌ من بيانِ سوءِ أقوالِه إلى بيانِ سوءِ أفعالِه والالتفاتُ إلى الخطابِ للإيذانِ باقتضاءِ ملاحظةِ جنايته السابقةِ لمشافهتِه بالتوبيخِ تشديداً للتقريعِ وتأكيداً للتشنيعِ والجمعُ باعتبار مَعْنى الإنسانِ إذِ المرادُ هو الجنسُ أي بَلْ لكم أحوالٌ أشدُّ شراً مما ذُكِرَ وأدلُّ عَلى تهالُكِكم على المالِ حيثُ يُكْرمكم الله تعالَى بكثرةِ المالِ فلاَ تُؤدونَ ما يلزمكُم فيهِ من إكرامِ اليتيمِ بالمبرةِ به.

****

** ﴿**وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨)** ﴾ الفرقان إضمار وإظهار.. ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.. (١٧) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)**﴾.

أبو السعود: (**فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ**) حكايةٌ لاحتجاجِه تعالى على العَبَدة **بطريق تلوين الخطابِ وصرفِه عن المعبودينَ** عند تمام جوابِهم وتوجيهه **إلى العَبَدة مبالغةً في تقريعهم** وتبكيتِهم على تقديرِ قول مرتَّبٍ على الجواب أي فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذَّبوكم المعبودون أيُّها الكفرةُ.

ويقول الإمام الطاهر كلاماً رائعاً كنت أود أن أسمعه منه فى مثل تلك المواقف الشبيهة هكذا: **فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بما تَقُولُونَ فما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً. ..وَفِي حَذْفِ فِعْلِ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِحْضَارٌ لِصُورَةِ الْمَقَامِ كَأَنَّهُ مُشَاهَدٌ غَيْرُ مَحْكِيٍّ ، وَكَأَنَّ السَّامِعَ آخِرَ الْآيَةِ قَدْ سَمِعَ لِهَذِهِ الْمُحَاوَرَةِ مُبَاشَرَةً دُونَ حِكَايَةٍ**

فَقَرَعَ سَمْعَهُ شَهَادَةُ الْأَصْنَامِ عَلَيْهِمْ) انتهى . وأنا أرى أن ذلك من الالتفات كما هو حال كثير من العلماء

****

** ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ** (**يَشْتَرِي**) **لَهْوَ الْحَدِيثِ** (**لِيُضِلَّ**)"هو" ولم يقل ليضلوا ليتناسب مع "أولئك" بعدها:- **عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا** (**أُولَئِكَ**) **لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ** (٦)﴾ لقمان.

والالتفات هنا من المفرد الغائب (**لِيُضِلَّ**) إلى صيغة الجمع وللبعيد (**أولئك**) يقول فيها الإمام أبو السعود: للإيذان ببُعدِ منزلتِهم في الشَّرارةِ(١٦) أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من الاشتراءِ للإضلالَ **{لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}**

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ** (١٨)﴾ السجدة.

والجمعُ- فى لَا يَسْتَوُونَ- بدلاً من يستويان أو لا يستوى- باعتبار معنى (من)- التى تصلح للجمع والمفرد- كما أن الإفراد فيما سبق باعتبارِ لفظِها وقيل: الضمير لاثنين وهما المؤمن والكافر والتثنية جمع.

(وأرى أنه يقصد فريق الإيمان- من كان مؤمناً- وفريق الفسق (من كان فاسقا) لا يستوون- كفريقين- والفريق الواحد منهم جمع فى ذاته، وهذا كمثال (**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**)

﴿ **وَلَمَنِ (**انْتَصَرَ**) **بَعْدَ ظُلْمِهِ** (**فَأُولَئِكَ**) **مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ** (٤١)﴾ **الشورى.** لأن(من انتصر) بمعنى الجمع وليس شخص بعينه.

﴿ (ذُقْ** (**إِنَّكَ أَنْتَ**) **الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** (٤٩) **إِنَّ هَذَا** (**مَا كُنْتُمْ**) **بِهِ تَمْتَرُونَ** (٥٠)﴾ **الدخان.** وكان حقها إن هذا ما كنت به تمترى. والجمعُ باعتبارِ المعنى لأنَّ المرادَ جنسُ

---

(١٦)- أى أن مكانتهم عالية وبعيدةفى شدة الشر فأشار عليه باسم الإشارة الذى يفيد البعد(أولئك) وهذا يذكرنا بالآية القرآنية (وَمَا آتَيْتُمْ-أنتم- مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ-أنتم- وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩))

الأثيم ((وهذا له بحث كامل فى الإفراد – فى عذاب أهل الجحيم– فى محبسهم (**ذُقْ** (**إِنَّكَ أَنْتَ**) **الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** –والجمع– حال توبيخهم حيث لاينفعهم جمعهم)).

**﴿قَالَ (إِنِّي) تُبْتُ (إِلَيْكَ) وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) (أُولَئِكَ) الَّذِينَ (نَتَقَبَّلُ) عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا (وَنَتَجَاوَزُ) عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾الأحقاف. إفراد – للتوحيد– بعده جمع للتعظيم.

﴿ **قَالَ (**إِنِّي**) **تُبْتُ** (**إِلَيْكَ**)– إلى الله الواحد وحده– **وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (١٥) (**أُولَئِكَ**)– ﴾ جاء الالتفات للجمع : أى هذا التائب وأمثاله–

ويقول الإمام الألوسى: **{أولئك}** وما فيهِ من معنى البُعدِ للإشعارِ بعلوِّ رتبتِه وبُعد منزلتِه أي أولئكَ المنعوتونَ بما ذُكِرَ من النعوتِ الجليلةِ **{الذين نَتقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ}** **{وَنَتَجَاوَزُ عَن سيئاهم}** وقرئ الفعلانِ بالياءِ (يتقبل، ويتجاوز) على إسنادِهما إلى الله تعالى وعلى بنائِهما للمفعول.

وقال الإمام الطاهر: جِيءَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِلْغَرَضِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفًا عِنْدَ قَوْلِهِ: **أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها** (الْأَحْقَاف: ١٤). وَكَوْنُهُ إِشَارَةَ جَمْعٍ وَمُخْبِرَةٌ عَنْهُ بِأَلْفَاظِ الْجَمْعِ ظَاهِرٌ **فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ مِنْ قَوْلِهِ**: **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ** (الْأَحْقَاف: ١٥) **غَيْرُ مُعَيَّنٍ بَلِ الْمُرَادُ الْجِنْسُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي الِاسْتِغْرَاقِ** – فهو يقصد كل الناس لأنهم يدخلون فى جنس الإنسن– كَمَا قَدَّمْنَاهُ.

﴿ **وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا – وكان حقها أن تكون "لقد كانت فى غفلة..– أى النفس–ولكن الحق تعالى يتوجه بالخطاب المباشر والمواجهة التعنيفية بدلاً من الغيبة لهذا الإنسان قائلاً له: **لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا** (**فَكَشَفْنَا**) **عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** (٢٢)... **(لقد كنت فى غفلة مّنْ هذا)... (فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ)** ثم يلتفت السياق مباشرة وبسرعة فائقة – دون فاصل– إلى الملائكة (**أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ**) بدون فعل القول (أى لم يقل : قال الله للملائكة: ألقيا فى جهنم..) ولكنه هو التحول المفاجىء بالخطابُ منَ الله

تعالَى للسائق والشهيدِ أو للملكين منْ خزَنةِ النار(١٧) بدون فعل القول أيضاً- **أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧)** (**قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)**)-وهذا الإفراد فى ذاته سبحانه(قال) سيتحول إلى جمع تعظيمى وحضور فى الآية التالية بعدها(**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)** ﴾.

وكما يقول الإمام الطاهر: هَذَا حِكَايَةُ كَلَامٍ يَصْدُرُ يَوْمَئِذٍ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْفَرِيقَيْنِ الَّذِي اتَّبَعُوا وَالَّذِينَ اتُّبِعُوا، فَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: **فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ** (ق: ٢٢) ليريه الفريقين مقترنين بأعمالهم.

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا (**لَدَيَّ**)- إفراد للحكم سبحانه بعد الجمع التعظيمى "فكشفنا"وهكذا فى باقى السياق- **وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ** (**لَدَيَّ**) **وَما** (**أَنَا**) **بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)** ثم يعود لصيغة الجمع التعظيمى فى قوله: **يَوْمَ** (**نَقُولُ**) **لِجهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ** (**لِلْمُتَّقِينَ**)-"هم" بضمير الغيبة وصفاً لنا عن حالهم ومقامهم - **غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١)**ثم يلتفت إليهم مكرماً لهم فى مواجهتهم: **هَذَا** (**مَا تُوعَدُونَ**)- أنتم بدلاً من هم- **لِكُلِّ** (**أَوَّابٍ حَفِيظٍ**) **(٣٢)** ثم يتحدث عنهم لنا لوصفهم بأفضل الأوصاف المادحة لهم (والمدح- كما كررنا- يكون فى الغيبة أكمل) وهو ما سيسير عليه النظم هكذا: (**مَنْ خَشِيَ**)- **"هو"** مفرد غائب -**الرَّحْمَنَ**- "هو" سبحانه بدلاً من الجمع والحضور فى قوله ((نَقُولُ)-نحن- لِجَهَنَّمَ.. (**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ** (**وَجَاءَ**) **بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)** (**ادْخُلُوهَا**) -

---

(١٧)أو لواحدٍ عَلى تنزيلِ تثنية الفاعل تثنيةِ الفعلِ وتكريرِه كقولِ مَنْ قالَ ... فإنْ تزجُراني يَا ابْنَ عفانَ أنزجِر ... وإنْ تدعاني أحمِ عرضاً ممَّنعَا ...

هنا المفرد الغائب انقلب إلى صيغة الجمع التكريمى-وقد أفردنا له بحثاً كاملاً على الصفحات الماضية حيث يجعل دائماً تكريم أهل الجنة بصيغة الجمع حتى لا يتركهم فى عذاب الوحدة ولو كانوا فى الجنة ولذلك يقول:((**ادْخُلُوهَا**) **بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ** (**٣٤**) ثم يصف حالهم لنا بعد أن كان يخاطبهم بالخطاب المباشر فيقول: (**لَهُمْ**) **مَا يَشَاءُونَ فِيهَا** (**وَلَدَيْنَا**) **مَزِيدٌ**(**٣٥**) – وهكذا عاد لصيغة الجمع والحضور لذات الله تعالى أيضاً(ولدينا) بدلاً من الغيبة والإفراد فى قوله (من خشى الرحمن بالغيب) ولاحظ ورود قوله (بالغيب) متناسباً مع صيغة المفرد الغائب، ثم الحضور والجمع مع التنعيم الحاضر-.

وهكذا ينتقل السياق من غيبة لحضور وهو ما يسميه الإمام الزمخشرى وغيره من علماء البلاغة والبيان من أنه (**تطرية للسامع وعدم الملال**) وقولُه تعالَى (غَيْرَ بَعِيدٍ)- **تذكير للجنة وهى مؤنث** وهذا نوع من ألوان الالتفات- وذلك تأكيدٌ للإزلافِ أيْ- الجنة- بتقدير(**مكاناً** غيرَ بعيدٍ) بحيثُ يشاهدُونَها (وهذا ما يؤكد قربها وإذلافها) فهو لا يقول الجنة غير بعيدة ولكنه يقول مكانها غير بعيد، وأرى أن ذلك فيه زيادة فى توقير الجنة وكأنها جوهرة مكنونة فى هذا المكان، فهو يرى مكانها ولم يرها بعد زيادة فى تشويقه لها، وخاصة أنه يتحدث فى الجهة المقابلة عن جهنم فلا يصفها ولا يصف أحوالها بل يتحدث عن امتلاء (مكانها) وهى تقول (هل من مزيد) فناسب ذلك أن يكون التقابل فى وصف مكان الجنة وامتلائها فقط (١٨) {هذا مَا تُوعَدُونَ} إشارةٌ إلى الجَنَّةِ، والتذكيرُ لَمَا أنَّ المشارَ إليهِ هُوَ المسمَّى **منْ غيرِ أنْ يخطُر بالبالِ لفظٌ يدلُّ عليه** (كأنه يقول هذا النعيم الذى نصفه بأنه لا عين رأت ولا أذن سمعت بمثله ولا خطر على قلب بشر فهو لهذا لا يمكن لنا وصفه واكتفى بالإشارة إليه(هذا ما توعدون)..وهذا نوع من الالتفات من التأنيث للتذكير)

---

(١٨) وقيل: أوْ حالُ كونها غيرَ بعيدٍ، أيْ شيئاً غيرَ بعيدٍ ، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّذكيرُ لكونه على زنةِ المصدرِ الذي يستوي في الوصفِ بهِ المذكرُ والمؤنثُ أوْ لتأويلِ الجنةِ بالبستانِ...

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ – أنت (مفرد) أيها الإنسان-**(٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ**- أنتم (جمع) بدلا من أنت- **(٩)**﴾ وكان حقها أن تقال: كلا بل تكذب.

(وأرى أنه يخاطب (الإنسان) بلفظ المفرد وهو بمعنى الجمع ليوحى للقارىء أنه يعتب عليه(فرداً فرداً) ويقرره (فرداً فرداً) فى أمور لا يعقل إنكارها وكأنه يُشنع عليه (فرداً فرداً) ويوقفه للحساب وحده، وقد ورد قبلها قوله (**عَلِمَتْ**) **نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** (٥)) و(نفسٌ) أيضاً مفرد لفظاً فى معنى الجمع ، وجاءت بصيغة الماضى (**عَلِمَتْ**) لتحقيق وقوع هذا الحدث فى وسط أهوال انتهاء العالم التى تحتاج إلى التوكيد ولذلك جاءت أيضاً جميعها بصيغة الماضى هكذا ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ** (١) **وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ** (٢) **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** (٣) **وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ** (٤) **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** (٥)﴾.

ثم أقبل عليهم جميعاً بالتوبيخ- بالخطاب المباشر وبصيغة الجمع، وجاء التحول إلى صيغة الفعل المضارع (**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ**) -، فهم لا يعجزونه بجمعهم، ولا يعجزون ملائكته.. والتوبيخ فى المواجهة أقوى وأقسى(**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ**) وكأنه (يوقظهم) من هذه الغفلة و(يهزهم) هزاً ليفيقوا.. وصيغة الجمع أيضاً موافقة مع ما بعدها من السياق الذى يتحدث عن إنكارهم (للبعث).. وقوله تعالى (**بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ**)

ويقول الإمام الألوسى: **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ** (**لَحافِظِينَ**) حال من فاعل تكذبون وجمع الحافظين- الملكان الموكلان بحفظ أعمال العبد – رغم أنهما إثنان- وذلك باعتبار كثرة المخاطبين(فكل واحد له ملكان)، أو باعتبار أن لكل واحد منهم جمعاً من الملائكة كما قال اثنان بالليل واثنان بالنهار.

ويقول الإمام الطاهر:(**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ** (٩) **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** (١٠) **كِرَامًا كَاتِبِينَ** (١١) وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: تُكَذِّبُونَ بِتَاءِ الْخِطَابِ. وَقَرَأَهُ أَبُو جَعْفَرٍ بِيَاءِ الْغَيْبَةِ عَلَى الِالْتِفَاتِ(يُكَذِّبون).(**(والالتفات فى القراءات هو نوع من الالتفات لم نتعرض إليه هنا ولكن نكتفى بالتنويه إليه)**)

وَفِي صِيغَةِ الْمُضَارِعِ مِنْ قَوْلِهِ: تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ إِفَادَةُ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ بِالْجَزَاءِ مُتَجَدِّدٌ لَايُقْلِعُونَ عَنْهُ، وَهُوَ سَبَبُ اسْتِمْرَارِ كُفْرِهِمْ.

وَفِي الْمُضَارِعِ أَيْضًا اسْتِحْضَارُ حَالَةِ هَذَا التَّكْذِيبِ اسْتِحْضَارًا يَقْتَضِي التَّعْجِيبَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لِأَنَّ مَعَهُمْ مِنَ الدَّلَائِلِ مَا لَحِقَهُ أَنْ يُقْلِعَ تَكْذِيبُهُمْ بِالْجَزَاءِ. وَالدِّين: الْجَزَاء.

وإيثار تعريف الله- تعالى- بصفة الرب- فى قوله: (**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ** (٦) **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** (٧)- لما في معنى الرب من التربية والرعاية والملكية والإيجاد من العدم ...

وكل ماقيل فى هذا المثال نستطيع أن نكرره فى المثال التالى:

** (**وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** – مفرد- (١٦) **كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ**-أنتم- **الْيَتِيمَ** (١٧)).

****

** ﴿ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** (٦) **وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ** (٧) **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** (٨) **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ** (٩) **وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ** (١٠) **إِنَّ رَبَّهُمْ**- وكان حقها:(إن ربه) به- **بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ** (١١)﴾

وهنا نقف على نوع آخر من الالتفات فى قوله تعالى {**أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ (مَا) فِي القبور**} ..ألا يلاحظُ أفلا يعلمُ حالَهُ إذا **بعثَ (منْ)** فِي القبورِ من المَوْتى، وإيرادُ (ما)- فى قوله: **ما فى القبور**- وهى تستخدم لغير العاقل - **لكونِهم إذْ ذاكَ بمعزل من رتبة العقلاء** (فهم موتى بلا روح فى قبرهم).... إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)).

{**إِنَّ رَبَّهُم**} أي المبعوثينَ- من القبور- كَنَّى عنْهُم بعدَ الإحياءِ الثاني بضمير العقلاء – بهم- بعدما عبرَ عنهُمْ قبلَ ذلكَ (بما)- لغير العاقل- بناءً على تفاوتِهم في الحالينِ – ففى القبر هو ميت فقال (ما فى القبور)، وبعد البعث هو حى حياة العقلاء فقال (ربهم) ..

**** وكذا قال الإمام الألوسى:** ومثله ما ورد فى سورة السجدة (**وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ** (٧) **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** (٨) **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ** ((**لَكُمُ**)) - وكان حقه أن يكون "وجعل له" أى الإنسان-وهكذا: **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا** (**مَا تَشْكُرُونَ**) (**٩**) وكان حقه أن يكون "قليلاً ما يشكر" عائد على أول السياق(**ثُمَّ سَوَّاهُ**..) فهذا التفات آخر.

يقول الإمام: حيثُ التفتَ إلى الخطابِ في قوله تعالَى **{ وَجَعَلَ** (**لَكُمُ**) **السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ }** الآيةَ بعدَ قولِه (**ثُمَّ** (**سَوَّاهُ**) **وَنَفَخَ** (**فِيهِ**) **مِن رُّوحِهِ**) إيذاناً بصلاحيتِهم للخطابِ بعد نفخِ الروحِ –بعد أن جعل له السمع والبصر والفؤاد فقال(لكم)- وبعدمِها قبلَه- أى: وقبل ذلك كانت عدماً (فخاطبه بصيغة الغيبة فقال: (ثُمَّ (سَوَّاهُ)- كما أُشيرَ إليهِ هناكَ..

ويقول الإمام الألوسى وأبو السعود: في قوله (**ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** (**٩**)) وفي حكايةِ أحوالِ الإنسانِ من مبدأِ فطرتِه إلى نفخِ الرُّوح فيه **بطريقِ الغَيبةِ**، وحكايةِ أحوالِه بعد ذلك **بطريقِ الخطابِ** المنبىءِ عن استعدادِه للفهمِ وصلاحيتِه له من الجَزَالةِ مالا غايةَ وراءَهُ (فقال: لعلكم- أنتم- تشكرون).

ويقول الإمام الطاهر:

******﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ** -هو- **مِنْ طِينٍ** (٧) **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ**-هو- **مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** (٨) **ثُمَّ سَوَّاهُ**-هو- **وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ** -هو- **وَجَعَلَ لَكُمُ**-أنتم- **السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**-أنتم- ﴾.

وَالِانْتِقَالُ مِنَ **الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ** فِي قَوْلِهِ: (**وَجَعَلَ لَكُمُ**) الْتِفَاتٌ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ أَفْرَادِ النَّاسِ- جمع- **وَجَعْلَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ** لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ غَيْرُ خَاصٍّ بِالْمُخَاطَبِينَ-أى فى الآية-، فَلَمَّا انْتَهَضَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَإِتْقَانِ الْمُرَادِ مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ المتحدث عَنْهُم بطرِيق **الْغَيْبَةِ الشَّامِلِ لِلْمُخَاطَبِينَ**

وَغَيْرِهِمْ نَاسَبَ أَنْ يُلْتَفَتَ إِلَى الْحَاضِرِينَ **بِنَقْلِ الْكَلَامِ إِلَى الْخِطَابِ لِأَنَّهُ آثَرُ** – أى أفضل– **بِالِامْتِنَانِ وَأَسْعَدُ بِمَا يَرِدُ بَعْدَهُ مِنَ التَّعْرِيضِ بِالتَّوْبِيخِ فِي قَوْلِهِ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ.**

وَالِامْتِنَانُ بِقُوَى الْحَوَاسِّ وَقُوَى الْعَقْلِ أَقْوَى مِنَ الِامْتِنَان بِالْخَلْق وَتَسْوِيَتِهِ لِأَنَّ الِانْتِفَاعَ بِالْحَوَاسِّ وَالْإِدْرَاكِ مُتَكَرِّرٌ مُتَجَدِّدٌ فَهُوَ مَحْسُوسٌ، بِخِلَافِ التَّكْوِينِ وَالتَّقْوِيمِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى النَّظَرِ فِي آثَارِهِ.((وهذا ما عشناه فى المناقشة مع الدكتور حسن طبل الذى جعل الغيبة مع الأمور المعنوية أو الغيبية (كالخلق والتكوين)التى تحتاج إلى العقل فى علمها، وجعل الظهور والحضور للأمور المحسوسة الظاهرة – بعد أن أصبح سميعاً بصيرا– وذلك حين مناقشة الفرق بين(نزَّل وأنزل) فليراجعه القارىء الكريم).

وَالْعُدُولُ عَنْ أَنْ يُقَالَ: وَجَعَلَكُمْ سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ عَالِمِينَ إِلَى جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لِأَنَّ ذَلِكَ أَعْرَقُ فِي الْفَصَاحَةِ، وَلِمَا تُؤْذِنُ بِهِ اللَّامُ – فى لكم– مِنْ زِيَادَةِ الْمِنَّةِ فِي هَذَا الْجَعْلِ؛ إِذْ كَانَ جَعْلًا لِفَائِدَتِهِمْ وَلِأَجْلِهِمْ، وَلِمَا فِي تَعْلِيقِ الْأَجْنَاسِ مِنَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ بِفِعْلِ الْجَعْلِ مِنَ الرَّوْعَةِ وَالْجَلَالِ فِي تَمَكُّنِ التَّصَرُّفِ(فهو يضع كل عضو فى مكانه بدقة ومهارة يشهد عليها الصنع والتصرف بها)، وَلِأَنَّ كَلِمَةَ الْأَفْئِدَةَ– جعل لكم.. الأفئدة– أَجْمَعُ مِنْ كَلِمَةِ عَاقِلِينَ– أن يقول: جعلكم عاقلين– لِأَنَّ الْفُؤَادَ يَشْمَلُ الْحَوَاسَّ الْبَاطِنَةَ كُلَّهَا وَالْعَقْلُ بَعْضٌ مِنْهَا.

وَتَقْدِيمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ على الْأَفْئِدَةَ هُنَا عَكْسَ آيَةِ الْبَقَرَةِ (**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**) لِأَنَّهُ رُوعِيَ هُنَا تَرْتِيبُ حُصُولِهَا فِي الْوُجُودِ– فهو يتحدث عن الخلق والتكوين فى السجدة– فَإِنَّهُ يَكْتَسِبُ الْمَسْمُوعَاتِ وَالْمُبْصِرَاتِ قَبْلَ اكْتِسَابِ التَّعَقُّلِ.أما آية البقرة فيتحدث عن الختم والغشاوة التى تمنع وصول الهدى عنه فكان لا بد من تقديم الأفئدة التى تعقل أولاً.

****

** ﴿**وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ((فَهُوَ)) الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)**﴾ الإسراء.

فهو إفراد فى سياق الهداية((**فَهُوَ**)) الْمُهْتَدِ، وجمع فى سياق الضلال(**لَهُمْ .. وَنَحْشُرُهُمْ**). وفي هذا الالتفات يقول الإمام أبو السعود: (**فَلَن تَجِدَ لَهُمْ**) أوثر ضميرُ الجماعة في مقابله الإفرادُ نظراً إلى لفظها، **تلويحاً بوَحدة طريقِ الحقِّ وقلةِ سالكيه وتعددِ سبلِ الضلال وكثرةِ الضلال.**

وأقول مضيفاً لقول الإمام: إننا عشنا ذلك فى بحث خاص عن الإفراد والجمع وهو كمثال قوله تعالى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.**

ويضيف الإمام الطاهر قوله: وَالْخِطَابُ فِي (**فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ**) للنبيء (ﷺ) لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَسُوقٌ لِتَسْلِيَتِهِ عَلَى عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ، فَنَفْيُ وُجْدَانِ الْأَوْلِيَاءِ كِنَايَةٌ عَنْ نَفْيِ وُجُودِ الْأَوْلِيَاءِ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مَوْجُودِينَ لَوَجَدَهُمْ هُوَ وَعَرَفَهُمْ.

****

** ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى ...قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا** -أنتم- **مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ (عَلَيْهِمُ)** - وكان يجب أن تكون (وضربت عليكم) وفيها ما فيها من تغييبهم عن المشهد والارتياح منهم وقد **ضربت عليهم** الذلة ، وهو يشنع عليهم ويحكى لنا حالهم وشؤمهم- **وَضُرِبَتْ (عَلَيْهِمُ) الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)**﴾ **البقرة**

****

** ﴿ **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ** -هم- **عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً (فَذُوقُوا)** -أنتم- **الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** -أنتم- **(٣٥)**﴾ تحول إلى خطاب مواجهة لهم لتوبيخهم.

يقول الإمام الطاهر: ما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.. وَ(كَانَ)- فى كنتم- إِذَا جُعِلَ خَبَرُهَا جُمْلَةً مُضَارِعِيَّةً (تكفرون) أَفَادَتِ الِاسْتِمْرَارَ وَالْعَادَةَ، .. .

****

﴿ **وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وَرَسُولُهُ (فَإِنْ تُبْتُمْ) - وكان حقها (فإن تابوا)، ولكنه التفت إليهم لأهمية التوبة التى تستحق مواجهتهم بها ونصحهم المباشر، ويقول الإمام أبو السعود: التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب لزيادة التهديدِ والتشديد – فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ – ولم يقل (إن تولوا)- **فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ** – بدل "أنهم"- **غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ**- ثم نجد أن النظم سيعود لصيغة الغيبة للتشنيع على جرمهم وإهمالهم بقوله:- **وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا**- هم- **بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)** ﴾ ويقول الإمام: {وَبَشّرِ الذين كَفَرُواْ} تلوينٌ للخطاب وصرْفٌ له عنهم إلى رسول الله (ﷺ) لأن البشارة{بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} وإن كانت بطريق التهكمِ إنما تليق بمن يقفُ على الأسرار الإلهية.

****

ومن أمثلة الإظهار فى مقام الإضمار قوله تعالى

﴿ **وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ- ولم يقل(فقاتلوهم) فهو إظهار فى موضع الإضمار- **إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)** ﴾

** ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ** -فهو إظهار فى موضع الإضمار لإظهار صفات العظمة التى فى هذا الاسم الجليل **ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)** ﴾.

****

** ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ** .. (**١٤٣**) ﴾ – وحقها أن تكون (من يتبعك) وهى من باب الإظهار فى موطن الإضمار ،وهذا الالتفات إلى الغيبة مع إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلة الاتباعِ–

****

** ﴿ وَاعْلَمُوا (**أَنَّكُمْ**) **غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي** (**الْكَافِرِينَ**) (**٢**) ﴾ – إظهار فى مقام الإضمار حيث كان حقها أن تكون(وأنه مخزى الكافرين) ولكن يكفى القارىء أن يسمع فى أذنه ترديد لفظ الجلالة (الله) ليشعر بالمهابة والجلال فى هذا الشأن– ونرى التفات أيضاً من الخطاب (أَنَّكُمْ) إلى الغيبة (الْكَافِرِينَ) حيث غيبهم عن المشهد احتقاراً لهم وتشنيعاً عليهم وإشهادنا عليهم وعلى جرمهم.

****

** ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** (**فَاللَّهُ**) **هُوَ الْوَلِيُّ** — وكان حقها أن تكون(فهو الولى) **وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (**٩**) ﴾ اظهار بعد إضمار. (الشورى)

** ﴿ (**يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** (**٩٦**) ﴾ إظهار وإضمار، وفيها يقول الإمام أبو السعود: ووضعُ الفاسقين موضعَ ضميرِهم– بدلاً من قوله(فإن الله لا يرضى عنهم)– للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجبِ لما حلَّ بهم من السُخط، وللإيذان بشمول الحُكمِ لمن شاركهم في ذلك، والمرادُ به نهيُ المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترارِ بمعاذيرهم الكاذبةِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه؛ فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى ممَّا لا يكادُ يصدُرُ عن المؤمن، وقيل إنما قيل ذلك لئلا يَتوهمَ متوهمٌ أن رضا المؤمنين من دواعي رضا الله تعالى .

****

**** ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ (بِالْمُؤْمِنِينَ) رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) ﴾** التوبة. اظهار واضمار..وحقها أن تكون (بكم) رءوف رحيم.

وأعجبنى تعليق الإمام أبو السعود فى قوله: {بالمؤمنين} منكم ومن غيركم{رؤوف رَّحِيمٌ} ..ولو قال(وبكم رءوف رحيم) لاختص الأمر بالمخاطبين وقت نزول الآية فقط.

**** ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ التوبة.**

(**فَإِن تَوَلَّوْاْ**)–هم- بعد قوله (**لَقَدْ جَاءَكُمْ**..)–أنتم- تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى النبيِّ (ﷺ) (فَإِن تَوَلَّوْاْ- يا محمد-) تسليةً له أي إن أعرضوا عن الإيمان بك{فَقُلْ حَسْبِىَ الله} فإنه يكفيك ويُعينك عليهم

**** ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾** يونس.

(**فَإِلَيْنَا) مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ** (**اللَّهُ**)- وكان حقها أن تكون(ثم نحن شهداء على ما يفعلون)- وقد علمنا فائدة الالتفات لإظهار لفظ الجلالة.. ونضيف قول الإمام أبو السعود: {(**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ**} أي (**وعدناهم**) من العذاب ونعجِّلَه في حياتك فتراه، والعدولُ إلى صيغة الاستقبال –**نَعِدُهُمْ**- لاستحضار الصورةِ أو للدِّلالةِ على التَّجددِ والاستمرارِ أي نعِدُهم وعداً متجدداً حسبما تقتضيه الحكمةُ من إنذار غِبَّ إنذار .

وفي تخصيص البعضِ بالذكر رمزًا إلى العِدَة بإراءةِ بعضِ الموعودِ وقد أراه يومَ بدر.

{أَوْ نَتوَفَّيَنَّكَ} قبلَ ذلكَ **{فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ}{ثُمَّ الله شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ} وإظهارُ اسمِ الجلالةِ لإدخال الروعةِ وتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ التهديد.**

ويقول الإمام الطاهر: وَعَبَّرَ بِالْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: (**يَفْعَلُونَ**) لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَحْدُثُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ، فَأَمَّا مَا مَضَى فَهُوَ بِعِلْمِهِ أَجْدَر.

****

**** ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ** آيَةٌ **مِنْ** رَبِّهِ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ**- التفت إليه بالخطاب تأنيساً له- **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** (٧) ﴾ **الرعد.**

وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ عَيْنُ أَصْحَابِ ضَمِيرِ (**يَسْتَعْجِلُونَكَ**..) فى الآية قبلها ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)** ﴾ وكان يجب أن تكون **(ويستعجلونك .. ويقولوا لولا أنزل)** وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنْ ضَمِيرِهِمْ إِلَى اسْمِ الْمَوْصُولِ- الَّذِينَ كَفَرُوا- لِزِيَادَةِ تَسْجِيلِ الْكُفْرِ عَلَيْهِم، ولما يومىء إِلَيْهِ الْمَوْصُولُ مِنْ تَعْلِيلِ صُدُورِ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ. **وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ** تَدُلُّ عَلَى تَجَدُّدِ ذَلِكَ وَتَكَرُّرِهِ.

****

**** ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** (٧) **أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ** (٨) **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** (٩) ﴾ **الرحمن.**

وهذا النوع من الالتفات هو الإظهار فى مقام الإضمار حيث كرر ذكر الميزان – الذى هو رمز العدل- ثلاث مرات وكان حق السياق أن يكون هكذا: (**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** (٧) **أَلَّا تَطْغَوْا (فيه)** (٨) **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوه (٩)**)

ولكنه أظهر الميزان فى موضع الإضمار ، وفى ذلك يقول الإمام الطاهر: وَيَكُونُ إِظْهَارُ لَفْظِ الْمِيزَانِ فِي مَقَامِ ضَمِيرِهِ تَنْبِيهًا عَلَى شِدَّةِ عِنَايَةِ اللَّهِ بِالْعَدْلِ، وَإِنْ حُمِلَ فِيهِ عَلَى آلَةِ الْوَزْنِ كَانَ الْمَعْنَى النَّهْيَ عَنْ غَبْنِ النَّاسِ فِي الْوَزْنِ لَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ [٣] وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ.

ويضيف الإمام الألوسى: وكرر لفظ الْمِيزانَ بدون إضماره كما هو مقتضى الظاهر تشديدًا للتوصية وتأكيدا للأمر باستعماله والحث عليه..

وأقول موضحاً: وهذا له أمثلة عديدة فى لغتنا المعتادة؛ فأنا أقول لك : أوصيك بأبيك خيراً، لا تنس أبيك، لا تهمل أبيك، وهكذا أكرر فى كل مرة كلمة (أبيك) وليس ضميره وحينها يستشعر السامع قيمة هذه الوصية بالوالدين وعظم مقامهما.

****

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾

هنا إظهار (الناس) فى مقام الإضمار (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِهم (٢) إِلَهِهم...) وقد حدث هذا الالتفات كما يقول الإمام الرازى: الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: السَّبَبُ فِي تَكْرِير لَفْظِ النَّاس أَنَّهُ إِنَّمَا تَكَرَّرتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ، لِأَنَّ عَطْفَ الْبَيَان يَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدِ الْإِظْهَار-وعَطْفُ الْبَيَان كَقَوْلِهِ: سِيرَةُ أَبِي حَفْص عُمَرَ الْفَارُوق- وَلِأَنَّ هَذَا التَّكْرِيرَ يَقْتَضِي مَزِيدَ شَرَفِ النَّاس، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ كَأَنَّهُ عَرَّفَ ذَاتَهُ بِكَوْنِهِ رَبًّا لِلنَّاس، مَلِكًا لِلنَّاس، إِلَهًا لِلنَّاس. ولولا أن الناس أشرف مَخْلُوقَاتِهِ وَإِلَّا لَمَا خَتَمَ كِتَابَهُ بِتَعْرِيفِ ذَاتِهِ بِكَوْنِهِ رَبًّا وَمَلِكًا وَإِلَهًا لَهُمْ.

ويضيف الإمام الطاهر قوله: فَتَكْرِيرُ لَفْظِ النَّاس دُونَ اكْتِفَاءٍ بِضَمِيرِهِ لِأَنَّ عَطْفَ الْبَيَان يَقْتَضِي الْإِظْهَارَ لِيَكُونَ الِاسْمُ الْمُبَيِّنُ (بِكَسْرِ الْيَاءِ) مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ عَطْفَ الْبَيَان بِمَنْزِلَةِ عَلَمٍ لِلِاسْمِ الْمُبَيَّن (بِالْفَتْح) ...ويقول بعدها: وَتَكْرِيرُ كَلِمَةِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْمَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِاعْتِبَار مَعْنًى وَاحِدٍ إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَار لِقَصْدِ تَأْكِيدِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِلْكِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَما هُوَ مِنَ الْكِتابِ [آل عمرَان] .

وَأَمَّا تَكْرِيرُهُ الْمَرَّةَ الثَّالِثَةَ بِقَوْلِهِ: فِي صُدُور النَّاسِ فَهُوَ إِظْهَارٌ لِأَجْلِ بُعْدِ الْمَعَادِ.

وَأَمَّا تَكْرِيرُهُ الْمَرَّةَ الرَّابِعَةَ بِقَوْلِهِ: مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس فَلِأَنَّهُ بَيَانٌ لِأَحَدِ صِنْفَيِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، وَذَلِكَ غير مَا صدق كَلِمَةِ النَّاسِ فِي الْمَرَّاتِ السَّابِقَةِ.

ويضيف الإمام لطيفة أخرى فى قوله: وَقُدِّمَ الْجِنَّةِ عَلَى النَّاسِ هُنَا لِأَنَّهُمْ أَصْلُ الْوَسْوَاسِ كَمَا عَلِمْتَ بِخِلَافِ تَقْدِيمِ الْإِنْسِ عَلَى الْجِنِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (الْأَنْعَام) لِأَنَّ خُبَثَاءَ النَّاسِ أَشَدُّ مُخَالَطَةً لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ، لِأَنَّ اللَّهَ عَصَمَ أَنْبِيَاءَهُ مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيَاطِينِ عَلَى نُفُوسِهِمْ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (الْحجر) فَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ إِبْلَاغَ وَحْيِهِ لِأَنْبِيَائِهِ فَزَكَّى نُفُوسَهُمْ مِنْ خُبْثِ وَسْوَسَةِ الشَّيَاطِينِ، وَلَمْ يَعْصِمْهُمْ مِنْ لِحَاقِ ضُرِّ النَّاسِ بِهِمْ وَالْكَيْدِ لَهُمْ لِضَعْفِ خَطَرِهِ، قَالَ تَعَالَى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (الْأَنْفَال) وَلَكِنَّهُ ضَمِنَ لِرُسُلِهِ النَّجَاةَ مِنْ كُلِّ مَا يَقْطَعُ إِبْلَاغَ الرِّسَالَةِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ مُرَادُ اللَّهِ.

****

﴿ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) ﴾ – كان حقها أن تكون(ولكنهم اليوم) فهو إظهار فى مقام الإضمار–.

﴿ **قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ – فالحكم لله وكذلك العبادة وحده (**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**)– **وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)** ﴾ – وحقها أن تكون: وأنت الرحمن–) وفيها يقول الإمام أبو السعود: وإضافةُ الربِّ فيما سبق إلى ضميره (ﷺ)خاصة لما أن الدعاءَ من الوظائف الخاصةِ به (ﷺ)كما أن إضافته ههنا إلى ضمير الجمعِ المنتظمِ للمؤمنين أيضاً لما أن الاستعانةَ من الوظائف العامة لهم

ويقول الإمام الطاهر: وَضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ لِلنَّبِيءِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ مَرْبُوبِيَّةِ اللَّهِ فِي شَيْءٍ حَسَبَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ)

****

** ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) ﴾ .. نلاحظ تكرار (وقالوا) فى الأولى والثانية، أما فى الثالثة فلم يكررها بعينها ولكنه أبدلها بقوله (وقال الذين كفروا) وهو إظهار فى مقام الإضمار ليدلل على أن ما قالوه هو بسبب كفرهم.

****

خطاب .. غيبة

** ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾.

** ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ (مَا أَنْتُمْ) عَلَيْهِ وَيَوْمَ (يُرْجَعُونَ) إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾ النور.

وحقها أن تكون (ويوم ترجعون إليه فينبئكم..)، فهو التفات من الخطاب للغيبة، وَالْخِطَابُ وَالْغَيْبَةُ فِي قوله تعالى: قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَا جَمِيعًا لِلْمُنَافِقِينَ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ عَامًّا وَيَرْجِعُونَ لِلْمُنَافِقِينَ.. ويجوز أن يكون الخطاب السابق خاصا بالمنافقين أيضا فيتحقق التفاتان التفات من الغيبة إلى الخطاب في أَنْتُمْ والتفات من الخطاب إلى الغيبة في يُرْجَعُونَ والعطف على حاله.. وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار– وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ –لتأكيد استقلال الجملة والإشعار بعلة الحكم.

** ﴿ وَلَا تُخْزِنِي (أنت يا ربى – حاضر–) يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ (بصيغة الغائب –بدلاً من (إلا من أتاك)– لإبراز المهابة وإبراز صفات الجلال والجمال المتجمعة فى لفظ الجلالة الجامع لكل هذه الصفات)).

****

**** ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ (اللَّهُ) يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠).. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ (اللَّهِ) وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ (رَحْمَتِي) وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) ﴾** العنكبوت.

(وفى الآيات التفاتات عديدة فى إظهار – وتكرير- اسم الجلالة (الله) فى موطن الإضمار سنقف عليه.. وفيها العدول عن الفعل المستقبل (أولئك سييئسوا من رحمتى) إلى الفعل الماضى(أُولَئِكَ يَئِسُوا..)

ونبدأ النقاش والتوضيح مع الإمام الطاهر فى قوله: **ثُمَّ (اللَّهُ) يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ** فَهِيَ جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ. وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّهُ) بَعْدَ تَقَدُّمِ ضَمِيرِهِ فِي قَوْلِهِ: كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقُولَ: ثمَّ ينشىء. قَالَ فِي «الْكَشَّافِ» : لِأَنَّ الْكَلَامَ كَانَ وَاقِعًا فِي الْإِعَادَةِ فَلَمَّا قَرَّرَهُمْ فِي الْإِبْدَاءِ بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الْإِعَادَةَ إِنْشَاءٌ مِثْلَ الْإِبْدَاءِ، فَالَّذِي لَمْ يُعْجِزْهُ الْإِبْدَاءُ فَهُوَ الَّذِي وَجَبَ أَنْ لَا تُعْجِزَهُ الْإِعَادَةُ. فَكَأَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ ذَاكَ الَّذِي أَنْشَأَ النَّشْأَةَ الْأُولَى هُوَ الَّذِي ينشىء النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ،فَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَبْرَزَ اسْمَهُ وَأَوْقَعَهُ مُبْتَدَأً اه. يُرِيدُ أَنَّ الْعُدُولَ عَنِ الْإِضْمَارِ إِلَى الِاسْمِ الظَّاهِرِ (اللَّهُ) لِتَسْجِيلِ وُقُوعِ هَذَا الْإِنْشَاءِ الثَّانِي، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً – أى تصلح لأن نقولها بمفردها دون الحاجة لباقى السياق هكذا:(ثُمَّ (اللَّهُ) يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ)- حَتَّى تَكُونَ عُنْوَانَ اعْتِقَادٍ بِمَنْزِلَةِ الْمَثَلِ لِأَنَّ فِي اسْمِ الْجَلَالَةِ إِحْضَارًا لِجَمِيعِ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّكْوِينُ، وَلِيُفِيدَ وُقُوعُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مُخْبَرًا عَنْهُ بِمُسْنَدٍ فِعْلِيٍّ مَعْنَى التَّقَوِّي.

وَجُمْلَةُ إِنَّ (اللَّهَ) عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تَذْيِيلٌ، أَيْ قَدِيرٌ عَلَى الْبَعْثِ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذا أَرَادَهُ. وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللَّه) لِتَكُونَ جُمْلَةُ التَّذْيِيلِ مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا فَتَجْرِي مَجْرَى الْأَمْثَالِ)انتهى.

ولكن تبقى وقفة هامة فى هذا السياق الكريم:

**﴿ قُلْ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ. ﴾

والسؤال هو: لماذا لم يذكر لفظ الجلالة مع بداية الخلق ولم يقل(كيف بدأ الله الخلق) وذكره مع النشأة الآخرة، ومعلوم أن ذكره يفيد التوكيد

ويقول الإمام الألوسى: وإظهار الاسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره في (بدأ) لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم فإنه الاسم الجامع لصفات الكمال ونعوت الجلال

ويقول الإمام الرازى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ: فِي الْآيَةِ الْأُولَى ذَكَرَ بِلَفْظِ الْمُسْتَقْبَلِ فَقَالَ: (**أَوَلَمْ يَرَوْا**) **كَيْفَ يُبْدِئُ** وهاهنا قَالَ بِلَفْظِ الْمَاضِي: **فَانْظُرُوا** (**كَيْفَ بَدَأَ**) وَلَمْ يَقُلْ كَيْفَ يَبْدَأُ، فَنَقُولُ الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ هُوَ الدَّلِيلُ النَّفْسِيُّ الْمُوجِبُ لِلْعِلْمِ الْحَدْسِيِّ وَهُوَ فِي كُلِّ حَال يُوجِبُ الْعِلْمَ بِبَدْءِ الْخَلْقِ- أى العقل والنفس تؤكد على هذا الشعور-، فَقَالَ إِنْ كَانَ لَيْسَ لَكُمْ عِلْمٌ بِأَنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ حَال يَبْدَأُ خَلْقًا -((**أَوَلَمْ يَرَوْا**) **كَيْفَ يُبْدِئُ**)- فَانْظُرُوا إِلَى الْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ- (فَانْظُرُوا (كَيْفَ بَدَأَ) - لِيَحْصُلَ لَكُمْ عِلْمٌ بِأَنَّ اللَّهَ بَدَأَ خَلْقًا، وَيَحْصُلُ الْمَطْلُوبُ مِنْ هَذَا القدر فإنه ينشئ كَمَا بَدَأَ ذَلِكَ.

(**أُولَئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى**)- بدلاً من (سييئسوا) أي ييأسون منها يومَ القيامةِ وصيغةُ الماضِي للدِّلالة على تحقُّقِه، وَالْمَعْنَى: أُولَئِكَ سَيَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لَا مَحَالَةَ.

أو يئسوا منها في الدُّنيا لإنكارِهم البعثَ والجزاءَ **{وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**

وأضاف الإمام الألوسى: وجوز أن يكون المراد إظهار مباينة حالهم وحال المؤمنين، لأن حال المؤمن الرجاء والخشية وحال الكافر الاغترار واليأس، فالكافر لا يخطر بباله رجاءً ولا خوفاً إن أخطر المخوف بباله كان حاله اليأس بدل الخوف، وإن أخطر

المرجو كان حاله الاغترار بدل الرجاء، فكأنه تنصيص على كفرهم وتعريف لحالهم، وأن يكون الكلام على الاستعارة.

ويضيف الإمام الطاهر: وَالتَّعْبِيرُ بِالِاسْمِ الظَّاهِرِ فِي قَوْلِهِ (**بِآيَاتِ اللَّهِ**) دُونَ ضَمِيرِ التَّكَلُّمِ (بآياتى) لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْآيَاتِ حَيْثُ أُضِيفَتْ إِلَى الِاسْمِ الْجَلِيلِ(الله) لِمَا فِي الِاسْمِ الْجَلِيلِ مِنَ التَّذْكِيرِ بِأَنَّهُ حَقِيقٌ بِأَنْ لَا يَكْفُرَ بِآيَاتِهِ. وَالْعُدُولُ إِلَى التَّكَلُّمِ فِي قَوْلِهِ (رَحْمَتِي)- بدلاً من (رحمة الله)- الْتِفَاتٌ عَادَ بِهِ أُسْلُوبُ الْكَلَامِ إِلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، وَإِعَادَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِتَأْكِيدِ التَّنْبِيهِ عَلَى استحقاقهم ذَلِك.(وأرى فى (رحمتى) الشعور بالقرب والخصوصية.

ويقول صاحب الظلال: إن التعبير هنا بلفظ الماضي «كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ»- ولم يقل(كيف يبدأ الخلق)- بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق. يثير في النفس خاطراً معيناً.. ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى، وكيفية بدء الخليقة فيها.كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة كيف نشأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف ارتقت؟ - وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سر الحياة: ما هي؟، ومن أين جاءت إلى الأرض؟ وكيف وجد فيها أول كائن حيّ؟ - ويكون ذلك توجيها من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة..(ويكون ذلك مناسباً لقوله: أو لم يروا..)

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر. ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثا فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به- لو كان ذلك هو المقصود- فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمرا آخر داخلا في مقدورهم، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة. ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان- وهو أمام أعينهم-.((ويكون ذلك مناسباً للالتفات لقوله: أولم ينظروا..)

وأضيف القول: لذلك ورد بلفظ الماضى-كيف بدأ الخلق- ليناسب جميع التصورات العلمية وأحوال المخاطبين الحديثة والقديمة)

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ الروم.

أسند الرحمة لذاته سبحانه فقال (**وَإِذَا أَذَقْنَا** –نحن– **الناس رَحْمَةً**) أما فى حالة السيئة قال (**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**) ولم يقل(إن نصبهم–نحن– بسيئة) لأنه لا يريد نسبة المصيبة إلى الله، فجاء بهذا الالتفات تأدباً معه سبحانه بأن لا ينسب الشر إليه، كما ورد فى حديث النبى(ﷺ) لربه سبحانه وتعالى(الخير كله بيديك والشر ليس إليك) فهذا رغم أن الكل بيده– سبحانه– وبمشيئته، وشبيه بهذا قوله– تعالى–: وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ، أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً. وقد عشنا ذلك بالتفصيل مع دعاء إبراهيم عليه السلام فى سورة الشعراء(**رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)**)

والتعبير بإذا الفجائية في قوله إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ، للإشارة إلى سرعة يأسهم من رحمة الله– تعالى– حتى ولو كانت المصيبة هينة يسيرة، وذلك لضعف يقينهم وإيمانهم. إذ القنوط من رحمة الله، يتنافى مع الإيمان الحق.

ولاننسى أيضاً الالتفات فى اختيار الصيغ ففى الرحمة قال (إذا أذقنا الناس) وفى المصيبة قال (وإن تصبهم) وهى لا تحتاج إلى تعليق بل تحتاج إلى تذوق.

ويضيف الألوسى: وتنكير ضُرٌّ ورَحْمَةً للتعليل إشارة إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبة ويطغون لأدنى نعمة،..

والتعبير بإذا أولا لتحقق الرحمة وكثرتها دون المقابل، وفي نسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة تعليم للعباد أن لا يضاف إليه سبحانه الشر وهو كثير كقوله تعالى: أَنْعَمْتَ والْمَغْضُوبِ فِي (الفاتحة: ٧) ، وعدم بيان سبب إذاقة الرحمة وبيان

سبب إصابة السيئة إشارة إلى أن الأول تفضل والثاني عدل، والتعبير بالمضارع في إذا هُمْ (يَقْنَطُونَ) لرعاية الفاصلة والدلالة على الاستمرار في القنوط)

وأقول-أنا المؤلف- لكنه يأتى ب(إذا) مرة أخرى فى مس الضر ولم يأت ب(إن) فى قوله تعالى «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه» وذلك لأنه يتحدث عن طبيعة غالبة ومتغلبة وثابتة عند العبد وهى الدعاء اللسانى لله عند أقل ضر ، وذلك بخلاف استخدامه (إن تصبهم سيئة) بأداة الشك (إن) لأنه يتحدث عن (ندرة) وقوع السيئة لهم ورغم ذلك يقنطون وذلك فى قوله سبحانه: «وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم **إذا هم يقنطون**» وكما يقول الإمام الألوسى فى مكان آخر: فلا يحتاج إلى تكلف التوفيق بأن الدعاء اللساني جار على العادة فلا ينافي القنوط القلبي، ولذا سمع بعض الخائضين في دم عثمان رضي الله تعالى عنه يدعو في طوافه ويقول: اللهم اغفر لي ولا أظنك تفعل،فهنا دعاء لسانى وصاحبه قنوط قلبى.

ويضيف الإمام الطاهر قوله: وَالْمَسُّ: مُسْتَعَارٌ لِلْإِصَابَةِ. وَحَقِيقَةُ الْمَسِّ: أَنَّهُ وَضْعُ الْيَدِ عَلَى شَيْءٍ لِيَعْرِفَ وُجُودَهُ أَوْ يَخْتَبِرَ حَالَهُ، واختبر هُنَا لِمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنْ خِفَّةِ الْإِصَابَةِ، أَيْ يَدْعُونَ اللَّهَ إِذَا أَصَابَهُمْ خَفِيفُ ضُرٍّ بَلْهَ الضُّرُّ الشَّدِيدِ.

وَالْإِذَاقَةُ: مُسْتَعَارَةٌ لِلْإِصَابَةِ أَيْضًا. وَحَقِيقَتُهَا: إِصَابَةُ الْمَطْعُومِ بِطَرَفِ اللِّسَانِ وَهِيَ أَضْعَفُ إِصَابَاتِ الْأَعْضَاءِ لِلْأَجْسَامِ فَهِيَ أَقَلُّ مِنَ الْمَضْغِ وَالْبَلْعِ، وَتَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى **لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ** فِي سُورَةِ الْعُقُودِ [٩٥] ، **وإذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ** فِي سُورَةِ يُونُس [٢١] . واختبر فِعْلُ الْإِذَاقَةِ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ إِسْرَاعِهِمْ إِلَى الْإِشْرَاكِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ إِصَابَةِ الرَّحْمَةِ لَهُمْ.

ومثلها آية الشورى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ

(٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) ﴾ ((الشورى)).

****

**** ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)** ﴾ فتجد هذه الالتفاتات **(وَأَسَلْنَا- نحن- بِإِذْنِ رَبِّهِ – أَمْرِنَا- نُذِقْهُ- عِبَادِيَ)** التى تعطى الأسلوب القرآنى رشاقة وجمال لم نعهده بهذا الإحكام فى كلام البشر.

وَجُمْلَةُ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ قُلْنَا: اعْمَلُوا يَا آلَ دَاوُدَ، وَمَفْعُولُ اعْمَلُوا مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: شُكْراً. وَتَقْدِيرُهُ: اعْمَلُوا صَالِحًا، كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا، عَمَلًا لَشُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَانْتَصَبَ شُكْراً عَلَى الْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ. وَالْخِطَابُ لِسُلَيْمَانَ وَآلِهِ.

وَذُيِّلَ بِقَوْلِهِ: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ فَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْمَقُولِ، وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّذْيِيلُ كَلَامًا جَدِيدًا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، أَيْ قُلْنَا ذَلِكَ لِآلِ دَاوُدَ فَعَمِلَ مِنْهُمْ قَلِيلٌ وَلَمْ يَعْمَلْ كَثِيرٌ وَكَانَ سُلَيْمَانُ مِنْ أَوَّلِ الْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ.

ولاحظ ورود الأسلوب **بدون فعل القول** الذى يكسب السياق حيوية وجمال.

****

**** ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)** ﴾.

وفيها يقول الإمام الألوسى: وهذا حكاية عما يقال للكافرين حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم، وكأنه يريد أن يقول أن السياق يكون هكذا:(**إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ((ويقال لهم)) وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)**) ولك أن تعيد قراء

النص البديل عن الآية الكريمة بإضافة فعل القول ثم تتذوق ما قرأت لترى ماجنيته على النظم القرآنى

** ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي**-أنا- **بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ** (٨) **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ** – هو- **الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ** (٩) ﴾ ص.

وهذا الالتفات لاستظهار وإبراز صفة الربوبية التى كان يجب أن يشكروها، وكما يقول الإمام الطاهر: وَالْعُدُولُ عَنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ إِلَى وَصْفِ- رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ – لِأَنَّ لَهُ مَزِيدَ مُنَاسَبَةٍ لِلْغَرَضِ الَّذِي الْكَلَامُ فِيهِ، إِيمَاءً إِلَى أَنَّ تَشْرِيفَهُ إِيَّاهُ بِالنُّبُوءَةِ مِنْ آثَارِ صِفَةِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُ لِأَنَّ وَصْفَ الرَّبِّ مُؤْذِنٌ بِالْعِنَايَةِ وَالْإِبْلَاغِ إِلَى الْكَمَالِ. وَأُجْرِيَ عَلَى الرَّبِّ صِفَةُ الْعَزِيزِ لِإِبْطَالِ تَدَخُّلِهِمْ فِي تَصَرُّفَاتِهِ، وَصِفَةُ الْوَهَّابِ لِإِبْطَالِ جَعْلِهِمُ الْحِرْمَانَ مِنَ الْخَيْرِ تَابِعًا لِرَغَبَاتِهِمْ دُونَ مَوَادَّةِ اللَّهِ تَعَالَى. والْعَزِيزُ: الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، والْوَهَّابُ: الْكَثِيرُ الْمَوَاهِبِ فَإِنَّ النُّبُوءَةَ رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ فَلَا يُخَوَّلُ إِعْطَاؤُهَا إِلَّا لِشَدِيدِ الْعِزَّةِ وافر الموهبة.

****

** ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ** (٢)... **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ** (١٧)- إظهار بعد إضمار- **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** (١٨) ﴾.

وهذه الالتفاتات (**إِنَّا أَنْزَلْنَا.. فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ**- بدلاً من (فاعبدنا)).. **وبعدها(هَدَاهُمُ اللَّهُ)** .. فهو الذي يجبُ أنْ يُخصَّ بإخلاصِ الطَّاعةِ له لأنَّه المُتفرِّدُ بصفاتِ الأُلوهيَّةِ التي من جملها الاطِّلاعُ على السَّرائرِ والضَّمائر، وقولُه تعالى (والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء) تحقيقٌ لحقِّيةِ ما ذُكر من إخلاص الدِّينِ الذي هو عبارةٌ عن التَّوحيدِ، (ولذلك كان الالتفات إلى الإفراد فى طلب العبادة والإخلاص (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ) وهكذا نجد السياق يدور بين التعظيم(أنزلنا) والتوحيد(الله).

****

** **﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾**.. فلا أقسم (أنا).. ثم (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) ولم يقل: عندى.

وكما يقول الطاهر: وَعدل عَن اسْمِ الْجَلَالَةِ إِلَى ذِي الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جِبْرِيلَ لِتَمْثِيلِ حَالِ جِبْرِيلَ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ بِحَالَةِ الْأَمِيرِ الْمَاضِي فِي تَنْفِيذِ أَمْرِ الْمَلِكِ وَهُوَ بِمَحَلِّ الْكَرَامَةِ لَدَيْهِ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّبِيءِ (ﷺ) فَلِلْإِشَارَةِ إِلَى عَظِيمِ شَأْنِهِ إِذْ كَانَ ذَا قُوَّةٍ عِنْدَ أَعْظَمِ مَوْجُودٍ شَأْنًا.

** **﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (وَإِلَى اللَّهِ) تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) ﴾ الحديد.** اظهار بعد إضمار حيث كان حقها(وإليه ترجع الأمور).

وأمثالها قوله تعالى:

** **﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) ﴾**الملك

والالتفات من الغيبة (ألم يروا) إلى الحضور والمواجهة (ينصركم) للانتقال من توبيخِهم على تركِ التأملِ فيما يشاهدونَهُ من أحوالِ الطيرِ المنبئةِ عن تعاجيبِ آثارِ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى التبكيتِ بما ذُكِرَ والالتفاتُ للتشديدِ في ذلكَ.. والالتفاتُ إلى الغَيبة– **إِنِ الْكافِرُونَ**..– للإيذانِ باقتضاءِ حالِهِم للإعراضِ عنهُم وبيانِ قبائِحِهِم لغيرِهِم والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لذمِّهم بالكُفرِ وتعليلِ غرورِهم بهِ.

** **﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ (لَكُمْ) يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ (الْكَافِرُونَ) إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) ﴾** الملك

وهو التفات فى غاية الحسن والروعة يشير إليه الإمام أبو السعود – وتبعه الألوسى– بقوله: تبكيتٌ لهم بنفي أنْ يكونَ لهم ناصرٌ غيرُ الله تعالَى كما يلوحُ به التعرضُ لعنوانِ الرحمانيةِ – **يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ**– ويعضُدُهُ قولُه تعالَى مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن (فى الآية قبلها) أو ناصرٌ من عذابِهِ تعالَى كما هو الأنسبُ بما سيأتي من قولِه تعالَى إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ (فى الآية بعدها) كقولِهِ تعالَى أَمْ لَهُمْ الِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مّن دُونِنَا في المعنيينِ معاً ((وهذا من روعة النظم القرآنى الذى جعل الآية كحبة العقد بين خليلاتها فى تناسق وتناغم وانسجام) .. والالتفاتُ للتشديدِ في ذلكَ..ويرى الإمام البقاعى الالتفات فى أول الآية فيقول: صرف القول عن الغيبة إلى الخطاب لأنه أبلغ في التقريع فقال: {لكم ينصركم} أي على من يقصدكم بالخسف والحصب وغيرهما،لأن الآية قبلها كان الخطاب عنهم بصيغة الغيبة((أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ) وهكذا يأخذنا النظم القرآنى فى تنقل عجيب وسريع وممتع لم نعهد له مثيل من قول البشر.

وقولُه تعالَى **{إِنِ الكافرون إِلاَّ فِى غُرُور}** اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ ناعٍ عليهم ما هُم فيهِ من غايةِ الضلال .. والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهُم وبيانِ قبائِحِهِم لغيرِهِم، والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ – إن الكافرون بدلاً من "إنكم"–لِذمِّهم بالكُفرِ وتعليلِ غرورِهِم بهِ– أى لأنهم كافرون– .ويضيف الإمام الطاهر فائدة أخرى: وذيل هَذَا بالاعتراض بِقَوْلِهِ: إِن الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ، أَيْ ذَلِكَ شَأْنُ الْكَافِرِينَ كُلِّهِمْ وَهُمْ أَهْلُ الشِّرْكِ مِنَ الْمُخَاطَبِينَ وَغَيْرِهِمْ،(ولا يفيد ذلك المعنى الأوسع لو قلنا: إنكم فى غرور)

ويضيف الإمام الطاهر جمالاً آخر بقوله: **وَجِيءَ بِالْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ -الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ - لِدَلَالَتِهَا عَلَى الدَّوَامِ وَالثُّبُوتِ، لِأَن الْجند يكون عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلنَّصْرِ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ سَوَاءٌ قَاتَلَ أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ لِأَنَّ النَّصْرَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعْدَادٍ وَتَهَيُّؤٍ** كَمَا قَالَ النَّبِيءُ (ﷺ): «خَيْرُ النَّاسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا» أَيْ هَيْعَةُ جِهَادٍ..فَالْمَعْنَى: يَنْصُرُكُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِكُمْ إِلَى نَصْرِهِ، فَهَذَا وَجْهُ

الْجَمْعِ بَيْنَ جُمْلَةِ هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ(التى تشير إلى استعدادهم الدائم) وَجُمْلَةِ يَنْصُرُكُمْ (التى تفيد تلبيتهم للنصرة كلما استدعى الأمر) وَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالثَّانِيَةِ عَنِ الْأُولَى.

ومثل هذا الجمال يقال في قوله تعالى:

﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١)** ﴾ الملك

ويضيف الإمام الطاهر ملحظاً آخر يقول فيه: وَضَمِيرُ أَمْسَكَ وَضَمِيرُ رِزْقَهُ عَائِدَانِ إِلَى لفظ الرَّحْمنِ الْوَاقِعِ فِي قَوْلِهِ: مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ [الْملك: ٢٠] .**وَجِيءَ بِالصِّلَةِ فِعْلًا مُضَارِعًا لِدَلَالَتِهِ عَلَى التَّجَدُّدِ لِأَنَّ الرِّزْقَ يَقْتَضِي التِّكْرَارَ إِذْ** حَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَيْهِ مُسْتَمِرَّةٌ.

وعن الالتفات لصيغة الغيبة فى قوله (**بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ**) يضيف الإمام ملحظاً جميلاً يقدر فيه أن هناك سائلاً يسأل عن هؤلاء بعد وضوح الآيات فَيَتَّجِهُ لِلسَّائِلِ أَنْ يَقُولَ: لَعَلَّهُمْ نَفَعَتْ عِنْدَهُمُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ، وَاعْتَبَرُوا بِالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَأُجِيبَ بِإِبْطَالِ ظَنِّهِ بِأَنَّهُمْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ.

****

****** ﴿ (**ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ** آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا **فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)** ﴾ وكان حقها (فاليوم لا تخرجون) ويقول الإمام أبو السعود:- فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا أيْ من النَّارِ ، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذانِ بإسقاطِهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم أو بنقلِهم من مقامِ الخطابِ إلى غيابةِ النارِ.

****

****** ﴿ **مَا أُرِيدُ** -أنا الله- **مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)** ﴾.

ولاحظ الفارق الذى تجده – حتى فى امتلاء الصوت –و التفخيم فى حال النطق بلفظ الجلالة (الله) واسنشعار معانى العزة والقوة والكرم والرحمة وغيرها فى صفات الرزاق سبحانه.

يقول الإمام الطاهر: وَإِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ إِخْرَاجٌ لِلْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ لِأَنَّ مُقْتَضَاهُ: إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ، **فَعَدَلَ عَنِ الْإِضْمَارِ إِلَى الِاسْمِ الظَّاهِرِ لِتَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً بِالدِّلَالَةِ لِأَنَّهَا سُيِّرَتْ مَسِيرَ الْكَلَامِ الْجَامِعِ وَالْأَمْثَالِ هكذا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ.**

****

** ﴿ أَمْ ((لَهُمْ)) سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ — هم- بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ ((وَلَكُمُ)) — أنتم- الْبَنُونَ (٣٩) التفت لمواجهتهم لتوبيخهم مواجهة لهم بسؤال تقريرى وتوبيخى.ثم يعود لحكاية حالهم لنا للتعجب والاستنكار بنفس الأسلوب الرشيق والحى هكذا: (أَمْ يُرِيدُونَ-هم- كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) ﴾ وهو اظهار أيضاً (فَالَّذِينَ كَفَرُوا) فى موطن الإضمار (فهم المكيدون).

****

** ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا- ماضى- أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ – مضارع يفيد استمرار وتجديد اتباعهم للظن وأنهم مستمرون فيه ومجددون له، إضافة إلى الحديث عنه بصيغة الغيبة تغييباً لهم واحتقاراً لهم، فهو التفاتٌ إلى الغيبة للإذيان بأنَّ تعدادَ قبائحِهم اقتضَى الإعراضِ عنهم وحكايةِ جناياتِهم لغيرِهم – إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ (جَاءَهُمْ) مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) ﴾

****

** ﴿ (ثُمَّ (إِنَّكُمْ) -أنتم- أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) (لَآكِلُونَ) -أنتم- مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ-أنتم- (مِنْهَا) الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ-أنتم -(عَلَيْهِ) مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ-أنتم- شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا (نُزُلُهُمْ) — هم- يَوْمَ الدِّينِ(٥٦)) ﴾ فبعد أن عنفهم- بصيغة المواجهة-أنتم- تحدث عنهم بصيغة الغيبة - هم- إهمالاً وتغييباً لهم وتشنيعاً عليهم وحكاية حالهم لنا.

ولماذا قال ((لَآكِلُونَ) مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ (**مِنْهَا**) **الْبُطُونَ** (٥٣) **فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ**) مِنَ الْحَمِيمِ)- **وكان يجب أن تقال (فَشَارِبُونَ عَلَيْهَا))- أي: على ثمر شجر الزقوم.. (نقول) إنه أراد أن يقول (فشاربون على عصير هذا الثمر الذي تجرعوه وهضمته أمعاؤهم.. وهذا العصير إذن يكون مذكراً ويقال (فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ)**

****

** ﴿ (بَلَى إِنَّ ((**رَبَّهُ**)) كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا ((**أُقْسِمُ**)) بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) **لَتَرْكَبُنَّ** طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) **فَمَا لَهُمْ** لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا **قُرِئَ عَلَيْهِمُ** الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ **الَّذِينَ كَفَرُوا** يُكَذِّبُونَ (٢٢) ((**وَاللَّهُ**)) أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) ﴾. هكذا الالتفاتات ((رَبَّهُ) (لتركبن)(بل الذين كفروا)و(أُقْسِمُ- أنا-)(وَاللَّهُ)).

****

** ﴿ (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) ﴾ وهنا الخطاب للنبى(ﷺ) وللمؤمنين معه فلذلك لم يؤكد على سرعة العقاب وقال: (سَرِيعُ الْعِقَابِ) ولكنه أكد على المغفرة بلام القسم والتوكيد (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) وذلك فى السياق التالى:

** ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) ﴾

ولكنه فى سياق مخاطبة بنى إسرائيل فى حال عبادتهم العجل أكد أيضاً على سرعة العقاب والذى أشار إلى تعجيله أيضاً واستمراره ليوم القيامة فقال: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)** ﴾ الأعراف.

** ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ((إِنَّا كُنَّا)) مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)** ﴾

ثم إنه لو تتبعنا السياق لوجدناه يتنقل من لفظ الألوهية إلى لفظ الربوبية- الخاصة بمحمد (ﷺ)- ربك-، فهو يقول آمن (بالله) فالألوهية تناسب التوحيد والعبودية إضافة إلى تربية المهابة واستحضار جميع صفات الذات العليا والأسماء الحسنى والصفات العلى وهو ما سنجده فى نهاية الآية (**أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**)

والنصر كثيراً ما يقترن بصفة الألوهية(نصر الله قريب)(والله ينصر.. وهو القوى العزيز) وغيرها ولكنه هنا فى سورة الدعوة والدعاة والبشريات بعاقبة الصبر الطويل فحسن أن يتحنن على حبيبه محمد (ﷺ) ويلتفت إليه مخاطباً(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ) فى سورة الدعوة والدعاة والصبر الجميل كما ذكرنا.

ويقول الإمام الطاهر:﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾

وَجِيءَ فِي جَانِبِ هَاذَيْنِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الْمُسْتَقْبَلِ إِذْ نُونُ التَّوْكِيدِ لَا يُؤَكَّدُ بِهَا الْخَبَرُ الْمُثْبَتُ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ .. وَهُوَ مُقَابَلَةُ كُلِّ فَرِيقٍ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِ مَا عُلِمَ مِنْ حَالِهِ **وَالْمُجَازَاةُ أَمْرُ مُسْتَقْبَلٍ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْمُرَادَ عِلْمٌ بِمُسْتَقْبَلٍ** وَهُوَ اخْتِلَافُ أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ يَجِيءُ النَّصْرُ، فَلَعَلَّ مَنْ كَانُوا مُنَافِقِينَ وَقْتَ نُزُولِ الْآيَةِ يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ يَوْمَ النَّصْرِ وَيَبْقَى قَوْمٌ عَلَى نِفَاقِهِمْ.

وَالْمُخَالَفَةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْأَوَّلِينَ بِطَرِيقِ الْمَوْصُولِ وَالصِّلَةِ الْمَاضَوِيَّةِ -**وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**- وَعَنِ الْآخَرِينَ بِطَرِيقِ اللَّامِ وَاسْمِ

الْفَاعِلِ- **وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ**- لِمَا يُؤْذِنُ بِهِ الْمَوْصُولُ -**الَّذِينَ**- مِن اشْتِهَارِهِمْ بِالْإِيمَانِ، وَمَا يُؤْذِنُ بِهِ الْفِعْلُ الْمَاضِي- **آمَنُوا** - مِنْ تَمَكُّنِ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ وَسَابِقِيَّتِهِ، وَمَا يُؤْذِنُ بِهِ التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ -**الْمُنَافِقِينَ** - مِنْ كَوْنِهِمْ عَهِدُوا بِالنِّفَاقِ(فهو إسم والاسم يفيد الثبات والدوام) وَطَرَيَانِهِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، فَفِيهِ تَعْرِيفٌ بِسُوءِ عَاقِبَتِهِمْ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّفَنُّنِ ورعاية الفاصلة.

**** ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾ فاطر**

فلا داعى لأن نكرر أن الالتفات لصفة الربوبية مناسب للصفات المقترنة بها(**إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ** شَكُورٌ).

(**وَقَالُواْ**) أي (يقولون)- فى المستقبل يوم القيامة- وصيغةَ الماضِي للدلالةِ على التحقق، وهى معطوفة على قوله(**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا (يُحَلَّوْنَ) فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)**).. فهى هنا بصيغة المضارع (**يُحَلَّوْنَ**) لاستحضار مشهد تحليتهم المذكور أمام الأعين، ثم أكَّد على زوال الحزن بالصيغة التى تفيد هذا الدوام والتأكيد وهى صيغة الماضى.

{**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**} وتغيير الاسلوب حيث يجب أن تكون (يُحلون)..و(يلبسون) فيها حرير- ولكنه التفت إلى الجملة الإسمية (ولباسهم فيها حرير) بدلاً من (يلبسون فيها حرير) وقد قال فيها الإمام الألوسى:{**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**} غيِّر الأسلوبُ حيثُ لم يقُلْ ويلبسون فيها حريراً لكن لا للدِّلالةِ على أنَّ الحريرَ ثيابُهم المعتادة أو لمجرَّدِ المحافظةِ على هيئةِ الفواصلِ بل للإيذانِ **بأن ثبوت اللباسِ لهم أمرٌ محققٌ غنيٌّ عن البيان**- وهو ما يفيده الإتيان بالجملة الإسمية- إذ لا يمكن عراؤهم عنْهُ، وإنَّما المحتاجُ إلى البيانِ أنَّ لباسَهم ماذا بخلافِ الأساورِ واللؤلؤ فإنَّها ليستْ من اللَّوازمِ الضَّروريَّةِ **فجعلَ بيانَ تحليتهم بها مقصوداً بالذَّاتِ** ولعلَّ هذا هو الباعثُ **إلى تقديمِ بيانِ التَّحليةِ** (لباس) **على بيانِ حالِ اللِّباس** (هم){**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**} قاله العلامة شيخ الإسلام.

****

﴿ لَا (أَعْبُدُ) مَا (تَعْبُدُونَ) (٢) وَلَا (أَنْتُمْ عَابِدُونَ) مَا (أَعْبُدُ) (٣) ﴾

*فى سورة الكافرون، **ما دلالة الزمن(الفعل) و(الإسم) في الآيات؟ قال تعالى** في سورة الكافرون (**لَا (أَعْبُدُ) مَا (تَعْبُدُونَ) (٢) وَلَا (أَنْتُمْ عَابِدُونَ) مَا (أَعْبُدُ) (٣)**)

استخدم الفعل: (لا أعبد) (فعل) للرسول ثم (ولا أنا عابد) (إسم).. وللكافرين جملة إسمية فقط (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وما دلالة تكرار (ولا أنتم عابدون ما أعبد)؟

وقد قام الإمام ابن القيم بالشرح المستفيض لذلك على صفحات مطوله فى التفسير القيم ، ولكننى سأنقل هنا تلخيص سريع يتناسب مع طبيعة هذا البحث للدكتور فاضل السامرائى حيث يقول:

نقرأ السورة (**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)**) الملاحظ أنه بالنسبة أنه نفى عبادة ما يعبدون عن نفسه بالحالتين الإسمية والفعلية فقال (**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**) أعبد فعل مضارع و (**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ**) عابد إسم، وبالنسبة لهم نفى عنهم عبادة ما يعبد بالإسمية وحدها فكرر (**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**) مرتين. ونلاحظ أيضاً أنه نفى بالفعل الماضي والمضارع (**لا أعبد ما تعبدون**) (مضارع)، (**ولا أنا عابد ما عبدتم**) (ماضي)) إذن نفى عبادة ما يعبدون عن نفسه بالإسمية والفعلية والماضي والمضارع الذي هو الحال والاستقبال، ونفى عنهم بالإسمية فقط (**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**). الآن اتضحت لها صورتان ما نفاه عن نفسه الإسمية والفعلية والماضي والحال والاستقبال، ما نفاه عنهم الإسمية ونحن نعرف أن الإسمية تفيد الثبوت والفعل يفيد الحدوث والتجدد إذن هو نفى عن نفسه عبادة ما يعبدون بالحالة الثابتة والمتجددة، في الماضي (عبدتم) والحال والاستقبال (تعبدون)، ونفى عنهم عبادة ما يعبد بالجملة الإسمية أي في حالة الثبات (عابدون)، هو نفي عن نفسه الإسمية الثابت والفعلية المتجدد والماضي والحال والاستقبال نفى عن نفسه كل شيء ممكن وهم الحالة الثابتة معناها أن إصراره على

عبادته ودينه أقوى من إصرارهم لأنه نفاها في كل الحالات الثابتة والمتجددة والماضي والحال المستقبل وكل الحالات فهو أقوى. (**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**) قد يقال عابدون هي أيضاً دائمة والإسم صحيح أنه يفيد الثبات والدوام وكررت لكن ليس بالضرورة أن الإسم يدل على الحال الدائمة مطلقاً، يعني لما تقول هو جواد هذا إسم يعني كريم لكن هل هو هكذا في كل الأوقات وفي كل الساعات؟ ألا ينام في الليل؟ هذا على التغليب، في غالب الأمر الحالة الثابتة. أو هو حليم أي لا يغضب؟! رحيم أي لا يعاقب؟! إذن قد تنفك عنه الحالة.

لكن بالنسبة للرسول (ﷺ) هو الحالة الثابتة والمتجددة لن تنفك وإذا انفكت فأيضاً إلى عدم العبادة الفعل والإسم. يعني الحالة الثابتة عدم عبادة ما يعبدون والمتجددة أيضاً عدم عبادة ما يعبدون. إذا انفكت حالتهم وقد تنفك لا يعبد ما يعبدون. أيضاً هذه مناسبة لمّا قال (**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**) الكافرون جاءها بالصفة الإسمية فنفى الوصف أيضاً بالصفة الإسمية (**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**) لم يقل الذين كفروا فلما جاء الوصف بالإسمية جاء وصف العبادة بالإسمية إذن كل تعبير له غرض.

وجاءت الجملة الإسمية لأنه جاء إسمهم (قل يا أيها الكافرون) فجاء النفي بالجملة الإسمية لأنه جاء تعريفهم بالإسم (الكافرون).

****

العدول فى أسماء الإشارة والأسماء الموصولة

وهو باب لطيف من أبواب الالتفات نوضحه ببعض الأمثلة التالية :

﴿ **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ** ((**مَا هَذَا**)) **بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** (**٣١**) **قَالَتْ** ((**فَذَلِكُنَّ**)) **الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**.. ﴾

فإسم الإشارة فى الحالين عن يوسف عليه السلام ولكن جملة النساء أشاروا عليه باسم الإشارة للقريب(هذا)، أما امرأة العزيز فوصفته باسم الإشارة للبعيد((فَذَلِكُنَّ))، وقيل إن ذلك راجع إلى أنهن نظروا إلى الظاهر القريب، أما هى فنظرت إلى أبعد من ذلك الظاهر من حسن الخلق وعمق العاطفة التى كانت تكنها له..إضافة إلى مايشير إليه جرس الكلمة ((**فَذَلِكُنَّ**)) من التفصيل والعمق واللطافة الصوتية فى كل حروفها(الفاء والذال واللام والكاف) انتهاءً بالوقوف على التنغيم فى حرف النون المشددة التى تعطى كل هذه المعانى المذكورة إضافة إلى التصوير الدقيق لإحساس ومشاعر المرأة العاشقة له.

وقيل أن ذلك إشارة لبعد المكانة له ولبعد الشبهة أو النقص عنه، وهذا القول عشنا له أمثلة كثيرة منها:

** وصف القرآن الكريم باسم الإشارة للبعيد (ذَلِكَ) إشارة لما قلناه من بعد المكانة عن الشبهات ورفعتها فى قوله: (ذَلِكَ) الْكِتَابُ (لَا رَيْبَ فِيهِ) هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)..

أما إن أراد وصفه بالهداية التى تقود وترشد فإنه يصفه باسم الإشارة للقريب (هذا) فيقول (**إِنَّ** (**هَذَا**) **الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** (**٩**)) وغيره من الأمثلة الكثيرة(**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي** (**هَذَا**) **الْقُرْآنِ** (**لِيَذَّكَّرُوا**) **وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** (**٤١**)) **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ** – أى القريب الواضح الظاهر إعجازه للعيان– **لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** (٨٨)– أى بمثله فى حسن البيان وبراعة الإعجاز ولذلك لا يليق الإشارة عليه باسم الإشارة للبعيد–.ومثله(**إِنَّ**

هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦))- وبعد التدقيق فى إعجاز القرآن عن قرب يقول له (**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ** (**تَصْدِيقَ**) **الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** (**وَتَفْصِيلَ**) **الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (٣٧)

** ونعيش مثالاً آخر نذكِّر به فقط لأننا سنعيشه بالتفصيل ، وذلك فى الالتفات الماثل فى وصف هؤلاء الأنقياء بالمكانة العالية (..**وَمَا آتَيْتُمْ**- أنتم- **مِنْ** ((**زَكَاةٍ**)) **تُرِيدُونَ** - أنتم- **وَجْهَ اللَّهِ** ((**فَأُولَئِكَ**))**هُمُ الْمُضْعِفُونَ** (٣٩) وقوله تعالى **فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون. فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون) وكلام الإمام يشير إلى أنه وضعهم فى مكانة عاية ليشهد عليهم خواص خلقه

****

** والمثال الآخر فى تغيير الاسم الموصول (الذى) إلى (ما) :

﴿ **وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ ((**الَّذِي**)) **تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ** ((**مَا**)) **يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا** (٨١) ﴾. وكان حقها فى غير القرآن(وَاللَّهُ يَكْتُبُ ((الذى)) يُبَيِّتُونَ).

فإن (ما) أكثر إبهاماً من (من) أو (الذى)، فالذى يقوله محمد (ﷺ) أعرف من (ما)، لأن ما يقوله محمد (ﷺ) معلوم وظاهر، بخلاف ما يبيتونه فإنه مجهول عنده.

** ومثله العدول فى قوله تعالى ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ** (**مَا**) **وَصَّى بِهِ نُوحًا** (**وَالَّذِي**) **أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** (**وَمَا**) **وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ** (١٣) ﴾ فجاء بالأشد تعريفاً(الذى) مع القرآن الكريم الذى أوحاه إلى محمد(ﷺ).

****

* ما الفرق بين ذلك وذلكم في الاستعمال القرآني ؟

يقول الدكتور فاضل السامرائى: في أكثر من مناسبة ذكرنا شيئاً من هذا. طبعاً الكاف في (ذلك) حرف خطاب وقلنا حرف الخطاب في ذلك وتلك وأولئك هذا قد يطابق المخاطب ذلك، ذلكما، ذلكنّ حسب المخاطبين المشار إليه. ذلكَ المشار إليه واحد والمخاطَب واحد مفرد مذكر وذلكِ المشار إليه واحد والمخاطبة امرأة وذلكما المشار إليه واحد والمخاطب اثنين ، وذلكم المشار إليه واحد والمخاطب جماعة ذكور، وذلكنّ المشار إليه واحد والمخاطب جماعة إناث (**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ (٣٢) يوسف**) لا يدل على جمع المشار إليه وإنما أولئك، ذانك.

و(أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن **تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ** (٢٢) الأعراف) هي شجرة واحدة والمخاطب اثنان والكاف هو حرف خطاب ليس ضمير خطاب. حرف الخطاب في اسم الإشارة فيه لغتان لغة أنه تجعل مطابقاً للمخاطب إذا مفرد أو مفردة أو مثنى أو جمع ذكور أو إناث ولك أن تجعله بلفظ واحد وهو الإفراد والتذكير أياً كان المخاطَب مثل ذلك إذا كانوا أربعة أو خمسة، تلك شجرة ذلكم كتاب، لك أن تقول ذلكم كتاب هذا ممكن وذلك كتاب هذا من حيث اللغة. إذن فيها لغتان إما أن نجعل حرف الخطاب بصيغة التذكير أياً كان المخطابين مفرد مذكر مؤنث جمع أو يطابق، فيها لغتين لكن يبقى كيف استعملها القرآن؟ مرة يستعملها مفرد ومرة يستعملها جمع.

في اللغة لا يسأل عنها لأنه كله جائز من حيث الحكم النحوي لكن نسأل من الناحية البيانية أحياناً يطابق وأحياناً يُفرِد، لماذا؟ هذا سؤال آخر. هناك فرق بين الحكم النحوي اللغوي والاستخدام البياني **لماذا استخدم هذا بيانياً؟ هنالك أسباب عدّة لهذا الأمر من جملتها أن يكون في مقام التوسع والإطالة في التعبير والمقام مقام توسع وتفصيل وإطالة فيأتي بالحرف مناسباً لأن (ذلكم) أكثر من (ذلك) من حيث الحروف إذا كان المقام كله مقام إطالة يأتي بكل ما يفيد الإطالة لغة وإذا كان في مقام الإيجاز يأتي بكل ما في الإيجاز لغة**، مثال ﴿ **وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا**

وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَاب وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ الأنعام) فيها تفصيل فقال (**إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)، (**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) النحل**) لأن المقام مقام إيجاز. صار توسع في المعنى لما عدّد أشياء كثيرة إذن صار إطالة وتوسّع فجمع (ذلكم) حتى تتلاءم مع ما قبلها. وقد يكون في مقام التوكيد وما هو أقل توكيداً: في مقام التوكيد يأتي بما هو أكثر توكيداً فيجمع، وإذا كان أقل توكيداً يُفرِد، وإذا كان عندنا مجموعتان إحداهما أوسع من الأخرى يستعمل للأوسع ضمير الجمع وللأقل ضمير الإفراد.

****

□

العدول فى حروف الجر والعطف

أما العدول فى حروف الجر والعطف فهذا باب طويل وفى غاية الإمتاع يصعب تناوله هنا لضيق المقام (١٩) وإن كنت أشير فقط على بعض الأمثلة السريعة ومنها:

﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧)**.... **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)** ﴾

ولاحظ ورود الصيغتين:

الأولى مع صالح: ((مَا) أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)...	**والثانية مع شعيب: ((وَمَا) أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)..**

وقد ضربنا مثالاً لوجود هذه الواو-(وما)- وحذفها، وهي في نفس الموقف من قوله تعالى:

﴿ **لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)** ﴾ الزخرف.

﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)** ﴾ المؤمنون.

فالواو فى(**وَمِنْهَا**) كانت فى سياق يشير إلي جنة الدنيا ، وأن هناك أموراً أخري متعددة طوتها وأشارت إليها هذه الواو (**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**) ، فمنها يدخرون ويشربون العصائر ويبيعون وغيرها من أمور الدنيا،ومنها أيضاً يأكلون، فجاءت الواو فى قوله(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) تشير إلى هذه المحذوفات.

---

(١٩)وقد تناوله الأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضرى تناولاً طيباً فى كتابيه (من أسرار حروف الجر)و(من أسرار حروف العطف)، وكذلك كتاب(لطائف المنان وروائع البيان فى نفى الزيادة والحذف فى القرآن) للدكتور فضل عباس.. وهى من أفضل ما كُتب فى هذا الباب وكنت أتمنى أن أنقل محتواهم كاملاً لأهميته ولكننى أكتفى بالإشارة عليهم للقارىء الكريم

بخلاف نعيم الجنة فى الآخرة- سورة الزخرف- فقد كفاهم الله كل ذلك المعدود فى المثال السابق فلا ينشغل أهل الجنة بغير الأكل فقط فقال (مِنْهَا تَأْكُلُونَ) بدون الواو التى تشير إلى أشياء متعددة قد طواها السياق(الادخار والشرب والبيع والأكل).

وهكذا السياق الذى بين أيدينا: في ثمود قال (**قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) ((مَا أَنْتَ)) إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)**)..

وهنا نجد أن كلام القوم قد توقف عند هذا القول((**مَا أَنْتَ**)) **إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** ، ولم يعدد بعدها أو يعطف عليها أقوالاً أخرى أو صفات أخرى له، ولكنه أتى بعدها مباشرة بالأمر(**فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)، فالأمر ليس فى حاجة إلى وجود الواو التى ترمز لهذا التعدد والعطف فجاءت((مَا أَنْتَ)).

لكن في شعيب: قالوا : (**قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) ((وَمَا)) أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا** – وسيعدد بعدها ويعطف عليها صفات أخرى فى قوله بعدها:- (وَإِنْ نَظُنُّكَ) لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) –فهو كلام معطوف على ما قبله فوضعت الواو(وما أنت)، ثم يأتى الأمر بعدها- **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ..**). فإننا نلاحظ أنه لم يقف الحديث عند هذا الحد فى قوله (**وَمَا**)) **أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**- بل أخذ النص يعدد صفاتٍ أخري، فى قولهم((**وَ**) **إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**) ، فجاءت الواو العاطفة التى ترمز لذلك فى مكانها المكين فقال **(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) (وَ)مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (وَ) إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)**..ثم يأتى القطع فى الحديث معهم بعد هذا التعدد الذى ناسبه إضافة هذه الواو((وَ)**مَا أَنْتَ**) ،**فقال(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧))...**

وهذا هو الرأى الأول.

أما الرأى الثانى فهو متوقف على فهم معنى (الْمُسَحَّرين) الذى سيذكره لنا علماء اللغة والتفسير ، ثم بعدها نقف معهم وقفات نتذوق فيها جمال التنوع فى الفهم مع قول كل عالم منهم، فى العرض التالى:

يقول علماء التفسير، والنص هنا للإمام الزمخشرى:

المُسَحَّر: (١) الذي سُحِر كثيرا حتى غلب على عقله. (٢) وقيل: هو من السحر الرئة، وأنه بشر(له رئة يتنفس بها دليل الحياة والبشرية)، فهما هنا معنيان: **مسحور، أو من جنس البشر..**(٣) وسنسمع لرأى آخر- على السطور القادمة- يضيف **المعنى الثالث وهو: ساحر ماهر** فى السحر(وليس مسحور) بل هو ساحر.وهو ما أجمله الإمام الرازى فى قوله:

إذن الكلمة لها معنيان: الأول : المسحور سحراً قوياً أثَّر على عقله فجعله يخلط.. أو الذى له سَحَر- أى يقوم هو بالسحر-، وهذان المعنيان يتعلقان بتعاطى السِّحر

والمعنى الثانى: المسحر من له جوف.. أى كل حى، وحينئذً يقصدون أنه إنسان مثله مثلهم يأكل ويشرب كما يأكلون ويشربون ، فكيف يكون نبياً ويختص من بينهم بالنبوة

ويقول الزمخشرى: فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو هاهنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد **قصد معنيان** كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير (و) البشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً،(أى التركيز سيكون على كل صفة بمفردها من الصفتين لأهمية إبراز كل صفة والتوكيد عليها وذلك فى حالة وجود(الواو) العاطفة).. وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً، ثم قرر بكونه بشراً مثلهم.(أى هو يؤكد على صفة أصلية فى الإنكار عليه، وهى كونه مسحور، وتكون صفة البشرية تابعة وليست أساسية).

وهو نفس ما يقوله الإمام الطاهر: وَالْإِتْيَانُ بِوَاوِ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ: ((**وَ)ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا**) يَجْعَلُ كَوْنَهُ بَشَرًا إِبْطَالًا ثَانِيًا لِرِسَالَتِهِ.(أى مسحور أولاً، وبشراً ثانياً، وجعلوا- بوجود هذه الواو- التأكيد على كل صفة بمفردها)، وهو أيضاً معنى قول الزمخشرى أنها تفيد التوكيد- أى على كل صفة على حدة-)

ويكمل الإمام الطاهر قوله: وَتَرْكُ الْعَطْفِ فِي قِصَّةِ ثَمُودَ(**مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**) يَجْعَلُ كَوْنُهُ بَشَرًا حُجَّةً عَلَى أَنَّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ لَيْسَ وَحْيًا عَلَى اللَّهِ بَلْ هُوَ مِنْ تَأْثِيرِ كَوْنِهِ مَسْحُورًا.(أى كأنهما صفة واحدة (بشر مسحور)، وهو بذلك لا يؤكد على كل صفة بمفردها، وكأنه يجملهما فى صفة واحدة هى صفة البشرية المسحورة.. ومما لا شك فيه أن التوكيد على كل صفة بمفردها يفيد بالطبع التركيز والاهتمام بكل صفة، وهو معنى شدة التوكيد والاهتمام الذى يقصده العلماء فى قولهم السابق)..فهو يقصد أن التى بها(الواو) أشد توكيداً فى الاتهام له.

ورغم هذا الكلام الماتع من عالمينا الجليلين ولكنهما لم يوقفونا على سبب ورود هذا التوكيد مع(شعيب) ولم يأت مع (صالح).

وهذا المعنى هو ماوفق إليه صاحب تفسير الوسيط فى قوله: وجاء التعبير بالواو هنا في قوله (**وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا**) للإشارة إلى أنه جمع بين أمرين منافيين لدعواه الرسالة، وهما: كونه من المسحرين وكونه بشرا ، وقصدوا بذلك **المبالغة في تكذيبه،** فكأنهم يقولون له: إن وصفا واحدا كاف في تجريدك من نبوتك فكيف إذا اجتمع فيك الوصفان، ولم يكتفوا بهذا **بل أكدوا عدم تصديقهم له فقالوا: وما نظنك إلا من الكاذبين.**(يقصد إضافة إتهامهم الصريح لشعيب بالكذب فى قولهم: (**وَ) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (وَ) إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)**) بخلاف السياق الذى خلا من هذه الواو فلا يؤكدون فيه على إتهامهم الصريح لصالح بالكذب فى قولهم:((**مَا أَنْتَ)) إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآَيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)**).. **فَأْتِ بِآَيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**.. ليس هو تصريح بالكذب بل مطالبة له بإحضاره الدليل.(فصاحب تفسير الوسيط يضيف ملحظَ التوكيد على كل صفة من الصفتين فى ورود الواو، وأن هذا التوكيد جاء وتناسب مع شدة اتهامهم له بالكذب الذى ورد به النص– فهم أشد جرماً وتطاولاً–فى قولهم :(**وَ) إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**.)

ويبقى السؤال الهام وهو : لماذا جاءت صيغة التوكيد (المتمثلة فى زيادة الواو- (وَ) **مَا أَنْتَ**) فى قول قوم شعيب، ولم تأت على هذا التوكيد فى قول قوم صالح(**مَا أَنْتَ**)؟

وأقول: هذا هو ما نحاول التدرج فى الوصول للإجابة عليه فى السطور التالية إن شاء الله تعالى، إضافة إلى ما قاله صاحب الوسيط وارتضيناه.

حيث يرى الخطيب الإسكافي أن قوم صالح لم يبالغوا في تكذيبه كما بالغ في تكذيب شعيب قومه ، لأن الأولين (قوم صالح) لم ينفوا نبوة نبيهم وإنما طلبوا منه أن يأتيهم بآية تدل علي صحة نبوته فيما حكي الله عنهم من قولهم **{فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)}** (الشعراء) ولهم أن يطلبوا ذلك ، فناسب ترك العطف لما فيه من جعل الجملتين بمعني واحدٍ مؤكداً لصفة البشرية التي شاركهم فيها نبيهم، والتي أرادوا بها عدم وجوب الفضيلة له ، لا منافاتها لنبوته.

أما قوم شعيب فبالغوا في تكذيبه ونفوا عنه النبوة كما يدل عليه قولهم لنبيهم فيما حكي الله عنهم **{ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)}** (الشعراء) وبلغ من تكذيبهم له أن اقترحوا عليه إنزال العذاب بأن يسقط عليهم كسفاً، أي قطعاً ، من السماء فيما حكي الله عنهم من قولهم لنبيهم **{فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)}** (الشعراء) فناسب مبالغتهم في التكذيب العدول إلي وصل الجملتين **بزيادة الواو،** لما في ذلك من الدلالة علي المغايرة ، وعلي أن كل جملة هي صفة مستقلة في منافاة النبوة.(وهذا كلام جميلٌ وممتع لا نستطيع رده).

ونبه الكرماني **علي وجه آخر** فقال: وخصت الأولي بدون الواو لأن صالحاً قلل في الخطاب فقللوا في الجواب، وأكثر شعيب في الخطاب فأكثروا في الجواب.

ونقل الآلوسي هذا القول عن النيسابوري ثم بين مراده قائلاً : (ولعله أراد أن شعيباً عليه السلام **بالغ في زجرهم فبالغوا في تكذيبه ،** ولا كذلك صالح عليه السلام مع قومه؛ أي أن صالحاً عليه السلام وعظ قومه مذكراً إياهم بأن ما هم فيه

من النعم لا يدوم، فقال فيما حكي الله عنه ﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)** ﴾ (الشعراء).

فهو يقول لهم: **وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)**) فليس في هذا الوعظ أتهام بالإفساد لهم، وإنما هو حث علي الطاعة وتلطف في النهي عن الركون إلي الدنيا وعن طاعة المفسدين،ولم يتهمهم هم بالفساد، فناسبه أن يحكي عنهم تقليلهم في تكذيبه بترك العطف(بالواو التى تفيد المبالغة كما ذكرنا)هكذا (**مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا**) .

أما شعيب عليه السلام فوعظ قومه بالأمر والنهي فيما حكي الله عنه من قوله ﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) (وَمَا) أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)** ﴾ **(الشعراء)**

ففي وعظه أمر ونهي واتهام ظاهر بالإفساد، **وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)** فلما كان هذا أبلغ في الزجر ناسب عند حكاية تكذيب قومه له أن يحكي عنهم مبالغتهم في تكذيبه بوصفهم له بأكثر من صفة فاقتضي ذلك العدول إلي العطف : (وَ)**مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا.**

(وهو كلام لا يقل روعة وإبهاراً عن سابقه)

وهنا قام بعض العلماء بتفصيل المعنيين على المشهدين من(قصة صالح، وقصة شعيب) كل منهما يأخذ معنى؛ فأعطوا قصة صالح اتهام القوم له بأنه بشر مثله مثلهم، فهى – على هذا المعنى- تعطى نفس الصفة(**قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**

(١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآَيَةٍ) أى أنت **من المسحرين الذين هم بشر** مثلنا(على المعنى الثانى الذى ذكرناه من أن المسحر من له رئة، أى بشر)، فالجملة الثانية(أنت بشر) بدل من الأولى(من المسحرين)- أى بنفس المعنى وبدلاً عنها- ولذلك لم تعطف عليها بالواو.. فهى بدل وليس عطفاً.

أما فى قصة شعيب فقد أعطوه المعنى الثانى، أى اتهموه بأنه مسحور أو ساحر، وهى- على هذا المعنى- صفة أخرى تضاف إلى صفة البشرية .. (٢٠)ولذلك عطفت عليها بالواو، هكذا:(**قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا**)) فأنت من المسحرين- أى الذين مسهم سحر- أو ساحر- (و) أيضاً أنت بشر مثلنا- بإرادة المعنيين معاً، ولذلك جاءت (الواو) العاطفة.. إضافة إلى ما ذكرناه من صورة التعديد فى الصفات فى سياق هذه الآية من قصة شعيب.

ولكن يبقى سؤالٌ يفرض نفسه لأصحاب هذا الرأى، وهو: لماذا كان التعداد فى الصفتين**(ساحر مع بشر)** بإضافة معنى السحر مع شعيب **ولم يكن مع صالح؟**

هنا يرى د: فضل عباس أن السبب فى ذلك هو أن السحر كان منتشراً بقوة فقط مع قوم موسى – الذى كان قريباً فى الزمان والمكان من شعيب وقوم شعيب- ولم يكن منتشراً قبل ذلك ، أى قبل النبى شعيب، أى لم يكن فى عصر صالح، ومعلوم أن شعيباً كان فى أيام موسى عليه السلام، فيكون التوكيد على السحر وحديث السحر (الصفة الثانية بعد وصفهم له بالبشرية) مناسباً لقوم شعيب، وغير مناسب ذكره مع قوم صالح.. وهذا رأى لامانع منه وله وجاهته ، وخاصة إذا كان هناك دليلٌ على ذلك. وأظن أنه صحيحٌ والله أعلم.

---

(٢٠) وهى على طريقة التدرج إلى الأعلى فى الوصف والقوة التى ذكرناها فى التدرج التاريخى للقصص، وشعيب جاء بعد صالح، فزاد الوصف فى شعيب.

والرأى الرابع فى سبب إضافة الواو لشعيب هو: أنه كما علمنا سابقاً: أن شعيبا هنا قد تكلم كثيراً، ولذلك أسموه بخطيب الأنبياء هنا، وقد جعلوا ذلك سبباً ثانياً لإضافة الواو على منهج الإطناب الذى يشير إلي مثله الإمام ابن الزبير الغرناطى كثيراً.

وقد جاء هذا متناسقاً مع ما رأيناه في سورة الأعراف وهود من أن الإفراد فى الرسالة جاء مع صالح فى (**أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي**) (لأنه لم يحدثهم إلا عن آية الناقة)... وجاء الجمع (**أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ**) مع شعيب، دليل **التعدد المناسب لإضافة الواو:** (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) لأنه يحدثهم عن أمور كثيرة ..

ونلاحظ في سورة الأعراف السريعة الأحداث يقول (فأنجيناه)

وفي سورة هود وظل هوادة الأحداث يقول (فنجَّيناه).

****

(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ) و (وَأَنْصَحُ لَكُمْ)

(إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ) و (وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ)

ويبقي ما يترتب علي هذا الرد لنوح عليه السلام حينما قالوا له(نراك في ضلال) وما يترتب علي الرد لهود (نراك في سفاهة) .. وهو ما سيظهره الميزان المبهر في النظم القرآني هكذا:-

وقد علمنا من قبل معني الضلالة والسفاهة ، والفارق الكبير بينهما، وأن الضلال هذا وصف يذهب ويجئ، فصاحبه يعود إلي الطريق أو يمكن عودته إلي الطريق ... لكن السفاهة وصف يفيد الدوام والثبوت، وأن الذي في سفاهة لا يرجي له العودة نهائياً .

ولذلك نقول إن الضلال – الذي يذهب ويجئ- يناسبه صورة الفعل المضارع التي تفيد التجدد والحدوث والتغير أيضاً- فى السياق بعدها-

فقال:(**وَأَنْصَحُ لَكُمْ**)... أما السفاهة فيناسبها صفة الاسم- فى السياق بعدها- التي تفيد الثبات وليس التجدد (وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ)

وهذا هو ما سيعرضه علينا النظم القرآني...

ونعود لنقول: إن سياق نوح عليه السلام وقد اتهمه قومه بالضلال - والضلال هنا قريب الشبه بمن يسير في الظلمات أو يغمض عينيه فلا يري ولا (يعلم)- ولذلك حينما قالوا له (نراك في ضلال) قال لهم: (وَأَنْصَحُ لَكُمْ) (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا(تَعْلَمُونَ) (٦٢)) ...وهذا (العلم) لما (لايعلمون) مناسب لذكر (الضلال) الذى هو التخبط بدون علم.

وحينما أغرقهم ربنا تبارك تعالي – فى نهاية القصة- قال عنهم (**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ**) (**فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ** (٦٤) . فجاء بصورة العمي التى تتناسب مع اتهامهم له بالضلال .... ولا تتناسب مع الاتهام له بالسفاهة.

****

التَّضْمِينُ.

ويعتبره كثير من العلماء لوناً من ألوان الالتفات

وَهُوَ إِعْطَاءُ الشَّيْءِ مَعْنَى الشَّيْءِ وَتَارَةً يَكُونُ فِي الْأَسْمَاءِ وَفِي الْأَفْعَالِ وَفِي الْحُرُوفِ فَأَمَّا فِي الْأَسْمَاءِ فَهُوَ أَنْ تُضَمِّنَ اسْمًا مَعْنَى اسْمٍ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الِاسْمَيْنِ جَمِيعًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (**حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**) ضُمِّنَ حَقِيقٌ مَعْنَى حَرِيصٍ(على) لِيُفِيدَ أَنَّهُ مَحْقُوقٌ بِقَوْلِ الْحَقِّ وَحَرِيصٌ عَلَيْهِ(معاً).

وَأَمَّا الْأَفْعَالُ فَأَنْ تُضَمِّنَ فِعْلًا مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ وَيَكُونَ فِيهِ مَعْنَى الْفِعْلَيْنِ جَمِيعًا، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ يَتَعَدَّى بِحَرْفٍ فَيَأْتِي مُتَعَدِّيًا بِحَرْفٍ آخَرَ لَيْسَ مِنْ عَادَتِهِ التَّعَدِّي بِهِ فَيُحْتَاجُ إِمَّا إِلَى تَأْوِيلِهِ أَوْ تَأْوِيلِ الْفِعْلِ لِيَصِحَّ تَعَدِّيهِ بِهِ.

وَاخْتَلَفُوا أَيُّهُمَا أَوْلَى فَذَهَبَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ النَّحْوِيِّينَ إِلَى أَنَّ التَّوَسُّعَ فِي الْحَرْفِ وَأَنَّهُ وَاقِعٌ مَوْقِعَ غَيْرِهِ مِنَ الْحُرُوفِ أَوْلَى.

وَذَهَبَ الْمُحَقِّقُونَ إِلَى أَنَّ التَّوَسُّعَ فِي الْفِعْلِ وَتَعْدِيَتَهُ بِمَا لَا يَتَعَدَّى لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى مَا يَتَعَدَّى بِذَلِكَ الْحَرْفِ أَوْلَى لِأَنَّ التَّوَسُّعَ فِي الْأَفْعَالِ أَكْثَرُ.

(وأقول: **إن موضوع التضمين** هذا – على روعته وجماله– عليه اختلاف بين أهل اللغة، ليس هذا البحث فى مقام الفصل فيه ومناقشته ولكننى أحيل القارىء الكريم إلى الوقوف على ذلك فى كتاب (من أسرار حروف الجر) للأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضرى) وسوف أشير إلى ذلك هنا ببعض الأمثلة التى تلخص للقارىء على عجالةحقيقة هذا الخلاف منها:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ** ﴾ يقول أصحاب الرأى بالتضمين: فَضَمَّنَ (**يَشْرَبُ**) مَعْنَى (يَرْوِي)– أو يرتوى بها– لِأَنَّ يشرب لَا يَتَعَدَّى بِالْبَاءِ– نقول يشرب منها– فَلِذَلِكَ دَخَلَتِ الْبَاءُ (لتعطى معنى(ضمنياً) هنا هو (يرتوى بها) وأصبح هناك معنيان فى سياق واحد وهو: **يشرب بها، ويرتوى منها**– وهذا هو معنى التضمين– وهو كما ترى أنه أخذ الفعل(يشرب) من الجملة الأولى وترك الحرف(بها)، وأخذ الحرف(منها) من الجملة الثانية وترك الفعل(يرتوى)، وأصبحت

الجملة(يشرب منها) تضمن معنى الجملتين معاً.... فَأُرِيدَ بِاللَّفْظِ **الشُّرْبُ وَالرِّيُّ مَعًا** فَجَمَعَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ،كما قال الإمام ابن تيمية.

والفريق الآخر من العلماء الذى لا يرى التضمين فى الأسلوب القرآنى فإنه لا يعدل بالحرف عن معناه الموضوع له فى اللغة، وهو هنا حرف(الباء)- بها- الذى يفيد- من معانيه- معنى الإلصاق ، أى أنه يشرب من هذه العين- عين الماء- **وهو لصيق بها(يشرب بها)،** ولصوقه بالعين- بئر الماء- يعطى معنىً آخر غير الشرب، ألا وهو التمتع برؤية هذه العين والقرب منها لجمالها.. كما يفعل أحدنا وهو على شاطىء البحر(وهو معنى زائد عن الشرب ومراد فى النص فى وصف الحال مع عين الجنة).. ولو أراد مجرد الشرب فقط لقال(عيناً يشرب(منها) المقربون) ولكنه عدل عن هذا الحرف وقال(يشرب (بها)) ليعطى المعنيين معاً**(الشرب والتمتع)** مع ما أفاده معنى التضمين الذى ذكرناه والذى يضيف أيضاً معنى **الارتواء..** وهذا كله حدث من تبديل الحرف من(يشرب (منها)) إلى(يشرب (بها)).. ولكنه حينما أراد مجرد الشرب فقط قال(**يَشْرَبُونَ** ((**مِنْ**)) **كَأْسٍ**) فالشرب من الكأس – التى هى بالطبع قريبة من الفم ولا تحتاج إلى حرف القرب واللصوق(الباء)- فجاءت على الأصل((يَشْرَبُونَ ((مِنْ)) كَأْسٍ).

وهذه الباء - التى من معانيها القرب والإلصاق- نمثلها للقارىء ببعض الأمثلة منها قول الله تعالى﴿ **كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤)** ﴾ الدخان.وكان يمكن أن تقال (زوجناهم حور عين)-بدون الباء كما هو متبع فى لغتنا المعتادة- ولكن النظم فى وجود الباء يعطى معنى الإلصاق – أى زوجناه الحور العين وهو (لصيق) بها من حسنها وجمالها؛ وهن يتغنين له بأعذب الألحان (نحن الناعمات فلا نبأس أبداً، نحن الراضيات فلا نسخط أبداً، طوبى لمن كان لنا وكنا له)... فهو ليس زواجاً عادياً بل هو زواج مع القرب واللصوق فقال(بحور عينا).

*******وكذلك(**لَتُبْدِي بِهِ**) –أى تبدى بِسِر ابنها وحينها سيتعرض للخطر- فى قوله تعالى: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ (لَتُبْدِي بِهِ) لَوْلَا أَنْ (رَبَطْنَا عَلَى**

قَلْبِهَا) لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) ﴾ ولم يقل(لتبديه) لأنه أراد استحضار معنى الإلصاق الذى بينها وبين ابنها- الذى يشير إليه حرف الباء(به)- لتبدى به- لتشير إلى أن ولدها لصيق بها- قطعة منها- فإن أبدت به فإنها تبدى بقطعة منها.. إضافة إلى مايشير به الجرس الصوتى فى وجود حرف الباء(لتبدى به) والتى تطيل زمن النطق بها، بخلاف النطق بالجملة فى حال إسقاط هذا الحرف بأن يقول(لتبديه) التى يمر عليها النطق سريعاً.. والحال فى أم موسى أنها كانت تتردد وتطيل الموقف والتفكر قبل أن تبدى بسر ابنها.

وَقَوْلُهُ: ﴿ **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** ﴾ ضمن (**لَتُبْدِي بِهِ**) مَعْنَى (تُخْبِرُ بِهِ) أَوْ (لِتُعْلِمَ)به، لِيُفِيدَ الْإِظْهَارُ مَعْنَى الْإِخْبَارِ- فى (لتبدى به)- لِأَنَّ الْخَبَرَ قَدْ يَقَعُ سِرًّا غَيْرَ ظَاهِرٍ.فأفادت هنا الإبداء مع إخبار به وإعلام ، وهذا هو الواقع فى حال أم موسى، فهى كانت تريد أن تظهر أمره وتخبر الناس به- ومنهم آل فرعون الذى التقطه-)

وأنا أرى الرأى الآخر والله أعلم.

وكذلك قوله ﴿ **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي (بِهِ) لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا (عَلَى) قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)** ﴾ **فقال: رَبَطْنَا (عَلَى) قَلْبِهَا** ولم يقل (ربطنا قلبها) كما يتوقع القارىء، لأنه يريد تصوير قوة الإيمان- من أم موسى- وكثرته بأنه فاض حتى ملأ القلب وخارج القلب وأصبح(على قلبها)،وأصبح الربط(على قلبها) .

وكذلك فى قوله تعالى ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ ((لَنَا)) (٥١)** ﴾.. وكان حقها فى غير النظم القرآنى أن يقال: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ ((علينا))- لأن المصيبة تكون (على) الإنسان وليست له- فى تصورنا المعلوم- ولكن لأن النظم القرآنى والسياق يرسم (عقيدة المؤمن) الذى يرى أن كل مصيبة تنزل عليه من الله تعالى هى ابتلاء (له) و(لصالحه) لأنه يعلم أن الله تعالى سيثيبه عليها خير العطاء.

وَقَوْلُهُ: ﴿ **هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ (عَنْ) عِبَادِهِ** ﴾ ، فجاء بـ(من) لِأَنَّهُ ضَمَّنَ التَّوْبَةَ مَعْنَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ. لأن(عن) يسمى حرف مجاوزة وبعد، ويكون السؤال حينئذٍ: البعد عن ماذا؟ وهنا يصبح لدينا معنيان: الأول ما أشار إليه الفعل (يقبل) ويكون المعنى: يقبل التوبة.. ويبقى المعنى الثانى الذى أشار إليه الحرف(عن) ليعطى معنىً(ضمنياً)- أى: غير صريح- وهو أنه بعد أن يقبل التوبة هو- سبحانه- يتجاوز (عن) سيئاته..

وهذا المعنى الثانى هام جداً حيث أنه يشير إلى أن الله عز وجل ربما يقبل التوبة منا ، ولكنه يُبقى لنا الذنوب مكتوبة فى الصحيفة تنغص علينا حياتنا أو تفضحنا أمام الخلائق- يوم القيامة- فهنا يتفضل الله تعالى على عبده بأن يقبل التوب(من) عبده ، ويمسح هذه السيئات ويمحى شبحها، ولعل هذا هو معنى إصلاح البال الذى يُشار إليه فى قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ (عَنْهُمْ) سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)** ﴾.. فالآية تشير إلى إصلاح البال بعد التكفير عن الذنوب، والتكفير يعنى(التغطية) ولكنه ربما يغطى على الذنوب ولكنه يبقيها فى الصحيفة يخشى هذا العبد من الافتضاح بها والتنغيص منها، ولذلك أبعدها الله- محاها- بعد أن كفرها- غطاها- (ليصلح بال هذا العبد، وهو مراد هذا السياق ، ولذلك نجده قال - سبحانه- **كَفَّرَ (عَنْهُمْ) سَيِّئَاتِهِمْ**- وكان يمكن أن يقال : كَفَّرَ سَيِّئَاتِهِمْ) وتكفير السيئات هذا لن يصلح البال كما ذكرنا ولذلك ذكر حرف البعد (عنهم) فقال (**كَفَّرَ (عَنْهُمْ) سَيِّئَاتِهِمْ**، وبعدها (**وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ**). وبذلك تتناغم المعانى فى السياق ولا يقال إن هناك حرفاً زائداً فى القرآن الكريم أو أن هناك حرفاً يحل محله.

وَقَوْلُهُ: (**وَإِذَا خَلَوْا (إِلَى) شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا**) ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: خَلَوْتُ ((بِهِ)) لَكِنْ ضَمَّنَ (خَلَوْا) مَعْنَى (ذَهَبُوا) (وَانْصَرَفُوا) (إلى شياطينهم) ، فهى تعطى معنى الخلوة بالشياطين وكذلك ذهابهم هم بأرجلهم إليهم، مما يعطى معنى الحرص منهم على

ذلك. (٢١) وَقَالَ مَكِّيٌّ: إِنَّمَا لَمْ تَأْتِ الْبَاءُ لِأَنَّهُ يُقَالُ خَلَوْتُ بِهِ إِذَا سَخِرْتَ مِنْهُ فَأَتَى بِـ(إِلَى) لِدَفْعِ هَذَا الْوَهْمِ.

ومثلها ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**)و(**رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وكان حقها أن تقال(رضى الله (عليهم) (ورضوا منه) ولكنه لايقصد أن الله أنزل رضاه عليهم فقط، بل إنه رضى عليهم وتجاوز(عن سيئاتهم)، فهو رضى منهم ما فعلوه من السيئات وأبعدها عنهم، وكأنه قال لهم-كما قال لأهل بدر- افعلوا ما شئتم لقد غفرت لكم.. وكذلك هم من خُلَّص المؤمنين الذين قال الله عنهم ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** (١٨) ﴾.. فهؤلاء أيضاً يرضون من الله كل الشيء؛ فالخير هم راضون به، وكذلك الشر يرضون به ولا ينسبونه إلى الله- أى يبعدونه(عنه)؛ فهم راضون (عنه).

وكذلك قوله تعالى﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ** (عَلَى) **ظُلْمِهِمْ** (٦) ﴾ الرعد. وقيل أن الواجب فى غير النظم القرآنى أن يكون السياق((وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ (مع) ظُلْمِهِمْ (٦)) ولكنه عدل عن هذا الحرف(مع) وأتى بالحرف(على) لأن الحرف (على) يفيد معنى الاستعلاء، أى أن مغفرة الله (أعلى) من أى ظلم فعله الإنسان، ولو قال(مع) ظلمهم لأفادت معنى مساواة مغفرة الله مع الظلم وهذا غير مراد.. ولذلك حينما جلس الصحابة يتدارسون أرجى آية فى كتاب الله تعالى، فقال أحدهم(لعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه) إنها قوله تعالى(**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (٥٣)الزمر.. ولكن الإمام ابن عباس ذكر قوله تعالى((وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ (عَلَى) ظُلْمِهِمْ (٦) الرعد، ناظراً إلى هذا المعنى الذى ذكرناه من استعلاء مغفرة الله تعالى على أى ظلم، وكما ورد فى الأثر أن من ظن أن ذنبه أعلى من مغفرة الله فقد أرتكب كبيرة من الكبائر..

---

(٢١)وَهُوَ مُعَادِلٌ لِقَوْلِهِ لَقُوا وَهَذَا أَوْلَى مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ (إِلَى) هُنَا بِمَعْنَى (الْبَاءِ) أَوْ بِمَعْنَى (مَعَ) .

وكذلك قوله تعالى﴿ **يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)** ﴾.. وقد قالوا إن (**لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ**) بمعنى(لَوْ تُسَوَّى عليهِمُ) الأرض.. ولكنه كما نعلم أن الباء تشير إلى الإلصاق ، أى أنهم – بعد أن خرجوا من قبورهم ورأوا أهوال يوم القيامة- تمنوا أن تختلط ذرات أجسامهم بذرات التراب(أن يفرموا ولا يبقى لهم أى وجود) فأفادت الباء(تسوى بهم الأرض) هذا المعنى، أما لو (تسوى عليهم الأرض) فهى تعنى أنهم يتمنون أن الأرض تكون فوقهم – أى قبراً فوقهم- وقد علموا أن هذه الصورة لم تغنِ عنهم شيئاً، فقد خرجوا من هذا القبر إلى الحشر ولذلك هم يتمنون الصورة الأخرى(تسوى بهم الأرض). فلا يتساوى النصان ولا يمكن أبداً أن يتساوى هذا الحرف(بهم) بالحرف(عليهم) – كما يقول بذلك كثير من العلماء- بمعنى أن الحرف يساوى الحرف أو يحل محله- ولكن هذا سيكون جريمة فى حق النظم القرآنى، بل هو التفات مقصود لما ذكرناه.

وَقَوْلُهُ: ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ..(٥٤)** ﴾ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ ذَلَّ لَهُ (أذلة للمؤمنين، أو ذليلٌ له) لَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ هُنَا ضُمِّنَ مَعْنَى التَّعَطُّفِ وَالتَّحَنُّنِ فى قوله (**أَذِلَّةٍ** (**عَلَى**) **الْمُؤمِنِين**) أى أنه يعلوه- ولكنه ليس تكبراً عليه بل **هو يعلوه عطفاً عليه وتحنناً** وهو معنى الذلة عليه، أما لو قال(ذليلٌ له) فإنه يذل نفسه له من أجل علة له أو مصلحة، وهذا غير مراد فى هذه الآية، ولذلك(عدل) إلى ما جاء فى النظم(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤمِنِين).

ولذلك سنجد النظم الحكيم لا يجعل المؤمن ذليلاً- أى لعلة-إلا لله تعالى وللوالدين فقط، فحينما أراد أن يصور النص الذلة للوالدين لم يستخدم فيها حرف الاستعلاء(على) كما استعمله مع المؤمنين، فقال عن الوالدين: (**وَاخْفِضْ** ((**لَهُمَا**)) ((**جَنَاحَ**)) **الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤)**) ورغم أن ذكر الجناح يستدعى إلى الذهن تظليل الطائر بجناحه (على) أولاده، فكان حق هذا النظم أن يكون(واخفض (عليهما) جناح (الذل)، ولكن لأن الخطاب عن التذلل (للوالدين) فعدل عن استخدام حرف الاستعلاء(عليهما) لأنه لا يحسن ورود- صورة الاستعلاء – فى

حال الوالدين –حتى ولو قال إنه جناح ذل، فلم يقل(عليهما جناح الذل) وقال (لهما جناح الذل) ليصور الذلة الحقيقية للوالدين – كأنه تحت قدميهما–.. وهذا أسلوب احتراز عظيم فى النظم القرآنى لا يقدره أو يعلم قدره إلا العلماء والمتدبرون.

ومثل هذا التحول– وقريباً منه– نجده فى قوله تعالى﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ** ((**لَعَلَى**)) **هُدًى أَوْ** ((**فِي**)) **ضَلَالٍ مُبِينٍ** (**٢٤**) ﴾.. وكان يجب فى غير النظم القرآنى أن يقول: (أو(لعلى) ضلال مبين)، ليتم التناسب بين الضمائر((لَعَلَى)) هُدًى أَوْ ((على)) ضَلَالٍ، فلماذا حدث هذا التحو– الالتفات–؟ وهذا هو ما يجيب عليه الإمام الزمخشرى: فإن قلت: كيف خولف بين حرفى الجرّ الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء،(فقال: على هدى) والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه (فقال: فى ضلال).

****

﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ..(**٣٨**) ﴾ أَيْ أَحَلَّ لَهُ. وكان حقها أن تكون(فيما فرض الله (عليه))،كما هو الحال فى باقى النظم القرآنى(كتب عليكم) وأمثالها، ولكن لأن المخاطب هنا هو الحبيب محمد(ﷺ) فإنه يحب ما يفرضه الله وينتظره، فكان الفرض(له) وليس(عليه)، {فيما فرض الله له}.

﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾

فَإِنَّهُ يُقَالُ: (خَالَفْتُ زَيْدًا) مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ لِتَعَدِّيهِ بِالْجَارِّ (عن)– لم يقل: خالفت عن زيد– وَإِنَّمَا جَاءَ مَحْمُولًا عَلَى (يَنْحَرِفُونَ) أَوْ (يَزِيغُونَ) – وهذا على رأى أهل التضمين أى يخالفون الأمر وينحرفون أو يزيغون عنه–.

ولكن الفريق الثانى الذى لا يرى التضمين ويرى أن الأمر ليس فيه تضمين بل إن الحرف وضع فى موضعه الأصلى الذى يعنى البعد والابتعاد(عن أمره)، فهو لم يقل(فليحذر الذين **يخالفون أمره)** ولكنه قال(يخالفون عن أمره)، لأن الصيغة الأولى**(يخالفون أمره)** تعنى أنهم لا يعترفون بأمر الرسول من بداية وجوده... أما

الصيغة الثانية((يخالفون عن أمره) فهم معترفون بأمر الرسول ويؤمنون به ولكنهم ينحرفون(عنه) بالحيل والأباطيل والمعاذير- أو الضعف البشرى- كعادة معظمنا- وهو نفس سياق الآيات التى تتحدث عن هذه النوعية (من المؤمنين المعترفين والمصدقين بأمر الرسول(ﷺ) وهذا هو السياق: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)** ﴾ ، وبذلك يكون حرف(عن) وضع فى موضعه الذى لا يصلح فيه حذفه أو الإتيان بحفٍ غيره.

وهذا يذكرنا بخطاب الأنبياء فى سورة إبراهيم عليه السلام حينما كان الخطاب يخص بشرية الرسل(وهو خاص بالرسل وبشريتهم) قال(**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ**) هكذا: ﴿ **قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ..(١١)** ﴾

وحينما كان الخطاب فى توحيد الله فهذا خطاب عام لكل البشرية فحينما قالوا للرسل: (**وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ .. (١٠)** فهنا قالت الرسل(قالت رسلهم) ولم يقل (قالت (لهم)رسلهم) لأن الشك فى ذات الله يحتاج خطاب عام لكل البشرية دون تخصيص(**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ**)، أما الحديث عن بشرية الرسول فهو يحتاج لرد خاص لهذه الفئة الخاصة((**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ**)

**** ﴿ **الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ** ﴾ وكان يجب أن تكون(اكتالوا من الناس) وهنا يرى الإمام الزَّمَخْشَرِيُّ أنه: ضُمِّنَ مَعْنَى (تَحَامَلُوا) فَعَدَّاهُ بِـ(عَلَى) وَالْأَصْلُ فِيهِ

مِنْ.(أى اكتالوا منهم وتحاملوا عليهم- أى ظلموهم فى الشراء منهم-. وهذا سنعيشه فى الشرح التالى:

وهناك رأى آخر – الذى لا يرى التضمين- يقول فيه:
(**اكْتَالُواْ**) (**عَلَى**) **النَّاسِ** ... (**كَالُوهُمْ**)

**** وتعال معي لنص قرآني آخر- يعرض فيه صورة من الحياة اليومية لهؤلاء المطففين في الكيل والميزان ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا** (**اكْتَالُواْ**) (**عَلَى**) **النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا** (**كَالُوهُمْ**) **أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ سورة المطففين. مع ملاحظة:

١) استخدام حرف الجر(على) حيث يقول **اكتالوا "على"** الناس: وكان المفروض أن يقول **"اكتالوا "من " الناس** لأنه يتحدث عن المشترى الذي يشترى (من) البائع ويريد استيفاء الكيل له. فلماذا جاء بحرف الجر(على) الذي يفيد الاستعلاء و الإيذاء وليس المنفعة ؟

إن المتأمل للموقف يرى أن الحرف "على" – بمعناه المذكور- يعبر عن الحقيقة؛ وهى أن هذا **المشترى** – بهذه الطريقة الجشعة – **يؤذى البائع** وكما يقول: جاء شراؤك هذا عليَّ بخسارة... فهذا الحرف (على) يعطى هذا المعنى الخطير – بدون هذا الشرح الطويل بألفاظ كثيرة وتعبيرات مطولة – بخلاف لو أنه قال بكلامنا البشرى المعتاد **(إذا اكتالوا "من"** الناس**):** فهذا التعبير يشير إلى عملية بيع وشراء عادية، ولا يشير إلى معنى هذا الظلم والاستعلاء في هذه العملية – والتي يصورها حرف (على). وهذا على مثال قوله تعالى (**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**) فالآية تتكلم عن المصيبة، وكان يجب أن تكون (علينا) وليست (لنا). لكن هذا الفهم وهذه العقيدة ليست هى عقيدة المؤمن: لأن المؤمن يعلم أن كل ما يصيبه من الله فهو دائماً **خيرٌ ("له")** – حتى وإن كان في ظاهره القسوة – فهو يرى في هذه المصيبة:١- تأديباً من حبيبه ومولاه وهو الله. ٢- تكفيراً له عن ذنوب له سواءً علمها أم لم يعلمها. ٣- رفع منزلة له لا يمكن أن ينالها من عمله أو عباداته لله... وهكذا لا يقل المؤمن: أن المصيبة "علينا" بل هو يقول: (إن المصيبة **"لنـا")** وهنا

تكون الآية (**قُل لَّن** (**يُصِيبَنَا**) **إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ** ("**لَنَا**") **هُوَ مَوْلاَنَا**) (٥١) **سورة التوبة** - بهذا الحرف (لنا) بدلاً من (علينا) – ليرسم هذا الحرف عقيدة المؤمن التي يجب أن يكون عليها.

ونعود لمثالنا الذي يبين للقارئ الجهول والعجول كيف أنه لا يوجد هناك زيادة حرف أو نقصان حرف في كلمه من كلماته إلا وقد قصد بها رسم صورة أو مشهد لذهن القارئ - حتى وإن لم يفهم معنى هذه الكلمة في اللغة العربية – فهو يرى نفسه أنه يفهم الكلمة والمعنى المراد منها بجرس هذه الكلمة – صوتها – وهذا شأن القرآن الكريم دائماً في جميع آياته (ولا تنسى كلمة (أحد) و(واحد). وإن كان الشأن – في بحثنا هذا– هو ضرب الأمثال فقط ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حيى عن بينه).

فها هو القرآن يصور المشهد الذي نراه كثيراً في معاملاتنا التجارية وحياتنا العامة حينما يذهب أحدنا "إذا كان جشعاً" إلى البائع ليشترى منه سلعة –كيلاً بكيل – فإن المشترى يحاول أن يستوفى حقه في الميزان – وفى المقابل ينقصه حقه في الكيل والميزان إذا باع له وبادله – وبهذا يكون شراؤه هذا بخسارةٍ وظلمٍ (على) الطرف الآخر... هذه هى الصورة التي يقول عنها القرآن مهدداً لصاحب هذا السلوك بالويل (**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ** (١) **الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ** (٢) **وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**). (ويلٌ للمطففين الذين إذا **اكتالوا على الناس يستوفون** (هذه هى الصورة الأولى) **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** (هذه هى الصورة الثانية) فما الذي حدث في تعبير القرآن وهو يصور هذا المشهد بالجرس الصوتي للكلمة بزيادة ونقصان الحروف – دون الحاجة إلى هذا الشرح المطول ؟.انظر الجدول:

المشترى الجشع (إذا اكتالوا على الناس يستوفون)	**البائع الجشع** (إذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)
١) كلمة اكتالوا = ٦ حروف. **٢) جرس كلمة اكتالوا: وفيها الافتعال والنطق بتكلف ومشقة (ولاحظ تعبيرات الوجه حال النطق بالكلمة) وهو عين ما يسببه هذا المشترى من مضايقات للبائع الذي يشترى منه ويراوده في طلب الزيادة. فهنا (يستوفون) في الميزان، يقابلها (استيفاء) في حروف الكلمة "اكتالوا".**	**١) كالوا = ٤ حروف.** **٢) العكس تماماً.** **هنا (ينقصون) في الميزان يقابله (نقص) في حروف الكلمة (كالو) + الجرس الصوتي الذي سنتحدث عنه.**

التوضيح:

أولاً: في الصورة الأولى هذا المشترى الجشع الذي يطلب الزيادة في الكيل يصورها ربنا بقوله إذا (اكتالوا) ولم يقل (كالوا) وهنا زادت الكلمة حرفين هما الألف والتاء – مقابل الزيادة في الكيل – ونقصت حرفين في الجانب الآخر مقابل النقص والسرقة في الميزان.

والأمر الثاني أنه قال (**اكتالوا** "على" **الناس**) أى بوضع حرف الاستعلاء **"على"** – والتي كان يُفترض أن تكون **"من"**. وكما قال الإمام الزمخشرى: لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً **يضرهم ويتحامل فيه عليهم** أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك.

ثانياً : أما في الصورة الثانية فهذا الشخص الجشع هو الذي سيبيع و يكيل إلى الناس ويوزن لهم ... وفى هذه الحالة هو ينقص (ويأكل) من الميزان **ويسرق**.. وهنا نلاحظ كيف تغير التعبير القرآني وتغيرت الريشة الفنية لترسم هذا المشهد بالصورة وبالصوت أيضاً، فماذا قال؟ (**قال: وإذا** (**كالوهم**)... **يخسرون**) ولاحظ كلمة كالوهم، وهى هنا تعنى: **كالوا لهم** (أى كيَّلوا لهم بالكيل)، ولكن اللفظ القرآني

"كالوهم" تحس له وقعاً خاصاً، ذلك أن إنقاص الحروف وتقليلها كأنما يشير إلى السرقة وإنقاص الكيل في الوفاء لهم، وعملية أكل الحروف ونقصان الحروف تناسب موقف هذا البائع الجشع وهو ينقص **ويأكل من الميزان ويأكل حقوق الناس**،إضافة إلى حذف كلمة (لهم) التى تفيد التمليك لهم وكأنه يرفض تمليكهم حقهم الذى اشتروه. وهاهو **جرس الكلمة** – أيضاً – في الأذن، **وكأنه يقول أكلوهم وأكلوا حقهم (كالوهم). فهكذا جرس الكلمة و(نقصان مع النقصان وزيادة مع الزيادة) مما تتناغم فيه الألفاظ مع المعاني تناغماً لا يحدث مثله في نظم غير نظم القرآن الكريم.**

****

**** ﴿وَتَحْسَبُهُمْ (أَيْقَاظًا) وَهُمْ (رُقُودٌ) وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ (بَاسِطٌ) ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ..(١٨)﴾.**

وهو مشهد تصويري عجيب، ينقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف، كما يلتقطها شريط متحرك. ولاحظ صيغة وجرس الكلمة التى تصور بجرسها كأنهم غارقون فى النوم، وهذا الجرس يختلف عن الكلمة البديلة(وهم راقدون) التى تصور بجرسها الحركة– بل وكثرة الحركة وتغيرها مع تغير الحركات الإعرابية والمدود فى الكلمة قَالَ الْوَاحِدِيُّ: وَإِنَّمَا يُحْسَبُونَ أَيْقاظاً لِأَنَّ أَعْيُنَهُمْ مُفَتَّحَةٌ (وكأن الصيغة نفسها (أيقاظاً) تصور حالهم كأنهم فى شدة اليقظة، وَهُمْ فى الحقيقة غارقون فى النوم(رقود) وَقَالَ الزَّجَّاجُ لِكَثْرَةِ تَقَلُّبِهِمْ يُظَنُّ أَنَّهُمْ أَيْقَاظٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَنُقَلِّبُهُمْ ذات الْيَمِين وَذات الشِّمال.**

وَمَعْنَى: باسِطٌ ذِراعَيْهِ أَيْ يُلْقِيهِمَا عَلَى الْأَرْضِ مَبْسُوطَتَيْنِ غَيْرَ مَقْبُوضَتَيْنِ– أى بدون حركة – فهو ثبات على وضع واحد والاستمرار عليه فناسبه الصيغة الإسمية (باسط) وليس الفعلية (يبسط) التى تفيد التغير والتجدد.

نموذج آخر
العدول و(الالتفات) عن الكلمة لمرادفها

(نور) و (ضياء)

قوله تعالى: ﴿ **تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها (سِراجاً) وَقَمَراً (مُنِيراً)** ﴾ الفرقان

وقوله تعالى﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ** (**ضِيَاءً**) **وَالْقَمَرَ** (**نُورًا**) .. (**٥**) ﴾ يونس.

والسؤال هو: عن السبب فى هذا التحول فى وصف الشمس والقمر فى كلا النصين؛ فقال(الشمس ضياء، وسراجاً منيراً)، وكذلك القمر قال عنه(القمر نورا)؟

وهنا أقتبس مقدمة هامة للدكتور البوطى من كتابه(من روائع القرآن) ندخل منها على هذا الالتفات الجميل فى قوله تحت عنوان:

الخاصّة الثالثة (صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم):

وثمة خاصّة ثالثة، لا تستطيع أن تجدها في غير هذا الكتاب العزيز. وهي أن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس متفاوت في المدارك والثقافة، فستجد أن الآية تعطي كلّا منهم من معناها بقدر ما يفهم، وأن كلّا منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه.

ولسنا نقصد أن الآية تحتمل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين، بل هو معنى واحد على كل حال، ولكن له سطحاً وعمقاً وجذوراً يتضمنهاً جميعا أسلوب الآية. فالعاميّ من الناس يفهم منه السطح القريب، والمثقف منهم يفهم مدى معينا من عمقه أيضاً والباحث المتخصص يفهم منها جذور المعنى كله.

وخذ إن شئت آية أخرى من كتاب الله مما يتعلق بمعنى يتطور مع امتداد الزمن، ثم اعرضها على مسامع الصدر الأول من المسلمين، فإنهم يفهمون منها المعنى المراد كما هو في طورهم وعصرهم، ثم اعرضها على مسامع من بعدهم فإنهم يفهمون معناها كما تطور في زمنهم، على أن كلا الفهمين من المدلولات القريبة للآية، وليس من قبيل التكلّف أو تحميل اللفظ ما لا يحمل، ولكن الفهم الثاني كان مطوياً عن السابقين لعدم وجود ما ينبههم إليه إذ ذاك.

وفي القرآن الكثير من هذا وذاك، فلنعرض أمثلة منه:

من القبيل الأول قوله تعالى:(**تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها** (**سِراجاً**) **وَقَمَراً** (**مُنِيراً**))، فهذه الآية تصف كلّا من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ولهما عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون المتخصصون والآية تحمل بصياغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى، فتعطي كلّا حسب طاقته وفهمه دون أن يكون أيّ تعارض بينهما.

فالعاميّ من العرب يفهم منها أن كلّا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وإنما غاير في التعبير بالنسبة لكلّ منهما، تنويعاً للفظ. وهو معنى صحيح تدل عليه الآية. والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدلّ على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سمّاها سراجا، والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه؛ وهو أيضا معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة. أما الباحث المتخصص في شئون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبّهها بالسراج بالنسبة له؛ وهو أيضا معنى صحيح تدل الآية عليه بلغتها وصياغتها، فأنت تقول: غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من سراج في وسطها، ولا تقول قبس منير، إذ ينبعث النور من حقيقته وداخله، بل تقول قبس مضيء.

وأكمل -أنا الكاتب- التوضيح ونقول: اللمبة مضيئة- مصدر الضوء-، أما جدران الحجرة التى تعكس الضوء فنقول عنها إنها(منيرة).. وهذه اللمبة تمثل

الشمس، والجدران العاكسة هى القمر- كما نعلم ذلك فلكياً- فكان تسمية الشمس بالضياء والقمر بالنور- ولم يقل الشمس نور والقمر نور- ليس ذلك من باب تنوع الأسلوب البيانى وأنهما- النور والضياء- بمعنى واحد(كما تصوره العربى القديم) ولكن ذلك التغيير فى الأسلوب- الالتفات- جاء لحكمة أشار إليها علم الفلك من أن الشمس هى مصدر الضوء فقال عنها(جعل الشمس ضياء) وأن القمر جسم مظلم يعكس الضوء فقط فقال عنه(والقمر نورا).. وكذلك قوله عن الشمس سراجاً وهاجاً ولم يقل ذلك عن القمر ذلك لهذا المعنى)

فالآية تتضمن هذه الدلالات الثلاث جملة واحدة، ولكنها- بأسلوبها العجيب- لا تخاطب الناس إلا بما يدركونه منها، كلّا حسب استعداده وطاقته الفكرية، وبذلك تكون الآية خطابا مفيدا لأضراب الناس كلهم.

****

﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤)** ﴾ القمر.

وكان حقها أن تكون (وأنهار)

وهنا نقف وقفة تجميعية مع الدكتور فاضل السامرائى:

وسأل سائل: لمَ وحَّد تعالى: (النهر) في هذه الآية ولم يجمعه مع أن الجنات قبله جمع بخلاف المواضع الأخرى من القرآن الكريم، فإنه إذا جمع الجنة، جمع النهر أيضاً فيقول: ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾

والجواب: أنه جمع في لفظ (النهر) عدة معان وأعطى أكثر من فائدة لا يفيدها فيما لو قال: (أنهار)، ذلك أنه علاوة على أن فواصل الآيات، تقتضي (النهر) لا (الأنهار) لأن آيات السورة على هذا الوزن فقد جاء قبلها: ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣)** ﴾ وجاء بعدها: ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)** ﴾ فإن المعنى أيضاً يأتى من جهات أخرى منها:

(١) أن النهر اسم جنس بمعنى الأنهار، وهو بمعنى الجمع والكثرة، ومنه قوله(ﷺ):أهلك الناس الدينار والدرهم، والمراد بالدينار والدرهم الجنس لا الواحد.

(٢) ومنها: أن معاني (النهر) أيضاً السعة، والسعة ههنا عامة تشمل سعة المنازل وسعة الرزق والمعيشة، وكل ما يقتضي تمام السعادة السعة فيه. جاء في (البحر المحيط): "ونهر: وسعة في الأرزاق والمنازل" . وجاء في (روح المعاني): "وعن ابن عباس تفسيره بالسعة والمراد بالسعة سعة المنازل على ما هو الظاهر، وقيل: سعة الرزق والمعيشة، وقيل: ما يعمهما".

(٣) ومنها: أن من معاني (النهر) أيضاً الضياء .

جاء في (لسان العرب): "وأما قوله ـ عز وجل ـ ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**﴾ فقد يجوز أن يعني به السعة والضياء، وأن يعني به النهر الذي هو مجرى الماء، على وضع الواحد موضع الجميع... وقيل في قوله: (جنات ونهر) أي: في ضياء وسعة، لأن الجنة ليس فيها ليل، إنما هو نور يتلألأ" .

وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة، فإن المتقين في جنات وأنهار كثيرة جارية، وفي سعة من العيش والرزق والسكن وعموم ما يقتضي السعة، وفي ضياء ونور يتلألأ ليس عندهم ليل ولا ظلمة.

فانظر كيف جمعت هذه الكلمة هذه المعاني كلها، إضافة إلى ما تقتضيه موسيقى فواصل الآيات بخلاف ما لو قال (أنهار)، فإنها لا تعني إلا شيئاً واحداً.

ثم انظر كيف أنه لما كان المذكورون هم من خواص المؤمنين، وهم المتقون وليسوا عموم المؤمنين أعلى أجرهم ودرجتهم، فقال: (ونهر) ولم يقل: (وأنهار)، ولما أعلى أجرهم ودرجتهم وبالغ في إنعامهم وإكرامهم جاء بالصفة والموصوف بما يدل على المبالغة فقال: (عند مليك مقتدر) ولم يقل: (ملك قادر) فإن (مليك) أبلغ من (ملك) و(مقتدر) أبلغ من (قادر) فإن كلمة (مليك) على صيغة (فعيل) وهي أبلغ واثبت من صيغة (فعل) .

جاء في (روح المعاني): "عند مليك، أي: ملك عظيم الملك، وهو صيغة مبالغة، وليست الياء من الإشباع" .

ولما جاء بالصيغة الدالة على الثبوت، قال: (في مقعد صدق) "ذلك لأن هذا المقعد ثابت لا يزول، فهو وحده مقعد الصدق، وكل المقاعد الأخرى كاذبة، لأنها تزول إما بزوال الملك صاحبه، وإما بزوال القعيد، وإما بطرده، وهذا المقعد وحده الذي لا يزول، وقد يفيد أيضاً أنه المقعد الذي صدقوا في الخبر به".

والآن مع بعض النماذج من بعض السور الكريمة

أرجو من القارىء أن يتأمل الالتفاتات العديدة التى سنشير إليها والخاصة باسم الله تعالى التى تتغير بين الألوهية (الله) أو الربوبية (ربى ، ربك) وبين صيغة الغائب (هو) أو (الله) وبين الحاضر سواء كان مفرداً أو جمعاً (إنى أو إنا أو نحن) أو ما يشير لهذه الضمائر، وكذلك فى الضمائر الخاصة بالمخاطبين (هم ، أنت ، أنتم) وغيرها من أنواع الالتفاتات الأخرى كاستخدام الفعل الماضى مرة ثم المضارع أو الأمر، ومن وضع الضمير الظاهر مكان المضمر.. وغيرها من الأساليب التى عشناها على الصفحات الماضية فى سردنا لبعض الآيات الموضحة والمفسرة لذلك.

والآن نعيش ذلك من خلال استصحاب سور كاملة أردنا أن نعيشها لبيان الترابط والجمال والكمال فى النظم القرآنى فى خلال السورة كاملة (وسنشير لموضع ذلك باستخدام الأقواس أو الخط تحت الكلمة المراد الوقوف عليها) ويصاحبنا دائماً السؤال: متى حدث ذلك؟ وكيف؟ ولماذا؟

****

﴿ الر كِتَابٌ **أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** إِلَى صِرَاطِ **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** (١) **اللَّهِ الَّذِي** لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ **(٢)**.. ﴾

ويقول الإمام أبو السعود: وأضيف إلى ضميرهم اسمُ الربِّ (بإذن ربهم) **المفصحِ عن التربية التي هي عبارةٌ عن تبليغُ الشيءِ إلى كماله المتوجّه إليه** ، وشمولُ الإذن بهذا المعنى للكل واضحٌ – بإذن ربهم– وعليه يدور كونُ الإنزال لإخراجهم جميعاً.

ويقول الألوسى: وفي إسناد (الإنزال) إلى ضمير العظمة (أنزلنا) ومخاطبته عليه الصلاة والسلام (أنزلنا إليك) مع إسناد (الإخراج) إليه (ﷺ) في قوله سبحانه: **لِتُخْرِجَ** – أنت– النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّور. ما لا يخفى من التفخيم والتعظيم (يقصد التفخيم لله فى الأولى(أنزلنا) والتفخيم أيضاً لرسوله (ﷺ) فى الثانية– لتخرج–)...

وسيقف الإمام على مقارنة لطيفة بين السياقين بقوله:

والْكَلَامُ عَلَى تَرْكِيبِ ﴿ **الر كِتابٌ (أَنْزَلْناهُ) إِلَيْكَ** ﴾ كَالْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ **المص كِتابٌ (أُنْزِلَ) إِلَيْكَ** ﴾ (سُورَة الْأَعْرَاف: ١– ٢)

ويقول الإمام الطاهر إن الْكَلَامُ عَلَى تَرْكِيبِ (**الر كِتابٌ (أَنْزَلْناهُ) إِلَيْكَ**) كَالْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعالَى: **المص كِتابٌ (أُنْزِلَ) إِلَيْكَ** [سُورَة الْأَعْرَاف: ١– ٢] عدا أَن هَذِهِ الْآيَةِ ذُكِرَ فِيهَا فَاعِلُ الْإِنْزَال– أَنْزَلْناهُ– وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنْ مَادَّةِ الْإِنْزَال الْمُشْعِرَةِ بِأَنَّهُ وَارِدٌ مِنْ قِبَلِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ، فَلِلْعِلْمِ بِمَنْزِلَةِ حَذْفِ الْفَاعِلِ فِي آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ(أُنْزِلَ)، وَهُوَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ والإيجاز، وَلكنه ذكر هُنَا–أَنْزَلْنَاهُ– **لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ الِامْتِنَانِ عَلَى النَّاسِ** الْمُسْتَفَادِ مِنَ التَّعْلِيلِ بِقَوْلِهِ: لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ

إِلَى النُّورِ(فهى منة عظمى)، وَمِنْ ذِكْرِ صِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ بِقَوْلِهِ: بِإِذْنِ رَبِّهِمْ..فلذلك ذكر فاعل هذا الإنزال وأظهره-أَنْزَلْنَاهُ-)انتهى.

(وأقول) مضيفاً لقول الإمام: لذلك ناسبه التركيز على القرآن الكريم وربطه بمصدره العلوى (أنزلناه) وناسبه الإخراج من الظلمات إلى النور، وذلك الامتنان والإنزال والنور يناسبه أيضاً المبنى **للمعلوم** وليس (المجهول) ويناسبه أيضاً ربط هذا النور بمصدره رباطاً واضحاً(أنزلناه)).

ونعود للإمام ليكمل لنا القول: بِخِلَافِ آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ فَإِنَّهَا فِي مَقَامِ الطمأنة والتصبير للنبيء(ﷺ) الْمُنَزَّلِ إِلَيْهِ الْكِتَابُ، فَكَانَ التَّعَرُّضُ لِذِكْرِ الْمُنْزِلِ إِلَيْهِ وَالِاقْتِصَارِ عَلَيْهِ أَهَمَّ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قَضَاءِ حَقِّ الْإِيجَازِ.

﴿ **المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)** ﴾ الأعراف

﴿ **الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)** ﴾ إبراهيم.

أَمَّا التَّعَرُّضُ لِلْمُنَزَّلِ إِلَيْهِ (محمد(ﷺ))-(**الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ**)- هُنَا فَلِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ(ﷺ)- **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** -، وَلِيَجْعَلَ لَهُ حَظٌّ فِي هَذِهِ الْمِنَّةِ وَهُوَ حَظُّ الْوَسَاطَةِ (ﷺ) ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ غَمِّ المعاندين والمبغضين للنبيء (ﷺ).

وَلِأَجْلِ هَذَا الْمَقْصِدِ وَقَعَ إِظْهَارُ صِفَاتِ فَاعِلِ الْإِنْزَالِ- الله- ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي قَوْلِهِ: **بِإِذْنِ** (**رَبِّهِمْ**) **إِلَى صِراطِ** (**الْعَزِيزِ**) (**الْحَمِيدِ**) بَعْدَ أَنْ كَانَ الْمَقَامُ لِلْإِضْمَارِ تَبَعًا لِقَوْلِهِ: أَنْزَلْناهُ.

وَإِسْنَادُ الْإِخْرَاجِ إِلَى النَّبِيءِ(ﷺ) (لتخرج) لِأَنَّهُ يُبَلِّغُ هَذَا (الْكِتَابَ) الْمُشْتَمِلَ عَلَى تَبْيِينِ طُرُقِ الْهِدَايَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَإِظْهَارِ فَسَادِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ- **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** -(فأنت تخرج والكتاب يخرج)-، وَهُوَ مَعَ التَّبْلِيغِ (يُبَيِّنُ) لِلنَّاسِ

وَيُقَرِّبُ إِلَيْهِمْ مَعَانِيَ الْكِتَابِ بِتَفْسِيرِهِ وَتَبْيِينِهِ، ثُمَّ بِمَا يَبْنِيهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالنُّذُرِ وَالْبِشَارَةِ. وَإِذْ قَدْ أُسْنِدَ الْإِخْرَاجُ إِلَيْهِ فِي سِيَاقِ تَعْلِيلِ إِنْزَالِ الْكِتَابِ إِلَيْهِ عُلِمَ أَنَّ إِخْرَاجَهُ إِيَّاهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ بِسَبَبِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ- الذى أنزلناه-، أَيْ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِي الْهِدَايَةِ.

وَتَعْلِيلُ الْإِنْزَالِ بِالْإِخْرَاجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْهِدَايَةَ هِيَ (مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى) مِنَ النَّاسِ.

وأقول : لعل هذا هو السبب فى العدول إلى لفظ (ربهم) و(أنزلناه)

وَلَمَّا كَانَ الْإِرْسَالُ لِمَصْلَحَتِهِمْ أُضِيفَ الْإِذْنُ إِلَى وَصْفِ الرَّبِّ الْمُضَافِ إِلَى ضَمِيرِ النَّاسِ، أَيْ بِإِذْنِ الَّذِي يُدَبِّرُ مَصَالِحَهُمْ.

(**إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** (١) (**اللَّهِ**)) ويقول الإمام الطاهر: **فَإِنَّ اسْمَ الْجَلَالَةِ أَعْظَمُ مِنْ بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ لِأَنَّهُ عِلْمُ الذَّاتِ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ مَوْجُودٌ فِي إِطْلَاقِهِ وَلَا فِي مَعْنَاهُ الْأَصْلِيِّ الْمَنْقُولِ مِنْهُ إِلَى الْعلمِيَّةِ إِلَّا أَنَّ الرَّفْعَ أَقْوَى وَأَفْخَمُ** (يقصد رفع لفظ الجلالة (**الله**) على الابتداء به، رغم أنه يأتى كبدل لقوله (إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ **الْحَمِيدِ** (١) (**اللَّهِ**))حيث قرىء(**اللهُ**) على الرفع للابتداء.، أما قراءة المصحف لدينا فهى مجرورة على البدل من(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).

وَقَرَأَهُ رُوَيْسٌ عَنْ يَعْقُوبَ- بِالرَّفْعِ- إِذَا وُقِفَ عَلَى قَوْلِهِ: الْحَمِيدِ وَابْتُدِئَ بَاسِمِ اللَّهِ (**اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**)، فَإِذَا وُصِلَ الْحَمِيدِ بَاسِمِ اللَّهِ جُرَّ اسْمُ الْجَلَالَةِ عَلَى الْبَدَلِيَّةِ.

وأقول: كلام الإمام هذا يذكرنا بالإتيان بالرفع قبل لفظ الجلالة (الله) لتفخيمه فى قوله تعالى (**وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ** .. (**١٠**)) حيث جاءت (عَلَيْهُ) بالرفع – على اللغة الغير مشهورة لبعض القبائل العربية–حيث لم تأت على اللغة المشهورة بالجر – أى:(عَلَيْهِ)– وذلك لتفخيم العهد مع الله الذى يناسبه تفخيم لفظ

الجلالة – فلو أتت(عَلَيْهِ) مكسورة قبل لفظ الجلالة فلن يُفخم لفظ الجلالة إذن، ولذلك أتى بالرفع قبلها(عَلَيْهُ) لتفخيم لفظ الجلالة المطلوب فى هذا السياق

ونعود للإمام الطاهر ليكمل لنا القول: وَإِجْرَاءُ الْوَصْفِ بِالْمَوْصُولِ عَلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ- أى ذكر اسم الجلالة (الله) رغم أن السياق كان يمكن أن يسير بدون ذكره هكذا (**إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** (١) .. **الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**) ولكنه ورد ذكر (الله) لِزِيَادَةِ التَّفْخِيمِ لَا لِلتَّعْرِيفِ، لِأَنَّ مَلِكَ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ صِفَةٌ عَظِيمَةٌ وَ(اللَّهُ) مَعْرُوفٌ بِهَا عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ صِرَاطَ غَيْرِ اللَّهِ مِنْ طُرُقِ آلِهَتِهِمْ لَيْسَ يواصِلِ إِلَى الْمَقْصُودِ لِنُقْصَانِ ذَوِيهِ. وَفِي ذِكْرِ هَذِهِ الصِّلَةِ (اللهِ الذى له) إِدْمَاجُ تَعْرِيضٍ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَا لَيْسَ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

(وأقول: كل ما ذكرناه من هذا النقل مدعوماً بشرحنا له هو من أساليب الالتفات، وهو فى التحول الإعرابى)؟

(وأرى أن الجرس الصوتى المنفتح لأعلى فى قوله(الر) يناسبه لفظ الانفتاح والظهور فى قوله(أنزلناه)... وعكس ذلك من الانغلاق والضم فى جرس حروف (المص) فناسبه صيغة المبنى للمجهول(أُنزل).

مع ملاحظة (أنزلناه) – بصفاتها المذكورة وإضافة ضمير الجمع (أنزل ناه)–جاء مع الوصف (**لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**).. أما الصيغة الثانية (المص)- بالصفات المذكورة-(فجاء بعدها القول المناسب لهذا الضيق والانغلاق الصوتى (**المص** (١) **كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ** .. (**٢**)).

مع ملاحظة مناسبة ظل سورة إبراهيم – وهو جو انفتاح النعم- لهذا الانفتاح فى(ألر..أنزلناه).. وعكس ذلك فى سورة الأعراف التى ترسم صور الهلاك والإهلاك حتى فى الآية التالية لها (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)) فناسبها الانغلاق والجذب بقوة الذى نلاحظه فى جرس الحروف (المص، وأُنزِل) والكسر بدل الانفتاح.

****

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ (مِنْ رَبِّكُمْ) عَظِيمٌ (٦) ﴾

والسؤال هو: لماذا التفت إلى صفة الربوبية فى قوله (من ربكم) ولم يقل (وفى ذلكم بلاء منه)

(**بَلاء مِّن رَّبّكُمْ**) أي ابتلاء منه (تربية لحبيبه بالابتلاء لأنه هو المربى لهم) لا أن البلاء عينُ تلك الأفعال- لم يأت حباً من الله لمضايقته-، (عظِيمٌ) لا يطاق، ويجوز أن يكون المشارُ إليه الإنجاء من ذلك-أى ليس بالبلاء نفسه- والبلاءُ الابتلاءُ بالنعمة -فالأولى الابتلاء بالمحنة، والثانية الابتلاء بالنعمة- والابتلاء بالنعمة (النجاة) هو الأنسب كما يلوحُ به التعرضُ لوصف (الربوبية) -بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ - وعلى الأول (الابتلاء بالمحن) يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاءُ-أى ليشعروا بقيمة النعمة التى هى النجاة من الغرق ومن فرعون وعمله- أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربيةٌ له.

****

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾.

ويقول الإمام أبو السعود: الالتفاتُ من التكلم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل -بِأَيَّامِ اللَّهِ- للإيذان بفخامة شأنِها

ويوضح الإمام الطاهر ما يشير إليه لفظ الجلالة من الهيبة والجلال بقوله: وبِأَيَّام اللَّهِ أَيَّامَ ظُهُور بَطْشِهِ وَغَلْبِهِ مَنْ عَصَوْا أَمْرَهُ، وَتَأْيِيدِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ عِزَّةِ اللَّهِ تَعَالَى... فَأَيَّامُ اللَّهِ أَيَّامُ ظُهُور قُدْرَتِهِ وَإِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ بِهِ وَنَصْرِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَالْمُطِيعِينَ لَهُ. (وكل ذلك من أسباب الالتفات إلى الاسم الجليل (الله).

****

﴿ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ** -أنتم- **وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا** – هم- **لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)** ﴾ خطاب(يذهبكم) غيبة (وبرزوا) .. فقد غيبهم فى مشهد القيامة والغيب وليشهدنا على هذه المحاورة المذكورة فى السياق.

يقول الإمام أبو السعود: (**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا**) أي (يبرُزون) يوم القيامة وإيثارُ صيغةِ الماضي للدَلالة على تحقيق وقوعِه – أى لابد وحتماً أن يبرزوا–كما في قوله سبحانه:(**وَنَادَى** أصحاب الجنة أصحاب النار) أو لأنه لا مُضِيَّ ولا استقبالَ بالنسبة إليه سبحانه، والمرادُ بروزُهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته، أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحشَ سراً أنها تخفى على الله سبحانه فإذا كانَ يومُ القيامةِ انكشفوا الله عند أنفسِهم.

****

﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ (مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ) وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)** ﴾ والالتفاتُ من الخطاب- وما يخفى عليك- إلى اسم الذاتِ- وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ- المستجمعةِ للصفات لتربية المهابةِ والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ على نهج قوله تعالَى (**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**)

(**وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**) والإيذانِ بعمومه(من شىء) لأنه ليس بشأن يُختص به أو بمن يتعلق به بل شاملٌ لجميع الأشياء،فالمناسبُ ذكرُه تعالى بعنوان مصحِّحٍ لمبدإِ الكلّ – الله-.(لأن اسم الله هو الاسم الجامع لكل صفات الجلال والجمالِ وكل الأسماء الحسنى، وهو مناسب لعموم علم الله لكل شىء)

وقيلَ هُو مِنْ كلامِ الله عز وجل وارد **بطريق الاعتراض** لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يَفْعَلُونَ

ولتؤخذ على أنها مثلٌ يضرب نقولها ونرددها(**وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**) ، ولو قال: (وما يخفى عليه أو عليك من شيء) لاتصلح لتكون مثلاً- مستقلاً- يضرب.

****

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾

وهنا يوقفنا الإمام أبو السعود وقفة لطيفة مع الالتفات العجيب فى دعاء إبراهيم عليه السلام لربه حيث يقول مرة (رب) ومرة أخرى (ربنا) ويوقفنا على غوامض ولطائف جميلة أحببت أن أنقلها للقارىء الكريم لإعجابى بها فى قوله:

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي** (وَهَبَ لِي) **عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**(٣٩) ﴾

عودة للالتفات لصفة الربوبية (**إِنَّ رَبِّي**) **ولم يقل (إنه)**، وتوحيدُ ضمير المتكلم (**رَبِّي**) وإن كان عَقيبَ ذكر هبتهما- إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ- وكان حقها أن تكون (إن ربنا)- لما أن نعمةَ الهبةِ فائضةٌ عليه خاصة، وهما - إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ- من النعم لا من المنعَم عليهم-.

يقول الإمام : (**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ**) وتوحيدُ ضمير المتكلم- وكان حقها(ربنا)- مع شمول دعوتِه لذريتِه أيضاً حيث قال (وَمِن ذُرِّيَتِى) أي بعضِهم من المذكورين ومن يسير سيرتَهما من أولادهما – وذلك الإفراد رغم ذلك (**رَبِّ اجْعَلْنِي**) للإشعار بأنه المقتدى في ذلك، (فقال(**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ**)) وهم

يقتدون بى فى إقامة الدين والصلاة- وذرّيتُه أتباعٌ له، وإن ذكَرهم بطريق الاستطراد- أى التبع له فى ذلك الأمر وهو الإمام والمبلغ- لا كما في قوله (**رَّبَّنَا**) **إِنِّى** (**أَسْكَنتُ**) الخ فإن إسكانَه مع عدم تحققِه بلا ملابسةٍ لمن أسكنه – أى إسكانه لذريته فى مكان غير متحقق فيه الزرع والأمن لا يخصه وحده بل يخص أهله وذريته بلا شك، إنما هو مذكورٌ بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوصٌ بذريته- الذين سيكنون الواد بغير ذى ذرع-ولذلك قال فيها(ربنا)-.

وإنما خَصّ هذا الدعاءَ ببعض ذريته-قال: (من) ذريتى- لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضاً منهم -(من) ذريتى- لا يكون مقيمَ الصلاة ،كقوله تعالى (**رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ** (**وَمِن**) **ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**)

(**رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء**) أي دعائيَ هذا المتعلِّقَ بجعلي وجعلِ بعض ذرّيتي مقيمي الصلاةِ ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنامِ، ولذلك جيء بضمير الجماعة(**رَبَّنَا**)

وأرى أن الرسم القرآنى جاء على هذه الصورة((**رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء**) ولم يقل (دعائى) ليشمل دعاءه بهذه الدعوة وغيرها من الدعوات، وكذلك دعاءه ودعاء غيره من ذريته أو غيرهم، فحذف الياء فى (دعاء) أعطى هذا الشمول وناسب عموم الدعاء (ربنا) بالجمع.وكذلك قوله:

((**رَبَّنَا**)) **اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** (**٤١**) فهو يطلب الغفران للجميع وليس لنفسه فقط فقال (**ربنا**)؛ فحينما كان الدعاء يخص إمامته الدينية لهم قال(رب) وحينما كان الدعاء يخص إسكان ذريته بواد مهلك أو علم كل شيء- يخصنى ويخص غيرى- أو طلب المغفرة فإنه يأت بصيغة الجمع (ربنا).

****

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ – هم- **فَتَمَتَّعُوا**-أنتم- **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** -أنتم- (**٥٥**) **وَيَجْعَلُونَ**– هم – **لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** – هم- **تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ** -أنتم- **عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ** -أنتم- (**٥٦**) ﴾ النحل.

يقول الإمام أبو السعود: **{فَتَمَتَّعُواْ}** أمرُ تهديد والالتفاتُ إلى الخطابِ للإيذانِ بتناهي السخط، وهكذا باقى الالتفاتات مثل (**تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ**).

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي (بُطُونِهِ) مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) (وَمِنْ (ثَمَرَاتِ) النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ (مِنْهُ) سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾

وقد عشنا ذلك فى باب التذكير والتأنيث(**مِمَّا فِي (بُطُونِهِ)** و (**تَتَّخِذُونَ (مِنْهُ)**)).

(**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ ..وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** (٦٨) ولاحظ الالتفات بين (نسقيكم).. (وأوحى ربك) ولم يقل (وأوحينا) (**ثُمَّ كُلِي** – أنت- **مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا** – أنت- **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا**- هى- **شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٦٩)).

ويقول أبو السعود والألوسى:- **{يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا}** استئناف عُدل به عن خطاب النحلِ لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنعِ الله تعالى التي هي موضعُ العبرة بعد ما أُمِرتْ بما أمرتْ (وأقول): يقصد الإمام أن النظم قد التفت من خطاب النحل المباشر (كلى واسلكى) إلى الخطاب عنها (يخرج من بطونها) ليحكى لنا أمرها العجيب فى خروج هذا العسل العجيب- أو الشراب العجيب- من بطونه.

ويقول الإمام الطاهر: وَجِيءَ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (**يَخْرُجُ**) لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ الْخُرُوجِ وَتَكَرُّرِهِ.(١)

وهذه الالتفات الواضحة بين الأقواس التى لا تحتاج سوى قليل من التأمل وإعادة النظر ومحاولة قراءة النص مرة ثانية بدون هذه الالتفات هكذا (**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي** – يقرأها: أن تتخذ- **مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** (٦٨) **ثُمَّ كُلِي** – ثم تأكل- **مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا** – ثم تسلك سبل ربها ذللا- **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٦٩) ﴾

وأسأل القارىء الكريم بعد قيامه بهذه المحاولة كم سيُفْقِد النص من الحرارة والحيوية، بل إننى لا أجد سوى القول بأن هذا القول أشبه بجثة إنسان ميت، والنظم القرآن جسم نابض بالحياة والحركة والرشاقة والجمال- الروحى والتصويرى-.

** ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)) ﴾. فهذا الالتفات من الحضور (لكم) إلى الغيبة (هم) واضحة على نفس المثال السابق والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باستيجاب حالِهم للإعراض عنهم وصرفِ الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيباً لهم مما فعلوه.

(**فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (٧٤)).

{ **فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ** } التفاتٌ إلى الخطاب بعد الغيبة (**أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ (هُمْ) يَكْفُرُونَ**) (**فَلَا تَضْرِبُوا**- أنتم- **لِلَّهِ الْأَمْثَالَ**). للإيذان بالاهتمام بشأن النهي أي لا تشركوا به شيئاً

---

(١) ويضيف الإمام الألوسى: فَافْتُتِحَتِ الْجُمْلَةُ بِفِعْلِ أَوْحَى- فى قوله: وأوحى ربك، – دُونَ أَنْ تُفْتَتَحَ بِاسْمِ الْجَلَالَةِ – حيث لم يقل (ربك أوحى) أو (والله أوحى)مِثْلُ جُمْلَةِ (وَاللَّهُ أَنْزَلَ) (سُورَةَ النَّحْلِ: ٦٥) ، لِمَا فِي (أَوْحى) مِنَ الْإِيمَاءِ إِلَى إِلْهَامِ تِلْكَ الْحَشَرَةِ الضَّعِيفَةِ – النحلة- تَدْبِيرًا عَجِيبًا وَعَمَلًا مُتْقَنًا وَهَنْدَسَةً فِي الْجِبِلَّةِ. فَكَانَ ذَلِكَ الْإِلْهَامُ – الوحى- فِي ذَاتِهِ دَلِيلًا عَلَى عَظِيمِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَضْلًا عَلَى مَا بَعْدَهُ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنَّةً مِنْهُ.فقدمه – أى الوحى- فى السياق فقال (وأوحى ربك إلى النحل).

وقفة لطيفة:

ويضيف الإمام الألوسى لطيفة أخرى بقوله: بقي أنه وقع في [العنكبوت: ٦٧] ﴿ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ** ﴾ بدون ضمير، ووقع هنا ما سمعت بالضمير فى قوله (**وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ** ((**هم**)) **يَكْفُرُونَ**) ، وبيَّن الخفاجي سر ذلك بأنه لما سبق في هذه السورة قوله تعالى: (**أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**) أي يكفرون- كما مر- فلو ذكر ما نحن فيه بدون الضمير(هم)- كأن يقول: **وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**- لكانت الآية تكرارا بحسب الظاهر، فأتى بالضمير الدال على المبالغة والتأكيد (**وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ** ((**هم**)) **يَكْفُرُونَ**) ليكون ترقياً في الذم بعيداً عن اللغوية.

وقيل: آيات العنكبوت استمرت على الغيبة هكذا : ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)** ﴾ فلم يحتج إلى زيادة ضمير الغائب –هم–.

وأما الآية التي نحن فيها فقد سبق قبلها مخاطبات كثيرة – أى حدث التفاتات لصيغة الحضور والمواجهة كما ذكرنا- ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ**

شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ** ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) **وَاللَّهُ** فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ **أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** (٧١) **وَاللَّهُ** جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ **وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ** (**هُمْ**) **يَكْفُرُونَ** (٧٢) ﴾

فنظراً لتغير الضمائر من الغيبة والحضور فى السياقات المحيطة بالآية فلم يكن بد من وجود ضمير الغائب المؤكد (**وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ (هُمْ) يَكْفُرُونَ**) لئلا يلتبس بالخطاب.

**** ﴿ وَاللَّهُ **جَعَلَ لَكُمْ** مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) **فَإِنْ تَوَلَّوْا** فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) ﴾**

فخاطبهم بصيغة الغائب (فَإِنْ تَوَلَّوْا) بعد خطاب الحضور (جَعَلَ لَكُمْ) لأجل التشنيع عليهم وحكاية حالهم لنا للتعجب والإنكار من توليهم هذا.

**** ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ **زِدْنَاهُمْ** عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)) ﴾**.من غيبة (الله) لتكلم (زدناهم).

**** ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ (يَتَوَلَّوْنَهُ) وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ (مُشْرِكُونَ) (١٠٠) ﴾** عطف جملة إسمية على فعلية.

يقول الإمام **الطاهر:** عَبَّرَ بِالْمُضَارِعِ (**يَتَوَلَّوْنَهُ**) لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ التَّوَلِّي، أَيِ الَّذِينَ يُجَدِّدُونَ تَوَلِّيهِ، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ كُلَّمَا تَوَلَّوْهُ -أى الشيطان- بِالْمَيْلِ إِلَى طَاعَتِهِ تَمَكَّنَ مِنْهُمْ سُلْطَانُهُ، وَأَنَّهُ إِذَا انْقَطَعَ التَّوَلِّي بالإقلاع أَوْ بِالتَّوْبَةِ انْسَلَخَ سُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ.

وَجُعِلَتِ الصِّلَةُ -**وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ**- جُمْلَةً اسْمِيَّةً لِدَلَالَتِهَا عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ، لِأَنَّ الْإِشْرَاكَ صِفَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لِأَنَّ قَرَارَهَا الْقَلْبُ، بِخِلَافِ الْمَعَاصِي لِأَنَّ

مَظَاهِرَهَا الْجَوَارِحُ، لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ سُلْطَانَ الشَّيْطَانِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَشُدُّ وَأَدْوَمُ لِأَنَّ سَبَبَهُ ثَابِتٌ وَدَائِمٌ.

نماذج من سورة الإسراء

وأرجو من القارىء أن يلاحظ الالتفات فى ضمير رب العزة من ناحية، وضمير المخاطبين من ناحية أخرى والإظهار فى مقام الإضمار هكذا:

﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ** مِنْ آيَاتِنَا **إِنَّهُ هُوَ** السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾

وقد عشنا هذه الالتفاتات الجميلة لهذه الآية الكريمة على الصفحات الماضية فليراجعها القارىء الكريم

** ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)** ﴾ ويقول الإمام الطاهر: وَجُمْلَةُ (**وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً**) إِقْبَالٌ عَلَى خطاب (ﷺ) بِالْخُصُوصِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا سَبَقَ مِنَ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ- فى الآيات السابقة (من حديث الإسراء والمعراج)- إِنَّمَا مَآلُهُ إِلَى حَمْلِ النَّاسِ عَلَى تَصْدِيقِ (ﷺ) فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ أَنْ لَجُّوا فِي الْكُفْرِ وَتَفَنَّنُوا فِي التَّكْذِيبِ، فَلَا جَرَمَ خَتَمَ ذَلِكَ بِتَطْمِينِ النَّبِيءِ بِأَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى ذُنُوبِ الْقَوْمِ.

** ﴿ **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** (٨) ﴾ بالإضافة إلى الإفراد وصيغة الربوبية فى (ربكم) ثم الجمع (عدنا وجعلنا) نجد نوعاً آخر من الالتفات وهو الإظهار (للكافرين) فى مقام الإضمار، وفي ذلك يقول الإمام أبو السعود: وإنما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنمَّ (لكم)- إلى (**وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ**) تسجيلاً على كفرهم بالعَود وذماً لهم بذلك وإشعار بعلة الحكم.

** ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)** ﴾. والتعرضُ لصفة الربوبيةِ- مِنْ رَبِّكُمْ- المنبئةِ عن التبليغِ إلى الكمالِ شيئاً فشيئاً

دلالةٌ على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطلبِ من الرب – ربهم– وإنما الإعطاءُ إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوبِ عليه بل تفضلاً بحكم الربوبية.

﴿ **كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)** ﴾
﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)** ﴾

فَجُمْلَةُ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تَكْمِلَةً لِتَوْبِيخِ الشَّيْطَان، فَيَكُونُ كَافُ الْخِطَابِ **ضَمِيرَ الشَّيْطَان** تَسْجِيلًا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مُعْتَرِضَةً فِي آخِرِ الْكَلَامِ فَتَكُونُ كَافُ الْخِطَابِ **ضمير النبيء** (ﷺ) تَقْرِيبًا لِلنَّبِيءِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى ضَمِيرِ اللَّهِ. وَمَآلُ الْمَعْنَى عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَاحِدٌ وَإِن اخْتلف الِاعْتِبَار.إضافة إلى إبراز صفة الربوبية –**وَكَفَى بِرَبِّكَ**–.

ومثلها: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ (٣١) ﴾.

** ﴿ **رَبُّكُمْ**– مفرد للرب وجمع للمخاطبين– **أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ** – جمع لذات الله (نا) ثم الخطاب لمحمد(ﷺ)– **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) (وَرَبُّكَ) أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)** ﴾.

وَتَغْيِيرُ أُسْلُوبِ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بَعْدَ قَوْلِهِ: **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ** (الْإِسْرَاء: ٥٤) إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَائِدٌ إِلَى شَأْن من شؤون النَّبِيءِ (ﷺ) الَّتِي لَهَا مَزِيدُ اخْتِصَاصٍ بِهِ، تَقْفِيَةً عَلَى إِبْطَالِ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِين فِي شؤون الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، بِإِبْطَالِ أَقْوَالِهِمْ فِي أَحْوَالِ النَّبِي. ذَلِكَ أَن الْمُشْرِكين لم يقبلُوا دَعْوَةَ النَّبِيءِ بِغُرُورِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُظَمَاءِ أَهْلِ بِلَادِهِمْ وَقَادَتِهِمْ، وَقَالُوا: أَبَعَثَ اللَّهُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ رَسُولًا، أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا، فَأَبْكَتَهُمُ اللَّهُ بِهَذَا الرَّدِّ بِقَوْلِهِ: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ الْعَالِمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.

وَكَانَ قَوْلُهُ: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كَالْمُقَدِّمَةِ لِقَوْلِهِ: وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيئِينَ الْآيَةَ. أَعَادَ تَذْكِيرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ أعلم مِنْهُم بالمستأهل لِلرِّسَالَةِ بِحَسَبِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْقَابِلَةِ لِذَلِكَ.

﴿ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥)** ﴾

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا**- "نحن" جمع وحضور- **لَكَ إِنَّ رَبَّكَ** — ﴾ "هو"مفرد غائب مع الالتفات إلى ربوبيته له (**وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ**) هَذِهِ تَسْلِيَةٌ للنبيء (ﷺ) عَلَى حُزْنِهِ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِهِ إِيَّاهُ وَقَدْ أَوْمَأَ جَعْلُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ لَفْظَ الرَّبِّ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الرَّسُول أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَسُوقٌ مَسَاقَ التَّكْرِمَةِ لِلنَّبِيءِ وَتَصْبِيرِهِ، وَأَنَّهُ بِمَحَلِّ عِنَايَةِ اللَّهِ بِهِ إِذْ هُوَ رَبُّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ قَالَ تَعَالَى: وَاصْبِرْ **لِحُكْمِ رَبِّكَ** فَإِنَّكَ **بِأَعْيُنِنا** [الطّور: ٤٨] .

﴿ **وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا**- عودة لصيغة الجمع والحضور- **الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)** ﴾ — وكان حقها أن تكون (وخوفناهم فما زادهم) عطفاً على (أريناك)- وَقَدِ اخْتِيرَ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ فِي (نُخَوِّفُهُمْ) و(يَزِيدُهُمْ) لِاقْتِضَائِهِ تَكَرُّرَ التَّخْوِيفِ وَتَجَدُّدَهُ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا تَجَدَّدَ التَّخْوِيفُ تَجَدَّدَ طُغْيَانُهُمْ وَعَظُمَ.

﴿ **وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)** ﴾ .. ولاحظ تغير الضمائر(بربك) و(ربكم) بهذه السرعة العجيبة.. (وَكَفَى بِرَبِّكَ) لوصفِ الربوبيةِ المُنْبئةِ عن المالكية المطلقة والتصرف الكلي مع الإضافة إلى ضمير إبليسَ للإشعار بكيفية كفايتِه تعالى لهم أعني سلْبَ قدرتِه على إغوائهم

﴿ **أَفَأَمِنْتُمْ** - أنتم- **أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ** — هو الله- **عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا تَبِيعًا** ﴾ - "نحن" بدل"هو"لأنه قال (يعيدكم) والإعادة للإغراق، وكلمة تبيعاً التى ستستدعى

وجود نون العظمة فى قوله (ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) **أي ثائراً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً منا ودَرْكاً للثأر من جهتنا كقوله سبحانه وَلاَ يخاف عقباها-.**

ويقف معنا الإمام الطاهر وقفة لطيفة وإشراقة جميلة يقول فيها: وَالْوَكِيلُ: الْمُوَكَّلُ إِلَيْهِ الْقِيَامُ بِمُهِمِّ مُوَكِّلِهِ، وَالْمُدَافِعُ عَنْ حَقِّ مُوَكِّلِهِ، أَيْ لَا تَجِدُوا لِأَنْفُسِكُمْ مَنْ يُجَادِلُنَا عَنْكُمْ أَوْ يُطَالِبُنَا بِمَا أَلْحَقْنَاهُ بِكُمْ مِنَ الْخَسْفِ أَوِ الْإِهْلَاكِ بِالْحَاصِبِ، أَيْ لَا تَجِدُوا مِنْ قَوْمِكُمْ وَأَوْلِيَائِكُمْ مَنْ يَثْأَرُ لَكُمْ كَشَأْنِ مَنْ يَلْحَقُهُ ضُرٌّ فِي قَوْمِهِ أَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ **وَيُطَالِبَ بِدَمِهِ أَوْلِيَاؤُهُ وَعِصَابَتُهُ**. وَهَذَا الْمَعْنَى **مُنَاسِبٌ لِمَا يَقَعُ فِي الْبَرِّ** مِنَ الْحَدَثَانِ...(وأقول مضيفاً: ومناسب أيضاً لذكر الوكالة التى تكون فى مثل تلك الأحوال- كالمحامى وغيره)

وَالتَّبِيعُ: مُبَالَغَةٌ فِي التَّابِعِ، أَيِ الْمُتَتَبِّعُ غَيْرَهُ الْمُطَالِبُ لِاقْتِضَاءِ شَيْءٍ مِنْهُ. أَيْ لَا تَجِدُوا مَنْ يَسْعَى إِلَيْهِ وَلَا مَنْ يُطَالِبُ لَكُمْ بِثَأْرٍ. وَوَصْفُ (تَبِيعٍ) يُنَاسِبُ حَالَ الضُّرِّ الَّذِي يَلْحَقُهُمْ فِي الْبَحْرِ، لِأَنَّ الْبَحْرَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ رِجَالُ قَبِيلَةِ الْقَوْمِ وَأَوْلِيَاؤُهُمْ، فَلَوْ رَامُوا الثَّأْرَ لَهُمْ لَرَكِبُوا الْبَحْرَ لِيُتَابِعُوا آثَارَ مَنْ أَلْحَقَ بِهِمْ ضُرًّا. فَلِذَلِكَ قِيلَ هُنَا تَبِيعاً وَقِيلَ فِي الَّتِي قَبْلَهَا وَكِيلًا كَمَا تَقَدَّمَ.

﴿ **فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا** (٦٩) **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا**- نحن- **بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** (٧٠) ﴾ (وأعتقد أن الجمع مناسب لظل تعداد النعم عليهم وتكريمهم، فتعظيم الله تعالى لتعظيم النعم وكذلك العظمة فى جمعهم يوم القيامة: **يَوْمَ نَدْعُو** - نحن- **كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** (**فَمَنْ أُوتِيَ**)- مفرد- **كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** (**فَأُولَئِكَ**)- جمع تكريمى لأهل الجنة- **يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** (٧١) **وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا** (٧٢) ولقد وقفنا عليها وقفة خاصة على الصفحات الماضية، ولكننا سنلاحظ تحول الخطاب إلى النبى محمد(ﷺ) هكذا: ﴿ **وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا** (٧٣) **وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** (٧٤) **إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ**

الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾ – هكذا يستمر الخطاب بصيغة الجمع التعظيمى لله تعالى بنون العظمة، وكأنه يقول له (لا تعتز إلا بنا)

وسيتحول بعدها إلى الإفراد ثم يعود للجمع هكذا:- ﴿ **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ**-(وكان حقها أن تكون " عسى أن نبعثك")- **مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ (رَبِّ) أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ (وَأَخْرِجْنِي) مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ (لَدُنْكَ) سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣)** ﴾ وفي إسناد المِساس إلى الشر(مسّه الشر) بعد إسنادِ الإنعامِ إلى ضمير الجلالةِ- وَإِذَا أَنْعَمْنَا- إيذانٌ بأن الخيرَ مرادٌ بالذات(أَنْعَمْنَا) والشرَّ ليس كذلك.. إضافة إلى ملحظ التأدب مع الله فى نسبة الخير إليه وعدم نسبة الشر إليه.

﴿ **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ (فَرَبُّكُمْ) أَعْلَمُ** – ولم يقل" فنحن أعلم"- **بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**- ولم يقل"من أمرنا" و(قُلِ الروح) أُظهر في مقام الإضمارِ إظهاراً لكمال الاعتناءِ بشأنه(الروح) وكان حقها أن تكون: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ... مِنْ أَمْرِ رَبِّي – **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا** – "نحن"- عودة لصيغة الجمع لذاته تعالى- **لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** – ولم يقل رحمة منا- **إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) .. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا (لِلنَّاسِ) فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ (النَّاسِ)**– ﴾ وكان حقها أن تكون "فأبى أكثرهم" فهو إظهار فى مقام الإضمار..وذلك للفت الانتباه إلى أن الناس يختلفون عن غيرهم من المخلوقات بالعقل والاختيار، والقرآن هو المعجزة العقلية بخلاف معجزات باقى

الأنبياء، ولذلك كرر وأظهر لفظ الناس لاستدعاء هذه المعانى فى ذاكرتهم فى هذا السياق (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا** لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ).

﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ **تَأْتِيَ بِاللَّهِ** وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ (**رَبِّي**) هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا **أَبَعَثَ** (**اللَّهُ**) بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ (**لَنَزَّلْنَا**) عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى (بِاللَّهِ)- ولم يقل "كفى بنا"- شَهِيدًا بَيْنِي -ولم يقل: بيننا- وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ **يَهْدِ** (**اللَّهُ**) فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ (دُونِهِ) (وَنَحْشُرُهُمْ)- وكان حقها أن تكون "وأحشرهم"- يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ (زِدْنَاهُمْ) سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا (**بِآيَاتِنَا**) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ((**اللَّهَ**)) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ- هو- لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ **رَحْمَةِ رَبِّي** إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠) وَلَقَدْ (آتَيْنَا) -جمع مرة ثانية- مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) .. (وَقُلْنَا) مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ **جِئْنَا بِكُمْ** لَفِيفًا (١٠٤) وَبِالْحَقِّ **أَنْزَلْنَاهُ** وَبِالْحَقِّ نَزَلَ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ** إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا (فَرَقْنَاهُ) لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ **وَنَزَّلْنَاهُ** تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ (رَبِّنَا) إِنْ كَانَ وَعْدُ (رَبِّنَا) لَمَفْعُولًا- وكان حقها أن تكون (إن كان وعده لمفعولا) فهو إظهار فى مقام الإضمار- (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ **ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا

تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) وكانت هذه هى نهاية السورة بلفظ الغيبة كما كانت فى بدايتها التى تتحدث عن رحلة الإسراء فى عالم الغيب،(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ فمحمد(ﷺ) عبده وهكذا كل من فى الوجود فليس له ولدٌ ولا شريك، وكما كررنا أن لفظ الغيبة جاء ليترتب عليه ذكر صفاته ودلائل توحيده.

****

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ (اللَّهِ)(وَهَبْنَا) لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا (جَعَلْنَا) نَبِيًّا (٤٩) (وَوَهَبْنَا) لَهُمْ مِنْ (رَحْمَتِنَا) (وَجَعَلْنَا) لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾ (غيبة تكلم غيبة، وجمع وإفراد)

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾

وصيغةُ الاستقبالِ(ننجى)و(ونذر) لحكاية الأحوالِ الماضية – بدل من نجينا- لتهويل أمرها باستحضار صورِها.

**﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا(٧٨)) ﴾.والتعرض لعنوان الرحمانية للإشعار بعلية الرحمة لإيتاء ما يدعيه..

ومثلها قوله تعالى:

**﴿ (يَوْمَ (نَحْشُرُ) الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) (وَنَسُوقُ) الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ (الرَّحْمَنِ) عَهْدًا (٨٧)﴾.

ويرى الإمام الطاهر أن ذكر(الرحمن) متناسب مع السياق، **ومع مناسبة نزول السورة** وحضور الوفود للنبى (ﷺ) فى ذلك الوقت الذى كانت تتنزل فيه السورة وهذه الآيات، والوفود يناسبها ظل الكرم والرحمن، ولعل ذلك يكون السبب فى الالتفات لاسم الرحمن ١٦مرة فى السورة ومع الآية السابقة كما يشير الإمام بقوله:

****

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)** ﴾ وقد عدل النظم عن قوله (سيودهم الرحمن) لأن الْمَعْنَى: سَيَجْعَلُ لَهُم الرحمان **أَوِدَّاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ** كَمَا قَالَ تَعَالَى: نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ (فصلت: ٣١)، **وَيَجْعَلُ بَيْنَ أَنْفُسِهِمْ مَوَدَّةً** كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَنَزَعْنا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ(الْأَعْرَاف: ٤٣)

وَإِيثَارُ الْمَصْدَرِ(ودا) لِيَفِي بِعِدَّةِ مُتَعَلَّقَاتٍ بِالْوُدِّ. وَفُسِّرَ أَيْضًا جَعْلُ الْوُدِّ بِأَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُمْ مَحَبَّةً فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْخَيْرِ. وَفُسِّرَ أَيْضًا بِأَنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَهُمْ مَحَبَّةً مِنْهُ تَعَالَى، فَالْجَعْلُ هُنَا كَالْإِلْقَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي** (طه: ٣٩). هَذَا أَظْهَرُ الْوُجُوهِ فِي تَفْسِيرِ الْوُدِّ، وَقَدْ ذَهَبَ فِيهِ جَمَاعَاتُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَقْوَالٍ شَتَّى مُتَفَاوِتَةٍ فِي الْقبُول.

****

وقفات مع سورة الشورى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَلِكَ** ((**أَوْحَيْنَا**)) **إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ** ((اللَّهُ)) **لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ اتَّخَذُوا** –هم– **مِنْ**

دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ – أنتم– **فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾**

وقد كان السياق من أول السورة على صورة حديث متواصل من الله تعالى لنبيه محمد(ﷺ) أو للمشركين، ولكنه عند هذا المقطع الأخير نجد أن المتحدث هنا هو محمد(ﷺ) –ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي– وقد تعددت الآراء فى تبرير هذا التحول– الذى أسميه التفاتاً– ، فقد قيل: هو حكايةٌ لقولِ رسولِ الله (ﷺ) للمؤمنينَ أيْ وما خالفَكُم الكفارُ فيهِ منْ أمورِ الدِّينِ فاختلفتُم أنتمُ وهُم راجعٌ حكمه{إِلَى الله} ويجوز– كما قال الألوسى– أن يكون كلاماً من جهته تعالى متضمنا التسلية ويكون قوله تعالى: ذلِكُمُ إلخ بتقدير (قل)

وأرى أن هذا الرأى غير سديد وأرجح كون هذا الخطاب فى هذه الآية من النبى(ﷺ) وليس من الله ، وجاء هنا على صورة الالتفات– وإن لم يصرحوا بذلك– وهو ما أيده قول الإمام الطاهر: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءَ كَلَامٍ مُتَّصِلًا بِقَوْلِهِ: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ **تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ مَجْمُوعُ هَذَا الْكَلَامِ لِمُتَكَلِّمٍ وَاحِدٍ**، لِأَنَّ ضَمَائِرَ رَبِّي، وتَوَكَّلْتُ، وأُنِيبُ ضَمَائِرُهُ، وَتِلْكَ الضَّمَائِرُ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَعُودَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَلَا حَظَّ فِي سِيَاقِ الْوَحْيِ إِلَى أَحَدٍ سوى النبيء (ﷺ)، فَتَعَيَّنَ تَقْدِيرُ فِعْلِ أَمْرٍ بِقَوْلٍ يَقُوله النبيء (ﷺ).

ولكن يبقى السؤال: كيف حدث هذا الالتفات بهذه الصورة وهذه السرعة العجيبة، وهو ما يدعوا إلى الدهشة والعجب حقاً؟

ويضيف الإمام الطاهر قوله: وَالتَّقْدِيرُ: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، ..وَالْإِشَارَةُ (ذلِكُمُ) لِتَمْيِيزِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ وَهُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ (فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ). وَهَذَا التَّمْيِيزُ لِإِبْطَالِ الْتِبَاسِ مَاهِيَّةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ إِذْ سَمَّوُا الْأَصْنَامَ آلِهَةً وَأَرْبَابًا. وَأُوثِرَ اسْمُ الْإِشَارَةِ (ذلِكُمُ) الَّذِي يُسْتَعْمَلُ لِلْبَعِيدِ لِقَصْدِ التَّعْظِيمِ بِالْبُعْدِ الِاعْتِبَارِيِّ اللَّازِمِ لِلسُّمُوِّ وَشَرَفِ الْقَدْرِ، أَيْ ذلِكُمُ اللَّهُ الْعَظِيمُ. وَيُتَوَصَّلُ مِنْ ذَلِكَ إِلَى تَعْظِيمِ حُكْمِهِ، فَالْمَعْنَى: اللَّهُ الْعَظِيمُ فِي حُكْمِهِ هُوَ رَبِّي الَّذِي تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ فَهُوَ كَافِينِي مِنْكُمْ.

(وأدعوا القارىء أن يتذوق جرس هذه الكلمة(ذلكم) والوقوف على التنغيم الجميل فيها والقوة المتمثلة أيضاً فى ضم الميم لتتناسب مع لفظ الجلالة(الله)، ويحاول أن يستبدلها ب(ذلك) ويعيد التذوق مرة ثانية، وقد قلنا مثل ذلك فى حال البراهين(الإلهية) ومعجزات موسى حيث قال(**فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ**) ولم يقل (فذلك)أو(فتلك)- وراجع ذلك غى جرس الكلمة من موسوعة إعجاز التكرار فى قصص القرآن-

ويقف الإمام أبو السعود وغيره من العلماء على نوعٍ آخر من الالتفات فى قوله: وحيثُ كانَ التوكُّل أمراً واحداً مستمراً والإنابةُ متعددة متجددة حسب تجّدُدِ موادِّها أوثر في الأول(توكلت) صيغةُ الماضِي وفي الثَّاني صيغةُ المضارعِ(أنيب). عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

ويضيف لنا الإمام الطاهر رأياً مكملاً بقوله: وَجِيءَ فِي فِعْلِ (تَوَكَّلْتُ) بِصِيغَةِ الْمَاضِي وَفِي فِعْلِ (أُنِيبُ) بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ تَوَكُّلَهُ عَلَى اللَّهِ **كَانَ سَابِقًا** مِنْ قَبْلِ أَنْ يَظْهَرَ لَهُ تَنَكُّرُ قَوْمِهِ لَهُ، فَقَدْ صَادَفَ تَنَكُّرُهُمْ مِنْهُ عَبْدًا مُتَوَكِّلًا عَلَى رَبِّهِ، وَإِذَا كَانَ تَوَكُّلُهُ قَدْ سَبَقَ تَنَكُّرَ قَوْمِهِ فَاسْتِمْرَارُهُ بَعْدَ أَنْ كَشَّرُوا لَهُ عَنْ أَنْيَابِ الْعُدْوَانِ مُحَقَّقٌ...وَأَمَّا فِعْلُ (أُنِيبُ) فَجِيءَ فِيهِ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى تَجَدُّدِ الْإِنَابَةِ وَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ. وَيُعْلَمُ تَحَقُّقُهَا فِي الْمَاضِي بِمُقَارَنَتِهَا لِجُمْلَةِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ لِأَنَّ الْمُتَوَكِّلَ مُنِيبٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ الِاحْتِبَاكِ. وَالتَّقْدِيرُ: عَلَيْهِ **تَوَكَّلْتُ** وَأَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ أَنَبْتُ **وَأُنِيبُ**.

وَتَقْدِيمُ الْمُتَعَلِّقَيْنِ فِي (**عَلَيْهِ** تَوَكَّلْتُ **وَإِلَيْهِ** أُنِيبُ)- أى تقديم الجار والمجرور(عليه، إليه) على الفعل، حيث كان يجب أن تكون (توكلت عليه، وأنبت إليه)- لِإِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ، أَيْ لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا أُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ.

ثم يصف النبى(ﷺ) مولاه فى حديث خاص ومحبب التفت إليه بهذا الالتفات قائلاً: **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ((جَعَلَ)) لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ((يَذْرَؤُكُمْ)) فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ**

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)- وهنا يقول الإمام الطاهر عن الالتفات من الماضى**(جَعَلَ)** **إلى المضارع (يَذْرَؤُكُمْ)**: وَالْمَعْنَى: قَدَّرَ فِي تَكْوِينِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ أَزْوَاجًا لِأَفْرَادِهِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ التَّقْدِيرُ مُقَارِنًا لِأَصْلِ تَكْوِينِ النَّوْعِ – أى خلقه من بدايته أزواجاً- جِيءَ فِيهِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي.

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: لَكُمْ - (جَعَلَ) لَكُمْ ..- لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ. وَالْخِطَابُ الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ للخطاب(لكم)-.. ويكمل: وَإِذْ كَانَ الضَّمِيرُ – فى (يذرؤكم)- ضَمِيرَ جَمَاعَةِ الْعُقَلَاءِ (كم) وَكَانَ ضَمِيرَ خِطَابٍ فِي حِينِ أَنَّ الْأَنْعَامَ لَيْسَتْ عُقَلَاءَ وَلَا مُخَاطَبَةً، فَقَدْ جَاءَ فِي ذَلِكَ الضَّمِيرِ تَغْلِيبُ الْعُقَلَاءِ إِذْ لَمْ يُذْكَرْ ضَمِيرٌ صَالِحٌ لِلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ كَأَنْ يُقَالَ: يَذَرَاكِ بِكَسْرِ الْكَافِ عَلَى تَأْوِيلِ إِرَادَةِ خِطَابِ الْجَمَاعَةِ.

وَجَاءَ فِيهِ تَغْلِيبُ الْخِطَابِ عَلَى الْغَيْبَةِ- حيث لم يقل(جعل لهم) و(يذرؤهم)-، فَقَدْ جَاءَ فِيهِ تَغْلِيبَانِ- العقلاء والحضور- وَهُوَ تَغْلِيبٌ دَقِيقٌ إِذِ اجْتَمَعَ فِي لَفْظٍ وَاحِدٍ نَوْعَانِ مِنَ التَّغْلِيبِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْكَشَّافُ وَالسَّكَّاكِيُّ فِي مَبْحَثِ التَّغْلِيبِ مِنَ «الْمِفْتَاحِ» .. وَجِيءَ بِالْمُضَارِعِ فِي يَذْرَؤُكُمْ **لِإِفَادَةِ التَّجَدُّدِ وَالتَّجَدُّدُ أَنْسَبُ بِالِامْتِنَانِ.** ثم يكمل سبحانه:

﴿ **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (١٢) ﴾ حيث يوقفنا النظم العجيب على نفس الوقفة السابقة التى تجعلنا دائماً لا نمل الإعادة والتكرار لهذا النظم الحكيم وتثير فينا دائماً اليقظة والانتباه بهذا الالتفات حيث يقول: (**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا** (وَصَّى) **بِهِ نُوحًا**..(**وما وصينا**)..)،**ويتكرر السؤال:** من المتكلم؟ ومن الذى شرع؟ ويقول الإمام الطاهر:انْتِقَالٌ مِنْ الِامْتِنَانِ بِالنِّعَمِ الْجُثْمَانِيَّةِ إِلَى الِامْتِنَانِ بِالنِّعْمَةِ الرُّوحِيَّةِ بِطَرِيقِ الْإِقْبَالِ عَلَى خطاب الرّسول (ﷺ) وَالْمُؤْمِنِينَ لِلتَّنْوِيهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَلِلتَّعْرِيضِ بِالْكُفَّارِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْهُ.(فهى خصوصية أخرى تستحق هذا الالتفات).

﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا – وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** –﴾ أى يامحمد، إذن المتحدث هو الله بعد أن كان المتحدث هو محمد (ﷺ) فى السياق السابق- وَمَا

اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) ..–، فقد تغير الخطاب إذن وأصبح المتحدث بالخطاب المباشر هنا هو الله تعالى بتدرج عجيب لم تألفه النفس فى كلام البشر، ولذلك لا أرى أن السياق السابق كان بتقدير (قل) يا محمد – كما قال بذلك الألوسى وبعض العلماء– فقوله: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**– فالمتحدث هو الله بلا جدال، ورغم ذلك يقول بعدها مباشرة: **(اللَّهُ) يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)** وكان حقها أن تكون: أنا أجتبى.. وأهدى.. ولكنه هو إرادة إظهار صفة الألوهية التى وقفنا عليها كثيراً، وهو بثّ وتصويرٌ حى ومباشر ينقل لنا الأحداث وكلٌ يتكلم دون واسطة ممن ينقل الحدث، وهو الالتفات الخطير الذى يتلوه القارىء ويمر عليه ولا يشعر بحدوثه إلا بعد التأمل العميق له.

وهنا أقف وقفة أخرى على التغيير من الإفراد إلى الجمع فى وصف الله تعالى : فجاء فى البداية **بالإفراد** (**مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**)– ولم يقل: ما وصينا– لأنه الْمُمَاثَلَةُ فِي أُصُولِ الدِّينِ مِمَّا يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ، وَفِي أُصُولِ الشَّرِيعَةِ مِنْ كُلِّيَّاتِ التَّشْرِيعِ، وَأَعْظَمُهَا تَوْحِيدُ اللَّهِ، ثُمَّ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْكُلِّيَّاتِ الْخَمْسِ الضَّرُورِيَّاتِ، ثُمَّ الْحَاجِيَّاتِ الَّتِي لَا يَسْتَقِيمُ نِظَامُ الْبَشَرِ بِدُونِهَا، فَإِنَّ كُلَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَدْيَانُ الْمَذْكُورَةُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ **قَدْ أُودِعَ مِثْلُهُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ.(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)** – فجاء الإفراد فى الفعل لذلك المعنى؛ فَالْأَدْيَانُ السَّابِقَةُ كَانَتْ تَأْمُرُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، وَتَقْوَى اللَّهِ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ مَنْهِيِّهِ عَلَى الْعُمُومِ، وَبِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ بِحَسَبِ الْمَعْرُوفِ، قَالَ تَعَالَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (الْأَعْلَى: ١٤– ١٩) . وَتَخْتَلِفُ فِي تَفَاصِيلِ ذَلِكَ وَتَفَارِيعِهِ. ثم بعد ذلك رجع إلى الأصل فى تعظيم الوحى وتنوعه فى التفريعات على لسان الرسل المتواليين فجاء على الجمع (**وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**) ولاحظ صيغة الجمع(وما وصينا)

هذه الكتب المتعددة والمتنوعة- فى الفروع- ولكنها واحدة فى المصدر والأصول، فجاء ذلك متناغماً مع قوله لهم(وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ).. ومن هنا نرى عظمة ورود الجمع بعد الإفراد فى هذا السياق المبهر.

ويضيف الإمام الطاهر كلاماً بديعاً يستحق الوقوف عليه طويلاً يقول فيه: وَالِاقْتِصَارُ عَلَى ذِكْرِ دِينِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى لِأَنَّ نُوحًا أَوَّلُ رَسُول أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، فَدِينُهُ هُوَ أَسَاسُ الدِّيَانَاتِ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَماً أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ والنبيئين مِنْ بَعْدِهِ (النِّسَاء: ١٦٣) وَلِأَنَّ دِينَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ أَصْلُ الْحَنِيفِيَّةِ وَانْتَشَرَ بَيْنَ الْعَرَبِ بِدَعْوَةِ إِسْمَاعِيلَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَشْهَرُ الْأَدْيَان بَيْنَ الْعَرَبِ، وَكَانُوا عَلَى أَثَارَةٍ مِنْهُ فِي الْحَجِّ وَالْخِتَان وَالْقِرَى – شدة الكرم- وَالْفُتُوَّةِ. وَدِينُ مُوسَى هُوَ أَوْسَعُ الْأَدْيَان السَّابِقَةِ فِي تَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ، وَأَمَّا دِينُ عِيسَى فَلِأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي سَبَقَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا دِينٌ آخَرُ، وَلِيَتَضَمَّنَ التَّهْيِئَةَ إِلَى دَعْوَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ.

وَتَعْقِيبُ ذِكْرِ دِينِ نُوحٍ بِمَا أُوحِيَ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (**مَا وَصَّى** بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ دِينَ الْإِسْلَام هُوَ الْخَاتَمُ لِلْأَدْيَان، فَعُطِفَ عَلَى أَوَّل الْأَدْيَان جَمْعًا بَيْنَ طَرَفَيِ الْأَدْيَان، ثُمَّ ذُكِرَ بَعْدَهُمَا الْأَدْيَانُ الثَّلَاثَةُ الْأُخَرُ لِأَنَّهَا مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ الدِّينَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ قَبْلَهَا. وَهَذَا نَسْجٌ بَدِيعٌ مِنْ نَظْمِ الْكَلَامِ، وَلَوْلَا هَذَا الِاعْتِبَارُ لَكَانَ ذِكْرُ الْإِسْلَامِ مُبْتَدَأً بِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ والنبيئين من بعده (النِّسَاء: ١٦٣) وَقَوْلِهِ: وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النبيئين مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ الْآيَةَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ٧ .

وَذَكَرَ فِي «الْكَشَّافِ» فِي آيَةِ الْأَحْزَابِ أَنَّ تَقْدِيمَ ذكر النبيء (ﷺ) فِي التَّفْصِيلِ لِبَيَان أَفْضَلِيَّتِهِ لِأَنَّ الْمَقَامَ هُنَالِكَ لِسَرْدِ مَنْ أُخِذَ عَلَيْهِم الْمِيثَاقُ، وَأَمَّا آيَةُ سُورَةِ الشُّورَى فَإِنَّمَا أُورِدَتْ فِي مَقَامِ وَصْفِ دِينِ الْإِسْلَام بِالْأَصَالَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ فَكَأَنَّ اللَّهَ قَالَ: شَرَعَ لَكُمُ الدِّينَ الْأَصِيلَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ نُوحًا فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَبَعَثَ بِهِ مُحَمَّدًا (ﷺ) فِي الْعَهْدِ الْحَدِيثِ، وَبَعَثَ بِهِ مَنْ تَوَسَّطَ بَيْنَهُمَا.

فَقَوْلُهُ: وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هُوَ مَا سَبَقَ نُزُولُهُ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْقُرْآن بِمَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ، فَعَطَفَهُ عَلَى مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا مِنَ الْمُغَايَرَةِ بِزِيَادَةِ التَّفْصِيلِ وَالتَّفْرِيعِ. وَذَكَرَهُ عَقِبَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا لِلنُّكْتَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **(مَا) وَصَّى بِهِ نُوحاً** وَقَوْلِهِ: **(وَما) وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ**، جِيءَ بِالْمَوْصُول مَا، وَفِي قَوْلِهِ: **(وَالَّذِي) أَوْحَيْنا إِلَيْكَ** ﴾ جِيءَ بِالْمَوْصُول (**الَّذِي**)، وَقَدْ يظْهر فِي بادىء الرَّأْيِ أَنَّهُ مُجَرَّدُ تَفَنُّن يِتَجَنُّبِ تَكْرِير الْكَلِمَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ، وَذَلِكَ كَافٍ فِي هَذَا التَّخَالُفِ. وَلَيْسَ يَبْعُدُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الِاخْتِلَافُ لِغَرَضٍ مَعْنَوِيٍّ، وَأَنَّهُ فَرْقٌ دَقِيقٌ فِي اسْتِعْمَال الْكَلَامِ الْبَلِيغِ **وَهُوَ أَنَّ (الَّذِي)** وَأَخَوَاتِهِ هِيَ الْأَصْلُ فِي الْمَوْصُولَاتِ فَهِيَ مَوْضُوعَةٌ مِنْ أَصْلِ الْوَضْعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَنْ يُعَيَّنُ **بِحَالَةٍ مَعْرُوفَةٍ** هِيَ مَضْمُونُ الصِّلَةِ، فَ **(الَّذِي) يَدُلُّ عَلَى مَعْرُوفٍ عِنْدَ الْمُخَاطَبِ بِصِلَتِهِ. وَأَمَّا (مَا) الْمَوْصُولَةُ فَأَصْلُهَا اسْمٌ عَامٌّ نَكِرَةٌ مُبْهَمَةٌ مُحْتَاجَةٌ إِلَى صِفَةٍ**(٢)

وَلِذَلِكَ كَثُرَ اسْتِعْمَالُ مَا مَوْصُولَةً فِي غَيْرِ الْعُقَلَاءِ، فَيَكُونُ إِيثَارُ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَمَا وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى بِحَرْفِ (مَا) لِمُنَاسَبَةِ أَنَّهَا شَرَائِعُ بَعُدَ الْعَهْدُ بِهَا **فَلَمْ تَكُنْ مَعْهُودَةً عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ إِلَّا إِجْمَالًا** فَكَانَتْ نَكِرَاتٍ لَا تَتَمَيَّزُ إِلَّا بِصِفَاتِهَا، وَأَمَّا إِيثَارُ الْمُوحَى بِهِ إِلَى النبيء (ﷺ) بِاسْمِ (الَّذِي) فَلِأَنَّهُ شَرْعٌ مُتَدَاوَلٌ فِيهِمْ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ. فَالتَّقْدِيرُ: شَرَعَ لَكُمْ شَيْئًا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَشَيْئًا وَصَّى بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، وَالشَّيْءَ الْمُوحَى بِهِ إِلَيْكَ. وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ نُكَتِ الْإِعْجَازِ الْمَغْفُولِ عَنْهَا.

وَفِي الْعُدُول مِنَ **الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ** فِي قَوْلِهِ: وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ بَعْدَ قَوْلِهِ شَرَعَ لَكُمْ الْتِفَاتٌ.

---

(٢)نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ (النِّسَاء:) عِنْدَ الزَّمَخْشَرِيِّ وَجَمَاعَةٍ إِذْ قَدَّرُوهُ: نِعْمَ شَيْئًا يعظكم بِهِ. فَ(مَا) نكرَة تَمْيِيز ل (نِعْمَ) وَجُمْلَةُ يَعِظُكُمْ بِهِ صِفَةٌ لِتِلْكَ النَّكِرَةِ. وَقَالَ سِيبَوَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (ق: ٢٣) الْمُرَادُ: هَذَا شَيْءٌ لَدَيَّ عَتِيدٌ.

وَذَكَرَ فِي جَانِبِ الشَّرَائِعِ الْأَرْبَعِ السَّابِقَةِ فِعْلَ (وَصَّى)- وما وصينا- وَفِي جَانِبِ شَرِيعَةِ مُحَمَّد (ﷺ) فِعْلَ (الْإِيحَاءِ)- والذى أوحينا إليك- لِأَنَّ الشَّرَائِعَ الَّتِي سَبَقَتْ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ كَانَتْ شَرَائِعَ مُوَقَّتَةً مُقَدَّرًا وُرُودُ شَرِيعَةٍ بَعْدَهَا، فَكَانَ الْعَمَلُ بِهَا كَالْعَمَلِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ مُؤْتَمَنٌ عَلَى شَيْءٍ(فقال: ما وصينا) حَتَّى يَأْتِيَ صَاحِبُهُ(الذى سيقول له: أوحينا إليك).

والسبب الثانى هو: لِيَقَعَ الِاتِّصَالُ بَيْنَ فِعْلِ (أَوْحَيْنا) إِلَيْكَ وَبَيْنَ قَوْلِهِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ (كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ) وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الشورى: ٣]

وأقول :هذا كلام فى غاية النفاسة أتمنى من القارىء الكريم إعادة تأمله وتذوقه .

** ﴿ **وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** (٧)) عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ (**كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ** ﴾ (الشورى: ٣) إِلَخْ

وأرى أن السبب فى هذا الالتفات هو: حينما ذكر(**قُرْآناً عَرَبِيًّا**) استحق صيغة التعظيم التى تأتى من صيغة الجمع لذاته سبحانه (**وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ**)(٧) ... أما حينما أراد أن يقول: إن مصدر كتابك والكتب السابقة واحد هو الله الواحد العزيز الحكيم، فالمُنزل لها جميعاً (واحد) وكذلك هى (واحدة) فى مضمونها فجاء على التوحيد والإفراد والغيبة هكذا(**كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (**٣**)) وجاء الإفراد أيضاً لترتيب الوصف بالمدح لذاته سبحانه بعدها(**اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) التى يناسبها الإفراد.

وأرى أن هذا المعنى هو مايحاول بعض المفسرين القرب منه مع بعض الإضافات التى سنقف عليها فى قولهم التالى:

يقول الإمام الطاهر: ﴿ **وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** (٧) عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ (**كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ**﴾ (الشورى: ٣) **إِلَخْ** بِاعْتِبَارِ الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ الْمَعْطُوفَةِ (الآية ٧) وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا(الآية ٣) بِمَا فِي الْمَعْطُوفَةِ

(الشورى ٧) مِنْ كَوْنِ الْمُوحَى بِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، وَمَا فِي الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا(الشورى ٣) مِنْ كَوْنِهِ مَنْ نَوْعِ مَا أُوحِيَ بِهِ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ. وَالْقَوْلُ فِي (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا) كَالْقَوْلِ فِي (كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ) (الشورى: ٣) وَإِنَّمَا أُعِيدَ (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا) لِيُبْنَى عَلَيْهِ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِمَا حَجَزَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْفَصْلِ، وَأَصْلُ النَّظْمِ: كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ (اللَّهُ) الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، مَعَ مَا حَصَلَ بِتِلْكَ الْإِعَادَةِ مِنَ التَّأْكِيدِ لِتَقْرِيرِ ذلِكَ الْمَعْنَى أَفْضَلَ تَقْرِيرٍ.

وَالْعُدُولُ عَنْ ضَمِيرِ الْغَائِبِ إِلَى ضَمِيرِ الْعَظَمَةِ (**وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا**) **الْتِفَاتٌ**. وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ (**مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ**) (**وَمَا أُوحِيَ إِلَى مَنْ قَبْلَكَ**)، إِلَّا اخْتِلَافُ اللُّغَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** (إِبْرَاهِيم: ٤) .

ويضيف الإمام أبو السعود: {كَذَلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم} كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لتحقيق أنَّ مضمونَ السورةِ موافقٌ لما في تضاعف سائرِ الكتبِ المنزَّلةِ على الرسلِ المتقدمةِ في الدعوةِ الى التوحيد .. والإشارة إلى أن مرسل الرسل والكتب واحد، والتنبيه على فخامةِ شأنها (وذلك بإظهار لفظ الجلالة (الله) والصفات المترتبة عليه (العزيز الحكيم) (وقلنا وكررنا مراراً أن إتيان صفات المدح تكون مع المفرد الغائب، فالمدح فى الغيبة أولى وكذلك (إفراده) بذلك).

و(إليك) - **كَذَلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ** - للإيذان بعلوِّ رُتبةِ الْمُشار إليهِ وبُعْدِ منزلتِه في الفضل؛ أي مثل ما في هذه السورةِ من المعاني أوحى إليكَ في سائر السور وإلى مَنْ قبلك من الرسلِ في كتبِهم ، على أنَّ مناطَ المماثلةِ — بين القرآن وسائر الكتب- ما أُشيرَ إليهِ **من الدعوة إلى التوحيد** والإرشاد إلى الحق وما فيه صلاحُ العبادِ في المعاش والمعادِ، أو مثلَ إيحائِها أُوحيَ إليكَ عند إيحاءِ سائرِ السورِ وإلى سائرِ الرسلِ عند إيحاءِ كتبِهم إليهم لا إيحاءً مغايراً له –فالإيحاء واحد والموحى لهم واحد- كما في قوله تعالى (**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ**) الآيةَ من سورة النساء. على أنَّ مدارَ الْمثليةِ **كونُه بواسطةِ الملكِ**- ولذلك جاء السياق بصيغة الجمع (أوحينا)..

(وأقول مضيفاً لقول الإمام) : لعل ذلك الجمع – إنا أوحينا– لأنه عدَّد الأنبياء وذكر آخرهم (وآتينا داوود زبورا) وهذا كان يُنظر إليه دائماً للملَك الذى نزل به عليهم – جبريل– فجاء لهم بصيغة الجمع للنظر إلى تلك الواسطة من الملائكة هكذا﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ...(١٦٤)** ﴾ أما حينما ذكر موسى – فى نفس الآية والسياق– وتكليم الله له بدون واسطة ملك جاء على صورة الإفراد وليس الجمع هكذا (وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)**).. وهكذا جاء الالتفات من صيغة الجمع إلى الإفراد.

وصيغةُ المضارعِ ﴿ **كَذَلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ الله العَزِيزُ الحَكِيم** ﴾ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ– أى أن الوحى قد نزل عليه من قبل هذه الآية فى الماضى، ولكنه قال(يوحى) بالمضارع الذى يستحضر المشهد– للإيذان باستمرارِ الوحي (كذلك يوحى) وأنَّ إيحاءَ مثلِه عادتُه.

وفي جعلِ مضمونِ السورةِ أو إيحائها مشبهاً به (**كَذَلِكَ** يُوحِي إِلَيْكَ) من تفخيمِها مالا يخفى، وكذا في وصفِه تعالَى بوصفي العزةَ والحكمةِ وتأخيرُ الفاعلِ لمراعاةِ الفواصلِ مع ما فيه من التشويق.(أى لم يقل(وكذلك يوحى العزيز الحكيم إليك)).

وعودة للسورة والسياق:

وهكذا أيضاً يستمر السياق يلتفت من الربوبية إلى الألوهية إلى الجمع التعظيمى إلى الإفراد هكذا: ﴿ **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ((اللَّهِ)) مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)**

((**اللَّهُ**)) **الَّذِي** أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) ((**اللَّهُ**)) **لَطِيفٌ** بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ((**وَهُوَ**)) الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) ثم يتحول السياق ويلتفت من المفرد الغائب (الله وربك) لصيغة الجمع والحضور لذاته تعالى هكذا: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ((**نَزِدْ**)) – نحن- لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ((**نُؤْتِهِ**))– نحن- مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)) وذلك لتعظيم هذا الإيتاء والزيادة من النعم وغيرها إلا إذا كان السياق فى التوحيد والهداية فإنه يظل على المفرد.(٣) ، وبعدها يعود لصيغة المفرد الغائب فى سياق العبودية والتوحيد: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ((اللَّهُ)) وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ((**عِنْدَ رَبِّهِمْ**)) ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢))- ولعلنا لا نحتاج لإيضاح هذا الالتفات لصفة الربوبية مع هذا السياق (رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ ((عِنْدَ رَبِّهِمْ)) ذَلِكَ هُوَ (الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)- ...ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ ((اللَّهُ)) عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ((نَزِدْ)) – نحن- لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ((اللَّهَ))- هو- غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى ((اللَّهِ)) كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ ((اللَّهُ)) يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) **وَهُوَ الَّذِي** يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **وَيَزِيدُهُمْ** مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ

---

(٣)(كما فى الآية (٢٦) من نفس السياق وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وكقوله تعالى فى سورة مريم (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦))... وإذا كان فى سياق الأجر والفضل الدنيوى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ((نَزِدْ)) – نحن- لَهُ فِيهَا حُسْنًا).

بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ – أنتم- مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) .. وهكذا يستمر السياق بصيغة الغيبة وتوحيد الألوهية والربوبية حتى يصل لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ((لَهُمْ)) مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) ((اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ))- أنتم- مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا- هم- فَمَا ((أَرْسَلْنَاكَ))- حضور وجمع بدلاً من الإفراد والغيبة (الله وربكم)- فَمَا ((أَرْسَلْنَاكَ)) عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ((وَإِنَّا)) إِذَا ((أَذَقْنَا)) الْإِنْسَانَ ((مِنَّا)) رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا – وجاءت صيغ الجمع والحضور لتعظيم قيمة هذه الرحمة- وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ – ولم يقل (وإن أصبناهم بسيئة) تأدباً بنسبة الخير لذاته (إنا.. أذقنا .. رحمة) وبعدم نسبة الشر إليه- وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ((لِلَّهِ)) مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ – ولم يقل: لنا ملك السموات- يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ثم يتحول لصيغة الجمع التعظيمى مع الحضور مع الوحى لحبيبه (ﷺ) فى قوله:

وَكَذَلِكَ ((أَوْحَيْنَا)) إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ ((أَمْرِنَا)) مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ ((جَعَلْنَاهُ)) نُورًا ((نَهْدِي)) بِهِ مَنْ ((نَشَاءُ)) مِنْ ((عِبَادِنَا)) وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ ((اللَّهِ)) – وهو صراط التوحيد والحق الواحد فناسبه صيغة الإفراد بعد الجمع- صِرَاطِ ((اللَّهِ)) الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾

****

﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ** -(هم)- **فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ** —(هم) ومفرد غائب(ربهم)- **وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**-أنتم- **(١٩) مُتَّكِئِينَ** -(هم)- **عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ**- بنون الجمع لذاته بدلاً من الإفراد السابق- **وَزَوَّجْنَاهُمْ** — هم- **بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)** .. **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** — مفرد غائب- **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**- جمع بنون العظمة- **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** — مفرد غائب- **حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ** — مفرد غائب- **وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)** ﴾ الطور.

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)** ﴾

يقول الطاهر: لَمَّا ذَكَرَ إِسْرَافَهُمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِصْغَاءِ لِدَعْوَةِ الْقُرْآنِ- أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ- وَأَعْقَبَهُ بِكَلَامٍ مُوَجَّهٍ إِلَى الرّسول (ﷺ) تَسْلِيَةً عَمَّا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ فِي خِلَالِ الْإِعْرَاضِ مِنَ الْأَذَى وَالِاسْتِهْزَاءِ بِتَذْكِيرِهِ بِأَنَّ حَالَهُ فِي ذَلِكَ حَالُ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ وَسُنَّةِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ، ووعدٌ للرّسول (ﷺ) بِالنَّصْرِ عَلَى قَوْمِهِ بِتَذْكِيرِهِ بِسُنَّةِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ رُسُلَهُمْ. **وَجُعِلَ لِلتَّسْلِيَةِ الْمَقَامُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ بِقَرِينَةِ الْعَدْلِ عَنْ ضَمِيرِ الْخِطَابِ إِلَى ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ** كَمَا سَيَأْتِي،- حيث كان حقها أن تكون(فأهلكنا أشد منكم) عطفاً على السياق قبلها(أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ..) وبذلك يكون قد التفت بالخطاب للنبى(ﷺ) وتكلم عنهم بصيغة الغائب، وفيه أيضاً **إهمل لهم وازدراءً بهم** وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ تَعْرِيضًا بِزَجْرِهِمْ عَنْ إِسْرَافِهِمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ فِي الْقُرْآنِ...

ويقول: **وَلَا تَفُوتُ النُّكْتَةُ الَّتِي تَحْصُلُ مِنْ الِالْتِفَاتِ وَهِيَ تَجْدِيدُ نَشَاطِ السَّامِعِ بَلْ تَزْدَادُ قُوَّةً بِازْدِيَادِ مُقْتَضَيَاتِهَا.**

﴿..**وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ..فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ** (٨) وَذِكْرُ الْأَوَّلِينَ- تكراره- إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِتَقَدُّمِ قَوْلِهِ: فِي الْأَوَّلِينَ. وَوَجْهُ إِظْهَارِهِ أَنْ يَكُونَ الْإِخْبَارُ عَنْهُمْ صَرِيحًا وَجَارِيًا مجرى الْمثل.

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) ﴾

والْعَزِيزُ الْعَلِيمُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى. ويقول الإمام : وَلَيْسَ ذِكْرُ الصِّفَتَيْنِ الْعَلِيَّتَيْنِ مِنْ مَقُولِ جَوَابِهِمْ وَإِنَّمَا حُكِيَ قَوْلُهُمْ بِالْمَعْنَى، أَيْ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الَّذِي الصِّفَتَانِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَإِنَّمَا هُمْ يَقُولُونَ: خَلَقَهُنَّ اللَّهُ، كَمَا حُكِيَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ [٢٥] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ. وَذَلِكَ هُوَ المستقرى مِنْ كَلَامِهِمْ نَثْرًا وَشِعْرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَإِنَّمَا عدل عَن اسْمِ الْعَلِيِّ(الله) إِلَى الصِّفَتَيْنِ(العزيز العليم) زِيَادَةً فِي إِفْحَامِهِمْ بِأَنَّ الَّذِي انْصَرَفُوا عَنْ تَوْحِيدِهِ بِالْعِبَادَةِ عَزِيزٌ عَلِيمٌ. (وليس مهاناً جاهلاً- كنصارى القوم الذين ادعوا صلب الإله – الرب يسوع- وأنه كان يجهل ما يحيط به- كما حققنا ذلك فى كتبنا عن مقارنة الأديان- أو كالذين يبولون على صنمهم- إلههم- أو يجعلونه من العجوى ثم يأكلوه.فتَخْصِيصُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ لِأَنَّهَا مُضَادَّةٌ لِصِفَاتِ الْأَصْنَامِ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ عَاجِزَةٌ عَنْ دَفْعِ الْأَيْدِي.

﴿ **وَلَئِنْ** ((**سَأَلْتَهُمْ**)) **مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ** ((**لَكُمُ**)) **الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ** ((**لَكُمْ**)) **فِيهَا سُبُلًا** ((**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**)) **(١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ** ((**فَأَنْشَرْنَا**)) **بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)** ﴾ .. وهو التفات واضح من الحديث عنهم (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ)- لرسول الله (ﷺ)- إلى مخاطبتهم ومواجهتهم (وَجَعَلَ لَكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)والمتكلم- بلا ريب هو الله- (فأنشرنا..) وباقى السياق.

ولكن الإمام الطاهر وغيره يذهب مذهباً أراه بعيداً عن سلاسة النظم فى قوله: وَالتَّقْدِيرُ: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ، وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ: أَهْوَ الْعَزِيز الْعَلِيم. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) هَذَا كَلَامٌ مُوَجَّهٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.. فَالْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافٌ حُذِفَ مِنْهَا الْمُبْتَدَأُ، وَالتَّقْدِيرُ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا)انتهى. وأرى أن فى ذلك التفاتاً واضحاً- كالذى عشناه وكررناه فى أمثلة شبيهة على الصفحات الماضية- وأشار إليه الإمام الرازى فى تفسير سورة العلق- وأنها هى قاعة العرض التى يكون فيها الملك ويسمح لمن يأذن له فى الكلام أن يتكلم فى حضرته ، ثم يدخل هو –سبحانه- بالتعقيب والتوجيه، ثم يعطى السياق لآخر ثم يتدخل سبحانه مرة ومرات، وكأن ذلك نقلاً حياً مباشراً، وهذا هو الفارق بين كلام الخالق والمخلوق.. وهكذا السياق معنا وفى أمثاله من الآيات الأخرى التى عشناهاعلى الصفحات الماضية

وَضَمِيرُ (فَأَنْشَرْنا) الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ (**وَالَّذِي نَزَّلَ**) إِلَى التَّكَلُّمِ. ويرى الإمام أبو السعود أن الالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بأمرِ الإحياءِ والإشعارِ بعِظَمِ خطرِه ..

ويكمل السياق بالالتفات إلى صيغة الغيبة مرة ثانية فى قوله:﴿ (**وَالَّذِي** (**خَلَقَ**) **الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** (وَجَعَلَ) **لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** (**١٢**) ﴾.. ويحدثنا الإمام الطاهر عن التفاتٍ آخر وهو فى صيغة الفعل(خلق) و(جعل) هكذا: وَجِيءَ بِفِعْلِ (جَعَلَ) مُرَاعَاةً لِأَنَّ الْفُلْكَ مَصْنُوعَةٌ وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةً، وَالْأَنْعَامُ قَدْ عُرِفَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِشُمُولِ قَوْلِهِ: خَلَقَ الْأَزْوَاجَ إِيَّاهَا....

وَقَدَّمَ الْفُلْكَ عَلَى الْأَنْعَامِ لِأَنَّهَا لَمْ يَشْمَلْهَا لَفْظُ الْأَزْوَاجِ فَذِكْرُهَا ذِكْرُ نِعْمَةٍ أُخْرَى، وَلَوْ ذَكَرَ الْأَنْعَامَ- فقال((خَلَقَ) الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (وَجَعَلَ) لَكُمْ مِنَ **الأنعام والفلك** مَا تَرْكَبُونَ)- لَكَانَ ذِكْرُهُ-أى الأنعام- عَقِبَ الْأَزْوَاجِ بِمَنْزِلَةِ الْإِعَادَةِ(لأن الأنعام من الأزواج-ذكر وأنثى-). فَلَمَّا ذَكَرَ الْفُلْكَ بِعُنْوَانِ كَوْنِهَا مَرْكُوبًا عَطَفَ

عَلَيْهَا الْأَنْعَامَ فَصَارَ ذِكْرُ الْأَنْعَامِ مُتَرَقَّبًا لِلنَّفْسِ لِمُنَاسَبَةٍ جَدِيدَةٍ(غير الخلق من زوجين وغير الأكل منها)، وَهَذَا كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأِ الرَّاحَ الْكُمَيْتَ وَلَمْ أَقُلْ . . . لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِذْ أَعْقَبَ ذِكْرَ رُكُوبِ الْجَوَادِ بِذِكْرِ تَبَطُّنِ الْكَاعِبِ- المرأة الجميلة الهيئة- لِلْمُنَاسَبَةِ، وَلَمْ يُعْقِبْهُ بِقَوْلِهِ: وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً- التى وردت فى الشطر الثانى من البيت الثانى-، لِاخْتِلَافِ حَالِ الرُّكُوبَيْنِ: رُكُوبِ اللَّذَّةِ وَرُكُوبِ الْحَرْبِ.

(وأقول هذا ملحظ لايلتفت إليه القارىء أو الدارس العادى، لأنه ربما يتخيل أن ركوب الجواد يناسبه الشطر الثانى من البيت الثانى(وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً) فهو حديث مناسب للجواد، وهكذا اعترض عليه بعض الشعراء والنقاد، ولكنهم لم يفطنوا إلى ما يقصده الشاعر من تكثير المعنى- بما فعل- حيث لم يقتصر للجواد على وظيفة الكر والفر فى غمار المعارك، ولكنه بذلك الصنيع لفت نظرنا وركز فكرنا على وظيفة أخرى للجواد وهى التلذذ بركوبه للصيد وغيره، وقد أكد هذا وبينه وأبرزه بأن قدم وألصق به استبطان وركوب المرأة الجميلة للذة ثم ذكر بعدها فى البيت الثانى الوظيفة المعلومة للجواد وهى الكر والفر، ولو ذكرها فى البيت الأول مع ركوب الجواد فقال:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

لما أثار كل هذه المشاعر التى ذكرناها وكان بمثابة تكرار لما هو معلوم من الشق الأول ولأصبح الشقان معنىً واحداً فى ذهن القارىء، ولكن الشاعر كان يركز على مشهد التلذذ(جَوَادًا لِلَذَّةٍ) فناسبها الاقتران بلذة المرأة ، ثم أتى – بعد هذا الفاصل- بالمشهد المعلوم(الكر والفر)- وكأنه وظيفة ثانية، فأفاد تكثير المعنى..وكما يقول العلماء: وَوَجْهُ الْكَلَامِ عَلَى مَا قَالَ الْعُلَمَاءُ بِالشِّعْرِ أَنْ يَكُونَ عَجُزُ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَعَجُزُ الْبَيْتِ الثَّانِي لِلْأَوَّلِ لِيَسْتَقِيمَ الْكَلَامُ فَيَكُونَ رُكُوبُ الْخَيْلِ مَعَ الْأَمْرِ لِلْخَيْلِ بِالْكَرِّ، وَيَكُونَ سِبَاءُ الْخَمْرِ لِلَذَّةٍ مَعَ تَبَطُّنِ الْكَاعِبِ

وهذا هو عين ما نقله لنا الإمام الألوسى فى قوله: وفي الانتصاف أن في الآية سرا بديعا من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم ولو قرن كل بشكله لتوهم المقرونان نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا فقال الكندي (١) الأول:

كأني لم أركب جوادا للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزقّ الرويّ ولم أقل ... لخيلي كرّي كرة بعد إجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله لخيله: كري كرة وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب وغرضه أن يعدد ملاذه ومفاخره ويكثرها.

وقد يقال في بيتي الأول: إنه جمع بين ركوب الخيل للذة والنزهة وتبطن الكاعب للذة الحاصلة فيهما، وجمع بين سبء الزق وقوله لخيله: كري لما فيهما من الشجاعة

وتبعه الكندي الآخر فقال:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك ضحاك وثغرك باسم

وقد اعترض عليه سيف الدولة إذ قطع الشيء عن نظيره (كأنه يريد أن يجعل البيتين هكذا:

وقفتَ وما في الموت شك لواقف ... ووجهك ضحاك وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

يريد أن يربط النظير بنظيره غافلاً عن ما يقصده الشاعر من التفريق لتكثير المعنى والتشوق الذى ذكرناه.. فقال له الشاعر: إن كنت أخطأت بذلك فقد أخطأ امرؤ القيس بقوله وأنشد البيتين السابقين.

وينقل الإمام الطاهر باقى القصة فى شرح ذلك المثل: فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ: أَدَامَ اللَّهُ عِزَّ الْأَمِيرِ... وَإِنَّمَا قَرَنَ امْرُؤُ الْقَيْسِ لَذَّةَ النِّسَاءِ بِلَذَّةِ الرُّكُوبِ لِلصَّيْدِ، وَقَرَنَ السَّمَاحَةَ فِي شِرَاءِ الْخَمْرِ لِلْأَضْيَافِ بِالشَّجَاعَةِ فِي مُنَازَلَةِ الْأَعْدَاءِ. وَأَنَا لَمَّا ذَكَرْتُ

الْمَوْتَ أَتْبَعْتُهُ بِذِكْرِ الرَّدَى لِتَجَانُسِهِ وَلَمَّا كَانَ وَجْهُ الْمَهْزُومِ لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ عَبُوسًا وَعَيْنُهُ مِنْ أَنْ تَكُونَ بَاكِيَةً قُلْتُ: وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ لِأَجْمَعَ بَيْنَ الْأَضْدَادِ فِي الْمَعْنَى.

ويقول الإمام الألوسى: وفي الآية سر لذلك أيضاً زائداً على ما ذكر وهو قصد تناسب الفواصل اه.(وأقول- أنا الكاتب- أن هذا القول ليس صواباً إلا إذا اجتمع تناسب الفواصل مع صدق وجودة المعنى وأن لا يكون ذلك على حساب المعنى).

وهذا الذى ذكرته هو توضيح لشرح كثير من الأئمة بأسلوب مبسط يفهمه الدارس البسيط ويقرب لنا ما هو عليه النظم القرآنى الحكيم الذى أخَّر ذكر الأنعام- التى خلقت من زوجين-فى الآية التى تتحدث عن خلق الزوجين((**وَالَّذِي** (**خَلَقَ**)**الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا** (**وَجَعَلَ**) **لَكُمْ مِنَ** (**الْفُلْكِ**) **وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ**) فكان كما قال الإمام: وَقَدَّمَ الْفُلْكَ عَلَى الْأَنْعَامِ لِأَنَّهَا لَمْ يَشْمَلْهَا لَفْظُ الْأَزْوَاجِ فَذِكْرُهَا ذِكْرُ نِعْمَةٍ أُخْرَى(فقدمها فى الذكر فاصلاً التواصل بين ذكر الأزواج والأنعام) وفصّل ما عليه النظم المذكور... فَلَمَّا ذَكَرَ الْفُلْكَ بِعُنْوَانِ كَوْنِهَا مَرْكُوبًا عَطَفَ عَلَيْهَا الْأَنْعَامَ فَصَارَ ذِكْرُ الْأَنْعَامِ مُتَرَقَّبًا لِلنَّفْسِ لِمُنَاسَبَةٍ جَدِيدَةٍ(غير الأكل منها)..

وأرى أن ذلك الذى ذكرناه هو مثال قوله تعالى﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى** (**١١٨**) **وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى** (**١١٩**) ﴾ ويقول فيها الإمام أبو السعود وغيره: وفصلُ الظمأ عن الجوع في الذكر ، مع تجانُسهما وتقارنِهما في الذكر عادةً ، وكذا حالُ العُرْي والضَّحْو المتجانسين، لتوفية مقامِ الامتنان حقَّه بالإشارة إلى أن نفي كلٌّ واحد من تلك الأمور نعمةٌ على حيالها، ولو جُمع بين الجوعِ والظمأ لربما تُوهم أن نفيَهما نعمةٌ واحدةٌ- ففرق بينهما لتكون كل نعمة على حدة- وكذا الحال في الجمع بين العُرْي والضَّحْو- أى حرارة الشمس التى تؤلم العريان- على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقريرِ بالتنبيه على أن نفي كل واحد من الأمور المذكوره مقصوده بالذات مذكوره بالأصالة لا أن نفيَ بعضها مذكورة بطريق

والتبعية لنفي بعضٍ آخرَ كما عسى يُتوهم لو جمع بين كلَ من المتجانسين (أى أن القارىء يتخيل أن الظمأ تابع للجوع، فيجعلهما نعمة واحدة، وكذلك العرى والضحى).

ويزيد الإمام الألوسى هذا المعنى معانٍ أخرى فى غاية الروعة والإبهار تستحق القراءة والإعادة نذكرها هنا – مع الشرحً والتعليق- لجمالها وبلاغتها فى قوله: وكان الظاهر عدم الفصل بين الجوع والظمأ والعري والضحو – كأن يقول:إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، وأن لا تعرى فيها ولا تضحى- للتجانس والتقارب، إلا أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها، وهي أن الجوع خلو الباطن والعري خلو الظاهر، فكأنه قيل لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس وهو الضحو المورث حرارة الظاهر فكأنه قيل: لا يؤلمك حرارة الباطن والظاهر، وذلك الوصل الخفي ، وهو سر بديع من أسرار البلاغة.

وفي الكشف إنما عدل إلى المنزل- أن لا تجوع فيها ولا تعرى- تنبيها على أن الشبع والكسوة أصلان، وأن الأخيرين- والظمأ والضحى- متممان على الترتيب، فالامتنان على هذا الوجه أظهر، ولهذا فرق بين القرينتين – الجوع والظمأ- فقيل أولا (إنَّ لَكَ) وثانيا (أَنَّكَ). ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى** (**١١٨**) **وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى** (**١١٩**)﴾.

وهذا كلام أراه فى غاية المتعة والجمال ولذلك أردت عرضه كاملاً.

وقد ذكر هذ العلامة الطيبي أيضا وأضاف: وفي تنسيق المذكورات الأربعة مرتبة هكذا مقدما ما هو الأهم فالأهم ثم في جعلها تفصيلا لمضمون قوله تعالى فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى وتكرير **لفظة فيها** وإخراجها في صيغة النفي مكررة الأداة الإيماء إلى التعريض بأحوال الدنيا وأن لا بد من مقاساتها فِيها لأنها خلقت لذلك وأن الجنة ما خلقت إلا للتنعم ولا يتصور فيها غيره.

****

**عودٌ كريمٌ لسياق السورة:

وقوله تعالى: ﴿ **لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦)** ﴾...

وَالْخِطَابُ فِي (وَأَصْفاكُمْ) مُوَجَّهٌ إِلَى الَّذِينَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا، وكان حقها أن تكون (وأصفاهم بالبنين)- وَفِيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ **لِيَكُونَ الْإِنْكَارُ وَالتَّوْبِيخُ أَوْقَعَ عَلَيْهِمْ لِمُوَاجَهَتِهِمْ بِهِ.**(وهكذا فى باقى الالتفاتات).

﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ (أَحَدُهُمْ) بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧)** ﴾ .. وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُؤْتَى بِضَمِيرِ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: أَحَدُهُمْ – على أن تكون: إذا بشر أحدكم- فَعَدَلَ عَنْ ضَمِيرِ الْخِطَابِ إِلَى ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ لِيَكُونُوا مَحْكِيًّا حَالُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ تَعْجِيبًا مِنْ فَسَادِ مَقَالَتِهِمْ وَتَشْنِيعًا بِهَا إِذْ نَسَبُوا لِلَّهِ بَنَاتٍ دُونَ الذُّكُورِ وَهُوَ نَقْصٌ، وَكَانُوا مِمَّنْ يَكْرَهُ الْبَنَاتِ وَيُحَقِّرُهُنَّ فَنِسْبَتُهَا إِلَى اللَّهِ مُفْضٍ إِلَى الِاسْتِخْفَافِ بِجَانِبِ الإلهية.

﴿ **أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ ((آتَيْنَاهُمْ)) كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا ((أَرْسَلْنَا)) (مِنْ قَبْلِكَ) فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣)** ﴾ التفات لخطاب النبى (ﷺ) -وَكَذَلِكَ مَا **((أَرْسَلْنَا))** (مِنْ قَبْلِكَ)- وَيَتَضَمَّنُ هَذَا تَسْلِيَةً للرّسول (ﷺ) عَلَى مَا لَقِيَهُ مِنْ قَوْمِهِ، بِأَنَّ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِ لَقُوا مِثْلَ مَا لَقِيَ.

﴿ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤)** ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ قُلْ بِصِيغَةِ فِعْلِ الْأَمْرِ لِمُفْرَدٍ فَيَكُونُ أمرا للرّسول

(ﷺ) بِأَنْ يَقُولَهُ جَوَابًا عَنْ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ (إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ) (الزخرف: ٢٢) . وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ (قالَ) بِصِيغَةِ فِعْلِ الْمُضِيِّ الْمُسْنَدِ إِلَى الْمُفْرَدِ الْغَائِبِ

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ (جِئْتُكُمْ) بِضَمِيرِ تَاءِ الْمُتَكَلِّمِ. وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ (جِئْنَاكُمْ) بِنُونِ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْمُشَارِكِ وَأَبُو جَعْفَرَ مِنَ الَّذِينَ قَرَأُوا قُلْ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ -قل أو لو جيئناكم- فَيَكُونُ ضَمِيرُ جِئْنَاكُمْ عَائِدًا للنبيِء (ﷺ) الْمُخَاطَبِ بِفِعْلِ قل لتعظيمه (ﷺ)مِنْ جَانِبِ رَبِّهِ تَعَالَى الَّذِي خَاطَبَهُ بَقَوْلِهِ: قُلْ.

((وأنقل للقارىء ذلك العرض لتبيان **نوع الالتفات فى وجوه القراءات** وهو باب طويل نكتفى بالإشارة السريعة إليه))

﴿ فَانْتَقَمْنَا – نحن – **مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) ﴾** والأوجهُ أنَّ السينَ– فى **سَيَهْدِينِ**– للتأكيدِ دون التسويف، وصيغة المضارع – فلم يقل(فهدانى) كما قال(خلقنى)– للدلالة على الاستمرارِ

** ﴿ **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ** – أنا – **هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ** ((**نَحْنُ**)) **قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ((**وَرَفَعْنَا**)) **بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ** ((**لَهُ**)) (**شَيْطَانًا**) **فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** – (**لَهُ**) مفرد سيتحول إلى جمع (وإنهم ليصدونهم) ناظراً وملتفتاً إلى ذريته– **(٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا** –(جمع فى ذات الله بعد إفراد، وإفراد عائد على (من يعش عن ذكر الرحمن)– **قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ**

بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ – ولم يقل (ولم ينفعهم.. إذ ظلموا.. أنهم)- **(٣٩)**ثم التفات إلى النبى(ﷺ) مخاطباً ومواسياً: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨).. وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (بعد لعلهم يرجعون) فى الآية السابقة **(٨٥)** ﴾ (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للجزاءِ والالتفاتُ للتهديدِ وقُرِىءَ على الغيبة .

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦)** ﴾. يقول الإمام الطاهر: وَإِيرادُ لَفْظِ الرَّبِّ فِي قَوْلِهِ: (مِنْ رَبِّكَ) إِظْهَارٌ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِأَنَّ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقُولَ: رَحْمَةً مِنَّا. وَفَائِدَةُ هَذَا الْإِظْهَارِ الْإِشْعَارُ بِأَنَّ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَدْعِي الرَّحْمَةَ بِالْمَرْبُوبِينَ، ثُمَّ إِضَافَةُ (رَبٍّ) إِلَى ضَمِير الرّسول (ﷺ)- رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ- صَرْفٌ لِلْكَلَامِ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى مُوَاجهَة النبيءِ (ﷺ)بِالْخِطَابِ **لِأَنَّهُ الَّذِي جَرَى خِطَابُهُمْ هَذَا بِوَاسِطَتِهِ فَهُوَ كَحَاضِرٍ مَعَهُمْ عِنْدَ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ إِلَيْهِمْ، فَيُصْرَفُ وَجْهُ الْكَلَامِ تَارَةً إِلَيْهِ** كَمَا فِي قَوْلِهِ: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ (يُوسُف: ٢٩) وَهَذَا لِقَصْدِ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ بَعْدَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ.

(وأقول: هذا كلام فى غاية الروعة ويستحق الإعادة والتكرار وحسن التأمل وتطبيقه على الشواهد المثيلة).

وَإِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَى ضمير الرّسول (ﷺ)لِيَتَوَصَّلَ **إِلَى حَظٍّ لَهُ فِي خِلَالِ هَذِهِ التَّشْرِيعَاتِ** بِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ بِوَاسِطَتِهِ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الْإِرْسَالُ رَحْمَةً كَانَ الرَّسُول (ﷺ)رَحْمَةً قَالَ تَعَالَى: وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (الْأَنْبِيَاء: ١٠٧) ، وَيُعْلَمُ مِنْ كَوْنِهِ ربّ الرَّسُول (ﷺ)أَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِذْ لَا يَكُونُ الرَّبُّ رَبَّ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ فَأَغْنَى عَنْ أَنْ يَقُولَ: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ، لِأَنَّ غَرَضَ إِضَافَةِ رَبٍّ إِلَى ضمير الرَّسُول (ﷺ) يَأْبَى ذَلِكَ، ثُمَّ سَيُصَرِّحُ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ فِي قَوْلِهِ (**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**) [الدُّخان: ٨] وَهُوَ مَقَامٌ آخَرُ سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

﴿ **رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)** ﴾.

وَالْإِشَارَةُ فِي هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ إِلَى الدُّخَانِ الْمَذْكُورِ آنِفًا، عَدَلَ عَنِ اسْتِحْضَارِهِ بِالْإِضْمَارِ وَأَنْ يُقَالَ: هُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ، إِلَى اسْتِحْضَارِهِ بِالْإِشَارَةِ، لِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ الْحَاضِرِ الْمُشَاهَدِ تَهْوِيلًا لِأَمْرِهِ كَمَا تَقُولُ: هَذَا الشِّتَاءُ قَادِمٌ فَأَعِدَّ لَهُ. وَقَرِيبٌ مِنْهُ الْأَمْرُ بِالنَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ [الْأَنْعَام: ٢٤] فَإِنَّ الْمَحْكِيَّ مِمَّا يَحْصُلُ فِي الْآخِرَة.

﴿ **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)** ﴾

يقول الطاهر: هَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ هَذَا عَذابٌ أَلِيمٌ [الدُّخان: ١١] وَجُمْلَةِ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى [الدُّخان: ١٣] **فَهِيَ مَقُولُ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ.**((ولكن يتكرر السؤال: من الذى قاله وكيف حدث بهذه السرعة والسلاسة ، وهو ما عشناه على الصفحات الماضية فى تشبيه ذلك بنقل الحدث والشخوص على الهواء مباشرة)) وَحَمَلَهَا جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا حِكَايَةُ قَوْلِ الَّذِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ بِتَقْدِيرِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ، أَيْ هُوَ وَعْدٌ صَادِرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ بِأَنَّهُمْ

يُؤْمِنُونَ أَنْ كُشِفَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ، أَيْ فَيَكُونُ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ [٤٩] وَقالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ، أَيْ إِنْ دَعَوْتَ رَبَّكَ اتَّبَعْنَاكَ وَيَكُونُ بِمَعْنَى قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ [١٣٤] وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ إِلَى قَوْلِهِ: لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ.

وَمِمَّا تَسْمَحُ بِهِ تَرَاكِيبُ الْآيَةِ وَسِيَاقُهَا أَنْ يَكُونَ الْقَوْلُ الْمَحْذُوفُ مُقَدَّرًا بِفِعْلِ أَمْرٍ أَيْ قُولُوا- ربنا اكشف عنا العذاب..- لِتَلْقِينِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يُصِيبَهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ إِذْ كَانُوا وَالْمُشْرِكِينَ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ ،كَمَا اسْتَعَاذَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا [الْأَعْرَاف: ١٥٥] . وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ سَيُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِأَهْلِهَا هَذَا الْعَذَابُ، فَهَذَا التَّلْقِينُ كَالَّذِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبَّنا لَا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا [الْبَقَرَة: ٢٨٦] الْآيَاتِ.

(وما زلت أكرر بالرجوع لما ذكرناه على الصفحات الماضية)

(إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (١٥))

يَجِيءُ عَلَى مَا فَسَّرَ بِهِ جَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ قَوْلُهُ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ (الدُّخان: ١٢) ، أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ جَوابٌ لِسُؤَالِهِمْ، وَيَجِيءُ عَلَى مَا دَرَجْنَا عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِعْلَامًا لِلنَّبِيءِ (ﷺ) بِأَنْ يَكْشِفَ الْعَذَابَ الْمُتَوَعَّدَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مُدَّةً، فَيَعُودُونَ إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ، **وَعَلَيْهِ فَضَمِيرُ إِنَّكُمْ عائِدُونَ الْتِفَاتٌ إِلَى خِطَابِ الْمُشْرِكِينَ،**

فَمَعْنَى إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ: إِنَّا كَاشِفُوهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ قَبْلَهُ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ [الدُّخان: ١٠] الْمُقْتَضِي أَنَّهُ يَحْصُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْآيَةُ مُتَّصِلٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَكَذَلِكَ مَعْنَى إِنَّكُمْ عائِدُونَ، أَيْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَاسْمُ الْفَاعِلِ يَكُونُ مُرَادًا بِهِ الْحُصُولُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْقَرِينَةِ. رُوِيَ أَنَّهُمْ كُشِفَ عَنْهُمُ الْقَحْطُ بَعْدَ اسْتِسْقَاءِ النَّبِيءِ (ﷺ)، فَحَيَوْا وَحَيِيَتْ أَنْعَامُهُمْ ثُمَّ عَادُوا فَعَاوَدَهُمُ الْقَحْطُ كَمَالَ سَبْعِ سِنِينَ، وَلَعَلَّهَا عَقِبَهَا فَتْحُ مَكَّةَ.

***

ثم يعودللحديث عنهم بصيغة الغائب: ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا (قَبْلَهُمْ) قَوْمَ فِرْعَوْنَ (وَجَاءَهُمْ) رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣.. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ – نحن- بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ– هو- عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) (فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) ﴾ وَالْبَاءُ فِي بِلِسَانِكَ لِلسَّبَبِيَّةِ، أَيْ بِسَبَبِ لُغَتِكَ، أَيِ الْعَرَبِيَّةِ وَفِي إِضَافَةِ اللِّسَانِ إِلَى ضَمِيرِ النبيءِ (ﷺ)عِنَايَةٌ بِجَانِبِهِ وَتَعْظِيمٌ لَهُ، وَإِلَّا فَاللِّسَانُ لِسَانُ الْعَرَبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ [إِبْرَاهِيم: ٤] .

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) ((وَفِي خَلْقِكُمْ)) وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ ..

وَعَبَّرَ بِالْمُضَارِعِ فِي (يَبُثُّ)- وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ - لِيُفِيدَ تَجَدُّدَ الْبَثِّ وَتَكَرُّرَهُ بِاعْتِبَارِ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الدَّوَابِّ وَأَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا..

﴿ تِلْكَ آيَاتُ (اللَّهِ) (نَتْلُوهَا) عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ ((يُؤْمِنُونَ)) (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ (آيَاتِنَا) شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ (وَرَائِهِمْ) جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ (رَبِّهِمْ) لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ (لَكُمُ) الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (وَلَعَلَّكُمْ) تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ (لَكُمْ) مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤))

وَكَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ لِيَجْزِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، **فَعَدَلَ إِلَى الْإِظْهَار فِي مَقَامِ الْإِضْمَار** لِيَكُونَ لَفْظُ قَوْماً مُشْعِرًا بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَضْيَعَةٍ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّ لَفْظَ (قَوْمٍ) مُشْعِرٌ بِفَرِيقٍ لَهُ قِوَامُهُ وَعِزَّتُهُ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا (مُحَمَّد: ١١) .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي

بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا-هم- فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ** عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨)﴾ والْخطاب للنبيء (ﷺ).

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ **مِنَ اللَّهِ** شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ **وَاللَّهُ** وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ **نَجْعَلَهُمْ** كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) **وَخَلَقَ اللَّهُ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ **وَلِتُجْزَى** كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) **أَفَرَأَيْتَ** مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ **وَأَضَلَّهُ اللَّهُ** عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ **بَعْدِ اللَّهِ** أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا **يَظُنُّونَ** (٢٤) وَجِيءَ بِالْمُضَارِعِ فِي (يَظُنُّونَ) لِأَنَّهُمْ يُحَدِّدُونَ هَذَا الظَّنَّ وَيَتَلَقَّاهُ صَغِيرُهُمْ عَنْ كَبِيرِهِمْ فِي أَجْيَالِهِمْ وَمَا هُمْ بمقلعين عنهُ. ﴿وَإِذَا تُتْلَى **عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا** بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ **يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ** – "أنتم" بدلاً من "هم"- إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) **وَلِلَّهِ** مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ **يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ** (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) **هَذَا كِتَابُنَا** يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ** مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ **فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ** فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ **تَكُنْ آيَاتِي** تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ **وَعْدَ اللَّهِ** حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ **نَنْسَاكُمْ** كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُمْ (بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ) **آيَاتِ اللَّهِ** هُزُوًا (**وَغَرَّتْكُمُ**) الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ (**لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا**)(**وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**)(**٣٥**)﴾ يقول أبو السعود: والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان بإسقاطِهم عن رتبة الخطاب استهانة بهم أو بنقلِهم من مقامِ الخطابِ إلى غيابةِ النار ...

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) وتكريرُ الربِّ للتأكيدِ والإيذانِ بربوبيتِهُ تعالى.. {وله الكبرياء **في السماوات والأرض**} لظهورِ آثارِ الكبرياء وأحكامِها فيهما- السموات والأرض- وإظهارهما في موقعِ الإضمارِ لتفخيمِ شأنِ الكبرياءِ.

*** وأقول إن هذا العرض سنراه تماماً فى سورة الأحقاف بعدها فلا داعى لتكرار اللعرض على أن يقف القارىء عليها بنفسه متأملاً ومسترجعاً لما ذكرناه.

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ (إِنَّا فَتَحْنَا) لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ (اللَّهُ) مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . ﴾

.. فبذلك اجتمع تفخيم الأمر- الفتح-((إِنَّا فَتَحْنَا))، وتربية المهابة والإجلال لمن سيغفر ويتم النعمة عليه إنه هو الله، فأسند- سبحانه- الفعل إلى نون العظمة (فَتَحْنا) لتفخيم شأن المخبر- عز وجل- وعلو شأن المخبر عنه وهو الفتح.

يقول الزمخشرى: هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح- أى لم يقع الفتح بعد أثناء نزول هذه الآيات-، وجيء به على **لفظ الماضي**-إنا فتحنا- على عادة رب العزة سبحانه في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر – المخبر عنه- ما لا يخفى . قال أحمد: ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى الغيبة. (إِنَّا فَتَحْنَا) لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ (اللَّهُ)

ويقول الإمام الرازى:

أَمَّا الْمَسْأَلَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ: وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ أَبْرَزَ الْفَاعِلَ وَهُوَ (اللَّهُ)، .. وهاهنا لَمْ يَقُلْ وَيَنْصُرُكَ نَصْرًا، بَلْ أَعَادَ لَفْظَ (اللَّهِ)، فَنَقُولُ هَذَا إِرْشَادٌ إِلَى طَرِيقِ النَّصْرِ (أى الإشارة إلى التماس النصر من الله) وَلِهَذَا قَلَّمَا- نادراً ما- ذَكَرَ اللَّهُ النَّصْرَ مِنْ غَيْرِ إِضَافَةٍ،(أى أنه يضيف النصر له

سبحانه أو لضميره)- فَقَالَ تَعَالَى: **بِنَصْرِ اللَّهِ** يَنْصُرُ (الرُّومِ: ٥) وَلَمْ يَقُلْ بِالنَّصْرِ يَنْصُرُ من يشاء، وَقَالَ: هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ **بِنَصْرِهِ** (الْأَنْفَال: ٦٢) وَلَمْ يَقُلْ بِالنَّصْرِ، وَقَالَ: إِذَا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (النَّصْر: ١) وَقَالَ: **نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ** وَفَتْحٌ قَرِيبٌ (الصف: ١٣) وَلَمْ يَقُلْ نَصْرٌ وَفَتْحٌ، وَقَالَ: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (الأنفال: ١٠) وَهَذَا أَدَلُّ الْآيَاتِ عَلَى مَطْلُوبِنَا، وَتَحْقِيقُهُ هُوَ أَنَّ النَّصْرَ بِالصَّبْرِ، وَالصَّبْرَ بِاللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ **إِلَّا بِاللَّهِ** (النَّحْلِ: ١٢٧) وَذَلِكَ لِأَنَّ الصَّبْرَ سُكُونُ الْقَلْبِ وَاطْمِئْنَانُهُ، وَذَلِكَ بِذِكْرِ الله، كما قال تَعَالَى: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرَّعْدِ: ٢٨) فلما قال هاهنا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ، أَظْهَرَ **لَفْظَ اللَّهِ** ذِكْرًا لِلتَّعْلِيمِ أَنَّ بِذِكْرِ اللَّهِ يَحْصُلُ اطْمِئْنَانُ الْقُلُوبِ، وَبِهِ يحصل الصبر، وبه يتحقق النصر.

وهاهنا مَسْأَلَةٌ أُخْرَى وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: (إِنَّا فَتَحْنا) ثُمَّ قَالَ: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ، وَلَمْ يَقُلْ (إِنَّا فَتَحْنَا لِنَغْفِرَ لَكَ) تَعْظِيمًا لِأَمْرِ الْفَتْحِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ **الْمَغْفِرَةَ** وَإِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً لَكِنَّهَا عَامَّةٌ- للنبى(ﷺ) ولغيره ولكل الذنوب- لِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً (الزُّمَر: ٥٣) وَقَالَ: وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ (النِّسَاءِ: ٤٨).. **وَإِتْمَامُ النِّعْمَةِ** كَذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (الْمَائِدَةِ: ٣) وَقَالَ: يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ (الْبَقَرَةِ: ٤٧) **وكذلك الهداية** قال الله تعالى: يَهْدِي مَنْ يَشاءُ (القصص: ٥٦) فَعَمَّمَ، **وَكَذَلِكَ النَّصْرُ** قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصَّافَّاتِ: ١٧١، ١٧٢).

يريد الإمام أن يقول: إن المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر كلها يجوز أن تكون عامة وقد حدثت لغير النبى(ﷺ)،فجاء بصيغة الغيبة التى تناسب ذلك ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)** ﴾ .. وَأَمَّا الْفَتْحُ (فتح مكة) فَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ غَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَظَّمَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّا (فَتَحْنا) لَكَ فَتْحاً،**(بصيغة

الجمع التعظيمى والحضور ولم يأت بصيغة الغيبة) وَحدث فِيهِ التَّعْظِيمُ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: (إِنَّا) وَثَانِيهِمَا: (لَكَ) أَيْ لأجلك على وجه المنة.

والإمام أبو السعود ينظر إلى إفراد لفظ الجلالة (الله) فيقول: (لّيَغْفِرَ لَكَ الله) غايةٌ للفتحِ منْ حيثُ إنَّه مترتبٌ على سعيهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في إعلاءِ كلمةِ الله تعالى بمكابدةِ مشاقِّ الحروبِ واقتحامِ مواردِ الخطوبِ والالتفاتُ إلى اسم الذاتِ المستتبعِ لجميعِ الصفاتِ – لك الله- للإشعار بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا انتظم في سلك الغايةِ من أفعالِه تعالى صادرٌ عنه تعالى(الله) من حيثيةٍ غيرِ حيثيةِ الآخرِ مترتبةٍ على صفةٍ من صفاته تعالى.

(كأنه يقول ذكر لفظ الجلالة (الله) ورد مع تعداد أفعاله تعالى ونعمائه (ليغفر.. ويتم نعمته ويهديك وينصرك)، لأن اسم الذات (الله) يحوى جميع صفات الجلال والجمال، فحينما يُذكر لفظ الجلالة (الله) فإننا نعدد كل الصفات: الرحمن الرحيم الملك القدوس...الخ وكل صفة منها لها مدلولها فى الفعل- فصفة الرحيم تقتضى فعل الرحمة وهكذا- وهذه الصفات المذكورة من المغفرة والهداية والنصر كل منها يحتاج لصفة من صفاته تعالى فناسب ذلك ورود لفظ الجلالة (الله) الجامع لتلك الأسماء والصفات.

ونلاحظ تغير السياق بعدها حسبما ذكرنا على الصفحات الماضية هكذا: ﴿**((هُوَ)) الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوب الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ((وَلِلَّهِ)) جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤)**﴾

****

التغيير فى الشكل الإعرابى للكلمة

فمن تلك المواطن قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ **وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا** فَهَلْ **وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ..** (٤٤) ﴾ (الأعراف).

فلقد عدلت الآية الكريمة عن ذكر مفعول الوعد في "وعدنا" إلى حذفه في "وعد ربكم"؛ إذ لو جرى السياق على نمط واحد لقيل: فهل وجدتم (ما وعدكم) ربكم.

وللمفسرين في توجيه هذا العدول أقوال:

١- فهو – في رأي – إيجاز وتخفيف واستغناء عن المحذوف في الوعد الثاني بالمذكور في الوعد الأول.

٢- وهو – في رأي آخر – راجع إلى المخالفة بين وعد أصحاب الجنة ووعد أصحاب النار؛ إذ أن الثاني منهما يشمل كل ما وعد الله عباده به من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال يوم القيامة، فهو ليس وعداً خاصاً بالكفار، بل هو وعد عام أو مطلق، وهذا سر حذف مفعوله،(فقال: وعد ربكم، ولم يقل: وعدكم ربكم) أما الوعد الأول فهو الوعد بنعيم الجنة، أي أنه وعد خاص بالمؤمنين، ومن ثم ذكر مفعوله العائد عليهم.(فقال: وعدنا ربنا) ولم يقل(وعد ربنا).

٣- وفيه – في رأي ثالث – إبراز للمفارقة بين ما يظفر به المؤمنون من حفاوة وتكريم وما يجابه به الكفار من إهانة وتحقير، ففي ذكر المفعول به – أولاً –(وعدنا) دليل على أن المؤمنين خوطبوا بهذا الوعد من قبل الله تعالى(وعدنا) ، وفي ذلك مزيد من التشريف لحالهم، أما حذفه – ثانياً –(وعد ربكم) ففيه إسقاط للكفار عن رتبة التشريف، وإشعار بأنهم ليسوا أهلاً لخطابه عز وجل.

٤- ونود أن نضيف إلى تلك الوجوه الثلاثة (التي لا تتنافى ولا تتعارض) وجهاً آخر، وهو أن في هذا العدول إشعاراً بالبون الشاسع بين تلقي المؤمنين وتلقي الكفار – في الدنيا – لوعد الله؛ ففي ذكر مفعول الوعد الأول(وعدنا) إيحاء بأن المؤمنين قد تلقوا هذا الوعد بقلوب حاضرة وعقول واعية(وعدنا) فبادروا إلى تصديقه، وأحسنوا العمل من أجله، وبالتالي فإن في حذف مفعول الوعد الثاني إيماء إلى أن هؤلاء الكفار قد أصموا آذانهم عن سماعه،(وعد ربكم) وغيبوا عقولهم عن إدراكه، فكأن هذا الوعد كان في واد، وهم بضلالهم عنه في واد آخر.

ويقول الإمام أبو السعود: حُذف المفعولُ من الفعل الثاني إسقاطاً لهم عن رتبة التشريفِ بالخطاب عند الوعدِ، وقيل لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصاً بهم وعداً كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة فإنهم قد وجدوا جميعَ ذلك حقاً.

****

ملحق لحديث (الدبر والأدبار)

﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ﴾ آل عمران.

وكان حقها أن تكون مجزومة- ثُمَّ لَا يُنْصَرُوا- لإتيانها على صيغة الشرط..((وهو نوع من الالتفات)) وهنا أدع المجال للإمام الزمخشرى لتوضيح السبب فى هذا العدول (وسأقوم بالشرح والتعقيب الكثير عليه لصعوبة هذا الباب) وذلك فى قوله: فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: (ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ) وقال(ثم لا ينصروا) ؟ قلت عدل به عن حكم الجزاء(٤)إلى حكم الإخبار

---

(٤) أى جزاء الشرط المجزوم.

ابتداء(٥)كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت:

لو جزم لكان نفى النصر مقيداً بمقاتلتهم، كتولية الأدبار(٦) وحين رفع كان نفى النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوّة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط **والجزاء كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون**. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثمَّ-(ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ) - ؟ قلت: التراخي في المرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم(لا يُنْصَرُونَ) أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار(يولوكم الأدبار) (٧).

ويقول الإمام الطاهر: وَقَوْلُهُ (ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) (احْتِرَاسٌ) أَيْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ تَوْلِيَةَ مُنْهَزِمِينَ لَا تَوْلِيَةَ مُتَحَرِّفِينَ لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزِينَ إِلَى فِئَةٍ، أَوْ مُتَأَمِّلِينَ فِي الْأَمْرِ) (٨).

---

(٥)أى أن النص قد انتهى عند قوله: وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ) ثم بدأت بعدها جملة أخرى بقوله(ثم لا ينصرون) وبذلك لاتكون مرتبطة بفعل الشرط (وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ) فلا تقع فى حيز جزاء الشرط المجزوم أو معطوفة عليه)

(٦)(أى سيكون المعنى أنهم لاينصرون إلا حين يولى الكفار الأدبار، أما إن لم يولو الأدبار فسوف لا ينصرون عليهم، وهذا ما لا يريده النص، ولكنه يريد أن يقول: إنكم تنصرون عليهم سواء قاتلوكم أم لم يبدؤوكم بالقتال، فلذلك أتى بهذه الجملة(ثم لا ينصرون) غير مقيدة بجملة الشرط وجاءت لذلك مرفوعة– جملة من المبتدأ والخبر– وغير مجذومة).

(٧) وهذا التباعد بين الرتبتين مماثل لقوله تعالى:(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ((ثُمَّ)) اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)). فشتان بين المرتبتين؛ الأولى: لقاء موسى مع ربه، والأخرى وهم يعبدون العجل، فالأولى فى قمة الطهر والعلو والرفعة، والثانية فى غاية التسفل والانحطاط، فجاءت (ثم) بينهما لتفيد التباعد بين الرتبتين– ويسمى هنا تباعد رتبى–

(٨) وأقول: هذا معنى آخر يريد فيه أن يقول: إن هؤلاء حينما تقاتلوهم سيولون الأدبار(وهى تعنى أنهم ينهزمون) وكان يكفى هذا ، ولكن لأن (تولية الأدبار) لها معانٍ أخرى غير الهزيمة– كأن يولى الدبر لينضم إلى فئته أو يأخذ مكاناً أقوى يستطيع النصر من خلالها– فجاء بجملة منفصلة على سبيل

وَفِي الْعُدُول عَنْ جَعْلِهِ مَعْطُوفًا عَلَى جُمْلَةِ الْجَوَابِ إِلَى جَعْلِهِ مَعْطُوفًا عَلَى جُمْلَتَيِ الشَّرْطِ وَجَزَائِهِ مَعًا، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا دَيْدَنُهُمْ وَهَجِيرَاهُمْ لَوْ قَاتَلُوكُمْ، **وَكَذَلِكَ فِي قِتَالِهِمْ غَيْرَكُمْ**.(وهذا توضيح آخر لا يقل جمالاً عن سابقه)

ومثل هذا العدول النحوى فى قوله تعالى:

** ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (فَضَرْبَ) الرِّقَابِ** .. (٤) ﴾ محمد. ولم يقل (فضربُ) بالرفع.فلماذا؟

لَقِيتُمُ من اللقاء وهو الحرب (فَضَرْبَ الرِّقابِ) أصله: فاضربوا الرقاب ضربا، فحذف الفعل (فاضربوا) وقدّم المصدر الذى يدل عليه(ضرباً) فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول(ضرب الرقاب). وفيه اختصار- حيث لم يذكر الفعل والفاعل فى قوله(فاضربوا) وحل محله المصدر المؤكد فقط- مع إعطاء معنى التوكيد، لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل-فاضربوا- بالنصبة التي فيه – فى قوله: (ضربَ) الرقاب-.(٩).. أى: فإذا كان حال الذين كفروا كما ذكرت لكم من إحباط أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وإعراضهم عن الحق، فإذا لقيتموهم للقتال، فلا تأخذكم بهم رأفة، بل اضربوا رقابهم ضرباً شديداً.

(وأقول: هذا الرأى يكون فى حال اللقاء إذا فُرِض علينا القتال، فلا بد أن يروا بأسنا الشديد ، وهذا النص بهذه الصورة يؤكد على الضرب بقوة، وأكرر: هذا فى حال لقائهم فى حالة الحرب فقط وليس فى حال المسالمة، فهى ليست حالة دائمة ولذلك لم يقل(فضربُ) بالرفع، التى تفيد الثبات الدوام- كجملة إسمية من المبتدأ والخبر-، أى دوام الضرب للرقاب لهم فى كل حال- حال السلم والحرب-، وهذا

الاحتراس من هذا الظن تؤكد على أن التولى هو بسبب الهزيمة لهم فقط، فقال (ثم لا ينصرون) فهى حينئذٍ جملة مستقلة من مبتدأ وخبر بمعنى(ثم هم لا ينصرون))وغير مرتبطة بالشرط

(٩) وقوله: (فَضَرْبَ) منصوب على أنه مصدر لفعل محذوف.. فاضربوا الرقاب ضربا ، ولو رفعت لم تعط هذه الإشارة للفعل المحذوف الذى يفيد التوكيد وأنه جملة فعلية.

غير مقصود، ولذلك أتى بصيغة النصب(فضربَ)التى تدل على أن أصلها جملة فعلية(فاضربوا ضربَ)

والمثال التوضيحى لذلك سنعيشه مع قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا (**سَلَامًا**) **قَالَ** (**سَلَامٌ**).. (٦٩)) ﴾

(سلاماً.. سلامٌ) سلاماً مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره(نسلِّم سلاماً) و(سلامٌ) بالرفع مبتدأ خبره محذوف تقديره سلامٌ عليكم. وفيها أعاريب أخرى لكن هذا أشهرها.

هذا في قصة سيدنا إبراهيم، (سلاماً) جملة فعلية هي مفعول مطلق لفعل محذوف يسلم سلاماً، (سلامٌ) مبتدأ جملة إسمية. سلاماً جملة فعلية ... وكل منصوب هو جملة فعلية، فإذا وجدت منصوباً وليس هناك له ناصب فإعلم أنها جملة فعلية، إذا قرأت (ويلاً) هذه جملة فعلية (تباً له) جملة فعلية هذه قاعدة، أما في الرفع فهو جملة إسمية (ويلٌ له) جملة إسمية (ويلاً له) جملة فعلية هذه قاعدة. فإذن (سلاماً) جملة فعلية و(سلامٌ) جملة إسمية وعندنا قاعدة أن الإسم أثبت وأقوى من الفعل. فالملائكة حيَّوه بالجملة الفعلية (سلاماً) وهو حيَّاهم بما هو آكد كأنه تفسير لقوله تعالى(وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا (٨٦) النساء) هو حياهم بأحسن من تحيتهم فرد التحية بالجملة الإسمية (سلامٌ).

****

﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً **فَظَلَّتْ** أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾.

ويجب أن تكون (**فَظَلَّتْ** أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعة) وهنا يقول الإمام الزمخشرى: وقرئ: فتظل أعناقهم. فإن قلت: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق- وحقها أن تكون(خاضعة) قلت: أصل الكلام: فظلوا- الكفار- لها- أى للآيات- خاضعين، فأقحمت الأعناق- أى دخلت الأعناق فى وسط السياق- لبيان موضع الخضوع- أى أنهم خضعوا وموضع خضوعهم كان الأعناق التى هى مناط العزة والكبرياء-،

وترك الكلام على أصله، كقوله: ذهبت أهل اليمامة، كأنّ الأهل غير مذكور(١٠) أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل: خاضعين، كقوله تعالى لِي ساجِدِينَ (يقصد قول الله تعالى عن رؤيا يوسف(يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ((سَاجِدِينَ)) (٤)) فقال رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ- التى هى للعقلاء- رغم أن الكواكب والشمس والقمر غير عاقلة فكان يجب أن تقال(سجود)، ولو قال ذلك لظننا أنه السجود المعتاد من الخلائق لله، ولكن يوسف رآهم على سجودٍ آخر كسجود العقلاء ولذلك قال (رَأَيْتُهُمْ لِي ((سَاجِدِينَ)) .. وهو ما قاله أيضاً الإمام الزمخشرى: فإن قلت. فلم أجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود. أجرى عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم، **أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه، فيعطى حكما من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة.**

وفيها يقول الإمام الرازى:

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ سَجَدَتْ لَهُ، وَكَانَ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ نَفَرًا مِنَ الْإِخْوَةِ، فَفَسَّرَ الْكَوَاكِبَ بِالْإِخْوَةِ، والشمس والقمر بالأب والأم، والسجود بتواضعهم به وَدُخُولِهِمْ تَحْتَ أَمْرِهِ، وَإِنَّمَا حَمَلْنَا قَوْلَهُ: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً عَلَى الرُّؤْيَا لِوَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تَسْجُدُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَوَجَبَ حَمْلُ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى الرُّؤْيَا. وَالثَّانِي: قَوْلُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ (يُوسُفَ: ٥) وَفِي الْآيَةِ سُؤَالَاتٌ:

---

(١٠)حيث كان يجب على السياق أن يقول: (ذهب أهل اليمامة) وكأنه قال (ذهبت اليمامة)- وهى بلدة، وهو أسلوب مبالغة كأن البلدة بديارها ومن فيها ومن عليها ذهبت- ولكنه وضع كلمة (أهل) لبيان من الذى سجد، وكأن أهل القرية – وهم المقصودون- ذهبوا مع القرية.

السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: قَوْلُهُ: رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ فَقَوْلُهُ: ساجِدِينَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْعُقَلَاءِ، وَالْكَوَاكِبُ جَمَادَاتٌ، فَكَيْفَ جَازَتِ اللَّفْظَةُ الْمَخْصُوصَةُ بِالْعُقَلَاءِ فِي حَقِّ الْجَمَادَاتِ.

قُلْنَا: إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْكَوَاكِبَ أَحْيَاءٌ نَاطِقَةٌ احْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَكَذَلِكَ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (الأنبياء: ٣٣) وَالْجَمْعُ بِالْوَاو وَالنُّون مُخْتَصٌّ بِالْعُقَلَاءِ. وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَصَفَهَا بِالسُّجُودِ صَارَتْ كَأَنَّهَا تَعْقِلُ، فَأَخْبَرَ عَنْهَا كَمَا يُخْبِرُ عَمَّنْ يَعْقِلُ كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ الْأَصْنَامِ وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (الْأَعْرَافِ: ١٩٨) وَكَمَا فِي قوله: يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ (النَّمْلِ: ١٨) .

وقيل – أعناقهم– أى: أعناق الناس: رؤساؤهم ومقدّموهم، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرءوس والنواصي والصدور. قال: في محفل من نواصي النّاس مشهود.

وقيل: جماعات الناس. يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم. وقرئ: فظلت أعناقهم لها خاضعة.. ونقول : إنها قراءة تفسيرية

****

وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ

قوله تعالى: فى سورة البقرة ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ البقرة

وشاهدهم على هذه الشبهة هو قوله سبحانه: ((وَٱلصَّٰبِرِينَ)) " التي جاءت منصوبة بـ"الياء" رغم أنها معطوفة على "وَٱلْمُوفُونَ " المرفوعة بالواو وكان يجب أن يرفع المعطوف– يعنى: الصابرين– على المرفوع– يعنى: الموفون– فيقول: والموفون والصابرون" هذا قولهم.

الرد على الشبهة:

يُحسن بنا أولاً أن نذكر هذه الآية بتمامها لننظر فيها نظرة جُملية قبل مواجهة ما آثاره الخصوم حولها:ومفردات الآية تتحدث عن صفات المؤمنين:

(وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ) (وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ) (وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ) (وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ ﴾ .. نجد أن كل هذه الصفات قوامها وأساسها واعتمادها على الصبر لأدائها وتوفيتها حقها والثبات عليها.. ولذلك ستأتى هذه الصفة – الركن الأساسى– التى لابد أن يخصص لها هذه الأهمية القصوى فى قوله: ﴿ **وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ**). وتختم بقوله تعالى:﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ** ﴾ . وإذا تأملت هذه الوحدات وعناصرها المندرجة تحتها وجدت أن أشدها وقعاً على النفس وأكثرها أعباء وأشقها كلفة **هى الصبر** فى المحن والشدائد والأخطار وبخاصة فى ملاقاة العدو والتعرض لزحفه وسلاحه وقد يفضى بالإنسان إما إلى حدوث عاهات مؤلمة فى الجسم وإما إلى الموت ؛ فالمقاتل فى ساحات الكر والفر إنما يصارع الموت ومقدمات الموت.

ولهذا جاء إعراب "الصابرين" مخالفاً لإعراب ما قبلها ليلفت الله أذهان العباد إلى أهمية الصبر فى هذه المجالات ، وهذا الإعراب المخالف لما قبله يفيد – مع تركيز الانتباه وتوفير العناية بتأمل هذا الخلق العظيم – يفيد أمراً آخر مبهجاً للنفوس هو مدح هؤلاء الصابرين شديدى العزيمة قويى الاحتمال. وعلى هذا التقدير لفعل المدح(أخص) يكون الإعراب هكذا: أخص: فعل مضارع والفاعل ضمير مستتر تقديره الله، و (الصابرين) مفعول به لهذا الفعل المحذوف(أخص) (منصوب)، والمعلوم من السياق ومن لغة العرب أن هذا التغيير الإعرابى(بالنصب) قد أشار إلى هذا التقدير لفعل المدح والذى يسمى (بالقطع والاختصاص).

وهنا نقف وقفة سريعة لتوضيح السبب فى هذه التخصيص لصفة (الصبر) هذه ، ولماذا (الصابرين) فى هذه الآية من سورة البقرة ؟ والتوضيح كالآتى:

(١) أن جميع الصفات التى ذكرت فى هذه الآية قوامها الصبر ؛ فالإيمان بالله وعبادته يحتاج إلى صبر ، والإنفاق فى سبيل الله يحتاج إلى صبر، وخاصة أن النص القرآنى يقول: وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ،وورود حرف الاستعلاء (على) حبه ولم يقل (وآتى المال مع حبه) ليفيد استعلاء نفوسهم على حب المال والإنفاق فى سبيله الذى يعلو على غير المؤمنين ، وهكذا المحافظة على الصلوات بكامل أركانها وخشوعها يحتاج إلى الصبر والمصابرة، والوفاء بالعهود مع الغادرين يحتاج إلى ذلك أيضاً .. إلى أن يصل النص القرآنى بنا إلى الصفة العظيمة التى هى موضوع حديثنا وهى ۖ ﴿ **وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ** ﴾.. والتى قال فيها العلماء أن كلمة (والصابرين) تم تغيير إعرابها للنصب بدلاً من الرفع للاختصاص بالمدح

(٢) ويبقى السؤال الهام وهو: لماذا حدث هذا التغيير وهذا التخصيص بالمدح لصفة الصابرين فى هذا السياق من آيات سورة البقرة؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد من مراجعة هذه الصفات المذكورة وأهمية الصبر لها.

والأمر الثانى هو: إنه بمراجعة سياق الآية نفسها نجد أنها لاتتحدث عن الصبر المعتاد الذى يعلو عليه صاحبه- كما فى قوله(الصابرين "على" ما أصابهم)- ، ولكنها تتحدث عن أعلى درجات الصير و أعلى طبقات الصابرين ، فهى تتحدث عن : الصابرين (فى) البأساء والضراء وحين البأس.. ومعلوم أن (البأساء) هى الفقر والشدة (والضراء) المرض والزمانة ، و(حين البأس) : أى القتل والمقاتلة والجهاد بالنفس والنفيس . وتحمل كل آلام هذه الأحوال المذكورة التى لم تأتهم على فترات متباعدة تعطيهم بينها قسطاً من الراحة، ولكن هذه الشدائد تحيط بهم من كل جانب وفى كل وقت إحاطة كاملة ولايجدون متنفساً لهم ، وهذا ما أشار إليه النص القرآنى المعجز باستخدام حرف الظرفية (فى)، فى قوله تعالى : الصابرين (فى) البأساء والضراء وحين البأس، والذى يعطى كل هذه المعانى

التى أشرنا إليها،كما فى قول الشاعر ربيعة بن مقرم يصف حاله فى الحرب: شهدت طرادها فصبرت (فيها) ..فالصبر (فى) الحرب شيء والصبر (عليها) شيء آخر

وهذا بخلاف ورود صفات الصابرين فى آيات أخرى يستعمل فيها حرف الاستعلاء- الذى يفيد تعاليهم على هذه المصيبة ويعطى إشارة على هوانها بالنسبة لهم كما فى قوله تعالى : والصابرين (على) ما أصابهم، ولنصبرن (على) ما آذيتمونا، فصبروا (على) ما كذبوا، واصبر (على) ما يقولون-... فكل هذه الصيغ تختلف عن قوله تعالى عنهم: (الصابرين (فى) البأساء والضراء وحين البأس،)

ولذلك يقول الإمام الألوسى:{ والصابرين * فِى البأساء والضراء } نصب على المدح بتقدير أخص أو أمدح ، وغيَّر سبكه (إعرابه) عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته على سائر الأعمال حتى كأنه ليس من جنس الأول ، ((وهذا ما يسميه العلماء بأسلوب القطع، أى أنه قطع السياق الذى كان بالرفع وجعل السياق المعطوف عليه بالنصب – كما فى حالتنا هذه – للفت الانتباه إلى صفة المدح هذه).

ولذلك يكمل الإمام الألوسى قوله: ومجيء القطع في العطف مما أثبته الأئمة الأعلام ووقع في الكتاب أيضاً واستحسنه الأجلة وجعلوه أبلغ من الاتباع .

ثم يقول: وعدى الصبر على الأولين ب(في) لأنه لا يعد الإنسان من الممدوحين إذا صبر على شيء من ذلك إلا إذا صار الفقر والمرض كالظرف له (أى محيطاً به من كل جانب كالظرف للخطاب)، وأما إذا أصابه وقتاً مّا وصبر فليس فيه مدح كثير، إذ أكثر الناس كذلك ، وأتى بحين في الأخير- أى حين البأس - لأن القتال حالة لا تكاد تدوم في أغلب الأوقات.

وإلى هنا وبعد هذا الشرح الوافى بعض الشىء فإن الأمر لايحتاج إلى تعليق ، وهذا يكفى للإجابة عن هذا السؤال القائل: لماذا تغير ت الحركة الإعرابية من الرفع إلى النصب، وإن كان للتخصيص بالمدح لهؤلاء الصابرين فلماذا هؤلاء

الصابرون بصفة خاصة وفى هذا السياق ؟ ولكننا نضيف فوق ذلك وصف الله تعالى لهم – وهو أعلى من كل وصف –بقوله عنهم ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (١٧٧) ﴾ فما أروعه من وصف وما أجله وهو يشير إليهم مرتين بقوله (أولئك) باسم الإشارة للبعيد ليدل على بعد مكانتهم وعلوها. وهذا هو الذى به استحقوا هذا القطع وهذا التغيير فى نظم الآية؛ لهذا الملفت العظيم وهذا المدح على هذا المقام العالى، وكما يكمل الإمام الألوسى عنهم:(أُولَئِكَ الذين صَدَقُوا) في إيمانهم أو طلب البر .(وَأُولَئِكَ هُمُ المتقون) عذاب الله تعالى بتجنب معاصيه وامتثال أوامره ، وأتى بخبر أولئك الأولى : موصولاً بفعل ماض – أى : صدقوا - إيذاناً بتحقق اتصافهم به - أى بالصدق- وإن ذلك قد وقع منهم واستقر ، وغاير في خبر الثانية (وأولئك هم المتقون ، ولم يقل وأولئك الذين اتقوا):- جملة إسمية- ليدل على أن ذلك (أى الوصف بالتقوى) ليس بمتجدد بل صار كالسجية لهم (أى الطبع الدائم لهم)، وأيضاً لو أتى به مطابقا لسابقه لما حسن وقوعه فاصلة

ألا يستحق هؤلاء (الاختصاص بالمدح) وهم على هذه الصفات؟

ويقول الدكتور المطعنى: فانظر إلى نفائس هذه المعانى التى دل عليها نصب "الصابرين" مع كون ما قبله مرفوعاً، إنها بلاغة القرآن المعجز وعبقرية اللغة العربية لغة التنزيل الحكيم .وهذا الإعراب المخالف لإعراب ماقبله هو الذى يسميه النحاة واللغويون بـ"القطع" كما سنرى فى نظيريه فى هذه الدراسة إما للمدح كما فى هذه الآية وآية النساء "والمقيمين الصلاة" الآتية. وإما بقصد الذم كما فى قوله تعالى فى سورة المسد

****

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ المسد.

أى امرأة أبى لهب التى كانت تحمل الشوك وتنثره فى طريق رسول الله (ﷺ)لتؤذيه ، لأن كلمة **"حمالةَ" جاءت منصوبة** بعد رفع ما قبلها وهى "امرأتُه"- أى كان يجب فى غير القرآن أن تكون مرفوعة- فهذا قطع كذلك ، القصد منه الذم أى: أذم أو ألعن حمالة الحطب. ((ولك أن تتخيل ورود النص على سياقه المعتاد لنا (وامرأته "حمالةُ) برفع "حمالة"، ستجد وقتها أنه كلام عادى(من مبتدأ وخبر مرفوع) يصف امرأة أبى لهب بأنها تحمل الحطب (فقط دون إضمار معنى الذم لها) وليس كما فى حالة النصب(القطع)، هذا الذى أعطى معنى هذا الذم بتقدير فعل محذوف تقديره أذم أو ألعن حمالةً الحطب(وحمالة)- بالنصب- مفعول به لهذا الفعل المحذوف ، فما أروعه من بيان وما أطيبه وأعذبه من حديث.

وأياً كان القطع للمدح أو الذم فإنه من أرقى الأساليب البلاغية ويحتوى على فضيلة الإيجاز ، وهى أن تكون المعانى أكثر وأوفر من الألفاظ التى تدل عليها أو المستعملة فيها(بتغيير حركة إعرابية فقط) ؛ لأن كل كلمة قُطع إعرابها عما قبلها نابت هذه الكلمة مناب ثلاثة قيم بيانية رامزة إلى وجودها فى المقام وإن كانت محذوفة وهى:

١- الكلام الذى عمل الإعراب المخالف فى الكلمة المقطوع إعرابها(والصابرين فى) عن إعراب ما قبلها(الموفون) وهو أمدح أو أخص الصابرين بالمدح. وفى آية "المسد" أذم أو ألعن

٢- إفادة المدح أو الذم بغير الألفاظ التى تدل عليهما.(وهو أدب عال وغال)

٣- فضيلة الإيجاز البيانى المفعم بالمعانى الآسرة والدلالات الساحرة (فهذا لون من ألوان الإعجاز).فسبحان من هذا كلامه!

****

وبقي تخصيص الصلاة بالمدح فى سياقها الرائع فى سورة النساء وقوله (والمقيمين الصلاة) على نفس أسلوب القطع والاختصاص هذا، لتشرح قوله تعالى

فى أول كتابه ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ﴾ البقرة وهاهو تفصيل هذه الآية:

﴿ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾

هو قوله تعالى: فى سورة النساء الآية ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢ ﴾ النساء

فقد نظروا فى هذه الآية فوقعت أعينهم على كلمة "المقيمين" فقارنوا بينها وبين ما قبلها: "الراسخون"- "المؤمنون" وبين ما بعدها "المؤتون"- "المؤمنون" فوجدوا ما قبلها وما بعدها مرفوعاً بـ"الواو" لأنه جمع مذكر سالم، أما "المقيمين" فوجدوها منصوبة بـ"الياء" لأنها كذلك جمع مذكر سالم. حقه أن يرفع بـ"الواو" ينصب ويجر بـ"الياء".(وهذا – إذا اعتبرنا خطأ- فإنه لا يخفى على طالب المرحلة الابتدائية، وخاصة أنها تنادى على نفسها وعلى جماهير القراء لينظروا إليها وقد وقعت بطريقة ملفتة غاية الإلفات وهى وقوعها بين المرفوعات، وهى وحدها المنصوبة)

وسرعان ما صاحوا وقالوا : إن فى القرآن خطأ نحوياً من نوع جديد هو "عطف المنصوب على المرفوع أو نصب المعطوف على المرفوع". ثم علقوا قائلين:

"وكان يجب أن يرفع المعطوف على المرفوع فيقول: "والمقيمون الصلاة" . ويقول د. مطعنى: هذا هو مبلغهم من الجهل أو حظهم من العناد وكراهية ما أنزل الله على خاتم رسله (ﷺ)

الرد على الشبهة: ومجئ "المقيمين" بالياء خلافاً لنسق ماقبله ومابعده لفت أنظار النحاة والمفسرين والقراء فأكثروا القول فى توجيهه- مع إجماعهم على صحته-.

وقد اختلف آراؤهم فيه وها نحن نقتصر على ذكر ما قل ودل منها فى الرد على هؤلاء الكارهين لما أنزل الله على خاتم رسله (ﷺ) ولن نذكر كل ما قيل توخياً للإيجاز المفهم.

وأشهر الآراء فيها أن "المقيمين" منصوب على الاختصاص المراد منه المدح فى هذا الموضع بدلالة المقام لأن المؤدين للصلاة بكامل ما يجب لها من طهارة ومبادرة وخشوع وتمكن جديرون بأن يُمدحوا من الله والناس.

يقول الإمام الزمخشرى:"و" المقيمين" نُصِبَ على المدح لبيان فضل الصلاة، وهو باب واسع ، ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً فى خط المصحف ، وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان"

الزمخشرى أوجز كلامه فى الوجه الذى نُصب عليه "المقيمين"وهو الاختصاص مع إرادة المدح. ومع إيجازه فى عبارته كان حكيماً فيها ، ومن الطريف فى كلامه إشارته إلى خطأ من يقول إن نصب "المقيمين" لحن فى خط المصحف- لا سمح الله- ثم وصفه بالجهل بمذاهب العرب فى البيان والتفنن فى الأساليب وكأنه- رحمه الله- يتصدى للرد على هؤلاء الطاعنين فى القرآن الذين نرد عليهم فى هذه الرسالة

والرأى الذى اقتصر عليه الإمام الزمخشرى هو المشهور عند النحاة والمفسرين والقراء. وقد سبق الزمخشرى فى هذا التوجيه شيخ النحاة سيبويه وأبو البقاء العكبرى. وهذا الاختصاص أو القطع بيان لفضل الصلاة التى جعلها الله على الناس كتاباً موقوتاً.. (وأقول ميسراً على القارىء: كأن النظم وقف هنا وقطع الحديث لينادى بصوت أعلى أو ليلوح بإشارة ملفتة (وهى هنا التغيير الإعرابى الذى يوقف القارىء للبحث عن سببه) وهو أهمية ما سيقال هنا وتخصيصه بالوقوف عليه للمدح وهو (المقيمين الصلاة) كأن الله تعالى يقول: أخص المقيمين الصلاة بالمدح بين هذه الصفات .. وكأن (إقامة الصلاة) هنا هى الأصل وغيرها هو

الفرع.. ويكون إعرابها: أخص: فعل مضارع والفاعل ضمير مستتر تقديره الله، والمقيمين: مفعول به منصوب بالياء(ولا خطأ إعرابى فى ذلك) فهو – كما هو معلوم عند تلامذة اللغة-على تقدير لفعل محذوف تقديره (أخص)- أى بالمدح- والعربى، وأى دارس للغة العربية ، يعلم ذلك ويقف على تلك المعانى بمجرد رؤيته لهذا التغيير الإعرابى (من الرفع إلى النصب) لأن هذا هو لغته وقد أوردوا عليه شواهد عدة من الشعر العربى. وهو النصب على الاختصاص أو القطع.

**ويقول د: عبد الصبور شاهين في كتابه (تاريخ القرآن): ..فقد وردت رواية عن أبي بن كعب أنه قرأ (والمقيمون الصلاة) بالرفع !! وقرأ بذلك جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود وعيسى الثقفي وأبو عمرو والأعمش وغيرهم.

**ويبقى السؤال هو: لماذا كان الإختصاص بالمدح لمقيمى الصلاة فى هذه السورة (سورة النساء) دون غيرها ؟

والإجابة : أن القرآن الكريم عودنا أن يضع المشهد المناسب فى السورة التى تناسب هذا المشهد وتنسجم معه.

وفى مشاهد سورة النساء نلاحظ أنها تتحدث عن الضعفاء من بدايتها لنهايتها (صلة الرحم .. الذى تساءلون به والأرحام ، ثم بعد ذلك عن اليتامى ، ثم رفعة شأن هؤلاء الضعفاء من النساء الذين يحتاجون إلى راع لهم من الأزواج فشرع تعدد الزوجات، ثم بعد ذلك الحديث عن الذى يودع الدنيا وحديث الميراث ، وعن المنافقين الذين نعلم حالهم من الضعف وعدم المواجهة ، ثم يعرج النص القرآنى بعد ذلك على قصص الأنبياء الكرام فيختار منها المشهد الملائم والمناسب لجو هذه السورة ، التى يمكن لنا أن نسميها بسورة الضعفاء ، فكان من المناسب أتم المناسبة أن يختار من قصص الأنبياء قصة عيسى عليه السلام الذى استضعفه يهود وحاولوا القبض عليه وصلبه وتعليقه – حتى أوصلوه للصلب كما تحكى كتبهم وتقول به عقائدهم – وقد حكت الأناجيل ساعة القبض على عيسى عليه السلام وصورت مشاهد الضعف الشديد التى عاشها ، والإهانة من بنى إسرائيل – أعداء الله

ورسله- له ، وفى النهاية قاموا بصلبه على هذه الحالة من الضعف – كما تحكى أناجيلهم-.

إذن قصة عيسى عليه السلام – وإن كنا ننكر مسألة صلبه أو تعليقه عى الصليب – ولكننا لاننكر مطاردة أعداء الله له ، ومحاولات القبض عليه وقتله ، وكلها لحظات ضعف شديد تتناسب مع مشاهد الضعف والضعفاء فى هذه السورة ، ولذلك لم يأت فى هذه السورة مشهد حديث المعجزات لعيسى عليه السلام – التى هى مشهد قوة وسلطان – ولكن السياق جاء بمشهد الكيد القوى من بنى إسرائيل له وتدبيرهم لقتله ، وورود هذا المشهد بصفة خاصة يتناسب ويتناغم مع صور ومشاهد السورة ، وهذا مانكرره دائماً ونؤكد على أن هذا دليل من دلائل الروعة والإبهار والتناسق والتناغم والانسجام وحسن الجوار بين مشاهد السورة جميعها- كما هو شأن النص القرآنى دائماً-.

والآن نصل إلى إجابة السؤال : لماذا تم التركيز على أهمية الصلاة فى وسط هذا المشهد لعيسى عليه السلام بصفة خاصة ومشاهد السورة بصفة عامة؟

وللرد نقول: الذى يسترجع ماقاله كتابهم المقدس من أن نبى الله عيسى كان يستعين على هذه اللحظات العصيبة بأمر واحد ، ألا وهو الصلاة – وكما تحكى أناجيلهم – : كان يصلى بلجاجة ، وكما يحكى كتابهم أنه خر ساجداً أكثر من مرة وكان يكرر قائلاً: إيلى إيلى لم شبقتنى ، أى إلهى إلهى لم تركتنى

فالتخصيص بالمدح للصلاة هنا يتناغم مع هذا المشهد لأهميتها العظمى فى الإسلام، بل وجميع الأديان ، ولتناسق الحديث عنها فى هذا المشهد وهذا المقام ، وأنها هى السلاح الذى كان يلجأ إليه عيسى عليه السلام كما يلجأ إليه جميع الأنبياء والمرسلين من إخوانه ، ولذلك سيأتى بعد هذه الآية (المقيمين الصلاة) مشهد كوكبة الأنبياء – كما سنرى- وإليك السياق:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ

مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ النساء: ١٥٦ - ١٥٨ ((هذا هو مشهد الاستضعاف)). ثم يقول بعدها:(**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)**)

وبعدها يأتى مشهد الاختصاص بالمدح للصلاة فى هذا الموقف العصيب ﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾ النساء

ثم يتحدث بعدها عن موكب إخوانه من الأنبياء – حيث ورد أعلى عدد منهم فى هذه الآيات– وهم الذين يلتجئون إلى هذه الصلة بالله والتى من أعظمها هى الصلاة فيقول ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ النساء

ولأجل هذا المعنى ، وفى نفس هذا المكان – سورة النساء - دون غيرها جاء اختصاص الصلاة بالمدح ، وليكمل المعنى الذى ذكره فى أول كتابه ﴿ **وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ** (٤٥) ﴾ فكانت هنا الإشارة على أهمية وخصوصية الجزء الثانى من هذه الآية (وَٱلصَّلَوٰة) . وقد عشنا على الصفحات الماضية تخصيص الجزء الأول (الصبر) بالمدح فى آية البقرة التاليةوهى(**وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ**) ورأينا فوق ذلك كيف وضعت كل صفة منهما فى السورة المناسبة والسياق الملائم .. وصدق الرافعى فى قوله عن الكلمة فى القرآن الكريم: (**كل معنى ولا جرم من بحر ، وكل لفظة كلؤلؤة فى النحر**) فلا ترى إلا الجلال والجمال فى رسم الكلمة ونظم آياته.

****□

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ .. وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ... وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾

منشأ هذه الشبهة

فى سورة البقرة﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ البقرة

وفى سورة الحج ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ الحج:

فــى المائــدة:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ المائــدة.. فهى منصوبة (وَٱلصَّٰبِـِٔينَ) فى البقرة والحج .. ومرفوعة فى المائدة (وَٱلصَّٰبِـُٔونَ) رغم أن السياق واحد ومعطوف على اسم (إن) المنصوب . فلماذا اختلف الأمر بالرفع فى المائدة ؟ ولماذا قدمت النصارى عليها فى المائدة أيضاً؟

والرد على الشبهة :نرى أولاً من **الناحية النحوية:** هل هذا جائز نحوياً أم أنه خطأ نحويٌ كما تشير الرواية؟ وسنرى أن للنحاة والمفسرين فى توجيه رفع "الصابئون" فى هذه الآية عدة آراء منها ما هو قوى مشهود له فى الاستعمال اللغوى عند العرب الخلص، ومنها ما هو دون ذلك ، وقد بلغت فى جملتها تسعة توجيهات نذكر منها ما يناسب سرعة البحث:

الأول : ما قاله جمهور نحاة البصرة الخليل وسيبوية وأتباعهما حيث يجعلون (الصابئون) فى المائدة جملة تتكون من مبتدأ وخبر هكذا(والصابئون كذلك) وعطفوها – كجملة وليست ككلمة مفردة– على ما قبلها ، وخولف الإعراب

بالرفع بدل النصب للإشارة إلى أن هذا ليس مكانهم، وأن مكانهم فى آخر الآية– فقدمت من تأخير– وسوف نعيش الجمال والروعة فى هذا الرأى من الوجهة البلاغية بعد ذلك .. ولكننا الآن نقف مع رأى هذا الجمهور فى قوله :إن " الصابئون" مرفوعه على أنه "مبتدا" ، وخبره محذوف يدل عليه خبر ما قبله – أى: خبر" إن الذين آمنوا"... وهو:(لا خوف عليهم..) – ثم قالوا : والنية فى التأخير ؛ أي : النية فى تأخير " الصابئون" إلى ما بعد " النصارى "– فى آخر السياق كما هم فى آخر الركب الإيمانى– ، **وتقدير النظم والمعنى عندهم** :"إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون **(والصابئون كذلك)**"– فهنا تعرب (الصابئون) مبتدأ مرفوع بالواو ، وكلمة (كذلك) خبر للمبتدأ.. والجملة (من المبتدأ والخبر) معطوفه على اسم(إن) (إن **الذين آمنوا** و..و). (وحذف الخبر (كذلك) جائز نحوياً وبلاغياً بلا أدنى ريب، (١١)– فلا خطأ (ولا لحن) فى الآية كما زعم خصوم القرآن بمثل هذه الروايات المشبوهة .

أما المفسرون :فقد اختار الزمخشرى منهم المذهب الأول المعزو إلى جمهور علماء البصرة ، ومن شيخهم الخليل و سيبوية فقال: " الصابئون " رفع على الابتداء ، وخبره محذوف(وهو"كذلك") ، والنية به (الصابئون) التأخير عما فى حيز إن من اسمها وخبرها ((وسنعرف لماذا قال: والنية به التأخير... فى توجيهنا البلاغى القادم) ، كأنة قيل :" إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا .. **والصابئون كذلك** " ثم قال : فإن قلت ما التأخير والتقديم إلا لفائدة **فما فائدة هذا التقديم** –

---

(١١) ومن شواهد هذا الحصر عند العرب قول الشاعر : نحن بما عندنا *وأنت بما عندك " راض" والرأى مختلف ، فقد حذف الخبر من المبتدأ الأول: أى خبر (نحن) وهو (" راضون ")الذى لم يذكر فى السياق – وتقديره: نحن بما عندنا " راضون " وأنت بما عندك راض والرأى مختلف.

فحذف"راضون"– لدلالة الثانى عليه " راض "– وأنت راض–. وحذفت(راضون) لعدم التكرار ولوجود معناها فيما بعدها(وأنت ..راض) وهذه بلاغة الحذف.. ونظم الآية (والصابئون كذلك)التى كانت منشأ الشبهة عندهم لا يخرج عن هذه الأساليب الفصيحة التى عرفناها فى بيت الشعر السابق ،وعليه – كما كان فى المذهب الأول.

أى إذا كان المقصود تأخير الصابئون" إلى آخر القائمة – كما قلنا – فلماذا قدمها عن هذا المكان المؤخر ووضعها قبل "النصارى" فى آية المائدة فقط؟(مع ملاحظة أن الدليل على تقديمها – فى غير مكانها- هو وجودها فى حالة الرفع فى وسط هذه المعطوفات المنصوبات، ليكون رفعها هذا ملفتاً للنظر للوقوف عليهاوعلى هذا المعنى، وتأمل المراد من تلك المخالفة التى هى بمثابة الضوء الأحمر الملفت للنظر ليقف القارىء على هذا المعنى البلاغى الذى أوضحناه ونكمل بيانه على الصفحات القادمة)

ويقول الزمخشرى: قلت : فائدة **هذا التقديم** التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الايمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم؟ وذلك لأن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غيًا- وقدمهم على النصارى لملمح خطير سنراه بعد قليل-(ويفترض أنهم فى آخر القائمة- لذلك غير الإعراب للفت النظر إلى ذلك ، وإعلام القارىء أنها جملة "والصابئون كذلك")، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبأوا عن الأديان كلها أى: خرجوا.

وقال الإمام الشوكانى :" والصابئون" مرتفع على الابتداء وخبره محذوف

والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون (**والصابئون والنصارى وكذلك"**.(وهنا ضم النصارى والصابئين فى قرن واحد وحكم واحد) وهو رأى رائع وله دلالات بلاغية هامة ، وهذا مكانهم فى هذه السورة– أى: التقديم على النصارى واقترانهم سوياً فى قرن واحد- فى هذه السورة (المائدة) بصفة خاصة- كما سنوضح فيما بعد-.

والواقع أن هذا المذهب ـ على جملته ـ الذى ذهب إليه جمهور علماء البصره وتابعهم فيه الإمام الشوكانى هو أقوى ما أورده النحاة فى توجيه رفع الصابئون فى هذه الآية الكريمة. أما بقية الآراء فهى دون ذلك بكثير.

هذا هو توجيه رفع الصابئون عند جمهور النحاة والمفسرين(**فلا خطأ ولا لحن**). **أما توجيهه بلاغة** فهو فى إجابة السؤال .. لماذا كانت هذه المخالفة فى سورة المائدة فقط ولم تكن فى آية البقرة أو الحج؟ والمخالفة هى:

(أ) لماذا رفع الصابئون هنا فقط وكان حقها أن تنصب مثل آية البقرة والحج ، وقد أجبنا عن أن ذلك جائز نحوياً ولا شك فى ذلك ، وأنه ليس فيها أى خطأ نحوى.

الأمر الثانى : هو لماذا قدم الصابئون – بعد رفعها – على النصارى ؟ وفى الآيتين الأخريين قدم النصارى على الصابئين .

ونقول :إنه إذا كان **المراد هو الترتيب الزمنى للإيمان**- من جاء قبل الآخر؟- فهو: الذين هادوا – اليهود-أولاً ، ثم النصارى ، ثم الصابئون الذين قيل فيهم أنهم خرجوا من عباءة النصرانية – على رأى من الآراء –(أو من اليهود والنصارى معا) ، وهذا الترتيب بهذه الصورة يراعى فيه تشريف الكتب التى نزلت - حتى وإن انحرف بها أصحابها- . وهذا الترتيب على هذين المعنيين هو ماحدث فى آيتى البقرة والحج – مع اختلاف فى التركيز على أهل الكتاب فى سورة البقرة ، والتركيز على طوائف الشرك والكفر فى سورة الحج-، فسورة البقرة تحكى عن الخلافة والإمامة فى الأرض ؛ بدأها من آدم عليه السلام وقوله﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة وقوله لإبراهيم أبو الأنبياء: إنى جاعلك للناس إماما....) ثم يثنى بعد ذلك بالإمامة الدينية (لبنى إسرائيل) وبعدها النصارى ثم الصابئين **وهو ترتيب زمنى للإيمان وأهله فى طريق رحلة الخلافة الدينية** ، فكان هذا التقديم فى موقعه الطبيعى- النصارى على الصابئين -. مع ملاحظة أن الحديث فى سورة البقرة يركز على اليهود فقط دون ذكر للنصارى.. وسورة الحج تركز على ترتيب الكفر لأنه يخاطب مشركى العرب والمجوس وغيرهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ الحج:فقدم الصابئين على النصارى دون تغيير فى الإعراب – أى تركها منصوبة على الأصل-

لأن الترتيب هنا يركز **على ترتيب الكفر والشرك** والصابئون خرجوا من بين اليهود والنصارى، فمكانهم فى الترتيب الكفرى بين اليهود والنصارى ، وطالما أن هذا هو ترتيبهم الطبيعى(هنا) فلم يحدث تغيير إعرابى فبقيت حالتهم الإعرابية على النصب على العطف على باقى المنصوبات ولم يرفعها بنية التأخير، فليس مكانها من تأخير – كما فى المائدة–

.. بخلاف سورة المائدة التى حدث فيها الآتى:

(١) المشهد فى هذه السورة – المائدة–يركز تركيزاً شديداً على **ضلال النصارى** – بصفة خاصة– فى قولهم الذى يحكيه القرآن ويقرعهم عليه فى هذه السورة فقط بهذه الشدة وبهذا الوضوح﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ المائدة(١٢)

ونضيف ملحظاً آخر وهو : أن الحديث عنهم هنا – فى المائدة – هو عن حكمهم فى الآخرة – وليس عن الترتيب الدنيوى–، والحكم فى الآخرة لايكون التقديم لهم على المسميات والأقدمية– يهودى أو نصرانى – بل إن الصابىء – الذى نظن فيه فقدان الأمل (وهو فى آخر القائمة)– يسبق هذه الفئة المحرفة من

---

(١٢) وأرجو من القارىء الكريم أن يراجع سلسلة كتبنا فى مقارنة الأديان وخاصة كتابنا (فلسفة الغفران بين الإسلام والعقائد الأخرى) ليرى بالدليل القاطع – حتى من أقوال علمائهم من علماء الغرب وشهادة التاريخ بكاملة – التى تفيد – بكل حزن وأسى – أن هذه العقيدة النصرانية هى نتاج تزاوج العقائد الوثنية والصابئة ، وأنها مقتبسة منها اقتباساً كاملاً شديد المطابقة ، والقارىء لأقوال علماء التاريخ وباحثى الأديان يصل بك إلى نتيجة هامة وهى: أنه لافرق بين تقديم النصارى على الصابئين فمرة يقدمهم على النصارى كما فى آية المائدة هذه ومرة يؤخرهم، ليبين لك أنهم فى مكانة واحدة تقدم هذا أو تؤخره على الثانى فلا فرق، فهما فى العقيدة سواء.

النصارى ، والعبرة كما نقول بالعمل الذى يقدم هذه الفئة وليس ترتيب المسميات المللية فى الآخرة ؛ فمن (آمن وعمل صالحاً) فهو الفائز.

ولذلك وبعد هذا السرد – وفى سورة المائدة التى تركز تركيزاً شديداً على ضلال الأمة النصرانية بهذه الصورة – كان من العظمة والإعجاز أن يقدم النص القرآنى كلمة "الصابئون" على "النصارى" لفتاً لهذا المعنى التصويرى والتوبيخى فى آن واحد لهذه الأمة التى أصبحت أسوأ من الأمة الصابئة التى لم يأتها وحى من الله ، ولايمكن التعبير عن هذه المعانى فى هذا الجو الذى رسمته سورة المائدة إلا بتقديم الصابئين على النصارى(ورفعه)بدل (النصب) - الذى يعلمه أقل طالب علم ولا يمكن بأى حال من الأحوال يكون خطأً ولا يرد عليه صناديد قريش وفطاحل اللغة وفرسان البيان،- ولفت نظر القارىء لهذا الملحظ فى هذا السياق للوقوف على هذا المعنى والتأمل فى هذا المقصود.

ولكن النص القرآنى المعجز يريد فوق ذلك كله أن يقول: إنه قدم "الصابئين" لهذا الغرض التوبيخى كما ذكرنا – و يريد فى ذات الوقت أن يشير إلى أن مقام الصابئين هو التأخير (لأن مقام الحديث فى المائدة عن "أهل الكتاب"- يهود ونصارى مع التوبيخ الشديد والتركيز على إظهار ضلال النصارى(١٣)– ولذلك قام النص – إشارة على هذا المعنى - بتغيير إعراب الكلمة

---

(١٣) (ونستعرض للقارىء أحداث سورة المائدة وحديثها الخاص عن النصارى بصفة خاصة وعن أهل الكتاب بصفة عامة ، حيث أنه لم يعد الحديث عن اليهود فقط ، بل هو عن اليهود والنصارى معاً حيث يقول:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ .. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ .. (٥١) ﴾.....ثم يدخل بنا السياق تدريجياً إلى الحديث عن أجر وثواب العاملين منهم والمؤمنين بمحمد(ﷺ) فيقول: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ((هذا أجر لهم)) ولذلك سوف لايذكر الأجر فى آيتنا المقصودة القادمة بعد هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾ ولم يقل (ولهم أجرهم) كما قال فى سورة البقرة فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم..وهذا من روائع البيان فى عدم التكرار الذى لايلحظه العامة....

(وكتبها "الصابئون" بدلاً من "الصابئين") لهذا الملفت- حتى يقف القارىء ويسأل لماذا رفع الصابئون ومن حقها النصب؟ فيجاب بما ذكرناه – فى سياق سورة المائدة- فخولف أيضاً فى إعرابه ليعطى بإشارة آسرة من الوحى إلى هذه اللفتة الخطيرة مطالباً الوقوف عليها – كما يقوم أحدنا بوضع خطٍ أحمر تحت الكلمة المهمة والعربى الذى نزل بلغته القرآن يدرك هذه الإشارة الحمراء أو الضوء الأحمر للوقوف عليها والتدبر من المقصود منها وما يعنية بهذه المخالفة الإعرابية – وهذا هو منهجهم وهذا هو بيانهم الذى نزل به القرآن وليس لحناً كما يدعى الإخوان!!!

وقد أعجبنى رأياً – نراه مضيفاً وليس معارضاً – وهو قول الإمام الكرمانى: لأن النصارى مقدمون على الصابئين فى الرتبة، لأنهم **أهل كتاب**، فقدمهم فى البقرة.

والصابئون مقدمون على النصارى **فى الزمان**، لأنهم كانوا قبلهم- باعتبارهم من ضلال ومنحرفى الأديان اليهودية أيضاً- فقدمهم فى الحج على النصارى.

وراعى فى المائدة بين المعنيين **وقدمهم فى اللفظ وأخرهم فى التقدير** لأن تقديره (والصابئون كذلك).

ثم تكمل الآيات جزاءهم فيقول:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ .. (٦٦) ﴾
فهنا الآيات تبين أن الترتيب ليس بمسمى الديانة أو الترتيب الزمنى بل هى تؤكد على العمل والتقوى ؛ حتى وإن كان صاحبها من الصابئين فله السبق بعمله هذا.
ثم يقوم النص بتوضيح الصورة من أن التفاضل فى حكم الآخرة ليس بالترتيب الزمنى أو المسمى الدينى (يهودى ونصرانى) وإنما الترتيب هنا فى الآخرة على عملهم فى الدنيا وإن لم يعملوا ولم يؤمنوا الإيمان الصحيح فهم ليسوا على شىء وليس للمسمى الدينى للطائفتين أى قيمة ، وهذا المعنى هو مايشير إليه النص:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَاب لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ..(٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾ فهو يطلب منهم إقامة التوراة والإنجيل ، وهكذا تأتى الآية فى مكانها ، ومن بعدها يذكر ويخصص الحديث عن هذه الطائفة الضالة – التى قدم عليها الصابئين – فيقول:﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ .. (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ .. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ .. ﴾.

وأقول: هذا ملحظ لطيف ورائع يتذوقه من عرف حلاوة النظم القرآنى وتعود عليه وعاش جماله وروعته وتناسق سوره وانسجام آياته ، وكأننى أستشف من قوله معنى آخراً وهو: أن سورة المائدة هى السورة الوسطى بين سورتى البقرة والحج ولذلك جمعت المعنيين (الوسطى) بتناسق جميل ومدهش. إضافة إلى ما ذكرناه.

ومما يزيد هذا المعنى تألقاً هو تعليق المحقق الأستاذ عبد القادر عطا فى قوله: وترتيب الطوائف فى المائدة جامع **للترتيب بالكتب والزمان** ، فتقديم الصابئين فيها على النصارى يدل على ترتيب الزمان – يقصد آية سورة الحج– ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ الحج **لأن أكثر المذكورين ممن لاكتاب لهم** – (لأنه زاد هنا المجوس والذين أشركوا وأصبح للكافرين النصيب الأكبر فى سياق الآية)، وأخر الذين أشركوا وإن تقدمت لهم أزمنة لأنهم كانوا أكثر من ابتلى بهم الرسول (ﷺ) ويحادهم فكانوا أهل زمانه أيضاً ، ورفعها بين المنصوبات – آية المائدة – يدل على نية تأخيرهم والترتيب بالكتب السماوية.

وترتيبهم فى البقرة بالكتب فأخر المجوس لأنهم لاكتاب لهم.

** **وهنا أقف وقفة** بعد هذا العرض مع هؤلاء الذين يجرون خلف الأحاديث المشكوك فيها ومنهم من يجاهد على تصحيحها– مثل حديث عائشة هذا وأن هناك لحناً فى القرآن ستقومه ألسنة العرب .. ويستدلون على قولهم هذا بهذه النصوص (من رفع "الصابئون" فى المائدة بخلاف النصب فى الآيتين الأخرتين ، والذى جعل أحد القساوسة يشير أيضاً بالتهكم على هذا الخطأ الإعرابى ويدعى أن جريدة الأهرام القاهرية نشرت هذا السؤال من طفل صغير لأبيه المسلم حول هذه المخالفة الإعرابية فلم يحر الأب المسلم جواباً عن ذلك ، ثم ذهب هذا الأب إلى شيخ الأزهر أو عالم من علماء الأزهر فقال له بعد التحير وعدم المعرفة لتفسير هذا الخطأ: "إن القرآن لايخضع للغة العربية!!) وهذه كارثة إخرى – إن صدقت هذه

الرواية- .. ونقف ونتعجب ويزداد العجب ويطول وليتهم لربهم يتقون ولكتابه يفقهون ولآياته يتدبرون.

فلكل هذه المعانى الآسرةكان هذا التقديم للصابئين ومخالفة الإعراب بجعلها مرفوعة بدلاً من النصب الذى شرحناه

ونعود ونكرر : أن هذا كله كاف لتقديم الصابئين على النصارى ، وقد غيَّر الإعراب لها بأن جعلها بصيغة الرفع، لأن مقام الصابئين هنا هو التأخير ، ولأنه خولف فى مكانه فخولف أيضاً فى إعرابه

****

﴿**وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (وَرَسُولُهُ)** .. (٣)﴾ التوبة.

وهنا يتخيل بعض العامة أو الدارسين أن (رسوله) معطوفة على (المشركين) وهى مجرورة فكان الواجب أن تكون(رسوله) مجرورة أيضاً، وهذا - كما سنرى- وهمٌ خطير يترتب عليه أن الله برىء من (رسوله) أيضاً.. ومن هنا نقف الوقفة الهامة مع الإمام الطاهر حيث يقول:

وَعُطِفَ وَرَسُولِهِ بِالرَّفْعِ، عِنْدَ الْقُرَّاءِ كُلِّهِمْ: لِأَنَّهُ مِنْ عَطْفِ الْجُمْلَةِ، لِأَنَّ السَّامِعَ يَعْلَمُ مِنَ الرَّفْعِ أَنَّ تَقْدِيرَهُ: وَرَسُولُهُ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَفِي هَذَا الرَّفْعِ مَعْنًى بَلِيغٌ مِنَ الْإِيضَاحِ لِلْمَعْنَى مَعَ الْإِيجَازِ فِي اللَّفْظِ، وَهَذِهِ نُكْتَةٌ قُرْآنِيَّةٌ بَلِيغَةٌ، وَقَدِ اهْتَدَى بِهَا ضَابِىءُ بْنُ الْحَارِثِ فِي قَوْلِهِ:

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ ... فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ

بِرَفْعِ (قَيَّارٌ) لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ غُرْبَةَ جَمَلِهِ الْمُسَمَّى «قَيَّارًا» غُرْبَةً أُخْرَى غَيْرَ تَابِعَةٍ لِغُرْبَتِهِ.

وَمِمَّا يَجِبُ التَّنْبِيهُ لَهُ: مَا فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّهُ رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ قِرَاءَةُ وَرَسُولِهِ- بالجرّ- ولم يصحّ نِسْبَتُهَا إِلَى الْحَسَنِ، وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ جَرُّ وَرَسُولِهِ وَلَا عَامل بمقتضي جَرِّهِ، وَلَكِنَّهَا ذَاتُ قِصَّةٍ طَرِيفَةٍ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا قَرَأَ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ- بِجَرِّ وَرَسُولِهِ- فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: إِنْ كَانَ اللَّهُ بَرِيئًا مِنْ رَسُولِهِ فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ.

وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّوَرُّكَ عَلَى الْقَارِئِ، فَلَبَّبَهُ الرَّجُلُ إِلَى عُمَرَ، فَحَكَى الْأَعْرَابِيُّ قِرَاءَتَهُ فَعِنْدَهَا أَمَرَ عُمَرُ بِتَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ، وَرُوِيَ- أَيْضًا- أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيَّ سَمِعَ ذَلِكَ فَرَفَعَ الْأَمْرَ إِلَى عَلِيٍّ. فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ وَضْعِ النَّحْوِ، وَقَدْ ذُكِرَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي بَعْضِ كُتُبِ النَّحْوِ فِي ذِكْرِ سَبَبِ وَضْعِ عِلْمِ النَّحْوِ.

****

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ التوبة.

فهنا نلاحظ ورود (كلمة) الثانية معطوفة على (كلمة) الأولى، ورغم ذلك جاءت الثانية مرفوعة والأولى منصوبة فلماذا؟ وفيها يقول الإمام أبو السعود:

(وَكَلِمَةُ الله) أي التوحيدُ أو دعوةُ الإسلام (هِىَ العليا) لا يدانيها شيءٌ، وتغييرُ الأسلوب للدِلالة على أنها (وَكَلِمَةُ الله) في نفسها كذلك لا يتبدل شأنُها ولا يتغيرُ حالُها دون غيرِها من الكلم – فهى ليست مرتبطة بعلو أو سفل كلمة الذين كفروا المعطوفة عليها، ولكنها منفصلة وثابتة عالية الشأن-ولذلك وُسِّط ضمير الفعل(كلمةُ الله (هى) العليا).

وقد لحظ أبو الفضل القرشي نكتة أخرى في تلك المخالفة، فهو يتساءل: لم لم يقل: وكلمةُ الذين كفروا السفلى برفع (كلمةُ) كما قال في مقابلها؟ ثم أجاب بما مؤداه: لأن الآية لو جاءت على هذا النحو (أي من غير جعل) لأفادت أن كلمة الكفار في نفسها سافلة، وليس هذا هو المراد بل المراد أن تسفُّلها قد حصل ببركة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن العدول النحوى والصرفى

*قوله تعالى في مريم عليها السلام ﴿ **وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا** (٣٧) ﴾ آل عمران)

المفروض أن يقال(وأنبتها إنباتاً) وفيها يقول الدكتور فاضل:

وأحياناً نأتي بالفعل وتأتي بمصدر فعل آخر كما في قوله تعالى (وَاللَّهُ (أَنبَتَكُم) مِّنَ الْأَرْضِ (نَبَاتًا) (١٧) نوح) لم يقل (إنباتاً) وقال في مريم عليها السلام ((وَأَنبَتَهَا) (نَبَاتًا) حَسَنًا (٣٧) آل عمران) المفروض أن يقال (إنباتاً)، لكن هذا يكون لغرض. إذا كان الفعلان بمعنى واحد- قرض وأقرض- أو حتى لم يكونا بمعنى واحد يكون لغرض آخر مثل قوله تعالى (وتبتل إليه تبتيلا) المفروض تبتّلاً. (تبتيل) مصدر (بتّل) و(بتل) غير (تبتّل) تماماً والمعنى مختلف. وليجمع المعنيين فإنه يأتي بالفعل للدلالة ويأتي بالمصدر من فعل آخر من أجل دلالة أخرى، فيجمع بينهما حتى يجمع المعنيين. فبدل أن يقول: ﴿ **وتبتل**)**إليه** تبتلاً وبتّل نفسك إليه (**تبتيلاً**) يقول (وتبتل إليه تبتيلاً) فيجمع المعنيين وهذا من أعجب الإيجاز.

هذه الآية ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** (٨) ﴾ المزمل) فيها أمور في غاية الغرابة في الإيجاز. في مريم قال (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا (٣٧) آل عمران) لم يقل إنباتاً ، لأنه لو قال إنباتاً، هو الله تعالى أنبتها فالمنبِت هو الله تعالى لم يجعل لها فضلاً ، **لكن أنبتها فنبتت نباتاً حسناً** جعل لها من معدنها الكريم قبول هذا النبات وأنبتها فنبتت نباتاً حسناً، أي طاوعت هذا الإنبات فجعل لها قبول، فجعل لها فضل في معدنها الكريم. بينما لو قال (إنباتاً) لم يجعل لها فضلاً، رب العالمين أنبتها يفعل ما يشاء، لكن نباتاً جعل لها فضلاً، هي نبتت وجعل لها فضلاً فنبتت نباتاً حسناً فجعل لها في معدنها قبول لهذا النبات فنبتت نباتاً حسناً.

****

ومثلها قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** (٨) ﴾

وَالتَّبَتُّلُ: وَالتَّبَتُّلُ: الِانْقِطَاعُ وَهُوَ هُنَا انْقِطَاعٌ مَجَازِيٌّ، أَيْ تَفَرُّغُ الْبَالِ وَالْفِكْرِ إِلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ، فَكَأَنَّهُ انْقَطَعَ عَنِ النَّاسِ وَانْحَازَ إِلَى جَانِبِ اللَّهِ فَعُدِّيَ بِ «إِلَى» الدَّالَّةِ عَلَى الِانْتِهَاءِ(فتبتل إليه).

وَجِيءَ بِهَذَا الْمَصْدَرِ(تبتيلاً) عِوَضًا عَنِ التَّبَتُّلِ- أى إنه كان يجب أن تكون(تبتل تبتلا)-لأن مصدر(تبتَّل) هو (تبتلا) .. فالنظم القرآنى أتى بالفعل ثم لا يأتى بمصدره بل يأتى بمصدر فعل آخر يلاقيه فى الاشتقاق ، فيكون بذلك قد جمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره.. فإنه هنا جاء بالفعل(تبتَّل) غير إنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بتِّل)، فإنك تقول (تعلَّم)(تعلماً).. أما مصدر(علَّم) فهو (تعليما).. وهكذا يكون (تبتَّل تبتلا)(وبتَّل) (تبتيلاً).. فكان المتوقع أن يكون النظم(تبتَّل إليه تبتُّلاً) غير إنه لم يقل ذلك، والسبب هو أنه أراد أن يجمع بين معنيى التبتل والتبتيل، وذلك لأن(تبتَّل) على وزن (تفعَّل) الذى يفيد التدرج والتكلف، مثل (تجسس وتحسس) وبقية الأفعال (تدرجاً وتكلفاً)، ألا ترى أن فى (تبصَّر) من التدرج وإعادة النظر والتكلف ما ليس فى (بصر)، وفى (تمشَّى) من التدرج ما ليس فى (مشى)؟

أما (فعَّل)(بتَّل) فيفيد التكثير والمبالغة، ونحو ذلك(كسر و كسّر) فإن فى(كسّر) المضاعف من المبالغة والتكثير ما ليس فى (كسر) الثلاثى..

وعلى ذلك فالله تعالى جاء بالفعل(تبتَّل) لمعنى التدرج، ثم جاء بالمصدر (بتِّل.. تبتيلاً) لمعنى آخر هو التكثير.. وجمع المعنيين فى عبارة واحدة موجزة، ولو جاء بمصدر الفعل(تبتَّل) فقال(وتبتَّل إليه تبتُّلاً) لم يفد غير معنى واحد وهو التدرج، وكذلك لو قال(وبتِّل نفسك إليه تبتلا) لم يفد أيضاً غير معنى واحد وهو التكثير، ولكن النظم القرآنى أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة اخرى وجمعهما، فهو بدل أن يقول: (وتبتَّل إليه تبتُّلاً وبتِّل نفسك إليه تبتيلا) جاء بالفعل

لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين فى آنٍ واحد- كما ذكر الدكتور فاضل السامرائى-

وأضاف الإمام ابن القيم فى (التفسير القيم):.. ف:انه قيل: بتِّل نفسك إلى الله تبتيلاً وتبتَّل إليه تبتُّلا، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير فى القرءن وهو من حسن الاختصار والإيجاز

ويعلق الدكتور فاضل بقوله: بل انظر الوضع الفنى التربوى الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيه تربوى حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله فى العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدرج فى العبادة وانته بالكثرة، وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً ثم يأتى بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعى أن يتدرج الإنسان فى حمل النفس على الشىء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له، فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً

ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجيباً آخر فجاء بالصيغة الفعلية(تبتل) التى تفيد التدرج والحدوث- كشأن الجملة الفعلية -..ثم جاء بالصيغة الإسمية (تبتيلاً) للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت- وهو شأن الجملة الإسمية- أما حالة التدرج فهى حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.

وَيرى الإمام الطاهر أن الْمُرَادُ بِالِانْقِطَاعِ الْمَأْمُور بِهِ انْقِطَاعٌ خَاصٌّ وَهُوَ الِانْقِطَاعُ عَنِ الْأَعْمَال الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَمَهَامِّ النَّهَار فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَمُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَمِنْ أَكْبَرِ التَّبَتُّلِ إِلَى اللَّهِ الِانْقِطَاعُ عَنِ الْإِشْرَاكِ، وَهُوَ مَعْنَى الْحَنِيفِيَّةِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَ قَوْلَهُ: وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا بِقَوْلِهِ: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

فَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: **وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ** مُرَادٌ بِهِ الدَّوَامُ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيمَا قَبْلُ فَإِنَّ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ (وَقَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ الْمُزَّمِّلِ) (وَإِنْ يكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ- أى من فم محمد (ﷺ)) (١٤)

يقول صاحب تفسير الوسيط: وقال- سبحانه- وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ولم يقل تبتلا حتى يكون الفعل موافقا لمصدره، للإشارة إلى أن التبتل والانقطاع إلى الله يحتاجان إلى عمل اختياري منه (ﷺ) (تبتيلا)، بأن يجرد نفسه عن كل ما سوى الله- تعالى-، وبذلك يحصل التبتل الذي هو أثر للتبتيل، بمعنى: ترويض النفس وتعويدها على العبادة والطاعة.

ومثله قوله تعالى

﴿ **وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا** (٦٠) ﴾ النساء

والمعنى على الشرح السابق: أن يضلهم فيضلوا ضلالاً بعيداً، وقد جمع المعنيي: الإضلال والضلال فى آن واحد.. والمعنى أن الشيطان يريد أن يضلهم ثم يريد بعد ذلك أن يضلوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُتِمُّونها، فهو يريد منهم المشاركة فى أن يبتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهمته هو)

****

---

(١٤) **وَلِذَلِكَ قِيلَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ أَيْ إِلَى اللَّهِ فَكُلُّ عَمَلٍ يَقُومُ بِهِ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَعْمَالِ الْحَيَاةِ فَهُوَ لِدِينِ اللَّهِ فَإِنَّ طَعَامَهُ وَشَرَابه ونومه وشؤونه لِلِاسْتِعَانَةِ عَلَى نَشْرِ دِينِ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ مُنْعِشَاتُ الرُّوحِ الْبَرِيئَةِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلَ الطِّيبِ، وَتَزَوُّجِ النِّسَاءِ، وَالْأُنْسِ إِلَى أَهْلِهِ وَأَبْنَائِهِ وَذَوِيهِ، وَقَدْ قَالَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ» .**

وَلَيْسَ هُوَ التَّبَتُّلَ الْمُفْضِيَ إِلَى الرَّهْبَانِيَّةِ وَهُوَ الْإِعْرَاضُ عَنِ النِّسَاءِ وَعَنْ تَدْبِيرِ أُمُورِ الْحَيَاةِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُلَاقِي صِفَةَ الرِّسَالَةِ.وَفِي حَدِيثِ سَعْدٍ فِي «الصَّحِيحِ» «رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لَاخْتَصَيْنَا» يَعْنِي رَدَّ عَلَيْهِ اسْتِشَارَتَهُ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ النِّسَاءِ.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ القمر.

***لماذا جاءت ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) ﴾** يس. بالنصب

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) ﴾ القمر. مرفوعة؟

وقبل أن أستعرض آراء العلماء فى تفسيرهم لهذا الاختلاف بين إتيان(كل) مرة بالرفع ومرة بالنصب، أتمنى من القارىء أن يسترجع معنا ما عشناه مع الآية القرآنية الكريمة عن سلام الملائكة (**قالوا سلاماً**) على نصب(سلام)، ورد إبراهيم عليه السلام عليهم (**قال سلامٌ**) بصورة الرفع لكلمة سلام، وقلنا حينها أن سلام الملائكة جاء بالنصب(قالوا سلاماً) على تقدير(فعل) محذوف تقديره (سلمنا سلاماً) ويكون إعرابها هكذا: سلمنا فعل وفاعل.. وسلاماً يكون (مفعول به لفعل محذوف).. إذن حينما ترد الكلمة على النصب يكون هناك تقدير لفعل وفاعل قبلها ويكون النظم بذلك (جملة فعلية).. أما إذا وردت الكلمة(سلامٌ)- قال سلامٌ- فقلنا حينها إما أن يكون إعرابها على أنها مبتدأ- سلام هو- أو خبر مرفوع أيضاً لمبتدأ محذوف تقديره(هو سلام) ، وعلى كلا الإعرابين يكون(سلامٌ) مبتدأ أو خبر، وتكون الجملة بذلك جملة (إسمية)، ومعلوم أن الجملة الإسمية أقوى من الجملة الفعلية، لأن الجملة الإسمية تفيد الدوام والثبات، وبذلك يكون رد إبراهيم عليه السلام بالتحية أقوى من من سلام الملائكة وكأنه ينفذ قول الله تعالى(**وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. (٨٦)**)

وبناءً على ما ذكرناه نحاول استيضاح سبب ورود الصيغتين- النصب أو الرفع- مسترجعين ما ذكرناه هكذا:

(**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** (٤٩)) وكان يمكن أن تأتى كلمة (كل) بالرفع على تقدير الإعراب بأنها خبر لكلمة (إنا)، والخبر يكون مرفوع على أن يكون الخبر جملة إسمية (كلٌّ: مبتدأ مرفوع) ، و(شىء: مضاف إليه) و(فعلوه) فعل وفاعل خبر جملة فعلية للمبتدأ(كلٌّ).. هذا هو الإعراب لو جاءت على الرفع. ولكنها لو جاءت على النصب: (كلَّ) فهى على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره(إِنَّا (خلقنا) **كلَّ**

شيء خَلَقْنَاه بقدر)، ومن هنا نبحث عن المعنى المناسب والذى لأجله جاءت على الرفع أو النصب، لنرى أن هذا لم يحدث اعتباطاً بل هو قمة الإعجاز والإحكام، وإليك التفصيل

الآية الأولى: (**إِنَّا(كُلَّ) شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** (٤٩)) كان لابد لها أن تأتى على النصب الذى يكون معناه (إنا (خلقنا) كلَّ شىء خلقناه بقدر) فهى تفيد أنه سبحانه (خلق كلَّ شىء) (وخلقه بقدر).. أما لو جاءت على الرفع فيكون المعنى أن (كل شىء خلقناه كان بقدر) وتعطى الاحتمال أيضاً بأن الذى لم نخلقه لم يكن بقدر.. وهذا مستحيل أن يكون هو المقصود.

وكذلك فى الآية الثانية التى وردت أيضاً على النصب- الذى نقدر فيه وجود فعل محذوف- كما يلى:

(**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** (١٢) يس) فيكون التقدير: وأحصينا كلَّ شىء أحصيناه فى إمام مبين.. وهذا هو المراد.. ولو جاءت على الرفع(وَكُلُّ) يكون الاحتمال الآخر ما زال باقياً(كل شىء أحصيناه فهو فى إمام مبين والذى لم نحصيه لم يكن فى إمام مبين) وهو أن هناك آخر أحصاه غيرى، وهذا مستحيل.

أما الآية الثالثة فهى تحتاج مثل هذا الاحتمال وتختلف عن الآيتين السابقتين هكذا: (**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ** (٥٢) القمر).. حيث إنهم لم يفعلوا كلَّ شىء فى الزبر، ولذلك لم تأت على النصب الذى يشير إلى القول بأنهم(فعلوا) (كلَّ) شىء فعلوه فى الزبر) ف(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) فإن فى الزبر أشياء لم يفعلوها ولم يعلموها بالطبع.

وبعد هذا التوضيح المبسط نستمع لأقوال بعض العلماء ومنهم الدكتور فاضل السامرائى فى قوله:

كلٌ له دلالة (**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ** (١٢) يس) بالنصب (**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ** (٥٢) القمر) لم يقل وكلّ شيء فعلوه، لا يمكن أن تقول وكلَّ شيء فعلوه في الزبر، المعنى خطأ لأنها تعني أنهم فعلوا كل شيء في الزبر وهم لم يفعلوا

شيئاً في الزبر، أصلاً لا يصح. (**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** (٤٩) القمر) لا يمكن أن تقول كلُّ شيء تصير غير معنى، وتعني المخلوقات على قسمين قسم خلقه ربنا وقسم خلقه واحد آخر. لا يمكن.

****

﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ** (**صَافَّاتٍ**) (**وَيَقْبِضْنَ**) **مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** (**١٩**) ﴾ الملك.ولم يقل(صافات) و (قابضات) أو (يصففن) و(يقبضن).

وفيها يقول الإمام الزمخشرى: فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل(الذى يفيد التجدد والتغير)، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح.

ويضيف الإمام الرازى بعد أن كرر قول الإمام الزمخشرى بنصه القول:

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا مَعَ ثِقَلِهَا وَضَخَامَةِ أَجْسَامِهَا لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهَا فِي جَوِّ الْهَوَاءِ إلا بإمساك الله وحفظه.

السؤال الثاني: أنه تعالى قال في النحل (٧٩) : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ** ((**إِلَّا اللَّهُ**)) ﴾ وقال هاهنا: ((**مَا يُمْسِكُهُنَّ** ((**إِلَّا الرَّحْمَنُ**)). فَمَا الْفَرْقُ؟

قُلْنَا: ذَكَرَ فِي النَّحْلِ أَنَّ الطَّيْرَ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ فَلَا جَرَمَ كَانَ إِمْسَاكُهَا هُنَاكَ محض الإلهية، وذكر هاهنا أَنَّهَا صَافَّاتٌ وَقَابِضَاتٌ، فَكَانَ إِلْهَامُهَا إِلَى كَيْفِيَّةِ الْبَسْطِ، وَالْقَبْضِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُطَابِقِ لِلْمَنْفَعَةِ مِنْ رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ.

ويقول الإمام الطاهر: الْوَصْفُ الثَّالِثُ: وَيَقْبِضْنَ وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى صافَّاتٍ مِنْ عَطْفِ الْفِعْلِ عَلَى الِاسْمِ الشَّبِيهِ بِالْفِعْلِ فِي الِاشْتِقَاقِ

****

﴿ (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ الأنفال.

اللام- فى (ليعذبهم)- لتأكيد النفي، والدلالة على أنّ تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة(وَمَا كَانَ اللَّهُ **لِيُعَذِّبَهُمْ** وَأَنْتَ فِيهِمْ)، لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم.. كأنه قال: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتهم، ((وأقول: لذلك جاء السياق فى حال النبى (ﷺ) بصيغة الفعل التى لاتفيد الدوام والاستمرار لأن النبى (ﷺ) لم يخلد بين أظهرهم، أما الاستغفار من القوم فإنه باقٍ لا ينقطع وليس مرتبطاً بشخص النبى بينهم فجاء بالصيغة الاسمية التى تفيد الاستمرار- (معذبهم)-وَمَا كَانَ اللَّهُ **مُعَذِّبَهُمْ** وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ - ولم يقل (يعذبهم))

ويضيف الإمام ابن القيم موقفاً بلاغياً ولغوياً فى كتابه العظيم بدائع الفوائد فى قوله: وفي هذه النكتة مطلع على فوائد من كتاب الله ومرقاة إلى تدبره كقوله: (**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**) فجاء بلام الجحود حيث كان نفيا لأمر متوقع وسبب مخوف في المستقبل ثم قال: (**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**) فجاء باسم الفاعل الذي لا يختص بزمان حيث أراد نفي وقوع العذاب بالمستغفرين على العموم في الأقوال لا يخص مضياً من استقبال ومثله: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى** ﴾ ثم قال: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى** ﴾ فلاحظ هذه الآية من مطلع الأخرى تجدها كذلك لام العاقبة أو لام الصيرورة

ويوضح ذلك قول الإمام الرازى:(١٥)

---

(١٥) فَإِنْ قِيلَ: لَمَّا كَانَ حُضُورُهُ فِيهِمْ مَانِعًا مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ قَالَ: قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ [التَّوْبَةِ]قُلْنَا: الْمُرَادُ مِنَ الْأَوَّلِ عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ، وَمِنَ الثَّانِي: الْعَذَابُ الْحَاصِلُ بِالْمُحَارَبَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ.

قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ أَمَانٌ وَسَلَامَةٌ مِنَ الْعَذَابِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاس: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَان نَبِيُّ اللَّه وَالِاسْتِغْفَارُ، أَمَّا النَّبِيُّ فَقَدْ مَضَى، وَأَمَّا الِاسْتِغْفَارُ فَهُوَ بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى فِي رَفْعِهِ قَالَ: أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي فَذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: " فَإِذَا مَضَيْتُ تَرَكْتُ فِيهِمُ الِاسْتِغْفَارَ " ثُمَّ قَالَ: وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُمْ مَا دَامَ رَسُولُ اللَّه فِيهِمْ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ فَكَانَ الْمَعْنَى أَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ إِذَا خَرَجَ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِهِمْ ..

ويضيف الإمام الطاهر: فَقَوْلُهُ: وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ كِنَايَةٌ عَنِ اسْتِحْقَاقِهِمْ، وَإِعْلَامٍ بِكَرَامَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهُ، لِأَنَّهُ جَعَلَ وَجُودَهُ بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعِقَابَ سَبَبًا فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، وَهَذِهِ مَكْرُمَةٌ أَكْرَمَ اللَّهُ بِهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا (ﷺ) فَجَعَلَ وَجُودَهُ فِي مَكَان مَانِعًا مِنْ نُزُول الْعَذَابِ عَلَى أَهْلِهِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ إِخْبَارٌ عَمَّا قَدَّرَهُ اللَّهُ فِيمَا مَضَى... وَفِي تَوْجِيهِ الْخِطَابِ بِهَذَا إِلَى النَّبِيءِ (ﷺ)، وَاجْتِلَابِ ضَمِيرِ خِطَابِهِ بِقَوْلِهِ: (وَأَنْتَ فِيهِمْ) لَطِيفَةٌ مِنَ التَّكْرِمَةِ إِذْ لَمْ يَقُلْ: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَفِيهِمْ رَسُولُهُ، كَمَا قَالَ: وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ (آل عمرَان)

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى فَضِيلَةِ الِاسْتِغْفَار وَبَرَكَتِهِ بِإِثْبَاتٍ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَمِنُوا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَذَّبَ اللَّهُ بِهِ الْأُمَمَ لِأَنَّهُمُ اسْتَغْفَرُوا مِنَ الشِّرْكِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْإِسْلَامَ.

﴿ **يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (٢٧) ﴾ الأنعام.

وقد أتى بالأفعال معطوفة بالواو ومختلفة فى الحركة الإعرابية هكذا(نُرَدُّ) بالرفع، (وَلَا نُكَذِّبَ)بالنصب على إحدى القراءات ومثلها(وَنَكُونَ).

يقول صاحب تفسير المنار:

اخْتَلَف الْقُرَّاءُ فِي إِعْرَابِ " نُكَذِّبَ وَنَكُونَ " فَرَفَعَهُمَا الْجُمْهُورُ وَنَصَبَهُمَا حَمْزَةُ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ، وَنَصَبَ ابْنُ عَامِرٍ " نَكُونَ " فَقَطْ، فَقُرَّاءُ الْجُمْهُورِ

بِالْعَطْفِ عَلَى " نُرَدُّ " تُفِيدُ أَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا، وَأَلَّا يُكَذِّبُوا بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَيْهَا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ كَمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، وَأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، أَيْ تَمَنَّوْا هَذِهِ الثَّلَاثَةَ، وَقِيلَ: بَلْ تَمَنَّوْا الْأَوَّلَ فَقَطْ

وَقَوْلُهُ: (**وَلَا نُكَذِّبَ**) إِلَخْ مَعْنَاهُ وَنَحْنُ لَا نَكْذِبَ إِلَخْ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْإِيمَانُ وَعَدَمُ التَّكْذِيبِ غَيْرَ دَاخِلِينَ فِي التَّمَنِّي، وَشَبَّهَهُ سِيبَوَيْهِ بِقَوْلِهِمْ: دَعْنِي وَلَا أَعُودُ، وَهُوَ طَلَبٌ لِلتَّرْكِ فَقَطْ، وَالْوَعْدُ بِعَدَمِ الْعَوْدِ مُسْتَأْنَفٌ مَقْطُوعٌ عَمَّا قَبْلَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: وَأَنَا لَا أَعُودُ تَرَكْتَنِي أَمْ لَمْ تَتْرُكْنِي، وَفِيهِ وَجْهٌ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: (**وَلَا نُكَذِّبَ**) جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ: قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: عَلَى مَعْنَى غَيْرِ مُكَذِّبِينَ وَكَائِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَدْخُلُ فِي حِكَمِ التَّمَنِّي اهـ. وَقَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ دُخُولَهُ فِي حُكْمِ التَّمَنِّي يَجْعَلُهُ بِمَعْنَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ مَعْنَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الرَّدَّ وَعَدَمَ التَّكْذِيبِ وَالْإِيمَانَ عَلَى سَوَاءٍ، وَمَعْنَى الثَّانِي أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ الرَّدَّ فَقَطْ وَيَعِدُونَ بِالْإِيمَان وَعَدَمِ التَّكْذِيبِ وَعْدًا خَبَرِيًّا مُؤَكَّدًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِإِجَابَتِهِمْ إِلَى مَا يَتَمَنَّوْنَ، وَأَمَّا إِذَا جَعَلْنَا " **وَلَا نُكَذِّبَ** " إِلَخْ جُمْلَةً حَالِيَّةً وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّالِثُ فَإِنَّهَا تَصْدُقُ بِحُصُول كُلٍّ مِنْ عَدَمِ التَّكْذِيبِ وَالْإِيمَان قَبْلَ الرَّدِّ إِلَى الدُّنْيَا. فَلَا يَكُونُ التَّمَنِّي مُتَعَلِّقًا بِهِمَا لِذَاتِهِمَا لِأَنَّهُمَا حَاصِلَان وَالْحَاصِلُ لَا يُتَمَنَّى وَإِنَّمَا يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِالرَّدِّ الْمُصَاحِبِ لَهُمَا، الَّذِي تَمَنَّى وُقُوعَهُ بَعْدَ وُقُوعِهِمَا، وَذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ خَبَرِيٍّ وَلَا إِنْشَائِيٍّ بِهِمَا؛ لِأَنَّ الْحَاصِلَ لَا يُوعَدُ بِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا يُتَمَنَّى. وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ (**لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**) (٤: ٤٣) - الْآيَةَ - الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَال الْمُفْرَدَةِ وَالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ وَأَنَّ الْأَصْلَ فِي مَضْمُون الْحَالِيَّةِ أَنْ يَكُونَ سَابِقًا لِلْفِعْلِ الْعَامِلِ فِي الْحَال. وَهَؤُلَاءِ رَجَعُوا عَنِ التَّكْذِيبِ عِنْدَ وَقْفِهِمْ عَلَى النَّار وَحَصَلَ لَهُمُ الْإِيمَانُ الْقَاطِعُ بِصِدْق الرَّسُول فَتَمَنَّوْا أَنْ يَعُودُوا إِلَى الدُّنْيَا مُصَاحِبِينَ لِذَلِكَ، فَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ فِي الْجُمْلَةِ إِنَّ عَدَمَ التَّكْذِيبِ وَالْإِيمَانَ دَاخِلَان تَحْتَ حُكْمِ التَّمَنِّي مِنْ حَيْثُ اشْتِرَاطِهِمَا فِيهِ، لَا أَنَّهُمَا مُتَمَنَّيَان كَالرَّدِّ سَوَاءٌ.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ حَمْزَةَ وَحَفْص بِنَصْبِ الْفِعْلَيْنِ فَقِيلَ: إِنَّهُ عَلَى جَوَابِ التَّمَنِّي، وَقِيلَ: إِنَّ الْوَاوَ لِلْحَال كَقَوْلِهِمْ: لَا تَأْكُلُ السَّمَكَ وَتَشْرَبَ اللَّبَنَ. وَقِيلَ: إِنَّهَا أُجْرِيَتْ مَجْرَى فَاءِ السَّبَبِيَّةِ أَوْ أُبْدِلَتْ مِنْهَا وَأَيَّدُوهُ بِقِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ " فَلَا نُكَذِّبَ " وَقِيلَ:

إِنَّ الْعَطْفَ عَلَى مَصْدَرِ مُتَوَهَّمٍ، أَيْ يَا لَيْتَ لَنَا رَدًّا وَانْتِفَاءَ تَكْذِيبٍ وَكَوْنًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَعَلَى التَّوْجِيهَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ يَدْخُلُ مَا ذُكِرَ فِي حُكْمِ التَّمَنِّي عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي وَجَّهْنَا بِهِ جَعْلَ الْجُمْلَةِ حَالِيَّةً فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ، وَظَاهِرُ التَّوْجِيهِ الثَّالِثِ تَعَلُّقُ التَّمَنِّي بِالْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ عَلَى سَوَاءٍ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ تَوْجِيهِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ تَوْجِيهُ قِرَاءَةِ ابْنِ عَامِرٍ أَيْضًا.

وَلَعَلَّ حِكْمَةَ اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ بَيَانُ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ فِي تَمَنِّيهِمْ: بِأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا غَيْرَ مُكَذِّبٍ بِآيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْمُنَزَّلَةِ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَمَنَّى الرَّدَّ مُصَاحِبًا لِمَا حَدَثَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ النَّدَمِ عَلَى التَّكْذِيبِ وَمِنَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، إِذْ لَا تَلَازُمَ بَيْنَ الرَّدِّ وَبَقَاءِ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْحَادِثِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَمَنَّاهُ لِيَكُونَ سَبَبًا لِلْإِيمَانِ وَعَدَمِ التَّكْذِيبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِدُ بِذَلِكَ وَعْدًا، وَهَذَا الِاخْتِلَافُ فِي كَيْفِيَّاتِ ذَلِكَ التَّمَنِّي أَقْرَبُ إِلَى الْحُصُولِ مِنَ اتِّفَاقِ أُولَئِكَ الْكُفَّارِ الْكَثِيرِينَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اخْتِلَافُ الْقِرَاءَاتِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَعْهُودُ مِنَ الْبَشَرِ. وَلَعَلَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ ذَلِكَ جَاهِلِينَ أَنَّهُ مُحَالٌ، عَلَى أَنَّ النَّاسَ يَتَمَنَّوْنَ الْمُحَالَ وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّحَسُّرِ.

(**فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَاذَا قَالَ وَلَوْ تَرَى؟** وَذَلِكَ يُؤْذِنُ بِالِاسْتِقْبَالِ– ولم يقل: ولو رأيت– ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ (إِذْ وُقِفُوا) وَكَلِمَةُ (إِذْ) لِلْمَاضِي ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ، **فَقَالُوا** وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْمَاضِي.

قُلْنَا: إِنَّ كَلِمَةَ (إِذْ) تُقَامُ مَقَامَ (إِذَا) إِذَا **أَرَادَ الْمُتَكَلِّمُ الْمُبَالَغَةَ** فِي التَّكْرِيرِ وَالتَّوْكِيدِ، وَإِزَالَةَ الشُّبْهَةِ لِأَنَّ الْمَاضِيَ قَدْ وَقَعَ وَاسْتَقَرَّ، فَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِاللَّفْظِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَاضِي، يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ مِنْ هَذَا الِاعْتِبَارِ.

ومن مسائل الإمام الرازى: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ (وَلَوْ تَرَى) يَقْتَضِي لَهُ جَوَابًا وَقَدْ حُذِفَ تَفْخِيمًا لِلْأَمْرِ وَتَعْظِيمًا لِلشَّأْنِ، وَجَازَ حَذْفُهُ لِعِلْمِ الْمُخَاطَبِ بِهِ وَأَشْبَاهُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالشِّعْرِ. وَلَوْ قَدَّرْتَ الْجَوَابَ، كَانَ التَّقْدِيرُ: لَرَأَيْتَ سُوءَ مُنْقَلَبِهِمْ أَوْ لَرَأَيْتَ سُوءَ حَالِهِمْ، وَحَذْفُ الْجَوَابِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَبْلَغُ فِي الْمَعْنَى مِنْ إِظْهَارِهِ،

أَلَا تَرَى: أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ لِغُلَامِكَ، واللَّه لَئِنْ قُمْتُ إِلَيْكَ.. وَسَكَتَّ عَنِ الْجَوَابِ، ذَهَبَ بِفِكْرِهِ إِلَى أَنْوَاعِ الْمَكْرُوهِ، مِنَ الضَّرْبِ، وَالْقَتْلِ، وَالْكَسْرِ، وَعَظُمَ الْخَوْفُ وَلَمْ يَدْرِ أَيَّ الْأَقْسَامِ تَبْغِي. وَلَوْ قُلْتَ: واللَّه لَئِنْ قُمْتُ إِلَيْكَ لَأَضْرِبَنَّكَ فَأَتَيْتَ بِالْجَوَابِ، لَعَلِمَ أَنَّكَ لَمْ تَبْلُغْ شَيْئًا غَيْرَ الضَّرْبِ وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ نَوْعٌ مِنَ الْمَكْرُوهِ سِوَاهُ[١٦]"، **فَثَبَتَ أَنَّ حَذْفَ الْجَوَابِ أَقْوَى تَأْثِيرًا فِي حُصُولِ الْخَوْفِ**. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ جَوَابُ لَوْ مَذْكُورٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَالتَّقْدِيرُ، وَلَوْ تَرَى إذا وُقِفُوا عَلَى النَّارِ يَنُوحُونَ وَيَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ.

****

(وَاللَّهُ) أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ .. (فَاللَّهُ) أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ

﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ (وَاللَّهُ) أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ** فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) ﴾ الأحزاب.

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ **(فَاللَّهُ) أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ** إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ التوبة.

يقول الزمخشرى: فإن قلت: الواو في(والله) فى قوله (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ..، وَتَخْشَى النَّاسَ (وَاللَّهُ) أَحَقُّ) ما هي؟ قلت: واو الحال، أى: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفيا في نفسك إرادة أن لا يمسكها، وتخفى خاشياً قالة الناس وتخشى الناس، حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله، أو واو العطف، كأنه قيل: وإذ تجمع بين قولك. أمسك، وإخفاء خلافه، وخشية الناس. والله أحق أن تخشاه، حتى لا تفعل مثل ذلك.

وهذا كلام يحتاج إلى توضيح وإضافة كما يلى:

---

(١٦)وكمثال قوله تعالى فى غافر: (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ (٥))وقال الزمخشرى أن ذلك أهول من قوله (ليقتلوه) فإن لِيَأْخُذُوهُ ليتمكنوا منه، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل

فى حال خطاب الرسول (ﷺ) فنحن نعلم أن الرسول فى كل قول أو عمل يكون خشية الله مجتمعة معه لا تفارقه أبداً، ويكون دائماً(مصحوباً) بخشية الله لا تفارقه، أو أن(حاله) الدائم هو خشية الله التى لا تفارقه.. وكل هذه المعانى التى ذكرناها هى معانى حرف الواو افى قوله(والله أحق أن تخشاه) فخشية الله مصحوبة معه ومجتمعة به وهى حالته المستمرة، ولذلك سيسميها البعض واو المصاحبة أو المعية أو واو الحال.. وكلها مناسبة لمقام النبى(ﷺ).

أما حال الصحابة – فى غزوة بدر- وقد كانوا قلة وخافوا الناس ، وكانوا فى هذه اللحظة نسوا خشية الله وفارقتهم خشية الله فى هذه اللحظة ولذلك جاء النظم بفاء الفجائية والتى تشير إلى الاستفهام والتعجب أيضاً، فقال(أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ ((**فَاللَّهُ**)) **أَحَقُّ** أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) التوبة.. وهذا هو حال الصحابة الذى يختلف عن حال النبى(ﷺ)وجاء تغيير الحرف من الواو إلى الفاء ليعبر عن كل تلك المعانى.

وهذه الواو التى تسمى بالمصاحبة أو الحالية نجدها فى قوله تعالى عن إخوة يوسف الذين ذهبوا بأخيهم ليلقوف فى البئر و(مصحوباً) معهم هذا القرار من بداية خروجهم به وقبل وصولهم إلى الجب وذلك فى قوله تعالى﴿ **(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ** ..(١٥) ﴾ ، ولو لم يأت بهذه الواو وقال((فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ) لسقط هذا المعنى وكأن إجماعهم على هذا القرار جاء عند وصولهم للجب ولم يقرروه من قبل ولم يكونوا مصحوبين به أو هكذا حالهم، ومن هنا سميت(واو المصاحبة وواو الحال).

وهى التى جاءت فى آية الكهف﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ ((وَ))ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** (٢٢) ﴾ وهى التى جعلها الإمام الزمخشرى بأنها(واو الحال) التى تصف حالهم الثابت، ويكون حالهم الحقيقى والثابت هو سَبْعَةٌ ((وَ))ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ..

ومنها فهم ابن عباس ذلك، وذلك فى قول الزمخشرى:

فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأوّلين ؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حال عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر. ومررت بزيد وفي يده سيف. ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ** ﴾ وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: سبعة وثامنهم كلبهم، قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم. والدليل عليه أنّ الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله رَجْماً بِالْغَيْبِ وأتبع القول الثالث قوله ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ وقال ابن عباس رضى الله عنه: حين وقعت الواو انقطعت العدّة، أى: لم يبق بعدها عدّة عادّ يلتفت إليها. وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات.

وهذه الواو هى التى ردت عن إبراهيم عليه السلام تهمة الكذب وقلة اليقين بالله فى لحظة من اللحظات فى قوله تعالى(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (وَ) لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** (٧٥).. فالواو أفادت أنه كان مصحوباً باليقين وليس غائباً عنه عليه السلام، بخلاف قوله(**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** (٧٥) بدون الواو، والتى تعنى أنه لم يكن من الموقنين فأراه الله الملكوت لذلك.

****

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ (وَلَدِهِ) وَلَا (مَوْلُودٌ) هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** (٣٣) ﴾ [لقمان: ٣٣].

فلقد أوثرت الجملة الفعلية في نفي جزاء الوالد عن ولده(**لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ (وَلَدِهِ)**)، ثم عدل عنها إلى الجملة الاسمية عند نفي جزاء الولد عن الوالد (**وَلَا (مَوْلُودٌ) هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا**) – يقول الزمخشري في نكتة هذا العدول:

"إن الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جيء به على الطريق الآكد(وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا) ".

وقد تعقب ابن المنير السني هذا الرأي قائلاً: "إن صحته تقتضي أن يكون الخطاب خاصاً بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من ينطق عليه اسم الناس" أما وجه ذلك العدول في نظر ابن المنير فهو أنه "لما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع لأن الله حضه عليه في الدنيا كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس".

(وأقول أنا الكاتب)- أنا أوافق على عدم خصوصية النص – كما يشير بذلك أسباب النزول- ولكننى أوافق دائماً على عموم اللفظ، وقد أشبعنا ذلك فى المجلد الثالث من إعجاز التكرار فى قصص القرآن- مقدمة قصة آدم عليه السلام ، وقد عنونا ذلك بعنوان (عدم الاعتماد على أسباب النزول وسردنا الأسباب المؤيدة لذلك الرأى)).

ويضيف الألوسي – إلى ما تقدم – رأياً آخر في تفسير تلك المخالفة فيقول:

"إن العرب كانوا يدخرون الأولاد لنفعهم ودفع الأذى عنهم وما يهمهم، ولعل أكثر الناس اليوم كذلك، فأريد حسم توهم نفعهم ودفعهم الأذى وكفاية المهم في حق آبائهم يوم القيامة، فأكدت الجملة المفيدة لنفي ذلك عنهم".

والحق أن هذا الرأي الأخير هو – فيما نحس – أرجح ما قيل في تفسير هذا العدول في الآية الكريمة،((رغم أنى أراه قريباً من الآراء السابقة))) غير أنا لا نرى وجهاً لتخصيصه بالعرب دون غيرهم من الأجناس، ولا بالناس – أو أكثرهم – في عصر دون عصر؛ فالأبناء – دائماً – هم مثار افتتان الإنسان واغتراره بالحياة، وهم لا الآباء – عادة – معقد الرجاء، ومغرس الأمل، وحلم المستقبل، ومن ثم فإن مرد العدول في الآية هو اقتلاع ما قد يتسلل إلى مسارب النفس البشرية – من أي

جنس وفي أي عصر – من توهم نفع الأبناء، ولعلنا نلاحظ أن تعميم مرد العدول على هذا النحو هو ما يلائم سياق الآية الكريمة التي جاء النداء في صدرها "يأأيها الناس" عاماً مستوعباً جميع أفراد الجنس البشري دون تخصيص.

ولعلنا نلاحظ أيضاً أن العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية قد واكبه العدول في الجملة الأخيرة عن لفظة "ولد" إلى لفظة "مولود"، والفرق بينهما كما ذكر الزمخشري وغيره: ان المولود لا يطلق إلا على من ولد منك "بلا واسطة"– أى إبنك اللصيق بك الذى هو من صلبك–، أما الولد فإنه عام يشمل الولد وولد الولد، وعلى أساس هذا الفرق فإن العدول عن الأولى (ولد) إلى الثانية (مولود له)– لصيق به– يتآزر مع العدول إلى الجملة الاسمية في تأكيد العموم في معنى "عدم الانتفاع بالذرية"؛ إذ إن نفي انتفاع الإنسان بولده الذي هو من صلبه يقتضي نفي انتفاعه بمن عداه من باب أولى.

يقول الإمام الطاهر:

﴿ **وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ** – ولم يقل(وعلى الوالد) رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا **وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ** بِوَلَدِهِ ﴾ ..ولم يقل(ولا أب بولده)(٢٣٣)) وَعَبَّرَ عَنِ الْوَالِدِ بِالْمَوْلُودِ لَهُ، إِيمَاءً إِلَى أَنَّهُ الْحَقِيقُ بِهَذَا الْحُكْمِ لِأَنَّ مَنَافِعَ الْوَلَد منجرة إِلَيْهِ، وَهُوَ لَا حق بِهِ وَمُعْتَزٌّ بِهِ فِي الْقَبِيلَةِ حَسَبَ مُصْطَلَحِ الْأُمَمِ، فَهُوَ الْأَجْدَرُ بِإِعَاشَتِهِ، وَتَقْوِيم وَسَائِلِهَا.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت لم قيل الْمَوْلُودِ لَهُ دون الوالد؟ قلت: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم، لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات، كما قال المأمون بن الرشيد:

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن.

﴿ **وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً** ﴾.

ويقول الإمام الطاهر:

وَذِكْرُ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ هُنَا لِأَنَّهُمَا أَشَدُّ مَحَبَّةً وحمية من غيرهم فَيُعْلَمُ أَنَّ غَيْرَهُمَا أَوْلَى بِهَذَا النَّفْيِ، قَالَ تَعَالَى: **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ** الْآيَة [عبس: ٣٤- ٣٥] **وابتدئ بالوالد** لِأَنَّهُ أَشَدُّ شَفَقَةً عَلَى ابْنِهِ فَلَا يَجِدُ لَهُ مَخْلَصًا مِنْ سُوءٍ إِلَّا فِعْلَهُ.

وَوَجْهُ اخْتِيَار هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي إِفَادَةِ عُمُومِ النَّفْيِ هُنَا دُونَ طَرِيقَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **(وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً)** فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [١٢٣] ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ وَأَهْلُهَا يَوْمَئِذٍ خَلِيطٌ مِنْ مُسْلِمِينَ وَكَافِرِينَ، وَرُبَّمَا كَانَ الْأَبُ مُسْلِمًا وَالْوَلَدُ كَافِرًا وَرُبَّمَا كَانَ الْعَكْسُ، وَقَدْ يَتَوَهَّمُ بَعْضُ الْكَافِرِينَ حِينَ تُدَاخِلُهُمُ الظُّنُونُ فِي مَصِيرِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ صِدْقُ وَعِيدِ الْقُرْآنِ إِيَّاهُمْ فَإِنَّ مَنْ لَهُ أَبٌ مُسْلِمٌ أَوِ ابْنٌ مُسْلِمٌ يَدْفَعُ عَنْهُ هُنَالِكَ بِمَا يَدُلُّ بِهِ عَلَى رَبِّ هَذَا الدِّينِ، وَقَدْ كَانَ قَارًّا فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ التَّعْوِيلُ عَلَى الْمَوْلَى وَالنَّصِيرِ تَعْوِيلًا عَلَى أَنَّ الْحَمِيَّةَ وَالْأَنَفَةَ تَدْفَعُهُمْ إِلَى الدِّفَاعِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مُخْتَلِفِينَ لَهُمْ لِضِيقِ عَطَنِ أَفْهَامِهِمْ يَقِيسُونَ الْأُمُورَ عَلَى مُعْتَادِهِمْ. وَهَذَا أَيْضًا وَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ نَفْيِ جَزَاءِ الْوَالِدِ عَنْ وَلَدِهِ وَبَيْنَ نفي جزاء الْوَالِد عَنْ وَالِدِهِ لِيَشْمَلَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْحَالَتَيْنِ فَلَا يُتَوَهَّمُ أَنَّ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ أَرْجَى فِي الْمَقْصُودِ.

ثُمَّ أُوثِرَتْ جُمْلَةُ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً بِطُرُقٍ مِنَ التَّوْكِيدِ لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَى مِثْلِهَا جُمْلَةُ لَا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ، فَإِنَّهَا نُظِمَتْ جُمْلَةً اسْمِيَّةً، وَوُسِّطَ فِيهَا ضَمِيرُ الْفَصْلِ، وَجُعِلَ النَّفْيُ فِيهَا مُنْصَبًّا إِلَى الْجِنْس. وَنُكْتَةُ هَذَا الْإِيثَار مُبَالَغَةُ تَحْقِيقِ عَدَمِ جُزْءِ هَذَا الْفَرِيقِ عَنِ الْآخَرِ إِذْ كَانَ مُعْظَمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْنَاءِ وَالشَّبَابِ، وَكَانَ آبَاؤُهُمْ وَأُمَّهَاتُهُمْ فِي الْغَالِبِ عَلَى الشِّرْكِ مِثْلُ أَبِي قُحَافَةَ وَالِدِ أَبِي بَكْر، وَأَبِي طَالِبٍ وَالِدِ عَلِيٍّ، وَأُمِّ سَعْدِ بْن أَبِي وَقَّاص، وَأُمِّ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْر، فَأُرِيدَ حَسْمُ أَطْمَاعِ آبَائِهِمْ وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَطْمَاعِهِمْ أَنْ يَنْفَعُوا آبَاءَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ. **وَعُبِّرَ فِيهَا بِ مَوْلُودٌ دُونَ (وَلَدٍ)** لِإِشْعَارِ مَوْلُودٌ بِالْمَعْنَى الِاشْتِقَاقِيِّ دُونَ (وَلَدٍ) الَّذِي هُوَ اسْمٌ بِمَنْزِلَةِ الْجَوَامِدِ لِقَصْدِ **التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الصِّلَةَ الرَّقِيقَةَ لَا تُخَوِّلُ صَاحِبَهَا التَّعَرُّضَ لِنَفْعِ أَبِيهِ الْمُشْرِكِ فِي الْآخِرَةِ وَفَاءً لَهُ بِمَا تومىء إِلَيْهِ الْمَوْلُودِيَّةُ مِنْ تَجَشُّمِ الْمَشَقَّةِ مِنْ تَرْبِيَتِهِ**، فَلَعَلَّهُ يَتَجَشَّمُ الْإِلْحَاحَ فِي الْجَزَاءِ عَنْهُ

فِي الْآخِرَةِ حَسْمًا لِطَمَعِهِ فِي الْجَزَاءِ عَنْهُ، **فَهَذَا تَعْكِيسٌ لِلتَّرْقِيقِ الدُّنْيَوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** ﴿ **وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً** ﴾ [الْإِسْرَاء: ٢٤] وَقَوْلِهِ: ﴿ **وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً** ﴾ [لُقْمَان: ١٥] .(فقد أمر الله بأن يحسن لوالدية ويتحمل عنهم، ولكنه قد عكس الحال فى الآخرة ولا يغنى أحدهم عن أبيه شيئاً فلا إحسان هنا، فهو تعكيس للوضع فى الدنيا ولذلك أكَّد عليه هنا)

((**وأرى**)) أن الرأى المناسب هو: لما كان إجزاء الولد– عن والده– مظنون الوقوع، لأن الله حَضّه عليه فى الدنيا(أى بطلب البر بالوالدين) كان ذلك جديراً بتأكيد نفى حدوث مثله فى الآخرة، وأتى بمثل هذه التوكيدات المذكورة فى هذه المناقشة، ولإزالة استمرار هذا الوهم، ، وهو مانقله صاحب حاشية الكشاف.

****

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ** (**وَخَلَقَهُمْ**) (**وَخَرَقُوا**) **لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ** بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ (الأنعام)

يقول الإمام الطاهر:

وَالْخَرْقُ: أَصْلُهُ الْقَطْعُ وَالشَّقُّ. وَقَالَ الرَّاغِبُ: هُوَ الْقَطْعُ وَالشَّقُّ عَلَى سَبِيلِ الْفَسَادِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّر(١٧)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها** [الْكَهْف: ٧١] . وَهُوَ ضِدُّ الْخَلْقِ، فَإِنَّهُ فِعْلُ الشَّيْءِ بِتَقْدِيرٍ وَرِفْق، وَالْخَرْقُ بِغَيْرِ تَقْدِير. وَلَمْ يُقَيِّدْهُ غَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ. وَأَيًّا مَا كَانَ فَقَدِ اسْتُعْمِلَ الْخَرْقُ مَجَازًا فِي الْكَذِبِ ... وَفِي «الْكَشَّافِ» : سُئِلَ الْحَسَنُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَخَرَقُوا فَقَالَ: كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ كَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُهَا، كَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَذَبَ كِذْبَةً فِي نَادِي الْقَوْمِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: «قَدْ خَرَقَهَا وَاللَّهِ» .

فكان الالتفات من (خلقها) إلى (خرقها) فالله يخلق وهم يخرقون.

---

(١٧) وكما ذكرنا كثيراً أن جرس كل كلمة يشير إلى المعنى، وعلى القارىء أن يتذوق جرس اللام– فى ذلاقته ونعومته– فى(خلق) الذى يختلف عن الراء– بترددها على طرف اللسان وتفرقها وخشونتها)

حسن الختام:

وأختم بحثى هذا بآية إكمال الدين وإتمام المنة

حيث إنه من المنن العظيمة التى منَّها الله على أن رزقنى التدبر فى كتابه وإخراج هذا الكتاب مع إخوانه من سلسلة(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) فكان توفيق الله لتكون هذه الآية التالية هى ختام البحث:

****

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. (٣)) المائدة.

واللفظان(أكملت وأتممت) يتفقان – معجمياً – في الدلالة على معنى واحد هو: إزالة النقص، ولكنهما يفترقان بعد ذلك؛ إذ يختص الإتمام – كما ذكر بعض المفسرين – بالدلالة على إزالة نقصان الأصل، والإكمال بالدلالة على إزالة نقصان العوارض – أى غير الأصل- بعد تمام الأصل "، ومن ثم كان قوله تعالى (تلك عشرة كاملة) أحسن من تلك عشرة تامة؛ إذ التمام في العدد قد علم، وإنما بقي احتمال نقص في صفاتها- أى فى صفات هذا العدد من الأيام-، ويفترقان أيضاً من جهة أن قولهم "تم" يشعر بحصول نقص قبل ذلك، و"كمل" لا يشعر به.

على أساس هذا الفارق – والله أعلم – أوثرت لفظة الإكمال مع الدين، وذلك للدلالة على أن أصل هذا الدين بمعنى الإسلام أو عقيدة التوحيد هو أساس ثابت (لا يحتمل زيادة أو نقصاً) في كل الأديان والشرائع السماوية ﴿ **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)** ﴾ (الشورى).﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)** ﴾ (آل عمران).

ونحن بذلك نرجح ما ذكره ابن عباس والسدي في تفسير المراد بإكمال الدين من أنه "اليوم أكملت لكم حدودي وفرائضي، وحلالي وحرامي بتنزيل ما أنزلت، وبيان ما بينت لكم، فلا زيادة في ذلك ولا نقصان فيه بالنسخ بعد هذا اليوم"،

ولعل مما يؤيد هذا الرأي أن السورة التي نزلت فيها تلك الآية الكريمة (المائدة) قد جاءت حافلة قبلها وبعدها بتشريع الأحكام في التحليل والتحريم والغسل والطهارة والسرقة والقصاص والخمر وما إلى ذلك من أحكام، ولعل مما يؤيده أيضاً تخصيص الإكمال بالمخاطبين من المسلمين ثم إضافة الدين إلى الضمير العائد عليهم "لكم دينكم" ففي هذا وذاك دليل على أن متعلق الإكمال ليس هو أصل الدين الثابت في كل الشرائع السماوية، بل هو ما قررته تلك الشريعة الخاتمة من أصول التشريع والأحكام التي لا تقبل زيادة ولا نسخاً.

أما العدول عن لفظ الإكمال إلى لفظ الإتمام في الآية الكريمة فذلك لأن متعلق الإتمام هو النعمة التي ظفر بها المسلمون تدريجياً حتى أوفت على غايتها عند نزول تلك الآية، ونحن بذلك نرجح الرأي القائل في تفسير النعمة بأنها نعمة ظهور الدين ونصر المسلمين على أعدائهم، وأن تمامها كان بفتح مكة ودخولهم لها آمنين ظاهرين، ولعل مما يدعم هذا الرأي قوله سبحانه قبل ذلك – في الآية ذاتها – مخبراً عما آل إليه أمر الكفار من قهر وإذلال: ﴿ **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ...** ﴾ .

ونستطيع القول بناء على هذا الرأي: إن في العدول عن لفظ الإكمال إلى لفظ الإتمام في "وأتممت عليكم نعمتي" لفتاً للمسلمين إلى تذكر فضل الله سبحانه في هذا النصر المظفر الذي نالوه بعد أن كان مجرد أمنيات تجول في خواطرهم، وتتطلع إلى تحقيقها نفوسهم.

ويقول الإمام الطاهر كلاماً مطولاً أحيل القارىء الكريم عليه لنفاسته.

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾ الفرقان

تم بحمد الله ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة.

وقد تم الانتهاء من كتابته فى ٢١ ديسمبر ٢٠١٣ الموافق ١٩صفر ١٤٣٥هـ.

وإعادة طبعه وتنقيحه في ١٥ شعبان ١٩٣٤ الموافق أول مايو ٢٠١٨

الخاتمة

أقول بعد هذه الرحلة الممتعة:

لقد كانت أمنية غالية هى أن أتم هذه السلسلة الكريمة التى أشرنا إليها فى مقدمة البحث، وقَدْ وَفَيْتُ بِمَا نَوَيْتُ، وَحَقَّقَ اللَّهُ مَا ارْتَجَيْتُ، فَجِئْتُ بِمَا سَمَحَ بِهِ الْجُهْدُ مِنْ بَيَانِ لطائف الْقُرْآن وَدَقَائِق نِظَامِهِ وَخَصَائِصِ بَلَاغَتِهِ، مقتبساً من أقوال الأئمة الأعلام ومناقشاً لها ومضيفاً عليها بعض ما فتح الله به علىَّ ، وَقَدْ جِئْتُ بِمَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ وُفِّقْتُ فِيهِ لِلْإِبَانَةِ عَنْ حَقَائِقَ مَغْفُول عَنْهَا، ولا أدّعى أننى أتيت بكل المراد، وهيهات هيهات، فَإِنَّ هَذَا مَنَالٌ لَا يَبْلُغُ الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ إِلَى تَمَامِهِ، وَمَنْ رَامَ ذَلِكَ فَقَدْ رَامَ وَالْجَوْزَاءُ دُونَ مَرَامِهِ.

وحقاً كما قال الأستاذ صادق الرافعى: ولسنا نزعم – حفظك الله – أن كتابنا هذا على ضعفه وقلة الحشد فيه قد أحاط بوجوه الإعجاز من كتاب الله، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنَّا لم ندع من ذلك لغيرنا ما يرفعه أو يضعهُ وما ينقصه أو يَتمّه، فإن من ادعى ذلك زعم باطلاً، وأكبر القولَ فيما زعم ..وكان خليقاً أن يكون قد جاء ببهتان يفتريه بين يديه، وأن يكون ممن لا يَتحاشَوْن الكذب الصرف، ولا يضنون بكرامتهم على الألسنة.

فهو: آيات منزلة من حول العرش، فالأرض بها سماء هي منها كواكب .. أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها، وامتنعت عليها أعراف " الضمائر فابتز " أنفالها".وكم صدوا عن سبيله صداً، ومن ذا يدافع السيل إذا هدر؛ واعترضوه بالألسنة رداً، ولعمري من يرد على الله القدر؟ .. فما كان إلا نور الشمس: لا يزال الجاهل يطمع في سرابه ثم لا يضع منه قطرة في سقائه، ويلقي الصبي غطاءه ليخفيه بحجابه ثم لا يزال النور يتبسط على غطائه.

توهموا السحر ما توهموه، فلما أنزل الله كتابه قالوا: هذا هو السحر المبين. وكانوا يأخذون في ذلك بباطن الظن فأخذوا هذا بحق اليقين ﴿ **أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥)** ﴾ .ومن الشعر ما تسمعونه أم أنتم لا تسمعون؛ بل إنه لسحر يغلب حتى يفرق بين المرء وعادته، وينفذ حتى ينصرف بين القلب وإرادته. ويجري في الخواطر كما تصعد في الشجر قطرات الماء، ويتصل بالروح فإنما يمد لها بسبب إلى السماء.

فكل معنى فيه- ولا جرم من بحر، وكل لفظ كلؤلؤة في النحر... لا جَرَمَ أن القرآن سر السماء، فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول. ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول، وكذلك تمادى العرب في طغيانهم يعمهون، وظلت آياته تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.، إذ هو كتاب السماء إلى الأرض مُستقرا ومُستودعاً، وقد جاء بالإعجاز الأبدي الذي يشهد على الدهر ويشهد الدهر عليه، فما من جهة من الكلام وفنونه إلا وأنت واجد إليها متوَجهاً فيه، وما من عصر إلا وهو مقلب صفحة منه حتى لتنتهي الدنيا عند خاتمته فإذا هي خلاءُ " من الجنة والناس".

وأقول: هذا هو قرآنى الحبيب الذى عرفته وأعجز عن التعبير عما أكنه، وهذا هو واحدٌ من الأبحاث التى كنت أتمنى إتمامها، وَأَرْجُو الله تعالى مِنْ هذا البحث أَنْ يُنْجِدَ وَيَغُورَ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ الْخَاصَّةَ وَالْجُمْهُورَ، وَيَجْعَلَنِي بِهِ مِنَ الَّذِينَ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ.

ولا أنسى أن أدعو الله تعالى بالرحمة والغفران لمن ساهم فى نشر هذا الكتاب وأن يجعله فى ميزان حسناته وأن يسكنه تعالى فسيح جناته. آمين

دكتور : سامح القلينى

من أهم المراجع

كتب التفسير للقرآن الكريم بحسب اهتمامها بهذا البحث وهى – بحسب اهتمامها– على الترتيب التالى:

١– تفسير التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور

٢– إرشاد العقل السليم للإمام ابو السعود

٣– روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم للإمام الألوسى

٤– التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى

٥– الكشاف للإمام الزمخشرى

٦– نظم الدرر للإمام البقاعى

٧– التفسير القيم للإمام ابن القيم

٨– تفسير المنار للإمام محمد عبدة والشيخ رشيد رضا

٩– فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب

١٠– التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى

١١– البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى

١٢– البرهان فى علوم القرآنللإمام الزركشى

١٣– بدائع الفوائد للإمام ابن القيم

١٤– أسماء الله الحسنى للإمام ابن القيم

١٥– نتائج الفكر للإمام السهيلى

١٦– ملاك التأويل للإمام الزبير الغرناطى

١٧– درة التزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافى

١٨– أسرار التكرار فى القرآن الكريم للإمام الكرمانى

١٩– معانى النحو للدكتور فاضل السامرائى

٢٠– المثل السائر لضياء الدين ابن الأثير

٢١– الطراز للإمام يحى العلوى

٢٢– مفتاح العلوم للسكاكى

٢٣- خصائص التراكيب للدكتور محمد محمد أبو موسى
٢٤- التعبير القرآنى للدكتور فاضل السامرائى
٢٥- أسلوب الالتفات فى البلاغة العربية للدكتور حسن طبل
٢٦- سلسلة إعجاز التكرار فى قصص القرآن للدكتور سامح القلينى.
٢٧- من صيغ الألفاظ للدكتور محمد الأمين الخضرى
٢٨- من أسرار حروف الجر فى القرآن الكريم للدكتور الأمين الخضرى
٢٩- من أسرار حروف العطف فى القرآن الكريم للدكتور الأمين الخضرى
٣٠- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز
٣١- شبهات وأباطيل للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٣٢- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز لفخر الدين الرازى
٣٣- فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبى.
٣٤- التوجيه البلاغى للقراءات القرآنية د: أحمد سعد محمد.
٣٥- سلسلة الجلال والجمال فى رسم الكلمة وجرسها فى القرآن الكريم للدكتور سامح القلينى

فهرست الآيات القرآنية

لمراجعة وتلخيص الكتاب ، مع إشارات رمزية بين الآيات في بداية الفهرست

١- المقدمة	
مباحث فى أسلوب الالتفات وتعريفات وتقسيمات هامة	١
أقسام الالتفات (١)	٩
وقفة تفصيلية أخرى (٢) ووقفات هامة وأمثلة عديدة الْأَوَّلُ :الِالْتِفَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخِطَابِ. ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى –أنا– وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ – أنتم– (٢٢) ﴾ يس { ٩ } ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِى لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ (٥) رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ ﴾الدخان. {١١} ٢– ابن القيم ولفظ الألوهية الذى يلتفت إليه النص ... {١٣}	٩
الثانى : الالتفات مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ. ﴿ قُلْ ياأيها . إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ.. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِه.(١٥٨) ﴾ الأعراف {١٤} ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. وَمَا عَلَى (الرَّسُولِ) إِلَّا (٥٤) ﴾النور {١٥} ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) ﴾	١٤- ١٧
** ومثلها فى العدول إلى الصفة ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ – ظننتم– بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا (١٢) ﴾النور {١٥}	١٥
الثَّالِثُ : مِنَ الْخِطَابِ إِلَى التَّكَلُّمِ. ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ – أنت– يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ– أنت– مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ – أنت– مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ – هو– فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ– هو– فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ – هو–(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ)– أنت– مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ – أنت– عَلَى عَيْنِي (٣٩) . وَاصْطَنَعْتُكَ– أنت– لِنَفْسِي (٤١) ﴾ طه قُلِ (اللَّهُ) أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ (رُسُلَنَا) يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ يونس {١٨} ﴿ أَمَّنْ (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ (هُمْ)(قَوْمٌ)(يَعْدِلُونَ) (٦٠) ﴾ النمل {١٩}	١٨- ٢٠
الرَّابِعُ : مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ. ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ. (٢٢) ﴾ يونس ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ (أَنْتُمْ) وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ (عَلَيْهِمْ) بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ .. (وَأَنْتُمْ)فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي (أُورِثْتُمُوهَا) بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) (لَكُمْ)فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) ﴾الزخرف {٢٢}	٢٠-

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ – هم– فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ– هم–رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا – أنتم– هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ– هم– عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ– هم ونحن– بِحُورٍ عِينٍ (٢٠). ﴾ الطور {٢٥} ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ ب–نحن–حُورٍ عِينٍ (٥٤) ..: فَضْلًا مِنْ (رَبِّكَ) - ..(٥٧) ﴾ الدخان {٢٥} ﴿ وَمَا (آتَيْتُمْ) مِنْ زَكَاةٍ (تُرِيدُونَ) وَجْهَ اللَّهِ (فَأُولَئِكَ) (هُمُ) الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ الروم {٢٦ } ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ (أنتم) الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ (أُولَئِكَ) هُمُ الراشدون (٧) الحجرات {٢٧} ﴿ قل يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا (أنتم) مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا (أنتم) إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (أنتم) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (أنتم) (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (أنتم) (٥٥) أَنْ تَقُولَ (نَفْسٌ)– أن تقولوا– يَا حَسْرَتَا .. (٥٦) ﴾ {٢٨} {٣٧} {٧٤} ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ –أنتم–يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ –كانوا به يكذبون– (٢١) احْشُرُوا –للملائكة–الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ – ماهم–(٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) ﴾ الصافات {٢٨} {٣٢} ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ (أَلِرَبِّكَ) - هو– الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩)...... (١٦٤) ﴾ {٣٢} ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ (أنتم) أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ (أنتم) فَاعْبُدُون (أنتم) وَتَقَطَّعُوا (هم) أَمْرَهُمْ بَيْنَهُم ﴾.الأنبياء {٣٥} ﴿ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ– ولتنظروا– مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ..(١٨) ﴾ الحشر {٣٨} ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ... فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ... فَهَلْ عَسَيْتُمْ (أنتم) إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) (أُولَئِكَ) - هم– الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ –فأنتم الذين لعنهم الله (٢٣) ﴾محمد {٣٩} {٢٠٨} ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ((لِلَّذِينَ آمَنُوا)) لَوْ كَانَ خَيْرًا ((مَا سَبَقُونَا)) إِلَيْهِ –ماسبقتمونا إليه– (١١) ﴾ الأحقاف {٤١}	
الْخَامِسُ: مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّم ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى –هو– بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا –نحن– حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ –نحن– مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ (هُوَ) السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ { ٤٣} ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ –جاءوا– شَيْئًا إِدًّا ﴾ مريم {٤٨} ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ (هم) أَكَفَرْتُمْ (أنتم) بَعْدَ إِيمَانِكُمْ (١٠٦) ﴾ ال عمران {٤٩} ﴿ فَتُكْوَى بِهَا (جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ) هَذَا (مَا كَنَزْتُمْ) ﴾ التوبة {٤٩}	٤٣

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا (الْإِنْسَانَ) فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) .. أَلَيْسَ اللَّهُ –أليس نحن– بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)). ﴾التين {٥٠} ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ — باللام –وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ — بحرف(في) –وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..(٦٠) ﴾التوبة{٥١} ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ (إِنَاثًا) وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ (الذُّكُورَ) (٤٩) ﴾ {٥٠}{٥٣} ﴿ (هُوَ الَّذِي (يُرِيكُمُ) –أنتم– الْبَرْقَ .. (وَهُمْ) يُجَادِلُونَ (فِي اللَّهِ) (١٣) ﴾الرعد{ ٥٧} ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى...... ﴾ النمل {٥٨} ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) .. لَوْ نَشَاءُ (لَجَعَلْنَاهُ) حُطَامًا . (٦٥) .. أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ . (٦٨) لَوْ نَشَاءُ (جَعَلْنَاهُ) أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾[الواقعة] { ٦٣ } ﴿ يَوْمَ (يُنْفَخُ) فِي الصُّورِ (وَنَحْشُرُ) —ويُحشر– الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ طه {٦٦}	
السَّادِسُ: مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ. ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ مريم {٦٧} ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ (١٠٦) ﴾آل عمران{٦٩} {٧٤} ﴿ فَوَقَاهُمُ– هم– اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ.. وَجَزَاهُمْ.. (١٢) مُتَّكِئِينَ ..وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ .. وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ.. وَيُسْقَوْنَ – هم– .. وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ..وَسَقَاهُمْ– هم– رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ ((لَكُمْ)) جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ – أنتم– مَشْكُورًا (٢٢) ﴾ الإنسان {٧٠} ﴿ (أَلَمْ تَرَ إِلَى (رَبِّكَ) كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ ((جَعَلْنَا)) الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ﴾ الفرقان {٧٠} ﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا (لِلنَّبِيِّ) إِنْ أَرَادَ (النَّبِيُّ) أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً (لَكَ) — خالصة له–(٥٠) ﴾الأحزاب . {٧١} ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وإليه ترجعون ﴾ يس {٧٢}	٦٧
من الغيبة إلى الحضور ﴿ وَمَا كَانَ (رَبُّكَ) — هو– مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ (آيَاتِنَا) –نحن– ﴾القصص. {٧٢}	٧٢
وضع الظاهر في مقام المضمر : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ((اللَّهِ)) –من دونه– أَوْثَانًا ﴾ العنكبوت {٧٢} ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ –عليه– بِعَزِيزٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جميعا ﴾ .ابراهيم {٧٢} ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ –دونه– فَيَقُولُ ﴾الفرقان { ٧٢ } ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ العنكبوت {٧٣} ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا (بِاللَّهِ) وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ	-٧٢ ٧٩

وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾الفتح. {٧٤} ﴿ بَلْ (عَجِبُوا) أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ (الْكَافِرُونَ) -فقالوا- هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) ﴾ ق {٧٥} ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (وَإِلَى اللَّهِ)-وإليه- تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) ﴾ {٧٦} ﴿ (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ (لَكُمْ) يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ (الْكَافِرُونَ)—إنكم-إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠)....(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ (الَّذِينَ كَفَرُوا)—وجوههم- وَقِيلَ هَذَا الَّذِي(كُنْتُمْ) بِهِ (تَدَّعُونَ) (٢٧) ﴾الملك {٧٧} ﴿ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ—وداعيا إلينا بإذننا— وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) ﴾ الأحزاب {٧٧} ﴿ (سَنُلْقِي) فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ -أشركوا بنا- ﴾ {٧٨} ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ .. وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ —وما تعدهم-إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾الإسراء. {٧٩}	
وَمِمَّا يَقْرُبُ مِنَ الِالْتِفَاتِ أَيْضًا الِانْتِقَالُ مِنْ خِطَابِ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ إِلَى خِطَابٍ آخَرَ **الأول والثانى من خطاب الواحد للإثنين والواحد للجمع** ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ- مفرد- اتَّقِ اللَّهَ.. إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) ﴾الاحزاب{٨٠} ﴿ (يَا أَيُّهَا (النَّبِيُّ) إِذَا (طَلَّقْتُمُ) النِّسَاءَ.. ﴾ الطلاق. {٨٤}	٨٠
الثَّالِثُ: مِنَ الِاثْنَيْنِ إِلَى الْوَاحِدِ ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا (يَا مُوسَى—ياموسى وهارون—) {٤٩} {٨٥} ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى -فتشقيا-(١١٧) ﴾ طه {٨٦}	٨٦
الرَّابِعُ: مِنَ الِاثْنَيْنِ إِلَى الْجَمْعِ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ – مثنى—أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا – مثنى—بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا—جمع- بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا- جمع- الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ- مفرد- الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾ يونس ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) .. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) ..فِيهِمَا... مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) .. فِيهِمَا .. (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) ﴾ الرحمن {٨٨}	٨٦
الْخَامِسُ: مِنَ الْجَمْعِ إِلَى الْوَاحِدِ	٨٧
السَّادِسُ: مِنَ الْجَمْعِ إِلَى التَّثْنِيَةِ ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ -مثنى- إِنِ (اسْتَطَعْتُمْ) أَنْ (تَنْفُذُوا) مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (فَانْفُذُوا) (لَا تَنْفُذُونَ) إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ الرحمن {٨٧}	٨٧
الالتفات من الماضى إلى الأمر	٩٢

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ (**وَأَقِيمُوا**) **وُجُوهَكُمْ** —وإقامة وجوهكم-عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوه ﴾ **الاعراف** **{٩٢}** ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ– هم– وَأَمْنًا **وَاتَّخِذُوا** -**أنتم** - مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى .. (١٢٥) ﴾ .البقرة **{٩٢}**	
نماذج أخرى عن نقل الماضي للحاضر ﴿ (**وَإِذِ ابْتَلَى** إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. **وَإِذْ جَعَلْنَا** الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ..(١٢٦) **وَإِذْ** ((**يَرْفَعُ**)) إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ (١٢٧) ﴾ البقرة **{٩٣}** ﴿ (**كَذَّبَتْ**) ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) (**فَقَالُوا**) أَبَشَرًا مِنَّا ..بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) (**سَيَعْلَمُونَ**) **غَدًا** مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) (**إِنَّا**) (**مُرْسِلُو**)- الآن- النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ (**فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**) (٢٧) ﴾القمر **{٩٥}** ﴿ (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا **وَإِنْ جَاهَدَاكَ** لِتُشْرِكَ بِي — وإن جاهداه ليشرك بي– مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ **فَلَا تُطِعْهُمَا** (٨) ﴾ العنكبوت. **{٩٧}**	٨٥
الالتفات من المستقبل للأمر ومن الماضي للمستقبل ﴿ قَالَ إِنِّي (**أُشْهِدُ اللَّهَ**) (**وَاشْهَدُوا**) —وأشهدكم– (٥٤) ﴾ ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي (**أَرْسَلَ**) الرِّيَاحَ (**فَتُثِيرُ**) -فأثارت– ﴾ ،﴿ **فَكَأَنَّمَا** (**خَرَّ**) مِنَ السَّمَاءِ (**فَتَخْطَفُهُ**)— فخطفته -**الطَّيْرُ أَوْ** (**تَهْوِي**) بِهِ الرِّيحُ ((فِي)) مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾ الحج **{٩٩}** ﴿ إِنَّ الَّذِينَ (**كَفَرُوا**) (**وَيَصُدُّونَ**) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الحج **{١٠١}** ﴿ (إِنَّ **الَّذِينَ كَفَرُوا** (**وَصَدُّوا**) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٦٧) ﴾النساء ٣٢، ٣٤ ،محمد ،**{١٠٢}**	٩٨
الالتفات من المضارع إلى الماضي ونماذج متنوعة ﴿ **يَوْمَ** (**يُنْفَخُ**) فِي الصُّورِ (**فَفَزِعَ**) -فيفزع– مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ **{١٠٣}** ﴿ **وَيَوْمَ** (**نُسَيِّرُ**) الْجِبَالَ (**وَتَرَى**) الْأَرْضَ بَارِزَةً (**وَحَشَرْنَاهُمْ**) **وَعُرِضُوا** –ونحشرهم ونعرضهم– عَلَى رَبِّكَ صَفًّا **لَقَدْ جِئْتُمُونَا** كَمَا خَلَقْنَاكُمْ– لقد جاءونا كما خلقناهم– أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ–زعموا– أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) ﴾ الكهف **{١٠٣}** ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ **الَّذِينَ كَفَرُوا**(هم) عَلَى النَّارِ **أَذْهَبْتُمْ** (**أنتم**) **طَيِّبَاتِكُمْ** (أنتم) فِي حَيَاتِكُمُ (أنتم) الدُّنْيَا **وَاسْتَمْتَعْتُمْ** (أنتم) بِهَا ﴾ .الأحقاف **{١٠٦}** ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ **فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ** فِي النَّارِ **هَلْ تُجْزَوْنَ**–هل يُجزون–إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)) ﴾لنمل. **{١٠٦}** ﴿ (**وَجَاءَتْ** سَكْرَةُ الْمَوْتِ .. (١٩) **وَنُفِخَ** فِي الصُّورِ .. **وَجَاءَتْ كُلُّ** نَفْسٍ.. **وَقَالَ قَرِينُهُ**.. **قَالَ قَرِينُهُ** .. قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ..**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ** .. ﴾ ق. **{١٠٨}** ﴿ **وَأَشْرَقَتِ** الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ **وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) **وَوُفِّيَتْ** .. (٧٠) **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا** إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا .. **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا** رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ .. (٧٣) ﴾ **الزمر** **{١٠٩}**	١٠٣

	﴿ (وَيَوْمَ (يُنْفَخُ) فِي الصُّورِ (فَفَزِعَ) (٨٧) ﴾ الزمر {١١٠} ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ (يَهْدِينِ) -فهداني- (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ((رَبِّ)) هَبْ لِي حُكْمًا (٨٣) ﴾ الشعراء {١١٥}
١١٠	وقفة تذكيرية بأسلوب الالتفات فى سورة الفاتحة الالتفات والأدب مع الله { ١١٦ }
١١٨	تقسيم آخر لأبرز مجالات الالتفات
١١٩- ١٢٧	(أ) بين صيغتي الفعل : - (نَزَّلَ)– (أنزل) ﴿ ((نَزَّلَ)) عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ((وَأَنْزَلَ)) التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) آل عمران (١١٨).. (١٣٦)النساء.... (٤٤) النحل.. (٨٩)﴾ النحل... (٣٢)﴾ الفرقان... (١٠٦)﴾ الإسراء ... (٩٣)﴾ آل عمران... (٦٤)محمد.. (١٦٠) النساء... (١٤٦)) (الأنعام) .. (١٠٢) النحل .. (٧)الأنعام .. (٢١١) الشعراء... (٦) الحجر... (٣١)﴾ (الزخرف).. (٩٠)) (البقرة).. (١٩٩)) (الشعراء).. (٥١)العنكبوت... (٣٠) الأحقاف . (٦٧) المائدة.. (١٧٤) البقرة.. (٢١٣)) البقرة . (٤٤)) المائدة.. (٤٩)المائدة
١٣٣	(اسطاع - استطاع): ﴿ (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) ﴾الكهف {١٣٣} (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا (٦٧)) يس.. {١٣٥}
١٣٧	(نجىّ - أنجى): ﴿ (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ (٤٩) ﴾ البقرة. {١٣٧} ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ .. (٥٠) ﴾ البقرة {١٣٧} ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ .. (٦٤) ﴾ .الانعام . {١٣٨} ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾يونس {١٤١} ﴿ (ثُمَّ نُنَجِّي (رُسُلَنَا) وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ_ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ يونس،(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ (٨٨)) الأنبياء– {١٤٢} ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ (٦٤) ﴾ الأعراف... {١٤٢} ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ .. (٧٣) ﴾ يونس {١٤٢} (فَأَنْجَيْنَاهُ) وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣))(الأعراف) {١٤٧} (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ (نَجَّيْنَاهُ) وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ﴾ الصافات {١٤٧} ﴿ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾ النمل {١٤٧}

﴿ **وَنَجَّيْنَا** الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) ﴾ فصلت. . {١٤٨} ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ** مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ.. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ **فَأَنْجَيْنَاكُمْ**(٥٠)﴾البقرة {١٤٨} ﴿((**وَأَنْجَيْنَا**))مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥)**ثُمَّ أَغْرَقْنَا** (٦٦)﴾ الشعراء {١٤٨} ﴿(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ......أنجاكم.....٦))﴾إبراهيم.. . {١٤٩}	
(مهل-أمهل)	١٣٩
(ب) الالتفات بين صيغتي الاسم : ١ -(**ضلال - ضلالة**)(**الحياة -الحيوان**): { ١٥٠ } ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ **فِي ضَلَالٍ** مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ **بِي ضَلَالَةٌ**-لست في ضلال- (٦١)﴾ الأعراف {١٥٠}	١٥٠
٢-(أَبْنَاءِ - بَنِي) ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ .. أَوْ **أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ** أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ **بَنِي إِخْوَانِهِنَّ** أَوْ **بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ** أَوْ نِسَائِهِنَّ (٣١)﴾ النور {١٥٢} ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ ..**وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ** (٥٥)﴾الأحزاب	١٥٢
٣- ((**مُشْتَبِهًا**)(**مُتَشَابِهٍ**)) ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ (**مُشْتَبِهًا**)(**وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**) (٩٩)﴾ الأنعام. ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ **مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**.. (١٤١)﴾ **الأنعام**	١٥٥
(جـ) بين صيغ الأفعال : **١- (ماضي - مضارع) ومناقشات هامة جداً** ﴿ (إِنَّ اللَّهَ (**فَالِقُ**) الْحَبِّ وَالنَّوَى (**يُخْرِجُ**)**الْحَيَّ** مِنَ الْمَيِّتِ (**وَمُخْرِجُ**)**الْمَيِّتِ** مِنَ الْحَيِّ ..(٩٥) (**فَالِقُ**)**الْإِصْبَاحِ**(**وَجَعَلَ**)**اللَّيْلَ** سَكَنًا .. (٩٦)﴾(الأنعام) {١٥٦} ﴿ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ (**سَخَّرَ**)**لَكُمْ** مَا فِي الْأَرْضِ **وَالْفُلْكَ تَجْرِي** فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (**وَيُمْسِكُ**) **السَّمَاءَ** أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (٦٥)﴾ الحج. {١٦٣} ﴿ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ (**أَنْزَلَ**) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً(**فَتُصْبِحُ**)الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً (٦٣)﴾ الحج. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ (**أَنْزَلَ**) مِنَ السَّمَاءِ مَاءً(**فَسَلَكَهُ**) يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ **ثُمَّ**(**يُخْرِجُ**) بِهِ زَرْعًا .. **ثُمَّ**(**يَهِيجُ**) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا **ثُمَّ**(**يَجْعَلُهُ**) حُطَامًا (٢١)﴾ الزمر {١٦٣} ﴿ (**وَاللَّهُ**)**الَّذِي أَرْسَلَ** الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (**فسقناه**)﴾ فاطر {١٦٤} ﴿ **أَنْزَلَ** مِنَ السَّمَاءِ مَاءً **فَأَخْرَجْنَا بِهِ** ثَمَرَاتٍ مختلفا ألوانها﴾ ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ** السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ **وَأَنْزَلَ لَكُمْ** مِنَ السَّمَاءِ مَاءً **فَأَنْبَتْنَا بِهِ** حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ ﴿ (**وَجَعَلْنَا**)**فِي** الْأَرْضِ رَوَاسِيَ .. (٣١)(**وَجَعَلْنَا**)السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ..(٣٢) (**وَهُوَ**)**الَّذِي** (**خَلَقَ**) اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .. (٣٣)﴾ الأنبياء {١٦٤} الروم ٤٨،الأعراف ٥٧، الفرقان ٤٩، فاطر ٢٧ ،الأنعام ٩٥، فاطر،النمل ٦٠،ظه ٧٥، ، {١٦٥} (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ .. وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ**) وقفة هامة {١٧٤}	١٦٢
٢- (مضارع - ماضى) مرة ثانية :	١٧٧

	﴿ (إِنْ (يَثْقَفُوكُمْ) يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً (وَيَبْسُطُوا) إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ (وَوَدُّوا) لَوْ تَكْفُرُونَ-(ويودوا)-(٢)﴾الممتحنة. {١٧٧} ﴿ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ (تُلْقُونَ) إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ (كَفَرُوا) .. (يُخْرِجُونَ) الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي (تُسِرُّونَ) إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ..(١)﴾ الممتحنة {١٧٨} ﴿ (وَيَوْمَ (نَبْعَثُ) فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (وَجِئْنَا)بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ – (ونجيء بك شهيداً) -..(٨٩)﴾ النحل {١٨٢} ﴿ ...قَالَ إِنِّي (أُشْهِدُ اللَّهَ)(وَاشْهَدُوا) -.. (٥٤)﴾ هود {١٨٣} ﴿ (الَّذِينَ (يُنْفِقُونَ) فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ (وَالْكَاظِمِينَ) الْغَيْظَ (وَالْعَافِينَ) عَنِ النَّاسِ– (ويكظمون ويعفون)–(١٣٤)﴾ آل عمران {١٨٥} : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ (يُسَبِّحْنَ) بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ– (سبحت)– (١٨) وَالطَّيْرَ (مَحْشُورَةً) كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩)﴾ص {١٨٧} ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ هود {١٨٩} ﴿ (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ .. ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا.. (٦٨))﴾.الحج {١٩٠}
١٨٣	(مضارع – أمر) :مرة ثانية ﴿ ...قَالَ إِنِّي (أُشْهِدُ اللَّهَ)(وَاشْهَدُوا) – (٥٤)﴾ هود
١٨٥	- د - الالتفات بين الاسم والفعل: ﴿ (الَّذِينَ (يُنْفِقُونَ) فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ (وَالْكَاظِمِينَ) الْغَيْظَ (وَالْعَافِينَ) (١٣٤)﴾ آل عمران.
١٩٠	لون آخر من الالتفات وهو التحول من صيغة الإفراد إلى الجمع أو المثنى والعكس (طفل، أطفال) وغيرها ﴿ وَإِذَا بَلَغَ (الْأَطْفَالُ) مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا .. (٥٩)﴾النور {١٩١} ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ (جَمِيعٌ) (مُنْتَصِرٌ)–(منتصرون)– (٤٤) سَيُهْزَمُ (الْجَمْعُ) وَيُوَلُّونَ (الدُّبُرَ)–الأدبار–(٤٥)﴾القمر { ١٩٢} ﴿ يُوَلُّوكُمُ (الْأَدْبَارَ) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ –لا ينصروا–(١١١)﴾ ال عمران {١٩٢} : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا (الْأَدْبَارَ) (٢٢)﴾ الفتح. {١٩٢} ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ (الْأَدْبَارَ) ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢)﴾ . ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)﴾..الانفال {١٩٢} ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ .. (١٥)﴾ الأحزاب {١٩٢} ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ (أُولَئِكَ)((رَفِيقًا))–(رفقاء)–(٦٩)﴾ النساء {١٩٣} ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ (عَبْدًا) -(عبيداً)– (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) (وَكُلُّهُمْ) آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (فَرْدًا) (أفرادا)– (٩٥) ﴾ مريم {١٩٣}

	﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ ((إِمَامًا)) —أئمة-(٧٤)﴾ الفرقان {١٩٤}
١٩٨	**وقفة أخرى مع حديث الإفراد والتثنية والجمع** ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ -يرضوهما- (٦٢)﴾ التوبة {١٩٤} ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ (لِيَحْكُمَ) بَيْنَهُمْ —ليحكما-(٤٨)﴾النور{١٩٨} ﴿ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ (لِيَحْكُمَ) بَيْنَهُمْ (٥١)﴾ {١٩٩} ﴿ (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) طه (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)الشعراء { ٢٠١} (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥)—معكما-) (١٦)) ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى (قُلُوبِهِمْ) وَعَلَى (سَمْعِهِمْ)-أسماعهم- وَعَلَى (أَبْصَارِهِمْ) غِشَاوَةٌ (٧)﴾ البقرة {٢٠٥} ٤٦)) الأنعام. (٧٨)) النحل،(٣١)) يونس ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ((يَدُ)) اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ ((يَدَاهُ)) مَبْسُوطَتَانِ.. (٦٤)﴾ المائدة {٢٠٨} ﴿ فَلَا (يُخْرِجَنَّكُمَا) مِنَ الْجَنَّةِ (فَتَشْقَى)- فتشقيا-(١١٧)﴾ طه { ٢٠٩} ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ (الْخَصْمِ) إِذْ (تَسَوَّرُوا) الْمِحْرَابَ – إذ تسور-(٢١) .. (قَالُوا) لَا تَخَفْ (خَصْمَانِ) بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ..(٢٢)﴾ {٢١٢} ﴿ (وَإِنْ (طَائِفَتَانِ) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (اقْتَتَلُوا) —اقتتلا- فَأَصْلِحُوا (بَيْنَهُمَا) ..(٩)﴾ الحجرات {٢١٣} ﴿ فَإِذَا (هُمْ) -القوم -(فَرِيقَانِ) -(يَخْتَصِمُونَ) -يختصمان -٤٥)﴾النمل {٢١٤} ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ- مثنى- ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ —طائعتين-) فصلت {٢١٤} ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ- مثنى- وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ-خلقهما - ﴾ فصلت {٢١٥} ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ (ظَهِيرٌ)-ظهراء- (٤)﴾ التحريم {٢١٥} ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ – ان استطعتما- أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ- فانفذا لا تنفذان -إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا .. (٣٥) ﴾ الرحمن {٢١٧} ﴿ قَدْ (كَانَ) لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (فِئَةٌ) تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ (يَرَوْنَهُمْ) مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ .. (١٣)﴾ آل عمران {٢٢٢} ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا -ولا ينفقونهما- (٣٤)﴾التوبة{٢٢٣}
٢٢٤	**بعد عرض النماذج الكثيرة على ما سبق** ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ -اليمين والشمال- سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)﴾ النحل {٢٢٤} ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ -وليهم الطاغوت يخرجهم- مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾البقرة

**وقفة هامة مع الإمام ابن القيم فى بدائع الفوائد {٢٢٥}	
مثال : المشرق والمغرب بين الجمع والتثنية والإفراد وبعدها:-أمثلة متنوعة عن الالتفات(١) { ٢٢٦}	
ومن العدول (الالتفات) عن الجمع إلى الإفراد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ((الْحُجُرَاتِ))-وراء الحجرة- أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ الحجرات(٢٣٠): ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ البقرة: .. { ٢٣١ } . ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ-لحكمهما-شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ الأنبياء {٢٣١} ﴿ وَقَالَ- مفرد- يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا- (علمت وأوتيت)- مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ..(١٦)﴾ النمل. {٢٣٢} ﴿ قَالَ- الله مفرد-سَنَشُدُّ -جمع- عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ-جمع- لَكُمَا سُلْطَانًا .. بِآيَاتِنَا -جمع- أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ {٢٣٢} ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي-مفرد- اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ - (بنوره) وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)). (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ- ظلمات ورعود وبروق- .. (١٩)﴾ البقرة {٢٣٢}	٢٣١
((من الإفراد للجمع)) ﴿ مَنْ جَاءَ- هو- بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ((وَهُمْ))-وهو- مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ((فَكُبَّتْ))-هم- وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ- أنتم- إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾ {٢٣٣} ﴿ (مَنْ عَمِلَ) صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ (فَلَنُحْيِيَنَّهُ) حَيَاةً طَيِّبَةً (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ) -ولنجزينه- أَجْرَهُمْ (٩٧)﴾ النحل {٢٣٤} (وَمَنْ يُطِعِ) اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ((خَالِدِينَ)) فِيهَا - خالداً- ..(١٣) (وَمَنْ يَعْصِ)-مفرد- اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا ((خَالِدًا))فِيهَا ... (١٤)﴾النساء {٢٣٥} ﴿ (مَنْ كَانَ) يُرِيدُ (الْعَاجِلَةَ) عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا (لَهُ) جَهَنَّمَ (يَصْلَاهَا).. (١٨) (وَمَنْ أَرَادَ)- مفرد- الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) ((فَأُولَئِكَ))كَانَ((سَعْيُهُمْ)) مَشْكُورًا-فهو كان سعيه- (١٩) ﴾ النحل {٢٣٦} ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ((فَمَنْ أُوتِيَ)) كِتَابَهُ (بِيَمِينِهِ) ((فَأُولَئِكَ)) -فهو- يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ (وَلَا يُظْلَمُونَ) فَتِيلًا (٧١) (وَمَنْ كَانَ) فِي هَذِهِ (أَعْمَى) – أهل الجحيم- (فَهُوَ) فِي الْآخِرَةِ (أَعْمَى) وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)﴾الاسراء ﴿ إِنَّهُ (مَنْ يَأْتِ) رَبَّهُ (مُجْرِمًا) فَإِنَّ (لَهُ) جَهَنَّمَ . (٧٤) (وَمَنْ يَأْتِهِ)(مُؤْمِنًا)قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ((فَأُولَئِكَ))(لَهُمُ)-فهو له- الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)﴾ طه {٢٣٦}	٢٣٣

من أمثلة التذكير والتأنيث ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ (**ثَمَرِهِ**) —ثمرها— وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾يس {٢٣٦} ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ **مِنْ شَجَرٍ** مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) **فَمَالِئُونَ مِنْهَا** الْبُطُونَ (٥٣) **فَشَارِبُونَ** ((**عَلَيْهِ**)) مِنَ الْحَمِيمِ —فشاربون عليها— (٥٤)﴾ الواقعة. {٢٣٨} ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ ((**مِنْهَا**)) فَمَالِئُونَ ((**مِنْهَا**)) الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ ((**عَلَيْهَا**)) لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧)﴾ **الصافات** {٢٣٨} ﴿ رَأَى (الشَّمْسَ) (**بَازِغَةً**) قَالَ (**هَذَا**) - قال هذه- رَبِّي (٧٨)﴾ الانعام {٢٤٢} ﴿ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ **مِمَّا فِي** (**بُطُونِهِ**) -مما في بطونها- (٦٦)﴾ النحل {٢٤٣} ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ **مِمَّا فِي** (**بُطُونِهَا**)(٢١)﴾ المؤمنون. {٢٤٣} ﴿ كَلَّا **إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ** (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ – ذكرها-(١٢)﴾ عبس {٢٤٣} ﴿ ثُمَّ إِذَا **خَوَّلْنَاهُ** ((**نِعْمَةً**)) مِنَّا ((قَالَ)) **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ** —أوتيتها— عَلَى عِلْمٍ بَلْ **هِيَ** فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ ((**أَكْثَرَهُمْ**)) لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)﴾ {٢٤٦} ﴿**وَأَخَذَ** الَّذِينَ ظَلَمُوا **الصَّيْحَةُ** —وأخذت— (٦٧)﴾ هود، {٢٤٨} ﴿ **وَأَخَذَتِ** الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ .. (٩٤) ﴾هود {٢٤٨} ﴿ ثُمَّ انْظُرُوا **كَيْفَ كَانَ** —كانت— **عَاقِبَةُ** الْمُكَذِّبِينَ (١١)) الانعام و(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ **كَانَ عَاقِبَةُ** الْمُجْرِمِينَ (٨٤)) الأعراف و(فَانْظُرْ كَيْفَ **كَانَ عَاقِبَةُ** الْمُنْذَرِينَ (٧٣)) الصافّات {٢٤٩} (وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)) يونس ﴿ (وَقَالَ مُوسَى .. وَمَنْ **تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ** ..(٣٧)﴾القصص.. {٢٤٩} ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن **تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ**.. {١٣٥}﴾ الأنعام {٢٥٠} ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا **إِذَا** (**جَاءَكُمُ**) **الْمُؤْمِنَاتُ** —جاءتكم المؤمنات—(**مُهَاجِرَاتٍ**) . فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ (**لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**) ﴾ الممتحنة {٢٥٣} ﴿ إِنَّ **رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ**- قريبة- مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾الأعراف {٢٥٤}	٢٢٦
(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ **مِنْ رَحْمَةٍ** فَلَا مُمْسِكَ ((**لَهَا**)) وَمَا يُمْسِكْ **فَلَا مُرْسِلَ**((**لَهُ**)) . تأنيث وتذكير الضمير مع الرحمة. {٢٤٥} (السَّمَاءُ **مُنْفَطِرٌ بِهِ**) {٢٥٠}	
- المخالفة بين الأدوات والحروف ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ (**لَعَلَى**) **هُدًى أَوْ** (**فِي**) **ضَلَالٍ** مُبِينٍ —أو على ضلال— ٢٤)﴾(سبأ) ﴿ سَيَقُولُونَ **ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ** كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ **خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ** . وَيَقُولُونَ **سَبْعَةٌ**((وَ)) **ثَامِنُهُمْ** .. **فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ** ..(٢٢))﴾الكهف. {٢٦٠} ﴿ **فَأَرَدْتُ** أَنْ أَعِيبَهَا .. (٧٩) .. **فَأَرَدْنَا**.. (٨١) .. **فَأَرَادَ رَبُّكَ** (٨٢)﴾ الكهف {٢٦٣} ﴿ **وَضَاقَتْ** (**عَلَيْكُمُ**) -وضاقت بكم - الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ (وَلَّيْتُمْ) مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ((وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)) —وعليكم—﴾التوبة {٢٦٥}	-٢٥٩ ٢٧٠

	وقفة هامة مع قوله: ﴿ (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ..(٢٧)﴾ {٢٦٥} (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ (فَهُوَ) الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ (لَهُمْ أَوْلِيَاءَ) (٩٧))الإسراء . {٢٦٦}
٢٦٦	((الظلمات بالجمع– والنور– بالمفرد–)) ﴿ (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .. (٢٥٧)﴾ {٢٦٦} (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ (١٥٣))الأنعام. {٢٦٦} ﴿ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ .. (١٦)) المائدة (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ..١)). {٢٦٦}
٢٦٧	**ومنها التغيير في بنية الفعل** ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى ..٣٥)﴾ يونس {٢٦٨} ﴿ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ (يَتَطَهَّرُوا) وَاللَّهُ يُحِبُّ (الْمُطَّهِّرِينَ) –المتطهرين–(١٠٨)﴾ البقرة.. {٢٦٩} ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ (١١٥)﴾ النساء. ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (١٣)﴾ الأنفال ﴿ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ (٤) ﴾ الحشر. {٢٧٠} ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ..(٨٥)﴾ النساء. {٢٧١}
٢٧٤	**وقفات مطولة وتطبيقات متنوعة** ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ (سَنَةٍ) إِلَّا خَمْسِينَ (عَامًا).. (١٤)﴾ العنكبوت {٢٧٢} ﴿ وَإِنَّا إِذَا ((أَذَقْنَا))الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ((تُصِبْهُمْ)) سَيِّئَةٌ ..(٤٨)﴾ الروم ﴿ (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ (فَكُبَّتْ)(وُجُوهُهُمْ)فِي النَّارِ هَلْ(تُجْزَوْنَ) إِلَّا (مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)﴾ النمل {٢٧٦} ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ(٧٦)–وما تضرعوا– ﴾ المؤمنون {٢٧٧} ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ(خَرَجُوا)مِنْ دِيَارِهِمْ .. (وَيَصُدُّونَ) . (٤٧)﴾ الأنفال{٢٧٩} ﴿ وَكَمْ (أَرْسَلْنَا) مِنْ نَبِيٍّ . (٦) (وَمَا يَأْتِيهِمْ) مِنْ نَبِيٍّ (٧)﴾الزخرف {٢٨٠} ﴿ فَفَرِيقًا (كَذَّبْتُمْ) وَفَرِيقًا (تَقْتُلُونَ) (٨٧)﴾البقرة. {٢٨١} ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠)﴾ المائدة ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا (وَيَسْخَرُونَ) مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا (٢١٢)﴾ البقرة {٢٨١} ﴿ وَقَدْ (كَفَرُوا) بِهِ مِنْ قَبْلُ (وَيَقْذِفُونَ) بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾سبأ {٢٨٢} ﴿ ذرني –أنا– والمكذبين . (١١) إِنَّ((لَدَيْنَا)) أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) .. (يَوْمَ ((تَرْجُفُ)) الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ((وَكَانَتِ)) –وتكون– الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) (إِنَّا أَرْسَلْنَا) إِلَيْكُمْ رَسُولًا .. السَّمَاءُ (مُنْفَطِرٌ)بِهِ كَانَ (وَعْدُهُ) مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ

تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ (**إِلَى رَبِّهِ**) -إلينا- سَبِيلًا (١٩)﴾ المزمل. {٢٨٣}

﴿ يَوْمَ ((**يُنْفَخُ**)) فِي الصُّورِ **فَتَأْتُونَ** أَفْوَاجًا (١٨) ((**وَفُتِحَتِ**))–وتفتح– السَّمَاءُ

(١٩)﴾ ﴿ **وَمَا** (**نَقَمُوا**) مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ (**يُؤْمِنُوا**) - آمنوا- (٨)﴾ البروج {٢٨٤}

﴿ (**يَقْدُمُ**) قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (**فَأَوْرَدَهُمُ**) – فيوردهم- النَّارَ (٩٨) ﴾ هود {٢٨٥}

﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ**- مضارع- الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ-(هم) -**فَأَلْقَوُا السَّلَمَ**-

ماضٍ- مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا **كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**- أنتم بدلاً من هم-

(٢٨)﴾ النحل {٢٨٧}

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ (**يَتَوَفَّى**) الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ (**يَضْرِبُونَ**) وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ

(**وَذُوقُوا**) عَذَابَ الْحَرِيقِ)﴾ (سُورَةَ الْأَنْفَال: ٥٠) {٢٨٧}

﴿ (**وَوُضِعَ**) **الْكِتَابُ** (**فَتَرَى**) الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ **وَيَقُولُونَ** يَا وَيْلَتَنَا .. **وَوَجَدُوا مَا**

عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ الكهف {٢٨٨}

﴿ ((**وَمَا نُرْسِلُ**)) الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ **وَيُجَادِلُ** الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ

لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ **وَاتَّخَذُوا** ((**آيَاتِي**)) وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾ الكهف {٢٨٨}

﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي** كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ **وَجِئْنَا بِكَ**–ونجيء بك- شَهِيدًا

عَلَى هَؤُلَاءِ (٨٩)﴾ **النحل** {٢٨٩}

﴿ وَيَوْمَ **نَبْعَثُ** ((**مِنْ**)) كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا .. (٨٤)﴾ النحل . {٢٩١}

﴿ وَيَوْمَ **نَبْعَثُ** ((**فِي**)) كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا .. (٨٩)﴾ النحل {٢٩١}

﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ** السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ **وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ** تَنْزِيلًا–وتتنزل- (٢٥)﴾ الفرقان {٢٩٢}

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ **سَخَّرَ لَكُمْ** مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ **وَيُمْسِكُ**

السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٦٥)﴾ الحج .... {٢٩٣}

﴿ **وَإِذْ** ((**أَخَذْنَا**)) - **نحن**- مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) ((**لِيَسْأَلَ**))–**الله**–**الصَّادِقِينَ** عَنْ

صِدْقِهِمْ ((**وَأَعَدَّ**)) -هو- لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)﴾ الأحزاب {٢٩٣}

﴿ وَإِذْ (**زَاغَتِ**) .. (**وَبَلَغَتِ**) .. (**وَتَظُنُّونَ**) بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ الأحزاب {٢٩٤}

﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى **لِلَّذِينَ** (**آمَنُوا**) وَعَلَى **رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** -توكلوا- (٣٦)﴾

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ **كَمْ آتَيْنَاهُمْ**–نحن- مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ **نِعْمَةَ اللَّهِ**–نعمتنا-

مِنْ **بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ** فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)﴾ البقرة .... {٢٩٥}

﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ** .. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ **بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا** (٢٨)﴾ إبراهيم {٢٩٧}

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ **لِمَ** (**أَذِنْتَ**) لَهُمْ حَتَّى (**يَتَبَيَّنَ**) لَكَ الَّذِينَ ((**صَدَقُوا**)) وَتَعْلَمَ

((**الْكَاذِبِينَ**)) - الذين كذبوا-) (٤٣)﴾ التوبة {٢٩٨}

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ (**لِتَسْكُنُوا**) **فِيهِ وَالنَّهَارَ** (**مُبْصِرًا**) - لتبصروا- (٦١)﴾ اسراء {٣٠٠}

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى **يُخْرِجُ** الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ **وَمُخْرِجُ** الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ

{٩٥}﴾الانعام . {٣٠٢}

﴿ **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ**–فلق الصبح و –**وَجَعَلَ** اللَّيْلَ سَكَنًا {٩٦}﴾ الانعام {٣٠٣}

﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ (٢٧)﴾ آل عمران {٣٠٤|}

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا (**يُنْفِقُونَ**) **قُلْ** (**مَا أَنْفَقْتُمْ**) - قل ما تنفقوا- (٢١٥)﴾ البقرة {٣١١}

﴿ أَتَى – سيأتِي – أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ.. (١) ﴾ ﴿ وَجَاءَتْ – ستأتِي – سَكْرَةُ
الْمَوْتِ (١٩) وَنُفِخَ –وسينفخ -فِي الصُّورِ .. (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ..(٢١)
.. فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ .. (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ .. قَالَ قَرِينُهُ .. (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا
لَدَيَّ .. (٢٨) .. وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ....((٣١)) ق {٣١١}

.﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ.. (٢٠) ﴾ {٣١١}
﴿ فَنَبَذُوهُ .. (وَاشْتَرَوْا) .. فَبِئْسَ (مَا يَشْتَرُونَ) (١٨٧) ﴾ آل عمران {٣١١}
﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ (اللَّهِ) .. إِنَّ (رَبَّكَ) -إنني أنا–
هُوَ أَعْلَمُ مَنْ (يَضِلُّ) عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ (بِالْمُهْتَدِينَ) (١١٧) ﴾ الأنعام. {٣١٢}
﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) ﴾ {٣١٣}
﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (لَا تَعْبُدُونَ) - لا تعبدوا– إِلَّا اللَّهَ (وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا)–وأحسنوا للوالدين– (وَقُولُوا) لِلنَّاسِ حُسْنًا..(٨٣) ﴾ البقرة {٣١٦}
﴿ وَالَّذِينَ (يُمَسِّكُونَ) بِالْكِتَابِ (وَأَقَامُوا) الصَّلَاةَ–ويقيمون – (١٧٠)) {٣٢٠}
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا –ويقيموا وينفقوا– مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ .. (٢٩) ﴾ .فاطر {٣٢١}
﴿ وَلَقَدْ (آتَيْنَا) لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ (لِلَّهِ) وَمَنْ (يَشْكُرْ) فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ
(كَفَرَ)–ومن يكفر– فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ لقمان. {٣٢٢}

﴿ إِنَّ الَّذِينَ (يَكْفُرُونَ) بِآيَاتِ اللَّهِ (وَيَقْتُلُونَ) النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ (وَيَقْتُلُونَ) الَّذِينَ
يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ .. (٢١) ﴾ آل عمران. ... {٣٢٤}
(إِنَّ الَّذِينَ (كَفَرُوا) (وَصَدُّوا) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٦٧)) {٣٢٥}
﴿ وَإِذْ (نَتَقْنَا) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ (خُذُوا) مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾ {٣٢٦}
﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ
وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) ﴾ .. {٣٢٦}
﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ .... {٣٢٧}
﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ (أَقِيمُوا) الصَّلَاةَ –وأن نقيم الصلاة–
.. (٧٢) ﴾ الانعام {٣٢٧}
﴿ بَلِ (اللَّهُ) (مَوْلَاكُمْ) وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي -سيلقي– فِي قُلُوبِ
(الَّذِينَ كَفَرُوا) الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ –بي–.. (١٥١) ﴾ آل عمران {٣٢٧}
﴿ (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ) إِلَى الْمَلَائِكَةِ (أَنِّي) مَعَكُمْ (فَثَبِّتُوا) الَّذِينَ آمَنُوا (سَأُلْقِي) فِي
قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ .. (١٢)) ﴾ الأنفال........................ {٣٢٧}
﴿ وَمَا كَانَ (صَلَاتُهُمْ) عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ (٣٥) ﴾. الأنفال................................. .... {٣٢٨}
﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ (نُدَاوِلُهَا) بَيْنَ النَّاسِ (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ)– ولنعلم–..(١٤٠) ﴾ {٣٢٩}
﴿ بَلْ نَقْذِفُ - نحن– بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ .. (١٨) (وَلَهُ) مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٩) ﴾ الأنبياء......... {٣٣٠}

	﴿ وَاسْتَغْفِرُوا (رَبَّكُمْ) ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ (إِنَّ رَبِّي) رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾هود{٣٣٠} ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا (اللَّهَ). فَاسْتَغْفِرُوهُ . إِنَّ رَبِّي) قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) ﴾هود { ٣٣١ }
٣٣٠	ومن لطائف الالتفات مانراه في الأمثلة التالية: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ.. (وَلَهُ) مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ .. (١٩) ﴾ الأنبياء {٣٣٠} ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا (رَبَّكُمْ) .. (إِنَّ رَبِّي) رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾ هود {٣٣٠} ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا (اللَّهَ) .. (إِنَّ رَبِّي)قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) ﴾ هود {٣٣١} ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا.. (١٦٨) وَإِذَا (قِيلَ لَهُمُ)اتَّبِعُوا ..(١٧٠) ﴾البقرة {٣٣١} ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي (كُنْتُمْ) تُوعَدُونَ (٦٣) ...الْيَوْمَ نَخْتِمُ (عَلَى أَفْوَاهِهِمْ) وَتُكَلِّمُنَا (أَيْدِيهِمْ) وَتَشْهَدُ (أَرْجُلُهُمْ) .. (٦٥) ﴾ يس {٣٣١} ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ.. (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ﴾ آل عمران. {٣٣٢} ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ..(٥٥) ﴾ {٣٣٣} ﴿ (رَبَّنَا (وَآتِنَا).. (إِنَّكَ) لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾ آل عمران {٣٣٥} ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ سبأ. {٣٣٥} ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا (فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ ((بَعْضُ) الَّذِي يَعِدُكُمْ) ..(٢٨) ﴾ غافر {٣٤٠} ﴿ (تَجْرِي (بِأَعْيُنِنَا) ..فَكَيْفَ كَانَ (عَذَابِي) .. (١٦) وَلَقَدْ (يَسَّرْنَا) الْقُرْآنَ .. (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ (عَذَابِي) وَنُذُرِ (١٨) ﴾القمر. {٣٤١} ﴿ الَّذِينَ (يُوفُونَ)" .. (٢٠) وَالَّذِينَ (يَصِلُونَ) .. (٢١) وَالَّذِينَ (صَبَرُوا) ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ (وَأَقَامُوا) الصَّلَاةَ (وَأَنْفَقُوا) .. (وَيَدْرَءُونَ) .. (٢٢) ﴾ الرعد {٣٤٣} ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ .. (وَيَدْرَءُونَ) .. (٥٤) ﴾ القصص {٣٤٦} ومثلها البقرة(٢٧٤) {٣٤٦} ﴿ وَلَقَدْ (أَرْسَلْنَا) .. (١٠) وَمَا (يَأْتِيهِمْ) مِنْ (رَسُولٍ) ..(١١) ﴾الحجر {٣٤٦} ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. (٨) ﴾النحل {٣٤٧} ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ .. مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ.. (٢٨).المائدة {٣٤٩} ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ ..وَالْمَلَائِكَةُ (بَاسِطُو) أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ .. (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى .. (٩٤) ﴾. {٣٤٩}
٣٥٢	وكذلك الالتفات- من خطاب الغيبة إلى المواجهة- ﴿ (وَيَوْمَ (يَحْشُرُهُمْ) جَمِيعًا .. قَالَ النَّارُ (مَثْوَاكُمْ) خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ (رَبَّكَ) — ..(١٢٨) ﴾ الأنعام ﴿ (يُحَلَّوْنَ)فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا .. (٣١) ﴾ الكهف {٣٥٢}

٣٥٤	وأحياناً يتغير السياق من المبنى للمعلوم للمبنى للمجهول : ﴿ لَوْلَا (أُنْزِلَ) إِلَيْهِ .. (٧) أَوْ (يُلْقَى)إِلَيْهِ.. ((وَقَالَ الظَّالِمُونَ)) .. (٨) ﴾ {٣٥٤} ﴿ (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ .. (٤٢)(وَكُذِّبَ مُوسَى) ﴾ الحج. {٣٥٤}
	ومتنوعات أخرى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ (لَمَيِّتُونَ) (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (تُبْعَثُونَ) (١٦) ﴾ المؤمنون {٣٥٥} {٣٥٨}{٣٥٩} ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا ((يَكُونُوا)) مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ الشعراء.الكهف {٣٥٩} ﴿ وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ... ﴾ الشعراء {٣٦٠} ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) ..(٤٧) ﴾ الحاقة {٣٦٠} ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاء ((لَجَعَلْنَاهُ)) حُطَاماً .. (٦٥).. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) ..(٧٣) ﴾ الواقعة {٣٦٠} ﴿ وَإِذْ (قُلْنَا) .. أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ..(٥٠) ﴾ الحجر {٣٦١} ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا..وَاتَّخَذُوا (آيَاتِي) (٥٦) ﴾ الكهف. {٣٦٢} ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا.. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ..(١٢) .. وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا .... وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا .. وَأَنْبَتْنَا فِيهَا .. (١٩) .. وَإِنَّ ((رَبَّكَ))هُوَ يَحْشُرُهُمْ .. (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ .. وَإِذْ ((قَالَ رَبُّكَ)) لِلْمَلَائِكَةِ ((إِنِّي خَالِقٌ)).. (٤١). ﴾ الحجر {٣٦٣} ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا (بِآيَاتِنَا) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ (كَيْدِي) مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ الأعراف {٣٦٤}{٣٦٥} ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا (وَجَعَلْنَاهَا) وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ الانبياء{٣٦٥} ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا .. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ طه {٣٦٦} ﴿ ((وَوَصَّيْنَا))الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. أَنِ اشْكُرْ لِي .. (١٤) ﴾ الاحقاف {٣٦٧} ﴿ (وَإِذْ (بَوَّأْنَا) لِإِبْرَاهِيمَ .. أَنْ لَا تُشْرِكْ (بِي) شَيْئًا وَطَهِّرْ (بَيْتِيَ) (٢٦) ﴾ {٣٦٧} ﴿ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) .. ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) ﴾ العنكبوت {٣٦٧} ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا ..(٣١) ..وَلَقَدْ يَسَّرْنَا .. (٣٢).. (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ القمر. {٣٦٨} ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي— .. (أَفَحَسِبَ (الَّذِينَ كَفَرُوا) أَنْ يَتَّخِذُوا (عِبَادِي) مِنْ (دُونِي) أَوْلِيَاءَ (إِنَّا أَعْتَدْنَا) جَهَنَّمَ .. (١٠٢) ﴾ الكهف {٣٦٩} ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ ((رَبِّهِمْ))..فَلَا ((نُقِيمُ))لَهُمْ .. وَزْنًا (١٠٥) ﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾ الكهف. {٣٦٩} ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ (ذِكْرِي) .. ((وَنَحْشُرُهُ)) .. (١٢٤) ﴾ طه. {٣٦٩} ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ .. (١٠١)قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ

((**مِنْ رَبِّكَ**)) **بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ**.. (١٠٢) ﴾ النحل. {٣٦٩}

﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ **مَا رَزَقْنَاكُمْ** وَاشْكُرُوا (**لِلَّهِ**)..(١٧٢) ﴾ النحل {٣٧٠}

﴿ وَمَنْ يُقَاتِلْ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** .. **فَسَوْفَ**((**نُؤْتِيهِ**)) أَجْرًا (٧٤) ﴾ النساء {٣٧١}

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ **مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ** (١١٤) ﴾ النساء {٣٧١}

﴿ وَلَقَدْ **أَخَذَ**(**اللَّهُ**) مِيثَاقَ . (**وَبَعَثْنَا**) .. **وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي** (١٢) ﴾ المائدة {٣٧١}

﴿ (**فَخَشِينَا**) .(٨٠) (**فَأَرَدْنَا**) .. ((**رَبُّهُمَا**)).. **فأراد ربك** . ﴾ الكهف {٣٧٢}

﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ** . **وَيُرْسِلُ** .. **تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا** ..ثم ردوا إلى الله (٦٢) ﴾ الأنعام {٣٧٢}

﴿ **فَأَنَّ لِلَّهِ** خُمُسَهُ..إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ (**بِاللَّهِ**)(**وَمَا أَنْزَلْنَا**) **عَلَى عَبْدِنَا**(٤١) ﴾الأنفال {٣٧٣}

﴿ تِلْكَ آيَاتُ(**اللَّهِ**)(**نَتْلُوهَا**) عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. (٢٥٢) ﴾ البقرة. {٣٧٣}

﴿ **أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ** مِمَّا عَمِلَتْ **أَيْدِينَا** .. (٧١).. وَاتَّخَذُوا مِنْ **دُونِ اللَّهِ** آلِهَةً ..أَوَلَمْ
يَرَ الْإِنْسَانُ **أَنَّا خَلَقْنَاهُ** .. **إِنَّمَا أَمْرُهُ** إِذَا أَرَادَ شَيْئًا .. (٨٢) ﴾ **يس.** {٣٧٤}

﴿ **أَنَّا نَأْتِي** الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا .. **وَاللَّهُ يَحْكُمُ** .. (٤١) ﴾ الرعد {٣٧٥}

﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ ((**رَبِّ الْعَالَمِينَ**)) (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ ((**عَلَيْنَا**)) .. ﴾ الحاقة {٣٧٥}

﴿ **وَمَا تَكُونُ** فِي شَأْنٍ .. **وَلَا تَعْمَلُونَ** مِنْ عَمَلٍ إِلَّا(**كُنَّا**)**عَلَيْكُمْ شُهُودًا** .. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ
(**رَبِّكَ**) مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ .. (٦١) ﴾ {٣٧٥}

﴿ **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا** بَنِي إِسْرَائِيلَ.. **إِنَّ رَبَّكَ** يَقْضِي بَيْنَهُمْ (٩٣) ﴾ يونس {٣٧٦}

﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا** هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ **خَشْيَةِ**(**اللَّهِ**) وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ (**نَضْرِبُهَا**) لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) **هُوَ اللَّهُ**.. ﴾ الحشر {٣٧٦}

﴿ فَآمِنُوا (**بِاللَّهِ**) وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي (**أَنْزَلْنَا**)(**وَاللَّهُ**) . ﴾ التغابن. {٣٧٧}

﴿ (اللَّهُ) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ **وَعَلَى اللَّهِ** فَلْيَتَوَكَّلِ .. (١٣) ﴾ **التغابن** {٣٧٨}

﴿ قَرْيَةٍ عَتَتْ **عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا** وَرُسُلِهِ **فَحَاسَبْنَاهَا** .. **وَعَذَّبْنَاهَا** (٨) ﴾ الطلاق {٣٧٨}

﴿ قَدْ **عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا** عَلَيْهِمْ.. **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا** رَحِيمًا (٥٠) ﴾ **الأحزاب** {٣٧٨}

﴿ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا (**لِنَعْلَمَ**) .. **وَرَبُّكَ** عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ سبأ. {٣٧٩}

﴿ **وَالَّذِي**(**أَوْحَيْنَا**) إِلَيْكَ.. **إِنَّ اللَّهَ** بِعِبَادِهِ (٣١) ثُمَّ (**أَوْرَثْنَا**) الْكِتَابَ الَّذِينَ
(**اصْطَفَيْنَا**) .. **بِإِذْنِ اللَّهِ** ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ فاطر {٣٧٩}

﴿ إِنَّ **إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ** (٤).. (**إِنَّا زَيَّنَّا**)السَّمَاءَ الدُّنْيَا ..(٦) ﴾الصافات. {٣٧٩}

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا (فَتَنَّاهُ) فَاسْتَغْفَرَ (رَبَّهُ) ..(٢٤) ﴾ ص {٣٧٩}

﴿ يَا دَاوُودُ (**إِنَّا جَعَلْنَاكَ**).. **فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** (٢٦) ﴾ص {٣٧٩}

﴿ وَاذْكُرْ (**عَبْدَنَا**) أَيُّوبَ إِذْ **نَادَى رَبَّهُ** أَنِّي . . (٤١) ﴾ ص {٣٧٩}

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا (**بَأْسَنَا**) **سُنَّتَ اللَّهِ**.. (٨٥) ﴾ غافر {٣٧٩}

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا **أَنَّ اللَّهَ** .. **وَكَانُوا**(**بِآيَاتِنَا**) ..(١٥) (**فَأَرْسَلْنَا**) عَلَيْهِمْ ﴾صلت{٣٧٩}

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ .. بِمَا كَانُوا (بِآيَاتِنَا) ..(٢٨) ﴾فصلت {٣٧٩}

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ (رَبِّهَا) وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ (١٢) ﴾التحريم{٣٧٩}

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ. .وَجَعَلْنَاكُمْ. .إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ (اللَّهِ)..(١٣) ﴾ الحجرات {٣٨٠}

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ ﴾النجم {٣٨١}

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ..(٤٦) ﴾القصص {٣٨١}

﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ (٢٣) ﴾ لقمان {٣٨٢}

﴿ وَعَرَضْنَا ..(١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ (ذِكْرِي) ﴾ الكهف {٣٨٢}

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا .. وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ ((مِنِّي)). .(١٣) فَذُوقُوا .. إِنَّا نَسِينَاكُمْ ..
يَدْعُونَ ((رَبَّهُمْ)) خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا ((رَزَقْنَاهُمْ)) يُنْفِقُونَ (١٦) ﴾ السجدة{٣٨٢}

﴿ إِنَّمَا (يُؤْمِنُ) بِآيَاتِنَا .. (وَسَبَّحُوا) بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ .. ﴾ السجدة {٣٨٣}

﴿ وَلَقَدْ (كَتَبْنَا) ..أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا (عِبَادِيَ)..(١٠٥) ﴾ الأنبياء {٣٨٤}

﴿ إِنَّكُمْ (مِنَّا) لَا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ (آيَاتِي) تُتْلَى عَلَيْكُمْ.... وَأَوْحَيْنَا إِلَى
مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) ﴾ المؤمنون {٣٨٤}

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..وَلَا تُخَاطِبْنِي (٢٧)المؤمنون {٣٨٤}.

﴿ (وَوَاعَدْنَاكُمْ) جَانِبَ . (وَنَزَّلْنَا) .. فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ (غَضَبِي) (٨١) ﴾.طه {٣٨٤}

﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي .. (٤٥) ﴾ سبأ. {٣٨٥}

﴿ لَا (أُقْسِمُ).. لَقَدْ خَلَقْنَا- الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾ البلد {٣٨٥}

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) ﴾ الليل. {٣٨٥}

﴿ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا .. مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ..وَآتَيْنَا ..وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ..(٢٥٣) ﴾البقرة {٣٨٦}

﴿ رَبَّنَا) إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ .. (إِنَّ اللَّهَ) لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾آل عمران. {٣٨٧}

﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا.. وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ (إِنَّكَ) لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) ﴾ {٣٨٧}

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ .. (سَنَكْتُبُ) مَا قَالُوا .. وَأَنَّ (اللَّهَ) .. (١٨٢) ﴾ آل عمران {٣٨٩}

﴿ إِذْ (يَتَوَفَّى) (الَّذِينَ كَفَرُوا) الْمَلَائِكَةُ ..(وَذُوقُوا) عَذَابَ (٥٠) ﴾ الأنفال {٣٩٠}

﴿ (نُصْلِيهِ) نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى (اللَّهِ) يَسِيرًا (٣٠) ..(نُكَفِّرْ)) ﴾ النساء. {٣٩٠}

﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ .. وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ (١٢٢) ﴾ النساء. {٣٩١}

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا .. تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (٣٧) ﴾الأعراف. {٣٩٢}

﴿ وَلَقَدْ (وَصَّيْنَا) ..أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ . (١٣١) ﴾ النساء {٣٩٢}

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ (رَبِّكُمْ) (وَأَنْزَلْنَا) إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا (بِهِ) (فَسَيُدْخِلُهُمْ)..(وَيَهْدِيهِمْ) .. (١٧٥) ﴾ النساء. {٣٩٢}

﴿ (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ.. يَدْعُونَ رَبَّهُمْ .. وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ {٣٩٤}

﴿ (فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ .. وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ .. (١٤) ﴾ المائدة. {٣٩٦}

﴿ وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ .. (٣٤) ﴾.الأنعام {٣٩٦}

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا .. نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ . (٨٣) ﴾ الأنعام{٣٩٦}

﴿ مَا فَرَّطْنَا . ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ .. (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. مَنْ يَشَإِ اللَّهُ . ﴾{٣٩٧}

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ .. قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ..(٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ .. قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ .. (٩٨) .. كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ (١٠٨) ..وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا..وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ (١١٢) ﴾
الأنعام {٣٩٨}{٣٩٩}

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ .. مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) ﴾ الصافات {٤٠٠}

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .. (١١٤).. وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ .. (١٢٦) ﴾ الأنعام {٤٠٣}

﴿ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا..وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا آيَاتِنَا ﴾الأنعام{٤٠٣}

﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا..ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾ الأعراف{٤٠٤}

﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ..كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ .. (٥٨) ﴾ الأعراف. {٤٠٤}

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ..كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ ..(١٠١) ﴾ الأعراف. {٤٠٤}

﴿ وَأَوْرَثْنَا ..الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ .. وَدَمَّرْنَا .(١٣٧) ﴾ الأعراف{٤٠٥}

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ ..(١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ.. ﴾ الأعراف. {٤٠٥}

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ ..وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ الأعراف{٤٠٥}

﴿ (وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ .. وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾ الأنفال. {٤٠٥}

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ (رَبِّهِمْ)(فَأَهْلَكْنَاهُمْ) بِذُنُوبِهِمْ (وَأَغْرَقْنَا)(٥٤) ﴾ الأنفال {٤٠٥}

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ (اللَّهُ) ..(فَنَذَرُ) الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ (لِقَاءَنَا) (١١) ﴾ يونس {٤٠٥}

﴿ (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا ..لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (٩٤) ﴾ يونس{٤٠٧}

﴿ جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا .. بِرَحْمَةٍ مِنَّا ... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ .(٦٦) ﴾ هود. {٤٠٨}

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا .. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ .. (٨٣) ﴾ هود. {٤٠٨}

﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ (٢٤) ﴾ يوسف {٤٠٨}

﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ(٣٠) ﴾ الرعد {٤٠٨}

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ..مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ..وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا..إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (٣٨) ﴾ الرعد{٤٠٨}

﴿ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ .. فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ .. (٤) ﴾ إبراهيم. {٤٠٩}

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا .. (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ (هُوَ).. (٢٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا.. (٢٦) ﴾ الحجر{٤٠٩}

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا .. فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى (اللَّهُ).. (٣٦) ﴾ النحل {٤١٠}

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا ..وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا ..الْحَمْدُ لِلَّهِ ..(٧٥) ﴾ النحل {٤١١}

﴿ آمَنُوا (بِرَبِّهِمْ) وَزِدْنَاهُمْ(١٣)أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ (٢١) ﴾

﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ.. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ الكهف. {٤١٢}

﴿ وَكَذَلِكَ (أَنْزَلْنَاهُ)..(١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ.. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤))طه {٤١٢ }

﴿ (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ (١٢٧) ﴾ طه {٤١٢}

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ.. وَرِزْقُ رَبِّكَ (١٣١).. لَا نَسْأَلُكَ. ﴾ طه {٤١٢}

﴿ (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ .. (١٨) وَلَهُ .. وَمَنْ عِنْدَهُ .. (١٩) ﴾.الأنبياء {٤١٣}

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ. كَذَلِكَ نَجْزِي (٢٩) ﴾الأنبياء {٤١٣}

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ .(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .. (٣٣) ﴾ الأنبياء{٤١٣}

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ) ﴾ الأنبياء {٤١٣}

﴿ ..بَلْ (مَتَّعْنَا)..(٤٤) قُلْ إِنَّمَا (أُنْذِرُكُمْ) - (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ..
(٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ .. أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى (بِنَا) حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ الأنبياء. {٤١٤}

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ .. وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ يونس: ٢٢ {٤١٥}

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ .. (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ ..(٨٤) ﴾ {٤١٥}

﴿ (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ (رَبِّ).. (٨٩) (فَاسْتَجَبْنَا) لَهُ .. (٩٠) ﴾ الأنبياء {٤١٥}

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ (جَعَلْنَا) مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ..(٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ..وَمِمَّا
(رَزَقْنَاهُمْ) (٣٥).. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ . (٤٠) الَّذِينَ إِنْ (مَكَّنَّاهُمْ) ..
(٤١).. وَمَا (أَرْسَلْنَا) ..فَيَنْسَخُ اللَّهُ . ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. (٥٢).. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ..
وَكَذَّبُوا (بِآيَاتِنَا) .. (٥٧) ﴾ -الحج {٤١٥}

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ (جَعَلْنَا) مَنْسَكًا .. وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ .. (٦٧) ﴾ الحج. {٤١٦}

﴿ (فَخَلَقْنَا) .. (فَكَسَوْنَا) .. فَتَبَارَكَ اللَّهُ (١٤) ﴾ المؤمنون. {٤١٦}

﴿ (فَأَرْسَلْنَا)((فِيهِمْ)). أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ.. (٣٢)..وَلَقَدْ (أَخَذْنَاهُمْ) بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا
لِرَبِّهِمْ،.. (٧٦) حَتَّى إِذَا (فَتَحْنَا)–(٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ..(١١٦) ﴾ المؤمنون{٤١٧}

﴿ (وَجَعَلْنَا) بَعْضَكُمْ . وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) .. كَذَلِكَ (جَعَلْنَا) . وَكَفَى بِرَبِّكَ . (٣١)
. لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ..كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (وَرَتَّلْنَاهُ) (٣٢) ﴾ الفرقان. {٤١٧}

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. ثُمَّ (جَعَلْنَا) الشَّمْسَ (٤٥) ﴾ الفرقان {٤١٧}

﴿ وَلَوْ (شِئْنَا لَبَعَثْنَا) .. (٥١). وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ..(٥٥) ﴾الفرقان {٤١٧}

﴿ وَلَقَدْ (فَتَنَّا) الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا . (٣) ﴾العنكبوت {٤١٨}

﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ .. وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ العنكبوت {٤١٨}

	﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا .. وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩).. ﴾ الأحزاب{٤١٨} ﴿ (فَأَخَذْتُهُمْ) . (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ..(٦) ﴾ غافر. {٤١٨} ﴿ يُلْحِدُونَ فِي (آيَاتِنَا) لَا يَخْفَوْنَ (عَلَيْنَا) ..اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ (٤٠) ﴾ فصلت {٤١٨} ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى . وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ..(٤٥)... سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا .. أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ فصلت. {٤١٨} ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا..وَرَفَعْنَا ..وَرَحْمَتُ رَبِّكَ (٣٢) ﴾ الزخرف{٤١٩} ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا .. (٣٦) ﴾ الزخرف. {٤١٩} ﴿ تِلْكَ آيَاتُ (اللَّهِ) (نَتْلُوهَا) . فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ (اللَّهِ) . (٦) ﴾ الجاثية {٤١٩} ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ .. (١٨) لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ .. وَاللَّهُ وَلِيُّ (١٩) ﴾ الجاثية {٤١٩} ﴿ هَذَا كِتَابُنَا ..إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ..(٢٩).فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ (٣٠) ﴾الجاثية{٤١٩}
٤٢٠	نماذج أخرى متنوعة عن الالتفات ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ. (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ ﴾ الأحقاف. {٤٢٠} ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ..كَذَلِكَ نَجْزِي (٢٥) ﴾ الأحقاف. {٤٢٠} ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا .. وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ .. (٢٧) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الأحقاف {٤٢٠} ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ (بِاللَّهِ) وَرَسُولِهِ (فَإِنَّا أَعْتَدْنَا) . (١٣)وَلِلَّهِ.. ﴾ الفتح {٤٢٠} ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ (رَبِّكَ) الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ الواقعة {٤٢٠} ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ .ا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ .. (١٧).. مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ الحديد. {٤٢٠} ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ.(٢٤) لَقَدْ (أَرْسَلْنَا) .(وَأَنْزَلْنَا).. وَلِيَعْلَمَ (اللَّهُ) ﴾الحديد{٤٢٠} ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً.. مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..فَآتَيْنَا (٢٧) ﴾ الحديد{٤٢١} ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا .. وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ .. (٥) ﴾المجادلة{٤٢١} ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ (رَبِّهِمْ) فَأَخَذَهُمْ . (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ الحاقة {٤٢١} ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ ((رَبِّهِ)) يَسْلُكْهُ . (١٧) ﴾ الجن {٤٢٢} ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ..(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ الإنسان {٤٢٢} ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ((بَدَّلْنَا)) أَمْثَالَهُمْ . (٢٨) .. فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى ((رَبِّهِ)) سَبِيلًا (٢٩).... فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى ((رَبِّهِ)) مَآبًا (٣٩) إِنَّا ((أَنْذَرْنَاكُمْ)) عَذَابًا . ﴾ النبأ {٤٢٣} ﴿ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ (٣٨) ..اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ ﴾النبأ{٤٢٣} ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ (١) ..سَنُقْرِئُكَ .(٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ..(٧) وَنُيَسِّرُكَ ﴾الأعلى{٤٢٣} ﴿ ((وَرَفَعْنَا)) لَكَ ذِكْرَكَ (٤) .. وَإِلَى ((رَبِّكَ)) فَارْغَبْ (٨) ﴾ الشرح {٤٢٥} ﴿ (لَقَدْ ((خَلَقْنَا)) الْإِنْسَانَ ... (٤) ثُمَّ (رَدَدْنَاهُ).. أَلَيْسَ اللَّهُ ﴾.التين {٤٢٥}

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) ﴾العلق{٤٢٥} ﴿ قَالَ رَبِّي . (٤).. (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ . فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ .. (٧) ﴾الأنبياء {٤٢٧} (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ ..(٩) لَقَدْ ((أَنْزَلْنَا)) إِلَيْكُمْ ..أَفَلَا تَعْقِلُونَ الأنبياء{٤٣٠} ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ (آيَةً) .. (٥٠) ﴾ المؤمنون {٤٣٠} ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) ﴾ المؤمنون {٤٣١} ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) ﴾ المؤمنون. {٤٣٢} ﴿ قَالَ كَلَّا (فَاذْهَبَا) بِآيَاتِنَا إِنَّا (مَعَكُمْ) مُسْتَمِعُونَ (١٥) ﴾الشعراء﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) ﴾ {٤٣٥} ﴿ (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾ الشعراء {٤٣٦} ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. ﴾ الروم {٤٣٨} ﴿ مَنْ كَفَرَ (فَعَلَيْهِ) كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (فَلِأَنْفُسِهِمْ) يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ الروم{٤٣٩} ﴿ (إِذِ الْمُجْرِمُونَ) نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ السَّجْدَة: ١٢ {٤٤٢} ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ (الَّذِينَ كَفَرُوا) .أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ..فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ .(٢٠) ﴾ الأحقاف{٤٤٣} ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ .. ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً .. (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا (آتَيْنَاهُمْ) ((فَتَمَتَّعُوا)) (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا .. (٣٥) ﴾ {٤٤٣} ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا (إِنَّكُمْ) عَائِدُونَ (١٥) ﴾ الدخان{٤٤٥} ﴿ (ثُمَّ (ذَهَبَ) إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى (لَكَ) فَأَوْلَى (٣٤) ﴾القيامة {٤٤٥} ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... (١٧) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ .. (١٩) ﴾. {٤٤٦} ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ (يَشْتَرِي) لَهْوَ الْحَدِيثِ (لِيُضِلَّ) ..(أُولَئِكَ) لَهُمْ .(٦) ﴾لقمان {٤٤٧} ﴿ وَلَمَنِ (انْتَصَرَ) بَعْدَ ظُلْمِهِ (فَأُولَئِكَ) مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) ﴾ الشورى. {٤٤٧} ﴿ (ذُقْ (إِنَّكَ أَنْتَ) الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا (مَا كُنْتُمْ) بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾ {٤٤٧} ﴿ قَالَ (إِنِّي) تُبْتُ (إِلَيْكَ) . (١٥) (أُولَئِكَ) الَّذِينَ (نَتَقَبَّلُ) عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا (وَنَتَجَاوَزُ) عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ .. (١٦) ﴾الأحقاف {٤٤٨} ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا . (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ..(٤٠) ﴾ق {٤٤٩} ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) .. إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ (١١) ﴾ العاديات {٤٥٢} ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ((فَهُوَ)) .. فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .وَنَحْشُرُهُمْ (٩٧) ﴾ الإسراء {٤٥٥} ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ (عَلَيْهِمُ) الذِّلَّةُ ..(٦١) ﴾ البقرة {٤٥٥}	
ومن أمثلة الإظهار في مقام الإضمار قوله تعالى ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ..(٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ التوبه {٤٥٦} ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ (١٤٣) ﴾البقرة {٤٥٧} ﴿ وَاعْلَمُوا (أَنَّكُمْ) غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي (الْكَافِرِينَ) (٢) ﴾ التوبة {٤٥٧}	٤٥٦

﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ** أَوْلِيَاءَ (**فَاللَّهُ**) **هُوَ الْوَلِيُّ** ..(٩) ﴾ {٤٥٧} ﴿ **فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** (٩٦) ﴾ التوبة {٤٥٧} ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ..**بِالْمُؤْمِنِينَ** رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨) ﴾التوبة {٤٥٨} ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَهُوَ . (١٢٩) ﴾ **التوبة.** {٤٥٨} ﴿ **وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ** بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. **فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ** (٤٦) ﴾ يونس {٤٥٨} ﴿ وَيَقُولُ **الَّذِينَ كَفَرُوا** لَوْلَا **أُنْزِلَ عَلَيْهِ** آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ **إِنَّمَا أَنْتَ** مُنْذِرٌ(٧) ﴾ الرعد {٤٥٩} ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا **وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** (٧) أَلَّا تَطْغَوْا **فِي الْمِيزَانِ** (٨) (٩) ﴾ الرحمن {٤٥٩} ﴿ هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ **يَنْصُرُكُمْ** .. **إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ** (٢٠)الملك {٤٧٠}{٤٧١}	
خطاب .. غيبة ﴿ **قَالُوا** .. **وَقَالُوا** مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** لِلْحَقِّ ل.(٤٣) ﴾ {٤٦٢} ﴿ قُلْ **أَطِيعُوا** اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.. **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ** (٥٤) ﴾. {٤٦٢} ﴿ وَيَوْمَ (**يُرْجَعُونَ**) **إِلَيْهِ** فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا **وَاللَّهُ** بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾ **النور** {٤٦٢} ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ **بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ** (**اللَّهُ**) يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ (٢٠) ﴾العنكبوت {٤٦٣} ﴿ وَإِذَا **أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً** فَرِحُوا بِهَا **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ** (٣٦) ﴾ **الروم** {٤٦٦} ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُ** عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ **بِإِذْنِ رَبِّهِ** وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ **عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ**...(١٢) .. وَقَلِيلٌ **مِنْ عِبَادِيَ** الشَّكُورُ(١٣) ﴾ سبأ {٤٦٨} ﴿ **فَإِذَا هُمْ** جَمِيعٌ لَدَيْنَا (٥٣).. **وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (٥٤) ﴾. يس {٤٦٨} ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُ** عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ **بِإِذْنِ رَبِّهِ** وَمَنْ يَزِغْ **مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ** ...(١٢) .. **وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**(١٣) ﴾ {٤٦٨} ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي**.. (٨) **خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ** . (٩) ﴾ ص. {٤٦٩} ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ** .. **فَاعْبُدِ اللَّهَ** . (٢)... ﴾. الزمر {٤٦٩} ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ** بِالْخُنَّسِ (١٥) ..**ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ** (٢٠) ﴾ التكوير {٤٧٠} ﴿ (**ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ** .... **فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**(٣٥) ﴾ {٤٧٢} ﴿ **مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ** .. (٥٧) **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ** ..(٥٨) ﴾الذاريات {٤٧٢} ﴿ **ثُمَّ** (**إِنَّكُمْ** .فَمَالِئُونَ(**مِنْهَا**) **الْبُطُونَ** (٥٣) ..**هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ** (٥٦) ﴾الواقعة {٤٧٤} ﴿ (**بَلَى إِنَّ**((**رَبَّهُ**)) . (١٥) **فَلَا** ((**أُقْسِمُ**)). (١٦) **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ** (١٩) **فَمَا لَهُمْ** لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا **قُرِئَ عَلَيْهِمُ** الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ **الَّذِينَ كَفَرُوا** يُكَذِّبُونَ (٢٢) ((**وَاللَّهُ**)) أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) ﴾ {٤٧٤} ﴿ (وَهُوَ الَّذِي.. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ (١٦٥) ﴾ **الأنعام** {٤٧٤} ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ **مِنْ رَبِّكَ** لَيَقُولُنَّ. أَوَلَيْسَ **اللَّهُ بِأَعْلَمَ** ..(١٠) ﴾العنكبوت {٤٧٥} ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ **إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ** (٣٤) ﴾ فاطر {٤٧٦}	٤٦٢

﴿ لَا (أَعْبُدُ) مَا (تَعْبُدُونَ) (٢) وَلَا (أَنْتُمْ عَابِدُونَ) مَا (أَعْبُدُ) (٣) ﴾ {٤٧٧} ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ (**أَيْقَاظًا**) **وَهُمْ** (**رُقُودٌ**) .. **وَكَلْبُهُمْ** (**بَاسِطٌ**)..(١٨) ﴾ الكهف {٥٠٣}	
العدول فى أسماء الإشارة والأسماء الموصولة وهو باب لطيف من أبواب الالتفات نوضحه ببعض الأمثلة التالية : ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ((**مَا هَذَا**)) بَشَرًا (٣١) قَالَتْ ((**فَذَلِكُنَّ**)) ﴾ يوسف{ ٤٧٩} ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ **غَيْرَ**((**الَّذِي**)) تَقُولُ وَاللَّهُ **يَكْتُبُ**((**مَا**)) يُبَيِّتُونَ . (٨١) ﴾. ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ (**مَا**) **وَصَّى** بِهِ نُوحًا (**وَالَّذِي**) **أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** (**وَمَا**) **وَصَّيْنَا بِهِ** إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى .. (١٣) ﴾ الشورى {٤٨٠}	٤٧٩
العدول فى حروف الجر والعطف ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ **مِنْهَا تَأْكُلُونَ** (٧٣) ﴾ الزخرف. {٤٨٣} ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ **وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** (٢١) ﴾ المؤمنون {٤٨٣} ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) **مَا أَنْتَ إِلَّا** بَشَرٌ ..(١٥٤) ﴾الشعراء {٤٨٨} ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) (**وَمَا**) **أَنْتَ إِلَّا** بَشَرٌ (١٨٦) ﴾الشعراء {٤٨٨}	٤٨٣
التَّضْمِينُ. ويعتبره كثير من العلماء لوناً من ألوان الالتفات ﴿ إِنْ كَادَتْ **لَتُبْدِي**(**بِهِ**) لَوْلَا أَنْ **رَبَطْنَا** (**عَلَى**) قَلْبِهَا (١٠) ﴾ القصص {٤٩٤} ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا .**لَوْتُسَوَّى بِهِمُ** الْأَرْضُ .. (٤٢) ﴾ **النساء** {٤٩٧} ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ ((**لَعَلَى**)) **هُدًى** أَوْ((**فِي**)) **ضَلَالٍ** مُبِينٍ (٢٤) ﴾ **سبأ** {٤٩٨} ﴿ **إِذَا** (**اكْتَالُوا**) (**عَلَى**) النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ **وَإِذَا** (**كَالُوهُمْ**) .. ﴾المطففين {٥٠٠}	٤٩٢
نموذج آخر : العدول و (الالتفات) عن الكلمة لمرادفها ﴿ وَجَعَلَ **فِيها** (**سِراجاً**) **وَقَمَراً** (**مُنِيراً**) ﴾ الفرقان {٥٠٤} ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ** الشَّمْسَ (**ضِيَاءً**) وَالْقَمَرَ (**نُورًا**) .. (٥) ﴾ يونس. {٥٠٤} ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ **فِي** جَنَّاتٍ **وَنَهَرٍ** (٥٤) ﴾ القمر. {٥٠٦}	٥٠٤
والآن مع بعض النماذج من بعض السور الكريمة	٥٠٨
وقفات توضيحية من سورة إبراهيم ﴿ كِتَابٌ **أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** .. **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** إِلَى صِرَاطِ **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**(١) **اللَّهِ الَّذِي** (٢) ﴾ إبراهيم ﴿ كِتَابٌ **أُنْزِلَ إِلَيْكَ** فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ **حَرَجٌ مِنْهُ** .(٢) ﴾ الأعراف {٥٠٩} ﴿ اذْكُرُوا **نِعْمَةَ اللَّهِ** عَلَيْكُمْ ..وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ (**مِنْ رَبِّكُمْ**) **عَظِيمٌ** (٦) ﴾ {٥١٣} ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا** مُوسَى بِآيَاتِنَا ..وَذَكِّرْهُمْ **بِأَيَّامِ اللَّهِ** . (٥) ﴾. {٥١٣}	٥٠٩

﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ .. (١٩) .. وَبَرَزُوا لِلَّهِ ..(٢١) ﴾ {٥١٤} ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ (مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ) وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ (٣٨) ﴾ {٥١٤} ﴿ رَبِّ اجْعَلْ.. (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ .. (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي .. (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ .. (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي..(٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي .. (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي .. (٤١) ﴾ {٥١٥}	
بعض الوقفات مع آيات من سورة النحل ﴿ لِيَكْفُرُوا .. فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ . تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ {٥١٧} ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ . وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ . .. أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)) ﴾ ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي (بُطُونِهِ) .(٦٦) تَتَّخِذُونَ (مِنْهُ) سَكَرًا .. (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ..(٦٨) ﴾ {٥١٧}{٥١٨} وغيرها	٥١٧
نماذج من سورة الإسراء	٥٢١
وقفات مع سورة الشورى (الآية من ١ : ١٠) (١٤ : ٥٢) وقفة خاصة مع قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا – وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ – ﴾ {٥٣١}	٥٢٨
سورة الزخرف ونماذج متنوعة	٥٤٠
سورة الدخان ونماذج متنوعة	٥٤٩
سورة الجاثية ونماذج متنوعة	٥٥٣
سورة الفتح ونماذج متنوعة	٥٥٥
لونٌ آخر من ألوان الالتفات (البناء النحوي) التغيير فى الشكل الإعرابى للكلمة ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا(٤٤) ﴾الأعراف {٥٥٨} ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ﴾ آل عمران {٥٥٩} ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (فَضَرْبَ) الرِّقَابِ .. (٤) ﴾ محمد {٥٦١} ﴿ قَالُوا (سَلَامًا) قَالَ (سَلَامٌ).. (٦٩)) ﴾ هود (٥٦٢) ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾لشعراء {٥٦٢}	٥٥٨
﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ المسد {٥٦٩} ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ .. وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ النساء{٥٧٠} ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ البقرة ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ الحج﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ المائدة:. {٥٧٥} ﴿ .أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (وَرَسُولُهُ) .. (٣) ﴾ التوبة {٥٨٣} ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾التوبة {٥٨٤}	٥٦٤

ومن العدول النحوى والصرفى ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا (٣٧) ﴾ آل عمران) {٥٨٥} ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ {٥٨٦} ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) ﴾ النساء {٥٨٦} ﴿ إِنَّا (كُلَّ) شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ القمر. {٥٨٩} ﴿ (وَكُلَّ) شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) ﴾ يس. {٥٨٩} ﴿ (وَكُلُّ) شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) ﴾ القمر {٥٨٩} ﴿ الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ (صَافَّاتٍ) (وَيَقْبِضْنَ) مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ .. (١٩) ﴾ الملك {٥٩١} ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ . وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ . (٣٣) ﴾ الأنفال {٥٩٢} ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ (وَاللَّهُ) أَحَقُّ أَنْ .. (٣٧) ﴾ الأحزاب. {٥٩٦}	٥٨٥
أمثلة متنوعة ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ (وَاللَّهُ) أَحَقُّ أَنْ .. (٣٧) ﴾ الأحزاب. {٥٩٦} ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ (فَاللَّهُ) أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾ التوبة {٥٩٦} ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ (وَلَدِهِ) وَلَا (مَوْلُودٌ) هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ..(٣٣) ﴾ لقمان {٥٩٨} ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ (وَخَلَقَهُمْ) (وَخَرَقُوا) لَهُ ..(١٠٠) ﴾ (الأنعام) {٦٠٢}	٥٩٦
حسن الختام : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.. (٣)) المائدة {٦٠٣}	٦٠٣

****

من مؤلفات دكتور: سامح القليني

١- موسوعة الجلال والجمال في (رسم الكلمة) وعلاقته بالجرْس والنظم
(الطبعة الخامسة ٢ مجلد ١٢٢ صفحة)

٢- موسوعة (إعجاز التكرار ومتشابه النظم في قصص القرآن الكريم)
(٤ مجلد)

٣- الجلال والجمال في (جرس الكلمة والإعجاز الصوتي في القرآن الكريم)

٤- الجلال والجمال في (أسلوب الالتفات في القرآن الكريم)

٥- أسئلة القراء وأجوبتها حول (الجلال والجمال في القرآن الكريم)

٦- جلال النظم وجمال التشريع في ضوء آيات النسخ في القرآن الكريم

٧- دعوى التحريف في القرآن الكريم بين الوهم والحقيقة

وسلسلة مقارنة الأديان

١- حديث النبوءات والبحث عن يسوع

٢- محمد والمسيح عليهما السلام والبحث عن الحقيقة

٣- وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار

٤- فلسفة الغفران بين الإسلام والعقائد الأخرى

وكلها تطلب من مكتبة وهبة .. ومكتبة دار الصحابة للتراث ..
والمكتبات العامة الأخرى